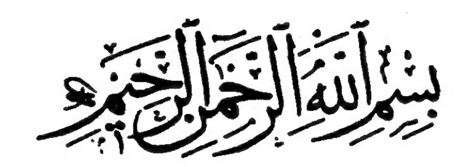


تأليف

محمد طاهر الكردي المكي

الجزء الخامس

طبع على نفقة
معالي الدكتور عبد الملك بن دهيش

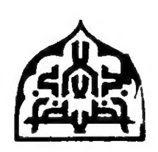


الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

ويطلب من مكتبة النهضة الحديثة
مكة المكرمة هاتف ٥٧٤٤٥٩٥





للطباعة والنشر والتوزيع
ص ب: ١٣/٦١٤١
بيروت - لبنان


التاريخ القويم
لمكة وبيت الله الكريم



صيغة الدعاء بالمسجد الحرام لملك الحجاز سابقاً

بعد أن انقضى حكم الأتراك من الحجاز ، واستقل الشريف حسين بن علي بالحجاز ، سنة (١٣٣٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف ، تقرر أن يدعى له في خطبة الجمعة فوق منبر المسجد الحرام بدعاء خاص وإليك صيغته :

قال الغازي في الجزء الثالث من تاريخه : وفي سنة (١٣٣٦) تقرر الدعاء في خطبة الجمعة بعد الترضية على الآل والصحب بهذا العنوان «اللهم وقدّس أرواح الأئمة المجتهدين ، الذين قضوا بالحق وبه كانوا عاملين ، اللهم أدم نصرك وعونك وأيد حفظك وصونك ، لعبدك وابن عبدك ، الخاضع لجلالك ومجدك ، حامي بلدك الأمين ، ومدينة جدة سيد المرسلين ، شريف مكة وأميرها ، وملك البلاد العربية قرة كل عين سيدنا ومولانا الشريف الحسين ، ابن سيدنا المرحوم الشريف علي بن محمد بن عبد المعين بن عون ، وكن له حافظاً وأميناً ، وناصراً ومعيناً ، ووفقه اللهم لما فيه صلاح البلاد والعباد ، وشؤون من منّ بَرّك وبحرك من أمة سيدنا محمد أجمعين ، على ما تحبه وترضاه ، اللهم أصلح جميع ولاة المسلمين ، وأهلك الكفرة والمبتدعة والمشركين ، وكل من أراد السوء بعبادك المؤمنين ، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، في مشارق الأرض ومغاربها آمين يا رب العالمين .

انتهى من تاريخ الغازي . ونحن أيضاً كنا نسمع حال الصغر هذا الدعاء ، فرحم الله الغازي الذي كان يسكن معنا بباب الزيادة بمكة ، وكان يقيد كل شيء يراه في تاريخه المذكور .

النوم في المسجد الحرام

لا بأس بالنوم في المساجد بشرط أن لا يحصل ضرر من ذلك لأحد ومع مراعاة حرمتها ، كأن لا ينام وقد مدّ رجليه إلى القبلة ، وأن لا ينام في البقعة التي يكثر فيها المصلون ، وأن لا ينام وليس عليه سروال خوفاً من انكشاف عورته ، وأن لا ينام في مكان يحصل منه ضرر لغيره ، فالنوم فيها مع أمن الضرر ومراعاة الحرمة لا بأس به .

روى الإمام الأزرقي في تاريخه عن عمرو بن دينار قال : كنا ننام في المسجد الحرام زمان ابن الزبير ، وعن ابن جريج قال : قلت لعطاء : أتكره النوم في المسجد الحرام ؟ قال : لا ، بل أحبه . انتهى منه .

وعن ابن عمر أنه كان ينام وهو شاب عزب لا أهل له في مسجد رسول الله ﷺ . رواه البخاري وأبو داود والنسائي وأحمد ولفظه : كنا في زمن رسول الله ﷺ ننام في المسجد ونقيل فيه ، والترمذي وصححه ولفظه : كنا ننام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ ونحن شباب . رواه مسلم بمعناه ، وله في رواية : أبيت في المسجد .

نقول : إن نوم الصحابة رضي الله تعالى عنهم في مسجد رسول الله ﷺ غير نومنا نحن في المساجد ، فأولئك كانوا يحرصون على أداء الصلوات خلف رسول الله ﷺ لذلك كانوا ينامون في مسجده حتى إذا حان وقت الصلاة قاموا إليها . فإذا قصد الإنسان بالنوم في المسجد إدراك صلاة الجماعة عند إرادة الصلاة كان له في ذلك الأجر والثواب ، لأنه لو نام في غير المسجد قد لا يجد من يوقظه لأداء الصلاة ، فما دام الإنسان يراعي عند النوم في المسجد مراعاة حرمته فلا بأس عندئذ من نومه فيه حتى يأخذ لنفسه قسطاً من الراحة خصوصاً إذا كان لا يجد له مأوى . نسأل الله التوفيق للخيرات والمبرّات آمين .

الشحاذة في المسجد الحرام

قال في رسالة « كشف الزور والبهتان من صنعة بني ساسان » ما يأتي : اعلم أن هذه الصنعة السفلة الدنية المحرمة شرعاً تسمى بالشحاتة وبالشحاذَة وبالكُدْيَة وبصنعة بني ساسان وبصنعة الشيخ فَلْحَس .

قال في شفاء الغليل للشهاب الخفاجي : شحّات اسم للسائل ، وسموا شحاتة بالمثلثة وصوابه شحّاذ وشِحاذة من شحَذَ السيف صقله شبه به المُلِحُّ ، قاله أبو منصور في الذيل لكن في شرح الدرة قال إنه حسن على البدل كما قالوا جثا وجذا وقثَمْتُ الشيء وقذَمته ولا بِدْع في أمثاله .

وقال الشيخ أبو الوفا نصر الهوريني : أما شحّاتٌ بالمثناة فهو إبدال من الذال أو المثلثة ولا مانع منه في القياس .

وقال فيه أيضاً كدّي بكاف مفتوحة ودال مهملة مشددة بمعنى سأل وأكثر أهل الشرق يقولون المكدية للسؤال الطوافين على البلاد من قولك حضر فأكدي إذا بلغ الكدية و لم ينبط ماء . انتهى .

وأما صنعة بني ساسان فقال فيه أيضاً : إنهم طائفة كذابون محتالون على الشحاتة بكل ما أمكنهم من الكذب والحيل والغدر ودعوى النسب الكاذب والبكاء المتصنع وقد ذكرهم الحريري في آخر المقامات وبينهم وبين حيلهم وأحسن من وصف بني ساسان وبين حيلهم وأكاذيبهم أبو دُلف الخوزجي في قصيدته التي لم يسبق على منوالها أنظرها في يتيمة الدهر في الجزء صفحة ١٧٦ .

وأما تسميتهم ببني فلحس فقال في المزهران أنه فلحسا أسألُ رجل مُلح في العرب كان يسأل لنفسه ثم يسأل لزوجته ثم يسأل لابنه ثم يسأل لبنته ثم وثم وثم إلى أن يسأل لحماره فلذلك ضرب به المثل في السفالة والنذالة وكل من شابهه يسمى ببني فلحس .

وعند عرب العالية يعني عرب البحرين والقطيف والكويت والحسا وما والاها تسمى الشحاتة بالطرارة والمفرد طرّار ولعلها محرفة في الاشتقاق عن الاضطرار . انتهى من الرسالة المذكورة .

ثم أورد صاحب الرسالة بعض الأحاديث الواردة في تحريم السؤال والشحاتة ، وتكلم عن أحوال الشحاتين وقصصهم وبعض حيلهم ما أحببنا سردها حتى لا يطول بنا الكلام ، ونظن أن هذه الرسالة هي الأولى من نوعها ، فهي على صغر حجمها قد أوفت بالمراد وأتت بالحكمة والسداد ، كما وهي مطبوعة سنة (١٣٠٥) هجرية .

فالشحاذة ، بالذال المعجمة ، من أقبح وأرذل العادات ، ويكفي أن صاحبها ممقوت مطرود من المجتمع الإنساني ، والشحاذة غير السائل ، فكل شحاذ سائل ولا عكس ، لأن السائل يكون مضطراً للسؤال فإذا وصل إلى حاجته استكفى وقنع ، وأما الشحاذ فقد نبذ الحياء واتخذ السؤال أبدية لا يتركها إلا إذا تركته الحياة ، وكلما أعطى نشط في الشحاذة وازداد في الطمع ، وكم من الشحاذين من له ثروة طائلة وأموال عظيمة ودور وعقارات متعددة .

وللشحاذة في بعض البلدان كمصر أصول وأنظمة يعرفها أصحابها ويمشون بموجبها ولهم رئيس ، ولكل قسم منهم جهة ومحلات وأمكنة مخصوصة يجلسون

فيها للسؤال، ولهم في صنعة الشحاذة طرق وكيفيات يعجز عنها إبليس ليستدرّوا بها عطف الناس وشفقتهم.

ولقد ورد النهي عن السؤال والشحاذة ففي الصحيحين عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: "لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يَغْدُوَ إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس".

وروى البخاري عن الزبير رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لأن يأخذ أحدكم ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكفّ الله بها وجهه -وفي رواية-: فيستعين بثمنها خير له أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه".

وجاء في الحديث الصحيح: "ما تزال المسألة بالعبد حتى يلقي الله وما في وجهه مُزْعة"، بضم الميم وسكون الزاي أي: ليس في وجهه قطعة لحم.

نسأل الله السلامة والعافية مما تبلى به كثيراً من خلقه.

قال شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي رحمه الله تعالى في شرحه لكتابه "زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم" عند الحديث المتقدم: لأن يأخذ أحدكم حبله... إلخ ما يأتي:

واعلم أن الأصل في المسألة عدم الجواز إلا لأحد ثلاثة مذكورين في حديث أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة، ولفظه بعد ذكر إسناده عن قبيصة بن مخارق الهلالي، قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها. فقال: أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها، قال ثم قال: يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال: سداداً من عيش، ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال: سداداً من عيش، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتاً يأكلها صاحبها سحتاً. اهـ بلفظه.

قال النووي : الحمالة بفتح الحاء ، هي المال الذي يتحمله الإنسان أي يستدينه ، ويدفعه في إصلاح ذات البين كالإصلاح بين قبيلتين ونحو ذلك وإنما تحل المسالة ويعطى من الزكاة بشرط أن يستدين لغير معصية .

وقال أيضاً : معنى قوله : قواماً أو سداداً القوام والسداد بكسر القاف والسين وهما بمعنى واحد وهو ما يغني من الشيء وتسد به الحاجة وكل شيء سددت به شيئاً فهو سداد بالكسر ومنه قولهم سداد من عوز ومعنى حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا ، أي يقومون بأمر صاحب الفاقة ، فيقولون : لقد أصابته فاقة والحجا بالقصر العقل . وإنما قال عليه الصلاة والسلام من قومه لأنهم من أهل الخبرة بباطنه . والمال مما يخفى في العادة فلا يعلمه إلا من كان خبيراً بصاحبه . وإنما شرط الحجا تنبيهاً على أنه يشترط في الشاهد التيقظ ، فلا تقبل الشهادة من مغفل . وأما إشهاد الثلاثة فقال الجمهور : لا يشترط بل يقبل من عدلين كسائر الشهادات غير الزنى وحمل الحديث على الاستحباب . وقال بعض الشافعية : يشترط إشهاد ثلاثة في بينة الأسعار فلا يقبل إلا من ثلاثة لظاهر هذا الحديث . وهذا كله محمول على من عرف له مال فلا يقبل قوله في تلفه ولا عسار إلا ببينة ، وأما من لم يعرف له مال فالقول قوله في عدم المال . وقوله عليه الصلاة والسلام: فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتاً... إلخ هو في جميع نسخ مسلم هكذا بالنصب كما قاله النووي ، ورواية غير مسلم سحتٌ بالرفع وهو واضح ، قال النووي : ورواية مسلم صحيحة وفيه إضمار أي اعتقده سحتاً أو يؤكل سحتاً وا لله أعلم . انتهى ملخصاً منه .

انتهى من شرح زاد المسلم .

فإن كانت الشحاذة قبيحة في أي مكان كانت ، فإنها أقبح ما تكون في المساجد وأشد قبحاً في المساجد الثلاث "المسجدين الحرامين والمسجد الأقصى" .

وأسمج ما يكون الشحاذ إذا كان قذراً ووقحاً وقبيح المنظر وكريه الرائحة إن طردته لا يذهب وإن زجرته لا ينصرف ولا يتأثر ، ولقد ابتلى المسجدان الحرامان بمكة والمدينة بمثل هذا الصنف القذر والنوع الوقح من الشحاذين ، في موسم الحج ، فتراهم يقفون على أبواب المسجد في صفين عن اليمين وعن الشمال بحالة قذرة يسدّون الطريق على الناس بل يؤذونهم بكثرة إلحاحهم في الطلب ويمسكون ثيابهم النظيفة بأيديهم القذرة الوسخة ، ومهما زجروهم وطردوهم لا ينصرفون ، فهذا غير جائز شرعاً ولا يستساغ ذوقاً ، ونكون عرضة للانتقاد في مواسم الحج ، فمثل

هؤلاء لا يتركون هذه الصنعة بالوعظ والإرشاد وإنما يجبرون على تركها بالقوة والقهر .

فحبذا لو أن بعض الجهات الرسمية نظرت إلى علاج حاسم لهؤلاء ، فمن كان منهم صالحاً لبعض الأعمال جعلته يشتغل فيما هو قادر عليه ، ومن كان عاجزاً جعلته في دار العجزة والضعفاء ، ومن كان مريضاً عالجته مما أصابه ، فكل صنف منهم له حكم خاص في الشريعة الإسلامية الغراء .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما فيه صلاح العباد والبلاد آمين .

الإيقاد في المسجدين الحرمين

بمناسبة تطور الإضاءة والتنوير في المساجد والمنازل في جميع أقطار الأرض ، نذكر هنا تطورات الإضاءة في المسجدين الحرامين وبالأخص في المسجد الحرام بمكة المشرفة لأن تاريخنا هذا يتعلق بها فقط . فلقد كان الناس في العصور الماضية يكتفون ليلاً بنور القمر ثم يستضيئون بإشعال الحطب والنار ثم بسعف النخل وغصون الأشجار اليابسة ، ثم صاروا يستضيئون بالشموع وبالزيت ، ثم بالغاز بالكهرباء في عصرنا الحاضر . والله تعالى أعلم بما سيحدث في مستقبل الأيام . وفي ذكر الإيقاد بالنار يقول الشاعر العربي القديم : "كأنه علم في رأسه نار" ويقول أحدهم في الذم :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النار

وها نحن نذكر أولاً نبذة صغيرة في الإيقاد بالمدينة المنورة في صدر الإسلام ، ثم نذكر بالتفصيل الإيقاد في المسجد الحرام بمكة المشرفة ، فنقول وبالله تعالى التوفيق ، فهو الهادي إلى سواء الطريق .

إيقاد الشموع في المدينة على عهده ﷺ

جاء في كتاب التراتيب الإدارية في الجزء الأول ما نصه : في السنن عن ابن مسعود قال : رأيت ونحن في غزوة تبوك شعلة من نار في ناحية العسكر فأتبعها أنظر إليها فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وإذا عبدالله ذو البجادين المزني قد مات وإذا هم حفروا له ورسول الله ﷺ في حفرته . وفي جامع الترمذي في باب

الدغن بالليل عن ابن عباس أن النبي ﷺ دخل قبراً ليلاً فأسرج له سراج . . . الحديث . قال الحافظ السيوطي قوله : شعلة نار أي ضوء الشمعة وذلك أنه أجاب من سأله هل الشمع وقد عنده ﷺ وأفرد ذلك برسالة سماها مسامرة السموع في ضوء الشموع . انظر الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيثمي ص١٢١ والسيرة الحلبية . وفي باب الصلاة على الفراش ، من الصحيح عن عائشة ، قالت : كنت أنام بين يدي النبي ﷺ ورجلاي في قبلته ، فإذا سجد غمزني ، فقبضت رجلي ، فإذا قام بسطتها . قالت : والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح . قال الحافظ في الفتح ، وقولها : والبيوت ليس فيها يومذ مصابيح ، كأنها أرادت به الاعتذار عن نومها على تلك الصفة . قال ابن بطال : وفيه إشعار بأنهم صاروا بعد ذلك يستصبحون هـ ص٤١٤ من الجزء الأول ، وفي السيرة الشامية جاء أنه ﷺ كان لا يجلس في بيت مظلم إلا أسرج له فيه أخرج البزار وأبو الحسن بن الضحاك عن عائشة كان ﷺ لا يجلس في بيت مظلم إلا أسرج له فيه سراج ، وأخرج ابن سعد عنهما نحوه ، وفي البيان والتبيين للجاحظ أن جذيمة الأبرش آخر ملوك قضاعة بالحيرة هو أول من رفع الشمع . وفي شرح المنهج للمنجور : أن البرزلي سئل عن جعل الثريا والقناديل في المسجد فأجاب : أن جعل الحصر ومطلق الاستصباح من باب ترفيع المساجد . وقد ورد ثواب جزيل في استصباحه . وحكى الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ... الآية﴾ . عن أنس: من أسرج في مسجد إسراجاً لم تزل الملائكة وحملة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوء . وقال : العمارة تتناول تجديد ما استرم منها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وتعظيمها واعتبارها للعبادة والذكر . وأما كثرة المصابيح في رمضان فقد طعن فيه بعض المغاربة بأنه بدعة والصواب أنه من باب ترفيع المساجد . اهـ . انظر بقيته في نوازل البرزلي وشرح المنهج ولا بد . انتهى من الكتاب المذكور .

إيقاد المساجد بالزيت في عهد النبي ﷺ

جاء في كتاب التراتيب الإدارية ص٨٤ من الجزء الأول ما نصه :

في الاستيعاب : سراج مولى تميم الداري ، قدم علي النبي ﷺ في خمسة غلمان لتميم وأنه أسرج للنبي ﷺ بقنديل الزيت ، وكانوا لا يسرجون قبل ذلك إلا سعف النخل ، فقال رسول الله ﷺ : من أسرج مسجدنا ؟ فقال تميم : غلامي

هذا ، فقال : ما اسمه؟ قال : فتح ، قال النبي ﷺ : بل اسمه سراج ، قال : فسماني رسول الله ﷺ سراجاً .

(وقلت) وخرجه الخطيب بسند ساقه في الإصابة في ترجمته ، وفيه كان يسرج مسجد رسول الله ﷺ بسعف النخل ، فقدمنا بالقناديل والزيت والحبال ، فأسرجت المسجد . راجع ترجمته في الإصابة . وترجم في الإصابة أيضاً لأبي البراد غلام تميم الداري فقال : ذكره المستغفري في الصحابة .

وأخرج من طريق محمد بن الحسن بن قتيبة عن سعيد بن زياد بن فائد عن أبيه عن جده عن أبي هند قال : حمل تميم الداري معه من الشام إلى المدينة قناديل وزيتاً ومقطاً ، فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك يوم الجمعة ، فأمر غلاماً له يقال له أبو البراد فقام فشد المقط "وهو بضم الميم وسكون القاف وهو الحبل" وعلّق القناديل وصب الماء فيها وجعل فيها المفتل ، فلما غربت الشمس أسرجها ، فخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا هو يزهر فقال : من جعل هذا؟ قالوا : تميم يا رسول الله قال : نورت الإسلام نور الله عليك في الدنيا والآخرة ، أما أنه لو كان لي ابنة لزوجتكها ، فقال نوفل بن الحرب بن عبدالمطلب : لي ابنة يا رسول الله تسمى أم المغيرة بنت نوفل فافعل فيها ما أردت ، فأنكحه إياها على المكان ، وسنده ضعيف . اهـ . وفي التجريد للذهبي : أبو البراد غلام تميم الداري ذكر في حديث منكر . اهـ .

وفي سنن ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري قال : أول من أسرج في المساجد تميم الداري ، وقد ذكر الحديث السابق عنه أيضاً عيسى بن إسماعيل الرعيني في كتابه الجامع لما في المصنفات الجوامع ، قال في تحفة الأكابر : عليه يؤخذ منه أنه إذا وردت مصابيح من عند الكفار وقد كانت معلقة في كنائسهم وعلى رؤوس صلبانهم ، جاز تعليقها في مساجد المسلمين ، ومعتمد الجواز إباحة الانتفاع بأواني أهل الكتاب كما هو مقرر في الشريعة... الخ . انظر بقيته فيها . (زقلت) . انتهى من التراتيب الإدارية .

المصابيح في المسجد الحرام وإضاءتها بالزيت

قال الغازي في تاريخه ما ملخصه : وأول من أجرى للمسجد زيتاً وقناديل معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه .

وقال الأزرقي : أول من استصبح لأهل الطواف في المسجد الحرام عقبة بن الأزرق بن عمرو الغساني وكانت داره لاصقة بالمسجد الحرام من ناحية وجه الكعبة والمسجد . مئذ ضيق ليس بين جدر المسجد وبين المقام إلا شيء يسير فكان يضع على حرف داره وجدر داره وجدر المسجد مصباحاً كبيراً يستصبح فيه فيضيء له وجه الكعبة والمقام وأعلى المسجد فلم يزل يضع ذلك على حرف داره حتى كان خالد بن عبدا لله القسري الذي كان والياً على مكة فوضع مصباح زمزم مقابل الركن الأسود وذلك في خلافة عبد الملك بن مروان .

فلما كان محمد بن سليمان على مكة في خلافة المأمون سنة ست عشرة ومائتين وضع عموداً طويلاً مقابله بحذاء الركن الغربي ، فلما ولي مكة محمد بن داود جعل عمودين طويلين أحدهما بحذاء الركن اليماني والآخر بحذاء الركن الشامي ، فلما ولي هارون الواثق با لله أمر بعمد من شبه (وهو ضرب من النحاس) طوال عشرة فجعلت حول المطاف يستصبح عليها أهل الطواف . وأمر بثمان ثريات كبار يستصبح فيها وتعلق في المسجد الحرام في كل وجه اثنتان . اهـ .

وقال في صحيفة ٣٣٠ : وقال ابن فهد في حوادث سنة ست وثلاثين وسبعمائة : وفيها جعلت الأساطين التي حول المطاف وجعل بعضها بالحجارة المنحوتة الدقيقة والباقي آخر بجصص وجعل بين كل من الأساطين خشبة ممدودة راكبة عليها وعلى المقابلة لها لأجل القناديل التي يعلق لأجل الاستضاءة حول الكعبة عوض الأخشاب التي كانت في هذا المكان على صفة الأساطين .

وقال في حوادث سنة تسع وأربعين وسبعمائة : اجتهد الأمير فارس الدين في إصلاح المسجد الحرام وجود الأعمدة المتخذة حول المطاف . انتهى .

وقال في تحصيل المرام نقلاً عن القرشي : قال عز الدين بن جماعة : والأساطين التي حول المطاف الشريف أحدثت للاستضاءة بالقناديل التي تعلق بينها بعد العشرين وسبعمائة وكانت من خشب ثم جعلت من حجارة سنة تسع وأربعين وسبعمائة ثم ثارت ريح عاصفة سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فألقتها ، ثم جددت فيها . انتهى من ذكره القرشي .

وفي درر الفرائد أن السلطان سليمان العثماني غيّر الأساطين التي حول المطاف وكانت من حجارة بأعمدة من نحاس في سنة تسعمائة واثنين وثمانين وبينهم أخشاب ممدودة لتعلق فيها القناديل حول المطاف .

ثم ذكر الغازي في صحيفة ٣٣١ وما بعدها ما يتعلق بعدد الأعمدة النحاس والرخام .

قال الغازي صحيفة ٣٣٢ ما ملخصه : أقول وقد بطل تسريح القناديل في الحرم الشريف من رابع شعبان سنة ألف وثلاثمائة وتسع وثلاثين وجعل بدله الكهرباء والأتاريك ، وعلقت المصابيح التي يظهر منها الضوء الكهربائي في المطاف الشريف اثنان وسبعون ، وفي مقام إبراهيم سبعة ، وفي الرواق الذي بجهة الصحن دائر ما يدور الحرم مائة وعشرون وفي المقام الحنفي أربعة ، وفي المقام الشافعي أيضاً أربعة . . . إلى آخر الكلام .

ثم أورد الغازي بالصحيفة المذكورة ما ذكره الشيخ حسين باسلامة في تاريخ عمارة المسجد الحرام عن إضاءة المسجد بالكهرباء وملخصه :

أن الشريف الحسين رحمه الله تعالى أتى بماكينة الكهرباء وأمر بوضعها بمدرسة أم هانئ أمام دار الحكومة . ثم في سنة (١٣٤٠) أتى بماكينة أخرى وضعت في دار بأجياد ، وكان ابتداء الإنارة بها في غرة رمضان سنة (١٣٤٠) ثم نقلت إلى المستودع الذي خلف دار الحكومة الذي يسمى سابقاً (فرن الميرى) أي محل الحبس الآن . وابتدأت الإنارة منه في ٢٨ شوال من السنة المذكورة . ثم في عصر جلالة الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود تبرع أحد التجار من أهالي رانكون بماكينة كبيرة للمسجد الحرام في سنة (١٣٤٥) وكانت الإنارة بها في غرة ذي القعدة من السنة المذكورة .

ثم في شعبان سنة (١٣٤٧) أمر جلالة الملك عبد العزيز بتجديد عموم اللمبات التي بالمسجد الحرام وبزيادتها حتى تبلغ الألف لمبة فعمل ذلك و لم يهلّ شهر رمضان من السنة المذكورة حتى صار المسجد الحرام مضاء عمومه بالكهرباء .

ثم صدر أمر جلالة الملك أيضاً في سنة (١٣٤٩) بشراء ماكينة قوية تضم إلى الماكينة الكبيرة الأولى . ثم في سنة (١٣٥٠) وضع على حجر إسماعيل شمعدانات من النحاس الأصفر وعمل على كل شمعدان منها ثلاثة أغصان وعلق على كل غصن مصباح كهربائي ، ووضع أيضاً ستة وعشرون أسطوانة في حصاوى المسجد الحرام صنعت بالإسمنت المسلح طول الأسطوانة نحو ثلاثة أمتار وعلق على الأسطوانة أربعة مصابيح كهربائية .

وفي سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وخمسين أهدى للمسجد الحرام نواب بهادر بالهند الحاج سر محمد مزمل ماكينة كهرباء عظيمة وتم تركيبها في أواخر شعبان (١٣٥٤) وأضيء بها المسجد الحرام في ابتداء شهر رمضان من السنة المذكورة .

هذا ولما عمّ إدخال الكهرباء في مكة المشرفة بواسطة المكرمين الشيخ إبراهيم الجفالي وإخوانه : أنير المسجد الحرام ومكة كلها في تاريخ (١٤) شهر صفر عام (١٣٧٣) ووضعت المراوح الكهربائية بالمسجد الحرام ليستريح الناس من الحر . وانظر مسألة الإنارة أيضاً في عنوان "إضاءة المسجد الحرام بالأتاريك والكهرباء" .

جاء في مجلة الهلال المصرية بتاريخ سنة (١٩٣٢) ميلادية عن عيدان الكبريت ما يأتي :

كان إشعال النار بواسطة ضرب الفولاذ على الحجر الصوان وفوقه قطعة من صوف أو قطن فتشتعل من الشرارة الخارجية من أثر الاحتكاك .

ثم إنه في سنة (١٨٢٩م) اخترع رجل اسمه (دوكر) من أهل ستوكتن من إنكلترا ولكنها لم تستعمل إلا في سنة (١٨٣٤م) وأول معمل تأسس لاصطناعها أسسه (روبين بارتردج) سنة (١٨٤٢م) في إنكلترا وسنة (١٨٤٥م) تأسس معمل آخر في فيينا بالنمسا . ثم كثرت معاملها في أوروبا .

تدرج الإنسان في الإضاءة

قال في صبح الأعشى : أول من حُمل معه الشمع على البغال في الليل من ملوك الديار المصرية محمد بن طُغج الإخشيدي . وكانت الشمعة تجعل على مؤخر البغل وفرّاش راكب أمامها ، وهو يلتفت في كل قليل يصلحها ، فأبدلها الملوك بعده بهذه الفوانيس التي تحمل على البغال مع الفانوسية أمام ملوك الديار المصرية في الليل .

بمناسبة إضاءة المسجد الحرام أخيراً بالكهرباء ، رأينا أن نتكلم على تدرج الإضاءة منذ بدء الخليقة إلى عصرنا هذا والله تعالى أعلم بما يكون في مستقبل الزمان . فنقول : إن النار يكون من الحطب ، والضوء المبدئي من النار ، قال الله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ قيل:

كل الشجر إلا العنّاب ، وقالوا : هو شجر المرخ والعفار فيجعل كالزنك يضرب به على المرخ . ففي الخازن فمن أراد النار قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضراوان ، يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار ، فتخرج منهما النار ، بإذن الله تعالى . وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ، فسبحان القادر على كل شيء ، فالنار كما هو يكمن في الشجر ، يكمن أيضاً في الحجر وذلك باحتكاكه بالحديد ، فهدى الله الإنسان لإيقاد ناره في بدء الخليقة ، بأن يأتي بقطعة منه نحو القماش ، فيضعه فوق الحجر ، ثم يضربه بقطعة من الحديد فتخرج منه شرارة يحترق القماش منه فيشعلون به النار وغيره . ولا تزال هذه الطريقة ، في كافة الأنحاء ، مستعملة خصوصاً في توليع السجائر وتسمى "بالولاعة" ولها أنواع وأشكال مختلفة ، ثم تدرج الإنسان إلى اختراع أعواد الكبريت للإيقاد والإشعال ، وقد كثر استعماله في زماننا وشاع شيوعاً كبيراً لرخصها وكثرتها وسهولة استعمالها .

فالإضاءة منذ بدء الخليقة إلى يومنا هذا سبعة أنواع وهي كما يلي بالترتيب :

الأول : الحطب ، وهو الوسيلة الطبيعية السهلة للإضاءة والوقود لكثرة وجود الشجر على وجه الأرض . وقد أشرنا إلى قوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ .

روى الأزرقي في تاريخه : كان قصي بن كلاب قد أوقد بالمزدلفة ناراً حيث وقف بها حتى يراها من دفع من عرفة ، وروى أيضاً عن نافع عن ابن عمر قال : كانت النار توقد على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم . اهـ . أي بالمزدلفة . وفي تاريخ الأزرقي : كان عمر بن عبد العزيز يأمر الناس ليلة هلال المحرم يوقدون النار في فجاج مكة ويضعون المصابيح للمعتمرين مخافة السرق . اهـ . هذا ولا يزال العرب إلى اليوم في البادية والجبال يوقدون النار ليلاً في أماكنهم للانتفاع بها واهتداء الضيف عليهم . وإلى هذا يشير الشاعر بقوله : « كأنه عَلَم في رأسه نار » .

الثاني : الشمعة ، وهذه أيضاً وسيلة سهلة للإضاءة تأتي في الدرجة الثانية لأن الشمع يستخرج من عسل النحل ، فيجمع على بعضه ويعمل على شكل العصا ثم يغرز بوسطه طولاً ذبالة ثم تشعل رأسها فتنير ما حولها وكانت توقد شموع العنبر بين يدي الخلفاء والأمراء ، وتختلف طولها وغلظها بحسب الحاجة وكم كان

الشعراء يتغزلون بالشموع ويقولون عنها : "إنها تلك الحبيبة الرقيقة التي يذوب جسدها في قطرات من الدموع المحرقة ولكنها تظل وفية مضيئة حتى آخر رمق من حياتها" . ويشبه الناس من يتعب نفسه لخدمة غيره ، بالشمعة تضيء للناس وتحرق نفسها . قال الأزرقي في تاريخه عند ذرع مسجد المزدلفة : والكلام على قزح وهو أكمة مرتفعة كان يوقد عليها في خلافة هارون الرشيد بالشمع ليلة المزدلفة وكانت قبل ذلك توقد عليها النار بالحطب فلما مات هارون الرشيد أمير المؤمنين كانوا يضعون عليها مصابيح كبار يسرج فيها بِفُتُلٍ جلال فكان ضوؤها يبلغ مكاناً بعيداً ثم صارت اليوم توقد عليها مصابيح صغار وفُتُلٍ رِقاقٍ ليلة المزدلفة . انتهى من الأزرقي .

نقول : والشمعة كانت توضع في آنية خاصة جوانبها كلها زجاج وأسفلها وأعلاها من الصفيح "التنك" حتى لا تطفئها الهواء وتسمى هذه الآنية "بالفانوس" وقد تفنن الناس في اختراع أنواع الفوانيس بأشكال مزخرفة بديعة قد تبلغ مئات الأنواع .

ثم بعضهم يضع في الفوانيس لمبات الكاز بدلاً من الشمع ، وبعض الفوانيس خاصة للمبات الكاز فقط وتسمى بالفوانيس الهندية ، وقد سبق أن ذكرنا التسريج بالشمع في داخل "اللاله" وقد كان الطلبة يستعملونها ليلاً عند حضورهم للدرس في المسجد الحرام . وإليك صورة بعض هذه الأنواع .

انظر: الصور أرقام ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، وهي لقمرية ، وبعض أنواع الأتاريك والفوانيس التي كان الحرم يُضاء بها قديماً ، بعضها يضاء بالقاز والبعض الآخر بالشموع .

الثالث : الزيت ، وهو أيضاً وسيلة سهلة للإضاءة تأتي في الدرجة الثالثة لأنه مستخرج من بعض الحبوب كالسمسم وبعض الثمار كالزيتون ، والإضاءة به قديمة العهد أيضاً . فقد قال الله تعالى في سورة النور : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ رُوي أن أول من استصبح الحرم فأجرى له

القناديل والزيت من بيت المال : معاوية بن أبي سفيان رضي ا لله عنه . وروى الأزرقي : أن أول من أثقب النفاطات بين الصفا والمروة في ليالي الحج وبين المأزمين –مأزمي عرفة– أمير المؤمنين أبو إسحاق المعتصم با لله الطاهر بن عبدا لله بن طاهر سنة حج في سنة تسع عشرة ومائتين ، فجرى ذلك إلى اليوم اهـ . ومعنى أثقب : أوقد ، والنفط دهن قاله في مختار الصحاح . وقال في المنجد : النفط دهن معدني سريع الاحتراق توقد به النار ويتداوى به اهـ .

وإلى الإضاءة بالزيت يشير الشاعر الفكاهي في زماننا الأستاذ محمود بيرم التونسي بقوله :

زمان يوقد المصباح فيه	بنور الزيت لا بالكهرباء
ولا تتحرك النسوان حتى	إلى المرحاض إلا بالغطاء
نعم كانت منازلنا ظلاماً	ولكن القلوب على صفاء
وكان طعامنا أبداً كثيراً	فيعرف في القصاع وفي الدلاء
زمان كان فيه لكل عين	حمار ملكه لا بالكراء
وشاء ا لله أن عشنا وجئنا	إلى زمن الملاعق والغلاء

نعم صدق وا لله هذا الشاعر الفاضل فإننا بقدر ما نتقدم في إيجاد الوسائل الكمالية الدنيوية ، نتأخر أضعاف ذلك في عاداتنا وأخلاقنا وأمورنا الدينية ، فنحن والحالة هذه يصدق علينا قول الشاعر الحكيم :

زيادة المرء في دنياه نقصان	وربحه غير محض الخير خسران

اللهم أصلح أحوالنا ويسر أمورنا ووفقنا لما تحبه وترضاه واعف عنا واغفر لنا وارحمنا . . . إلخ السورة .

الرابع : القاز ، أو الكاز أو الغاز ، وهو البترول المستخرج من الأرض وهو كالماء في اللون ، يوضع في إناء من الزجاج أو الصفيح يعمل على شكل مخصوص ، ولها رأس لولبي يدخل فيها فتيلة كالشريط عرضها من واحد سنتي إلى خمسة سنتيمترات أو أكثر حسب كبرها أو صغرها ثم تغمس الفتيلة في الإناء ويثبّت الرأس عليها ثم تشعل طرف الفتيلة الخارجة من الرأس ثم توضع عليها زجاجة خاصة ، وهذا الإناء تسمى باللمبة ولها أشكال مختلفة معروفة لدى الجميع . وهذا النوع من الإضاءة شائع في زماننا بكثرة لرخص ثمنها وسهولة الحصول عليها .

الخامس : القَمَرية ، وهي تشعل بالقاز والفتيل فقط ولها شكل واحد خاص لا يختلف أبدا طولها نحو ثلاثين سنتيمتر ، وبداخلها آلة صغيرة أسطوانية الشكل كآلة الساعات تملأ بزمْبَلَك وبغير هذه الآلة لا تشتغل .

وهذه القمرية لا تنطفئ من الهواء وليس لها زجاجة في رأسها . فالقمرية كانت شائعة الاستعمال في الحجاز إلى ما قبل ثلاثين سنة ثم بطل استعمالها بتاتاً .

السادس : الأتريك ويسمى باللُّوكْس ، وهو شائع الاستعمال كثير الذيوع في الحجاز وغير الحجاز ، وهو يشتعل بالقاز وله فتيلة خاصة منسوجة كالكيس الصغير بالخيوط الحريرية بمادة خاصة ، ونور الأتريك أبيض قوي الضوء ، وهو نوعان منه ما يعلّق في السقوف ومنه ما له قاعدة يوضع على الأرض أو على شيء مرتفع .

السابع : الكهرباء ، وهي اختراع عجيب يتولد نورها من الاحتكاك لا بالقاز ولا بالزيت ، ويرتبط بها أسلاك وترتبط بهذه لمبات عديدة من الزجاج المفرغ من الهواء وبداخله جزء صغير من سلك رفيع أرفع من الشعرة . وهذا السلك هو الذي يعطي الضوء القوي . فالكهرباء أهم مسألة أثرت في حياتنا العامة ، ولها من القوة ما لا يتصوره العقل ، وإذا مس التيار الكهربائي إنساناً قضى على حياته في الحال .

فعلى قدر قوة التيار الكهربائي تكون قوة نورها ، وليس يعادل النور الكهربائي نور آخر ، وأن آلاف المصابيح الكهربائية يمكن إنارتها أو إطفاؤها في لحظة واحدة بإدارة أزرار خاص . فالنور الكهربائي آخر ما توصل إليه العقل البشري في عصرنا الحاضر .

قال في كتاب القراءة الرشيدة في الجزء الرابع عن الكهرباء ما يأتي :

من جملة القوى العظيمة التي استخدمها الإنسان في قضاء حاجاته ومآربه روح من الأرواح الخفية وسر من أسرار الباري المبدع لا هي بالجسم فتحس ولا بالريح فتشم بل هي كالروح من أمر ربي لا يظهر منها إلا أثرها وما تأتيه من جلائل الأعمال ويزعمون أنها في كل كائن وتظهر فيه بالاحتكاك والعرك وبوسائط أخرى كمياوية غير آلية وتسيل وتجري جرياً سريعاً في بعض الأجسام وبطيئاً في غيرها ومن الأجسام ما يصدها ويوقفها فلا تتعداه تلك القوة هي الكهرباء التي استخدمت في سائر الأعمال كبيرها وصغيرها عظيمها وحقيرها وتفردت من غيرها من القوى باجتياز الأبعاد النائية وشق غمار البحار حتى لقد

أصبح بها الإنسان قادر على أن يحادث صديقه بالتلفون وبينهما برزخ بعيد المدى وأن يكاتبه بالتلغراف في لمحة مصداقاً لقول العامة : "غمض عينك وافتحها تر الأمر قد وقع" .

والكهرباء صنفان لا يكاد يؤثر الواحد منهما على انفراده ومتى اجتمعا بالملامسة لم يقو شيء على صد تيارهما الجارف بل اجتاز كل ما يعتريهما من العقبات طوع أمر المدبر لهما .

ولما أدرك الناس من صنفي الكهرباء شدة ميلهما إلى التواصل والاجتماع صنعوا العدد والآلات بحيث يجمع بين الصنفين متى طلب العمل ويفرق بينهما متى طلب الوقوف فيسيران في سلكين دقيقتين مجتمعين في النهاية مفترقين في المبدأ الذي قد ركب عليه زر إذا حرك جمع بين السلكين وأثرت الكهرباء تأثيرها المطلوب وإذا أعيد فرق بينهما فانقطع العمل وتُغَلّف الأسلاك والعدد التي تمر فيها الكهرباء بغلاف من الحرير أو المطاط لكيلا تؤذي الناس إذا مسوها . انتهى من الكتاب المذكور .

ومن عجيب الاختراعات ما قرأناه في إحدى مجلات الهلال ، أنهم اخترعوا مصابيح تضيء بلا كهرباء ، بواسطة مادة إذا طلي بها الزجاج ثم أرسلت إليها أمواج لاسلكية ذات ذبذبات عالية توهّجت المادة وأضاءت وأضاء زجاجها كما يضيء المصباح بلا كهرباء ولا أسلاك ، وقالت المجلة: ومن طريف ما استكشفه المخترعون صبّ النور كما يصبّ الماء من إناء إلى إناء ، وذلك أنهم كشفوا مادة متفسفرة جديدة إذا وضعوها في السوائل في الليل أضاءت وهم يسكبونها من وعاء إلى وعاء ، فينسكب السائل مضيئاً فكأنما يسكنون نوراً .

كما أنهم اهتدوا إلى صنع مصباح تخرج منه أشعة يركزونها في نقطة فتحتر احترارا كثيراً ومن هذه النقطة الحارة يشعلون السجائر وغيرها ، كالعدسات التي تفعل هذا في ضوء الشمس . ولكن الجديد أن هذه الأشعة أشعة تقع من الطيف دون الأحمر ، وهي تعرف بالأشعة دون الحمراء ، وهي تحس ولا ترى ، وهي التي تمتزج بأشعة النور الأخرى فتعطيها الدفء وتعطيها الحرارة . وهكذا ذكرت مجلة الهلال وكان غلافها مفقوداً لذلك لم نعرف تاريخها ولا رقم عددها ، ونظن أنه عدد يناير عام (١٩٥٠) أو الشهر الذي قبله .

وقد بلغنا في وقتنا الحاضر أن الولايات المتحدة والمملكة المتحدة تستعدّان في استخدام الذرّة لتوليد الكهرباء، ولقد سبقهما إلى هذا الإتحاد السوفيتي فقد أضيئت بعض مدنه بالكهرباء الناتجة من استخدام الذرة.

هذا ولا ندري ماذا يكون من الاختراعات في المستقبل، فإن الإنسان لا يزال يستمر في التقدم والاختراعات التي لم يكن يحلم بها، حتى تستكمل الدنيا جميع زخرفها وزينتها، فعندئذ، تأخذ في الفناء ويأتي أمر الله وكأن لم تكن بالأمس. «ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام».

استعمال غاز الاستصباح

يصدق على غاز الاستصباح كلمة «النّفْط» بفتح النون وسكون الفاء، وفي مصر يطلقون عليه "كيروسين"، ويكتب غاز الاستصباح أحياناً، "غاز" بالغين، وأحياناً "قاز" بالقاف، وأحياناً "كاز" بالكاف، وأما كلمة "البترول" فهي كلمة شاملة المعنى غاز الاستصباح والبنزين وغيرهما. وأما كلمة "القير" بكسر القاف أو "القار" بفتح القاف المسمى "بالإسفلت" وهي المادة السوداء اللزجة، فهو ما يرسب ويبقى بعد تصفية المواد البترولية والذي يستعمل الآن في سفلتة الشوارع والطرقات.

جاء في الجزء الأول من كتاب كنز الرغائب في منتخبات الجوائب المطبوع سنة (١٢٨٨) ثمان وثمانين ومائتين وألف من الهجرة بالآستانة، عن أول استعمال غاز الاستصباح ما يأتي: لا خفاء في أن هذا النور يتخذ من الفحم أو الحطب إذا أوقدا، وإنما الخفاء في أصل اختراعه فنقول على سبيل الإيجاز: إن أول من جرب استخراجه من الفحم قسيس من الإنكليز يقال له: كلاتون أو كليتون، وذلك سنة (١٧٣٩) ميلادية إلا أن تجربته هذه لم يعمل بها إلى أن قام رجل من كورنول اسمه مردوخ، فباشر هذه العملية وأجرى الغاز في قصبات من حديد وذلك في سنة (١٧٩٢م). وبعدها بست سنين أتم عمليته ونوّر بها أحد المعامل في برمنكهام، إلا أنه كان يعرض لها الخلل أحياناً، ثم في سنة (١٨٠٢) تنبّه الناس إلى إتقان ذلك وإلى تعميم المنافع منه. وبعدها بسنة نوّر ملهى الليسيوم بلندرة بالنور المذكور، وفي سنة (١٨٠٤م) وما بعدها وسّع مردوخ دائرة عمليته في منشستر قال: وزعم الفرنسيس أنهم هم مخترعوه، إلا أن الغاز لم يعرف عندهم إلا في سنة (١٨٠٢م)

وقد عرفت أن مردوخاً صنعه قبل هذا التاريخ بعدة سنين، ثم من سنة (١٨٠٢م) إلى سنة (١٨٢٢م) اشتهر استعمال هذا النور وأعجب الناس به جداً، حتى أن رأس المال الذي جمع لتنوير لندرة فقط بلغ مائة مليون ليرة، وشغلت قصباته الممتدة إلى مواضع مختلفة منها مسافة مائة وخمسين ميلاً. قلت: ولكثرة الأنوار فيها يكون الليل في الشتاء أدفأ من النهار فإن عدد فوانيس طرقها فضلاً عن أنوار الحوانيت والديار بلغ في سنة (١٨٤٩) ميلادية (٣٦٠٠٠٠) فانوس. قال: وبعد سنة (١٨٢٢) بسنين قليلة اشتهر استعمال الغاز في سائر مدن المملكة، فنورت به الطرق والديار والدكاكين والملاهي وغيرها، وهو على بقائه وعدم نفاده أرخص سعراً وأخف كلفة من الشمع والزيت، فإن رطل الشمع الدون مثلاً يساوي ثلاثة أرباع الشلين، ومدة اتقاده لا تزيد على أربعين ساعة، وغالون الزيت (كل غالون يملأ نحو خمس زجاجات من القدر المعتاد) يساوي شلينين، وينير ما تنير ستمائة شمعة في ساعة واحدة. والشمع العال أغلى من الدون بثلاثة أضعاف، وألف مكعب من الغاز يساوي تسعة شلينات، فحاصل ذلك أن ما قيمته من الشمع العال مائة، يكون من الدون خمسة وعشرين، وما قيمته من الزيت خمسة يكون من الغاز ثلاثة.

وقد عدّه الإنكليز من أجل النعم السماوية التي يتنعم بها الإنسان في الليل، ومن أعظم الأسباب الموجبة للأمن والسلامة، ولا سيما في المدن الحافلة. فإن لندرة كانت في الزمن القديم ممنية باللصوص بعد العتمة، فكانت الأولاد تحمل بأيديها مشاعيل وتجري بها بين أيدي المجتازين، وكانت عادة العسس في أيام الملكة ماري أن يكون معهم أجراس، ينقسون بها تحذيراً للصوص وتخويفاً، وفي سنة (١٧٦٢) ميلادية وضعت الفوانيس في طرق المدينة وأوقدت بالزيت فقلّت اللصوص. انتهى من الكتاب المذكور.

بعض ما جاء من الوصف في آلات السرج والإيقاد

وبمناسبة ما تقدم من أنواع الإضاءة يستحسن أن نذكر هنا شيئاً مما ورد من أوصاف آلاف الإضاءة كالكهرباء والسراج والقنديل والشمعة ونحو ذلك، لما لذلك من التمليح والطرافة الأدبية. ولقد نقلنا أكثرها من كتاب "نهاية الأرَب في فنون الأدب" للعلامة النويري رحمه الله تعالى فنقول وبا لله التوفيق:

قال السيد عبيد المدني من أهل عصرنا الحاضر في الكهرباء ما يأتي :

لا بِدعَ أن أصبو إليكِ فبيننا — سلك بتيار القلوب مكهرب
إن كنتِ لا تدري الحقيقية فاسمعي — ها أنتِ "سالبة" وقلبي "موجب"
إن كنتِ "نافية" هواي فإنني — أنا "مثبت" في الحب لا أتذبذب
لم لا نكون الكهرباء وهذه — آثارها فينا تجدّد وتلعب

قال السري الرفّاء في وصف النار :

والتهبت نارنا فمنظرها — يغنيك عن كل منظر عجب
إذا رمتْ بالشرار فاطردت — على ذراها مطارد اللهب
رأيتَ ياقوتة مشبكة — تطير عنها قراضة الذهب

وقال عبدا لله بن المعتز :

كأن الشرار على نارها — وقد راق منظرها كل عين
سُحالَةُ تسير إذا ما علا — فإما هوى ففتات اللجين

وعلى معناه قال العسكري :

أوقدت بعد الهدوّ نارا — لها على الطارقين عين
شرارها إن علا نضار — لكنه إن هوى لجين

وقال أبو الفتح كشاجم :

كأنما النار والرماد وقد — كاد يواري من نورها النورا
وَرْد جنيٌّ القطاف أحمر قد — ذرت عليه الأكف كافورا

وقال تاج الملوك ابن أيوب :

أما ترى النور وهي تضرم في — أحشاء كانونها وتلتهب
كأنما الفحم فوقها قضب — من عنبر وهي تحته ذهب

قال سيف الدين المشدّ في الفانوس :

انظر إلى الفانوس تلق متيّماً — ذرفت على فقد الحبيب دموعه
يبدوا تلهب جسمه لنحوله — وتعدّ من تحت القميص ضلوعه

ومما قيل فيه أيضاً :

وكأنما الفانوس في غسق الدجى — دنف براه شوقه وسهاده
أضلاعه خفيف ورق أديمه — وجرت مدامعه وذاب فؤاده

مما قيل في السراج

من رسالة لأبي عبدالله محمد بن أبي الخصال ، جاء منها ما يأتي :

عذراً إليك أيدك الله ، فإني خَططت والنوم مُغازل ، والقَرّ نازل ، والريح تلعب بالسراج ، وتصول عليه صولة الحجاج ، فطوراً تبرزه سنانا ، وتحركه لسانا ، وآونة تطويه جُنّابه ، وأخرى تنشره ذؤابه ، وتارة تقيمه إبرة لهب ، وتعطفه بُرَةَ ذهب ، وحيناً تقوسه حاجب فتاة ، ذات غمزة ، وتسلطه على سليطه ، وتديله على خليطه ، وربما نصبته أُذن جواد ومسخته حَدَقة جراد ، ومشقته حروف برق ، بكف ودق ، ولثمت بسناه قنديله ، وألقت على أعطافه منديله ، فلاحظ منه للعين ، ولا هداية في الطرس لليدين . انتهى من نهاية الأرب .

ومما جاء في الشمعة

قال بعض الشعراء :

ورشيقة بيضاء تطلع في الدجى ... صبحاً وتشقي الناظرين بدائها
شابت ذوائبها أوان شبابها ... واسود مفرقها أوان فنائها
كالعين في طبقاتها ودموعها ... وبياضها وسوادها وضيائها

وقال آخر :

بيضاء أضحكت الظلام فراعها ... فبكت وأسبلت الدموع بوادرا
جفّتْ دموع جفونها فكأنما ... كسيت من الطلع النضيد ضفائرا

وقال غيره :

جاءت بجسم كأنه ذهب ... تبكي وتشكي الهوى وتلتهب
كأنها من أكف حاملها ... رمح لجين سنانه ذهب

وقال الصاحب بن عباد :

وشمعة قدّمت إلينا ... تجمع أوصاف كل صب
صفرة لون وذوب جسم ... وفيض دمع وحر قلب

وقال بعضهم :

حكتني وقد أودى بي السقم شمعة ... وإن كنت صبًّا دونها متوجّعا

ضَنًى وسهادًا واصفرارًا ورقّة ... وصبراً وصمتاً واحتراقاً وأدمعا

وقال السريّ الرفّاء:

مفتولة مجدولة ... تحكي لنا قد الأسل
كأنها عمر الفتى ... والنار فيها كالأجل
وفتيلة المصباح تُحرق نفسَها ... وتضيء للساري وأنت كذاكا

وقال أبو مروان بن أبي الخصال:

لابنة الزند في الكوانين جمر ... كالدراري في دجى الظلماء
خبّروني عنها ولا تكتموني ... ألديها صناعة الكيمياء
سبكت محمها صفائح تبر ... رصعتها بالفضة البيضاء
كلما رفرف النسيم عليها ... رقصت في غلالة حمراء

وقال أبو طالب المأموني:

ما نرى النار كيف أسقمها القمر ... فأضحت تخبو وطورًا تسعر
وغدا الجمر والرماد عليه ... في قميص مذهب ومعنبر

وقال أحد الشعراء يمدح بعض الملوك:

وقيت نار الجحيم يا ملك ... أربع تسيرانه له نسق
نار شباب تروق نضرتها ... ونار راح كأنه شفق
ونار سلطان تقارنها ... نار قرى لا تزال تأتلق

وقال ابن الرومي:

له ناران قرى وحرب ... ترى كلتيهما ذات التهاب

وقال إبراهيم بن هرمة:

إذا ضلّ عنهم ضيفهم رفعوا له ... من النار في الظلماء ألويةً حمرا

وقال محمد بن أبي الثابت شاعر اليتيمة:

ومجدولة مثل صدر القناة ... تعرت وباطنها مكتسي
لها مقلة هي روح لها ... وتاج على الرأس كالبرنس
إذا غازلتها الصبا حركت ... لساناً من الذهب الأملس
وتنتج من حيث ما ألقحت ... ضياء يجلي دجى الحندس
فنحن من النور في أسعد ... وتلك من النار في أنحس

وقال أبو القاسم المطرّز من جملة أبيات :

وللشموع عيون كلما نظرت تظلمت من يديها أنجم الغسق
من كل مرهفة الأعطاف كالغصن الميّاد لكنه عار من الورق
إني لأعجب منها وهي وادعة تبلى وعيشتها من ضربة العُنُق

ومن جيد ما قيل في الشمعة ، قول الأدّجاني :

نمّت بأسرار ليل كان يخفيها وأطلعت قلبها للناس من فيها
قلب لها لم يرعنا وهو مكتمن إلا برقية نار من تراقيها
سقيمة لم يزل طول اللسان لها في الحي يجني عليها ضرب هاديها
غريقة في دموع وهي تحرقها أنفاسها بدوام من تلظيها
تنفست نفس المهجور إذ ذكرت عهد الخليط فبات الوجد يبكيها
يخشى عليها الردى مهما ألم بها نسيم ريح إذا وافى يحييها
بدت كنجم هوى في إثر عفرية في الأرض فاشتعلت منه نواصيها
نجم رأى الأرض أولى أن يبوأها من السماء فأمسى طوع أهليها
كأنها غرة قد سال شاد منها في وجه دهماء يزهيها تجليها
أو ضرة خلقت للشمس حاسدة فكلما حجبت قامت تحاكيها
وحيدة كشباة الرمح هازمة عساكر الليل إن حلت بواديها
ما طنبت قط في أرض مخيمة إلا وأقمر للأبصار داجيها
لها غرائب تبدو من محاسنها إذا تفكرت يوماً في معانيها
كصعدة في خشا الظلماء طاعنة تسقي أسافلها ريا أعاليها
فالوجنة الورد إلا في تناولها والقامة الغصن إلا في تثنيها
صفراء هندية في اللون إن نعتت والقد واللين إن أتممت تشبيها
فالهند تقتل بالنيران أنفسها وعندها أن ذاك القتل يحييها
قد أثمرت وردة حمراء طالعة تجني على الكف إن أهويت تجنيها
ورد تشاك به الأيدي إذا قطفت وما على غصنها شوك يوقيها
ما إن تزال تبيت الليل ساهرة وما بها غلة في الصدر تطفيها
صفر غلائلها حمر عمائمها سود ذوائبها بيض لياليها

تحيي الليالي نوراً وهي تقتلها　　بئس الجزاء لعمر الله تجزيها
قدت على قد ثوب قد تبطنها　　ولم يقدر عليها الثوب كاسيها
غراء فرعاء ما تنفك قالية　　تقس لمتها طوراً وتفليها
شباء شعثاء لا تكسي غدائرها　　لون الشبيبة إلا حين تبليها
قناة ظلماء لا تنفك يأكلها　　سنانها طول طعن أو يشظيها
مفتوحة العين تغني ليلها سهرا　　نعم وإفناؤها إياه يفنيها
وربما نال من أطرافها مرض　　لم يشف منه بغير القطع مشفيها

مفاخرة بين القنديل والشمعدان

جاء في الجزء الأول من كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» تأليف شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري، ما نصه:

رسالة القنديل والشمعدان، من إنشاء المولى الفاضل البارع البليغ، تاج الدين عبدالباقي بن عبدالمجيد اليماني، سمعتها من لفظه وقرأتها عليه وأجاز لي روايتها عنه. وهي الموسومة بزهر الحنان في المفاخرة بين القنديل والشمعدان ابتدأها بأن قال:

الحمد الله الذي أنار حالك الظلماء، بأنوار بدر السماء، وحلى جيدها بعقود النجوم، وحرس مشيدها بسهام الرجوم، وجعلها عبره للاستبصار، ونزهة للأبصار، غشاؤها لازورد مكلل بنضار، أو أقاحي خميلة تفتحت فيها أزرار الأزهار، تهدي الساري بسواريها، وتزري بالدرر أنوار دراريها، كرع في نهر مجرتها النسران، ورتع في مراعي رياضها الفرقدان.

أحمده على نعمه التي لا يقوم بشكرها لسان، ولا يؤدي واجب حقها إنسان، حمداً يجلب إلى الحامد أنواع الإحسان، ويسوق إلى الشاكر ركائب الخيرات الحسان.

وأصلي وأسلم على سيدنا محمد الذي أنار الله بوجوده ظلمة الوجود، وأظهر بظهوره أفعال الركوع والسجود، صلى الله وسلم عليه وعلى آله الوافين بالعهود، وعلى أصحابه أهل الأفضال والجود، وصلاة وسلاماً دائمين إلى اليوم الموعود.

وبعد فإن فنون الآداب كثيرة الشعوب ، متباينة الأسلوب ، طالما تلاعب الأديب بفنونها بين جد ومجون ، وكيف لا والحديث ذو شجون . وكنت بحمد الله ممن هو قادر على إبراز ملح الأدب ، وعلى إظهار لطائف لغة العرب ، فتمثل في خاطري المفاخرة بين الشمعدان والقنديل ، ولا بد من إبراز المفاخرة بينهما في أحسن تمثيل ، لأنهما آلتا نور ، ونديما سرور ، طالما مزقا جلباب الدجى بأضوائهما ، وحسما مادة الظلمة بأنوارهما ، وطلعا في سماء المجالس بدورا ، وأخجلا نور الرياض لما أصدرا من جوهرهما نورا . سما كل واحد منهما إلى أنه الأصل وأن بمدحه يحسن الفصل والوصل ، وأنه الجوهرة اليتيمة ، والبدرة التي ليست لها قيمة ، سارت بمحاسنه ركائب الركبان . ونظمت في جيد مجده قلائد العقيان .

انظر : الصورتين رقم ١٤٥ ، ١٤٦ وهي للإنارة بواسطة الشموع والشمعدان التي توضح في كل جانب منه شمعة ثم زجاجة كي لا يطفأها الهواء.

فأحببت أن أنظمها في ميدان المناظرة ليبرز كل واحد منهما خصائصه الواضحة ويظهر نقائص صاحبه الفاضحة ، وليتسنم غارب الاستحقاق بالفضيلة ، ويؤكد في تقرير فضائله الراجحة دليله ، مع أنه لا تقبل الدعاوى إلا بالبرهان ، لعمري لقد قيل قدماً :

من تحلى بغير ما هو فيه　　فضحته شواهد الامتحان

فأتلع الشمعدان جيده للمطاولة ، وعرض سمهريه اللجيني للمناضلة . وقال : «استنت الفصال حتى القرعى» .

لست بنديم الملوك في المجالس ، كلا ولا الروضة الغنّاء للمجالس . طالما أحدقت بي عساكر النظار ، ووقفت في استحسان هياكلي رؤية الأبصار ، وحملت على الرؤوس إذا علقت بأذانك ، وجلبت كحلاء المرهفات إذا اسود وجهك من دخانك .

فنضنض لسان القنديل نضنضة الصل ، وارتفع ارتفاع البازي المطل . وقال : إن كان فخرك بمجالسة السلاطين ، فافتخاري بمجالسة أهل الدين طالما طلعت في أفق المحراب بجما ازداد علا ، وازدانت الأماكن المقدسة بشموس أنواري حلا ، جمع شكلي بمجموع العناصر ، فعلى مثلي تعقد الخناصر ، يحسبني الرائي جوهرة

العقد الثمين ، إذ رأى اصفرار لونك كصفرة الحزين ، ولقد علوتك في المجالس زماناً ، ومن صبر على حر المشقة ارتفع مكاناً .

فنظر إليه الشمعدان مغضباً ، وهم بأن يكون عن جوابه منكباً . وقال : أين ثمنك من ثمني ، ومسكنك من مسكني صفائحي صفحات الإبريز ، فلذا سموت عليك بالتبريز ، تنزه العيون في حمائلي الذهبية ، وتسر النفوس ببزوغ أنواري الشمسية ، ولا يملكني إلا من أوطنته السعادة مهادها ، وقربت له الرئاسة جيادها ، ولقد نفعت في الصحة والسقم ، وازدادت قيمتي إذا نقصت في القيم إن انفصمت عراك فلا تشعب ، ولا تعاد إلى سبك نار فتصب وتقلب ، لست من فرسان مناظرتي ، ولا من قرناء مفاخرتي .

فالتفت القنديل التفات الضرغام ، وفوّق إلى قرينه سهام الملام . وقال : أنت عندي كثعالة ، لا محالة ، طالك العنقود ، فأبرزت أنواع الحقود وأين الثريا من يد المتناول . أم أين السها من كف المتطاول . تا لله إنك في صرفك بصغرك مغلوط . لقد خصصت بالعلو وخصصت بالهبوط . ترى باطني من ظاهري مشرقاً وتخالني لخزائن الأنوار مطلقاً ، فحديث سيادتي مسلسل ، وتاج فضائلي بجواهر العلو مكلل .

فلحظة الشمعدان بطرف طرفه ، وأرسل في ميدان المناظرة عنان طرفه . وقال : إن افتخارك بالعلو غير مفيد ، ومزية اختصاصك به ليس له أبهة مزيد ، طالما علا القتام وانحطت الفرسان ، ومكث الجمر وسما الدخان ، ولقد صيرتك كنظر المشنوق حاله ، وكضوء السها ذباله ، وأنت الخليق بما قيل ، وقلب بلا لب وأذن بلا سمع وسلاسلك تشعر بعقلك ، وعلوك ينبئ عن غلو إسقاط كمثلك ، عادلت التبر كفة بكفة ، ووزنته إذ كان فيه فقه ، فاصغ لمفاخري الجليلة ، واستمع مناقبي الجميلة . أطارد جيوش الظلماء برمحي ، وأمزق أثواب الديجور بصبحي ، جمع عاملي بين طلع النخل ، وحلاوة النحل ، يتلو سورة النور لساني ، ويقوى في مصادمة عساكر الليل البهيم جناني ، أسامر المليك خلوة ، ويستجلي من محاسني أحسن جلوة و لله در القائل :

أنظر إلى شمعدان شكله عجب   كروضة روضت أزهارها السحب
يطارد الليل رمح فيه من ورق   سنانه لهب من دونه الذهب

فمثل هذه المناقب تتلى ، ومثل هذه المحاسن تظهر وتجلى .

فأضرم نار تبيينه في أحشاء قرينه . فعندها قال القنديل : لقد أطلت الافتخار بمحاسن غيرك ، لما وقفت في المناظرة ركائب سيرك ، فاشكر اليد البيضاء من شمعك ، واحرص على معرفة قيمتك ووضعك ، وأما افتخارك بتلاوة سورة النور ، فأنا أحق بها منك إذا محلى الجوامع ، والفرقان بيني وبينك مع أنه ليس بيننا جامع ، ففضيلتي فيه بينة ، وآية نوري في سورة النور بينة فاقطع مواد اللجاجة ، واقرأ الآية المشتملة على الزجاجة ، يظهر لك من هو الأعلى ، ومن بالافتخار الأولى تخالني درة علقت في الهواء أو كوكباً من بعض كوكب الجوزاء و لله در القائل :

قنديلنا فاق بأنواره ... نور رياض لم تزل مزهره

ذبالة فيه إذا أوقدت ... حكت بحسن الوضع نيلوفره

لا يحمل الأقذاء خاطري ، ولا يغتم مشاهدي وناظري ، فأنا خلاصة السبك ، والتبر الذي لا يفتقر إلى الحك ، اشتقاق اسمك من النحوس ومن حرمك تقام هياكل الفلوس ، لقد عرضت نفسك للمنية ، وانعكست عليك مواد الأمنية ، مع أن الحق أوضح من لبة الصباح ، وأسطع من ضوء المصباح ، والآن غصصت بريقك وخفيت لوامع بروقك ، فهذه الشهباء والحلبة ، وهذه ميادين المناضلة رحبة .

فحار الشمعدان في الجواب ، وجعل ما أبداه أولاً فصل الخطاب فقال القنديل : لا بد من الإقرار بأن قدحي المعلى ، وأني عليك بالتقديم الأولى ، وأن مقامي العالي ، ونوري المتوالي .

فقال الشمعدان : لا منازعة فيما جاء به الكتاب من تفضيلك ، وكونك الكوكب الدري الذي قصر عن بلوغك باع مثيلك .

فجنح الشمعدان للسلم ، وترفع عن استيطان مواطن الإثم ، وشرع يبدي شعائر الخضوع ، وينشر أعلام الأوبة عما قال والرجوع ، وقال : لولا حمية النفوس ، ما تحملت بمفاخرنا صفحات الطروس ، ولولا القال والقيل ، ما ضمنا معرض التمثيل ، ولكن أين صفاؤك من كدري ، وأين نظرك من نظري ، خصك الله بنوره ، وذكرك في فرقانه وزبوره .

فعندها تهلّلتْ أسارير القنديل ، وتبسم فرحاً بالتعظيم والتبجيل ، وقال : حيث رجعنا إلى شرع الإنصاف ، وإظهار محاسن الأوصاف ، ففضلك لا يبارى ، ووصفك لا يجارى يحسبك الرأي خميلة نَوْر تفتحت أزهارها ، وحديقة نرجس

أطردت أنهارها ، تسرّ بك النفوس ، وتدار على نضارتك الكؤوس ، وأن اللائق بحالنا طيّ بساط المنافسة ، وإخماد شرر المقابسة ، والاستغفار فيما فرط من كلامنا ، والرجوع إلى الله في إصلاح أقوالنا وأفعالنا . انتهى كل ذلك من كتاب نهاية الأرب للنويري .

إضاءة المسجد الحرام بالقناديل الزيتية

ذكرنا أعمدة المطاف ما وضعت إلا لتعلّق عليها المصابيح والقناديل للطائفين ، وهنا نذكر إضاءة عموم المسجد الحرام فنقول : القناديل هي آنية من الزجاج شبه الكورة الكبيرة لها قاعدة صغيرة ولها فتحة متسعة من أعلا بغير غطاء تدخل فيها اليد بسهولة ، وفي جوف هذه الآنية توضع كأس نصفها مملوء ماء وربعها مملوء زيتاً والزيت يطفو على الماء وفي وسط هذه ذبالة وفتيلة رفيعة تضاء عند إقبال الليل وعند حافة فتحة الآنية ثلاث عروات تربط في كل منها سلسلة فتعلق في الأماكن المخصصة لها ، وإليك صورة القناديل .

انظر: صورة رقم ١٤٧ ، القناديل التي كانت تنير المسجد الحرام بالزيت سابقاً قبل استعمال الكهرباء

والإضاءة بهذه الكيفية قديمة العهد ، فلما توصلوا إلى استخراج البترول (النفط أو القاز) بطلت تلك العادة في عموم الممالك والبلدان . ولقد أحصى الشيخ حسين باسلامة رحمه الله تعالى في كتابه تاريخ عمارة المسجد الحرام جميع قناديل المسجد الحرام ما عدا قناديل المنارات فكان مجموعها (١٤٢٢) قنديلاً ، فكانت الإضاءة بالمسجد بالقناديل الزيتية من قديم الزمان إلى سنة (١٣٣٥) ثم أبدلت بالأتاريك والكهرباء كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى . ويقول أيوب صبري في كتابه مرآة الحرمين : أما القناديل التي كانت في الحرم قبل هذا فقد كان عددها (١٨٢٢) قنديلاً .

وأول من أجرى للمسجد الحرام زيتاً وقناديل معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله تعالى عنه ، وأول من استصبح بين الصفا والمروة خالد بن عبدالله القسري في خلافة سليمان بن عبد الملك في الحج وفي رجب كما ذكره الأزرقي ، وقد ذكرنا عند الكلام على أساطين المطاف وأعمدته أول من استصبح لأهل الطواف فراجعه إن شئت .

قال أبو جعفر البنّي بتقديم الباء الموحدة في وصف قنديل :

وقنديل كأن الضوء فيه محاسن من أحب وقد تجلّى

أشار إلى الدجى بلسان أفعى فشمر ذيله خوفاً وولى

والبنّي بكسر أوله نسبة إلى حصن بالأندلس وإليه ينسب إلى جعفر المذكور ، وبنة أيضاً مدينة بل وبنة أيضاً قرية من قرى بغداد . انتهى من كتاب قاموس الأمكنة والبقاع .

وذكر الفاكهي : أن أول من استصبح في المسجد الحرام في القناديل في الصحن محمد بن أحمد بن عيسى بن منصور ويعرف "بكعب البقرة" سنة (٢٥٧) سبع وخمسين ومائتين وجعل عمداً من خشب في وسط المسجد وجعل بينها حبالاً وجعل فيها قناديل تستصبح فيها اهـ .

قال الأزرقي : وعدد قناديل المسجد الحرام (٤٥٥) أربعمائة قنديل وخمسة وخمسون قنديلا ، والثريات التي يستصبح بها في شهر رمضان وفي الموسم ثمان ثريات ، أربع صغار وأربع كبار ، يستصبح بالكبار منها في شهر رمضان وفي المواسم ، ويستصبح منها بواحدة في سائر السنة على باب دار الإمارة ، وهذه الثريات في معاليق من شبه (وهو نوع من النحاس) ولها قصب من شبه تدخل هذه القصبة في حبل ثم تجعل في جوانب المسجد الأربعة في كل جانب واحدة يستصبح فيها في رمضان فيكون لها ضوء كثير ثم ترفع في سائر السنة ، اهـ .

قال الشيخ حسين باسلامة في كتابه تاريخ المسجد الحرام : والقناديل التي ذكرها الأزرقي هي وضعت في خلافة محمد المهدي العباسي فنقصت بمرور الزمن وعدم التفقد لما يطرأ عليها من النقص والعبث وتلاعب الأيدي . اهـ . ومحمد المهدي هو الذي أمر سنة (١٦٤) بتوسعة المسجد الحرام التوسعة الثانية له فجزاه الله خيراً .

وذكر التقي الفاسي عدد القناديل التي كانت في المسجد في زمانه وعن الجهات التي كانت فيها : لم نأت بها هنا خوف التطويل وعدم الحاجة إليها .

ومن اللطائف ما قيل :

تراءت قناديل المطاف لناظري على البعد والظلماء ذات تناهي

كدائرة من خالص التبر وسطها فتيتة مسك وهي بيت إلهي

وقد وضع في حصوة المسجد الحرام مفرقة في جهاته أعمدة مشجرة على صورة النخلة كانت تعلّق فيها القناديل، قال الصباغ في تحصيل المرام : ومما أحدث في الحرم من الأعمدة النحاس ستة أعمدة أرسلتها والدة السلطان عبدالمجيد خان في رأسها صورة نخلة من صغر طول كل عمود نحو خمسة أذرع مفرقة بالمسجد الحرام، فأربعة في مقابلة أركان المسجد وواحدة خلف مقام الحنفي وأخرى مقابلة في جهة باب الصفا، وركب كل عمود على قاعدة من حجر طولها نحو ذراع ويعلق في رأس كل عمود ستة قناديل وذلك في سنة ألف ومائتين ونيف وخمسين. انتهى.

وكانت هذه الأعمدة المشجرة الستة باقية إلى نحو سنة (١٣٦٠) أي في عهد جلالة الملك عبد العزيز آل السعود رحمه الله تعالى، ثم أزيلت عند تعميم إضاءة المسجد بالكهرباء.

ثم قال الصباغ في تحصيل المرام أيضاً : وقد جعلوا في عمارة آل عثمان للحرم الشريف في كل قبة من قبب السقف وفي كل طاجن سلسلة ترخى يعلق فيها القناديل فتعلق في تلك السلاسل. والآن في زماننا في دولة السلطان عبدالعزيز خان ومن قبله في دولة أخيه السلطان المرحوم عبدالمجيد خان يعلق في جميعها برم بلّور داخلها قناديل صغار. وزاد السلطان عبدالمجيد خان عوارض من حديد وضعت بين الأساطين الأمامية المطلة على الحصاوى، وعلّق في كل عارضة بين الأسطوانتين خمسة قناديل توقد من ابتداء رمضان إلى عشرين من ذي الحجة وذلك في سنة (١٢٧٤) أربع وسبعين ومائتين وألف، وجملتها ستمائة برمة كل برمة داخلها قنديل، وأما ما كان من البرم في الأروقة فجملتها ثلاثمائة وأربعة وثمانون برمة، وأما التي حول المطاف فجملتها مائتان وثمانية وثلاثون، وذلك خلاف ما في المقامات وعلى أبواب المسجد وخارج الأبواب وعلى المنائر في أشهر الحج ورمضان. انتهى.

وكان بعض الأماكن في المسجد تضاء بالشموع إلى أول دخول الملك عبدالعزيز آل السعود الحجاز وذلك سنة (١٣٤٣) اكتفاءً بالمصابيح الكهربائية، فقد ذكر المرحوم الشيخ حسين باسلامة نقلاً عن الأرج المسكي أنه يسرج في المسجد الحرام كل ليلة أربعة وعشرون شمعة لكل مقام من المقامات الأربعة اثنتان والباقية في المطاف وفي الحِجر وهي تسرج من أذان العشاء إلى الساعة الثالثة من

الليل ثم تنقل إلى قبة الفراشين وتطفأ ثم تسرج بعد أذان الفجر إلى الإسفار ثم تنقل إلى قبة الفراشين ، وهذا يستمر من أول الشهر إلى الليلة الثانية عشر منه ثم يكتفى بضوء القمر إلى الليلة السادسة عشر من الشهر ثم يعاد سراجها في أول الليل ويترك في الصباح اكتفاء بضوء القمر إلى نهاية الشهر وعلى ذلك طيلة السنة . انتهى .

فاعلم من كل ما تقدم أن الإضاءة بالقناديل كانت إلى سنة (١٣٣٥) ثم استبدلت بالأتاريك والكهرباء كما سيأتي بيانه . ولا يفوتنا أن نسجل هنا أن الطلاب الذين يحضرون الدرس بالليل حلقات حلقات على أساتذتهم ومشايخهم كان غالبهم يأتي معه بشمعة يضعها أمامه ويشعلها عند ابتداء الدرس ليلاً ليرى على ضوئها كتابه ، وهذه الشمعة كانت توضع داخل آلة تشبه المصباح (تسمى باللاله) ولها زجاجة خاصة توضع عليها حتى لا تنطفئ الشمعة من الهواء ، لأن ضوء القناديل الزيتية ضعيف ، فلما استبدلت القناديل بالكهرباء ترك الطلبة استعمال الشمعة "أي اللآله" لقوة ضوء الكهرباء .

وإليك صورة اللآله . راجع منظر ٢٠٢ ، وهو صورة اللاله توضع فيها شمعة ثم يوضع فوقها زجاجة حتى لا تطفأ .

أما الإضاءة في جوف الكعبة إذا فتحت ليلاً عند إرادة دخول أحد الكبراء فيها ، فإنها تضاء بالشموع وكان السلاطين يهدون إليها شمعدانات ومباخر كلها من الفضة الخالصة ، وكان آخر من أهدى إلى الكعبة ذلك السلطان عبدالحميد خان من سلاطين آل عثمان وذلك سنة (١٣٠٢) اثنتين وثلاثمائة وألف . وإليك صورة بعض من الشمعدانات والمباخر .

انظر : الصور رقم ١٤٨ ، ١٤٩ لآلة توضع بداخلها شمعة وفوقها زجاجة حتى لا تطفأ ، وشمعدان ومبخر ، وصورة رقم ١٥٠ لرسم بديع لمنبر السلطان سليمان خان، وصورة رقم ١٥١ للمصابيح الغازية والكهربائية المختلفة .

إضاءة المسجد الحرام بالأتاريك والكهرباء

سبق في الفصل الذي قبله أن تكلمنا على إنارة المسجد بالقناديل ، ونقول هنا : إنه قد أبطلت الإضاءة بالقناديل في المسجد الحرام واستبدل بها بالأتاريك والكهرباء من سنة (١٣٣٥) كما سترى تفصيل ذلك .

قال الغازي رحمه الله تعالى في تاريخه : أقول قد بطل تسريح القناديل في الحرم الشريف من رابع شعبان سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وألف وجعل بدله الكهرباء والأتاريك ، وعلقت المصابيح التي يظهر منها الضوء الكهربائي ففي المطاف الشريف اثنان وسبعون ، وفي مقام إبراهيم سبعة وفي الرواق الذي بجهة الصحن في دائره الحرم مائة وعشرون وفي المقام الحنفي أربعة وفي المقام الشافعي أيضاً أربعة وفي المقام المالكي ثلاثة وفي المقام الحنبلي ثلاثة وفي باب زمزم واحدة وفي داخله واحدة وفي زيادة باب الزيادة أربعة وفي زيادة باب إبراهيم أربعة ، فجملة المصابيح الكهربائية المعلقة في المسجد الحرام مائتان وثلاثة وعشرون ، وأما الأتاريك فواحدة منها موضوعة في المطاف الشريف قبال مقام إبراهيم وواحدة فوق الحِجْر قبال المقام الحنفي وثلاثة معلقة على أعمدة الحديد إحداهما خلف مقام المالكي والثانية خلف المقام الحنبلي والثالثة خلف حصبة باب النبي . انتهى .

وقال الشيخ حسين باسلامة في كتابه تاريخ المسجد الحرام ما نصه : لما استقل الشريف الحسين بن علي بالحجاز ترك إضاءة المسجد الحرام بالزيت ، أي بالقناديل، وأضاءه بمصابيح اللوكسات وتسمى "الأتاريك" من سنة (١٣٣٥) ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثين إلى منتصف سنة (١٣٣٨) ثم إنه في ٢٨ رجب سنة (١٣٣٨) أنار الشريف الحسين دائرة المطاف بالكهرباء فهو أول من أدخل بالمسجد الحرام اللوكس "الأتاريك" والكهرباء ، مع أن الدولة العثمانية قد أضاءت المسجد النبوي بالمدينة المنورة بالكهرباء عام (١٣٢٨) أي قبل المسجد الحرام بعشر سنوات . . . إلخ ثم قال الشيخ حسين باسلامة رحمه الله تعالى : وقد أتى الشريف الحسين بماكينة قوّتها ثلاثة كيلو وات ، فوضعت في مدرسة أم هانئ أمام دار الحكومة "الحميدية" وكان مجموع عدد اللمبات التي وضعت حول المطاف (١٠٥) وقوة بعض اللمبات خمس وعشرون شمعة وبعضها خمسون شمعة ثم أتى الشريف الحسين أيضاً في سنة (١٣٤٠) بماكينة أخرى قوّتها ست كيلو وات ونصف ، وبماتور بقوّة ١٣ حصاناً فوضعتا في أجياد في الدار التي صارت الآن "مدرسة المعهد السعودي" وكان ابتداء الإنارة بهما في غرة رمضان سنة (١٣٤٠) ثم نقلتا إلى المستودع الذي به دائرة الكهرباء في الوقت الحاضر "أي في الفرن الميري" وابتدأت الإنارة منه في ٢٨ شوال من السنة المذكورة وكان عدد اللمبات نحو ثلاثمائة لمبة ، منها حول المطاف ١١٥ لمبة والباقي موزع بصورة متناسبة في

عموم المسجد الحرام فوضع بعضها في الأروقة وبعضها على الأبواب ودامت إنارة المسجد الحرام على ذلك المنوال إلى سنة (١٣٤٦) من الهجرة ، اهـ .

قال الشيخ حسين باسلامة في كتابه المذكور ما ملخصه : وفي عصر جلالة الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل السعود تبرع أحد تجار الهنود المدعو الحاج (داود أتبّا) من أهالي رانكون للمسجد الحرام بماكينة كبيرة ذات قوة ثلاثون كيلو وات وذلك سنة (١٣٤٦) وتم تركيبها في الفرن الميري أيضاً بجوار مطبعة الحكومة خلف الحميدية وكانت الإنارة بها مع سابقتها في غرة ذي القعدة من السنة المذكورة .

ثم أمر جلالة الملك عبدالعزيز في شعبان سنة (١٣٤٧) بتجديد عموم اللمبات التي بالمسجد الحرام وبزيادتها وبلوغها ألف لمبة فصار جميع المسجد الحرام مضاءً بالكهرباء لكن ظهر أن هذه الماكينة لا تتحمل إضاءة ألف لمبة كما ينبغي فأمر جلالته بوضع ثلاثين لوكسات "أتاريك" في المسجد الحرام فاستمرت الإضاءة على ذلك إلى سنة (١٣٤٩) ثم صدر أمر جلالته بشراء ماكينة قوية تضاف إلى الماكينة السابقة فزادت الإضاءة في المسجد الحرام ، وأمر جلالته بوضع ست شمعدانات على جدار حِجْر إسماعيل من النحاس الأصفر على كل شمعدان ثلاثة أغصان في كل غصن مصباح كهربائي . ووضع أيضاً ستاً وعشرين أسطوانة صنعت بالإسمنت المسلح في حصاوى المسجد الحرام طول كل أسطوانة نحو ثلاثة أمتار يعلق على كل منها أربع مصابيح كهربائية وبذلك استغنوا عن اللوكْسَات .

ثم في سنة (١٣٥٣) أهدى للمسجد الحرام نواب بهادر الحاج سر محمد مزمل الله خان بهادر رئيس أعظم بهيكم بور بالهند ماكينة كهرباء عظيمة بكامل آلاتها وأدواتها ، فتم تركيبها في أواخر شعبان من السنة التالية ، ويبلغ عدد اللمبات الكهربائية بالمسجد الحرام من كافة الجهات نحو ألف وثلاثمائة لمبة على اختلاف أحجامها وتفاوت قواتها . انتهى .

نقول : ولا يزال المسجد الحرام إلى يومنا هذا يضاء بالكهرباء ، وقد استبدلت الشمعدانات الست التي كانت على جدار حِجْر إسماعيل التي لكل منها ثلاثة أغصان المذكورة هنا بخمس شمعدانات من النحاس الأصفر فوق كل شمعدان فانوس واحد يضاء بالكهرباء وذلك سنة (١٣٧٥) هجرية . ولقد زادت فيه الإنارة الكهربائية زيادة عظيمة حتى صار الحرم الشريف باهراً بالأنوار حساً

ومعنى ، وذلك منذ أن قام حضرات الفضلاء آل الجفّالي بإنارة بلدة مكة المشرفة عامة والمسجد الحرام خاصة بالكهرباء وشركتهم تسمى بـ "الشركة السعودية للكهرباء" . وقد كانت إنارة المسجد الحرام بأكمله بالمصابيح الكهربائية عند غروب الشمس من يوم الخميس ١٤ شهر صفر عام (١٣٧٣) ثلاث وسبعون وثلاثمائة وألف . وإن شاء الله سيأتي الكلام عن اختراع الكهرباء .

الحرائق في المسجد الحرام

الحريق الأول للمسجد الحرام

لقد احترق المسجد الحرام بمكة المكرمة مرة واحدة فقط ، وذلك قبل تجديد بناء المسجد الحرام بالقِباب ، أي أنه احترق في سنة (٨٠٢) اثنتين وثمانمائة هجرية ، ظهرت نار من رباط "رامُشْت" ، بالجانب الغربي من المسجد الحرام ، فتعلقت بسقف المسجد ، ومشى الحريق من الجانب الغربي إلى الجانب الشامي (أي الشمالي) وانتهى الحريق إلى باب دار الصحابة ، (أي عند باب الباسطية) .

ولقد ذكر بعض المؤرخين هذا الحريق ، فقال الفاسي في "شفاء الغرام" عن احتراق المسجد الحرام عند الكلام على ربط مكة المشرفة ما يأتي :

ومنها رباط رامُشْت عند باب الحَزْوَرَة (أي باب الوداع) ورامُشْت هو الشيخ أبو القاسم واسمه إبراهيم بن الحسين الفاسي ، وقفه على جميع الصوفية الرجال دون النساء أصحاب المرقعة من سائر العراق ، وتاريخه سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، ظفرت بنسخة كتاب وقفه ، وكان قد احترق جانب كبير من هذا الرباط في الليلة التي احترق فيها المسجد الحرام ، وهي ليلة الثامن والعشرين من شوال سنة اثنتين وثمانمائة .

وأول ما كان الحريق في البيت الذي على بابه الذي بالمسجد ، ثم خرجت النار من شباكه حتى تعلّقت بسطح المسجد ، ثم وفّق الله غير واحد للتقرب بعمارته ، فعمّر منه جانب كبير من سفله ، الذي يلي المسجد ، وبعض المجمع الذي فوقه ، ثم صرف الشريف حسن بن عجلان أمير مكة مائتي مثقال ذهباً لعمارته ، في أوائل سنة ثمان عشرة وثمانمائة ، فعمّر بها جميع ما كان محترقاً من الرباط المذكور ، من البيوت العلوية ، وغير ذلك مما يحتاج إلى العمارة علواً وسفلاً ،

وصرف من ذلك جانباً فيما يحتاج إليه أمن أبواب بيوت الرباط ، وغير ذلك من مصالحه ، وجاءت عمارته حسنة . انتهى من شفاء الغرام .

وجاء تفصيل هذا الحادث في كتاب "تاريخ عمارة المسجد الحرام" للشيخ باسلامة فقال رحمه الله تعالى عنه ما نصه :

مضى على عمارة الخليفة المهدي للمسجد الحرام ستمائة وثمان وثلاثون سنة ، وهو عروس زمانه ، ومفخرة المسلمين ، يمثّل عظمة العصر الذي تشيّد فيه ، وضخامة الدولة ، التي أنشأته على تلك الصفة ، من متانة بنيانه ، وبهجة منظره ، وجمال رونقه ، وبديع زخرفه ، لم يعتريه خراب طيلة هذه المدة إلا ما كان من حدوث شيء بسيط ناجم عن انهيار دار زبيدة زوج الرشيد عليه ، فنتج من سقوطها عمودين من الجهة الغربية كما تقدم .

حتى كانت ليلة السبت الثامن والعشرين من شهر شوال سنة (٨٠٢) أثنتين وثمانمائة ظهرت نار من رباط "رامشت" ، الواقع بين باب إبراهيم ، وباب الوداع ، في الجهة الغربية من المسجد الحرام ، ورامشت هو الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي قد وقف هذا الرباط على رجال الصوفية في سنة (٥٢٩) ، وسبب ذلك : أنه ترك بعض السكان الخلاوي سراجاً موقداً في خلوته وبرز عنها ، فسحبت الفأرة الفويسقة فتيلة السراج منه إلى خارجه ، فاحترقت الخلوة ، واشتعل اللهب في سقف الخلوة ، وخرج من شباكها المشرف على المسجد الحرام ، واتصل بسقفه ، والتهب به ، وعجز الناس عن إطفائه لعلوه ، وعدم وصول اليد إليه ، فعمّ الحريق الجانب الغربي من المسجد الحرام ، واستمرت النار تأكل من السقف وتسير ، ولم يتمكّن الناس من إطفائها لعدم الوصول إليها بوجه من الوجوه ، إلى أن وصل الحريق إلى الجانب الشمالي ، واستمر يأكل من سقف الجانب الشمالي إلى أن انتهى إلى باب العجلة (باب الباسطية) .

وكان من لطف الله تعالى بإخماد تلك النار المؤججة ، أنه كانت هناك أسطوانتان هدمهما السيل العظيم المهول ، الذي دخل المسجد الحرام في اليوم الثامن من جمادى الأولى من تلك السنة ، بما عليها من عقود وسقوف عند باب العجلة ، فكان ذلك هو السبب الوحيد لوقوف الحريق عند ذلك الحد ، حيث ذلك السقوط كان فصل النار من الاتصال بباقي سقف المسجد الحرام ، وبذلك سلم باقي السقف ، فصار ما احترق من المسجد الحرام أكواماً عظاماً ، تمنع من وراءها ،

من رؤية الكعبة الشريفة، ومن الصلاة أيضاً في ذلك الجانب من المسجد الحرام. هذا حاصل ما ذكره مؤرخوا مكة من حادثة الحريق المذكور.

وجاء في "الإعلام" نقلاً عن ذيل دول الإسلام للحافظ السخاوي خلاصة ما تقدم ذكره، وزاد عليه بقوله: واحترق من العمد الرخام مائة وثلاثون عموداً صارت كلها كلساً، ولم يتفق فيما مضى مثله. قال الفاسي: ثم قدّر الله تعالى عمارة ذلك في مدة يسيرة على يد الأمير بيسق الظاهري، وكان قدومه إلى مكة لذلك في موسم سنة (٨٠٣) ثلاث وثمانمائة، وكان هو أمير الحاج المصري وتخلّف بمكة بعد الحج لتعمير المسجد الحرام، فلما رحل الحجاج من مكة شرع في تنظيف المسجد الشريف من تلك الأكوام التراب، وحفر الأرض وكشف عن أساس المسجد الحرام، وعن أساس الأسطوانات، في الجانب الغربي من المسجد، وبعض الجانب الشامي منه، إلى باب العجلة، فظهر أساس الأسطوانات، مثل تقطيع الصليب، تحت كل أسطوانة، فبناها وأحكم تلك الأساسات على هيئة بيوت الشطرنج تحت الأرض، وبناها حتى رفعها إلى وجه الأرض، على أشكال زوايا قديمة، وقطع من جبل بالشبيكة على يمين الداخل إلى مكة. وهذا الجبل يسمى في العصر الحاضر (جبل الكعبة) حيث كانت حارة الباب والشبيكة حارة واحدة قبل انفصالهما: أحجاراً صواناً صلبة منحوتة على شكل نصف دائرة، يصير على آخر منحوت مثله دائرة تامة، في سمك ثلثي ذراع، وصففت على قاعدة مربّعة منحوتة على محل التقاطع الصليبي، على وجه الأساس المرتفع على الأرض، ووضع عليها دائرة أخرى مثل الأولى، ووضع بينهما بالطول عمود حديد منحوت له بين الحجرين المدوّرين، وسبك على جميع ذلك بالرصاص، إلى أن انتهى طوله إلى طول أساطين المسجد، فيوضع عليه حجر منحوت من المرمر، هو قاعدة ذينك العمودين، من فوق طاق يعقد إلى العامود الآخر، وبني ما بين ذلك بالآجر والجص إلى أن يصل إلى السقف.

وسار على ذلك المنوال إلى أن تم الجانب الغربي من المسجد الحرام على هذا الحكم. وبقيت من عمد الرخام، التي تحطّمت من الحريق والهدم، فأوصلوها بالصفائح من الحديد إلى أن تم الجانب الشامي واتصل بالجانب الغربي، وذلك لعدم القدرة على إيجاد الأعمدة الرخام، فصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام بأعمدة الرخام، والجانب الغربي وحده بالأعمدة المعمولة بالحجر الصوان

المنحوت ، المدوّر على شكل عمد الرخام . وكملت هذه الأعمدة في أواخر شعبان سنة (٨٠٤) ولم يبق غير عمل السقف ، فأخّر عمله لعدم وجود خشب بمكة يصلح لذلك ، حيث لا يوجد غير خشب الدوم ، وخشب العرعر ، وليس لذلك الخشب طول ولا قوة ، ويحتاج الأمر إلى خشب الساج وهو لا يوجد إلا بالهند ، أو خشب الصنوبر وهو لا يوجد إلا في بلاد الروم ، فاضطر الأمر إلى تأخير السقف لحينما يجلب الخشب اللازم لذلك من أي القطرين .

وشكر الناس الأمير بيسق على سرعة إتمام هذا القدر من العمل في هذه المدة اليسيرة ومبادرته إلى تنظيف المسجد الحرام وجعله صالحاً للصلاة فيه ، وكان ذا همّة عالية وحسن توجه ، وكان كثير الصدقة والإحسان ، ثم حج الأمير بيسق في ذلك العام وعاد إلى مصر ، لتجهيز ما يحتاج إليه من الخشب ، لإكمال سقف المسجد الحرام ، فوصل إلى مصر في أوائل سنة (٨٠٥) هجرية .

ثم في سنة (٨٠٧) قدم إلى مكة الأمير بيسق ، لعمارة سقف الجانب الغربي من المسجد الحرام مما تشعّب من سقف المسجد الحرام ، من بقية الجوانب الأخرى ، فنهض إلى هذه الخدمة الشريفة والمنقبة الكبيرة ، التي خلّدها التاريخ له ، طيلة هذه القرون ، وذلك بعد أن أحضر الأخشاب المناسبة لذلك ، وجلبها من بلاد الروم ، وهيّأها للسقف ، ونقشها بالألوان وزوّقها ، واستعان أيضاً بكثير من خشب العرعر ، الذي يؤتى به من جبال الطائف ، من جهة الحجاز ، لعدم كفاية الخشب الذي أتى به ، وبذل همته واجتهاده إلى أن سقف جميع الجانب الغربي من المسجد الحرام ، والجانب الشامي إلى باب العجلة ، فتمَّ عمارة المسجد الحرام على تلك الصورة ، وعلّق في تلك السقوف سلاسل من نحاس وحديد ، لتعليق القناديل في الرواق الوسطاني ، من الأروقة الثلاثة ، على حكم سائر المسجد الحرام . غير أن الجانب الشرقي ، واليماني ، وأكثر الشامي إلى باب العجلة ، كان في كل عقد من العقود ، التي على صحن المسجد الشريف ، ثلاث سلاسل : أحدها في وسط كل عقد ، والثاني عن يمينه ، والثالث عن شماله ، لتعليق القناديل ، كما أنه كان بالجانب الغربي ، قبل احتراقه مثلها ، فلما عمر لم تعلّق فيه السلاسل على حسب ما كان فيه سابقاً ، بل علّق فيه حسبما تقدم ذكره ، وعمر مع ذلك في الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام مواضع كثيرة من سقفها ، كان قد انكسر أعوادها وأتقن عملها . وعمّر في صحن المسجد من المقامات الأربعة ، على الهيئة القديمة ، وبذل

في ذلك الأموال العظيمة ، وتم ذلك في سنة (٨٠٧) في أيام الناصر زين الدين أبي السعادات فرج بن برقوق بن آنص الجركسي ، ثاني ملوك الجراكسة . وأما رباط "رامشت" ، الذي صدر منه الحريق ، فقد عمره أمير مكة يومئذ الشريف حسن بن عجلان ، وجعله رباطاً للفقراء كما كان ، وصرف عليه من ماله إلى أن عاد أحسن من الأول .

هذا حاصل ما ذكره التقي الفاسي ، والقاضي ابن ظهيرة ، وقطب الدين الحنفي في "الإعلام" وغيرهم . فظهر لنا مما تقدم ، أن ملوك الجراكسة ، الذين هم ملوك مصر ، في ذلك العصر ، لم يكن في استطاعتهم نقل الأساطين المرمر الرخام من مصر إلى مكة المكرمة ، لأجل أن يضعوها في المواضع ، التي احترقت بالمسجد الحرام ، كما فعل ذلك الوليد بن عبد الملك ، وأبو جعفر المنصور ومحمد المهدي العباسي ، ولو كان في استطاعتهم لما تأخروا عن نقلها . وهذا أعظم دليل على قوة عزم الخلفاء الأمويين والعباسيين ، أولئك الذين هم غرة جبين ملوك الإسلام ، حيث من أتى بعلهم من الملوك ، سواء كانوا عرباً أو عجماً ، لم يصلوا من القوة والعزم إلى ما وصل إليه الأمويون والعباسيون ، وسيأتي ما يؤيد ذلك من خبر عمارة سلاطين آل عثمان للمسجد الحرام ، وهي العمارة التي لا تزال إلى العصر الحاضر ، فإنهم رغماً عن أن عمارتهم للمسجد الحرام كانت على غاية من المتانة والإتقان إلا أنهم لم يأتوا بالأساطين الرخام من مصر أو الشام ، لإكمال ما نقص من الأساطين الرخام ، فقد عملوا عوضاً عنها الأعمدة الثخينة المثمّنة والمسدسة والمربّعة ، وبنوها بالحجر المنحوت من الصوان والشميسي ، مع أن مصر والشام ، في ذلك العصر ، كانتا من ضمن ممالكهم ، وربما كانت أدوات النقل في عصرهم أرقى مما كانت في العصرين الأموي والعباسي والله أعلم .

انتهى من "تاريخ عمارة المسجد الحرام" للشيخ باسلامة رحمه الله تعالى .

عمارة المسجد الحرام بالقِباب بشكله الحاضر في زماننا

تقدم أن الخليفة "محمد المهدي العباسي" ، رحمه الله تعالى ، وأجزل ثوابه ، هو الذي وسّع المسجد الحرام ، هذه التوسعة العظيمة ، وهو الذي جعله مربعاً بشكله الحاضر اليوم ، وذلك في توسعته الثانية التي بدأت سنة (١٦٤) أربع وستين ومائة من الهجرة ، وأنه رحمه الله تعالى ، أمر بجلب الأساطين والأعمدة الرخام من الشام

ومصر ، فنقلت بحراً إلى أن وصلت إلى "جدة" يعني إلى الشعيبة ، التي بقربها وجوارها حيث كانت ساحلاً لمكة منذ أيام الجاهلية ، ومنها حمّلت تلك الأساطين والأعمدة الرخام إلى مكة ، شرفها الله تعالى ، بواسطة العربات ذوات العجل .

وقد جعل رحمه الله تعالى للمسجد الحرام سقفين : السقف الأول كان من الدوم اليماني ، والسقف الثاني كان من خشب الساج . وقد نقشه بالنقر على نفس الخشب ، وزخرفه بالذهب والألوان ، حتى صار آية في الجمال . وكان ما بين السقف الأول والسقف الثاني ، فرجة قدر الذراعين تقريباً ، وكان السقف الأعلى مُطَبْطَباً ، أي مجصّصاً بالتراب والنورة ، لحفظه من ماء المطر . وقد تقدم عند الكلام على بنائه سبب جعل سقفين للمسجد الحرام . وكان وقوف الأساطين والأعمدة بواسطة بناء العقود على رؤوسها ، لكن لم يكن عليها قباب ، وإنما جعل السطح مستوياً ، من الخشب القوي الجيد ، مُطَبْطَباً بالنورة ، فيكون بناء الخليفة "محمد المهدي" للمسجد الحرام كبناء مسجد الشافعي بجدة والجامع الأزهر بمصر القاهرة في عصرنا الحاضر .

قال الشيخ حسين باسلامة في كتابه "تاريخ عمارة المسجد الحرام" : وقد ذكر العمري في مسالك الأبصار : ارتفاع جدار المسجد الحرام "أي في عمارة محمد المهدي" ولم يذكره أحد ممن وقفت على تواريخهم وإتماماً للفائدة نذكرها فقال : وارتفاع جداره في السماء مما يلي المسعى ثمانية عشر ذراعاً ، ومما يلي الوادي والصفا اثنان وعشرون ذراعاً ، ومما يلي باب بني جمح "وهو المسمى الآن بباب العمرة" اثنان وعشرون ذراعاً ، ومما يلي دار الندوة سبعة عشر ذراعاً ونصف . انتهى .

قال الشيخ حسين باسلامة ، رحمه الله تعالى : وهذا يدل على أن أرض المسجد الحرام لم تكن متساوية ، وأما ارتفاع السقف فهو واحد في عموم جهات المسجد الحرام الأربعة ، والله تعالى أعلم . اهـ .

نقول : هذا كلام مطابق للحقيقة فأرض مكة كلها غير متساوية ، لكونها جبلية وصخرية . ففي بعض الجهات عالية وفي بعضها منخفضة ، وفيها بل في كل محلة ومكان ، مرتفعات ومنحدرات من أصل الخلقة ، وما نراه من الشوارع والمحلات المستوية فقد عمل بفعل فاعل .

ولقد بقيت عمارة "محمد المهدي" على حالها من سنة (١٦٤) هجرية إلى سنة (٩٨٠) أي دامت عمارته ثمانمائة وست عشرة سنة . ففي هذه السنة تجدد عمارة المسجد الحرام بالقباب ، على هذه الصفة الموجودة في وقتنا الحاضر ، أي دامت عمارة "محمد المهدي" ثمانمائة وست عشرة تماماً ، وبطبيعة الحال ، لا بد أنه حصل في عمارته ما يوجب إصلاحه وتقويته ، كما حصل في العمارة الجديدة ، التي بالقباب ، إصلاحات أيضاً ، وهذا سنة الكون . وكان تجديد بناء المسجد الحرام بالقباب في زمن العلامة المؤرخ قطب الدين الحنفي صاحب كتاب "الإعلام بتاريخ بيت الله الحرام" المتوفى سنة (٩٨٨) هجرية ، رحمه الله تعالى .

واعلم : أن السبب في تجديد عمارة المسجد الحرام ، وبنائه بالقباب ، كما هو في وقتنا الحاضر ، هو : أن الرواق الشرقي مال إلى جهة الكعبة المشرفة ، بحيث برزت رؤوس خشب السقف الثاني عن محلّها ، من جدار المسجد الحرام بنحو ذراع ، والمراد بالرواق الشرقي هو من بعد باب علي إلى قرب باب السلام ، وقد مال وجه الرواق الشرقي إلى صحن المسجد ، أي إلى جهة الحصوة ميلاً بيّناً واضحاً حتى خشوا سقوطه .

فرفعوا الأمر إلى خليفة المسلمين إذ ذاك وهو السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان ، فأمر رحمه الله تعالى بتجديد بناء المسجد الحرام جميعه ، بناءً محكماً متقناً ، وأن يكون سطحه قباباً قوية ، بدلاً عن السقفين الخشبيّين . فشرعوا في منتصف شهر ربيع الأول سنة (٩٨٠) تسعمائة وثمانين من الهجرة . وقد استمرّ العمل أربع سنوات ، فتم على أكمل وجه . وهذه العمارة لا زالت باقية بقوتها ومتانتها إلى يومنا هذا ، فرحم الله الأقدمين الذين كانوا مخلصين ، في أعمالهم ، غاية الإخلاص ، بدون غش ولا تدليس .

هذا ولقد يرى القارئ الكريم في تاريخ القطبي ، عند الكلام على هذه العمارة قوله : "بحيث برزت رؤوس خشب السقف الثالث منه" فقوله : "السقف الثالث" خطأ من الناسخ وغلطة مطبعية ، والصحيح : "السقف الثاني" حيث لم يكن للمسجد الحرام سقف ثالث وإنما كان له سقفان فقط . وحصل مثل هذا الخطأ أيضاً في كتاب "تاريخ المسجد الحرام" للشيخ حسين باسلامة ، فإنه رحمه الله تعالى ، نقل عن تاريخ القطبي و لم ينتبه لهذه الغلطة ، فتأمّل .

وهنا يستحسن أن نذكر ما أورد العلامة القطبي المكي ، في تاريخه عن هذه العمارة الجديدة للمسجد الحرام وبنائه بالقباب ، لأن هذه العمارة وقعت قبل وفاته بنحو عشرة أعوام ، فهو أعرف بها من غيره من المؤرخين ، فقد قال رحمه الله تعالى في تاريخه ما نصه :

اعلم أن عمارة المسجد الحرام ، زاده الله تعالى شرفاً وتعظيماً ومهابة وتكريماً ، من أعظم مزايا الملوك والخلفاء ، وأشراف أكابر السلاطين العظماء ، وقد يسر الله تعالى ذلك لسلاطين آل عثمان ، أيد الله تعالى نصرهم ، وخلد سعادتهم مدى الزمان ، فوقع الشروع فيها في أيام السلطان الأعظم ، والخاقان الأكرم الأفخم ، خليفة الله في أرضه ، القائم بإقامة سنّته وفرضه ، ملك البرّين والبحرين ، سلطان الروم والترك والعرب والعجم والعراقين ، وصاحب المشرقين والمغربين ، خادم الحرمين الشريفين المحترمين ، عامر البلدين المكرّمين المنيفين ، واسطة عقد ملوك بني عثمان ، السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان ، أمطر الله تربتهما سحائب الرحمة والرضوان ، وجعل قبرهما روضة من رياض الجنان ، وجعل السلطنة كلمة باقية في عقبهما إلى يوم الحشر والميزان .

إلى أن يعود العارضان كلاهما ويحشر في القتلى كليب لوائد

وسبب الأمر الشريف بتعمير المسجد الحرام ، أن الرواق الشرقي ، مال نحو الكعبة الشريفة ، بحيث برزت رؤوس خشب السقف الثاني منه ، عن محل تركيبها من جدر المسجد ، وذلك الجدر هو جدر مدرسة السلطان قايتباي ، وجدر مدرسة الأفضلية ، التي هي الآن من أوقاف المرحوم ابن عباد الله ، في شرقي المسجد الحرام ، وفارق خشب السقف عن موضع تركيبه في المذكور أكثر من ذراع ، ومال وجه الرواق إلى صحن المسجد ميلاً ظاهراً بيّناً ، وصار نظار الحرم الشريف يصلحون المحل الذي قد فارق خشب السقف ، إما بتبديل الخشب بأطول منه أو بنحو ذلك من العلاج ، وأما الرواق الذي ظهر ميله إلى صحن المسجد ، فترّسوا بأخشاب كبار حفروا لها في المسجد يمسكه عن السقوط ، واستمرّ الرواق الشرقي متماسكاً ، على الأسلوب المتقدم في أواخر دولة المرحوم السلطان سليمان خان وصدراً من دولة المرحوم السلطان سليم خان .

ثم لما أفحش ميلان الرواق المذكور ، عرض ذلك على الأبواب الشريفة السلطانية السليمية ، سنة تسع وسبعين وتسعمائة ، فبرز الأمر الشريف السلطاني

بالمبادرة إلى بناء المسجد الحرام جميعه، على وجه الإتقان والإحكام، وأن يجعل عوض السقف الشريف قبباً دائرة بأروقة المسجد الحرام، ليأمن من التآكل، فإن خشب السقف كان متآكلاً من جانب طرفيه بطول العمد، وكان يحتاج بعض السقف إلى تبديل خشبة بخشبة أخرى من كل قليل، إذ لا بقاء للخشب زماناً طويلاً، مع تكسر بعضه.

وكان له -أي للمسجد- سقفان بين كل سقف نحو ذراعين بذراع العمل، وصار ما بين السقفين مأوى للحيات والطيور، فكان من أحسن الرأي تبديلها بالقبب، لتمكنها ودفع مواد الضرر عنها، ووصلت أحكام شريفة سلطانية إلى بكلربكي مصر يومئذ "الوزير المعظم والمشير المفخّم حضرة سنان باشا"، أدام الله تعالى سعادته وإقباله، وضاعف عظمته وإجلاله، أن يعيّن لهذه الخدمة من أمراء السناجق المستحفظين بمصر، من يخرج من عهدة هذه الخدمة الشريفة، ويكون في غاية الديانة والأمانة والمعرفة والخير والصلاح.

فأمر البكلربكي يومئذ وهو سنان باشا أمراء مصر أن يقبلوا هذه الخدمة، فما أقدم أحد على تلقيها بالقبول، لكثرة مشقّتها واشتغالهم بأمور دنياهم، والتوغّل فيما يعود عليهم نفعه عاجلاً من غير مشقة.

نقول: إن الكلمة المتقدمة "بَكْلَرْبَكي" هي كلمة تركية تدل على حسب اصطلاح زماننا على "رئيس البَكَوات" وهو حاكم مصر من قبل الدولة التركية كما هو ظاهر من كلامه، و"البيك" بكسر الباء و"الباشا" من ألقاب الحكومة التركية تعطى للكبراء والممتازين من رجالها، ثم بطل استعمال هذه الألقاب لديهم منذ أن صارت تركيا جمهورية، وكذلك الحال في الحكومة المصرية فقد كانت هذه الألقاب مستعملة لديها إلى أن قاموا بثورتهم المعروفة في سنة (١٣٧١) هجرية.

ثم قال القطبي: وكان من جملة الأمراء المحافظين بمصر كتخداي المرحوم اسكندر باشا الجركسي بكلربكي مصر سابقاً، أفخر الأمراء العظماء والكبراء ذوي الإحترام "أحمد بك" بارك الله فيه وفي ذويه، وأناله من خيري الدنيا والآخرة ما يرتجيه، وكان ممن اجتمع فيه هذه الخصال المحمودة المطلوبة، من حب الخير والتوجه إلى الله تعالى وقلّة الميل إلى الدنيا وزخارفها، والميل إلى الفقراء والضعفاء

والعلماء ، والتواضع مع الناس وحب المعدلة والاستقامة ، مع صدق الخدمة وكمال الديانة ، والأمانة والإقدام ، وعلو الهمة ووفور الاهتمام .

فطلب منه حضرة الوزير المشار إليه هذه الخدمة الشريفة ، وأضيف إليه عمل بقية دبل عين عرفات ، من الأبطح إلى آخر المسفلة بمكة المشرفة . فإن السلطنة الشريفة أمرت أن يبنى لها دبل مستقل ولا تجري في دبل عين حنين ، فعينت هذه الخدمة أيضاً للأمير أحمد المذكور ، وعرض له ذلك إلى الباب الشريف العالي ، فوردت الأحكام السلطانية الشريفة له بذلك ، حسب ما عرض له ، وأضيف إلى الخدمة سنجق جدة المعمورة تعظيماً لشأنه وتوفيراً لقدره ومكانه .

وبعد ورود الأحكام الشريفة السلطانية إليه ، أخذ في أهبة السفر وتوجّه من مصر ، عن طريق البحر ، إلى بندر جدة ، ثم وصل إلى مكة ، شرفها الله تعالى ، في أواخر سنة تسع وسبعين وتسعمائة ، مهتماً غاية الاهتمام ، سائلاً من الله تعالى الإعانة والإمداد التام ، وكانت الأوامر الشريفة السلطانية، والمتكلم عليه ، من جانب السلطانية المنيفة الخاقانية ، هو سيدنا ومولانا ناظر المسجد الحرام ومدرّس مدرسة أعظم سلاطين الأنام ، بدر الملّة والدين ، حسين الحسيني ، خلّد الله سعادته ، ففرح بهذه الخدمة الشريفة الفرح التام ، وشدّ مناطق حزمه ، على مناطق عزمه ، وقام له في ذلك أحسن قيام ، وحصل بين مولانا الناظر والأمير أحمد المشار إليهُ كمال الملاءمة والاتفاق ، وبذلك يحصل تمام النجاح والاتفاق ، وجرت عادة الله أن الخير كله في الوفاق ، والشر جميعه في الشقاق ، ولم يكن الرفق في شيء إلا زانه ، ولم يكن العنف في أمر إلا شانه ، ومن أراد الرفق بعباد الله وفّق الله تعالى به وأعانه .

ووصل لهذه العمارة الشريفة معمار دقيق الأنظار ، جليل الآثار ، تقدَّم له مباشرة الأبنية العظيمة ، وحصلت له بالتجربة خبرة تامة ومعرفة مستقيمة ، أجمع المهندسون على تقدمه في هذه الصناعة ، ودقّة نظره في لوازم هذه البضاعة ، اسمه المعمار محمد جاويش الديوان العالي ، وهو إنسان من أهل الخير ، عظيم الأمانة ، كثير الديانة ، مستقيم الرأي ، منوّر الباطن ، مشكور السيرة ، زاد الله توفيقه وأرشد طريقه .

فاتفق الناظر والأمير والمعمار على الشروع في هدم ما يجب هدمه ، إلى أن يوصل إلى الأساس ، فشرع أولاً في إكمال الدبل المستقل ، لإجراء عين عرفات ،

والبناء من جهة المدعى، ثم من جهة سويقة، ثم انعطف به إلى السوق الصغير وأكمله إلى منتهاه، وبنى قبة في الأبطح، جعل فيها مقسّم ماءِ عرفات، وركّب في جداره بزابيز من النحاس، يشرب منها الماء، ثم بنى مسجداً وسبيلاً، وحوض ماء للدواب، على يمين الصاعد إلى الأبطح، في قبلي بستان بيرم خوجة الصابر، إلى المرحومة الخاصكية أم سلاطين، طاب ثراها، وبنى مسجداً آخر وسبيلاً ومتوضأ، في انتهاء سوق المعلاة على يسار الصاعد، وكل ذلك من أعمال الخير الجارية النافعة للمسلمين، وعرض ذلك على أبواب السلطنة الشريفة، فأنعمت، على الأمير المشار إليه، بسبعين ألف عثماني ترقياً في علوفته في مقابلة هذه الخدمة.

ثم شرع في تجديد أروقة الحرم الشريف، بدأ فيه بالهدم من جهة باب السلام، في منتصف ربيع الأول سنة ثمانين وتسعمائة، وأخذت المعاول تعاول في رأس شرفات المسجد وطبطاب سقفه، إلى أن ينكشف السقف، فتنزل أخشابه إلى الأرض، وتجمع في صحن المسجد الشريف، وينظّف الأرض من نقض البناء وأتربته، ويحمل على الدواب ويرمى في أسفل مكة، في ناحية جبل الفلق، ثم تقام الأساطين الرخام، إلى أن تنزل بالرفق إلى الأرض. واستمروا في هذا العمل إلى أن نظفوا وجه الأرض من ذلك، من باب علي إلى باب السلام، وهو الجانب الشرقي من المسجد، ثم كشفوا عن أساسه فوجدوه مختلاً، فأخرجوا الأساس، وكان جداراً عريضاً نازلاً في الأرض، على هيئة بيوت رقعة الشطرنج، وكان موضع تقاطع الجدران، على وجه الأرض، قاعدة تركيب الأسطوانة على تلك القاعدة، فشرع أولاً في موضع الأساس، على وجه الإحكام والإتقان، من جانب باب السلام لست مضين من جمادى الأولى سنة ثمانين وتسعمائة، واجتمعت الأشراف والكبراء والأمراء والفقراء والمشايخ والصلحاء، تبركاً وتيمّناً، بالحضور في هذا الخير العظيم، وقرئت الفواتح بالإخلاص من سويداء القلب الصميم، وذبحت الأبقار والأنعام والأغنام، وتصدق بها على الفقراء والخدم، ووضع الأساس المبارك، بإعانة الله تبارك وتعالى، وكان يوماً مباركاً مشهوداً متيمناً ميموناً مسعوداً، ولله الحمد على هذا الإكرام، وله الشكر والثناء الحسن في المبدأ والختام.

وكانت الأساطين، المبنية سابقاً، على نسق واحد في جميع الأروقة، فظهر لهم أن ذلك الوضع لا يقوى على تركيب القبب عليها، لقلّة استحكامها، إذ القبة يجب أن يكون لها دعائم أربعة قوية تحملها من جوانبها الأربع، فرأوا أن يدخلوا بين أساطين الرخام الأبيض دعامات أخرى تبنى من الحجر الشميسي، يكون سمكها مقدار سمك أربع أسطوانات من الرخام، ليكون مقيماً لها من كل جانب، فتقوى على تركيب القبب من فوقها، ويكون كل صنف من أساطين الأروقة الثلاثة في غاية الزينة والقوة.

ففي أول ركن من الرواق الأول دعامة قوية مبنية من الحجر الشميسي، ثم أسطوانة رخام كذلك، ثم دعامة من الحجر الأصفر الشميسي، وعلى هذا المنوال إلى آخر هذا الصف من أساطين الرواق، ثم الصف الثاني من الرواق الثاني كذلك على هذا المنوال إلى آخر هذا الصف من أساطين الرواق، ثم الصف الثالث من الرواق الثالث على هذا المنوال، وبنيت القبب على تلك الدعائم والأساطين في دور المسجد جميعه، وشرعوا من ركن المسجد الشريف، من جهة باب السلام، كما تقدم، وقاسوا تلك الصفوف بخط مستوي، وأزالوا ما كان قبل ذلك من الازورار والاعوجاج، والحجر الشميسي نسبة إلى شميس تصغير شمس جبل بقرب بئر شميسي، وهي حد الحرم من جانب جدة به جبيلات صفر، تكسّر منها هذه الأحجار، وتحمل إلى مكة مسافة ما دون ليلة.

فكان في إدخال هذه الدعامات الصفر، ما بين الأساطين البيض، حكمة أخرى غير الاستحكام والزينة، وهي أن أساطين الرخام، الباقية من المسجد، كانت لا تفي بجوانبه الأربع، لأن الجانب الغربي احترقت أساطينه الرخام وسقفه، أيام الجراكسة، في دولة الناصر فرج بن برقوق في سنة اثنتين وثمانمائة، وأرسل من أمرائه الأمير سيف الظاهري إلى مكة المشرفة فعمر الجانب الذي احترق من المسجد الحرام بالحجر الصوان المنحوت، كما قدمنا ذكر ذلك في محله، وصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام بالحجر وهي "الجانب الشرقي والجانب اليماني والجانب الشامي" على نسبة واحدة أساطينها من الرخام الأبيض.

وأما أساطين الجانب الغربي جميعها فمن قطع الحجارة المنحوتة من الحجر الصوان، غير مناسبة للجوانب الأخرى الآن، فبإدخال هذه الدعامات الصفر

صارت الأساطين كلها على نسبة واحدة ، وهي أن كل ثلاث أساطين من الرخام الأبيض يكون رابعتها دعامة واحدة من الحجر الأصفر الشميسي ، وذلك في غالب الأروقة من الجوانب الأربع من المسجد الشريف ، وكلها قائمة على أقدمها بغاية الإحكام ، كأنها صفوف واقفة بالأدب ، حول صحن مسجد بيت الله الحرام ، من جهاته الأربع ، وهي أعلى من الارتفاع السابق وأرفع ، كأنها تنشد بلسان حالها مفتخرة على أمثالها بل تفوق على ما سواها وتطول :

إن الذي سمك السماء بنى لنا   بيتاً دعائمه أعز وأطول

واستمر أمير العمارة الشريفة ، حضرة الأمير أحمد المشار إليه ، شكر الله سعيه وبارك له وعليه ، في غاية بذل الجد والاجتهاد ، مقرون الحركة بالتوفيق والسداد ، يتلطّف بالخدم والعمال ، ويتفضل عليهم بأنواع الأفضال ، ويوصلهم أجورهم كاملة لا يقتطع منها مقتطعاً من أحد ، ولا يضر بحالة ، بل يزيدهم من عنده ويسامحهم بماله ، مع كمال الدقة في الأموال السلطانية ، والحرص على حفظها وعدم التبذير فيها ، وأما مال نفسه فيوسع به على الفقراء ، ويبذل لهم وللخدام والعمال ما أراد ، ويحسن إلى أهل البلاد ، مع التواضع وحسن الخلق ولين الكلام ، ومواساة الناس في جميع المهام ، والمشي في تشييع الجنائز معهم ، وعيادة مرضاهم وسلام القدوم واستجلاب رضاهم ، بحيث ترك عظمة الإمارة ، وصار من جملة فقراء الناس لكثرة تواضعه ، فأحبّه الناس وحمدوه ، وشكروا جميله وإحسانه ، وذكروا كثرة تجمله ولطفه ، ولقد جاءني إلى منزلي متفضلاً مراراً ، وأنا من آحاد الفقهاء ، بل من أدنى الفقراء ، وما فعل ذلك إلا محبة في الله أحبه الله ، لا لأمر يناله مني ، فإنه أجل قدراً وأعظم خطراً من ذلك ، وما ذكرته إلا ليعلم حسن تواضعه وتخلّقه ، وتلبّسه بالأوصاف الجميلة وتحققه ، فلا جرم أن الله تعالى وفقه لهذه الخدمة السنية الفاخرة ، وأتمّ عمل هذا الخير العظيم على يده ، فيكفيه ذلك سعادة في الدنيا والآخرة ، فكم من وزير كبير نبيل ، بل ملك عظيم جليل ، يتمنى الوقوف في هذه الخدمة مع جلالته ، ويعدها من أكبر سعادة دنياه وآخرته ، وما قدّرها الله تعالى إلا لمن ظهرت العناية الأزليّة في حقه ، فاختاره الله تعالى لذلك من بين عباده واصطفاه من خلقه ، وهو هذا الأمير الكريم الصفات ، فالله تعالى يعينه على فعل الخيرات ، ويسدّده في أفعاله وأقواله ، ويوفقه للباقيات الصالحات ، فلما كمل جانبان من المسجد ، وهما الجانب الشرقي والجانب الشمالي ، وحصل خبر انتقال حضرة السلطان سليم إلى دار النعيم ، رحمه الله وطيّب ثراه وأحسن

إليه في الدار الآخرة ، استمر الأمير أحمد ، المشار إليه ، أحسن الله تعالى إليه في عمله المبرور ، وفعله المعمور ، بالمعمور مستعيناً بالله ولي الأمور .

ثم قال القطبي ، بعد ذكر وفاة السلطان سليم ، رحمه الله تعالى ، وتولية ابنه السلطان مراد بن سليم على عرش السلطنة : كان أول عمل عمله اهتمامه بتكملة عمارة المسجد الحرام ، فبرز أمره الشريف العالي إلى أمير العمارة الشريفة ، المشار إليه سابقاً ، افتخار الأمراء الكرام "أحمد بك" أن يبذل جدّه وجهده في بناء المسجد الحرام ، ويسرع في إنجاز عمارته بكمال السعي والاهتمام . فبادر الأمير المشار إليه ، إلى بذل الجد والاجتهاد ، وتوجّه بكليته إلى إتمام تمام العمارة في خير البلاد ، فأعانه الله على إتمامها ، ومدّ بذلك سائر خدامها ، إلى أن تم بناء الجانبين الغربي والجنوبي من المسجد الحرام ، بجميع شرافاته وأبوابه ودرجاته ، من داخل المسجد الحرام وخارجه ، في أيام هذا السلطان الأعظم الأكرم ، خلد الله ملكه الأقوم ، وأيد سلطانه الأفخم ، وأفاض عليه سوابغ الفضل والنعم ، فتمّ و لله الحمد بسعد طالعه السعيد كل هذا على الوجه الحميد ، بحسن توجهه الشريف وقوة عزمه المشيد ، وكان ذلك في آخر سنة أربع وثمانين وتسعمائة ، وصار المسجد الحرام نزهة للناظر وبغية للخاطر ، وجلاء للنواظر ، وصفاء للقلوب والخواطر ، بحيث ما عمّره الخلفاء العباسيون قبل ذلك لا يحسن عنده أن يذكر ويوصف ، لأن هذا البناء الشريف أمكن وأزين ، وأعلى وأشرف ، فكأنه الآن إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، بعقود عالية كأطواق الذهب في الأجياد ، وقبب سامية كقباب الأقلال الشداد ، وشرافات شريفة مشرفة على المهاد والوهاد ، بل أعلى وأشرف ، وأجل وألطف ، وأرفع وأتحف ، فبني ذلك بالرخام الأبيض المرمر ، والحجر الشميسي المنحوت الأصفر ، كأنه سبك الذهب أو سبك العسجد والجوهر ، مكتوب على الأبواب ، وصدور الأروقة آيات الكتاب ، والاسم السامي السلطاني المستطاب ، بحلي الذهب بخط كسلاسل الذهب ، على كل موضع ما يناسب من الآيات الشريفة القرآنية ، وبالكتابة المنسوبة الفائقة الجميلة ، واختراع الفضلاء لذلك تواريخ عديدة بكل لسان ، واخترت أخصرها لأنه خير مساجد الله ، ثم رأيت بعض الفضلاء جعل لهذه العمارة الشريفة تاريخاً في بيت مفرد ، فأعجبني نظمه لحسن سبكه واستيفاء المعنى فيه فذكرته وهو هذا البيت :

جدّد المسجد الحرام مراد   دام سلطانه وطال أوانه

ثم رأيت تاريخاً جعله سيدنا ومولانا شيخ الإسلام ، وناظر المسجد الحرام ، ومدرّس أعظم مدارس أعظم سلاطين الأنام ، سيّد السادات العظام ، بدر الملّة والدين مولانا السيد القاضي "حسين الحسيني" قاضي المدينة المنورة سابقاً ، أدام الله إجلاله ، وضاعف فضله وإقباله ، فأثبته هنا بحسن إنشائه ولطف مبناه ، وسلامة لفظه وبلاغة معناه ، وهو هذا باسمه سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ . شرع في عمارة هذا الحرم الشريف وتجديده ، من اختاره الله من خلفائه وعبيده ، المقدّس المرحوم السعيد ، المبرور المغفور له الشهيد ، سلطان الإسلام والمسلمين ، خاقان خواقين العالمين ، المستظل بفضل الله في ظلال دار النعيم ، حضره الملك الأعظم السلطان سليم ، نوّر الله تعالى ضريحه ، وروّح بروائح الجنان روحه ، بناه وأكمله وأتقنه وحسّنه وجمّله ، وارث الملك الأعظم الإمام الأفخم ، الخليفة الأكبر الغطمطم ، والملك القاهر العرمرم ، من ملّكه الله شرق البلاد وغربها ، وجعل طوع يده بلاد عجم الرعايا وعربها ، وأطلعه سراجاً منيراً في المشارق والمغارب ، وملكاً مرفوعاً على هام الكواكب ، وصيّره للإسلام حصناً محيطاً ، وجعل ظلّه المديد على كافة الناس بسيطاً ، وعدله الفريد في جميع الوجود مبسوطاً ، وقمع بسلطنته الشريفة طوائف الكفر والعناد ، وجمع له بين الملك في الدنيا والفوز في المعاد ، خليفة الله على كافة العباد ، ورحمة الله الشاملة لجميع البلاد ، سلطان سلاطين الزمان ، خلاصة آل عثمان ، السلطان ابن السطان ابن السلطان ، الخنكار الأعظم "مراد" لا زال الوجود بدوام خلافته عامراً ، ولا برح الإيمان في أيام سلطنته قوياً ظاهراً ، وزاده الله قوة ونصراً ، وشد بملائكته الكرام أزراً ، فتاريخ تمامه قد جاء (أطال الله لمن أتمه عمراً) . انتهى من تاريخ القطبي .

نقول : الحقيقة أن بناء المساجد وغيرها بالعقود والقِباب أقوى وأمتن بكثير من التسقيف بالأخشاب ، ومثل العقود والقِباب ما يسمى عندنا في الحجاز بـ"الغُمْس" بضم فسكون ، وهذا الغمس لا يكون إلا في بناء الدور الحجرية ، ويكون في الطبقة السفلية منها ، ولا يزال هذا الغُمْس موجوداً إلى اليوم من بناء أهل الزمن القديم ، وجميع البنايات المتصلة بالمسجد الحرام مبنية بـ "الغمس" كخلاوي الزمازمة وما تحت المحكمة الشرعية ومدرسة محمد باشا ومدرسة الداودية ومدرسة السليمانية وغيرها .

ومع الأسف قد بطل في عصرنا هذا استعمال البناء بـ "الغمس" بتاتاً ، مع أنه قوي يحتمل مئات السنين كما هو مشاهد فيما بقي من البنايات القديمة ، بل نعتقد أنه أقوى بكثير من البنايات المسلّحة بالحديد والإسمنت .

ما كتب على جدار المسجد الحرام من الخارج من جهة المسعى

ولما تم تجديد عمارة المسجد الحرام ، الذي أمر به السلطان سليم ، والذي أتمها بعد وفاته ابنه السلطان مراد ، صدر الأمر السلطاني بكتابة نبذة في تاريخ تجديد هذه العمارة ، فكتب هذا التاريخ في جدار المسجد الحرام من الخارج من جهة المسعى من الجهة الشرقية ، أي من باب العباس إلى آخر باب علي .

وإليك نص الكتابة كما ذكرها العلامة القطبي في تاريخه وهو :

ثم ورد من الباب الشريف العالي تاريخ ، منظومه كدر النحور وغرب البحور ، ونثره كالدر المنثور والزهر المنشور ، بخطبة وتعريفات السلطان الأعظم ، في آخره ثلاثة أبيات بالعربي لا أعلم من أبدعه واخترعه ، وأنشأه ونظمه ورصَّعه ، وورد معه حكم شريف سلطاني ، يتضمن الأمر بكتابته على بعض أبواب المسجد الحرام ، فامتثل الأمر الشريف ، وكتب هذا التاريخ البديع اللطيف ، على باب سيدنا العباس إلى باب علي ، رضي الله عنهما ، في الجانب الشرقي من المسجد الحرام ، ونقر له في الحجر الشميسي وطلي بحلي الذهب في ذلك المقام ، ليقرأه الخاص والعام ، ويبقى ذلك النقر في الحجر على صفحات الليالي والأيام ، وهو هذا :

الحمد لله الذي أسس بنيان هذا الدين المتين بنبي الرحمة والإرشاد ، وخصّه بمزيد الفضل والكرامة والإسعاد ، وجعل حرم مكة مطافاً لطوائف الطائفين الحاجين من أقاصي البلاد ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأجلة الأمجاد ، ووفق عبده المعتاد ، بأحكام الأحكام الشريفة وتشييد أركانها على الوجه المراد ، المدخر في ذخر الآخرة المزيد من زاد المعاد ، أدام الله ظله الممدود على مفارق العباد ، السلطان ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان "مراد" جعل الله الخلافة فيه وفي أعقابه إلى يوم التناد ، لتجديد معالم المسجد الحرام الذي سواء العاكف فيه والباد ، فتم في افتتاح سلطنته العظمى لا زال للحرمين المحترمين خادماً ، ولأساس الجور والاعتساف هادماً ، بتجديد حرم بيت الله عز وجل ، بأمره المعزّز المبجّل ،

وعمر عامر جوده ، ما تضعضع من أركانه ، بعد ما كان ينقض عوالي جدارنه ، فجدّد جدران البيت العتيق وسوره ، بأكمل زينه وصوره ، بعدما أبلاه الجديدان ، وأكل عيدان أرضها الأرضة والديدان ، فرفع القباب ، موضع السطوح المبنية بالأخشاب وابتهج بهذه الحسنة الكبرى كل شيخ وشاب فأذعنوا له بالشرف الباهر ، والمجد الفاخر ، تالين قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وداعين الله له بالجميل والذخر الزاخر ، قائلين : اللهم أدمه في سرير الخلافة محروساً بحفظك من آفة ، وظافراً على من يريد خلافه ، مشيّداً للمساجد والمدارس ، مجدّداً لكلِّ خير منهدم ودارس ، واجعل بابه للراجين حرماً آمناً ، وجنابه للمحتاجين كفيلاً ضامناً ، يأتون إليه من كل فج عميق ، لحرمة البيت العتيق ، تقبل الله معطي السؤال هذا الدعاء الحري بالقبول ، فلما أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، جاء مشيّد الأركان حاكياً روضات الجنان ، وصار عنوان خلافته وبراعة استهلاله لمنشور سعادته ، في أوائل سنة أربع وثمانين وتسعمائة الهجرية ، وكان الابتداء بذلك التجديد ، بأمر والده الدارج إلى مدارج الملك المجيد ، السلطان السعيد "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم" السلطان سليم بن السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن السلطان محمد بن السلطان مراد بن السلطان أورخان بن السلطان عثمان ، مكنهم الله على في دار الجنان ، وأثل أخلافهم في مسند الخلافة إلى انقراض الزمان ، وكان الشروع في الرابع عشر من ربيع الأول من شهور سنة ثمانين وتسعمائة ، فلما سلّم السلطان سليم وديعته بأحسن تسليم وارتحل من دار القصور ، إلى ما هيأ الله له في الجنة من القصور ، قبل تمام مارام ، من تجديد المسجد الحرام ، وأجلس الله على سرير الخلافة نجله النجيب أحسن إجلاس ، وجعل حرمه مثابة للناس ، يسر الله له الإتمام بطلعة إقباله وجوده الليالي والأيام ، وأنام في مهد عدله إلى قيام الساعة وساعة القيام ، ونظم راقم هذه الأرقام ، تاريخاً يليق أن يكتب في هذا المقام ، وهو هذا :

جدّد السلطان مراد بن سليم	مسجد البيت العتيق المحترم
سرّ منه المسلمون كلهم	دار منشور اللواء والعلم
قال روح القدس في تاريخه	عمّر سلطان مراد الحرم

انتهى من تاريخ القطبي .

مقدار ما صرف في تجديد عمارة المسجد الحرام بالقباب بأمر السلطان سليم وابنه السلطان مراد

وهنا يستحسن ذكر ما صرفه السلطان سليم خان وابنه السلطان مراد خان ، رحمهما الله تعالى ، على جميع تجديد عمارة المسجد الحرام بالقباب ، من ابتداء هدمه إلى انتهاء عمارته ، مع ما يلحق ذلك من تهبيط محل السيل حتى لا يدخل المسجد الحرام ، وغير هذا من تعميرات وإصلاحات ، مع ملاحظة ما كان في ذلك الزمان من الرخاء والرخص ، ومقدار تفاوت قيمة الجنيه الذهب والريال الفضة والعملة الدارجة في تلك الأيام وفي عصرنا الحاضر . وإليك بيان ما صرف في هذه العمارة ، كما ذكره القطبي المكي في تاريخه ، الذي كان متصلاً اتصالاً وثيقاً بحكّام الأتراك والولاة ، والذي كان تجديد العمارة في زمانه وهو حاضر بمكة المشرفة . فإنه قال رحمه الله تعالى ، في تاريخه ما نصه :

وأخبرني الأمير المشار إليه ، أعظم الله شأنه ، وأحسن إليه ، أن الذي صرفه في عمارة المسجد الحرام ، هدماً وبناءً ، وقطعاً لأرض المسيل ، من جهة الجنوب إلى آخر المسفلة ، ومن جهة باب الزيادة إلى آخر مجرى سرداب العنبة ، من خاصة أموال السلطنة الشريفة ، نصرها الله تعالى "مائة ألف دينار ذهب جديد سلطاني" وذلك غير ثمن الأخشاب المحمولة من مصر إلى مكة المشرفة ، وغير ثمن الحديد الصلب لآلات العمارة ، كالمساحي والمجارف والمسامير والحديد المحدد رأسه ، بطول الرواقين وبين الأسطوانتين تحت كل عقد ، كيلا يجلس طير الحمام عليه وغيره فيلوّث المسجد بذرقه ، وهذا الحديد لتحديد رأسه وتواصله يمنع من جلوس الطير عليه ، وغير أهلّة القبب التي عملت بمصر من النحاس ، وطليت بالذهب ، وجهّزت إلى الحرم الشريف ، فركبت على أعلى القبب ، فصار لها منظر حسن وزينة عظيمة ، كأنها صفوف بالأساكف من الذهب ، بغاية السكون والأدب ، حول بيت الله تعالى ، زاده الله تعالى رفعة وعظمة ومهابة وإجلالاً ، وأثمان ذلك خارج عن القدر المصروف في العمارة الشريفة ، وكان عمل أهلّة قبب المسجد الحرام بمصر بأمر "بكلربكي" مصر الآن ، نائب السلطنة الشريفة بها في هذا الزمان ، أمير الأمراء العظام ، كبير الكبر الفخام ، محيي البلاد والعباد بعدله ، سَمِيّ

"روح الله المسيح" والأسماء تنزل من السماء زاد الله شأنه عظماً ، وأنعش بإحيائه العلماء ، والسادات الأجلاء الكرما ، وأفاض على أهل الحرمين الشريفين من فيض نيل كرمه الفياض ما يزيد على القياس ، وزرع بسحائب معدلته ومرحمته بذر محبته ومودّته في قلوب الناس ، وأعانه على البر والتقوى ، وصانه وحماه عن جميع الأسواء ، وأفاض عليه جلائل نعمه الباطنة والظاهرة ، وجمع له بين سعادتي الدنيا والآخرة .

ولما كان هذا المسيح "يعني الأمير عيسى" نائب السلطنة المذكور أحيا موات مصر وعمّر ما فيها من الخيرات ، أبرأ جميع ما بها وبأهلها من الأوصاب ، وأنعش أهل الحرمين الشريفين ، كما أحيا الموتى روح الله المسيح ، وجهز إليهم الصدقات المبرورة السلطانية المرادية ، وسرحها إليهم أحسن تسريح ، فهم داعون بدوام معدلته ، خلود ملك السلطان الأعظم المحسن الجزيل الإحسان حيث ولّى رعاياه من يرأف بهم ، وينعم عليهم بالخيرات الحسان ، أدام الله سعادته وإقباله ، ورقّاه وحفظه ورعاه وحماه من الأسواء ووقّاه . انتهى من تاريخ القطبي .

عدد أساطين المسجد الحرام وقبابه وعقوده

أما بيان عدد أساطين المسجد الحرام وأعمدته وعقوده وقبابه وشرافاته ، فإننا لم نتعرض لذكرها حتى لا يطول بنا الكلام ولا نرى ضرورة توجب ذكرها . فمن أحب الوقوف على تفاصيل كل ذلك فليراجع كتب التاريخ ، وبالأخص كتاب "تاريخ عمارة المسجد الحرام" فقد أتى مؤلفه الشيخ حسين باسلامة المكي ، رحمه الله تعالى ، بتفصيلات وافية عن كل ذلك من صحيفة (١٠١) إلى صحيفة (١١٢) .

ملحوظة : لما وقع الحريق المذكور في السنة المذكورة أمر السلطان برقوق سلطان مصر بعمارة المسجد الحرام وسقفه بخشب الساج كما كان ثم كثر فيه الترميم والإصلاح حتى آل الخراب فعمره بالقباب السلطان سليم ابن السلطان مراد الثالث .

الحريق الثاني بقرب المسجد الحرام

بمناسبة ما ذكرناه عن الحريق الذي وقع بمكة سنة (٨٠٢) اثنتين وثمانمائة من الهجرة، في رباط "رامُشْت" الكائن في الجهة الغربية من المسجد الحرام بين باب إبراهيم وباب الوداع، قال الفاسي: هو عند باب الحزورة ومنه امتدت النار إلى المسجد الحرام فالتهب سقفه وعجز الناس عن إطفائها فأخذت النار الجانب الغربي من المسجد، ولا زالت ما حولها حتى إلى الجانب الشمالي إلى أن انتهت إلى باب العجلة "أي باب الباسطية" وهنا خمدت بإذن الله تعالى ولطفه العظيم كما سبق تفصيل ذلك.

بهذه المناسبة نذكر أيضاً الحريق الثاني الذي وقع بمكة بقرب المسجد الحرام ولم يلحقه شيء ولله الحمد، وذلك في ليلة الاثنين الرابع من شهر محرم سنة (١٣٧٨) ثمان وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية، فإنه في هذه الليلة بينما الناس في صلاة العشاء بالمسجد الحرام، شبّت النار بسبب "إتريك" كان معلقاً بدكان في شارع "قاعة الشفا" عند باب الباسطية وباب العتيق، والإتريك بكسر الهمزة والتاء والراء، هو سراج يولع بكاز النفط له فتيلة من الحرير الصناعي بقدر بيضة الدجاجة عند إيقاده يكون ضوءه أبيض، وهو شائع الاستعمال في زماننا، فتعلقت النار من هذا الإتريك بستارة الدكان وخشبه وبالبضاعة التي فيها، ومنه انتقلت إلى البيت الذي فوقه، ثم إلى البيوت والدكاكين التي حوله، وبسرعة فائقة التهمت النار هذه البيوت والدكاكين عن اليمين والشمال ووصلت إلى قرب باب العمرة، ولقد حضرت جميع المعدات الخاصة بإطفاء الحرائق، مع رجال الإطفاء وجنود الشرطة وأهل النخوة والنجدة من مكة في تلك الليلة، إلى شارع قاعة الشفا وأخذوا يكافحون النيران من جميع الجهات، حتى أنهم أدخلوا سيارات الإطفاء والسيارات، التي تحمل الماء وغيرها، إلى نفس المسجد الحرام، ومنه مدّوا خراطيم المياه إلى المحلات، التي يقع فيها الحريق لإطفائها، وهذه هي أول مرة تدخل السيارات أي "الأوتومبيلات" إلى المسجد الحرام من جهة المسعى من "باب علي" المقابل لبئر زمزم، ومن حسن المصادفات كان العمل قائماً في توسعة المسجد الحرام فبطبيعة الحال كان الطريق غير عسير لدخول هذه السيارات من هذا الباب.

وانضم إلى مطافئ مكة مطافئ جدة ومطافئ المطار ، وأرسلت إدارة عين زبيدة وإدارة القصور ووزارة الدفاع معداتها ورجالها وناقلات الماء ، لتنضم إلى فرق المطافئ لحصار النار وإطفائها ، فبذلوا جهوداً جبارة في مكافحة النيران القوية التي كانت تلتهم كل شيء في سرعة فائقة لا تتصور ، حتى خمدت وانطفأت قبل فجر تلك الليلة بساعة واحدة ، ولولا لطف الله تعالى ورحمته لاحترقت محلّة سويقة وما يجاورها من محلة الشامية "إن الله رؤوف بالعباد" لكن لا تزال النار مشتعلة قليلاً تحت المنازل المهدومة وتحت الدمار ، ولا يزال الجنود ورجال المطافئ بمعداتهم يحاصرون الحريق نحو خمسة أيام إلى يوم الجمعة .

ولقد خرجت النساء والأطفال والرجال من المنازل التي تحترق وهم مذعورون ، بعضهم أخذ ما قدر من ماله وأمتعته ، وبعضهم خرج بنفسه وبأهله لا يلوي على شيء ، وقصدوا بأمتعتهم إلى المسجد الحرام يلتجئون إليه . وبعضهم فقد أهله وولده فاحترقوا بالنار أو ماتوا تحت هدم الدور والمنازل .

ويقدّر عدد الذين أصيبوا في هذا الحريق نحو اثني عشر شخصاً ، وعدد الذين ماتوا فيه نحو عشرة أنفس ، وعدد ما احترق من المنازل بأمتعتها وأثاثها أربعة وأربعون منزلاً ، وعدد ما احترق من الدكاكين سبعة وأربعون دكاناً بما فيها من البضائع المختلفة ، وقد عمّ الحزن والأسى أرجاء مكة .

ومما هو جدير بالذكر والشكر ، أنه تكوّنت ، إثر هذا الحريق ، عدة لجان في مكة وجدة والطائف وغيرها ، لمساعدة المنكوبين في هذه الكارثة بجمع التبرعات من أهل الخير والفضل .

وإن من أعظم لطف الله تعالى بعباده في هذه الحادثة ، هو وقوف الهواء في هذه الليلة وقوفا تاماً ، فلو تحرّك الهواء لاشتعلت النار أكثر فامتدّ الحريق إلى جهات متعددة في البلدة ، فالحمد لله الذي قدر هذا أو لطف فيه "والله رؤوف بالعباد" .

فيكون ما بين هذا الحريق الثاني الذي وقع في زماننا ، وبين الحريق الأول الذي وقع في رباط "رامُشْت" الذي احترق منه المسجد الحرام فعمره أحد سلاطين آل عثمان بالحجر والقباب بدلاً عن الأخشاب ، هو (٥٧٦) سنة خمسمائة وست وسبعين سنة تماماً ، ولقد قلنا أن هذا الحريق هو الحريق الثاني والحريق الذي وقع في سنة (٨٠٢) هو الحريق الأول ، بالنظر إلى أن الحريق كان عظيماً هائلاً التهمت النيران فيهما نحو مائتي منزل ودكان بما فيها من الأثاث والبضائع ، ولم نعد الحرائق

الصغيرة التي يحترق فيها منزلان أو ثلاثة ، ولا ما يحترق فيها من مساكن القش والعشاش والصناديق الصفيح ، فإن ذلك من الحوادث الصغيرة التي لا تسلم منها مكة ولا بلدة من البلدان في كل زمان ومكان .

نسأل الله اللطيف الخبير أن يحفظ بلده الأمين وسائر بلاد المسلمين من مثل هذه الكوارث العامة والخاصة بفضله ورحمته ، إنه بعباده لطيف خبير وبالإجابة جدير ، وهو سبحانه وتعالى على ما يشاء قدير .

انظر: صورة رقم ١٥٢ ، للحريق الذي حدث في قاعة الشفا بالشامية بمكة المكرمة

انظر: صورة رقم ١٥٣ ، لسيارات الإطفاء أثناء الحريق وهي داخل المسجد الحرام

الحريق الثالث

لقد وقع حريق في يوم الأحد السادس من ربيع الثاني سنة (١٣٨٦) ألف وثلاثمائة وست وثمانين هجرية قبل صلاة الظهر بساعة واحدة ، لقد شبّ هذا الحريق ، واشتعلت النيران بسرعة فائقة ، في أخشاب السقائل ، الموضوعة بباب السلام ، في العمارة الجديدة السعودية للمسجد الحرام ، فالتهمت النيران جميع أخشاب العمارة الموجودة هناك ، ولحقت الأعمدة الجديدة السعودية للمسجد الحرام حتى سقط منها المرمر المزين بها ، وكانت أضرار هذا الحريق جسيمة ، وذهب ضحيته بعض الأشخاص ، ولم يحصل ولله الحمد في عمارة المسجد القديم أقل ضرر . وقد ساهمت جمعيات فرق المطافئ ، في مكة وجدة والطائف ، في إطفاء النيران ، بعد أن ظلت مشتعلة مدة ساعتين ، ثم طفئت وخمدت قبل عصر ذلك اليوم ، حتى لم يبق لها أثر ولله الحمد . نسأل الله تعالى أن يحفظ بلده الأمين وأهلها الكرام من الأذى والأضرار بفضله ورحمته آمين ، والحمد لله رب العالمين .

إطفاء الحرائق قديماً وحديثاً

كانت العادة الجارية منذ قديم الأزمان في كيفية إطفاء الحرائق بواسطة السقائين ، فكانوا يحملون القِرَبَ والصفائح من التنك المملوءة بالماء إلى مكان الحريق ، ويصعدون إلى المنازل المحترقة فيطفئون النار ولو في الليل ، أما الذين ينظرون إلى الحريق فكانوا يرفعون أصواتهم بالدعاء والتكبير ، لحديث : إذا رأيتم الحريق فكبِّروا فإن التكبير يُطْفِئُه . رواه ابن عساكر وغيره .

وكان السقاؤون بمكة المكرمة على أتم الاستعداد لطوارئ الحريق ولو ليلاً، وبيوتهم معروفة في الحارات والمحلات، فإذا حدث حريق ليلاً أو نهاراً في محلة، سارع أهلها في إخبار السقائين، هؤلاء يحضرون بقربهم إلى الآبار والبازانات، فيفتحونها ويملؤون منها قربهم ويهرولون إلى محل الحريق، يساعدهم في ذلك ذوي المروءة والشهامة من أهل الحارات، فلا تمضي برهة إلا وقد أطفئ الحريق بإذن الله تعالى وقلّما تقع أضرار جسيمة، وأكثر الحرائق تقع في فصل الصيف لجفاف الأعواد والأخشاب فتشتعل فيها النار في لمح البصر، وأغلب أسباب الحرائق تافهة، إما من عود كبريت أو عقب سيجارة أو شرارة طارت من الهواء ونحو ذلك.

وظلت الحال كذلك بمكة المشرفة وبالحجاز عامة حتى سنة (١٣٦٥) ألف وثلاثمائة وخمس وستين هجرية، ثم في هذه السنة أرسلت الحكومة السعودية بعثة من مكة المشرفة، مكوّنة من بضعة أشخاص إلى مصر للتخصص في طريقة إطفاء الحرائق، من ضمنها: الزعيم فايز العوفي وهذه صورته، والقائد محيي الدين الصواف، فمكثت البعثة الإطفائية بمصر عاماً واحداً ثم رجعت إلى مكة للعمل بها، وبعد ذلك استوردت الحكومة سيارات الإطفاء، وصار للإطفاء إدارة مَستقلة، بها جميع أدوات الإنقاذ.

ولبيان الحقيقة كتبنا لمدير عام المطافئ، الزعيم فايز العوفي، وهو أول شخص للبعثة المذكورة، أن يكتب إلينا نبذة عن تاريخ وجود المطافئ بالطرق الحديثة، فأرسل إلينا حفظه الله تعالى ورجاله من كل سوء، نبذة وافية بالغرض المنشود، وذلك في ٢٧ جمادى الثانية سنة (١٣٨٢) وبرقم ١/١٢٩٤ وهذا نص خطابه:

حضرة الفاضل الأخ طاهر الكردي المحترم،

بعد التحية، إشارة لخطابكم حول طلبكم نبذة عن مراحل المطافئ التي تدرّجت فيها نحو التقدم. فعليه نعلمكم أن المطافئ تأسست منذ زمن بعيد، وكانت تعتمد على الطلمبات اليدوية، ذات العجلات، وبعد ذلك استوردت البلدية سيارات ذات البخاخة والناقوس، وهيأت البلدية بعثة إلى القاهرة عام ١٣٦٥، مكونة من: السيد فايز العوفي، والسيد محيي الدين الصواف، والسيد

علي عويضة ، والسيد عبد العزيز مراد ، والسيد محمد فرحات ، والسيد عبد الكريم مرزا ، لمدة سنة . وبوصول أول شخص من البعثة ، وهو السيد فايز العوفي ، أي في عام (١٣٦٦) استوردت سيارات حريق تدفع الماء بواسطة ماتور خاص لدفع الماء ، وتتبع هذه السيارات سيارات وايت لحمل الماء ، وفي عام ١٣٦٨ ارتبط هذا الجهاز بمديرية الأمن العام ، وأخذ يتقدم بخطى واسعة ، بفضل عناية ولاة الأمور ، وقائده المخلص الزعيم فايز العوفي ، الذي ابتعث إلى الولايات المتحدة الأمريكية لمدة ستة شهور ، استقى خلالها فن الإطفاء والإنقاذ ، وتحصل على شهادة من واشنطن ، وشهادة من نيوهافن بولاية كونيتكت ، ولما لهذا الجهاز من أهمية فقامت هذه المصلحة باستيراد السيارات ذات المتانة والسرعة الفائقة ، بحيث تدفع مائة جالون في الدقيقة ، بسرعة مائة كيلوًا . ومن الممكن أن تدفع الماء إلى قمم الجبال بواسطة الخراطيم الكاوتشوك ذات المنية (الونان) والوايتات سعة (٢٠٠٠) جالون . وفي عام (١٣٧٤) قامت المصلحة باستيراد المواد الكيماوية المضادة للمواد الملتهبة ، وهي بودرة (AB) ، ومادة ثاني أكسيد الكربون ، والمادة الرغوية المضادة للبنزين ومشتقاته ، والآلات الفنية الحديثة ، وسلالم الكلال ، وحبال الإنقاذ ، وأحزمة الشنكل ، وملاءة الوثب ، وكمامات الأكسجين . وبينما كان تعداد فرق المطافئ خمس فرق بالنسبة لأمهات المدن وهي : مكة ، جدة ، الرياض ، المدينة المنورة ، الطائف . بلغ تعدادها في العام سالف الذكر اثنتي عشرة فرقة . وفي عام (١٣٧٥) قامت المصلحة باستيراد سيارة حريق مزوّدة بسلم أتوماتيكي طوله ستون قدماً ، لإنقاذ الأرواح بواسطته ، بلغت قيمتها ثمانون ألف ريال ، كما قامت المصلحة بتأسيس مدرسة الإطفاء والإنقاذ ، تخرج منها عشرون ضابطاً في الدورة الأولى ، وتخرج منها أيضاً في دورتها الثانية عام ١٣٧٧ سبعة عشر ضابطاً وقام الزعيم فايز العوفي بتأليف كتاب "الإطفاء والإنقاذ" درس بمدرسة المطافئ ، ويدرس حالياً بمدرسة الشرطة . وفي عام (١٣٧٨) قامت المصلحة باستيراد البدلات المضادة للنار ، وهي من نوع الاسبستس ، والتي يمكن رجل المطافئ ، بعد ارتدائها ، اجتياز النار والدخول في وسطها وحمل الأشخاص الذين حالت النار دون خروجهم من المنزل أو المكان الذي نشبت فيه النار . وبلغ تعداد الفرق إلى ست عشرة فرقة . وفي عام (١٣٧٩) بلغ تعداد الفرق سبع عشرة فرقة . وفي عام (١٣٨٠) تفضل صاحب الجلالة الملك المعظم بإهداء ثماني سيارات ، من نوع مرسيدس للمطافئ ، مزوّدة بسلم ضخم ، وأصانصير

ومستحضرات طبية . وهذه السيارات تعتبر أضخم سيارات عرفتها المطافئ ، حيث يبلغ طول كل سلم فيها (١٢٠) قدماً وكانت لهذه الهدية أثرها الفعال . وفي العام نفسه ضم إلى هذه المصلحة الدفاع المدني ، وانتدب الزعيم فايز العوفي على رأس وفد إلى سويسرا ، لتمثيل بلاده ، وأصبحت المملكة العربية السعودية عضواً في منظمة الدفاع المدني الدولي . وفي عام (١٣٨١) انتدب الزعيم فايز العوفي والقائد محيي الدين الصواف لحضور مؤتمر الدفاع المدني . وأخذت المنظمة توالي إرسال النشرات الشهرية ، منذ أصبحت المملكة عضواً فيها . وفي عام (١٣٨١) انتهى رباط هذه المصلحة بمديرية الأمن العام وأصبحت مديرية عامة مرتبطة بوزارة الداخلية رأساً . وقد بلغ تعداد الفرق بالمملكة ثماني عشرة فرقة . وفي عام (١٣٨٢) رصدت هذه المديرية موازنة خاصة بالدفاع المدني ، وعند موافقة الجهات العليا على ذلك سيجري إحداث جهاز الدفاع المدني وإلحاقه بالمطافئ ، وفي النية ، إن شاء الله ، إنشاء شبكات المياه التي توزّع الحنفيات على طول الشوارع العامة ، في أمهات المدن ، وقد تفضل مجلس الوزراء وأصدر أمره بتنفيذ ذلك ، ضمن مشاريع شبكات المياه العامة للمدن . وفي هذا العام رصدت مديرية المطافئ في ميزانيتها مبلغ مائتين وخمسين ألف ريال لشراء زورق بخاري متوسط الحجم ، مزوّد بأحدث الآلات لمقاومة الحرائق التي تنشب في البواخر والمستودعات التجارية بميناء جدة . فضلاً عن وجود فرقة مطافئ برية بميناء جدة . ويجري شراء زورق مماثل لميناء الدمام في العام القادم . كما قامت هذه المديرية باستصدار أمر من المقام السامي ، بإلزام أصحاب محطات البنزين ، والورش الميكانيكية ، وورش النجارة ، بوضع المضخات اللازمة والإسعافات الأولية في محلاتهم ، وذلك درءاً بينما تصل المطافئ إلى مكان الحادث . وطبّق بالفعل ، والمطافئ مستعدة لتمرين عمال المحطات والورش على استعمال المضخات ، وسيطبّق ذلك بالنسبة لسيارات الأوتوبيس وسيارات النقل على اختلاف أنواعها وأحجامها .

ومما تقدم يظهر جلياً تقدم المطافئ المستمر في بلادنا . هذه نبذة خاطفة عن تاريخ المطافئ وتدرجها نحو التقدم ، والله نسأل التوفيق والسداد للجميع .

مدير عام المطافئ

عنه

القائد : محيي الدين الصواف

هذا هو وصف تدرّج حالة إطفاء الحرائق عندنا بمكة المشرفة ، بل إن هذه الحالة في الإطفاء قديماً وحديثاً هي حالة جميع الممالك والبلدان ، ففي مصر في القاهرة اشتروا في سنة (١٨٨٥) ألف وثمانمائة وخمس وثمانين ميلادية آلات بخارية للإطفاء ، واستبدلوا جماعة السقائين برجال من البوليس . ولم تعرف بمصر سيارات الإطفاء إلا في سنة (١٩١٣) ألف وتسعمائة وثلاث عشرة ميلادية ، ثم مضت فرقة المطافئ في القاهرة تسير قدماً نحو استكمال معداتها حتى أصبحت تضارع أحسن فرق الإطفاء في البلاد الأوروبية .

ولقد وقعت في جميع البلدان حرائق كثيرة وكبيرة ، في مصر والشام والعراق واستانبول والمدينة المنورة أيضاً ، لكن لا نتعرّض لذكر شيء غير ما كان بمكة من الحرائق الشهيرة ، وما ذكرنا نبذة عن تاريخ الحرائق إلا بمناسبة ما وقع من الحريق العظيم في قاعة الشفا بمكة المكرمة في عصرنا الحاضر ، كما ذكرنا وصفه في هذا الفصل ، نسأل الله تعالى عفوه وعافيته ولطفه ورحمته إنه بعباده لطيف خبير .

تحية المسجد الحرام: الطواف

يسن لداخل أيّ مسجد من مساجد الدنيا ، ولو كان المسجد النبوي بالمدينة ، أن يصلي ركعتين ، بنية تحية المسجد ، أما داخل المسجد الحرام بمكة فإنه يسن له الطواف وهو تحية بيت الله المعظّم ، لكن إذا دخل المسجد غير مريد الطواف فإنه يصلي ركعتين تحية المسجد .

وبهذا يمتاز حكم المسجد الحرام عن سائر المساجد ، فتحية الطواف لأجل البيت الشريف الواقع بوسط المسجد ، فالمسجد الحرام محيط بالبيت المطهر وتبع له . روى الأزرقي عن عطاء أنه قال : لما دخل النبي ﷺ مكة لم يلو ولم يعرّج ولم يبلغنا أنه دخل بيتاً ولا لوى لشيء ولا عرّج في حجته هذه وفي عمَره كلها ، حتى دخل المسجد ولم يصنع شيئاً ولا ركع حتى بدأ بالبيت فطاف به ، وهذا أجمع في حجته وعمَره كلها . انتهى .

تحية المسجد الحرام وما يطلب في دخوله

يسن للإنسان ، إذا دخل أي مسجد من المساجد ، في جميع الأقطار ، حتى المسجد النبوي بالمدينة المنورة ، أن يصلي ركعتين ، قبل أن يجلس أو يشتغل

بشيء، إلا المسجد الحرام بمكة فإن تحيته الطواف ، فإذا دخل الإنسان فيه فلا تطلب منه الصلاة وإنما يطلب منه الطواف إن تمكن من ذلك ، فلو دخل وقد منعوا الناس من الطواف لحادث كترقب طواف أحد الملوك صلى ركعتين تحية المسجد .

روى الإمام الأزرقي في تاريخه ، عن عطاء ، قال : لما دخل النبي ﷺ مكة لم يلو ولم يعرّج ولم يبلغنا أنه دخل بيتاً ولا لوى لشيء ولا عرّج في حجته هذه وفي عمَره كلها حتى دخل المسجد الحرام ولم يصنع شيئاً ولا ركع حتى بدأ بالبيت فطاف به وهذا أجمع في حجته وعمَره كلها . انتهى .

والسبب في عدم طلب صلاة ركعتي التحية للمسجد الحرام بمكة وطلب الطواف بدلاً عنها ، هو ما يأتي :

١) الإقتداء بفعل رسول الله ﷺ والصحابة .

٢) أنه يوجد في داخل المسجد الحرام بيت الله المعظم ، فمن الأدب أن القادم إذا وصل إلى بيت الله أن يلوذ به ويلجأ إليه ، وأن يطوف حول بيته ، عسى أن يحظى بعفوه وغفرانه ورحمته وإحسانه ، والطواف كالصلاة كما في الحديث .

٣) طلب الطواف من الداخل للمسجد الحرام ليتميز عن بقية المساجد في جميع الأقطار ، كما تميز عنها بالأمن والأمان ومضاعفة الثواب والحسنات .

ويستحب إذا وقع بصر الحاج على البيت الحرام ، أن يقف ويرفع يديه للدعاء ويقول : « اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من شرفه وعظمه ممن حجه أو اعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً . اللهم أنت السلام ومنك السلام فحينا ربنا بالسلام » ويدعو بما أحب من أمور الدنيا والآخرة .

ذكر الفقهاء أن القادم من أعلى مكة يدعو بهذا الدعاء ، إذا عاين البيت ، من الموضع الذي يقال له : رأس الردم وهو المسمى بالمدعا ، فهذا كان في الزمن السابق ، قبل حدوث الأبنية بالمدعا ، أما الآن فإن الكعبة لا ترى من هذا الموضع لارتفاع الأبنية ، وإنما ترى من باب المسجد ، فعليه يأتي القادم بهذا الدعاء إذا عاين الكعبة من أيّ أبواب المسجد كان ومن أي مكان كان .

ويستحب الدخول للمسجد الحرام لكل قادم من أي جهة كان ، من باب بني شيبة المسمى قديماً بباب السلام ، وهو العقد القائم عند مقام إبراهيم ، المقابل لباب

الكعبة ، لأن البيوت تؤتى من أبوابها ، فمكان العقد المذكور مكان باب السلام في الأزمنة السابقة ، قبل اتساع المسجد ، فالقادم إذا دخل الآن من أي أبواب المسجد ومرّ للطواف من العقد المذكور فقد أتى بالسنة ، لأن النبي ﷺ كان يدخل منه إلى المسجد ويخرج منه .

ويسن بعد أي طواف ، أن يصلي ركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام، الذي يقول الله تعالى فيه : ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ ويقول : ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ والحنفية والمالكية يرون ركعتي طواف الإفاضة واجباً، وفي تركها هدي عند المالكية .

والحكمة في سنية ركعتي الطواف : كأن الإنسان يقول كما أنني طفت بالبيت الحرام امتثالاً لأمر الله تعالى ، كذلك أصلي إليه امتثالاً وإطاعة له جل جلاله .

إدارة المسجد الحرام

كانت إدارة المسجد الحرام بمكة المشرّفة في عهد الأتراك العثمانيين منذ قديم الزمن ، تسند عادة إلى الوالي التركي لجدة ، فيكون الوالي له حق الإشراف التام على إدارة الحرم المكي ، وكان يطلق عليه لقب « شيخ الحرم أو مدير الحرم » .

وبطبيعة الحال ، ما كان الوالي يقدر على النظر في جميع شؤون المسجد الحرام ، وهو يقوم بجدة غالباً ، ومناط به الأمور المهمة ، فكان من الطبيعي أن ينيب عنه من يقوم بالإشراف على جميع أمور المسجد الحرام ، من نظافة وكنس وخدمة واستقبال كبار الزوّار ، والنظر في أمور الموظفين ، الذين يرتبطون بهذه الإدارة ، من الأئمة والخطباء والمؤذنين والأغوات والكتبة والخدمة والبوابين والمشدّين والزمازمة والكنّاسين والفرّاشين .

فوكيل الوالي بمكة المشرّفة ، الذي ينظر إلى شؤون المسجد الحرام ، كان من أهالي مكة المشرّفة ، فإذا ما كان هناك مسألة كبيرة كان من اللازم عليه أن يراجع رئيسه المباشر وهو الوالي ليتلقّى أوامره .

فكانت نيابة الحرم سابقاً محصورة في عائلة « نائب الحرم » الشهيرة بمكة اليوم ، وذلك منذ زمن طويل أكثر من مائتي سنة . كم اطلعنا على المستندات

والتقارير الرسمية التي لا تزال موجودة لديهم إلى الآن ، فمن ضمن ما اطلعنا عليه حجة شرعية مسجلة تحت ختم وتوقيع قاضي مكة ، حرسها الله تعالى ، فضيلة الشيخ محمد سعد الدين الحنفي ، مؤرّخة في غرة محرم الحرام سنة (١١٨١) إحدى وثمانين ومائة وألف ، تتضمّن أن أمير مكة الشريف مساعد بن سعيد ، قد أقام السيّد أحمد بن محمد ، قائم مقام شيخ الحرم الحالي ، شيخاً على السادة الأئمة والخطباء بالمسجد الحرام ، وعلى جميع خدام الحرم من أغوات ومشدّية وزمازمة وفرّاشين وكنّاسين وجميع خدام الحرم ، بدون معارضة أحد منهم ولا مخالفة له ، مع تفويضه في استلام ما هو مخصّص من أوقافات وخلافها ، كما كان عليه أسلافه السابقون .

ففضيلة قاضي مكة ، شرّفها الله تعالى ، أثبت وأيد هذا الإقرار والإقامة من شريف مكة وأميرها المذكور ثبوتاً شرعياً في الحجة الشرعية المذكورة .

ولما تولى الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمه الله تعالى ، على الحجاز في سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية ، أيّد إقامة عائلة نائب الحرم على خدمة إدارة المسجد الحرام ،كما كانوا في العهد السابق ، فهم ما يزالون في وظائفهم إلى اليوم ، لا يعارضهم في ذلك معارض .

ويقوم الآن بإدارة المسجد الحرام السيد حسن بن سليمان بن أحمد نائب الحرم . فقد تولّى هذه الإدارة في شهر ذي القعدة سنة (١٣٧٤) بعد وفاة أخيه السيد هاشم نائب الحرم ، وهو يقوم بمساعدة ابنه الأكبر السيد عبد القادر نائب الحرم ، في كل ما يتعلّق بالإدارة في خدمة المسجد الحرام من مراقبته ونظافته وشؤون خدمته .

ففي المسجد الحرام من المراقبين والفراشين والكناسين (٢٢٥) شخصاً ، ومن البوابين (٦٥) شخصاً ، وللمسجد الحرام من المؤذنين والمكبرين (٢٢) شخصاً وذلك في وقتنا الحاضر ، أما منذ خمسين سنة فأكثر فإليك ما ذكره صاحب كتاب مرآة الحرمين :

يقول إبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى ، صاحب كتاب « مرآة الحرمين » الذي حجّ مراراً قبل تأليفه للكتاب المذكور ، وقد كان آخر حجته سنة (١٣٢٥) خمس وعشرين وثلاثمائة وألف ، عن موظّفي المسجد الحرام ما يلي :

له شيخ هو الوالي عادة (أي الوالي التركي) ونائب، ووكيل للنائب، ومدير يقوم بشؤونه، وفيه من الموظفين ما يقارب سبعمائة منهم (١٠٧) مدّرساً يتقاضى ٤٤ منهم مرتباً يتراوح بين (٥٠٠) و (١٠٠) قرش والباقون متبرعون بالتدريس، ومنهم (٧٩) إماماً وخطيباً للحنفية، المتبرعون منهم ٣٤، ويتقاضى (٤٥) منهم مرتباً. وللشافعية (٢٤) إماماً وخطيباً، المتبّرعون منهم ١٦ والباقون بمرتب. وأئمة وخطباء المالكية (١٤)، المتبرّعون منهم ثمانية. وللحنبلية (٥) المتبرّعون اثنان منهم، والإمام أو الخطيب يتقاضى مرتباً يختلف بين (٤٠) و (١٠٠) و (٢٠٠) قرش، ومنهم (٥٢) خصياً (آغا) من بينهم رئيس ونقيب لهم، ومن ذلك (٤١) مؤذناً و (٨) وقّادين و (١٢) فرّاشاً و (١٠) محافظين على النظام (مشدّين) و (٢٠) كنّاساً و (٣٠) بوّاباً و (١١) جبّاداً (ملاّء للماء) و (١٨١) غسّالاً لقناديل المسجد و (١٨) خادماً خدمة سائرة ومن ضمنهم (٢٠) لهم مرتّبات قديمة، و (١٥) موظفاً في سقاية زمزم إلخ، أما الذين يقومون بخدمة الكعبة فسدنتها من بني شيبة. والخدمة في المسجد الحرام وراثية في الأكبر. انتهى من الكتاب المذكور.

فانظر رحمك الله تعالى إلى مقدار المرتبات والمعاشات الشهرية التي ذكرها هنا صاحب «مرآة الحرمين» والتي هي بالقروش، أدناها أربعون قرشاً وأقصاها مائتا قرش، وبين ما نحن اليوم عليه، بحساب الريال لا بحساب القروش، فما أرخص تلك الأيام وما أغلى هذه الأيام، حتى لقد أصبح قرش ذلك الزمان في مقابل ريال هذا الزمان بل أكثر، فقد ارتفعت البركة من الأرض، وعمّ الغلاء جميع الأقطار، نسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهله فهو أرحم الراحمين واسع الفضل والإحسان آمين.

قال الشيخ حسين بن عبد الله باسلامَهْ، في كتابه «تاريخ عمارة المسجد الحرام» عن إدارة المسجد الحرام ما نصّه: كانت إدارة المسجد الحرام في العصور المتقدمة يقوم بها أمراء مكة المكرّمة وولاتها، وذلك في عصر الخلفاء الراشدين، والخلفاء الأمويين والعباسيين وسلاطين الجراكسة، وكانوا هم المسؤولين، عن كل قصور يحصل من خدمة المسجد الحرام، أمام الخلفاء والملوك والسلاطين. فلما صار أمر الحرمين الشريفين بيد سلاطين آل عثمان، عهدوا بذلك أيضاً إلى ولاتهم

على مكة المكرّمة ، وأعطوهم لقباً خاصاً وهو « شيخ الحرم » وعيّنوا لهم نائباً ينوب عنهم في مراقبة عموم خدمة المسجد الحرام من مؤذنين ، وفرّاشين ، وكنّاسين ، وبوّابين ، ووقّادين ، ومشدِّية ، وغيرهم ، ثم عيّنوا دائرة للأوقاف ووضعوا لها رئيساً لقّبوه « مدير الأوقاف » ووظيفة هذا المدير مع دائرته ، القيام بجباية ما هو موقوف بمكة المكرّمة على المسجد الحرام ، وما احتوى من مآثر ، وصرف المرتّبات لعموم موظّفي المسجد الحرام ، وصرف العوائد السنوية ، التي تأتي من الخارج ، حسب شرط واقفها من مرور ، ومخصّصات وعوائد وحنطة الجراية وما أشبه ذلك ، ولها دفاتر خاصة تسجّل فيها أسماء الموظفين من أئمة ، وخطباء ، ومؤذّنين ، ووقّادين ، وكنّاسين ، وفرّاشين ، ومشدِّية ، وبوّابين ، وغيرهم . وكذلك سدنة الكعبة المعظّمة وأتباعهم من أهل الوظائف ، وأغوات الحرم ، وتقوم أيضاً بصرف عوائد رئيس السدنة الذين هم بنو شيبة بن عثمان الحجبي من طيب وبخور ، وما يلزم لغسيل الكعبة المعظّمة ، كما تقدم ذكره في تاريخ الكعبة ، ودائرة الأوقاف مرتبطة ، من الجهة الإدارية ، بشيخ الحرم ، الذي هو والي مكة ، ومن الجهة المالية بنظارة الأوقاف بالآستانة العليّة ، أي القسطنطينية .

وهكذا العمل ، منذ عهد السلطان سليم خان الأول إلى أن استقل الملك الشريف الحسين بن علي ، في ٩ شعبان سنة (١٣٣٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية ، بالحجاز . ثم في عهد الشريف الحسين ، سار على هذا العمل ، وزاد على خدمة الحرم دائرة شرطة ، وعيّن فيها رئيساً وجنوداً غير الشرطة المعتادين ، وجعل مهمتهم مراقبة اللصوص وأهل الفساد ، وجمع ما سقط من الحجّاج ، بالمسجد الحرام ، والإعلان عنه .

ثم لما تولى جلالة ملك المملكة العربية السعودية الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل السعود على الحجاز ، في سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية ، جعل للمسجد الحرام إدارة خاصة ، وجعل رئيسها نائب الحرم ، وسميت هذه الإدارة « مجلس إدارة الحرم » ، ووظيفتها القيام بإدارة شؤون المسجد الحرام ، مع مراقبة عموم خدمة المسجد الحرام ، والقائم بشؤون هذه الإدارة الآن هو السيد هاشم بن سليمان بن أحمد نائب الحرم .

وبما أن ريع أوقاف الحرمين الشريفين انقطع وروده إلى الحجاز ، من عموم الممالك الإسلامية ، الذي كان يرد خزينة نظارة الأوقاف العثمانية ، وكان يصرف

منه عموم عوائد الخدمة وغيرهم ، فقد أصدر إرادته جلالة الملك عبدالعزيز السعود المعظّم ، بصرف عموم مرتبات خدمة المسجد الحرام من صندوق المالية ، بعد أن صار تعديلها وزاد في مرتّب البوابين والمؤذّنين وغيرهم ، ضعف ما كان يصرف لهم في زمن الحكومة العثمانية .

وأما إدارة الأوقاف ، فصارت وظيفتها الآن هي عمارة ومرمة المسجد الحرام ، وإدارة شؤون الأوقاف العمومية ، وإدارة عموم المساجد الموجودة بمكة المكرّمة ، والقيام بالمطعم السعودي ، وتوزيع ما يصدره من الخبز الى كافة المستحقّين من الفقراء وغير ذلك . فهذا ملخص إدارة المسجد الحرام إذ التفصيل يحتاج إلى جزء خاص . انتهى من تاريخ عمارة المسجد الحرام .

مراقبة المسجد الحرام

جاء في تاريخ الخميس ما نصّه : وكان العباس بن عبد المطلب في الجاهلية رئيساً في قريش ، وإليه أمر عمارة المسجد الحرام والسقاية ، بعد أبي طالب ، أما السقاية فمعروفة ، وأما عمارة المسجد الحرام ، فكان لا يدع أحداً يشبّب فيه ، ولا يقول فيه هجراً ، وكانت قريش قد اجتمعت وتعاقدت على ذلك ، فكانوا له عوناً ، وأسلموا ذلك إليّه ، ذكره الزبير بن بكار وغيره مَن علماء النسب ، حكاه أبو عمرو . والتشبيب ترقيق الشعر بذكر النساء ، وكأنه أراد إنشاد ذلك في المسجد . والهجر بالضم الهذيان والقول الباطل ويطلق على الكلام الفاحش ، وذكر شهوده بيعة العقبة ، سيجيء في الركن الثاني . انتهى من تاريخ الخميس .

شرطة المسجد الحرام

الشُّرطة بضم الشين المعجمة ، هي في اصطلاح عُرفنا : جنود مختصّون بحفظ النظام والأمن داخل البلدة ، والشرطة معروفون من قديم الأزمان ، فجميع الحكومات الصغيرة والكبيرة ، لا بدّ لهم من اتخاذ الشرطة .

أما الشرطة في المسجد الحرام ، فأول من أنشأها الشريف حسين بن علي ، بعد أن استقلّ بالحجاز ، فإنه رحمه الله تعالى ، أصدر أمره في سنة (١٣٣٧) سبع وثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية ، بجعل قسم من جنود الشرطة في الحرم الشريف باسم « شرطة المسجد الحرام » يناط بها أمر مراقبة المسجد من اللصوص والسفلة ،

والمحافظة على راحة الحجّاج والطائفين ، والاحتفاظ باللقطات ، وما يسقط من الناس من الدراهم ونحوها ، في المسجد الحرام ، وتسليمها لأصحابها .

وما زال مركز شرطة المسجد الحرام موجوداً من ذلك العهد إلى اليوم ، وقد ازداد عددهم ، وتوسّعت أعمالهم ، في العهد السعودي ، لكثرة الحجاج الواردين في كل عام ، وقد تعزّزت قوة شرطة المسجد الحرام ، بمركز هيئة الأمر بالمعروف ، وجنودها المنتشرين في المسجد أيضاً ، وذلك للمحافظة التامة على من في المسجد الحرام ومراعاة حرمته وعدم التشويش فيه ، ولشرطة المسجد الحرام وجنود الهيئة فيه فائدة عظيمة جداً في موسم الحج ، ولهم فراسة ودقة نظر في المجرمين والنشّالين واللصوص ، وقد أمسكو بكثير منهم ممن يأتي مع الحجّاج بقصد السرقة والنشل في وسط المسجد الحرام ، فإنهم يندسّون بينهم ، خصوصاً في وقت ازدحامهم في الطواف ، واستلام الحجر الأسود ، وعند المسعى ورمي الجمرات ، لأن هذه مواقع الازدحام وغفلتهم عن أنفسهم ، ولكن أعين الشرطة والجواسيس لهم بالمرصاد ، ولولا ذلك لاستفحل الأمر ، واختلّ الأمن والنظام ، فالحمد لله على ذلك .

صورة بعض ما كتب على جدران أروقة المسجد الحرام من الداخل من جهة الحصوة

لما تمّ عمارة جميع المسجد الحرام بالقِباب ، كتب على جدرانه من الداخل والخارج بعض الآيات القرآنية ، وأسماء من قام بتعمير المسجد الحرام من الملوك والسلاطين . ونحن نذكر هنا إن شاء الله تعالى ، كل ذلك ، وإليك بيان ذلك :

جاء في كتاب «تاريخ المسجد الحرام» للشيخ حسين باسلامة المكي ، رحمه الله تعالى ، ما نصّه : ثم كتب على بعض أبواب المسجد الحرام ، وبعض صدور الأروقة ، آيات من القرآن الحكيم ، بعض الملوك والسلاطين ، الذين قاموا بعمارة المسجد الحرام ، بخط كنظم الدر ، على كل موضع ما يناسبه من الآيات الشريفة .

وكتب تاريخ هذه العمارة الذي حرره وأنشأه قاضي المدينة السيد حسين الحسيني بداخل المسجد الحرام ، فكتب نصفه في الوسط الأعلى من صدر الرواق الشرقي ، المقابل لجهة الكعبة الشرقية ، التي بها الباب ، بخط بارز جميل ، نقراً على

الجدار ، والنصف الآخر كتب في صدر الرواق الأمامي الغربي ، المطل على جهة الكعبة الغربية ، بعلو الرواق .

وهذا نص ما كتب في الجهة الشرقية باسمه سبحانه : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ شرع في عمارة هذا الحرم الشريف وتجديده ، من اختاره ا لله من خلفائه وعبيده ، المقدس المرحوم السعيد المبرور المغفور له ، الشهيد سلطان الإسلام والمسلمين ، خاقان خواقين العالمين ، المستفيء بفضل ا لله ، ظلال دار النعيم ، حضرة الملك الأعظم ، السلطان سليم نوّر ا لله تعالى ، ضريحه وروّح بروائح الجنان روحه ، بناه وأكمله وأتقنه وحسّنه وجمّله ، وارث الملك الأعظم ، الإمام الأفخم والخليفة الأكبر الغطمطم والملك القاهر العرمرم ، من ملّكه ا لله شرق البلاد وغربها ، وجعل طوع يده بلاد عجم الرعايا وعربها ، وأطلعه سراجاً منيراً في المشارق والمغارب ، وملكاً مرفوعاً على هام الكواكب .

هذا ما كتب على الجهة الشرقية من هذا التاريخ ، وكتب الباقي منه على الجهه الغربية ، وهو بنصّه : «وصير للإسلام حصنا محيطاً ، وجعل ظلّه المديد على كافة الناس بسيطاً ، وعدله الفريد في جميع الوجود مبسوطاً ، وقمع بسلطنته الشريفة طوائف الكفر والعناد ، وجمع له بين الملك في الدنيا والفوز في المعاد ، خليفة ا لله على كافة العباد ، ورحمة ا لله الشاملة لجميع البلاد ، سلطان سلاطين الزمان ، خلاصة آل عثمان ، السلطان ابن السلطان ، السلطان الخنكار الأعظم مراد ، لا زال الجود بدوام خلافته عامراً ، ولا برح الإيمان في أيام سلطنته قوياً ظاهراً ، زاده ا لله قوة ونصراً ، وشيّد بملائكته الكرام أزراً ، فتاريخ تمامه قد جاء : أطال ا لله لمن أتمه عمراً» . انتهى من تاريخ "عمارة المسجد الحرام" .

انظر: الصور أرقام : ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ وهي للحفريات المكتوبة على الجدران الخارجية للمسجد الحرام في البناية القديمة . والصورتين رقم ١٥٧ ، ١٥٨ لأحد الحفريات على مدخل أحد أبواب المسجد الحرام وأحد الجدران الخارجية للمسجد الحرام ، والصورة ١٥٩ لباب الصفا من الخارج في البناية القديمة ، والصورتين رقم ١٦٠ ، ١٦١ لأحد الحفريات التي على أحد الأبواب والجدران للمسجد الحرام في البناية القديمة.

انظر : الصور أرقام ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، وهي لبعض الحفريات التي على بعض أبواب وجدران المسجد الحرام قديماً ، والصورة رقم ١٦٧ لأحد أبواب المسجد الحرام قديماً من الأعلى ، والصورة رقم ١٦٨ لما كان مكتوباً على جدار باب عليّ من الجهة الغربية للصفا ، والصورة رقم ١٦٩ للحفريات الخطية الواضحة لأحد أبواب المسجد الحرام من الخارج في البناية القديمة ، والصورة رقم ١٧٠ لباب السلام ومداخله الثلاثة من الخارج من البناية القديمة.

بناء درج أبواب المسجد الحرام قبل عصرنا الحاضر

إذا رجعنا إلى الوراء ، أي إلى صدر الإسلام ، نجد أن أرض مكة ، شرّفها الله تعالى ، قد ارتفعت عن حالتها الأصلية ، بمقدار مترين أو ثلاثة ، وبعبارة أصح ، أن أرض مكة كانت مساوية لأرض المطاف التي حول الكعبة تماماً ، وقد كانت بيوت أشراف قريش حول المطاف ، وكانت جدران ظهورها بمثابة السور للمسجد الحرام ، وسبب ارتفاع الأرض ، هو نزول الأمطار وجريان السيول ، من أعلى مكة ، فتمتلئ شوارعها وأزقّتها من الأحجار والأتربة والرمال الآتية مع السيول والأمطار ، وبمرور مئات السنين ارتفعت الأرض شيئاً فشيئاً إلى أن وصلت إلى هذه الحالة التي هي عليها اليوم .

ولقد كانت العادة في البلدان منذ أربعمائة سنة أن يرفعوا كل عشر سنوات الأتربة التي جات بها السيول والأمطار ، من الجهة الشمالية ، وهي باب الزيادة ، ومن الجهة الجنوبية وهي باب أجياد ، حتى لا تدخل السيول في المسجد الحرام ، ثم أهمل ذلك . فارتفعت الأرض أكثر مما كان . ولا نزال نشاهد اليوم ارتفاع بعض الجهات والأراضي ، بسبب ما يهدم ويردم من البيوت والمنازل والمحلات .

ولقد كان الخارج من المسجد الحرام ، من باب إبراهيم ، ينزل نحو خمس عشرة درجة ، حتى يصل إلى أرض الشارع ، ثم ارتفعت الأرض ، فدفن منها نحو اثنتي عشرة درجة ، فلم يبق إلا سوى أربع درجات . وكان الداخل من باب السلام الكبير ، من جهة المسعى ، إلى المسجد الحرام ، ينزل خمس عشرة درجة ، ولا ندري هل كان عدد درجاته من الخارج مثلها أم لا ، فإنه لما ارتفعت أرض

المسعى صار الظاهر من الدرجات الخارجية هو درجة واحدة فقط ، وذلك قبل التوسعة السعودية ، فلما جاءت هذه التوسعة هدم كل ذلك .

والخارج من المسجد ، من باب الزيادة ، كان ينزل ثلاث عشرة درجة ، حتى يصل إلى أرض الشارع ، ثم ارتفعت الأرض ، فدفن منها ست درجات ، وذلك نحو سنة ثلاثمائة وألف ، والباقي ، وهو سبع درجات ، كانت موجودة في زماننا . وقد أدركناها ، وكنا نرقى عليها حتى نصل إلى باب المسجد ، إلى أن كان آخر شهر شعبان سنة ست وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، ففي هذا التاريخ ، فرشت أرض باب الزيادة من خارج المسجد بالتراب والحصى والنورة الإفرنجية المسماة بـ « الإسمنت » وبذلك دفن أربع درجات ، فصار الباقي منها الآن درجتين يصعد الناس منهما إلى المسجد الحرام ، وهكذا بقية أبواب المسجد الحرام .

بل إنه دفن من درج المسجد الحرام ، بسبب السيول أيضاً ، في القرن الثالث للهجرة ، سبع درجات ، كما ذكره الأزرقي ، في الجزء الثاني بالصحائف ٧١ و٨٨ و٨٩ من تاريخه ، وذلك في خلافة المعتضد با لله .

انظر : صورة رقم ١٧١ ، رسم لمكة والحرم بالفوتوغرافيا من جهة أبي قبيس

فبناء المساجد في جميع الدنيا يكون على أربعة أنواع :

١) مسجد أرضي ، كالمسجد النبوي بالمدينة المنورة وكالجامع الأزهر ، والمسجد الحسيني ، والمسجد الزينبي ، بمصر بالقاهرة . فهذه ليس فيها درج ، لا من الداخل ولا من الخارج .

٢) ومسجد نازل في الأرض ، له درج من داخله ، وليس عليه درج من خارجه ، وذلك كمسجد الشافعي بجدة ، فعلى أبوابه درج من داخل المسجد ، وليس له درج من الخارج ، غير درجة واحدة .

٣) ومسجد مرتفع عن الأرض ، كمسجد المعمار ومسجد عكاش بجدة ، وكمسجد المؤيد والمسجد الغوري والمسجد الرفاعي بمصر ، ففي أبواب هذه المساجد درج من الخارج ، وليس لها درج من داخل المسجد .

٤) ومسجد كالبركة والحوض . يصعد إليه من الخارج بدرج ، ويهبط فيه من الداخل بدرج . وهو المسجد الحرام بمكة المشرفة ولا ندري هل له مثيل أم أنه مفرد حتى في شكله وبنائه .

ولقد ذكر الإمام الأزرقي صفة أبواب المسجد الحرام وعددها وذرعها ، في الجزء الثاني من تاريخه ، وذكر في هذا المبحث عدد درجات كل باب من أبواب المسجد الحرام ، في بنائه الذي كان في زمانه ، فمنها أربع درجات ومنها ست درجات ، ومنها سبع درجات ، ومنها ثمان درجات ، ومنها عشر درجات ، ومنها اثنتا عشرة درجة . ونحن لم نذكر جميع ذلك خوف التطويل .

فالذي نستنتج من كلام الأزرقي ، رحمه الله تعالى ، المتوفى قبل منتصف القرن الثالث ، أن درج أبواب المسجد الحرام كانت في زمانه ، وكان بعضها مدفوناً ، عندما أغرق السيل المسجد وما حوله ، من المسعى والوادي والطريق ، كما هو صريح عبارته بصحيفة ٧١ من الجزء الثاني .

ثم الذي نذهب إليه ، أن درج الأبواب كان أول بنائه في زمن عبد الله بن الزبير ، الذي وسّع المسجد الحرام ، بعد عمر وعثمان ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، ثم كان في زيادة أبي جعفر المنصور كما كان بناء درج الصفا ودرج المروة لأول مرة في عهده وخلافته كما ذكرنا ذلك في محله ، ثم كان في زيادة الوليد بن عبد الملك ، ثم كان في زيادة أمير المؤمنين محمد المهدي العباسي ، رحم الله الجميع ورحمنا معهم ، فكل واحد من هؤلاء ، الذين زادوا في المسجد الحرام ، بنى درج أبواب المسجد الحرام من الناحية التي زاد فيها ، أما محمد المهدي فقد زاد في المسجد زيادة عظيمة جداً ، من جميع جهاته ، وجعله مربعاً كما هو في شكله الحاضر اليوم ، وذلك سنة (١٦٠) مائة وستين ، وسنة (١٦٤) مائة وأربع وستين ، فعليه يكون بناء درج أبواب المسجد الحرام ، من جميع الجهات الأربع ، من عمل محمد المهدي سنة (١٦٤) وهذا مما لا شك فيه .

ورُبَّ قائل يقول : لماذا لم نسند عمل درج أبواب المسجد الحرام إلى عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، اللذين زادا في المسجد أيضاً ، نقول : يجوز أنهما بنيا درجاً لأبواب المسجد الحرام ، ويجوز أنهما لم يبنيا درجاً مطلقاً ، وقد رجّحنا الرأي الأخير لقلّة زيادتهما في المسجد ، وصغره في عهدهما ، بالنسبة للزيادات العظيمة التي حصلت بعدهما ، وما دام التاريخ لم يذكر لنا أي خبر عن ذلك كله ، فالحقيقة التامة مجهولة لدينا . ولا يعلم الغيب إلا الله الواحد القهّار ، الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن أرض مكة لم ترتفع ، في زمان الخلفاء المذكورين ، الذين زادوا في المسجد الحرام ، كما ارتفعت أرضها في زماننا هذا ، وبين زماننا وزمانهم أكثر من ألف سنة ، ومعنى هذا أن عدد درج أبواب المسجد الحرام كان قليلاً لقلة ارتفاع الأرض في زمنهم .

ونشير أيضاً إلى أن بناء محمد المهدي العباسي للمسجد الحرام قد تغير وتجدد بالبناء العثماني الحاضر ، بالأعمدة الرخامية والحجرية وبالقباب ، وإن لم يخرج عن حدود بناء محمد المهدي . فعلى هذا وقد تقادم العهد تكون قد ارتفعت الأرض كثيراً عما قبل ، وهذا يستلزم بناء درج كثيرة على أبواب المسجد الحرام ليمنع دخول السيل إليه .

جاء في تاريخ الغازي نقلاً عن ابن فهد : أنه في سنة (٨٣٠) ثلاثين وثمانمائة بنى شاهين العثماني درجاً على أبواب المسجد الحرام ، ترد السيل عنه فبنى على باب الزيادة والعجلة والندوة وإبراهيم وباب الرحمة وأجياد والصفا وبقية الأبواب . انتهى كلامه . فباب العجلة هو المسمى الآن باب التكية المصرية بجوار باب أم هانئ .

وجاء في تاريخ الغازي أيضاً ، نقلاً عن السنجاري : أنه في سنة (١٠١٩) تسع عشرة وألف في رابع شعبان ، ورد مكة سليمان آغا ، ميرياخور السلطان محمد خان ، بمرسوم سلطاني لتعمير العين -إلى أن قال-: ثم شرع وصرف همته إلى العين إلى أن أتمّ كل خلل وجده ، وعمّر بقية الأماكن المأثورة بمكة كمسجد الخيف وقبة حراء ، وزاد في درج أبواب المسجد الحرام ، من خارجه ، حتى تمنع السيل من الدخول . انتهى كلام الغازي .

وجاء في هامش تاريخ الأزرقي ، بصحيفة ٦٩ من الجزء الثاني ، ما نصّه : أما درجات هذه الأبواب من الداخل والخارج فقد ذكر أيوب صبري ، أن أول من أنشأها ميرخور سليمان وذلك عام (١٠٩٢) . انتهى .

فالظاهر أن هذه العبارة هي توافق عبارة الغازي الذي نقله عن السنجاري ، غير أن بينهما اختلافاً في التاريخ . فتأمل .

وهنا ننقل من تاريخ القطبي ، عن مسألة درج المسجد الحرام ، حيث أنه جدد بناء المسجد الحرام بالقباب في زمانه ، وقد رأى كل ذلك في أوانه ، فقال رحمه الله تعالى ما نصّه : ومن جملة تعمير الحرم الشريف ، حفر خارج المسجد الحرام ،

من الجانب الجنوبي ، الذي هو مجرى السيل الآن ، فإن الأرض علت ، وامتلأ السيل كله ، إلى أسفل مكة بالتراب ، إلى أن لم يبق للدخول إلى المسجد من الأبواب ، التي في تلك الجهة ، إلا في ثلاث درجات ، بعد أن كانت نحو خمس عشرة درجة ، يصعد منها إلى أن يدخل من الباب إلى المسجد ، وكان هذا السيل يقطع ويحمل ترابه إلى خارج البلد من جهة المسفلة ، في كل عشرة أعوام مرة ، فغفل عنه نحو ثلاثين عاماً ، فعلت الأرض ، فجاءت سيول طافحة ليلة الأربعاء ، عاشر جمادى الأول ، سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة ، فدخلت من أبواب المسجد وامتلأ المطاف الشريف ، ووصل الماء إلى حول الكعبة الشريفة ، وعلا إلى أن غطّى الحجر الأسود وجدار الحِجْر الشريف ، ووصل الماء والطين إلى عتبة الكعبة الشريفة ، وعلا إلى أن قرب من القفل الباب الشريف ، ووقف الماء في الحرم الشريف يوماً وليلة ، وما أمكن أداء الصلوات الخمس فتعطّلت الجماعة سبعة أوقات ، وبادر مولانا شيخ الإسلام ناظر الحرم الشريف ، والأمير المعظم المكرم «أحمد بك» أمير العمارة الشريفة ، بخدامهم وعبيدهم وسائر المشدين وخدام الحرم الشريف ، والفقهاء والأعيان والتجّار إلى فتح طريق الماء من أسفل مكة .

ثم نظفت وغسل داخل البيت الشريف ، ثم نظف وغسل المطاف الشريف ومقام الحنفي ، ثم أخرجت الأوساخ من الحرم الشريف وكوم الطين أكواماً في المسجد ، ثم أخرج ثم فرش المسجد الشريف بالحصباء الجديدة وتعب في ذلك حضرة الأمير أحمد بك وصرف من ماله مبلغاً كبيراً .

ثم شرع في قطع المسيل وتهبيط أرضه إلى أسفل عشر درجات أو نحوها ، من الجانب الجنوبي ، من المسجد الحرام ، إلى آخر المسفلة ، وهو ممر سيل أعالي مكة ، فصار السيل إذا سال درج بسرعة ، ولم يصل إلى أن يمكنه الدخول إلى المسجد الحرام ، وفعل ذلك أيضاً من جهة باب الزيادة ، في الجانب الشمالي ، وهو ممر سيل قعيقعان وحواليه ، وجرى إلى باب الزيادة ولا يصعد إلى باب المسجد ، بل يدخل سرداباً واسعاً يسمّى العنبة ، ويجري فيه ، إلى أن يخرج من قرب باب إبراهيم ، فيسيل إلى أسفل مكة مع السيل الكبير ، وصان الله المسجد الحرام بذلك ، وصارت السيول بعد ذلك تسيل ولا تصل إلى باب المسجد ولا تقرب منه ، وهذا رأي سديد وعمل مهم نافع ، فيصان به المسجد الحرام عن دخول السيول إليه ،

غير أنه يحتاج إلى أن تنعقد ، في كل عامين أو ثلاثة أعوام ، فيقطع ما علا من الأرض ، قبل أن يعلو كثيراً فيحتاج إلى قطع كثير ومصرف زائد .

فاللازم على ولي الأمراء سلطان الإسلام والمسلمين ، نصره الله تعالى وشيد به قواعد الدين ، أن يسنّ لذلك قانوناً فيقطع هذا السيل في كل عامين مرة ، ليستمر المسيل منهبطاً دائماً ، لجريان السيل فيه ، صوناً للمسجد الحرام ، عن دخول ماء السيل إليه ، في كل سيل يأتي ، ويكون ذلك قانوناً مستمراً للسلاطين ، ويسطر ثواب ذلك في صحائف هذا السلطان الأعظم نصره الله تعالى .

وكانت اليد البيضاء في هذه المرة في هذه الخدمة الشريفة للأمير المعظم (أحمد بك) المشار إليه ، أنعم الله عليه ، وأكرم منزلته لديه ، وأجرى كل خير بيديه ، ويكفيه عند الله هذه المرتبة العظمى ، والمثوبات الجسام الكبرى . انتهى من تاريخ القطبي .

هذا ما كان من أمر بناء درج المسجد الحرام ، فالحمد لله على توفيقاته المتوالية ونعمائه المتتالية ، ونسأله المزيد من فضله الواسع وإحسانه العميم ، وصلى الله على سيدنا (محمد) أبي القاسم الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

المساجد التي بمكة

توجد بمكة وحواليها ، شرّفها الله تعالى ، مساجد كثيرة قديمة وحديثة ، وقد ذكر في كتب التاريخ مساجدها القديمة ، أما المسجد الحرام فهو أشهر مساجدها وأقدمها على الإطلاق ، فهو موجود منذ وجود بيت الله الحرام ، أي منذ عمارة إبراهيم خليل الله عليه الصلاة والسلام الكعبة .

أما المساجد الأخرى فكانت بعد ظهور الإسلام ، وقلّتها وكثرتها تبع لكثرة سكان مكة وتفرّق مساكنها في الشعاب والأودية ، لهذا كثر بناء المساجد بها ، في عصرنا هذا ، في كل محلّة ومنطقة ، كثرة لم يسبق لها مثيل من قبل ، لزيادة العمران والسكان .

نسأل الله أن يزيدها من الخيرات والبركات والأمن والأمان ، ظاهراً وباطناً إنه على ما يشاء قدير . هذا ولا نريد الإطالة في ذكر وإحصاء مساجدها كلها ، إنما نكتفي بذكر أشهرها وهو كما يأتي :

مسجد الراية

سمي هذا المسجد بمسجد الراية ، لأن النبي ﷺ ركز في موضعه رايته ، يوم فتح مكة ، وصلّى فيه أيضاً .

ذكر الغازي في تاريخه ما نصّه : ومنها مسجد الراية قال في الإعلام : فيه مئذنة ذات دورين ، تهدّم رأسها الآن ، ويقال لها منارة أبي شامة . وأمامه إلى جانب اليسار بئر معطّلة الآن ، يقال أنه بئر جبير بن مطعم ابن عَدي بن نوفل . ويقال أن النبي ﷺ ركز رايته يوم الفتح في هذا المسجد . انتهى .

وفي تحصيل المرام : ومنها مسجد بأعلى الردم ، عند بئر جبير بن مطعم ، يقال أن النبي ﷺ صلّى فيه ويعرف اليوم بمسجد الراية كما ذكره المحبّ الطبري . قال الأزرقي : وقد بناه عبيدا لله بن عباس بن محمد بن علي بن عبدا لله بن عباس ، وذكر السيد يحيى المؤذن في حاشيته ، مسجداً بأعلى مكة ، على يمين الصاعد إلى المعلا ، أمام زاوية الرفاعي ، الذي بسوحها دبل عين زبيدة ، قال : وهذا هو المسجد الذي شائع عند أهل مكة أنه مسجد الراية . انتهى .

قال الفارسي : وفيه الآن لوحان مكتوبان أحدهما كوفي لا يعرف ، والآخر فيه ، أن المستعصم العباسي أمر بعمله في شعبان سنة أربعين وستمائة ، وعمّره في أوائل سنة إحدى وثمانمائة الأمير قطلبك الحسامي ، عمارته التي هو عليها الآن .

قال الغازي : وفي أول سنة (١٣٦١) لقد أمر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود بتجديد عمارة هذا المسجد ، وقد عمّر ووسّع من جهته الشرقية ، ومقدار الزيادة (١٤) ذراعاً تقريباً بذراع اليد . وبينما كان العمال يحفرون الأساس ، ويهدمون أحد الجدران عثروا على حجرين من رخام مكتوب في أقدمها ما نصه : بسم ا لله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ .

هذا ما أنشأ من فضل ا لله وهو هذا المسجد المبارك ، المعروف بمسجد راية النبي ﷺ على التحقيق ، وجلّد ما كان بجواره من مسجد عتيق الشيخ الصالح ، مربي المريدين ، قدوة الصلحاء والمجددين ، العارف با لله أبو العباس أحمد سنية الشهير بأبي شامة ، نفع ا لله تعالى به في الدنيا والآخرة ، ابتغاء رضوان ا لله العظيم ، ورجاء لما جاء عن سيدنا ومولانا ، عليه الصلاة والسلام : من بنى

مسجداً لله ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة ، تقبل الله منه بمنّه وكرمه وكان الفراغ منه رابع عشر رجب سنة ثمان وتسعين وثمانمائة تقبّل الله منه .

وفي الثاني ما نصّه: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي جعل من القربات تعمير المساجد والمآثر وزيّنها بإعلان الشهادتين على فلك المنابر ، وقال عزّ من قائل : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وبعد وقد قدم عبد الأعتاب السلطانية بتشييد مئذنة ومسجد راية النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، ببلد الله الحرام ، وجعل رب السموات ذلك في صحائف مولانا السلطان محمد خان ، عزّ نصره وحرسه خلّد الله ملكه ، في شهر شعبان سنة (١٠٠٠) انتهى . وقد انتهت عمارة هذا المسجد في شهر ربيع الأول سنة (١٣٦١) وكتب على بابي المسجد تاريخاً وهذا نصّه : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ أمر بتعمير هذا المسجد حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود في ربيع الأول سنة (١٣٦١) .

كنا كتبنا مقالة عن مسجد الراية ، في جريدة "البلاد السعودية" ، بتاريخ ٢٥ جمادى الثانية سنة (١٣٧٤) وهذا نصّها :

بمناسبة تجديد عمارة مسجد الراية ، الذي بالجودرية ، بمكة المشرفة في هذا العام ، أحببنا أن نكتب عنه نبذة صغيرة تاريخية فنقول :

سمي هذا المسجد بمسجد الراية لأن النبي ﷺ ركز في موضعه رايته يوم فتح مكة ويقال صلّى فيه أيضاً .

ولقد اختلف العوام في موضع مسجد الراية ، فمنهم من يطلق على المسجد الواقع بالشارع العام ، على يمين الصاعد إلى المعلى قبيل المدرسة السعودية ، أنه هو مسجد الراية ، وهذا غلط كما لا يخفى ، والصحيح مسجد الراية هو المسجد الواقع عند بئر جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل ، وكان الناس في قديم الزمان لا يجاوزون هذه البئر في السكن ، وما بعدها خال من الناس .

وهذه البئر واقعة بالجودرية ، بين المسجد والزقاق الضيق الصغير النافذ إلى الطريق العام ، قال الإمام الأزرقي : هذه البئر حفرها في الأول قصي ثم دثرت فاستخرجها جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وأحياها .

وهذه البئر في عصرنا الحاضر مهجورة . فحبذا لو تولتها إدارة عين زبيدة واعتنت بتصليحها وتنظيفها ، حتى تكون صالحة للاستعمال ، فإنها بئر أثرية ، لها مكانتها في التاريخ .

ومسجد الراية يسمى أيضاً بمسجد الجودرية . وقد حدثت فيه تعميرات كثيرة في أزمان مختلفة ، وحصل تعميره في أيامنا مرتين : المرة الأولى : كان في أوائل عام (١٣٦١) ، ففي النصف من ربيع الثاني من هذا العام صلينا فيه العصر ، وكانت العمارة فيه جارية ، فرأينا في ساحته حجرين مكتوبين ، عثروا عليهما في أساسه ، مضمونهما أنه أمر ببناء هذا المسجد السلطان فلان وأنه بعد إجراء التحقيق ثبت أن هذا المسجد هو مسجد الراية .

وأحد الحجرين مؤرخ سنة (٨٩٨) من الهجرة وثانيهما مؤرخ سنة (١٠٠٠) ألف ، لكن مع الأسف لم ننقل نص الكتابة عليهما ، حيث لا توجد لدينا جهة مختصة ، تعتني بمثل هذه الآثار التاريخية . والمرة الثانية : العمارة القائمة فيه الآن عام (١٣٧٤) وهي عمارة تفوق العمارات السابقة بكثير في قوة البناء فقط ، ولكن لنا في هذه العمارة رأي ونظرية نذكره في آخر المقترحات الآتية إن شاء الله تعالى .

وبين مسجد الراية الذي بالجودرية بقرب المدعى وبين مسجد الراية الذي بالشارع العام بالمعلى نحو (٢٥٠) مائتين وخمسين متراً تقريباً ، ومسجد الراية الذي بالشارع العام الذي بالمعلى قد هدم مع ما يجاوره من المنازل لتوسعة الشوارع ، وذلك في سنة (١٣٧٩) هجرية ، فلم يبق لهذا المسجد من أثر .

ولنا بهذه المناسبة جملة اقتراحات ، وهي :

١) إنشاء إدارة خاصة تتحفظ بالآثار التاريخية عندنا .
٢) منع العمال من تكسير الأحجار والصخور المكتوبة حرصاً على حفظها وأخبار الجهة المختصة بذلك .
٣) عمل سجل خاص من قبل مديرية الأوقاف العامة يدوّن فيه أسماء المساجد والرباطات والتكايات ، مع نبذه تاريخية عن منشأها وعن كل ما يطرأ عليها من تغيير أو تعمير ، ليرجع إلى هذا السجل المؤرخون وأرباب المصالح .
٤) عمل سجل خاص من قبل أمانة العاصمة يدوّن فيه أسماء الشوارع القديمة والجديدة والأراضي القفرة التي تحيا فيما بعد ؛ كما يدون فيه كل ما يحدث بتفصيل تام .

فأمثال هذه السجلات مما ينفع المؤرخين وأصحاب المصالح . ومثل هذا معمول به في جميع الممالك ، فإنه يوجد بمصر في قلم خاص بالمحافظة سجلات تبحث عن أسماء الشوارع والمحلات والحارات القديمة والجديدة ، ويذكر فيها أي تبديل أو تغيير .

٥) أن يكون لدى وزارة الحج والأوقاف العامة مشرف فني يكون من اختصاصه النظر إلى جميع العمارات والترميمات والإصلاحات ، التي تجري في المساجد والأماكن الأثرية ، بل يكون من اختصاصه حتى ضرب البويات بألوانها المختلفة على المنائر (المآذن) والجدران ، فإن ضرب البويات فن وذوق ، كما أن فرش الرخام الملون في المساجد له هندسة دقيقة وذوق كبير ، ومساجدنا وعمارتنا مرموقة بأنظار عموم العالم من مختلف أجناس الحجاج الذي يكون بينهم العلماء والفنانون والمهندسون والمعماريون .

٦) إن العمارة الحديثة لهذا المسجد الأثري القديم ، التي كانت سنة (١٣٧٤) هجرية هي مختلفة تمام الاختلاف عن بناء المساجد في جميع الأقطار ، فموضع الصلاة في هذا المسجد من داخله عبارة عن غرفة مستديرة ، أما منارته أي مئذنته فلا تشبه مآذن المساجد مطلقاً ، فهي عبارة عن عدة حلقات مسطحة ، بعضها فوق بعض ، يفصل بين كل حلقة وأخرى نحو نصف متر ، والحلقة السفلى أكبر الحلقات ثم ما فوقها أصغر منها ثم تصغر كل حلقة عما تحتها حتى تكون الحلقة العليا أصغر الحلقات . وهذه المئذنة تقع على الشارع العام ، يراها كل الناس ، والحجاج إذا نظروا إليها يظنون أن هذه العمارة من دور الملاهي ، وهذه المئذنة لا يصعد فوقها أحد للأذان ، وإنما يؤذنون عند دخول وقت الصلاة في داخل المسجد ويسمع صوته بواسطة الميكرفون الموضوع على هذه الحلقات .

فنقترح على وزارة الحج والأوقاف أن تهدم هذا المسجد وتجدد عمارته على عادة المساجد المعروفة ، ونعتقد أن هذا من أوجب الواجبات حتى لا نكون عرضة للمعترضين .

هذا ما طرأ ببالنا الآن من الاقتراحات . ونسأل الله تعالى التوفيق والسداد في جميع أمورنا والله الهادي إلى صراط السواء .

مسجد خالد بن الوليد رضي الله عنه

قال الغازي في تاريخه : مسجد خالد بن الوليد هو في الموضع الذي غرز فيه رايته يوم فتح مكة ، قال العلامة الشيخ جمال المكي : وقد بني في هذا الموضع مسجد على يمين الصاعد إلى التنعيم بحارة المسماة الآن بحارة الباب ، وهذه العمارة الموجودة الآن عمرت سنة (١٢٨٠) ثمانين ومائتين وألف بناها حسن أفندي ، ناظر التكية ، ثم وسّعه رجل هندي في السنة المذكورة . ذكره في تحصيل المرام . انتهى من الغازي .

نقول : وفي سنة (١٣٧٦) ستة وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية هدّم مسجد خالد بن الوليد ، رضي الله عنه ، الذي بحارة الباب ، وبني بناية جديدة فخمة ، بمنارة ظريفة جميلة ، بواسطة مديرية الأوقاف العامة . وتمّ في السنة التي بعدها وهي سنة (١٣٧٧) وأصبحت الصلوات تقام فيه .

مسجد الجن

ذكر الغازي في تاريخه : ومنها مسجد بأعلى مكة ، يقال إنه مسجد الجن ، قال الأزرقي : وهو الذي يسميه أهل مكة مسجد الحرس ، وإنما سمي مسجد الحرس لأن العسس يجتمعون عنده ليلاً ، قال : وهو فيما يقال : الموضع الذي خطه رسول الله ﷺ لابن مسعود ، ليلة استمع عليه الجن . وإن الجن بايعوا رسول الله ﷺ فيه . ذكره في الإعلام .

وفي إتحاف فضلاء الزمن : وفي سنة اثنا عشر ومائة وألف عمّر إبراهيم بيك مسجد الجن بالمعلاة ، لأنه درس ودفن تحت الأرض ، مع كثرة السيول وتطاول الأزمان ، حتى أنهم غرسوا في ذلك المحل بعض أشجار وبستان كنبق وبعض الريحان ، وكانوا يسمونه الْجُنَيْنا ، فأحضروا المهندسين والعلماء وحفروا عن ذلك الموضع ، وظهر محراب المسجد ، الذي أسلموا الجن فيه ، من تحت الأرض ، وبادروا بقطع تلك الأشجار وتنظيف تلك البقعة ، ثم بني فيه مسجد صغير على حدّه الأصلي ، ووضع المحراب على ما كان عليه ، وجعلوا على أعلى المسجد قبة ، ثم بنوا مسجداً آخر على سطح المسجد المأثور ، مسجداً كبيراً بقبة عظيمة ، وجعلوا في جانب القبة طاجنين ومحراباً ، وسدوا القبة ، وفتحوا من أطراف القبة

لأجل الماء، وجعلوا بجانبه جنينة لطيفة، بابها من داخل المسجد المذكور، الذي خطّ فيها النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود ونهاه أن يخرج عن هذا الخط والدائرة، وعمّروا بذا المحل أحسن مسجد بأحسن البنيان. انتهى.

وقال السيد أحمد دحلان في سالنامته الحجازية: مسجد الجن على يسار الصاعد إلى المعلا، قريب من شعب الحجون، بوسط الطريق، وهو معروف مشهور، وهو فيما اشتهر موضع الخط الذي خطّه رسول الله ﷺ لعبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، ليلة استمع عليه الجن وبايعوه، والمأثور هو المحراب، الذي بتخوم الأرض، الذي ينزل إليه بدرج، لا الذي فوقه. انتهى.

وقال في تحصيل المرام: وفيه نزلت: ﴿قُلْ أُوحِيَ...﴾ إلى آخر السورة وهو الآن عمار، وعليه قبة صغيرة. انتهى.

أقول: هدمت هذه القبة في سنة (١٣٤٣).

نقول: لقد حصلت عمارات أخرى في مسجد الجن وقد شاهدنا العمارة التى حصلت بها في سنة (١٣٦٢) أو في التي قبلها ورأينا المحراب القديم الذي كان في غرفة تحت الأرض وهذه الغرفة صغيرة وهي اليوم غير ظاهرة للعمارة التي حصلت فوقها اليوم.

انظر: صورة رقم ١٧٢، مسجد الجن

مسجد أبي قبيس

على رأس جبل أبي قبيس، وفي قمّته، مسجد صغير، يطل على المسجد الحرام، ظاهر لعموم الناس، ومن جميع الجهات. فهو كما يقول الشاعر: «كأنه علم في رأسه نار» ولما كان جبل أبي قبيس أول جبل وضعه الله تعالى في الأرض، وهو الجبل العظيم المطلّ المشرف على المسجد الحرام، وكان هذا المسجد، الذي على قمته قائماً عليه كالعلم، فقد رأى الشريف الحسين، ملك الحجاز الأسبق، أن يجعل من هذا المسجد، الذي على جبل أبي قبيس علامة أي «ماركة» في شكل خاص، توضع على بعض الأوراق الرسمية الحكومية، كجوازات السفر وبعض أنواع الطوابع، وإليك صورة هذه العلامة «الماركة».

وبناء هذا المسجد على قمة جبل أبي قبيس قديم جداً ، يرجع إلى القرن الأول في الإسلام ، لأن الإمام الأزرقي المولود في القرن الثاني للهجرة قد ذكر هذا المسجد في تاريخه ، فقد قال عنه ما نصّه :

ومسجد على جبل أبي قبيس ، يقال له مسجد إبراهيم ، سمعت يوسف بن محمد بن إبراهيم ، يسأل عنه : هل هو مسجد إبراهيم خليل الرحمن ، فرأيته ينكر ذلك ويقول : إنما قيل هذا حديثاً من الدهر ، لم أسمع أحداً من أهل العلم يثبته .

قال أبو الوليد (أي الأزرقي يعني نفسه) : وسألت أنا جدي عنه ، فقال لي : متى بني هذا المسجد إنما بني حديثاً من الدهر ، ولقد سمعت بعض أهل العلم ، من أهل مكة ، يسأل عنه : أهذا المسجد مسجد إبراهيم خليل الرحمن ، فينكر ذلك ، ويقول : بل هو مسجد إبراهيم القبيسي ، لإنسان كان في جبل أبي قبيس .

فقلت لجدي : فإني سمعت بعض الناس يقول : إن إبراهيم خليل الرحمن حين أمر بالأذان في الناس بالحج ، صعد على جبل أبي قبيس فأذّن فوقه ، فأنكر ذلك ، وقال : لا ، لعمري ما بين أصحابنا اختلاف .

إن إبراهيم خليل الرحمن حين أمر بالأذان في الناس بالحج قام على مقام إبراهيم ، فارتفع به المقام حتى صار أطول من الجبال وأشرف على ما تحته فقال : أيها الناس أجيبوا ربكم . قال : وقد كنت ذكرت ذلك عند موضع ذكر المقام مفسراً . انتهى من تاريخ الأزرقي .

فعلم مما تقدم أن المسجد ، الذي بأعلى جبل أبي قبيس ، مسجد قديم ، بني في القرن الأول للهجرة ، لأن الإمام الأزرقي المولود في القرن الثاني قد سأل جده عن هذا المسجد ، فأجابه بما تقدم ، فإذا فرضنا أن الإمام الأزرقي ولد في سنة (١٦٠) من الهجرة ، وأن أباه ولد في سنة (١٣٠) وأن جده الذي أخبره عن هذا المسجد ، ولد في آخر المائة الأولى ، فإنه مما لا شك فيه أن بناية المسجد تكون في النصف الثاني من القرن الأول ، لكن لا نعلم في أي سنة بني بالضبط ولا نعلم اسم الشخص الذي بناه .

ولقد ذكر هذا المسجد ابن جبير الأندلسي في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة من الهجرة ، فقد قال عنه : «وفي أعلى جبل أبي قبيس رباط مبارك فيه مسجد وعليه سطح مشرف على البلد الطيبة ومنه يظهر حسنها

وحسن الحرم -أي المسجد الحرام- واتساعه وجمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه . . . الخ » . اهـ .

ولقد ذكر هذا المسجد أيضاً ابن بطوطة في رحلته ، التي كانت سنة (٧٢٥) خمس وعشرين وسبعمائة من الهجرة ، فقد قال عنه عند ذكر جبال مكة : « وبأعلى جبل أبي قبيس مسجد وأثر رباط وعمارة ، وكان الملك الظاهر ، رحمه الله تعالى أراد أن يعمره ، وهو مطل على الحرم الشريف وعلى جميع البلد ، ومنه يظهر حسن مكة ، شرفها الله ، وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة » . . . الخ .

وقال عنه في موضع آخر : إن أهل مكة من عادتهم أن يوقدوا المشاعل في أول ليلة من شوال ، ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وتوقد السرج في الصوامع ، من جميع جهاتها ، ويوقد على سطح الحرم كله -أي سطح المسجد الحرام- ويوقد على سطح المسجد ، الذي بأعلى جبل أبي قبيس ، ويقيم المؤذنون ليلتهم تلك في تهليل وتكبير وتسبيح » . . . الخ . اهـ . وهذه صورة المسجد الذي بأعلى جبل أبي قبيس في عصرنا الحاضر .

انظر: صورة رقم ١٧٣ ، المسجد الذي بأعلى جبل قبيس

ولا يخفى أن البناء الأول للمسجد غير باق ، ولكنهم يجددونه كلما قدم عهده وتهدّم ، وقد ذكر هذا المسجد أيضاً المؤرخ الكبير الشيخ عبد الله غازي ، المتوفى في عصرنا هذا في شعبان سنة (١٣٦٥) خمس وستين وثلاثمائة وألف ، رحمه الله تعالى في تارخه المسمى « إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام » نقلاً عن تحصيل المرام ، قال عنه ما يأتي : وفوق جبل أبي قبيس مسجد مشرف على الكعبة المعظمة والحرم ، بناه رجل هندي ، كما أخبرني بذلك والدي سنة ألف ومائتين وخمس وسبعين ، وكانت حجارته مرضومة في ذلك المحل ، يقال أنه مسجد إبراهيم وليس هو خليل الرحمن إنما هو رجل آخر . انتهى منه .

فعلم مما تقدم أن المسجد الذي بأعلى جبل أبي قبيس قديم يرجع عهده إلى القرن الأول ، ولا يزال محله معروفاً ، وإن تجدد بناؤه في كل عصر وزمن ، ولا يزال هذا المسجد عامراً يصلى فيه إلى اليوم ، وحوله على الجبل بيوت كثيرة يسكن الناس فيها .

ونقترح أن يبنى هذا المسجد العريق في القدم بناية جميلة المنظر ، مبتكرة الوضع والشكل ، وأن تشتري الحكومة ما حوله من البيوت والمنازل فتهدمها وتعبّد

مواضعها ، حتى لا يرتفع البنيان حوله فيحجب جمال المسجد ، لأن هذا المسجد مطل على المسجد الحرام ، وأينما كان الإنسان يراه ، لأنه على قمة جبل أبي قبيس ، وتجميل مناظر البلدة مطلوب . وا الله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب .

هذا ولقد طلبنا من وزارة الحج والأوقاف أن تعطينا بياناً بجميع المساجد الموجودة بمكة المشرفة سوى المسجد الحرام فجاءنا منها البيان الآتي ، فلها منا جزيل الشكر . فإليك أسماء جميع المساجد بمكة المشرفة مع بيان محلاتها ومواقعها وهي :

بيان بمساجد مكة المكرمة

عدد	اسم المسجد	الموقع	ملاحظات
١	مسجد الشهداء	الشهداء	
٢	مسجد الدهسة	المعابدة	
٣	مسجد ربع المسكين	المعابدة	
٤	مسجد أبو وادي	المعابدة	(الملاوي)
٥	مسجد خندمة (علي حجازي)	المعابدة	(الملاوي)
٦	مسجد السنوسي	المعابدة	(الخانسة)
٧	مسجد حارة بيشر	المعابدة	
٨	مسجد عودة المرديسي	المعابدة	
٩	مسجد علي بن ستر	المعابدة	
١٠	مسجد بن شويش	المعابدة	
١١	مسجد المصموم	المعابدة	
١٢	مسجد الخليفي	المعابدة	
١٣	مسجد الجعدة	المعابدة	
١٤	مسجد الأمير بندر بن عبدالعزيز	المعابدة	
١٥	مسجد مؤمنة	المعابدة	(حي الششة)
١٦	مسجد الخانسة	المعابدة	
١٧	مسجد الراجحي	المعابدة	(حي الششة)
١٨	مسجد ربع ذاخر	المعابدة	المعابدة

عدد	اسم المسجد	الموقع	ملاحظات
١٩	مسجد بن شليويح	المعابدة	(حي الروضة)
٢٠	مسجد النافع	المعابدة	(حي الروضة)
٢١	مسجد الهمزاني	المعابدة	(الخانسة)
٢٢	مسجد الأمير تركي العبد ا لله	المعابدة	
٢٣	مسجد الملاوي	المعابدة	
٢٤	مسجد الزهيري	المعابدة	
٢٥	مسجد الأميرة منيرة	المعابدة	(حي الروضة)
٢٦	مسجد عجلان	المعابدة	(حي الروضة)
٢٧	مسجد سيف بن غانم	المعابدة	
٢٨	مسجد العدل	المعابدة	
٢٩	مسجد بني عامر	المعابدة	
٣٠	مسجد سعد الجودي	المعابدة	(الخانسة)
٣١	مسجد الإجابة	المعابدة	
٣٢	مسجد الجميزة	المعابدة	
٣٣	مسجد الحبشي	المعابدة	
٣٤	مسجد بن عبيد	المعابدة	(الملاوي)
٣٥	مسجد الوذانين	المعابدة	(الملاوي)
٣٦	مسجد الأميرة شاهة	المعابدة	(خريق العشر)
٣٧	مسجد الأمير عبدا لله بن سعود	المعابدة	(خريق العشر)
٣٨	مسجد القصر العالي	المعابدة	(النوق)
٣٩	مسجد الشيخ محمود	جرول	
٤٠	مسجد ريع الكحل	جرول	
٤١	مسجد الصواعد	جرول	
٤٢	مسجد الجهني	جرول	(العتيبية)
٤٣	مسجد الزاهر	جرول	
٤٤	مسجد ريع الحجون	جرول	
٤٥	مسجد بن سويلم	جرول	(ريع اللصوص)
٤٦	مسجد ريع اللصوص	جرول	(ريع اللصوص)

عدد	اسم المسجد	الموقع	ملاحظات
٤٧	مسجد المجزرة	جرول	(العتيبية)
٤٨	مسجد دحلة حرب	جرول	
٤٩	مسجد أبو مدافع	جرول	(بجوار مطابع الندوة)
٥٠	مسجد العيوني	جرول	(العتيبية)
٥١	مسجد المبراز (عبدالله السلمان)	جرول	
٥٢	مسجد الطندباوي	جرول	
٥٣	مسجد الشهداء	جرول	(الزاهر)
٥٤	مسجد ريع الكحل	جرول	
٥٥	مسجد أبو دافع بالشعبة	جرول	(الزاهر)
٥٦	مسجد الكائن خلف القشلة	جرول	
٥٧	مسجد الحجلة	جرول	
٥٨	مسجد علي جميل	جرول	
٥٩	مسجد أبو عويس	جرول	(العتيبية)
٦٠	مسجد العرفاء	جرول	(العتيبية)
٦١	مسجد بن نمشان	جرول	(العتيبية)
٦٢	مسجد صالح بوقري	جرول	
٦٣	مسجد المجزرة	جرول	(العتيبية)
٦٤	مسجد الطبيشي	جرول	
٦٥	مسجد الأمير متعب	جرول	
٦٦	مسجد عيد بن محمد	جرول	
٦٧	مسجد ملقية العليا	جرول	(الزاهر)
٦٨	مسجد محطة الزاهر	جرول	
٦٩	مسجد الملك عبد العزيز	جرول	(الزاهر)
٧٠	مسجد التكارنة	جرول	(العتيبية)
٧١	مسجد السد	جرول	(العتيبية)
٧٢	مسجد عبد المحسن	جرول	(ريع أبي لهب)
٧٣	مسجد البخارية	جرول	(الهنداوية)

عدد	اسم المسجد	الموقع	ملاحظات
٧٤	مسجد جبل جحيشة (الكعكي)	جرول	(قرب المنطقة الخامسة)
٧٥	مسجد سوق البرنو الجديد	جرول	
٧٦	مسجد منصور قرب النافورة	جرول	
٧٧	مسجد ريع الكحل	جرول	
٧٨	مسجد دحلة حرب بسفح الجبل	جرول	
٧٩	مسجد أبو ترابة	الحجون	
٨٠	مسجد ريع الحجون الجديد	الحجون	
٨١	مسجد المدابغة	الحجون	
٨٢	مسجد حمدان الفرج	العتيبية	
٨٣	مسجد الحفائر	الحفائر	
٨٤	مسجد الدهلوي بالحفائر	الحفائر	
٨٥	مسجد جبل العبادي	الفلق	
٨٦	مسجد الفلق	الفلق	
٨٧	مسجد ريع الحجون	جبل السيدة	
٨٨	مسجد النقا	الحلقة بالنقا	
٨٩	مسجد الحلقة	بالنقا	
٩٠	مسجد بن سليم	الشعب	
٩١	مسجد بركة الشامي	الشعب برحة الرشيدي	مكرر
٩٢	مسجد الديثاني بخندمة	الشعب	
٩٣	مسجد الجيرت	الشعب	
٩٤	مسجد الراية	شعب عامر	
٩٥	مسجد البدري	شعب عامر	
٩٦	مسجد طويرق	شعب عامر	
٩٧	مسجد بئر الحمام	الشعب	
٩٨	مسجد زاوية الجيلاني	المدعى	(القرارة)
٩٩	مسجد شعبة النور	السليمانية	

عدد	اسم المسجد	الموقع	ملاحظات
١٠٠	مسجد الجن	السليمانية	
١٠١	مسجد الجندراوي	السليمانية	
١٠٢	مسجد الجيلاني	السليمانية	
١٠٣	مسجد رباط السليمانية	السليمانية	
١٠٤	مسجد بصير	السليمانية	
١٠٥	مسجد البدوي	الجودرية	
١٠٦	مسجد جبل أبي قيس	القشاشية	
١٠٧	مسجد السبع الأبيار	سوق الليل	
١٠٨	مسجد السد بأجياد	أجياد	
١٠٩	مسجد المصافي بأجياد	أجياد	
١١٠	مسجد بئر الغسال بأجياد	أجياد	
١١١	مسجد المراغنة	الشبيكة	
١١٢	مسجد جعفر ميرك	الشبيكة	
١١٣	مسجد المحجوب	الشبيكة	
١١٤	مسجد جبل عمر	الشبيكة	
١١٥	مسجد غندورة	حارة الباب	(الحفائر)
١١٦	مسجد الهندي بريع الرسام	حارة الباب	
١١٧	مسجد الموارعة	حارة الباب	
١١٨	مسجد خالد بن الوليد	حارة الباب	
١١٩	مسجد أم الحاضر	زقاق الحفرة	
١٢٠	مسجد أبو شدادين	المسفلة	
١٢١	مسجد الكعكي	المسفلة	
١٢٢	مسجد سعد بن مستور	المسفلة	
١٢٣	مسجد بئر سعيدة	المسفلة	
١٢٤	مسجد عبد الباقي بخاري	المسفلة	
١٢٥	مسجد دحلة الرشد	المسفلة	
١٢٦	مسجد حمزة	المسفلة	العدد مكرر
١٢٧	مسجد جامع شارع المنصور	شارع المنصور	

عدد	اسم المسجد	الموقع	ملاحظات
١٢٨	مسجد سعد بن سويلم	شارع المنصور	
١٢٩	مسجد النهاري	شارع المنصور	
١٣٠	مسجد بن معتق		
١٣١	مسجد علي حجازي		
١٣٢	مسجد المغاربة		
١٣٣	مسجد باحويرث		
١٣٤	مسجد بن ناجي		
١٣٥	مسجد أبو سودان		
١٣٦	مسجد غباد بن ناشئ		
١٣٧	مسجد إبراهيم السليمان		
١٣٨	مسجد الكمالية		
١٣٩	مسجد عبد ربه إلياس		
١٤٠	مسجد بن مليس		
١٤١	مسجد الحوازم		
١٤٢	مسجد حي التوفيق		
١٤٣	مسجد الرحلة		
١٤٤	مسجد حوض أبو طالب		
١٤٥	مسجد طلبة البخاري		

١٤٥ هذا هو مجموع المساجد بمكة المشرفة ، والمسجد الحرام لم يدخل في هذا العدد .

أما المساجد الموجودة بمنى ومزدلفة وعرفات فهي كالآتي :

١) في منى مسجدان مسجد الخيف ومسجد الكوثر .

٢) وفي مزدلفة مسجد واحد هو مسجد مزدلفة .

٣) وفي عرفة مسجدان مسجد نمرة ومسجد الصخرات . وتوجد بوسط جبل الرحمة قطعة صغيرة من الأرض المبسوطة يصلّي الناس فيها إذا كانوا على الجبل .

المقامات الأربع التي كانت في المسجد الحرام

يوجد بالمسجد الحرام أربع مقامات ، ينسب كل واحد منها إلى أحد الأئمة الأربعة ، أصحاب المذاهب ، وهي : « المقام الشافعي ، والمقام الحنبلي ، والمقام الحنفي ، والمقام المالكي » . يقول الشيخ حسين باسلامة ، صاحب كتاب « تاريخ عمارة المسجد الحرام » ، رحمه الله تعالى ، أنه بحث كثيراً في الكتب ، عن اسم أول من أحدث هذه المقامات ، وعن سنة حدوثها ، فلم يعثر على شيء ، والذي ظهر له ، بعد البحث الطويل ، أنها حدثت بين القرنين الرابع والخامس . قال : وذلك لأن ابن عبد ربه الأندلسي ، حينما وصف المسجد الحرام ، في كتابه العقد الفريد : ذكر كل ما احتواه من أروقة وأبواب وسقاية العباس ، وغيرها مما أزيل من المسجد الحرام ، ولم يذكر [illegible] الأربعة . وقد توفي ابن عبد ربه سنة (٣٢٨) . فدل ذلك على عدم وجودها في ذلك العصر .

وقد ذكر ابن جبير الأندلسي ، في رحلته المقامات الأربعة ووصفها ، وكان ذلك في السنة التي حج فيها ، وهي سنة (٥٧٨) . فدل ذلك على أنها أحدثت قبل ذلك التاريخ . فظهر من ذلك أن حدوث المقامات كان في القرن الرابع أو الخامس ثم ساق الشيخ باسلامة خبر المقامات تفصيلاً . اهـ .

ونحن لا نريد أن نأتي هنا بوصف المقامات وشكلها وما جرى لها من التعميرات والبناءات بالتفصيل ، ففي ذلك ضياع للوقت ولا فائدة فيه ، بعد أن هدمت في زماننا عام (١٣٧٧) من الهجرة ، وكان آخر المقامات هدماً هو المقام الشافعي ، الذي كان فوق بئر زمزم ، لقد هدم وهدم بناية هذه البئر المباركة في سنة (١٣٨٣) هجرية ، لأنها ليست بذلك بال ، فلا هي مقامات الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، ولا هي مقامات نفس الأئمة ، أصحاب المذاهب الأربعة ، أي نفس الإمام الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي ، وإنما هي مواضع وأماكن أئمة الصلوات الخمس ، في المسجد الحرام ، على المذاهب الأربعة ، وإنما يلزم أن نأتي بما لا بد منه ، مما يهتم به الناس ، فنقول وبالله التوفيق :

إن ما نراه في مقام الحنفي أنه أحدث ، أول ما أحدث ، على أربع قوائم ، عليها سقف يطلع عليه بسلّم ، أي على شكل المكبرية التي توجد في عموم مساجد مصر وغيرها ، لتبليغ الناس حركات الإمام ، ووجود المكبرية أمر ضروري في كل

مسجد كبير وجامع متّسع ، فالمقام الحنفي ، أول ما اتخذ ، كان بمثابة المكبرية للتبليغ ، والدليل على ذلك صورته ، التي هي عليه اليوم ، رغم تجدد التعميرات فيه ، بخلاف بقية المقامات ، وأيضاً ، لا يزال يرقى عليه المكبرون ، الذين يبلغون الناس حركات الإمام ، وموقعه في طرف حاشية المطاف ، مقابل لميزاب الكعبة ، ولم يكن ، في ابتداء الأمر ، ينسب للحنفي ، بل كان يطلق عليه لفظ «المقام» فقط أي مكان إقامة الصلوات ، أو مقام مبلغ حركات الإمام ، ولما كان المقام ، بطبيعة الحال ، مسقوفاً ، كان إمام المسجد الحرام يصلّي تحته ، ولا يبعد أنه كان حنفي المذهب ، فنسب المقام إليه ، فأطلقوا عليه «المقام الحنفي» فرقاً بينه وبين مقام إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، ثم بمرور الأيام وتوالي السنين ، والتشيع للمذاهب ، أحدثوا أربعة أمكنة حول حاشية المطاف : لكل مذهب من المذاهب الأربعة مكان خاص ، وأطلقوا عليها اسم المقامات الأربعة ، لكن ليس بينها ما يأخذ صفة المكبرية إلا المقام الحنفي .

ولما كان هذا المقام له أهمية كبرى في تبليغ الناس حركات الإمام إلى عصرنا هذا ، فقد اهتم السلاطين والملوك بتعميره وزخرفته وحسن بنائه ، وبالأخص سلاطين آل عثمان ، الذين كانوا على مذهب الإمام أبي حنيفة ، رحمه الله تعالى .

جاء في تاريخ القطبي المسمى «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» عن تجديد بناء المقام الحنفي ، بواسطة الأمير مصلح الدين بك ، الذي أرسله السلطان سليم خان ، إلى مكة ، بالصدقات والهبات ، لأهل الحرمين ، وذلك في شهر القعدة سنة (٩٢٣) تسعمائة وثلاث وعشرين هجرية ؛ ما نصّه :

ومما جدّده الأمير مصلح الدين المذكور بناء مقام الحنفية ، فإنه كان مسقفاً على أربعة أعمدة ، في صدره محراب عمل سنة (٨٠١) أحد وثمانمائة ، فأراد أن يوسّعه ويجعله قبة ، فأمر بعقد مجلس حضر فيه القضاة الأربعة والأئمة والعلماء والأعيان ، وقال لهم : إن الإمام الأعظم أبا حنيفة ، روّح الله تعالى روحه الشريف بروائح الروح والريحان والرحمة والرأفة والرضوان ، جدير بأن يكون له في هذا المسجد الحرام مقام يجتمع فيه أهل مذهبه ومقلّدوه ، يكون أوسع من هذا المقام . فقال بعض العلماء : إنه لا شك في عظم كل واحد من الأئمة ، رضوان الله عليهم أجمعين ، غير أن تعدّد المقامات في مسجد واحد ، لاستقلال كل مذهب بإمام ، ما أجازه كثير من العلماء ، وإن تعدّد هذه المقامات ، في وقت حدوثه ، أنكره العلماء

غاية الإنكار في ذلك العهد، ولهم في ذلك العصر رسالات متعدّدة باقية بأيدي الناس إلى الآن، وإن علماء مصر أفتوا بعدم جواز ذلك وخطّأوا من قال بجوازه، ثم انفضّ المجلس على غير اتفاق.

ثم ذكر القاضي بديع الزمان ابن الضياء الحنفي: أن جدّه القاضي أبا البقاء ابن الضياء أفتى بجواز ذلك، فشرع الأمير مصلح الدين في إتمام ما قصده، وهدم تلك السقيفة ووسّع المكان وعمل فيه قبة عالية من الحجر الأصفر والأحمر والشُميسي، وصرف على ذلك ذهباً كثيراً، واستمر مقاماً يصلّي فيه إمام الحنفية بالحنفيّن، إلى أن غيّره الأمير خوش كلدي أمير بندر جدة، وهدم القبة وبنى المقام مربعاً ذا طبقتين، جعل الطبقة العليا للمكّبرين، لتصل أصواتهم إلى سائر المسجد الحرام، لارتفاع مكانهم، وهو باق إلى الآن على هذا الحكم. انتهى من كتاب تاريخ القطبي.

أما مقام الشافعي، فقد كان موضعه خلف مقام إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، وصفته بترتان عليهما عقد لطيف مشرف من أعلاه، وفيه خشبة معترضة فيها خطاطيف، تعلّق عليها القناديل، بني بهذه الصفة عام (٨٠٧) ثم أزيل المقام الشافعي عن هذا المكان وحوّل إلى فوق بناء بئر زمزم، ليتّسع ما وراء مقام إبراهيم، عليه السلام، للمصلّين وحسناً ما فعلوا. ولم نقف على سنة إزالته، وتحويله إلى فوق بناء بئر زمزم، الذي لا يزال عليه إلى عصرنا الحاضر.

هذا رأينا الخاص في اتخاذ المقامات الأربعة، والله تعالى أعلم بغيبه، ولا نريد إطالة الكلام على ما حصل فيها من التعميرات والتجديدات، لأنها بدعة مستحدثة، وليست بذات أهمية، ومن أراد الاطلاع على ذلك فليراجع كتب التاريخ.

انظر: صورة رقم ١٧٤، المسجد الحرام وقد ظهرت فيه المقامات الأربعة قبل هدمها في سنة ١٣٧٦هـ

أما كيفية الصلاة في هذه المقامات الأربعة، فقد ذكرها ابن بطوطة، في رحلته، لّما حج، وذلك سنة (٧٢٨)، فقال ما خلاصته: أن يصلي أولاً إمام الشافعية ثم يصلي بعده إمام المالكية، ويصلي إمام الحنبلية معه في وقت واحد، ثم يصلي إمام الحنفية، كل واحد في محرابه، وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع، وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد كل إمام يصلي بطائفة. ويدخل

الناس من ذلك سهو وتخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي، وسجد الحنفي بسجود الحنبلي، وتراهم مصيخين كل واحد إلى صوت المؤذن، الذي يسمع طائفته، لئلا يدخل عليه السهو. انتهى.

وقال القاضي ابن ظهيرة في تاريخه في كيفية صلاة الأئمة الأربعة في المقامات: وأما كيفية الصلاة فيما تقدم من الزمن، فكانوا يصلون مرتبين، إلا أن المالكي كان يصلي قبل الحنفي مدة، ثم تقدم عليه الحنفي بعد التسعين وسبعمائة، ثم قال: ونقل الفاسي، عن ابن جبير، ما يقتضي أن كلاً من الحنفي والحنبلي كان يصلي قبل الآخر، ثم قال: أما صلاة المغرب فكانوا يصلونها جميعاً، أعني الأربعة في وقت واحد، فيحصل للمصلين بسبب ذلك لبس كثير، من اشتباه أصوات المبلغين، واختلاف حركات المصلين، فأنكر العلماء ذلك، وسعى جماعة من أهل الخير عند ولي الأمر إذ ذاك، وهو الناصر بن برقوق الجركسي صاحب مصر فبرز أمره في موسم سنة (٨١١) بان الإمام الشافعي، بالمسجد الحرام، يصلي المغرب بمفرده، فنفّذ أمره بذلك، واستمر الحال كذلك إلى أن تولى الملك المؤيد، صاحب مصر، فرسم بأن الأئمة الثلاثة يصلون المغرب، كما كانوا قبل ذلك، فابتدأوا بذلك في ليلة ٦ ذي الحجة سنة (٨١٠) واستمروا يصلون كذلك. انتهى.

فانظر رحمك الله إلى هذا التعصّب الزائد في المذاهب الأربعة، الذي خرج عن حده، حتى أدى إلى تفرقة الجماعات في الصلوات، في نفس المسجد الحرام، وهذا خلاف ما كان عليه السلف الصالح، وأهل القرون الثلاثة الأولى، وهم خير القرون بنص الحديث الشريف، ففي الصحيحين: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته».

على أن علماء الإسلام لم يسكتوا عن هذا الأمر، في ذلك الوقت، فإن الشيخ الإمام أبا القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب المالكي أفتى في سنة (٥٥٠)، بمنع الصلاة بأئمة متعددة، وجماعات مرتبة، بحرم الله تعالى، وقال: وعدم جوازها على مذاهب العلماء الأربعة. وقد أنكر أيضاً كثير من العلماء هذا الأمر حينما وصلوا إلى مكة للحج سنة (٥٥١) من أصحاب المذاهب الأربعة. ذكر أسمائهم الشيخ عبد الله باسلامة في «تاريخ عمارة المسجد الحرام». فراجعه إن شئت.

قال صاحب كتاب «مرآة الحرمين» : وأما الوقت الذي حدث فيه تعدّد الأئمة في الصلوات المفروضة ، فقال الفاسي : لم أعرفه تحقيقاً ، ثم نقل ما يدل على أن الحنفي والمالكي كانا مع الشافعي في سنة (٤٩٧) سبع وتسعين وأربعمائة هجرية ، وأن الحنبلي لم يكن في ذلك الوقت وإنما كان إمام الزيدة ، ثم قال : ووجدت ما يدل على أن إمام الحنبلية كان موجوداً في عشر الأربعين وخمسمائة ، راجع الرسالة ، التي كتبها الشيخ جمال الدين القاسمي ، في بدعة تعدد الأئمة .

انتهى من «مرآة الحرمين» هذه خلاصة مفيدة وافية عن المقامات الأربعة .

والذي أبطل هذه البدعة السيئة وأزالها تماماً الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، رحمه الله تعالى ، وأحسن إليه ، وذلك حينما تولى على الحجاز سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية ، فإنه أمر غفر الله لنا وله أن يصلي إمام واحد بالناس في الصلوات الخمس ، وهذه حسنة يؤجر عليها ، إن شاء الله تعالى ، ولا تزال الصلاة على هذه الحال إلى يومنا هذا ، ولله الحمد ، ومن أراد الوقوف على وصف المقامات الأربعة ، وما حصل فيها من التعميرات فعليه بمراجعة كتاب «مرآة الحرمين» لمؤلفه إبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى .

كيفية صلاة الأئمة في المقامات الأربعة التي كانت سابقاً

وذكر الفاسي ، في الجزء الأول ، من تاريخه «شفاء الغرام» عن ذلك ، ما يأتي : أما كيفية صلاتهم فإنهم يصلون مرتبين ، الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي . وذكر ابن جبير ما يقتضي أن المالكي كان يصلي قبل الحنفي ، وأدركناه كذلك ، ثم تقدم عليه الحنفي ، بعد التسعين ، (بتقدّم التاء على السين) وسبعمائة ، واضطرب كلام ابن جبير ، في الحنفي والحنبلي ، لأنه ذكر أن كلاً منهما يصلي قبل الآخر ، وهذا كله في غير صلاة المغرب ، وأما هي فإنهم يصلونها جميعاً في وقت واحد .

وسبب اجتماعهم في هذه الصلاة : أنه يحصل للمصلين لبس كثير ، بسبب التباس أصوات المبلغين ، واختلاف حركات المصلين ، وهذا الفعل ضلال في الدين ، لما فيه من المنكرات ، التي لا تخفى إلا على من غلب عليه الهوى . ولم يزل العلماء ينكرون ذلك ، قديماً وحديثاً ، نسأل الله زوال البدعة .

ثم زالت هذه البدعة، بسعي جماعة من أهل الخير فيها، عند ولي الأمر، أثابهم الله تعالى، وذلك أن في موسم سنة إحدى عشرة وثمانمائة ورد أمر السلطان الملك الناصر فرج، نصره الله تعالى، بأن الإمام الشافعي بالمسجد الحرام يصلي المغرب بمفرده، دون الأئمة الباقين، فنفّذ أمره الشريف بمكة كما رسم به، واستمر هذا الحال إلى أن ورد أمر الملك المؤيد أبي النصر شيخ صاحب مصر بأن الأئمة الثلاثة يصلون المغرب، كما كانوا يصلون قبل ذلك، ففعلوا ذلك، وأول وقت فعل فيه ذلك ليلة السادس من ذي الحجة من سنة ست عشرة وثمانمائة، وكذلك تجتمع الأئمة الثلاثة غير الشافعي على صلاة العشاء، في رمضان، ويجتمع أيضاً هؤلاء الأئمة الأربعة وغيرهم من الأئمة، بالمسجد الحرام، في صلاة التراويح في المسجد، ويحصل بسبب اجتماعهم في ذلك المنكر القبيح، الذي كان يقع دائماً، في صلاة المغرب، وأعظم لكثرة الأئمة فلا حول ولا قوة إلا بالله. انتهى من شفاء الغرام.

نقول: لقد بطلت هذه العادة ولله الحمد، وهي تعدد الجماعات في المقامات، وذلك منذ تولي الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، رحمه الله تعالى، على الحجاز سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، كما ذكرنا تفصيل ذلك في غير هذا الموضع.

حكم صلاة الأئمة المتعددة في المقامات

قال الفاسي في كتابه «شفاء الغرام» ما يأتي:

وأما حكم تعدد صلاة الأئمة في الفرائض في المقامات، فقد ذكر الفاسي في «شفاء الغرام» بعد أن ذكر كيفية صلاة الأئمة في المقامات، ما نصّه:

وأما حكم صلاة الأئمة الثلاثة: الحنفي والمالكي والحنبلي في الفرائض على الصفة التي يصفونها، فاختلف فيه آراء علماء المالكية، لأن شيخ الإمام أبا القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الحباب المالكي، أفتى في سنة خمسين وخمسمائة، بمنع الصلاة بأئمة متعدّدة وجماعات مترتّبة بحرم الله تعالى، وعدم جوازها على مذاهب العلماء الأربعة.

ثم إن بعض الناس استفتى في ذلك بعض علماء الإسكندرية، فأفتوا بخلاف ما رآه ابن الحباب، والذي أفتى بذلك شداد بن المقدم وعبد السلام بن عتيق

والشيخ أبو طاهر بن عوف بن الزهري . ولما وقف ابن الحباب على فتاويهم أملى في الرد عليهم أشياء كثيرة حسنة ، ونقل إنكار ذلك عن جماعة من العلماء الشافعية والحنفية والمالكية حضروا الموسم بمكة سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، فمن الشافعية أبو النجيب ، مدرّس النظامية ، ويوسف الدمشقي صاحب أسعد البهتي ، ونقل عنهما أنهما قالا : وأما صلاة المغرب فهي أشنع وأبشع ، وحضره العطاري في بعثة فقهاء نيسابور ، ومحمد بن جعفر الطائي يعني صاحب الأربعين . ومن الحنفية الشريف الفزنوي ، ومن المالكية عمر المقدسي ، وأقام الدلالة على فسادها ، وأنها مخالفة لرأي مالك وأصحابه . وذكر ابن الحباب : أن أبا بكر الطرسوسي ويحيى الزياتي ، شيخ شداد بن المقدم ، لم يصلّيا خلف إمام المالكية ، بالحرم الشريف ركعة مع كونه مغموضاً عليه . قال : ولا شيء أقبح بن جهل الإنسان بحال شيوخه .

وأما وقت حدوثهم فلم أعرفه تحقيقاً ، ورأت ما يدل على أن الحنفي والمالكي كانا موجودين في سنة سبع وتسعين وأربعمائة ، وأن الحنبلي لم يكن فيه موجوداً ، وذلك لأن الحافظ أبا طاهر السلفي حج في هذه السنة ورأى فيها أبا محمد بن العرضي القروي المقرئ ، إمام مقام الخليل عليه السلام بالمسجد الحرام ، وذكر أنه أول من يصلي من أئمة الحرم المقدس قبل : المالكية والحنفية والزيدية . انتهى .

ووجه الدلالة ، من هذا على ما ذكرناه ، من أن الحنبلي لم يكن موجوداً ، في هذه السنة ، عدم ذكر السلفي له وذكره لإمام الزيدية ، ولو كان الحنبلي موجوداً حينئذ لذكره السلفي ، فإنّه أولى بالذكر من إمام الزيدية . والله أعلم . ورأيت ما يدل على أنه كان موجوداً في عشر الأربعين وخمسمائة ، وقد ذكرت ذلك في أصل هذا الكتاب . والله أعلم . وكان بعض المتعصبين على الحنابلة يقطع حطيمهم من مكة ، لأن أبا المظفر سبط أبي الفرج ابن الجوزي قال في كتابه « مرآة الزمان » : إن مرجان خادم المقتفي العباسي بعد أن ذكر عنه أنه قال : قصدي أن أقلع مذهب الحنابلة ، لأنه لما حجّ قلع الحطيم ، الذي كان لهم بمكة ، وبطل إمامتهم بها . اهـ .

ثم جاء في هامش الكتاب ما يأتي :

صفة الحطيم خشبتان موصول بينهما بأذرع شبه السلّم ، تقابلهما خشبتان على تلك الصفة ، قد عقدت هذه الخشب على رجلين من الجص ، غير بائنة

الارتفاع ، واعترض في أعلى الخشب فيها خطاطيف حديد ، فيها قناديل معلّقة من الزجاج . انتهى من « شفاء الغرام » .

هدم المقامات الأربعة التي كانت بالمسجد الحرام

لما صدرت الموافقة الملكية بتوسعة المطاف ، وهدم المقامات الأربعة ، في زماننا ، قاموا بتنفيذ الرغبة الملكية ، فهدموا أولاً « المقام الحنبلي » الذي هو بقرب بئر زمزم ، وذلك في ليلة الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر شعبان سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية .

ثم هدموا « المقام المالكي » الذي يقع بين المقام الحنبلي والمقام الحنفي ، أي كان مقابلاً لظهر الكعبة ، وذلك في ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من شهر شعبان من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية .

ثم هدموا « المقام الحنفي » الذي يقع في الجهة الشمالية ويقابل ميزاب الكعبة ، وذلك بعد عيد الفطر ، أي في يوم السبت الثامن من شهر شوال من السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية .

وكان في هذا المقام مكبّرات الصوت المسماة « ميكرفونات » ليصل إلى الناس صوت الذي يقيم الصلاة ، ويكبّر لدى حركات الإمام ، فعند هدم هذا المقام نقلوا هذه الميكرفونات إلى المقام الشافعي الذي هو فوق سطح بناء بئر زمزم .

أما المقام الشافعي ، فقد تأخّر هدمه عن السنة المذكورة سنة (١٣٧٧) هجرية ، لأنه ليس له بناء مستقل وحده ، كالمقامات الأخرى ، فهو يقع فوق بناء بئر زمزم ، فهدمه لا يكون إلا بإزالة هذا البناء ، ثم الناس في حاجة إلى من يبلغهم حركات الإمام ، ومكبرات الصوت فوق هذا البناء ، فلا يمكن إزالته لتوسعة المطاف ، إلا إذا بني لمكبرات الصوت موضع خاص ثابت ، ولم يتقرر ذلك لدخول موسم الحج ووصول بوادر الحجاج ، ثم إنهم هدموا « المقام الشافعي » مع بناية بئر زمزم في سنة (١٣٨٣) هجرية .

المزاول والساعات في المسجد الحرام

كان معرفة الناس بوقت الزمن والساعات، في بدء الأمر، بواسطة الشمس، فكانوا يضعون عصا أو نحوها في الأرض، فإذا ظهر ظل الشمس على العصا في الأرض، يعرفون الوقت بموجب هذا الظل طال أم قصر.

أما معرفتهم للوقت بالليل حيث لا شمس عندئذ، فلهم علامات خاصة بواسطة بعض الأشياء، فبعضهم كان يعرف الوقت بواسطة الشمعة، بأن يقسمها إلى اثنتي عشرة خانة، ويضع على كل خانة رقماً خاصاً من (١-١٢) باعتبار أن الليل اثنتا عشرة ساعة وأن النهار مثله أيضاً.

فبقدر احتراق الخانات في الشمعة يكون عدد الساعات، التي مضت، وكذلك كان يعرفون الوقت بواسطة ماعون من الزجاج كالكأس، يقسمونه إلى اثنتي عشرة خانة كالشمعة، ويضعونه تحت موضع نزول الماء، فينزل الماء في الماعون نقطة نقطة، فبمقدار ارتفاع الماء في خانات الماعون يكون عدد الساعات التي مضت.

وكذلك كانوا يعرفون الوقت بواسطة الساعات الرملية، وهي من الزجاج، مقسّم إلى قسمين، على شكل مخروط كالمحقن المسمّى بمصر «القمع»، ويتصلان ببعضهما من قاعهما المستدق المخروق بخرق صغير، فيملأ الأعلى منهما برمل ناعم وبقدر مخصوص، ثم يترك لينزل الرمل شيئاً فشيئاً إلى القسم الآخر، فبقدر ارتفاع الرمل في الخانات يكون عدد الساعات التي مضت، هذا بعد تقسيم الزجاج إلى اثنتي عشرة خانة ووضع الأرقام عليها كالشمعة.

انظر: الصور أرقام ١٧٥، الشمس والعصا، والصورة رقم ١٧٦ للساعة الرملية، والصورة رقم ١٧٧، للساعة الشمعية.

إن معرفة الزمن والوقت أمر لازم لكل إنسان عاقل، يدرك عواقب الأمور، ويفهم الخير والشر، أما المجنون والمعتوه والنائم والحيوان غير الناطق، فهؤلاء يمر عليهم الزمان وهم لا يشعرون بمروره ولا بمقداره.

وإن أشد من يعنيهم مرور الزمن هو: العاشق المترقب الوعد من محبوبه، والمترقب لبيان نتيجة الأطباء في إجراء عملية خطيرة لعزيز عليه، والمحبوس الحبس الانفرادي في مكان ضيق محدود، والتلامذة في نتيجة الاختبار، والقائد الأعلى في

انتظار اللحظة الحاسمة في الحرب بشارة الانتصار، والموعود من سخي كريم بقضاء حاجته في موعد محدد، والصائم في اللحظات الأخيرة عند المغرب، والقائم بالأذان لإعلام الناس بدخول وقت الصلاة، والمنتظر لأمر يهمه في وقت معين. كل هؤلاء ومن يعطف عليهم يهمهم معرفة الوقت والزمن. نسأل الله الكريم الحليم أن يجعلنا ممن ينتظرون بشائر الخير والفرح والسرور آمين.

جاء في كتاب «التراتيب الإدارية» بصحيفة ٧٨، من الجزء الأول ما نصّه: فائدة قال الحافظ السيوطي في «التوشيح»، في تاريخ ابن عساكر، بسند ضعيف: إن أول من قدّر الليل والنهار اثنتي عشرة ساعة نوح عليه السلام حين كان بالسفينة، وفي الإكليل له على قوله تعالى: ﴿وجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ... الآية﴾ أصل في علم المواقيت والهيئة والتاريخ هـ. وفيه أيضاً على قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ أصل في علم التوقيت والحساب ومنازل القمر والتاريخ. اهـ.

وقد أخرج أبو الشيخ، بسند فيه مجهول، عن ابن الزبير، قال: أخذ الأذان من أذان إبراهيم، وأذّن في الناس في الحج، فأذن رسول الله ﷺ، قال الشيخ زروق، في حواشي الصحيح: لا يبعد أن يكون أحد المقويات لرؤياهم، حتى سكن إليها دون آرائهم المتقدمة، إذ لا منافاة، وسواء قلنا جاء به الوحي أم لا، لاحتمال أن يكون الوحي ورد بعد ذلك، مؤكداً لما عندهم من الرؤيا والنظر. اهـ.

وفي مخطط مصر للتقي المقريزي، قال أبو عمرو الكندي، في ذكر من عرف على المؤذنين بجامع عمرو بن العاص بمصر: كان أول من عرف على المؤذنين أبو مسلم سالم بن عامر بن عبد المرادي، وهو من أصحاب رسول الله ﷺ وقد أذن لعمر، ثم عرف عليهم أخوه شرحبيل بن عامر، وكانت له صحبة وذكر عن عثمان أنه أول من رزق المؤذنين. (زقلت). انتهى من الكتاب المذكور.

جاء في «مجلة الوحي»، التي تصدر بمصر، بالقاهرة، مقالة بعنوان: «الرسم التوضيحي في المخطوطات الإسلامية» بقلم الأستاذ الفاضل الدكتور أحمد موسى المصري، تناول فيها عدة مسائل، كان من ضمنها مسألة التوقيت، ولقد نقلنا ما كتبه عن هذه المسألة، وتركنا المسائل الأخرى، لعدم الحاجة إليها، في كتابنا هذا. وإليك ماكتبه عن مسألة التوقيت:

ومما يثبت نجاح المسلمين في العلوم الفلكية والميكانيكية ، التي بني عليها فن التوقيت بالساعات بعد المزاول ، ما تراه في الصروة الرابعة الموجودة في كتاب علم الساعات والعمل بها ، تأليف رضوان بن محمد الخراساني ، والتي تمثل دائرة وساعات الليل نظيرتها في النصف الأعلى من الدائرة ، حيث ترى قنديلاً معلقاً بسلك رفيع ، وإلى اليسار ثقلان معلقان بسلك آخر ، أحدهما توسط ارتفاع الصورة والآخر قريباً من أسفلها وهما متصلان بالسلك المرتكز على بكرة في الركن الأعلى الأيسر . وعند الثقل الأسفل تشاهد طيراً ، كان المقصود منه ، أن ينقر بمنقاره لتحديد الوقت . أما المجاري الرفيعة ، التي توسطت الصورة ، حيث النقط البيضاء المستديرة ، فهذه كانت طريقاً لأثقال تمرّ منها في أوقات معينة ، مارة بفتحة في رأس الطائر ، الذي ترى عند قدميه وعاء نصف مستدير لجمع هذه الأثقال . انتهى من المجلة المذكورة ، ومع الأسف كان غلافها مقطوعاً ، لذلك لم نعلم تاريخ صدورها ورقم عددها .

والصورة التي تكلم عنها الأستاذ المذكور فهي تمثل دائرة الساعات . وقد نقلها من كتاب «علم الساعات والعمل بها» تأليف رضوان بن محمد الخراساني ، وهذا الكتاب موجود بدار الكتب العربية بالقاهرة .

انظر: صورة رقم ١٧٨ ، الساعة المائية

وللتوصل إلى معرفة الزمن ، طويلاً كان أم قصيراً ، طرق عديدة ، ووسائل شتى ، منذ العصور القديمة ، فكانوا يعرفون الصبح من صياح الديكة ، ويعرفون بعض الأوقات من قيامهم ببعض الأعمال ، كالغزل والنسج والقراءة والتسبيح ، ثم اخترع المفكرون عدة آلات لضبط الوقت ، كالساعات الرملية وتسمى بـ "المنكاب" وهي عبارة عن قطعتين متصلتين من الزجاج مخروطيّتي الشكل ، مجوّفتين ، بينهما فتحة ضيقة ، تملأ إحداهما برمل ناعم فيمر الرمل من الفتحة الضيقة ، ويسقط داخل القطعة الأخرى ، فإذا فرغت الأولى تقلب الثانية عليها ، وقد وضعت علامات على كل قطعة ، فإذا وصل الرمل إلى علامة منها عرفوا الوقت بالضبط ، وفهموا منها أجزاء الزمن .

ثم استبدلوا الماء عوضاً عن الرمل في القطعتين المذكورتين ، لأن الماء أسهل جرياناً في الفتحة الضيقة من الرمل ، فتكون سرعة سيلانها مناسبة لمرور الزمن ،

وهذه الساعات الرملية أو المائية كانت معروفة قبل الميلاد ، وكانت تستعمل إلى بعد الإسلام أيضاً .

ثم توصل الفلكيون إلى اختراع المزاول ذوات الشاخص المائل ، إذ بواسطته يتحصّل على معرفة ساعات النهار . والمزاول هي آلات تعرف بها الساعات الشمسية الحقيقية ، بواسطة الظل المحذوف بشاخص على سطح ، حيثما اتفق ، أي سواء كان مستوياً أو منحنياً .

وكانت هذه المزاول مستعملة ، في جميع البلدان ، إلى القرن الثاني عشر للهجرة تقريباً ، بل ولا تزال مستعملة إلى اليوم بقلّة ، في بعض البلدان كمصر والحجاز ، فقد رأينا في مصر مزولة بالجامع الأزهر ومزولة على جدار جامع المؤيّد بباب زويلة من جهة شارع الغورية ، وتوجد أيضاً بالمسجد الأقصى مزولتان شمسيتان : إحداهما في الناحية القبلية الغربية ، من مسجد الصخرة ، وثانيتهما على واجهة القنطرة ، التي في الجنوب الغربي ، من سطح الصخرة ، وكلتاهما وضعتا في عصرنا الحاضر كما في تاريخ الحرم القدسي .

وكذلك توجد بمكة مزولة بالمقام الشافعي ، فوق بئر زمزم ، ويعمل بها اليوم رئيس المؤذنين إذا كان الوقت بالنهار صحواً لا غيم فيه ، وهذه صورة المزولة التي فوق بئر زمزم .

انظر: صورة رقم ١٧٩ ، مزولة بئر زمزم

ثم إنه حدث إنقلاب عظيم في معرفة الأوقات بالضبط والانتظام التام ، وذلك بسبب اختراع الساعات الآلية ، التي توضع في الجيب وفي المعصم وفي الحوائط والمكاتب ، وقد كثرت وتنوعت أشكالها وألوانها وأنواعها ، ورخصت أثمانها رخصاً جعلتها في متناول الغني والفقير والكبير والصغير .

وأضبط من جميع أنواع الساعات الحركات الفلكية والدقات القلبية ، وهذه مما لا شك فيه راجع إلى خلق المولى سبحانه وتعالى ، ويحضرنا في هذا المعنى بيت من الشعر وهو :

دقّات قلب المرء قائلة له   إن الحياة دقائق وثوان

اللهم أمتنا على الإسلام ونور قلوبنا وبصائرنا وارزقنا الصحة والعافية بفضلك ورحمتك يا رحمن يا رحيم يا عظيم يا حليم يا الله .

ولنذكر الآن ما جاء في التاريخ عن المزاول والساعات التي كانت موجودة بالمسجد الحرام ، فنقول : جاء في تاريخ الغازي ، نقلاً عن الفاسي : إن الوزير الجواد وضع مزولة ، وهي التي يقال لها ميزان الشمس ، في صحن المسجد الحرام ، بينها وبين ركن الكعبة الشامي ، الذي يقال له الركن العراقي ، ثلاثة وأربعون ذراعاً وثمن ذراع ، بذراع الحديد . اهـ . نقول : الوزير الجواد هو جمال الدين المعروف بالوزير الجواد الأصفهاني المتوفى سنة (٥٥٩) تسع وخمسين وخمسمائة وله أعمال مجيدة بالحرمين الشريفين ذكرناها في ترجمته .

وجاء فيه أيضاً نقلاً عن الأرج المسكي : إن السيد بركات المغربي وضع في سنة (١٠٢٤) أربع وعشرين وألف مزولة بالبناء المحيط ببئر زمزم ، وفي سقف هذا البناء قبة كبيرة ، وبهذا المحل يؤذن رئيس المؤذنين للأوقات .

وجاء فيه أيضاً نقلاً عن السنجاري : إن الشيخ محمد بن سليمان المغربي صنع مزولة ووضعها في المسجد الحرام ، في محل مزولة الوزير الجواد المذكور ، حيث خربت هذه المزولة ، وقد بنى الشيخ محمد لمزولته بترة ، بقدر القامة ، حيال الركن الشرقي ، على ممشى باب السلام ، وذلك في سادس ذي الحجة سنة (١٠٧٩) تسع وسبعين وألف ، وقال العصامي : وضع العلامة الشيخ محمد بن سليمان المزولة في اليوم الحادي والعشرين من ذي القعدة من السنة المذكورة ، ثم إنه في سنة (١٠٨٤) وقع مطر في ليلة النصف من شعبان ، فقام جماعة من العسكر فهدموا بترة المزولة ، التي بناها الشيخ محمد بن سليمان المذكور فلم يعترض على هدمها . انتهى كل ذلك من تاريخ الغازي .

نقول : إن المزولة المذكورة ، التي عملها السيد بركات المغربي ، لا زالت موجودة إلى يومنا هذا بالمسجد الحرام ، بالمقام الشافعي فوق بئر زمزم ، ولا يزال العمل عليها أيضاً إلى اليوم .

ولقد قمنا بالكشف عليها ومعرفة حقيقتها ، وكان طلوعنا إلى سطح بئر زمزم للنظر إليها ، في يوم الأحد التاسع عشر من جمادى الثانية سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة .

فهذه المزولة هي من الرخام المرمر الأبيض ، طولها نحو ستين سنتيمتراً وعرضها نحو خمس وأربعين سنتيمتراً ، يقسمها إلى نصفين متساويين تماماً خط الاستواء الرأسي ، فنصفها الذي على اليمين مكتوب فيه أسماء البروج الاثني عشر ، التي

هي : السرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والحمل ، والثور ، والجوزاء ، والجدي ، والدلو ، والحوت .

ومكتوب في النصف الذي على الشمال ما يأتي : «أذن في وضع هذه الوزير حسن باشا ، وبأن تكون من عمل الفقير بركات السيد بن محمد الظريف التونسي سنة (١٠٢٣) ثلاث وعشرين وألف ، وذلك بإشارة الريّس محمد بن أحمد» . انتهى .

أما جوانب المزولة فمقسومة إلى ساعات ودقائق ودرجات ، ولقد اشترك معنا ، في نقل ما هو مكتوب بهذه المزولة ، حضرة الفاضل المحترم الشيخ أسعد حسين الريّس ، الموقّت والمؤذّن ، في المقام الشافعي ، بأعلى بئر زمزم .

أما الساعات في المسجد الحرام : فلا نعلم بالضبط متى كان وضع أول ساعة حائطيّة ، في المسجد الشريف ، وقد ذكر الغازي ، في تاريخه المخطوط بخط يده ، رحمه الله تعالى ، بصحيفة (٢٥١) أنّ السلطان عبد المجيد خان أرسل ساعات للمسجد الحرام من الآستانة ، وإليك نص عبارته :

وفي السالنامة الحجازية : وفي سنة (١٢٥٩) تسع وخمسين ومائتين وألف ، صدر الأمر ، من مولانا السلطان عبد المجيد خان ، بوضع كتبخانة في المسجد الحرام ، وأرسل من دار السلطنة كتب كثيرة فوضعت في القبة ، التي كانت في المسجد ، وكانت تلك القبة تسمّى سقاية العباس ، وصدر الأمر أيضاً ، من مولانا السلطان عبد المجيد ، بوضع ساعات فلكية في المسجد الحرام ، أرسلت من دار السلطنة ، في قبة أخرى في المسجد ، وكانت تلك القبة تسمى قبة الفرّاشين . انتهى .

وقال الغازي بصحيفة ٢٥٢ : وذكر السيد أحمد دحلان في سالنامته ، وفي سنة ثلاثمائة وألف هدمت القبتان الكائنتان في المسجد ، وهما قبة الكتب وقبة الساعات ، وذلك لتضييقهما المسجد ، وللخوف من السيل لأنه دخل سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف ، وحصل تلف في الكتب ، ووضعت الساعات بمحل عمل لها في هواء المسجد الحرام ، بين باب علي وباب بازان ، ونقلت الكتب في القبة المتصلة بمدرسة السليمانية ، عند باب دريبة ، وهذا في إمارة الشريف عون باشا ابن المرحوم محمد بن عون ، وولاية الوزير المفخّم السيد عثمان نوري باشا . انتهى .

وباب بازان المذكور هو الذي كان يسمى بباب بني عائذ، ويسمى بباب الجنائز ثم سمي بباب الكراكون، وهو الباب الذي يلي باب علي من جهة الصفا.

وقال الغازي في صحيفة ٢٥٢ ما ملخصه: وفي سنة ألف وثلاثمائة وواحد جاء عثمان باشا بساعتين كبيرتين، يبلغ طول الواحدة منهما نحو مترين، ووضعهما مع الساعات المنقولة من القبة، وهما موجودتان إلى الآن، غير أنهما غير صالحتين لعدم تعهدهما بالإصلاح وطول الزمان. قال: وفي سنة ١٣٥٢ أمر جلالة الملك المعظم عبد العزيز آل سعود بإحضار ساعة كبيرة مضبوطة، ترى حركاتها من مسافة بعيدة، ويسمع صوت دقاتها كل من بالمسجد الحرام ومن حوله، وهي ذات واجهتين: إحداهما مطلّة على المسجد الحرام، والأخرى مطلّة على محلة أجياد، وتضاء ليلاً بالكهرباء.

وقد بني للساعة المذكورة قاعدة فوق دار الحكومة (الحميدية) وتم كل ذلك سنة ١٣٥٢. انتهى من «عمارة المسجد الحرام» للشيخ باسلامة، نقول: لقد هدمت دار الحكومة المذكورة (أي الحميدية) في سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية لأجل توسعة المسجد الحرام، وإن شاء الله تعالى، سنذكر بعد انتهاء هذه التوسعة عن عدد الساعات التي توضع في المسجد ومواقع أمكنتها.

هذا ونحن قد اقترحنا، في جريدة البلاد السعودية بتاريخ ٦ صفر عام (١٣٧٦) وضع عدة ساعات كبيرة، في كل جهة من داخل المسجد الحرام وخارجه، وكذلك عدة ساعات كبيرة في نفس المسعى، بين الصفا والمروة، وفي شوارع مكة المكرمة وميادينها ومرافقها، وذلك بعد الانتهاء من عمارة توسعة المسجد الشريف، وتوسعة الشوارع إن شاء الله تعالى.

الساعات الكبيرة وساعة الجيب

جاء في كتاب «المخترعات وليدة المصادفات» عن الساعات ما يأتي:

عند انبثاق فجر التاريخ، لم يكن للإنسان الأول مأوى، سوى الكهوف والمغارات، ولم يكن له عمل سوى أن يطارد الحيوانات الأبدية، وأن يولي بين يديها هارباً، إن هي كرّت عليه مهاجمة، لذلك لم يكن به حاجة كبيرة إلى استعمال الساعات، لإحصاء مرور الزمن، لكن رجل الكهف هذا، كان بالضرورة يلاحظ سير الشمس في قبة الفلك، ويرى ظلال الأشياء كالأشجار

والصخور العالية ، وهي تمتد أو تتقلص ، فكان يكتفي بأن يغرس عصاً في الأرض ، ثم يضع من حولها حصيات على مسافات معيّنة ، بحيث يمر عليها ظل العصا شيئاً فشيئاً ، وبذلك كان يستطيع أن يعيّن الوقت من النهار ، وكانت هذه أول خطوة نحو اختراع الساعة . وكانت الخطوة الثانية ، ولم تأت إلا بعد انقضاء عدة قرون ، هي صنع الساعة الشمسية ، وهي عبارة عن رقعة ترسم فيها دوائر مقسّمة تقسيماً هندسياً ، وفي وسطها قضيب رفيع ، يقع ظل طرفه على هذه الدوائر ، واحدة فواحدة ، تبعاً لحركة سير الشمس ، وكان هذا هو البدء الحقيقي في عمل الساعة ، التي تطورت على مر الأجيال ، حتى صارت إلى ما هي عليه اليوم .

لكن الساعة الشمسية لا يمكن أن يعرف بها إلا عدد ساعات النهار ، في حالة صفاء الجو ، أما إذا غامت السماء ، فإنها تكون عديمة الفائدة . ولما تدرّج الإنسان في سلم المدنيّة شعر بحاجته إلى آلة تضبط الأوقات بدقة وعلى جميع الحالات ، فجاء دور الساعة المائية « سيليبرا » وهي عبارة عن جرة تملأ ماء ، ولها ثقب صغير في أسفلها ، بحيث ينزل منها الماء قطرة فقطرة على نسب مخصوصة ، فإذا ما نَفَدَ الماء عرف مقدار الزمن ، الذي انقضى ، من حين ملئت الجرة إلى حين فرغت ، على حسب حجمها . ثم زيد في هذا الاختراع أن اتخذت جرتان : الواحدة ، وهي ذات الثقب ، فوق أخرى أكبر منها . وجعل في الجرة السفلى عمود مقسم إلى درجات ، وبجانبه شارة (عقرب) من جسم خفيف كالفلين ، فإذا ما أخذ الماء يتجمع ، في هذه الجرة السفلى ، ويرتفع حمل الشارة معه تدريجياً وبذلك يمكن تعيين الوقت .

غير أنه ظهر أن هذه الساعة المائية لا تنفع إلا في المناطق الحارة ، أما في المناطق الباردة ، التي يتجمد فيها الماء في فصل الشتاء ، فإنها تكون عديمة الفائدة أيضاً .

وحينئذ ظهرت الساعة الرملية ، التي لا يزال لها بقايا مستعملة إلى هذه الأيام ، وما زلنا نراها في الصورة المأخوذة عن الجيل الماضي مقرونة إلى ذلك المنجل الكبير الغليظ .

ولسنا نستطيع أن نحدد بالضبط العصر الذي صنعت فيه ساعة ذات دواليب وميناء . والراجح أن ذلك كان في القرن الثاني عشر للميلاد . وقد تقدمت العلوم بسرعة ، ففي سنة ١٢٨٨ كانت قد ركبت ساعة كبيرة في أحد أبراج وستمنستر ، وفي سنة ١٣٣٦ كان رئيس دير القديس « سانت البانس » قد زيّن

جدارن الدير بساعة كبيرة لا تبيّن الساعات والدقائق فحسب بل كانت تبين حركات الأجرام السماوية بكل وضوح . وبعد ردح طويل من الزمن ، اخترعت الساعة ذات الرقاص ، وكان السبب في ذلك أن شاباً إيطالياً يدعى « جاليليو جاليلي » كان موجوداً يوماً في كاتدرائية « بيزا » وكان المصباح الكبير المعلق في سقف الغرفة ، يخطر في فضائها رائحاً غادياً ، بعد أن تركه الخادم الذي كان ينظفه ، وكانت المسافة ، التي يقطعها في مسيره ، تتقاصر تدريجياً ، وكان جاليليو يلاحظ حركاته ويقيسها على نبض يده ، وهنا اكتشف تلك الحقيقة الرائعة ، وهي أنه إذا علق جسم في الفضاء ثم جذب إلى جهة ما ، وترك يهتز ، فإن الزمن الذي يقضيه في قطع المسافات الطويلة هو عين الزمن الذي يقضيه في قطع المسافات القصيرة ، وكانت هذه الفكرة هي التي أوحت فيما بعد باتخاذ البندول .

وقد استعملت ساعات الجيب من عصر متقادم يرجع إلى القرن السادس عشر ، وفي عهد الملكة « إليزابيت » كانت صناعة الساعات قد تقدمت تقدماً عظيماً ، وصارت تصنع من التنك ، وتعيش طويلاً . ولم تكن في غاية الدقة والإحكام فحسب ، بل كانت أيضاً آية في الرونق والجمال ، وشاع استعمالها شيوعاً كبيراً حتى أن « شاكسبير » وهو يمثل دور « تتشتون » في رواية « كما أحببته » عندما أراد أن ينظر إلى ساعته الشمسية لم يخرج إلا ساعة جيبه . انتهى من الكتاب المذكور .

وجاءت تفصيلات وافية عن « الساعة » بقلم الأستاذ أحمد عابدين نشرت في « مجلة قافلة الزيت » التي تصدر بالظهران بالمملكة العربية السعودية ، في العدد الصادر في شهر رجب سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف ، بعنوان « قصة اختراع الساعة » وهي كما يأتي :

الساعة كما هو معروف عنها ، تبيّن لنا الوقت الذي نعمل ونسير بمقتضاه ، وقديماً قيل : « الوقت من ذهب » . . . ولعل قائل هذه الحكمة كان من رجال الأعمال ، الذين يقدّرون قيمة الوقت ، أو الذين كانوا يشعرون لا إرادياً بقدوم هذا العصر الذري ، الذي أصبحت فيه الدقيقة الواحدة تساوي ألوف الريالات . فرجال الأعمال اليوم هم الذين يقدّرون هذه الحكمة حق قدرها . . . فإذا ما فات أحدهم موعد قيام الطائرة أو القطار ، أدّى ذلك إلى إصابته بخسارة فادحة في الأموال ربما قدّرت بملايين الريالات . . . وليعلم القرّاء الكرام أهمية الوقت ،

نضرب هذا المثل البسيط . . . لقد أعلنت إحدى شركات التليفونات الكبيرة في أمريكا أنها تتلقّى في كل يوم حوالي ٤٠ ألف مكالمة تليفونية يستفسر أصحابها عن الوقت ، ويعطي الوقت للسائل مضبوطاً إلى أقرب جزء من عشرين من الثانية .

كانت أول ساعة أو أول أداة استخدمها الإنسان لمعرفة الوقت هي الساعة الشمسية أو المزولة . . . فقد لاحظ الإنسان أن ظله يطول ويقصر ، حسب دوران الأرض حول الشمس ، فهداه هذا إلى اختراع الساعة الشمسية . وكانت هذه الساعة في أشكال مختلفة بالنسبة للأمم التي استخدمتها ، كالمصريين القدماء والهنود والبابليين .

وبالرغم من أن هذه الساعة قد أفادت مخترعيها ، بأن سهّلت لهم معرفة الوقت ، إلا أن عملها كان يبطل أثناء الليل أو أثناء احتجاب نور الشمس وراء السحب ، الأمر الذي حدا بالإنسان للتفكير باختراع آلة تبيّن الوقت في الليل والنهار . وقد وفّق الإنسان ، في بادئ الأمر ، إلى ابتكار الساعة الرملية ، التي تتكون من زجاجتين ألصقت فوهاتهما معاً ، وعبئت إحداهما بالرمل ، بينما تركت الزجاجة الثانية فارغة . . . وكان عمل هذه الساعة يتم بترك الرمل ينساب من الزجاجة العليا إلى الزجاجة السفلى ، حتى تفرغ ، فتقلب هذه الساعة بحيث تعود الزجاجة الممتلئة بالرمل هي العليا ، وهكذا دواليك . . . وكان قياس الوقت يتم أولاً بالنظر إلى كمية الرمل الموجودة في إحدى الزجاجتين ، وبعدد المرات التي قلبت فيها هذه الساعة الرملية .

وبتقدّم الزمن اخترعت الساعة المائية . ولعلها أتقن ساعة اخترعت في الزمن القديم . فقد استخدمها المصريون القدماء والصينيون واليونان والبابليون والرومان والعرب الذين أدخلوا عليها تحسينات جمة ، لا سيّما تلك الساعة الشهيرة التي أهداها هارون الرشيد إلى شارلمان ملك الإفرنج ، وكانت هذه الساعة المائية مصنوعة من الذهب الخالص . وقد جاء في وصف المؤرخين الأوروبيين لهذه الساعة ، أنها كانت تتألف من عدة أسطوانات تملأ بالماء الذي يدير مختلف آلاتها . وكانت عندما تدق لتعلن الوقت تتساقط منها إلى طست رنان كرات نحاسية بعدد الساعات . وعند الظهر ، كانت أبواب الأسطوانات الصغيرة للساعة تفتح دفعة واحدة ليخرج منها اثنا عشر فارساً يدورون على صفحة هذه الساعة .

وهنالك ساعات عربية أخرى لا تقل شهرة عن هذه الساعة كانت تنصب في الميادين العامة وتدار بالماء . ومن أشهر هذه الساعات ، ساعة دمشق وساعة بغداد . وقد وصف الرحالة العربي الشهير ابن جبير ، العملية العجيبة ، التي كانت تدار بها هذه الساعة ، وكيف كان بالإمكان أيضاً معرفة الوقت أثناء الليل بإضاءتها .

أما الساعة الميكانيكية ، فقد ورد في الكتب العربية أن علماء العرب هم الذين اخترعوا هذه الساعة أيضاً . فقد جاء في التاريخ أن الملك الأشرف ، أحد السلاطين الأيوبيين ، أهدى ساعة آلية عجيبة إلى صديقه فردريك الثاني الامبراطور الروماني وملك صقلية . إلا أن الساعة التي اخترعت بالمعنى المفهوم ، أي بميناء وعقارب لم تصنع إلا في عام (١٣٦٠م) . وقد اخترع هذه الساعة هنري فيك الهولاندي ، وقدمها إلى الملك شارل الخامس ، الذي قام بنصبها في قصره . وكانت تلك الساعة من الضخامة وثقل الوزن بمكان ، حتى أنها كانت تشتغل بقوة مقدارها ٥٠٠ رطل . وكان لها عقرب واحد يبيّن الساعات فقط .

لقد أخذت صناعة الساعات وقتاً طويلاً في تطورها وتقدمها ، فكانت بطيئة جداً في ارتقائها ، بل كانت تسير بسرعة السلحفاة في هذا الميدان . والدليل على هذا ، هو أن عهداً طويلاً قد مضى قبل اختراع عقربين للساعة . ولعل السبب في هذا البطء يرجع إلى احتكار شركة واحدة لهذه الصناعة ، وعدم السماح لأي كان بتعلّمها ، إلا تحت شروط خاصة قاسية ، منها أن يبقى الراغب في تعلّم هذه الصناعة تحت التدريب لمدة خمسة أعوام . زد على ذلك أن هذه المهنة انحصرت في بعض العائلات والأسر ، وبقيت هذه العائلات لا تبوح بمكنون سرّها إلا لمن هم من نسلها ، فبقيت يتناقلها الخلف عن السلف في الأسرة الواحدة .

ولكن بالرغم من هذا ، ظهر أناس آخرون فكّروا في اختراع ميزان الزمن ، وإدخال التحسينات عليه . ففي نفس الوقت الذي اكتشفت فيها أمريكا أي في عام (١٤٩٢م) ، ظهر مخترع فنان يدعى ليوناردو دي فينشي اخترع الساعة ذات البندول ، ولكن لسوء حظ هذا الفنان ، لم يقبل أحد على استعمال هذه الساعة ، فبقيت تغطّ في سبات عميق ، وعندما جاء العالم الشهير غاليليو سنة (١٥٨٧م) ، لاحظ حركة إحدى الثريات المعلقة في سقف الكنيسة ، كما لاحظ حركتها بالنسبة لنبضات قلبه ، فجلب هذا التوافق نظر العالم إلى البندول فأولاه عناية

كبيرة ، وبالرغم من هذا ، فقد سار الاختراع ببطء ، ولم يقدر لساعة البندول أن ترى وجه النور قبل مضي خمسين سنة من ذلك التاريخ ، وذلك عندما جاء كريستان هوجنز الهولاندي واستعمل البندول ، لأول مرة في ساعة ثقيلة ، تعبأ مرة كل عدة أشهر . وهكذا وجدت ساعة البندول لأول مرة ، وشاع استعمالها في العالم .

بقيت هذه الساعة الوحيدة التي تستعمل لمعرفة الوقت حتى قام بيتر هتلن ، وكان صانع أقفال ، واخترع الزنبرك ، وكانت هذه أول ساعة يد اخترعت ، وكان طولها ، في أول الأمر ، يبلغ ست بوصات ، ويبلغ ثمنها بالعملة الحالية حوالي ١٥٠٠ دولار ، وكانت جميع أجزائها مصنوعة من الحديد .

ومنذ اختراع هذه الساعة ، أخذت صناعة الساعات في التقدم والتحسن ، إلى أن أصبحت على ما هي عليه اليوم من تعدّد في الأنواع والأحجام ، إذ ما أن أطل القرن الثامن عشر ، حتى كانت صناعة الساعات قد تقدمت ، وانتقل مركز صناعتها من ألمانيا إلى إنكلترا ومنها إلى سويسرا ، التي تعتبر اليوم من أشهر بلاد العالم في صنع الساعات ، وأخيراً انتقلت صناعة الساعات إلى أمريكا ، وقد أخذ مهرة صنّاع الساعات في التفنن في عملهم هذا ، فاخترعوا ساعات الحائط واليد والجيب ، والساعات ذات الأجراس المنبهة والساعات الكهربائية والأتوماتيكية ، والساعة الكبيرة والصغيرة ، وغيرها من الساعات ، التي أخذت تغزو مختلف حقول الأعمال الفنية ، كما أدخلوا عليها فنّ الترصيع والتجميل بالجواهر والأحجار الكريمة ، وصنع الأغلفة من الذهب وغيره من المعادن الثمينة .

ومن أغرب الساعات التي اخترعت ، في العصر الحديث ، تلك الساعة الصغيرة ، التي قام صانعها باتخاذ نصف حبة لؤلؤ كقاعدة لها ، ثم قام بترصيعها بالأحجار الكريمة والجواهر . ولكي يرى الإنسان هذه الساعة ، كان لا بد له من استعمال النظارة المكبرة . أما أضخم الساعات التي اخترعت ساعة « بيج بن » الشهيرة ، والموجودة فوق مدخل دار البرلمان البريطاني في لندن . لقد بدأت هذه الساعة في الدوران سنة (١٨٥٨م) ، أي قبل مئة سنة . وتقدّر قوة دقات هذه الساعة بـ ٤٠٠ رطل ، ويبلغ طول عقرب الدقائق فيها ١٤ قدماً . وهي ذات أربعة وجوه : قطر كل منها ٢٢ ١/٢ قدماً . والغريب في هذه الساعة أنها لم تتوقف عن العمل ، منذ أن بدأت بالدوران ، كما أنها ظلت تشتغل تحت وطأة

الغارات الجوية ، أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولم تقف إلا مرة واحدة لمدة ثانية ونصف فقط .

وهنالك ساعتان أخريان ، تم اختراعهما في عصرنا الحاضر ، أولاهما : الساعة الذرية التي تعمل بالطاقة الذرية والتي تضبط الوقت بدقة متناهية ، إذ هي لا تقدم أو تؤخر أكثر من ثانية كل ثلاث سنوات ، والساعة العجيبة ، التي لا يزيد حجمها عن ساعة اليد العادية ، غير أنها تملك من الصفات ما يؤهلها للتربع على عرش الساعات . وإليك المميزات التي تجعل من هذه الساعة أعجوبة فريدة في نوعها : فهي أولاً تشتغل تلقائياً (أتوماتيكياً) أي لا تحتاج إلى تعبئة باليد ، ولا تؤثر عليها الهزات والماء والمغناطيس ، وباستطاعتها أن تحل المسائل الجبرية ، ومسائل حساب المثلثات ، كما أنها تعطيك تاريخ اليوم واسم الشهر والسنة التي أنت فيها ، وتبين موعد طلوع الشمس وغروبها ، وتوالي بروج النجوم والحركة الشمسية .

وإذا كنت راكباً في طائرة أو في سيارة ، فتعطيك سرعة الطائرة والسيارة ، التي أنت فيها ، وحتى سرعة الحصان يمكنها أن تبيّنها لك إذا كنت ممتطياً ظهره . وإذا سمعت بأي انفجار قريب أو بعيد فانظر إليها لتعطيك المسافة التي بينك وبين مكان الانفجار . وفيها جهاز خاص يبيّن مقدار الضغط الجوي ، ولا تنس أيضاً أنها تعطيك الوقت بجميع اللغات . وبالإضافة إلى كل ما ذكر ، فهي منبّه توقظك من نومك في الصباح إذا أردت ذلك . فهي خادم مطيع تعمل ما تؤمر به . وتتكون هذه الساعة من ٩٠ زنبرك و ١١٠ دواليب و٧٠ حجراً و ٤٣٠ برغياً و ١٢٠ قطعة أخرى مختلفة . أو لا تعد بعد هذا من أعجب الساعات ؟ .

كيف تعمل الساعة ؟ إذا أخذنا ساعة يد أو ساعة جيب وفتحناها ، لوجدنا أنها تتركب من زنبرك ينكمش على وسطه عند تعبئتها سواء باليد أو أتوماتيكياً . وينحلّ الزنبرك شيئاً فشيئاً ، بوساطة حركة الرقاص ، الذي يحرك مطرقة الساعة يميناً ويساراً ، ليضرب أسنان أحد الدواليب ، الذي يدير بدوره بقية دواليب الساعة ، التي تدير بحركتها العقارب دورة منتظمة ، تبين لنا الوقت في الليل والنهار . والآن بقي أيها القارئ الكريم سؤال واحد هو : كم الساعة الآن من فضلك ؟ انتهى من المجلة المذكورة .

وجاء في مجلة « الهلال » الصادرة بالقاهرة في ١٣ ذي القعدة سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين من الهجرة ، أي في أول يونيه سنة (١٩٥٨)

ميلادية ، أنهم اخترعوا في عامنا هذا ساعة تقوم فيها ذبذبة ذرية (بفتح الذالات المعجمة كلها) من معدن كيسوم وهو « معدن أبيض فضي » ، مقام حركة البندول ، وتسمّى هذه الساعة « الساعة الذرية » ، بفتح الذال ، وهي أحدث ساعة في العالم ، تمشي بدقة بالغة جداً ، وقد عملت لقياس سرعة بعض الأشياء ، حتى أنهم قاسوا بواسطتها سرعة الدوران الأرضية . انتهى من مجلة « الهلال » .

وضع المزولة في مكانها الجديد

قلنا أن المزولة ، التي تعرف بها الأوقات ، كانت في المقام الشافعي ، بأعلى بناية زمزم القديمة ، من عهد الدولة التركية العثمانية ، فلما هدمت هذه البناية ، لتوسعة المطاف ، جعلوا هذه المزولة الرخامية ، فوق قاعدتين صغيرتين بنوهما في أرض المسجد الحرام ، عند مدخل زمزم ، على ارتفاع قامة واحدة تقريباً ، وذلك في سنة (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية ، على أن هذه المزاول لمعرفة أوقات الصلوات قد أصبحت في هذا العصر لا فائدة لها لعدم العمل بها ، بسبب اختراع الساعات وكثرتها في عصرنا الحاضر ، وعظيم رخصها ، ودقّة سيرها ، وضبط موازينها ، مع انتشار التقاويم والنتيجات الزمنية ، لمعرفة أوقات الصلوات على الساعات المخترعة . لكن من اللازم أيضاً أن يكون في كل زمان رجال يعرفون اصطلاحات هذه المزاول ورموزها ، احتياطاً في الأمر ، فلو حصل خراب في الساعات أو لم يكن عند أحدهم ساعة رجع إلى هذه المزاول لمعرفة الوقت ، وهكذا أمور الدنيا لا تبقى على حال . فسبحان الذي يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل ، لا إله إلا هو العزيز القهّار .

ما قيل في وصف آلات التوقيت

ومما يناسب هذا المبحث الظريف ، أن نذكر ما قيل في وصف آلات التوقيت قديماً وحديثاً ، فمن تلك الآلات : الاصطرلاب والمزولة والطرجهارة ، والبنكام ، والساعات المستعملة في عصرنا هذا .

ولقد وصف بعض الأدباء والشعراء هذه الآلات التوقيتية قديماً وحديثاً . فمن ما كتب أبو الفرج في وصف اصطرلاب يقول :

آثرتك، أيدك الله، ببرهان الحكمة ونسبها، ومدار الفلسفة وقطبها، ومرشد الفكر ومناره، وميزان الحسن ومعياره، ونافي الشك ومزيله، وشاهد الأثير ودليله، مصوّر الحكمة وممثّلها، ومقسّم البروج ومعدّلها، وموقّف النجوم ومسيّرها، وجامع الأقاليم ومدبّرها، مرآة الحبك، وصورة الفلك، وأمين الكواكب، وحدّ المشارق والمغارب، مما اخترعت العقول تسطيحه، وأتقن الحساب تصحيحه، وتمارت الفطن في ترتيبه، واصطلحت الحكماء على تركيبه فأوضحت بالنقش تقسيمه، وأبانت بالكتابة رسومه، إلى أن شافهنا بالارتفاع على بعد مسافته، وحصر متفرق الأمور في خرقي عضادته، واحتوى على قطري الشمال والجنوب، واطّلع باللطف على خفيّات الغيوب، الملقب بالاصطرلاب، الفاصل بين الخطأ والصواب. انتهى من نهاية الأرب.

وقال أبو طالب المأموني في الاصطرلاب:

وشبيه بالشمس يسترق الأنـوار	من نور جرمها في خفاء
فتراه أدرى وأعلم منها	وهو في الأرض بالذي في السماء

وقال أيضاً في مزولة:

وعالم بالغيب من غير ما	سمع ولا قلب ولا ناظر
يقابل الشمس فيأتي بما	ضمنها من خبر حاضر
كأنها ناجته لما بدا	لعينها بالفكر والخاطر
وألهمته علم ما يحتوي	عليه صدر الفلك الدائر

انتهى من نهاية الأرب.

قال أبو الفتح كشاجم في وصف طرجهارة:

روح من الماء في جسم من الصفر	مؤلّف بلطيف الحسن والفكر
له على الظهر أجفان محجرة	ومقلة دمعها جار على قدر
تنشأ له حركات في أسافله	كأنها حركات الماء في الشجر
وفي أعاليه حساب مفصلة	للناظرين بلا ذهن ولا نظر
إذا بكى دار في أحشائه فلك	خافي المسير وإن لم يبك لم يدر
ويخرج لك بالأجزاء ألطفها	من النهار وقوس الليل في السحر
مترجم عن مواقيت يخبرنا	عنها فيوجد فيها صادق الخبر

تقضي به في وقت الوجوب وإن غطّى على الشمس أو غطّى على القمر
وإن سهرت لأسباب تؤرقني عرفت مقدار ما ألقى من السهر
محدد كل ميقات تخيره ذوو التخيّر للأسباب والسفر

انتهى من نهاية الأرب .

ومن المستطرف ذكر ما يأتي في الساعة :

قال إسماعيل صبري في الساعة :

كم ساعة آلمني مسّها وأزعجتني يدها القاسيه
فتّشت فيها جاهداً لم أجد هنيهة واحدة صافيه
وكم سقتني المر أختت لها فرحت أشكوها إلى التاليه
فأسلمتني هذه عنوة لساعة أخرى وبي ما بِيه
ويحك يا مسكين هل تشتكي جارحة الظفر إلى ضاريه
حاذر من الساعات ، ويل لمن يأمن تلك الفئة الطاغيه
وإن تجد من بينها ساعة جعبتها من غصص خاليه
فالهُ بها هو الحكيم الذي لم ينسه حاضره ماضيه
وامرح كما يمرح ذو نشوة في قلّة من تحتها الهاويه
فهي وإن بشت وإن داعبت محتالة ختالة عاديه
هذا هو العيش فقل للذي تجرحه الساعة والثانيه
يا شاكي الساعات اسمع عسى تنجيك منها الساعة القاضيه

قال الشاعر العراقي الأستاذ معروف الرصافي المتوفى في زماننا ، رحمه الله تعالى في الساعة :

وخَرساء لم ينطق بحرفٍ لسانُها سوى صوت عرقٍ نابض بحشاها
حكتْ لهجة التِمتام لفظاً ولم تكنْ لتُفصح إلا بالزمًان لُفاها
لها ضرَبانٌ في الحشا قد حكتْ بهِ فؤاداً تفشَّاهُ الهوى وحكاها
جرَت حركاتُ الدهر في ضرَبانها وبانتْ مواقيتُ الورى بعَماها
على وجهها خُطّت علائمُ تهتدي بها الناسُ في أوقاتها لِمُناها
مَشتْ بين أنّات الزمان تقيسُه وما هو إلا مَشيُها وخُطاها

بها يتقاضَى الناسُ ما يوعدونَه   ويُرشِدُ ضُلاَّلَ الزمان هُداها
غَدتْ كأخي الإيمان تأكل في معىً   وما أكلُها إلا الْتواءُ مِعاها
تَدورُ عليها عقربٌ دوْر حائر   بتيهاءَ غمّتْ في الظلام صُواها
تريك مكانَ الشمس في دورانها   إذا حجبتْ عنك الغيومُ ضياها
فأعجبْ بها مصحوبةً جاء صُنعها   نتيجة أفكار الورَى وحِجاها
بَنتْها النُّهَى في الغابرين بسيطةً   فتمَّ على مرّ الزمان بناها

المسعى وما يتعلق به

جاء في تاريخ الغازي صحيفة ٣٨٨ ، نقلاً عن الأزرقي :

لما بنى المهدي المسجد الحرام ، وزاد الزيادة الأولى في المسجد الحرام ، وذلك حينما حج في سنة (١٦٠) للهجرة ، اتسع أعلى المسجد وأسفله وشقه الذي يلي دار الندوة الشامي ، وضاق شقه اليماني الذي يلي الوادي والصفا ، فكانت الكعبة في شق المسجد ، وذلك أن الوادي كان داخلاً لاصقاً بالمسجد ، في بطن المسجد اليوم ، قال -أي الأزرقي- : وكانت الدور وبيوت الناس من ورائه في موضع الوادي اليوم ، إنما كان موضعه دور الناس ، وإنما كان يسلكه من المسجد إلى الصفا في بطن الوادي ، ثم يسلك في زقاق ضيّق حتى يخرج إلى الصفا من التفاف البيوت ، فيما بين الوادي والصفا ، وكان المسعى في موضع المسجد الحرام اليوم ، وكان باب دار عباد بن جعفر عند حد ركن المسجد الحرام اليوم ، عند موضع المنارة الشارعة ، في نحو الوادي فيها علم المسعى ، وكان الوادي يمر دونها في موضع المسجد الحرام اليوم . . . ثم قال الأزرقي ، بعد أن ذكر شيئاً يتعلّق بالزيادة في هذا الجانب : فابتدأوا عمل ذلك في سنة سبع وستين ومائة ، واشتروا الدور وهدموها ، فهدموا أكثر دار ابن عباد بن جعفر العايذي ، وجعلوا المسعى والوادي بينهما . انتهى .

قال الغازي في صحيفة ٣٧٨ ، نقلاً عن الإعلام للقطبي ، ونلخصّه هنا :

وهذه الزيادة الأولى للمهدي في أعلى المسجد ، وكذلك في أسفله ، إلى أن انتهى به إلى باب بني سهم ، ويقال له الآن باب العمرة ، وإلى باب الخياطين ويقال له الآن باب إبراهيم ، وكذلك زاد من الجانب الشامي إلى منتهاه الآن ، وكذلك

زاد في الجانب اليماني أيضاً إلى قبة الشراب ، وتسمى الآن قبة العباس ، وإلى حاصل الزيت . وكان بين جدار الكعبة اليماني وجدار المسجد الحرام ، الذي يلي الصفا ، تسعة وأربعون ذراعاً ونصف ذراع وكان ما وراءه مسيل الوادي . فهذه الزيادة كلها الزيادة الأولى للمهدي .

ولما حج المهدي أيضاً في عام أربع وستين ومائة شاهد الكعبة ليست في وسط المسجد ، بل في جانب منه ، ورأى المسجد قد اتّسع من أعلاه وأسفله ومن جانبه الشامي وضاق من الجانب اليماني الذي يلي مسيل الوادي ، فلما رأى المهدي تربيع المسجد الحرام ليس على الاستواء ، ورأى الكعبة الشريفة في الجانب اليماني من المسجد ، جمع المهندسين ، وقال لهم : أريد أن أزيد في الجانب اليماني من المسجد لتكون الكعبة في وسط المسجد . فقالوا له : لا يمكن ذلك إلا بأن تهدم البيوت ، التي على حافة المسيل ، في مقابلة الجدر اليماني من المسجد ، وينقل المسيل إلى تلك البيوت ، ويدخل المسيل في المسجد كما قدمناه . ومع ذلك فإن وادي إبراهيم له سيول عارمة ، وهو واد حدور ، نخاف إن حوّلناه عن مكانه أن لا يثبت أساس البناء فيه على ما نريد من الاستحكام ، فتذهب به السيول أو تعلو السيول فيه ، فتنصب في المسجد ، ويلزم هدم دور كثيرة ، وتكثير المؤونة ، ولعل ذلك لا يتم . فقال المهدي : لا بد أن أزيد هذه الزيادة ، ولو أنفقت جميع بيوت الأموال . وصمّم على ذلك وعظمت نيّته واشتدت رغبته ، فهندس المهندسون ذلك بحضوره ، وربطوا الرماح ونصبوها على أسطحة الدور ، من أول الوادي إلى آخره ، وربعوا الوادي من فوق الأسطحة ، وطلع المهدي إلى جبل أبي قبيس وشاهد تربيع المسجد ، ورأى الكعبة في وسط المسجد ورأى ما يهدم من البيوت ، ويجعل مسيلاً محلاً للسعي وشخصوا له ذلك بالرماح المربوطة من الأسطحة ، ووزنوا له ذلك مرة بعد أخرى حتى رضي به ، ثم توجه إلى العراق وخلف الأموال الكثيرة ، لشراء هذه البيوت والصرف على هذه العمارة العظيمة .

وهذه هي الزيادة الثانية للمهدي في المسجد الحرام .

قال الحافظ نجم الدين عمر بن فهد في حوادث سنة سبع وستين ومائة ما ملخصّه : فيها هدمت الدور التي اشتريت لتوسعة المسجد الحرام ، والزيادة فيه الزيادة الثانية للمهدي ، فهدموا أكثر دار محمد بن عباد ، وجعلوا المسعى والوادي فيها ، وهدموا بين الصفا والوادي من الدور ، وحرفوا الوادي في موضع الدور

حتى أوصلوه إلى مجرى الوادي القديم في الأجياد الكبير ، وهو الآن الطريق الذي يمر منه إلى دور السادة الأشراف أمراء مكة المشرفة ، وابتدأوا من باب بني هاشم ، من أعلى المسجد ، ويقال له الآن باب علي ووسع المسجد منه إلى أسفل المسجد . . . (ثم قال بعد ثلاثة أسطر) : فكان من جدر الكعبة إلى الجدر اليماني من المسجد المتصل بالوادي تسعة وأربعون ذراعاً ونصف ذراع ، فلما زيدت هذه الزيادة الثانية فيه ، صار من جدر المسجد أولاً إلى الجدر الذي عمل آخراً ، وهو باق إلى اليوم ، تسعون ذراعاً ، فاتسع المسجد غاية الاتساع ، وأدخل في قرب الركن اليماني من المسجد في أسفله دار أم هانئ ، ويقال الآن للباب الذي فتح هناك باب أم هانئ ، لأن دارها كانت بقرب ذلك الباب ، داخل المسجد الحرام الآن ، ومن هذا الباب ، يدخل أمراء مكة إلى المسجد ، سادتنا الأشراف آل الحسن بن علي بن أبي طالب . وكانت عند دار أم هانئ ، بئر جاهلية ، حفرها قصي بن كلاب ، أحد أجداد النبي ﷺ ، فأدخلت أيضاً تلك البئر في المسجد الحرام ، وحفر المهدي عوضها بئراً خارج الحزورة ، يغسلون عندها الموتى من الفقراء . واستمر البناة والمهندسون في بناء الزيادة ، ووضع الأعمدة الرخام ، وتسقيف المسجد بالخشب الساج ، المنقش بالألوان نقراً في نفس الخشب ، كما أدركناه ، وكان في غاية الزخرفة والإحكام ، باقياً فيه لون اللاّزورد في غاية الصفا والرونق بالنسبة إلى لازورد هذا الزمان .

واستمر عملهم إلى أن توفي المهدي لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة ، قبل أن تتم عمارة المسجد على الوجه الذي أراده ، وعقد الأمر لولده موسى الهادي وكان إكمال المسجد الحرام أول شيء أمر به الهادي ، وبادر الموكلون بذلك إلى إتمامه ، إلى أن اتصل بعمارة المهدي ، وبنوا بعض أساطين الحرم الشريف من جانب باب أم هانئ بالحجارة ثم طليت بالجص .

وكان العمل في خلافة الهادي دون العمل في خلافة المهدي في الاستحكام والزينة والاهتمام ، لكن كملت عمارة المسجد الحرام على هذا الوجه الذي كان باقياً إلى هذه الأيام ، وما زيد بعد ذلك إلا الزيادتان كما نشرحهما إن شاء الله تعالى .

وهذه الأساطين الرخام جلبها المهدي من بلاد مصر الشام وأكثرها مجلوب من بلاد أخميم من أعمال مصر ، وهي بلدة خراب الآن من بلاد مصر القديمة ،

كثيرة الرخام، يجلب منه إلى مصر وإلى غيرها من البلدان الرخام العظيم، والأعمدة اللطيفة المنحوتة المخروطة من الرخام الأبيض، يقال إن أكثر رخام المسجد الحرام مجلوب منه والله تعالى أعلم. انتهى من الغازي ناقلاً عن ابن فهد.

وفي تاريخ القطبي بصحيفة (٩٨): وأمر المهدي بالأساطين فنقلت من مصر ومن الشام وحملت بحراً إلى قرب جدة، في موضع كان في أيام الجاهلية ساحلاً لمكة، يقال لها: الشُعَيْبة، فجمعت هناك، لأن مرساه قريب بخلاف بندر جدة، لأن مرساه، التي تقف في السفينة بعيدة من البئر، وصارت أساطين الرخام تحمل منها على العجل. وتتحاكى العربان أن بها بقايا أساطين رخام دفنها الريح بالرمل. والله أعلم بحقيقة ذلك.

قال الغازي في صحيفة (٣٨٩): والظاهر والله أعلم، إجزاء السعي بموضع السعي اليوم، وإن كان تغير بعضه عن موضع المسعى قبله، لتوالي الناس من العلماء وغيرهم على السعي بموضع المسعى اليوم ولا خفاء في تواليهم على ذلك، كما لا خفاء في شهرة كتاب الأزرقي شرقاً وغرباً، وإحاطة العلماء المتأخرين عنه بما فيه سيما علماء الحرم، ولو سلم أن من تأخر عن الأزرقي لم يعلموا بما في كتابه فهو معروف عند علماء الحرم وغيرهم، ممن وقع ذلك التغيير في زمنه، لمشاهدتهم له، وما حفظ عن أحدٍ منهم إنكار ذلك فيكون إجراء السعي، بمحل المسعى اليوم، مجمعاً عليه عند من وقع التغيير في زمنه، وعند من بعدهم، والله تعالى أعلم. انتهى.

وقال العلامة القطبي في الإعلام بعدما ذكر تحويل المسعى عن موضعه وههنا إشكال عظيم ما رأيت من تعرض له: وهو أن السعي بين الصفا والمروة من الأمور التعبدية التي أوجبها الله تعالى علينا، في ذلك المحل المخصوص، ولا يجوز لنا العدول عنه، ولا تعتبر هذه العبادة إلا في ذلك المكان المخصوص، الذي سعى رسول الله ﷺ فيه، وعلى ما ذكره هؤلاء الثقات أدخل ذلك المسعى في الحرم الشريف، وحول المسعى إلى دار ابن عباد كما تقدم، وأن المكان الذي يسعى فيه الآن فلا يتحقق أنه بعض من المسعى الذي سعى فيه رسول الله ﷺ أو غيره فكيف يصح السعي فيه وقد حول عن محله كما ذكر هؤلاء الثقات.

ولعل الجواب عن ذلك أن المسعى في عهد رسول الله ﷺ كان عريضاً وبنيت تلك الدور بعد ذلك في بعض عرض المسعى القديم، فهدمها المهدي،

وأدخل بعضها في المسجد الحرام ، وترك بعضها للسعي فيه ، ولم تحول تحويلاً كلياً ، وإلاّ لأنكره علماء الدين من الأئمة المجتهدين ، رضوان الله عليهم أجمعين مع توفرهم إذ ذاك ، فكان الإمامان أبو يوسف ومحمد بن الحسن ، رضي الله عنهما ، والإمام مالك بن أنس ، رضي الله عنه ، موجودين بمكة يومئذ ، وقد أقروا ذلك وسكتوا عليه ، وكذلك من صار بعد ذلك الوقت في مرتبة الاجتهاد ، كالإمام الشافعي وأحمد بن حنبل وبقية المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين فكان إجماعاً منهم ، رضي الله عنهم ، على صحة السعي من غير نكير نقل عنهم .

قال : وبقي الإشكال في جواز إدخال شيء من المسعى في المسجد الحرام ، كيف يصير ذلك مسجداً ، وكيف يصير حال الاعتكاف فيه . وحلّه بأن يجعل حكم المسعى حكم الطريق العام ، وقال علماؤنا : يجوز إدخال الطريق في المسجد إذا لم يضر بأصحاب الطريق فيصير مسجداً ويصح الاعتكاف فيه ، حيث لم يضر بمن يسعى ، فاعلم ذلك . قال القطبي : وهذا ما تفردت ببيانه ولله الحمد على التوفيق لتبيانه . اهـ .

أصل السعي وحكمته

لم نفهم حكمة معقولة في السعي ، مع أن السعي والمشي الطويل بين الصفا والمروة متعب جداً ، حتى أن كثيراً من الناس بمكة يحبون أن يأتوا بعمرة في رمضان أو غيره ، لكن يتقاعسون عنها لأجل تعب السعي ، كما لم نفهم الحكمة في رمي الجمار ، والفلسفة في بعض الأمور الدينية ، بدون استناد إلى نصّ أو دليل ، لا تنبغي .

ونرى أن مسألة السعي ورمي الجمار ونحوهما أمر تعبّدي ليس للعقل فيه مجال ، فلقد سئل رسول الله ﷺ عن رمي الجمار ، فقال : «الله ربكم تكبرون وملّة أبيكم إبراهيم تتبعون ووجه الشيطان ترمون» . ولهذا قال بعضهم عن رمي الجمار : لو كان قصد بالرمي النكاية لجاز بنحو النشّاب ، أو الإهانة لجاز بنحو البعر ، أو الإكرام لجاز بنحو النقد ، فلم يبق إلا التعبد المحض واتباع النص .

أما أصل السعي : فسببه أم إسماعيل «هاجر» ، وذلك حينما سعت ، ومشت بين الصفا والمروة ، حينما خافت على ولدها إسماعيل أن يموت من الجوع والعطش .

فقد روى الإمام الأزرقي في تاريخه ، عن سعيد بن جبير ، قال : حدثنا عبدا لله بن عباس أنه حين كان بين أم إسماعيل بن إبراهيم وبين سارة امرأة إبراهيم ما كان أقبل إبراهيم عليه السلام ، بأم إسماعيل وإسماعيل وهو صغير ترضعه حتى قدم مكة ، ومع أم إسماعيل شنّة فيها ماء تشرب منها وتدر على ابنها ، وليس معها زاد ، يقول سعيد بن جبير : قال ابن عباس : فعمد بهما إلى دوحة فوق زمزم ، في أعلى المسجد ، يشير لنا بين البئر وبين الصفة ، يقول فوضعهما تحتها ، ثم توجه إبراهيم ، خارجاً على دابته ، واتبعت أم إسماعيل أثره ، حتى أوفى إبراهيم بكداء يقول ابن عباس : فقالت له أم إسماعيل : إلى من تتركها وابنها ؟ قال : إلى ا لله عز وجل . قالت : رضيت با لله .

فرجعت أم إسماعيل تحمل ابنها ، حتى قعدت تحت الدوحة ، فوضعت ابنها إلى جنبها ، وعلقت شنتها تشرب منها وتدر على ابنها ، حتى فنى ماء شنتها ، فانقطع درّها ، فجاع ابنها ، فاشتد جوعه حتى نظرت إليه أمه يتشحط ، قال : فحسبت أم إسماعيل أنه يموت ، فأحزنها ، يقول ابن عباس : قالت أم إسماعيل : لو تغيبت عنه حتى لا أرى موته . يقول ابن عباس : فعمدت أم إسماعيل إلى الصفا ، حين رأته مشرفاً تستوضح عليه ، أي ترى أحداً بالوادي ، ثم نظرت إلى المروة ثم قالت : لو مشيت بين هذين الجبلين تعلّلت حتى يموت الصبي ولا أراه . قال ابن عباس : فمشت بينهما أم إسماعيل ثلاث مرات أو أربع ولا تجيز بطن الوادي في ذلك إلا رتلاً ، يقول ابن عباس : ثم رجعت أم إسماعيل إلى ابنها ، فوجدته ينشغ كما تركته ، فأحزنها ، فعادت إلى الصفا تتعلل حتى يموت ولا تراه ، فمشت بين الصفا والمروة كما مشت أول مرة ، يقول ابن عباس : حتى كان مشيها بينهما سبع مرات .

قال ابن عباس : قال أبو القاسم ﷺ : فلذلك طاف الناس بين الصفا والمروة ، قال : فرجعت أم إسماعيل تطالع ابنها فوجدته كما تركته ينشغ ، فسمعت صوتاً قد آب عليها ، ولم يكن معها أحد غيرها ، فقالت : قد أسمع صوتك فأغثني إن كان عندك خير . قال : فخرج لها جبريل عليه السلام فاتبعته حتى ضرب برجله مكان البئر ، يعني زمزم ، فظهر ماء فوق الأرض حيث فحص جبريل ، يقول ابن عباس : قال أبو القاسم ﷺ : فحاضته أم إسماعيل بتراب ، ترده خشية أن يفوتها

قبل أن تأتي بشنّتها، فاستقت وشربت ودرّت على ابنها. انتهى من الأزرقي، ومعنى ينشغ أي: يشهق حتى يكاد يغمى عليه، فهذا هو أصل السعي.

بناء العقدين بالصفا والمروة

جاء في تاريخ الغازي ما نصّه: وذكر المحب الطبري أن العقد الذي بالمروة جعل علماً لحد المروة، ثم قال: فينبغي للساعي أن يمر تحته ويرقى على البناء المرتفع. انتهى. والعقد الذي بالمروة الآن جدد في آخر سنة إحدى وثمانمائة أو في التي بعدها بعد سقوطه، وعمارته هذه من قبل الملك الظاهر برقوق، واسمه مكتوب بسبب هذه العمارة في أعلى بناء العقد، وفي الصفا أيضاً، وما أظن أن عقد الصفا بني، وإنما أظن أنه نوّر وأصلح.

وكان بالمروة خمس عشرة درجة، على ما ذكر الأزرقي، وليس بها الآن غير واحدة، ومن تحت هذا العقد إلى أول درجة الدكة، التي بالمروة داخل العقد، سبعة أذرع، ومن تحت العقد إلى الجدر الذي يستدبره مستقبل القبلة، ثمانية عشر ذراعاً وثلثا ذراع، كل ذلك بذراع الحديد. كذا في شفاء الغرام. انتهى من تاريخ الغازي.

نقول: لم نقف على من بنى العقد الذي بالصفا والعقد الذي بالمروة، والظاهر، والله تعالى أعلم، أن العقدين، بالصفا وبالمروة، بنيا لأول مرة بعد بناء عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس، عامل مكة من قبل أبي جعفر المنصور، درج الصفا ودرج المروة، وليس كما يظن الشيخ حسين باسلامة، رحمه الله تعالى، مؤلف «تاريخ عمارة المسجد الحرام» أن الذي بناهما هو باني الدرج عبد الصمد بن علي المذكور قبل سنة مائة وثمان وخمسين من الهجرة، فلو كان الأمر كذلك لذكرهما الأزرقي، في تاريخه، عندما ذكر بناء عبد الصمد ابن علي درج الصفا والمروة.

وسبب بناء العقدين، بعد عهد أبي جعفر المنصور، هو معرفة حدّ الصفا وحدّ المروة، فلا يتكلف الساعي الرقي لما بعدهما من الدرج.

والظاهر، والله تعالى أعلم، أن العقدين بنيا لأول مرة قبل القرن الثالث، فإن العقدين كانا موجودين في زمن ابن بطوطة كما صرح بذلك في رحلته وقد ولد ابن بطوطة سنة ثلاث وسبعمائة.

والمصطبة ، أي الدكة الواسعة المبنية على درج الصفا والمروة ، فطول المصطبة كما ذكره صاحب مرآة الحرمين أربع أمتار في عرض مترين ، والمصطبة بنيت لحكمة عظيمة وهي : أن عدد درج الصفا اثنتا عشرة درجة ، وعدد الدرج في المروة خمس عشرة درجة ، وذلك فيما سبق من الزمان ، فلو لم تبن المصطبة الواسعة لتعذر على مرتقي درج الصفا أن يدير نفسه ، وهو في أعلى اثنتي عشرة درجة ، لينزل عنها ثانياً قاصداً المروة مثلاً ، خصوصاً عند زحمة الحج والحجاج ، فوجد المصطبة هو لاستراحة الضعفاء ، ولدورانهم للرجوع إلى الصفا أو المروة وللدعاء . فرحم الله من نظر إلى مصلحة الناس .

وهنا نذكر ما جاء في « شفاء الغرام » نقلاً عن المحب الطبري في شرح الأصل ، عن الأبنية التي على الصفا والمروة ، وعن العقد الذي عليهما ، فقد قال فيه ما يأتي : وقد بني على الصفا والمروة أبنية حتى سترتهما ، بحيث لا يظهر منهما شيء غير يسير في الصفا . قال : والمروة أيضاً في وجهها عقد كبير مشرف ، والظاهر أنه جعل علماً لحد المروة ، وإلا كان وضعه ذلك عبثاً ، وقد تواتر كونه حداً بنقل الخلف عن السلف ، وتطابق الناسخون عليه ، فينبغي للساعي أن يمر تحته ويرقى على البناء المرتفع عن الأرض . انتهى .

قلت : البناء المرتفع الذي أشار إليه المحب كهيئة الدكة وله درجة ، وذكر الأزرقي والبكري في ذرع المروة ، ما يخالف حالهما اليوم «أما الأزرقي» فإنه قال في الترجمة ، التي ترجم عليها ، بقوله : ذكر ذرع ما بين الركن الأسود إلى الصفا وذرع ما بين الصفا والمروة وعلى المروة خمس عشرة درجة . انتهى ، وذكر في هذه الترجمة درج الصفا ، ونص كلامه على الصفا اثنتا عشرة درجة من حجارة . انتهى . «وذكر البكري» في درج المروة مثل ما ذكره الأزرقي «وذكر ابن جبير» أن درج المروة خمس درجات «وذكر النووي» أن فيها درجتين والذي فيها الآن واحدة .

والعقد الذي بالمروة جدد بعد سقوطه في آخر سنة إحدى وثمانمائة أو في التي بعدها ، وعمارته هذه من نقل الملك الظاهر برقوق ، واسمه مكتوب بسبب هذه العمارة في أعلى هذا العقد .

وفي الصفا أيضاً ، وما أظن أن عقد الصفا بني وإنما أظن أنه نوّر وأصلح ، وسبب ترددي في ذلك أني رحلت من مكة في آخر سنة إحدى وثمانمائة رحلتي

الثانية إلى الديار المصرية والشامية، ومن تحت هذا العقد (إلى أول درجة الدكة التي بالمروة داخل العقد) سبعة أذرع، ومن تحت العقد الذي بالمروة إلى الذي يستدبره مستقبل القبلة ثمانية عشر ذراعاً وثلثا ذراع، كل ذلك بذراع اليد، واتساع هذا العقد ستة عشر ذراعاً بذراع الحديد المصري.

والمروة أفضل من الصفا، على ما قال شيخ الإسلام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، وكذا تلميذه الشهاب القرافي، لكونها تزار من الصفا أربعاً والصفا لا يزار منها إلا ثلاثاً، وما كانت العبادة فيه أكثر فهو أفضل وذكر القاضي عز الدين بن جماعة أن في ذلك نظراً، وقال لو قيل بتفضيل الصفا لأن الله سبحانه وتعالى عز وجل بدأ به لكان أظهر، ولو قيل بتفضيل المروة باختصاصها بالنحر والذبح دون الصفا لكان أظهر مما قالاه، والله أعلم. انتهى من شفاء الغرام.

هدم درج الصفا القديمة وما كتب على عقده

وقد باشروا في هدم عقد الصفا يوم الثلاثاء ١٣٧٧/١٠/٢٤هـ، أما الدرجات القديمة جداً، والتي كانت مدفونة، منذ عصور عديدة، فقد ظهرت عند حفر أرض الصفا، وذلك في رجب سنة ١٣٧٧هـ، ثم إنهم في شوال من السنة المذكورة أخرجوا الدرجات القديمة، وبنوا فوقها الدرجات الجديدة بالإسمنت. وقد عملوا درجات الصفا بالإسمنت في شهر شوال سنة (١٣٧٧) هجرية، وعدد الدرج الجديد من اليمين (١٢) درجة، وعدد الدرج من الشمال (١١) درجة. وكان مكتوباً على عقد الصفا في سطر واحد: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ يفصل هذا السطر في الوسط كلمة لفظ الجلالة «الله» وإليك صورة الصفا ودرجه، قبل هدمها، في العمارة السعودية في سنة (١٣٧٦) ويظهر على الدرج العقود الثلاثة.

انظر: صورة رقم ١٨٠، الصفا قديماً

درج الصفا والمروة

لم يكن في عصر النبوة درج على الصفا ولا على المروة، وقد بقيا على حالتهما الطبيعية إلى زمن أبي جعفر المنصور، المتوفى سنة مائة وثمان وخمسين من الهجرة، ففي عهده بني عليهما الدرج كما يأتي:

قال الأزرقي، في تاريخه: حدثنا أبو الوليد، قال: حدثني جدي أحمد بن محمد، قال: كان الصفا والمروة يسند فيهما من سعى بينهما ولم يكن فيهما بناء ولا درج، حتى كان عبد الصمد بن علي، في خلافة أبي جعفر المنصور، فبنى درجهما، التي هي اليوم درجهما، فكان أول من أحدث بناءها، ثم كحل بعد ذلك بالنورة في زمن مبارك الطبري، في خلافة المأمون. انتهى منه.

ترجمة عبد الصمد بن علي

وعبد الصمد المذكور هو عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عامل مكة من قبل أبي جعفر المنصور. قال الغازي في الجزء الثاني من تاريخه، المسمى «إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» ما نصّه: وولي مكة عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس عم المنصور واستمر إلى سنة تسع وأربعين ومائة. انتهى منه. ولقد أصلح درج الصفا وجدد غير مرة.

ثم إنه في سنة اثنتين وثمانمائة جدد فرج بن برقوق درجهما، وفي سنة ست وتسعين ومائتين وألف، جددهما السلطان عبد الحميد الثاني، أحد سلاطين آل عثمان.

قال صاحب كتاب «تاريخ عمارة المسجد الحرام»: بنى عامل أبي جعفر المنصور على مكة عبد الصمد بن علي درجاً على الصفا اثنتي عشرة درجة، وعلى المروة خمس عشرة درجة، كحلت بعد ذلك بالنورة، في زمن مبارك الطبري، في خلافة المأمون بن هارون الرشيد العباسي، كما ذكره الأزرقي في كتابه «أخبار مكة» والطبري في كتابه «الأوائل». اهـ.

وقال أيضاً في كتابه المذكور ما خلاصته: يقول صاحب مسالك الأبصار: كان على الصفا اثنتا عشرة درجة، وقال ابن بطوطة في رحلته: وللصفا أربعة

عشرة درجة علياهن كأنها مصطبة ، وللمروة خمس عشرة درجة وهي ذات قوس واحد كبير . انتهى . والقوس المذكور هو العقد .

انظر: صورة رقم ١٨١ ، عقد المروة

وجاء في عمارة المسجد الحرام ، عن التقي الفاسي ، أنه قال : الصفا مكان مرتفع من جبل له درج وفيه ثلاثة عقود ، والدرج من أعلى العقود وأسفلها ، وبعض الدرج الذي أسفل العقود مدفون ، وذلك ثمان درجات ، ثم فرشة مثل بعض الفرشات الظاهرة ، التي أمام العقود ، ثم درجتان ، وما عدا ذلك ظاهر للعيون ، وهو درجة أسفل العقود ، ثم فرشة كبيرة ثم ثلاث درجات ، ثم فرشة كبيرة هي السفلى الملاصقة للأرض ، وربما علا التراب على هذه ، وما ذكرناه من الدرج المدفون شاهدناه بعد حفرنا عنه ، في شوال سنة أربع وثمانمائة . انتهى قول الفاسي .

ونحن نقول : إنه لما كانت التوسعة السعودية ، في المسجد الحرام ، في زماننا الحاضر ، فعند عمارة نفس المسعى ، وإزالة البناء الذي على الصفا والبناء الذي على المروة ، انكشفت الدرجات القديمة في مرتقى المروة ، والتي كانت مدفونة من قديم الزمان ، حتى ذكرها الفقهاء في جميع كتب الفقه .

فلما ظهرت الدرجات المدفونة ، ذهبنا في اليوم التاسع من رمضان سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة لمشاهدة هذه الدرجات القديمة المدفونة في المروة ، فوجدناها من الحجارة القوية المستعملة في مكة ، وعددها خمس عشرة درجة ، والعقد الذي بوجه المروة قائم على الدرجة العاشرة المدفونة ، وكان ارتفاع التراب والحصى الذي ردم به الدرجات القديمة ، التي دفنت تحته ، من متر ونصف متر إلى مترين ، كما أخذنا قياسه بأنفسنا ، فيفهم من هذا أن أرض المسعى قد ارتفعت ، منذ بناء الدرجات ، التي كانت موجدة في زمن ابن بطوطة ، إلى وقتنا الحاضر ، بمقدار مترين .

قال الفاسي في تاريخه « شفاء الغرام » في الجزء الأول ، في الباب الثاني والعشرين ، في ذكر الأماكن المتعلقة بمناسك الحج ، بعد أن ذكر تسعة أمور منها ، قال في الأمر العاشر ما يأتي :

(العاشر) : الصفا الذي هو مبدأ السعي ، وهو في أصل جبل أبي قبيس ، على ما ذكره غير واحد من العلماء ، ومنهم أبو عبيد البكري والنووي ، وهو موضع

مرتفع من جبل له درج ، وفيه ثلاثة عقود ، والدرج من أعلى العقود وأسفلها ، والدرج الذي يصعد من الأولى إلى الثانية منهن بثلاث درجات في وسطها ، وتحت العقود درجة ، وتحتها فرشة كبيرة ، ويليها ثلاث درجات ، ثم فرشة مثل الفرشة السابقة تتصل بالأرض ، وربما أهيل التراب عليها فغيب ، وعرض الفرشة السفلى ذراع ونصف ذراع وقيراطان ، وعرض الفرشة العليا التي تحت العقود ذراع وثلثا ذراع ، وعرض الثلاث درجات ، التي بين الفرشتين ، ذراعان ونصف ذراع ، كل ذلك بذراع الحديد ، وتحت الفرشة السفلى ، التي تتصل بالأرض ، درج مدفون وهو ثمان درجات ، ثم فرشة مثل الفرشة السابقة ثم درجتان ، وتحت هاتين الدرجتين حجر كبير يشبه أن يكون من جبل ، وهذا الدرج المدفون لم نره إلا في محاذاة العقد الأوسط من عقود الصفا .

والظاهر ، والله أعلم أن في مقابلة العقدين الأخيرين مثل ذلك .

انظر : صورة رقم ١٨٢ ، الكتابة المحفورة على عقد المروة

وذرع ما بين وجه العقد الأوسط على الصفا إلى منتهى الدرج المدفون ثمانية عشر ذراعاً بالحديد ، وكان تحرير ذلك بحضوري ، بعد الأمر بالحفر عن الدرج المشار إليها ، في سابع عشر شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة ، وكان ابتداء حفرنا عن ذلك يوم السبت خامس عشر شوال المذكور ، وكان الناس يأتون لمشاهدة ما ظهر من الدرج أفواجاً أفواجاً ، وحصل لهم بذلك غبطة وسرور ، لأن كثيراً من الساعين لا يرقون في الدرج الظاهر الآن خصوصاً الساعي راكباً .

وسبب حفرنا عن ذلك ، أنه حاك في نفس بعض فقهاء مكة ، في عصرنا ، عدم صحة سعي من لم يرق في الدرج الظاهر ، لأن بعض متأخري الفقهاء الشافعية قد أشار إلى أن في الصفا درجاً مستحدثاً ينبغي للساعي الاحتياط بالرقي عليها ، إلى أن يستيقن . انتهى بالمعنى ، وسيأتي ذكر ذلك بنصه .

وهذ الكلام يوهم أن بعض الدرج الموجود الآن محدَث ، لأنه ليس هناك درج سواها حتى يحمل الكلام عليها وذاكرني الفقيه المشار إليه ، بما حاك في نفسه ، فقلت له الظاهر ، والله أعلم ، أن المراد بالدرج المحدَث غير الدرج الظاهر ، ويتحقق ذلك بالحفر عنه ، فحفرنا حتى ظهر لنا من الدرج ما ذكرناه ، وبعيد جداً أن يكون مجموع الدرج المدفون والظاهر محدثاً ، في غير محل السعي ، حتى لا

يجزئ الوقوف عليه في السعي ، وإنما المحدَث بعض الدرج المدفون لكونه في غير محل السعي ، على ما يقتضيه كلام الأزرقي .

لأنه قال ، فيما رويناه عنه ، بالسند المتقدم : ذرع ما بين الركن الأسود إلى الصفا مائتا ذراع واثنان وستون ذراعاً وثماني عشرة إصبعاً . انتهى . والصفا الذي ذكر الأزرقي ذرع ما بينه وبين الحجر الأسود ، هو محل السعي ، وما ذكره الأزرقي ، في ذرع ما بين الصفا والحجر الأسود ، إما أن يكون إلى مبدأ الدرج المدفون تحت العقود ، أو إلى العقود ، أو إلى ما وراء ذلك ، وفي كل الوجوه نظر غير الوجه الثاني .

(أما الأول) فلأن من الحجر الأسود إلى مبدأ الدرج المدفون مائتي ذراع وواحداً وعشرين ذراعاً وربع ذراع وثمن ذراع بذراع الحديد ، يكون ذلك بذراع اليدين مائتي ذراع وثلاثة وخمسين ذراعاً ، بذراع اليد ، على ما حررناه ، وذلك دون ما ذكره الأزرقي ، في مقدار ما بين الحجر الأسود والصفا بعشرة أذرع إلا ربع ، فدل ذلك على أنه لم يرده ، لمخالفته المقدار ، الذي ذكره ، والله أعلم .

(وأما الوجه الثالث) فلأن من هذا الحجر الأسود إلى العقد الوسط ، الذي بالصفا ، مائتي ذراع وتسعة وثلاثين ذراعاً وربع ذراع وثمن ذراع بالحديد ، يكون ذلك باليد مائتي ذراع وثلاثة وسبعين ذراعاً بتقديم السين وأربعة أسباع ذراع على ما حررناه ، وذلك يزيد على مقدار ما ذكره الأزرقي عشرة أذرع وخمسة أسباع ذراع وثلاثة أرباع خمس سبع ذراع ، فدل ذلك على أنه لم يرده لمخالفته القدر الذي ذكرناه .

(وأما الوجه الرابع) فالنظر فيه كالنظر في الوجه الثالث ، لأنه إذا كان الوجه الثالث غير المراد ، لما فيه من المخالفة ، لما ذكره الإمام الأزرقي ، بسبب الزيادة ، فكذا الوجه الرابع ، غير المراد من باب أولى ، لكثرة الزيادة فيه على الزيادة ، التي في الوجه الثالث ، خصوصاً إذا قيل إن المراد موضع جدار البيت المشرف على الصفا ، فإن من العقد الأوسط إليه سبعة عشر ذراعاً ، بتقديم السين ، بذراع الحديد ، يكون ذلك بذراع اليد تسعة عشر ذراعاً ، بتقديم التاء ، وثلاثة أسباع ذراع ، والله أعلم .

وإذا كان في كل من هذه الوجوه نظر ، تعين أن يكون المراد الوجه الثاني ، لموافقته كلام الأزرقي ، لأن من أول الفرشة ، التي تحت درجات الثلاث ، إلى آخر

الفرشة، التي فوقها تحت الدرجة التي تحت العقد الأوسط، عشرة أذرع باليد، وذلك هو العقد الزائد، على ما ذكره الأزرقي، في مقدار ما بين الحجر الأسود والصفا، وإنما ذكر الأزرقي، ذرع ما بين الحجر الأسود والصفا، ليبين أن ما وراء ذلك محل للسعي، والفرشة السفلى المشار إليها من وراء الذرع المذكور، فتكون محلاً للسعي على هذا، ويصح إن شاء الله تعالى، سعي من وقف عليها فلا يقصر الساعي عنها، ولا يجب عليه الرقي على ما ورائها، والله أعلم، والفرشة المشار إليها هي التي سبق أن التراب يعلو عليها فتفنى.

وأما الكلام الموهم، بخلاف ذلك، فهو ما ذكره المحب الطبري، في شرح التنبيه، لأنه قال: وبني في ذيل الصفا درج، فينبغي أن يحتاط مريد السعي بالرقي عليها، فإن الأرض ربت بحيث يرى البيت من غير رقي. انتهى. ومن ذلك ما ذكره النووي، في الإيضاح، لأنه قال: إن من واجبات السعي أن يقطع جميع المسافة بين الصفا والمروة فلو بقي منها بعض خطوة لم يصح سعيه، حتى لو كان راكباً اشترط أن تسير دابته حتى تضع حافرها على الجبل أو إليه حتى لا يبقى من المسافة شيء، ويجب على الماشي أن يلصق، في الابتداء والانتهاء، رجله بالجبل، بحيث لا يبقى بينهما فرجة، فيلزمه أن يلصق العقب بأصل ما يذهب منه، ويلصق رؤوس أصابع رجليه بما يذهب إليه، فيلصق في الابتداء بالصفا عقبه وبالمروة أصابع رجليه، فإذا عاد عكس ذلك. هذا إن لم يصعد، فإن صعد فهو الأكمل. وقد زاد خيراً وليس الصعود شرطاً، بل هو سنة متأكدة، ولكن بعض الدرج مستحدث فليحذر أن يخلفها وراءه فلا يتم سعيه وليصعد بعد أن يستيقن.

وقال بعض أصحابنا: يجب الرقي على الصفا والمروة بقدر قامة، وهذا ضعيف والصحيح المشهور لا يجب لكن الاحتياط أن يصعد للخروج من الخلاف. انتهى.

وذكر الأزرقي، ذرع ما بين الصفا والمروة، لأنه قال فيما رويناه عنه بالسند المتقدم: ومن الصفا إلى المروة طواف واحد سبعمائة ذراع وستة وستون ذراعاً ونصف يكون السعي بينهما خمسة آلاف وثلاثمائة ذراع وخمسة وستين ذراعاً ونصف ذراع. انتهى. وقد حررت أنا ذرع ذلك، فجاء من وسط جدار الصفا، وهو من محاذاة نصف العقد الوسط من عقود الصفا إلى الدرج الذي بالمروة من داخله ستمائة ذراع وثلاثة وسبعون ذراعاً بالحديد، بتقديم السين، وسبعة أثمان

ذراع ، يكون ذلك بذراع اليد سبعمائة وسبعين ذراعاً وسبع ذراع ، بتقديم السين ، في السبعمائة ذراع وفي السبعين وفي السبع ، ومن محاذاة نصف العقد الوسط من عقود الصفا إلى الدرجة العالية بالمروة ، التي كهيئة الدكة الكبيرة ، من داخل الدرج ، ستمائة ذراع وثمانون ذراعاً إلا ثمن ذراع بذراع الحديد ، يكون ذلك باليد سبعمائة ذراع وسبعة وسبعين ذراعاً ، بتقديم السين في السبعمائة وفي السبعة وفي السبعين .

وما ذكره الأزرقي ، في مقدار ما بين الصفا والمروة ، يدل أنه لم يرد به إلى ما وراء الدرج بالمروة ، وإنما مراده إليه أو ما قرب منه ، لأنه لو أراد إلى ما وراء الدرج لم يكن المقدار الذي ذكره موافقاً لذلك ، لما فيه من النقص عن ذلك ، والله أعلم . وما ذكرناه في مقدار ما بين وسط عقود الصفا والدرج ، الذي بالمروة ، في اعتبار ذرع ذلك باليد ، يقرب مما ذكره الأزرقي في ذرع ذلك ، لأن ما ذكرناه يزيد على ما ذكر الأزرقي ثلاثة أذرع ونصف ذراع وسبع ذراع ، ولعل الأزرقي لم يعتبر ما ذكره من الموضع الذي اعتبرناه منه ، وإنما اعتبر ذلك من طرف العقد الذي يلي العقد الوسط . والله أعلم .

وذرع عقود الصفا الثلاثة أحد وعشرون ذراعاً بالحديد إلا ثمن ذراع بالحديد ، وطول الدرجة الأخيرة من درج الصفا السفلى ، التي تلي الأرض ، في محاذاة الثلاثة عقود ، التي بالصفا ، اثنان وعشرون ذراعاً بالحديد ، وذكر النووي أن عرض فتحة الدرج الذي كان على الصفا نحو خمسين قدماً . انتهى .

وذكر الأزرقي شيئاً من خبر درج الصفا والمروة ، فنذكر ذلك لإفادته ، لأنه قال فيما رويناه عنه : حدثني جدي أحمد بن محمد ، قال : كانت الصفا والمروة يُسْنَد فيهما من سعى بينهما ، ولم يكن بينهما بناء ولا درج ، حتى كان عبد الصمد بن علي ، في خلافة أبي جعفر المنصور ، فبنى درجهما ، التي هي اليوم درجهما ، فكان أول من أحدث بنائها ، ثم كحل بالنورة في زمن مبارك الطبري ، وذلك في خلافة المأمون . انتهى .

وذكر الأزرقي أن درج الصفا أربع عشرة درجة ، وذكر ابن جبير أن درج الصفا أربع عشرة درجة ، وذكر النووي أن درج الصفا إحدى عشرة درجة .

وسبب هذا الاختلاف : أن الدرج يعلو عليه التراب فينفخها ، وما أظن النووي شاهد ما ذكره من عدد درج الصفا ، وإنما قلّد في ذلك الأزرقي وغيره من

المصنفين ، لأنه يبعد أن تعلو الأرض في عهد النووي إلى اليوم علواً يغيب به من درج الصفا القدر الذي وجدناه مدفوناً . وا لله أعلم .

ويتأيد ذلك بأن سليمان بن خليل ، قال في الرد على أبي حفص بن الوكيل من الشافعية ، في إيجابه الرقي على الصفا والمروة ، وتعليله إيجاب ذلك : بأنه لا يمكن استيضاح ما بينهما إلا بالرقي عليهما . وقد كان هذا قبل أن يعلو الوادي ، لأن الدرج كانت كثيرة ، وكان الوادي نازلاً ، حتى أنه كان يصعد درجاً كثيراً ليرى البيت ، حتى قيل : إنه كانت الفرسان في المسعى والرماح قائمة معهم ، ولا يرى من في المسجد إلا رؤوس الرماح ، فأما اليوم فإنه يرى البيت من غير أن يرقى على شيء من الدرج . انتهى .

ووجه الدلالة من هذا على ما أشرنا إليه ، أن عصر سليمان بن خليل وعصر النووي متقاربان ، وسليمان مات قبل النووي بنحو خمس عشرة سنة ، وإذا كان البيت يرى في عصره ، من غير رقي على الصفا ، لعلو الأرض ، فيكون الحال هكذا في عصر النووي وا لله أعلم . انتهى من كتاب شفاء الغرام .

الميلان الأخضران بالمسعى

الميلان الأخضران اللذان بالمسعى ، وضعا للعلامة على طلب الهرولة بينهما ، في السعي ذهاباً وإياباً ، فأحدهما كان تحت منارة « باب علي » من أبواب المسجد الحرام ، لاصقاً بجداره من الخارج ، من جهة المسعى ، وثانيهما كان متصلاً بدار العباس بن عبد المطلب ، رضي ا لله عنه ، وتسمى « برباط العباس » . ويطلق بعض الفقهاء على الميل الذي تحت منارة باب علي « الميل الأخضر المعلق » . قال ابن حجر في حاشيته على إيضاح النووي ، رحمهما ا لله تعالى : قال جماعة : إنه كان مبنياً على متن الطريق ، مسامتاً لابتداء السعي الشديد ، وكان السيل يهدمه ويزيله عن محله ، فرفعه إلى أعلى ركن بالمسجد ، ولذلك سمي معلقاً ، فوقع متأخراً عن مبدأ السعي بستة أذرع ، لأنه لم يكن موضعاً أليق منه . انتهى من حاشية ابن حجر على الإيضاح . فلذلك تسن الهرولة قبل هذا الميل الأخضر بنحو ستة أذرع . ولقد هدم أحد العلمين الأخضرين في سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف ، وهدم العلم الثاني في السنة التي بعدها وهي سنة (١٣٧٦) وذلك بسبب توسعة

المسجد الحرام ، ثم إنه في . . . . أعادوا وضع العلمين من جديد للغرض المذكور ، فوضعوها بالمحل الأصلي الذي كان فيه .

انظر: صورة رقم ١٨٣ ، أحد الميلين الأخضرين من العمارة القديمة . وصورة رقم ١٨٤. أحد الميلين الأخضرين من العمارة القديمة

ووضع العلمين الأخضرين ليس حديثاً ، بل إنه قديم ، حتى أن الإمام الأزرقي ، المولود في القرن الثاني للهجرة ، ذكرهما في تاريخه فقال بصحيفة (٦٢) ، من الجزء الثاني : ومنها باب العباس بن عبد المطلب وهو الباب الذي عنده العلم الأخضر ، الذي يسعى منه من أقبل من المروة يريد الصفا . وقال في صحيفة (٦٠) الذي يلي باب بني هاشم ، الذي عليه العلم الأخضر ، الذي يسعى منه من أقبل من المروة يريد الصفا : فهذا الباب الذي ذكره هو ما نسميه بباب علي ، ومثل ذلك قال أيضاً بصحيفة (٦٣) فعلم من كلام الأزرقي أن وضع الميل الأخضر ، في المسعى للدلالة على الهرولة ، كان من قديم الزمن وليس بمستحدث ، وجاء في صحيفة (٦٠) المذكورة ما يؤيد كلام ابن حجر في حاشيته على الإيضاح الذي ذكرناه هنا .

والظاهر أن العلم الأخضر وضع في أواخر القرن الأول الهجري ، فإن الناس ، في صدر الإسلام ، كانوا يعرفون موضع هرولة النبي ﷺ والصحابة من بعده ، فلما انقرضوا رأوا أن يضعوا موضعها علامة ، للدلالة عليها ، حتى لا يحدث اختلاف ، فوضعوا هذا العلم الأخضر ، ثم إنه كلما حدث تجديد وتوسعة في المسجد الحرام ، نقلوا هذه العلامة «العلم الأخضر» من موضعه الأصلي إلى ما يقابله تماماً ، في محل التوسعة الجديد ، كما حدث في زماننا هذا .

قال الغازي صحيفة ٣٨٨ : ومنها الميلان الأخضران اللذان يهرول الساعي بينهما ، في سعيه بين الصفا والمروة ، قال الفاسي : هما العلمان اللذان أحدهما بركن المسجد ، الذي فيه المنارة ، التي يقال لها منارة باب علي ، والآخر في جدر باب المسجد ، الذي يقال له باب العباس ، والعلامان المقابلان لهذين العلمين ، أحدهما في دار عباد بن جعفر ، ويعرف اليوم بسلمة بنت عقيل ، والآخر في دار العباس ، ويقال لها اليوم رباط العباس . انتهى .

قال ابن فهد : وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة أمر أمير المؤمنين ، المستضيء بالله ، بعمارة الأميال الخضر بالمسعى المعظم . انتهى .

قال الفاسي : وذكر الأزرقي صفة هذه الأعلام ، وأن ذرع ما بين العلم ، الذي على باب المسجد ، إلى العلم الذي بإزائه على باب دار العباس ، وبينهما عرض المسعى خمسة وثلاثون ذراعاً ونصف ، قال ومن العلم الذي على باب دار العباس إلى العلم الذي عند دار ابن عباد ، الذي بحذاء العلم الذي في حد المنارة ، وبينهما الوادي ، مائة ذراع وواحد وعشرون ذراعاً . انتهى .

قال : وذكر الأزرقي ، ما يقتضي أن موضع السعي ، فيما بين الميل الذي بالمنارة والميل المقابل له ، لم يكن مسعى إلا في خلافة المهدي العباسي ، لتغيير موضع السعي قبله ، في هذه الجهة ، وإدخاله في المسجد الحرام ، في توسعة المهدي له ثانياً ، لأنه قال : حدثني جدي ، قال : لما بنى المهدي المسجد الحرام ، وزاد الزيادة الأولى ، اتسع أعلاه وأسفله وشقه الذي يلي دار الندوة الشامي ، وضاق شقه اليماني الذي يلي الوادي والصفا ، فكانت الكعبة في شق المسجد ، ذلك أن الوادي كان داخلاً لاصقاً بالمسجد في بطن المسجد اليوم . . . إلخ كلامه . انتهى من الغازي .

جاء في هامش الجزء الثاني ، من تاريخ الأزرقي ، بصحيفة (٩٦) أما الميلان الأخضران ، فقد عمرهما سودون المحمدي عام (٣٤٧) وعلق حولهما قنديلين للإضاءة اهـ .

نقول : لقد ذكر القطبي في تاريخه بعض أعمال سودون المحمدي ، ومن ضمنها وضع القنديل على الميل الأخضر ، وذلك سنة (٨٤٣) ثلاث وأربعين وثمانمائة ، فالتاريخ المذكور هنا بهامش تاريخ الأزرقي غلط والصواب ما ذكره القطبي .

تسوية أرض المسعى وتعبيدها

واعلم أننا إذا نظرنا إلى الوراء ، يعني إلى زمان سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام نجد أن ما بين الصفا والمروة ، أي بطن الوادي ، كان نازلاً عميقاً على حسب الطبيعة ، قبل أن تمتد الأيدي لإصلاح ما بينهما ، ثم لا بد أن ترتفع الأرض قليلاً إلى زمان نبينا محمد ﷺ ، لا من فعل البشر ، وإنما بفعل الطبيعة ، وذلك بنزول الأمطار ومجيء السيول ، التي تسبب نزول الصخور الأحجار ، من

فوق الجبال، والأتربة والرمال من الطريق، فترتفع الأرض عما كانت عليه من قبل شيئاً فشيئاً.

جاء في تاريخ الأزرقي، عن جابر بن عبد الله، يحدث عن حجة النبي ﷺ يقول: ثم نزل عن الصفا حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا أصعد من الشق الآخر مشى، اهـ. وفي تاريخ الأزرقي أيضاً عند الكلام على زيادة المهدي الأخيرة: وإنما يسلك من المسجد الحرام إلى الصفا في بطن الوادي، ثم يسلك في زقاق ضيق حتى يخرج إلى الصفا من التفاف البيوت، فيما بين الوادي والصفا. اهـ.

ويقول ابن حجر في حاشيته على إيضاح النووي نقلاً عن الرضي بن خليل المكي، إن الوادي كان نازلاً حتى أن الشخص كان يصعد درجاً كثيرة ليرى البيت الحرام، بل قيل إن الفرسان كانت تمر في المسعى والرماح قائمة فلا يرى من بالمسجد إلا رؤوسها اهـ.

فالظاهر مما تقدم، والله تعالى أعلم، أن أرض المسعى كان فيها منعرجات ومنحدرات ونزول وطلوع، ولا شك أن ذلك مما لا يريح الساعين، لكن الأجر على قدر المشقة.

لم نر من تكلم عن تسوية أرض المسعى وتعبيده، والذي نذهب إليه، والله تعالى أعلم، أن أول ما بدئ بإصلاح أرض المسعى وتسويتها، كان في زمن أمير المؤمنين محمد المهدي، الذي زاد في المسجد الحرام، من جميع جهاته، زيادة كبيرة، والذي كان يقف بنفسه على أعمال المهندسين والشغالين، ويبدي لهم من الآراء السديدة الجبارة ما يجعلهم حيارى إزاءها، ثم بعد تنفيذ أوامره يشكرونه ويحمدون له رأيه الكريم، حتى أنه من شدة عنايته بالزيادة، في المسجد الحرام، ورغبته القوية الأكيدة في تربيعه، وجعل الكعبة المشرفة بوسطه تماماً، أمر المهندسين أن ينصبوا الرماح فوق أسطحة الدور، من أول الوادي إلى آخره، والمهدي قائم على جبل أبي قبيس ينظر إلى كل ذلك، فلما اطمأن قلبه إلى هندستهم من فوق الرماح، وعرف ما يدخل في المسجد، وما يكون في الوادي، أقرهم على الوضع المناسب، ثم سافر إلى العراق، بعد أن خلّف لهذا العمل الجليل

العظيم من الأموال ما لا يعد ولا يحصى . وكانت الزيادة للمهدي مرتين في سنة مائة وستين ثم في سنة مائة وأربع وستين أيضاً كما فصلنا ذلك في محله .

وقد دخل في هذه التوسعة جزء من المسعى إلى المسجد الحرام ، ومن مستلزمات هذه العمارة الواسعة تسوية أرض المسعى وردم بعض المنخفضات بالأتربة والحجارات ، المتبقية والمتخلفة عن هذه العمارة .

ثم ما زال الحكام يصلحون أرض المسعى كلما حصلت مناسبة لذلك ، فقد أصلح في عهد المأمون في حدود سنة اثنتين ومائتين ، وكذلك في عهد جعفر المتوكل على الله ، فقد أمرت أمه بعزق وادي مكة جميعه ، وكذلك في عهد السلطان قايتباي ، وذلك حينما حصل التعدي على جزء من أرض المسعى من قبل بعض أتباعه .

إلى غير ذلك مما لا نتمكن من تتبعه ، فإصلاح أرض المسعى وتسويتها وارتفاعها ، كان شيئاً فشيئاً ، إلى أن وصلت إلى حالتها الحاضرة اليوم . ففي عصرنا الحاضر فرش أرض المسعى من الصفا إلى المروة بالحجارة ، وذلك بأمر جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، رحمه الله تعالى ، في سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف ، ولا يخفى أن في كل هذا الأحوال ترتفع أرض المسعى تدريجياً .

أما أرض المسعى الآن ، في هذه التوسعة السعودية ، فإنها في غاية من الجمال والنظافة مبلط بالإسمنت ليس فيها عيب ، والحق يقال : أن بناء المسعى وتسقيفه بشكله الحاضر ، لم يسبق لحكومة من الحكومات السابقة ، أن عملت مثله أبداً . نسأل الله تعالى التوفيق والقبول .

عزم الوالي التركي سابقاً على توسعة المسعى

جاء في آخر الجزء الثالث ، من تاريخ الغازي ، عند الكلام عن ترجمة المشير الحاج محمد حسيب باشا ، الذي تولى مكة ، من قبل الدولة العثمانية ، سنة (١٢٦٤) بعد ذكر ما عمله المذكور من الأعمال العمرانية وغيرها ، ما يأتي :

ولقد أراد المذكور أن يوسع المسعى ويهدمها ، ليتسع على الحجاج ، حال السعي ، ويأخذ من الدور الداخلة في مشعر المسعى ، ويجعل طريقاً في الذاهب للسعي وآخر للآيب ، ونصب حبلاً كان مراده أن يجعل عوضه درابزاناً من الحديد

أو غيره ، وهدم بعض الدور الداخلة بالمشعر ، فكتب فيه بعض أهالي مكة المشرفة ونقموا عليه ، وتوجه بالكتب إلى الدولة العليّة السيد عبد الله بن عقيل ، توجه خفية على ناقة إلى التنعيم ، ثم أخذ براً من طريق الحديبية ، وتوجه إلى الآستانة ، وشكاه فأمرت الدولة العليّة بعزله سنة (١٢٦٦) ست وستين ومائتين وألف فتوجه إلى الآستانة . انتهى من الغازي .

انظر: صورة رقم ١٨٥ ، قبة الصفا التي عملت في العهد السعودي الثاني في زماننا

وصف الصفا والمروة

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ وجبل الصفا واقع أسفل جبل أبي قبيس ، مما يقابل ركن الحجر الأسود من الكعبة ، وهو جبل صلد أملس ، ومنه يبدأ السعي ، وأما المروة فهي واقعة جهة المدعا ، وإليها ينتهي السعي ، وجبل المروة رخو بالنسبة لجبل الصفا . قال الغازي : قال الفاسي : المروة الموضع الذي هو منتهى السعي وهو في أصل جبل قعيقعان على ما قال أبو عبيد البكري ، وقال النووي : إنها أنف من جبل قعيقعان اهـ .

قال إبراهيم رفعت باشا ، في كتابه «مرآة الحرمين» : الصفا هو شبيه بالمصلّى طوله ستة أمتار وعرضه ثلاثة أمتار ، مرتفع عن الأرض بنحو مترين ، يصعد إليه بأربع درجات ، وفي جنوبي هذا المكان أي وراءه أربع درجات أخرى صاعدة ، أقيم عليها ثلاثة عقود في صف واحد ، من الشرق إلى الغرب ، وبعد هذه الدرجات الخلفية أصل جبل أبي قبيس ، وحول الصفا جدار يحيط به ، ما عدا الجهة الشمالية التي منها المرقى . انتهى .

ثم قال فيه أيضاً : والمروة ، في الشمال الشرقي للمسجد الحرام ، وهي منتهى المسعى من أصل جبل قعيقعان ، يصعد إليها بخمس درجات فقط ، بعدها مسطبة طولها أربعة أمتار في عرض مترين ، بعدها مسطبة أخرى عرضها متر واحد ملاصقة لجدار المروة ، ومن دون الدرجات الخمس عقد شاهق والشارع الذي بين الصفا والمروة هو المسعى . انتهى .

قال الغازي في تاريخه : الصفا الذي هو مبدأ السعي ، قال الفاسي : هو في أصل جبل أبي قبيس ، على ما ذكره البكري والنووي وغيرهما ، وهو مكان

مرتفع من جبل له درج ، وفيه ثلاث عقود ، والدرج من أعلى العقود وأسفلها ، وبعض الدرج الذي من تحت العقود مدفون ، وذلك ثمان درجات ثم فرشة مثل بعض الفرشاة الظاهرة تحت العقود ، ثم درجتان ما عدا ذلك ظاهر ، وهو درجة تحت العقود ثم فرشة كبيرة ثم ثلاث درجات ثم فرشة كبيرة ، إلا أن هذه الفرشة السفلى ، ربما غيبت بما تعلو عليها من التراب . أقول وهو كذلك إلى الآن موجود ، قال الفاسي : وما ذكرناه من الدرج مدفون ، شاهدناه بعد حفرنا عنه ، في شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة .

وسبب حفرنا له أن الشيخ محب الدين الطبري قال في شرح التنبيه : وبني في ذيل الصفا درج ، فينبغي أن يحتاط من بدأ السعي بالرقي عليها . انتهى . وهذا يوهم أن يكون المراد به ما ظهر تحت العقود من الأربع درجات والفرشتين ، كما يمليه بعض فقهاء مكة ، في عصرنا ، وذاكرني بذلك ، فقلت : المراد به غير الدرج الظاهر ، وحفرنا عن ذلك فظهر ما ذكرناه . وهذا المدفون ليس محلاً للمسعى ، ومحله الظاهر ويدل على ذلك كلام الأزرقي ، فإنه قال : ذرع ما بين الركن الأسود إلى الصفا مائتا ذراع واثنان وستون ذراعاً وثماني عشرة إصبعاً . انتهى .

وحررنا ما بين الحجر الأسود وبين الفرشة السفلى التي يعلو عليها التراب ، فجاء مثل ما ذكره الأزرقي ، في ذرع ما بين الحجر الأسود والصفا ، و لم يذكر الأزرقي ذرع ذلك إلا ليبين أن ما وراء ذلك محل للسعي والفرشة السفلى المشار إليها من وراء الذرع المذكور ، فيكون محلاً للسعي المذكور ، ويصح على هذا ، إن شاء الله ، سعي من وقف عليها فلا يقصر الساعي عنها ، ولا يجب عليه الرقي على ما ورائها والله تعالى أعلم . انتهى من الغازي .

قال الإمام الأزرقي في تاريخه عند باب : أين يوقف من الصفا والمروة وحد المسعى ما نصّه : حدثنا أبو الوليد ، قال : حدثني جدي عن الزنجي ، عن ابن جريج ، قال : قال عطاء : فخرج النبي ﷺ من باب بني مخزوم إلى الصفا قال : فبلغني أن النبي ﷺ كان يسند فيهما قليلاً في الصفا والمروة غير كثير ، فيرى من ذلك البيت ، قال : و لم يكن حينئذٍ هذا البنيان ، قلت له : أوصف ذلك لك وسمي حيث كان يبلغ ذلك ، قال : لا إلا كذلك كان يسند فيهما قليلاً كيف ترى الآن ؟ قال : كذلك أسند فيهما ، قلت : أفلا أسند حتى أرى البيت ؟ قال : لا ثم إلا أن تشاء غير مرة ، قال ذلك لي فأما أن يكون حقاً عليك فلا و لم يخبرني أن

النبي ﷺ كان يبلغ المروة البيضاء، قال: كان يسند فيهما قليلاً، ولا يبلغ ذلك. قال ابن جريج: سأل إنسان عطاء أيجزئ عن الذي يسعى بين الصفا والمروة أن لا يرقا واحداً منهما، وأن يقوم بالأرض قائماً؟ قال: أي لعمري وماله، قال ابن جريج: وكان عطاء يقول: استقبل البيت من الصفا والمروة لا بد من استقباله، قال ابن جريج: وأخبرني ابن طاووس عن أبيه أنه كان لا يدع أن يرقى في الصفا والمروة حتى يبدو له البيت منهما ثم يستقبل البيت.

انظر: صورة رقم ١٨٦، المؤلف في المروة عند هدمها يقيس عمق الحفرة

قال ابن جريج أخبرني نافع: كان عبد الله بن عمر يخرج إلى الصفا فيبدأ به فيرقى حتى يبدوا له البيت فيستقبله لا ينتهي في كلما حج أو عتمر حتى يرى البيت من الصفا والمروة، ثم يستقبله منهما، فيبلغ من الصفا قراره فيه قدر قدمي الإنسان قط، بل يعجز عن قدميه حتى يخرج منهما أطراف قدميه، لا يقوم أبداً إلا فيهما في كل ما حج أو اعتمر، قال: أظنه والله رأى النبي ﷺ يقوم فيهما. قال: وكان يقوم من المروة، قال: لا يأتي المروة البيضاء، يقوم عن يمينه، حتى يصعد فيها، قال ابن جريج: قال عطاء: فسعى به النبي ﷺ بطن وادي مكة قط.

حدثنا ابن جريج، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، وعن أبي جابر البياضي، عن سعيد بن المسيب أنهما قالا: السنة في الطواف بين الصفا والمروة أن ينزل من الصفا ثم يمشي حتى يأتي بطن المسيل، فإذا جاءه سعى حتى يظهر منه، ثم يمشي حتى يأتي المروة، قال ابن جريج: أخبرني نافع قال: فينزل ابن عمر من الصفا فيمشي حتى إذا جاء باب دار بني عباد سعى، حتى ينتهي إلى الزقاق، الذي يسلك إلى المسجد، الذي بين دار ابن أبي حسين ودار ابنه قرظة، سعياً، دون الشد وفوق الرملان، ثم يمشي مشيه الذي هو مشيه حتى يرقى المروة، فيجعل المروة البيضاء أمامه ويمينه قال: ولا يأتي حجر المروة، قال ابن جريج: أخبرنا أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل عن السعي فقال: السعي بطن المسيل، قال ابن جريج: وأخبرني جعفر بن محمد عن أبيه أنه سمع جابر بن عبد الله يحدث عن حجة النبي ﷺ قال: ثم نزل عن الصفا حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا أصعد من الشق الآخر مشى، حدثني جدي قال: حدثنا سفيان بن عيينة، عن منصور بن المعتمر، عن شقيق ابن سلمة، عن

مسروق بن الأجدع ، قال : قدمت معتمراً مع عائشة وابن مسعود ، فقلت : أيهما ألزم ؟ ثم قلت ألزم عبدا الله بن مسعود ، ثم آتي أم المؤمنين فأسلم عليها ، فستلم عبد الله بن مسعود الحجر ، ثم أخذ على يمينه فرمل ثلاثة أطواف ومشى أربعة ، ثم أتى المقام فصلى ركعتين ، ثم عاد إلى الحجر فاستلمه ، وخرج إلى الصفا ، فقام على صدع فيه فلبى ، فقلت له : يا أبا عبد الرحمن إن ناساً من أصحابك ينهون عن الإهلال هاهنا قال : ولكن آمرك به هل تدري ما الإهلال؟ إنما هي استجابة موسى ، عليه السلام لربه ، عز وجل ، قال : فلما أتى الوادي رمل وقال : رب اغفر وارحم إنك أنت الأعز الأكرم . انتهى .

انظر: صورة رقم ١٨٧ ، سقف المسعى الجديد في العهد السعودي وهو مبني بالأسمنت المسلح

ذرع ما بين الصفا والمروة

سنذكر هنا ، إن شاء الله تعالى ، جميع ما ورد في الكتب عن ذرع ما بين الصفا والمروة ، ثم بعد ذلك نذكر ذرعه في زماننا هذا بعد عمارة وتوسعة المسجد الحرام «التوسعة السعودية» .

وذرع ما بين الصفا والمروة طولاً لا يحصل فيه اختلاف لا في الأزمنة السابقة ولا في وقتنا هذا أو بعده ، لأن حد السعي من الصفا وحدّه من المروة معروف لا اختلاف فيه .

وما تراه من الاختلاف في ذرعه إنما هو اختلاف صوري لا حقيقي ، نشأ ذلك من أمرين :

الأول : نشأ من اختلافهم في مقدار طول الذراع ونوعه .

الثاني : نشأ من اختلاف مشيهم حين الذرع في المسعى ، فقياس الذرع حين المشي على استقامة تامة في أرض المسعى ، غير قياسه عند انحراف المشي ولو يسيراً مع العلم بأن بعضهم يعتبر الذرع من علو الدرج وبعضهم من أسفل الدرج ، ومع العلم بأنه كلما ارتفعت الأرض واندفنت درجة كلما زاد في مقدار الذرع ، على أن اختلافهم في ذرعه اختلاف بسيط يسير ، صوري قليل ، لا يذكر .

ونسوق إليك أولاً عبارات بعض ما ورد عن ذرعه في بعض الكتب، فنقول، وبالله التوفيق:

قال الأزرقي في تاريخه: قال أبو الوليد -يعني نفسه-: وذرع ما بين الركن الأسود إلى الصفا مائتا ذراع واثنان وستون ذراعاً وثماني عشرة إصبعاً، وذرع ما بين المقام إلى باب المسجد الذي يخرج منه إلى الصفا مائة ذراع وأربعة وستون ذراعاً ونصف، وذرع ما بين باب المسجد الذي يخرج منه إلى الصفا إلى وسط الصفا مائة ذراع واثنا عشر ذراعاً ونصف، وعلى الصفا اثنتا عشرة درجة من حجاره، ومن وسط الصفا إلى علم المسعى الذي في حد المنارة مائة ذراع واثنان وأربعون ذراعاً ونصف، والعلم أسطوانة طولها ثلاثة أذرع، وهي مبنية في حد المنارة، وهي من الأرض على أربعة أذرع، وهي ملبسة بفسيفساء، وفوقها لوح طوله ذراع وثماني عشرة إصبعاً وعرضه ذراع، مكتوب فيه بالذهب، وفوفه طاق ساج، وذرع ما بين العلم الذي في حد المنارة إلى العلم الأخضر الذي على باب المسجد وهو المسعى مائة ذراع واثنا عشر ذراعاً، والسعي بين العلمين وطول العلم الذي على باب المسجد عشرة أذرع وأربع عشرة إصبعاً، منه أسطوانة مبيضة ستة أذرع، وفوقها أسطوانة طولها ذراعان وعشرون إصبعاً، وهي ملبسة فسيفساء أخضر، وفوقها لوح طوله ذراع وثماني عشرة إصبعاً، واللوح مكتوب فيه بالذهب، وذرع ما بين العلم، الذي على باب المسجد، إلى المروة خمسمائة ذراع ونصف ذراع.

وعلى المروة خمس عشرة درجة، وذرع ما بين الصفا والمروة سبعمائة ذراع وستة وستون ذراع ونصف، وذرع ما بين العلم، الذي على باب المسجد، إلى العلم الذي بحذائه، على باب دار العباس بن عبد المطلب، وبينهما عرض المسعى، خمسة وثلاثون ذراعاً ونصف، ومن العلم، الذي على باب دار العباس، إلى العلم، الذي عند دار ابن عباد، الذي بحذاء العلم، الذي في حد المنارة، وبينهما الوادي، مائة ذراع وواحد وعشرون ذراعاً. انتهى من الأزرقي.

وقال الغازي في تاريخه المخطوط: وفي كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ما نصه: وذرع ما بين الصفا والمروة، وهو المسعى، سبعمائة ذراع وثمانون ذراعاً، ومن الصفا إلى الميل الأخضر المائل في ركن المسجد على الوادي، مائة وثمانون ذراعاً، ومن الميل الأخضر إلى الميل الأخضر، الذي بإزاء دار العباس،

وهو موضع الهرولة ، مائة وخمس وعشرون ذراعاً ، ومن الميل الثاني إلى المروة أربعمائة وخمس وسبعون ذراعاً ، فجميع ما بين الصفا والمروة سبعمائة وثمانون ذراعاً . انتهى من الغازي .

وجاء في تاريخ الغازي أيضاً : ذكر الشيخ باسلامة في كتابه «تاريخ عمارة المسجد الحرام» أنه ذرع شارع المسعى بالمتر ، فقال : من أول الدرج إلى الصفا عند الجدر الواقع في منتهى الصخرة ١١ متراً و٦٠ سنتيمتراً وعرض أصل الصفا ، التي عليها الثلاثة عقود ، ١٢ متراً ، ومن ابتداء درج الصفا إلى العلم الأخضر ، الملاصق لمنارة باب علي ، ٧٤ متراً . ومن هذا العلم إلى العلم الأخضر ، الواقع في باب العباس ، وهو موضع الهرولة ، ٦ أمتار . ومن هذا العلم إلى أول درج المروة ٣٤٠ متراً ، وعند المروة عقد كبير سعته ٧ أمتار ، ومن العقد إلى الجدر الواقع في صدر المروة ٨ أمتار وخمسة وسبعين سنتيمتراً .

وعلى ذلك يكون طول شارع المسعى ، من ابتداء درج الصفا إلى ابتداء درج المروة ، ٣٧٤ متراً ، ومن صدر الجدر الذي في منتهى علو الصفا إلى صدر الجدر ، الواقع في منتهى علو المروة ، ٣٩٤ متراً و٣٥ سنتميتراً .

وعلى ذلك يكون ذرع العمري منطبق تمام الانطباق على ما ذرعناه من ابتداء درج الصفا إلى ابتداء درج المروة ، وأما ذرع الأزرقي فربما يكون من أول درج الصفا قبل أن يعلو شارع المسعى ، حينما كان درج الصفا ١٢ درجة إلى أول درج المروة حينما كان درجها ١٥ درجة اهـ . انتهى من تاريخ الغازي ، وبحث الذرع مستوفى في كتاب «تاريخ عمارة المسجد الحرام» فراجعه إن شئت .

ونحن نرى اليوم بعد التوسعة السعودية التي حصلت في المسجد الحرام ، وبعد عمارة المسعى ، ونقض جميع ما تقدم من عمارات الحكومات السابقة ، وتسوية أرضه بالإسمنت المسلح لسهولة السعي ، أن نذكر بالضبط التام قياس ما بين الصفا والمروة بالمتر ، فنقول : إن قياس ما بين الصفا والمروة هو (٣٧٥) ثلاثمائة وخمس وسبعين متراً كما قسناه بأنفسنا وربما زاد أو نقص بعض من السنتيمترات وذلك بسبب اعوجاج السير أو استقامته وليس في ذلك من بأس .

تسقيف المسعى وفرشها بالحجارة أو تبليطها بالحجارة

لم يسبق قط أن جعل للمسعى سقف -أي مظلة- يقي الساعين لفح الشمس وحرارة الجو ، إلا في سنة ١٣٤١ ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعين من الهجرة ، فقد أمر صاحب الجلالة الشريف حسين بن علي بن محمد بن عون ملك الحجاز ، رحمه الله تعالى ، بعمل سقيفة للمسعى ، لحفظ الساعين من حرارة الشمس ، فشرعوا في عملها وتم إنشاؤها في شهر شوال من السنة المذكورة ، فكانت السقيفة تمتد من باب العباس إلى المروة ، أما من الباب المذكور إلى الصفا فإنه لم يسقف لقصر المسافة وجمال المنظر ، وكان مكتوباً على السقيفة جملة أبيات لبعض الشعراء :

ولقد مدح بعض الشعراء الشريف الحسين بن علي ، رحمه الله تعالى ، في تسقيفه المسعى ، فمما قاله سعادة الشيخ محمد صالح القزاز مدير مكتب مشروع التوسعتين بمكة المشرفة والمدينة المنورة حالياً في عهد حكومتنا السنية :

لسيد العرب مولى المجد مفخرة	أضحى بها فضله للخلق منشورا
هو الحسين الذي أمست مآثره	عظمى وأصبح فيها الخير مسطورا
أقام للمشعر الأسنى مظلته	حتى غدا كل من يغيه مسرورا
بهمة السند القزاز من فخرت	به العلا وغدا بالمجد مشهورا
فيا مليكاً أعز الله محتده	دم في سرور بسيف الله منصورا
واهنأ ببشر وإقبال يؤرخه	من سعد حكمك صار السعي مشكورا

٩٠ ١٣٤ ٨٨ ٢٩١ ١٧١ ٥٦٧ سنة ١٣٤١

ويعني القائل : « بهمة السند القزاز » أي ابن عمه الشيخ عبد الوهاب القزاز ، رحمه الله تعالى ، الذي أشرف على العمل المذكور .

وقد كتبت هذه الأبيات بالأحرف البارزة الكبيرة على لوحة وعلقت في أعلى السقيفة من جهة المروة .

ثم في سنة (١٣٦٦) ألف وثلاثمائة وست وستين هجرية ، أمر صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، رحمه الله تعالى ، ملك المملكة العربية السعودية ، بتجديد سقيفة المسعى بصفة فنية محكمة ، فتم عملها في السنة

المذكورة ، فكانت ممتدة بطول المسعى من الصفا إلى المروة ، ما عدا الجزء الذي يبلغ طوله ثمانية أمتار والذي يقع في باب علي فإنه لم يسقف ؛ لأنه ميدان متسع وبقاؤه بغير سقف أجمل وأحسن ، ويبلغ عرض السقيفة كلها عشرون متراً ونصف متر . وقد كتب على هذه المظلة -أي السقف- بخط حسن جميل وبحروف بارزة من النحاس الجيد السميك مثبت في لوح من الصاج الثخين طولها أربعة أمتار وعرضها متر واحد وأربعون سنتيمتراً ، في أربعة أسطر ما يأتي : (أنشئت هذه المظلة في عهد حضرة صاحب الجلالة محيي مجد العرب والمسلمين خادم الحرمين الشريفين الملك المعظم عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية . وقد تم إنشاؤها في عام ألف وثلاثمائة وستة وستين من الهجرة أثابة الله وأدام توفيقه) .

انظر: صورة رقم ١٨٨ ، المظلة الجديدة

وأما فرش المسعى وتبليطه من الصفا إلى المروة بالحجارة المربعة وبناؤها بالنورة فقد كان في سنة (١٣٤٥) ألف وثلاثمائة وخمس وأربعين من الهجرة ، فقد أمر جلالة الملك عبد العزيز المذكور بفرشها ، من أولها إلى آخرها بالحجارة منعاً لإثارة الغبار . فشرعوا برصف المسعى وانتهوا من ذلك في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة ، وهذه أول مرة يفرش فيها المسعى بالحجارة ، وكان قبل ذلك تراباً يثور الغبار منه بسبب الساعين ، فاستراح الناس وسهل السعي بعد رصفه وتبليطه ، فجزى الله الملك عبد العزيز مؤسس الدولة السعودية خير الجزاء .

ومما قاله الأستاذ فؤاد الخطيب :

نصر الله تعالى ورعى	ملك العرب الحسين الأروعا
مرت الأجيال لم يرفع لهم	غيره الظل الذي قد رفعا
وحمى الإسلام في خير حمى	فهو ظل الدين والدنيا معا
ضج بالشكر وبالحمد له	كل من طاف ولبى ودعا
وجزى القزاز عن همته	خير ما يجزي به من نفعا
صدق الله الذي قال لنا	ليس للإنسان إلا ما سعى

وقد كتبت هذه الأبيات على لوحة وعلقت بأعلى السقيفة من جهة الصفا .

ومما قاله الأستاذ صبحي بن طه الحلبي :

لقد شاد مولى العرب حامي ذمارها | عظيم الأيادي واستحق بها الشكرا
وخلـد للتـاريخ آيـات سـؤدد | وأشرف أعمال يضيف بهـا حصـرا
مآثرهـا جـل وأدنـى أمورهـا | سقيفة سعي جـاءت الآية الكبرى
رعـى الله بانيهـا ورافـع سمكهـا | ومـن مـد فيهـا مكارمهـا الغـرا
بهمة مـولى الفضل قزازنـا الـذي | تـولى على أعمالها الرأي والأمـرا
فيا أيهـا السـاعي إلى مشعر الهدى | وقيـت بهـا فيـح الهواجـر والحـرا
ويـا ملكاً أعطـى المفـاخر حقهـا | وكـان لنـا في كـل نائبـة ذخـرا
تباشـر بخـير قلـت فيـه مؤرخـا | لدى عهدك المسعى تضاء بالبشـرى

أما تسقيف المسعى، وبعبارة أصح وأضخم «تعمير المسعى من أرضه إلى سقفه» بشكله الحاضر اليوم، فقد كان بالإسمنت المسلح في ضمن تعمير المسجد الحرام وتوسعته، حسب أمر جلالة مليكنا المعظم الملك سعود بن عبد العزيز، زاده الله توفيقاً وعزاً، ولقد تم تعمير المسعى وتعبيد أرضه وتسقيفه، من أوله إلى آخره، بهذا البناء القوي والشكل البديع الجميل.

وإذا كان بعضهم مدح تسقيف الشريف الحسين للمسعى، ذلك التسقيف الذي لم يكن أحسن منه في ذلك العهد، فإنه ولا شك أن عمارة المسعى وتسقيفه الآن، وعمارة المسجد الحرام وتوسعته، في هـذا العهد المزدهر، قد يطلق ألسنة جميع الشعراء في مدح مليكنا المعظم الملك سعود بن عبد العزيز، فإنه لم يسبق قط مثل هذه التوسعة والعمارة، كما يطلق ألسنة جميع الناس بالدعاء له والثناء عليه، أدام الله توفيقاته عليه وقبل منه صالح الأعمال.

عرض المسعى

قال القطبي في تاريخه: وهنا إشكال ما رأيت من تعرض له، وهـو أن السعي بين الصفا والمروة من الأمور التعبدية التي أوجبها الله تعالى علينا، في ذلك المحل المخصوص، ولا يجوز لنا العدول عنه، ولا تعتبر هـذه العبادة إلا في ذلك المكان المخصوص، الذي سعى رسول الله ﷺ فيه، وعلى ما ذكره هؤلاء الثقات أدخل ذلك المسعى في الحرم الشريف، وحول المسعى إلى دار ابن عباد كما تقدم.

وأما المكان الذي يسعى فيه الآن، فلا يتحقق أنه بعض من المسعى، الذي سعى فيه رسول الله ﷺ أو غيره، فكيف يصح السعي فيه وقد حول عن محله كما ذكر هؤلاء الثقات.

ولعل الجواب عن ذلك: أن المسعى في عهد رسول الله ﷺ كان عريضاً، وبنيت تلك الدور بعد ذلك في عرض المسعى القديم، فهدمها المهدي وأدخل بعضها في المسجد الحرام، وترك بعضها للسعي فيه، ولم يحول تحويلاً كلياً، وإلا لأنكره علماء الدين، من الأئمة المجتهدين، رضوان الله عليهم أجمعين، مع توفرهم إذ ذاك، فكان الإمامان أبو يوسف ومحمد بن الحسن، رضي الله عنهما، والإمام مالك بن أنس، رضي الله عنه، موجودين يومئذٍ وقد أقروا ذلك وسكتوا، وكذلك من صار بعد ذلك الوقت في مرتبة الاجتهاد كالإمام الشافعي وأحمد بن حنبل وبقية المجتهدين، رضوان الله عليهم أجمعين، فكان إجماعاً منهم، رضي الله عنهم، على صحة السعي من غير نكير نقل عنهم.

وبقي الإشكال في جواز إدخال شيء من المسعى في المسجد، وكيف يصير ذلك مسجداً، وكيف حال الاعتكاف فيه، وحله بأن يجعل حكم المسعى حكم الطريق، فيصير مسجداً ويصح الاعتكاف فيه، حيث لم يضر بمن يسعى فاعلم ذلك، وهذا مما انفردت ببيانه و لله الحمد على التوفيق لتبيانه. انتهى من تاريخ القطبي.

ومما يشبه ما ذكره الإمام القطبي في تاريخه عما أخذ من أرض المسعى وأدخل في المسجد الحرام، فأحدث في زماننا في التوسعة السعودية للمسجد الحرام، وتكسير شيء من جبل الصفا إلى جبل المروة، زيادة في عرض المسعى، وليكون منظره جميلاً في رأي العين، وذلك في سنة (١٣٧٧) هجرية، فإن هذه الحادثة تشبه ما ذكره الإمام القطبي لكن مع الفارق، فما ذكره القطبي عبارة عن إدخال جزء من المسعى في المسجد الحرام، وأما ما نذكره فهو عبارة عن إدخال جزء من جبل الصفا إلى حدود المسعى.

فمما لا شك فيه أن هذا الجزء المأخوذ من جبل الصفا، في زماننا هذا، والمدخول في حدود المسعى، لم يكن رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام قد سعوا في هذا الجزء المستحدث اليوم، فعلى هذا لا يجوز السعي في هذا الجزء المأخوذ الآن من هذا الجبل، كما لا يجوز السعي بين الدرج الجديدة المستحدثة الآن وبين المروة

فلا بد للساعي من المروة أن يصل إلى درج الصفا القديمة المقابلة للحجر الأسود . فمن أراد الاحتياط لدينه والبراءة لذمته فليترك من جدار المسعى ، فيما بين الصفا والمروة ، نحو مترين . نقول هذا احتياطاً لديننا وتبرئة لذمتنا ، فالنصيحة واجبة لكافة المسلمين من الخواص والعوام . وا لله تعالى أعلم .

حالة المسعى قبل التوسعة السعودية

وهنا يستحسن أن نأتي بما قاله ، في حال المسعى ، الدكتور المصري "محمد حسين هيكل" ، في كتابه ، "في منزل الوحي" قال رحمه ا لله تعالى فيه ما نصّه :

وأتممنا المسعى سبعاً وآن لنا أن ننصرف وأن نتحلل التحلل الأكبر ، على أني وقفت هنيهة ، قبل منصرفنا ، أمام مقهى من المقاهي القائمة وسط المسعى ، وقلت لصاحبي : أفيليق أن تقوم أمثال هذه المقاهي والحوانيت على حافة هذا المكان القدس ؟ ! قال : إنها ليست على حافته ، بل هي قائمة داخل حرمه . والذين أقاموها لم يتقوا ا لله ولم يرعوا حقه ، بل اعتدوا عليه عدواناً مبيناً . والعجب أن منهم من اجترح هذا العدوان تبركاً بأرض هذا المنسك ، ناسياً أنه يؤثر بها نفسه ويحرم منها ملايين المسلمين على تعاقب الأجيال .

ولقد ثارت نفسي حقاً لمنظر هذه المقاهي وهذه الحوانيت ، التي تتجر في السبح والمنسوجات ، وما إليها ، مما يتبرك الحجيج به وزاد نفسي ثورة منظر صيارفة النقود ، الذين يصكون الآذان بصرير ريالاتهم السعودية ، إعلاناً بها عن أنفسهم ، ما لهذا المكان الذي يتوجه فيه الناس إلى ا لله بالتوبة والاستغفار وصرف النقود والجلوس إلى المقاهي وتبادل التجارة ! وما لهذا المكان الذي ينسى الناس فيه تجارة الحياة ليتصلوا فيه ببارئهم وهذه الحماقات من تجارة الحياة ! أليس من الخير أن تظل لهذا المكان حرمته كاملة وأن تكون الحوانيت في طريق غيره قريب منه ، إن لم يكن بد من أن ينصرف الناس بعد استغفار ربهم إلى شرب القهوة وشراء السبحة والمكحلة وإلى صرف النقود للتبادل !

وليس ذلك كل ما يثير النفس لحال المسعى ، فقد بلغ من إهمال شأنه ، وهو منسك من مناسك المسلمين ، حداً بعيداً . واجتياز بعض الطرق إياه ومرور الدواب والعربات والسيارات في هذه الطريق بين الساعين بعض مظاهر هذا الإهمال . فإذا أنت تحدثت في ذلك قيل لك : وما عساك كنت تقول من عهد

قريب وقبل أن ترعى الحكومة الحاضرة هذا المنسك بعنايتها ! فقد كان حرماً للكلاب تقيم في ظلاله نهارها وليلها لا يزعجها عن مرقدها أحد وكأنها حمام الحمى .

لقد كان المسعى ، إلى صدر الإسلام ، طريقاً مستقيماً يصل بين ربوتي الصفا والمروة ، متصلاً بما حوله من فسيح الصحراء وهضابها ، وتطل عليه الجبال المحيطة بمكة ، أما منذ مئات من السنين ، فقد بلغ من طغيان الدور التي أقيمت في حرمه ، أن اعوج اعوجاجاً ، يحول دون رؤية الصفا من المروة أو رؤية المروة من الصفا ، كما حال سقفه بين الساعين وفسحة الجو وبهاء السماء ، وأحيلت كل من الربوتين درجاً أحيطت جوانبه الثلاثة بالجدران أما أرضه فقد رصفت بالحجر رصفاً غير منتظم .

تثور النفس لهذه الحال التي عليها المسعى . ولولا أن الناس يحسبونه كذلك منذ وَجد ، ولولا أنهم إذ يرونه يشغلهم السعي عما سواه ، لقام بينهم من يدعوهم إلى الثورة لإصلاحه ، ولإزالة هذه المساس بحرمة مكان يجب أن يحاط بكل تقديس وإجلال . ذلك كان شعوري ساعة منصرفي من المسعى . وما زال هذا الشعور يحز في نفسي . فلعلني أجد من يشاركني في دعوة المسلمين إلى إصلاح منسك من شعائر الله . ولعلني أجد من الحكومات الإسلامية استباقاً للخيرات لهذه الدعوة . انتهى من كتاب منزل الوحي .

الحلاقون بالمروة

في أواخر سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف ، هدمت جميع البيوت والمنازل ، التي كانت في المسعى ، عند المروة ، وتحت هذه الدور والمنازل دكاكين متعددة على الجانبين من اليمين والشمال ، فجميع الدكاكين ، التي عند المروة تماماً ، من جانبيها يشغلها « الحلاقون والحجامون » يعني : أن نحو عشرة دكاكين عن يمين المروة ومثلها عن شمالها ، مما يلاصق المروة تماماً ، لا يشغلها سوى الحلاقين « المزيّنين » والحجامين ، ليس بينهم أجنبي عن صنعتهم مطلقاً ، وأن هذا الأمر ليس جديداً مستحدثاً في عصرنا ، بل هي عادة اتبعها الحلاقون من قديم الزمان . فلقد قال الإمام الأزرقي المولود بمكة في القرن الثاني من الهجرة في تاريخه ، عند الكلام على رباع آل داود بن الحضرمي ما يأتي : ومن رباعهم أيضاً الدار التي عند المروة

في صف دار عمر بن عبد العزيز، ووجهها شارع على المروة، الحجامون في وجهها . . . إلخ . اهـ .

فيعلم صريحاً من كلام الأزرقي رحمه الله تعالى أن الحجامين في زمنه كانوا يشغلون الأماكن التي كانت عند المروة، ونحن نعتقد أن اشتغال الحجامين عند المروة يرجع إلى صدر الإسلام، وصنعة الحجامة تقتضي معرفة الحلاقة .

والسبب في ذلك معقول، وهو أن المروة هي مكان انتهاء السعي، فعندها يتحلل المحرم بالحج أو بالعمرة، بعد انتهائه من السعي، والتحلل من الإحرام لا يكون إلا بالحلق أو التقصير . فكان من المعقول والأحسن أن يكون موضع الحلاقين والمزيّنين عند المروة التي ينتهي عندها السعي، ليحلقوا بالموسى أو يقصّروا بالمقص رؤوس المحرمين بالنسك، ليتحلّلوا سريعاً من أعمال الحج أو العمرة، مع العلم بأن التحلل بالحلق لا يشترط فوراً بعد السعي ولا عند المروة نفسها، فإنه يجوز للمحرم أن يحلق بعد انتهائه من السعي في أي مكان شاء وفي أي وقت شاء، لكنه يبقى في حكم الإحرام إلى أن يحلق، فالمبادرة بالحلق، فيها مصلحة لنفس المحرم، وهي أن يكون حراً طليقاً من قيود محرمات الإحرام .

انظر: صورة رقم ١٨٩، الحلاقين بالمروة

موضع الشنق بالمسعى

الشنق، بفتح أوله وسكون ثانيه، في عرف الناس اليوم، هو الصلب، بالفتح، لقد كان موضع الصلب منذ قرون، في المسعى عند المروة، في محل السبيل المصري للماء، وهذا السبيل كان يبعد عن المروة بنحو سبعين متراً، وقد هدم هذا السبيل في زماننا لتوسعة المسعى .

انظر: صورة رقم ١٩٠، السبيل المصري الذي كان بظهر بناية إدارة عين زبيدة بالمسعى قبل المروة بقليل

فإذا أرادوا صلب رجل من المجرمين والقتلة صلبوه وشنقوه في موضع هذا السبيل . فقد قال الغازي، في تاريخه، نقلاً عن ابن فهد : أنه في سنة (٨١٧) سبع عشرة وثمانمائة، أنشأ عطية المطير سبيلاً بالمروة، وكان موضع هذا السبيل، قبل ذلك، معداً للشنق، فقال شعبان الآثاري في ذلك :

بمكـــة دار لـلشنـــق ركنهـــا وأضحـت سبيلاً بعـد كـل بليـة
وأضحى لسان الحـال منهـا يقـول رضيـت مـن المـولى بخير عطيــة

وقال بعضهم أيضاً :

بمسـعى رســول الله دار معــدّة لشـنق فصـارت للأنـام ســبيلاً

انتهى كلام الغازي .

نقول : و لم نبحث عن تاريخ بناء هذا السبيل بالمروة غير أننـا نعتقـد بيقـين أن بناءه كان في عهـد الأتـراك قبـل سنة ألـف وثلاثمائـة هجريـة . ولقـد انتهـى عهـد الصلب والشنق بمكة المشرفة وأبدلوه بالقتل بالسيف ، وجعلوا مكان القتل بالسيف أمام قصر الحميدية ، وهو بجهة الصفا ، يبعـد عـن جبـل الصفـا كبعـد السبيل عـن المروة ، أي إن قصر الحميدية كان يقابل مدخل أجياد ، ثم هدم قصر الحميدية ومـا يجاوره في زماننا لتوسعة المسجد الحرام ، فصار اليوم قتل المجرم بالسيف أمـام بـاب سعود ، أحد أبواب المسجد الحرام ، وهو يقابل محل قصر الحميدية الذي هـدم الآن للتوسعة ، والسبب الذي جعلهم يقتلون المجرم بالسيف أو بالصلب بالصفا والمروة ، هو لأجل أن يشاهد الساعون بالمسعى والخارجون مـن المسـجد الحـرام قتـل المجرم الآثم ، وذلك ردعاً للناس من الفساد والإفساد ، والحمـد لله الـذي أبـدل الصلـب بالسيف فإن السيف أريح للمقتول من الصلب .

انظر: صورة رقم ١٩١ ، شارع المسعى من جهة الصفا بمكة المشرفة .

حالة المسعى

إننا لو نظرنا إلى حالة أرض المسعى ، فيما بـين الصفـا والمـروة ، منـذ العصـور الأولى ، أي منذ عهد خليل الله إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، عندمـا جـاء بابنـه إسماعيل وهو طفل رضيع مع أمه هاجر ، عليهمـا الصـلاة والسـلام ، مـن فلسـطين وأسكنهما بمكة ، عند بيت الله الحرام ، قبل بنائه له ، و لم يكن بمكة يومئذ أحد من الإنس ولا من الحيوانات ، ما عـدا الجبـال والأحجـار والصخـور وأشـجار السـلم والشوك .

إذا نظرنا إلى ذلك العهد البعيد ، ومكة على حالتها الأولى الطبيعية ، لم يلمـس شبراً من أرضهـا يـد الإصـلاح والتعمـير ، نجـد أن أرض المسـعى فيمـا بـين الصفـا

والمروة ، لم تكن بهذا الوضع بل كانت كلها منحدرات ومنخفضات ومرتفعات بشكل غير منظم ، يصعب فيها المشي والصعود والهبوط ، فيما بين الصفا والمروة ، بل وجميع الطرقات بمكة .

فلما استوطن الناس مكة من عهد نبي الله تعالى إسماعيل ، عليه الصلاة والسلام ، منذ أربعة آلاف سنة تقريباً ، جرى الإصلاح فيها بالتدريج ، شيئاً فشيئاً ، في مواضع سكناهم ، حول الكعبة المشرفة ، والأماكن القريبة منها ، فكانت الإصلاحات فيها قليلاً جداً في عهد جُرهُم والعمالقة ، وهم أول من سكنوا مكة في عهد نبي الله إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وكل ما كثر الناس بمكة زادت الإصلاحات فيها ، ولا يمكننا تعيين الأزمنة التي جرى فيها الإصلاح في طرقات مكة ومواضع عمرانها ولا بأس أن نقسّم تلك الأزمنة الإصلاحية على وجه التقريب والتخيّل إلى ستة أقسام ، وهي كما يأتي :

١) عهد نبي الله إسماعيل ، عليه الصلاة والسلام ، ففي هذا العهد جرى شيء بسيط من الإصلاحات في مواضع سكنى الناس ومحلات تجمعهم .

٢) عهد قريش في الجاهلية ، ولقد جرى الإصلاح بمكة أكثر من العهد الأول ، ففي هذا العهد قسّم قصي بن كلاب أمور مكة إلى ستة أقسام كما ذكرنا ذلك في محله .

٣) عهد ظهور الإسلام ، وهذا العهد أكثر من العهدين السابقين تقدماً ووعياً ، وقد كثر سكان الناس فيه عما مضى ، حتى أن بعض كبار الصحابة ، رضي الله تعالى عنهم ، قد وسعوا المسجد الحرام عن العهد الأول كما ذكرنا بيان ذلك في محله .

٤) عهد التابعين ومن بعدهم إلى نحو القرن الخامس للإسلام . ففي هذا العهد تقدم الناس كثيراً في المسائل الحيوية ، وفي أمور الدنيا وجرى الإصلاح في مواضع سكناهم بمكة وفي طرقاتها ، حتى أنهم قد وسعوا المسجد الحرام توسعة عديدة ، حتى كان بالقياس الموجود في عصرنا الحاضر ، قبل التوسعة السعودية . بل أنهم أصلحوا المسعى أيضاً ، فيما بين الصفا والمروة ، وعملوا درجاً للصفا ما زالت موجودة إلى اليوم ، لكنها مطمورة تحت الأرض بقرب درج الصفا ، كما شاهدناها بأنفسنا عند التوسعة السعودية في عمارة المسعى ، وقد نزلنا على أول هذه الدرجات القديمة ووقفنا عليها وأخذنا صورتنا الفوتوغرافية في هذه الحالة وإليك هذه الصورة .

انظر: صورة رقم ١٩٢ ، المؤلف واقفاً على درجات الصفا القديمة منذ مئات السنين

٥) عهد ما بعد القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري وهذا العهد أحسن من جميع العهود السابقة في تقدم الناس ومعرفتهم بأمور الحياة ، وحصل فيه بمكة المكرمة من العمران والإصلاحات ما لم يكن من السابق ، حتى أنهم في هذا العهد أصلحوا المسعى وبنوا درجاً على الصفا في القرن الثامن أو التاسع الهجري ، فلقد قال الإمام العلامة ابن حجر الهيثمي المكي ، المولود سنة (٩٠٩) تسع مائة وتسع هجرية ، في حاشيته على إيضاح المناسك ، للإمام النووي ، رحمهما الله تعالى ، في الفصل الثالث ، في السعي وما يتعلق به ، ما نصّه : إن درج الصفا كانت كثيرة ، وكان الوادي نازلاً حتى إن الشخص كان يصعد درجاً كثيرة ليرى البيت ، بل قيل إن الفرسان كانت تمر في المسعى والرماح قائمة فلا يرى من بالمسجد إلى رؤوسها ، وأما اليوم فيرى من غير رقيّ على شيء من الدرج ، ثم ذكر أن على الصفا اثنتي عشرة درجة وعلى المروة خمس عشرة درجة وكان البيت يرى إذا رقي عليها فحالت الأبنية . انتهى من حاشية الإيضاح لابن حجر .

٦) عهد ما بعد القرن العاشر للهجرة أي ما بعد الألف ، أي عصرنا الحاضر وزماننا ، وهو سنة (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية ، فهذا العهد أحسن العهود السابقة في التقدم والعمران ، لا في الديانة والعبادة ، إن هذا العهد عهد الآلات والكهرباء عهد التقدم والعمران بالمعنى الصحيح ، لقد صار الناس يركبون السيارات والقطارات والدبابات والطيارات ، وصاروا يركبون البواخر والبوارج والغواصات في وسط المياه ، بل صاروا يطيرون في الهواء بالطائرات ، حتى وصلوا إلى القمر ، كما هو شائع مستفيض بيننا ، والله تعالى أعلم بما يكون في المستقبل من المخترعات الحديثة العجيبة ، فقد قال الله تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ ، فلقد حصل في زمان الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق ، رحمه الله تعالى ، بعض إصلاحات وترميمات في أرض المسعى وفرشوها بالبلاط أي بالحجارة الجبلية ، وكانت أرضها من قبل تراباً فإذا كثر الحجيج تصاعد منها الغبار ، وقد أمر رحمه الله تعالى ، بتأليف لجنة من كبار العلماء لتحديد موضع السعي ولعمل مظلة أي صندقة فوق أرض المسعى تقي الساعين حرارة الشمس

ووهجها ، فتم كل ذلك في سنة ألف وثلاثمائة وخمس وثلاثين هجرية (١٣٣٥) تقريباً فجزاه الله تعالى خير الجزاء .

ثم حصلت في زماننا ، في العهد السعودي الثاني ، توسعة المسجد الحرام ، ومن ضمنها المسعى ، فلقد أصلحوا موضع السعي من الصفا والمروة ، بما لم يكن في الحسبان . كما أصلحوا أرض المسعى بالإسمنت المسلح ، وعما قريب يضعون فوقه المرمر ، إن شاء الله تعالى ، فأصبح منظر المسعى من أجمل المناظر ، لم يكن مثله قط في سالف العصور ، ولكن هذه الزخارف والقشور لا تغني من الحق شيئاً ، فالعبرة بحسن النيات وخلوص الأعمال ، ففي الحديث الصحيح : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » رواه مسلم . نسأل الله تعالى أن يتقبل منا صالح الأعمال ، ولا ندري هل ستبقى هذه العمارة إلى قيام الساعة ، أم ستكون بعدها عمارات وعمارات وعمارات ، الله تعالى أعلم بالغيب .

انظر: صورة رقم ١٩٣ ، المسعى مفروشة بالحجارة الجبلية في عهد الشريف الحسين

فإذا نظرنا إلى حالة المسعى منذ العصور الأولى من عهد سيدنا إبراهيم خليل الله عز وجل باني الكعبة المشرفة ، وإلى العصور التي بعده ، إلى زماننا هذا ، علمنا ما نحن فيه من الراحة واليسر إذا سعينا بين الصفا والمروة سعي الحج أو العمرة ، فإن الساعي في عصرنا الحاضر يقطع سعيه سبعة أشواط ، بين الصفا والمروة ، في نصف ساعة . بينما كان يقطع هذه الأشواط عند ظهور الإسلام وما بعده من القرون في ساعة واحدة ، وكان يقطع هذه الأشواط بينهما قبل ظهور الإسلام بقرون عديدة في ساعة ونصف ، والسبب في هذا التفاوت مع أن موضع السعي هو هو لم يتغير ولم يتبدل ولم ينقص ولم يزد ، هو أن أرض المسعى في العصور السابقة كانت مليئة بالأحجار والصخور ، وكان فيها مرتفعات ومنخفضات ، فكان السعي فيها عسيراً . أما في عصرنا الحاضر فقد ارتفعت أرض المسعى عن سابق العصور حتى تساوت بأرض الشارع ، وصارت مستقيمة معبدة بالإسمنت المسلح فكان السعي فيها سهلاً ميسوراً للجميع . فجزى الله تعالى كل من عمل خيراً في المسجدين الحرامين ورضي عن كل من يسّر أمور المسلمين في كل زمان ومكان آمين . مع العلم بأن الناس كانوا يسعون على أرجلهم وعلى الخيل والبغال

والحمير ، وقد شاهدنا في عصرنا اليوم بعض الملوك يسعون وهم يركبون السيارات التي تمشي على عجلات أربع .

انظر: صورة رقم ١٩٤ ، السعي بين الصفا والمروة في وقتنا الحاضر بعد التوسعة السعودية

تقسيم المسعى طولاً إلى قسمين

لقد كان السعي بين الصفا والمروة مرهقاً ، فيه مشقة شديدة ، وبخاص على الكبار والشيوخ ، فرأينا أن نقترح على الحكومة السعودية من أن تضع حاجزاً يقسم المسعى طولاً إلى قسمين : القسم الأول لمن يسعى من الصفا إلى المروة ، والقسم الثاني لمن يأتي من المروة إلى الصفا ، وذلك حتى لا يتصادم الساعون مع بعضهم ويدفع بعضهم بعضاً ، في اتجاهين مختلفين ، فنشرنا هذا الاقتراح في إحدى الجرائد المحلية بمكة المكرمة ، وذلك في سنة (١٣٥٧) ألف وثلاثمائة وسبع وخمسين هجرية تقريباً . فنفذت الحكومة اقتراحنا المذكور وصار المسعى مقسوماً بالطول إلى قسمين ، فتفادى الناس الازدحام والتدافع إلى جهتين متضادتين . فالحمد لله على التوفيق .

انظر: صورة رقم ١٩٥ ، المؤلف وهو واقف على العمل الجاري في المسعى

المساجد التي في حدود الحرم

وهنا نذكر المساجد التي عند حدود الحرم وهي كما يأتي :

١) مسجد التنعيم .

٢) مسجد الشميسي .

٣) مسجد الجعرانة .

٤) مسجد نمرة بعرفات .

وإليك الكلام على كل ذلك :

مسجد عائشة بالتنعيم

التنعيم مكان معروف ، واقع بعد الزاهر وبعد الشهداء ، يبعد عن المسجد الحرام بنحو ستة كيلو مترات ، وبعد التنعيم بنحو أربع كيلو مترات يقع قبر أم المؤمنين السيدة ميمونة ، رضي الله تعالى عنها .

قال الغازي في صحيفة (٣٥١) : ومنها مسجد فوق التنعيم ، على يمين المستقبل ، يقال له مسجد عائشة وهو بعيد عن حد أميال الحرم ، وكان يسمى مسجد الهليلجة ، لشجرة كانت هناك قديماً . وقد تهدم هذا المسجد وما بقي منه إلى آثار جدارات قائمة ، فكان المكان الذي أرسل إليه النبي ﷺ أم المؤمنين عائشة ، رضي الله عنها ، مع أخيها ليعتمرا منه ، ولا يصل إليه المعتمرون الآن ، بل يقتصرون على أميال الحرم فيبرزون منها قليلاً ويحرمون بالعمرة ويعودون . ومسجد عائشة ، مما يتعين تجديده وتعميره ، لأنه من الآثار المباركة القديمة ، وقد تركه الناس لتهدمه ، واقتصروا على مساجد مرضومة من الأحجار الصغار ، وتتهدم ويرضم غيرها ، وكلها من وراء الأميال بمرأىً منها ، وهناك صهريج عظيم قديم ، يمتلىء من السيول أيام المطر ، يتوضأ المعتمرون منه . انتهى كذا في الإعلام .

انظر: صورة رقم ١٩٦ ، مسجد عائشة رضي الله عنها بالتنعيم

وقال العلامة الأسدي في أخبار الكرام ، بعد نقل هذه العبارة ، ولعل المساجد التي كانت مرضومة بالأحجار هي التي بني فيها المسجد الموجود الآن ، بناه محمود بك صاحب جدة عام (١٠١٢) اثني عشر وألف ، على هيئة دكة مرتفعة بعضها ، وفيه المحراب يصلي فيه المعتمرون الآن سنّة الإحرام ويحرمون ويعودون . انتهى .

وفي منائح الكرم للسنجاري ، أمر السنجق محمد بك ، سنة إحدى عشرة وألف ، بناء سقف على مسجد العمرة ، فبني في صدر القبلة . انتهى .

وفي الغازي أيضاً ، في صحيفة (٣٩٤) ما ملخصه : التنعيم المذكور في حد الحرم من جهة المدينة النبوية هو أمام أدنى الحل ، على ما ذكره الطبري ، قال : وليس بطرف الحل ، وما فسره بذلك تجوز ، وأطلق اسم الشيء على ما قرب منه ، وأدنى الحل إنما هو من جهته ، ليس موضع في الحل أقرب إلى الحرم منه ، وهو على ثلاثة أميال من مكة ، والتنعيم أمامه قليلاً ، في صوب طريق وادي مر الظهران . انتهى بنصه . وقد أقيم عند التنعيم علمان ، يفصلان الحل من الحرم ،

ارتفاع كل منهما ستة أمتار وعرضه ثلاثة ، وهما مبنيان بالحجر والملاط الجيد ، والذي بناهما محمد أو أحمد بن المقتدر الراضي با لله سنة (٣١٥) هجرية . انتهى كذا في مرآة الحرمين ، انتهى من الغازي .

قال في مرآة الحرمين وطول هذا المسجد ١٦ متراً في عرض ١٥ متراً وارتفاع ٤ أمتار ومكتوب في محرابه : بسم ا لله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ. . . -إلى- مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ، هذا مسجد السيدة عائشة ، رضي ا لله عنها ، بجدده السلطان محمود في أول جمادى الثانية سنة (١٠١١) ، وخلف هذا المسجد حوض ، أعد لخزن المياه ، طوله ٢٤ متراً وعرضه ١٩ متراً وعمقه ٣ أمتار وسطحه مواز لسطح الأرض بالحجر والملاط والجيد ، وفي كل من الجهة الشمالية والجنوبية سلم يوصل إلى قاعة يتكون من سبع درجات .

انظر: صورة رقم ١٩٧ ، موضع صلب خبيب

انظر: صورة رقم ١٩٨ ، أعلام التنعيم من البعيد

وهناك أيضاً صهريج كبير كان يمتلئ من السيول ويتوضأ منه المعتمرون وهذا الصهريج قديم . . . إلخ حيث ذكر أن سنان باشا الوزير المجاهد ، لما حج سنة (٩٧٨) أمر بإصلاح بئر كان قد ملأها التراب ، وإقامة ساقية ومجرى هناك ، ليجري الماء من البئر إلى هذا الصهريج وإلى الخزان السابق .

ومن وراء هذا المسجد نحو مئات الأمتار إلى جهة الجبل الواقع في الحل ، موضع صلب الصحابي خُبيب بضم الخاء المعجمة رضي ا لله تعالى عنه ، صلبه المشركون جهة التنعيم بعد أن أخرجوه من حدود الحرم ، وإليك قصته وصورة موضع صلبه رضي ا لله تعالى عنه .

هذه الصورة فيها بناء ظاهر كأنه منارة صغيرة يقال أنه موضع صلب خُبيب وهو يقع بعد مسجد التنعيم بنحو مائتي متر ، في الحل لا في الحرم بقرب الجبل . وكانت هذه البناية الصغيرة موجودة إلى سنة (١٣٧٧) ألف وثلاثمائة وسبع وسبعين هجرية وقد شاهدناها بأنفسنا ثم لا ندري هل بقيت في موضعها أم هدمت بعد ذلك ، وغالب الظن أنها هدمت بعد تلك السنة فإننا لم نذهب إلى تلك الجهة وخُبيب بضم الخاء المعجمة وبالتصغير هو خُبيب بن عدي الأوسي الأنصاري ، وهو من السابقين في الإسلام ، قتله المشركون ، رضي ا لله تعالى عنه ، بمكة في التنعيم بالحل وترجمته في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة فراجعها هناك إن

شئت . وقد صلبه المشركون في تلك الجهة بعد الخروج من حدود الحرم ، لأنهم يحترمون الحرم فلا يقتلون أحداً فيه ، والتنعيم هو أقرب حدود الحرم إلى مكة المشرفة لذلك خرجوا به ليقتلوه ، رضي الله تعالى عنه ، في جهة التنعيم لأنه أقرب حدود الحل وقد جاء ذكر خبيب ، رضي الله تعالى عنه ، في أواخر كتاب رياض الصالحين للإمام النووي في باب كرامات الأولياء وفضلهم ، فراجعه إن شئت وخُبيب هو الذي طلب ممن أرادوا قتله أن يدعوه حتى يصلي ركعتين فكانت الصلاة سنة لمن بعده لكل مسلم يقتل صبراً فبعد أن صلى خُبيب ، رضي الله تعالى عنه ، ركعتين قال :

فلستُ أُبالي حين أُقتل مسلماً على أيّ جنب في الله كان مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوٍ ممزّع

وجاءت قصته أيضاً في صحيح البخاري .

الشميسي ومسجده

لا نريد أن نتكلم عن جميع المحطات ، الواقعة بين مكة وجدة ، لعدم أهميتها ، وإنما نتكلم هنا عن محطتين مهمتين : « الأولى » الشميسي « والثانية » بحرة وعن مسجديهما ، وكلتاهما كقرية صغيرة لكن الثانية أكبر من الأولى .

فأما الشميسي : فقد كانت تسمى ، من قبل الإسلام ، بالحديبية باسم بئر هناك وفيها حصلت بيعة الرضوان ، كما سيأتي ، وهي بضم الحاء وفتح الدال المهملة ثم ياء مخففة وقيل مشددة ، وبها الآن بعض أكواخ وجملة من البيوت المبنية باللِّبن ، ولا ندري متى سميت بالشميسي ، ولماذا سميت بهذا الاسم . والمسافة بين المسجد الحرام وبين الشميسي ، أربعة وعشرون كيلو متراً ، والمسافة بين المسجد الحرام والعلمان الدالان على حدود الحرم اثنان وعشرون كيلو متراً تقريباً ، ومن العلمين إلى مسجد الشميسي نحو اثنين كيلو متر ويظهران منه فنفس قرية الشميسي « الحديبية » ، ومسجدها ، العامرة اليوم بالسكان ومنازلهم واقعان في الحل لا في الحرم ، فقول صاحب « تقويم البلدان » عن الحديبية : هو موضع بعضه في الحل وبعضه في الحرم . هذا على اعتبار أن الحديبية تمتد من قبل العلمين إلى ما بعد المنازل المسكونة والمسجد ، فعلى هذا الاعتبار يمكن أن نقول بعض الحديبية في الحل وبعضها في الحرم .

وفي هذه البقعة، التي فيها المسجد والمنازل تقريباً، نزل رسول الله ﷺ مع أصحابه في غزوة الحديبية الشهيرة، وكانوا ألفاً وخمسمائة، حينما خرج من المدينة، في أواخر السنة السادسة، يريد مكة للاعتمار، وقد وصلوا إلى الشميسي من عسفان بأمر النبي ﷺ، حتى لا يلتقوا بطليعة قريش في الطريق، التي أتت لصدّ المسلمين عن التقدم.

ثم إن النبي ﷺ اختار عثمان بن عفان، رسولاً من عنده إلى قريش، حتى يخبرهم مقصده. فتوجّه عثمان، ودخل مكة، فبلّغ ما حمل، وحبست قريش عثمان من الرجوع، فشاع عند المسلمين أن عثمان قد قتل، فقال رسول الله ﷺ، حينما سمع ذلك: لا نبرح حتى نناجزهم الحرب. ودعا الناس، للبيعة على القتال، فبايعوه على الموت هناك، تحت شجرة، فسميت بشجرة الرضوان، وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان، التي ورد ذكرها في آية: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾. وفي خلافة عمر رضي الله عنه أمر بقطع هذه الشجرة لما رأى تبرّك الناس بها.

ثم إنه وقع الصلح بين قريش وبين رسول الله ﷺ، على أن يرجع من حيث أتى من غير عمرة، في هذا العام، ثم يأتي العام المقبل فيدخل مكة بأصحابه، فيقيم بها ثلاثة أيام، وغير ذلك من الشروط، فأمر عليه الصلاة السلام، أصحابه أن يحلقوا رؤوسهم، وينحروا هديهم، ليتحللوا من عمرتهم.

فلما حال الحول، على عمرة الحديبية، خرج ﷺ من المدينة بمن كان معه سابقاً من الحديبية معتمراً، وتسمى هذه العمرة بعمرة القضاء، فجاء عن طريق مَرّ الظهران، على مرحلة من مكة، ويسمى اليوم بوادي فاطمة، ودخل مكة من ثنية كداء، فطاف بمن معه، وأمرهم أن يسرعوا في ثلاثة أشواط من الطواف، إظهاراً للقوة، لأن المشركين قالوا: سيطوف اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمّى يثرب، فلما أتم المسلمون طوافهم آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، خرج رسول الله ﷺ من مكة يريد المدينة. وكان ذلك في السنة السابعة. ثم كان فتح مكة المشرفة في السنة الثامنة، صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان، كما هو مذكور في كتب السير ومن أراد زيادةً وتوضيحاً فليرجع إليها.

وفي الشميسي مسجد صغير، أمر بتعميره السلطان محمود خان، سنة (١٢٥٥) خمس وخمسين ومائتين وألف من الهجرة، ثم قامت منذ بضع سنوات

مديرية الأوقاف بترميمه وترخيمه . ووراء هذا المسجد آثار مصلّى قديم متهدم ، وآثار سبيل للماء ، للغادي والرائح ، ومما يلفت النظر أن أرض هذه المصلّى هي سقف لصهريج كبير ، كانت تملأ من مياه الأمطار والسيول ، ومع أن هذه المصلّى والصهريج قد مرّ عليهما نحو ثلاثمائة سنة ، فإنه من الصعب الآن إخراج حجر من بنائهما القديم ، بينما لم يبنيا إلا بالحجارة والنورة فقط .

انظر: صورة رقم ١٩٩ ، أعلام الشميسي قديماً

انظر: صورة رقم ٢٠٠ ، مسجد الشميسي

وبجوار الصهريج بئر كبيرة عميقة ، مبنية بناءً قوياً بالحجارة ، تظهر فيها آثار السقاية والاستعمال الكثير ، فاستنتجنا من ذلك أن حولها كان عامراً بالمزارع والبساتين ، وكان آهلاً بالسكان ، ورأينا هناك مقابر كثيرة قديمة العهد .

قال الغازي في تاريخه : ومنها مسجد الحديبية ، وهو على نحو اثني عشر ميلاً من مكة ، للذاهب على طريق جدة ، بالموضع المسمى بالشميسي . وهذا المسجد موضع الشجرة ، التي بايع عندها الناس رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان ، عام الحديبية ، وأنزل الله تعالى في تلك البيعة : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ . وقد حصل التعمير فيه مراراً ، وآخرها التعمير الذي كان سنة ثلاث وستين ومائتين وألف ، في مدة السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود خان انتهى . ذكره السيد أحمد دحلان في سالنامته ، وقال الفاسي : الحديبية ، على ما ذكر النووي في التهذيب ، بضم الحاء وفتح الدال وتخفيف الباء ، كذا قاله الشافعي وأهل اللغة وبعض أهل الحديث ، وقال أكثر المحدّثين ، بتشديد الباء ، وهما وجهان مشهوران . انتهى .

وفي مرآة الحرمين : وبالشميسي مسجد يسمى مسجد الشميسي أو مسجد البيعة ، وهو على اليسار ، مربع الشكل ، طول ضلعه (١٥) متراً ، ومبني بالحجر الأزرق ، بناءً متيناً ، ومجصص ، وبه ثلاثة أروقة (بواكي) ، وقبلته مكتوب فيها : هذا مسجد بيعة الرضوان ، مأثرة من مآثر حبيب المنان ، عمّره المليك إلى رحمة الرحمن ، المغفور له السلطان محمود خان سنة (١٢٥٤هـ) أربع وخمسين ومائتين وألف ، وبالشميسي بئر عمقها (١٠) أمتار بالتقريب ، مبنية بالحجر ، وماؤها مقبول . انتهى من الغازي .

نقول : إن الحكومة السعودية قد هدمت هذا المسجد في أوائل سنة ١٣٧٩هـ .

فحبذا لو أن الناس عمروا هذا المكان التاريخي المهم بالسكنى والزراعة ، فإننا نعتقد أنه إذا أخرج التراب والحجارة ، من هذه البئر المذكورة ، ينبع منها ماء غزير عذب ، وإن هذا المكان يمتاز بطيب الهواء ، وفسحة الأرجاء ، والقرب من مكة ، ومن حدود الحرم وأعلامه .

بحرة ومسجدها

وأما بحرة وتسمى « بحرة الرُّغاء » والرُّغاء صوت ذوات الخف ، فإنها تقع في منتصف الطريق بين مكة وجدة ، والمسافة بين المسجد الحرام وبين بحرة تسع وثلاثون كيلومتراً تقريباً وهي إحدى المحطات الكبرى المهمة من قديم الزمان ، وهي في طريق الجمال والسيارات « الأوتومبيلات » كانت بها سابقاً بعض عشاش وحظائر للإبل ، وبيوت من اللبن وقهاوي ودكاكين ، والآن صاروا ينون بيوتهم بالحجارة والنورة والإسمنت . وكانت بحرة ، قبل انتشار السيارات بالحجاز ، أي إلى عام (١٣٥٠) تقريباً ، أكثر بيعاً وشراءً وحركة من اليوم ، وذلك أنه من قديم الزمان كان المسافرون من الحجاج وأهل البلاد من مكة إلى جدة أو منها إلى مكة يسافرون على الجمال والشقادف « الهوادج » ، فيخرجون منهما في العشية ويسيرون الليل كله ، فيصبحون ، مع الفجر أو مع شروق الشمس ، في « بحرة » ، فيحطّون رحالهم ويستظلون في بيوتها وعشاشها من الشمس ، ويستريحون فيها بقية النهار ، حتى إذا أقبل العشي شدّوا رحالهم ، وتوجهوا إلى مكة أو جدة ويسيرون الليل كله ثم يصبحون بها .

انظر: صورة رقم ٢٠١ ، مسجد بحرة

أما اليوم فقد ترك الناس السفر بالجمل والدواب ، واستعاضوا عنها بالسيارات ، فالمسافة بين مكة وجدة بها ساعة ونصف تقريباً ، فالمسافر بها قد يجلس ببحرة للراحة لأنها منتصف الطريق بمقدار ما يشرب قليلاً من الماء وفنجاناً من الشاي والقهوة ، أو بمقدار ما يتوضأ ويصلي ، ثم يركب سيارته ويتوجه صوب مقصده ، وبسبب هذا الحال لم تكن الحركة ، والبيع والشراء في بحرة ،

كسابق الأيام ، وعلى كل حال فبحرة هي المحطة الرئيسية بين مكة وجدة من قديم الزمان إلى اليوم .

ولا ندري ما سبب تسميتها بذلك على أنه من زمن قديم تسمى « بحرة » ولم نقف على تسميتها بغير ذلك . لكن رأينا في كتاب « رحلة ابن جبير الأندلسي » ، الذي ابتدأ بتقييدها في يوم الجمعة ثلاثين شوال سنة (٥٧٨) ثمان وسبعين وخمسمائة هجرية ، فساح في الأقطار على متن البحار ، حتى أتى الحرمين الشريفين ، أن بحرة كانت تسمى « قرين » كما يظهر من كلامه فإنه قال : وصلنا إلى جدة ظهر يوم الثلاثاء الرابع من ربيع الثاني من السنة المذكورة ، ثم بعد أن وصف جدة وما بها قال : وفي عشي يوم الثلاثاء الحادي عشر من الشهر المذكور ، كان انفصالنا من جدة ، قال : وأسرينا تلك الليلة إلى أن وصلنا « القرين » (بضم القاف أو كسرها) مع طلوع الشمس ، وهذا الموضع هو منزل الحاج ومحطّ رحالهم ، ومنه يحرمون وبه يريحون اليوم الذي يصبحونه ، فإذا كان في عشية رفعوا وأسروا ليلتهم وصبّحوا الحرم الشريف ، زاده الله تعالى تشريفاً وتعظيماً ، والصادرون من الحج ينزلون به أيضاً ويسرون منه إلى جدة ، وبهذا الموضع المذكور بئر مَعِينة عذبة ، والحاج بسببها لا يحتاجون إلى التزود بالماء ، غير ليلة إسرائهم إليه . قال : فأقمنا بياض يوم الأربعاء مريحين بالقرين ، فلما حان العشي رحنا منه محرمين بعمرة ، فأسرينا ليلتنا تلك ، فكان وصولنا مع الفجر ، قرب الحرم ، فنزلنا مرتقبين لانتشار الضوء ، ودخلنا مكة ، حرسها الله تعالى ، في الساعة الأولى من يوم الخميس الثالث عشر لربيع المذكور . . . إلى آخر كلامه .

فظهر لنا هنا من كلامه ووصفه أن المقصود من كلمة « قُرين » في عصر ابن جبير المذكور ، هو « بَحْرة » لأن وصفه هذا ينطبق على بحرة تمام الانطباق . لكن هل كانت بحرة تسمى بقرين في صدر الإسلام أم لا ، الله أعلم بذلك ، فإنا لم نبحث عن هذا . وأما في زماننا فقرين « بضم القاف وكسرها » يطلق على جبل بعرفات وربما كان جبل الرحمة نفسه ، وقول ابن جبير : إن الحاج يحرم من القرين وأنه هو نفسه مع من معه أحرموا منه بعمرة ، حينما قاموا منه قاصدين مكة قوله هذا خطأ ، فالحجاج يحرمون من الميقات ، ولا يحرمون من جدة أو من بحرة ، فمن أحرم من أحدهما من الحجاج وجب عليه الدم لتركه الميقات ، وأما أهل جدة أو أهل بحرة فيحرمون من نفس بلدتهم ، والله تعالى أعلم .

أما المسجد القديم، الذي ببحرة، قيل إن النبي ﷺ صلى في موضعه منصرفه من غزوة حنين أو ثقيف أو الطائف والله تعالى أعلم بصحته، فإنا لا نجزم بذلك بل نشك فيما قيل، وإنما هو كالمساجد الأخرى غير أنها قديمة العهد، فإن قرية كبحرة معروفة من قديم الزمان وهي المحطة الكبرى الرئيسية لقوافل الحجاج، وأهلها كلهم مسلمون لا يمكن أن تكون بدون مسجد يصلّون فيه.

قال عنها إبراهيم باشا رفعت صاحب كتاب «مرآة الحرمين» ما نصّه: وبحرة تسمى «بحرة الرغاء» على يسار الميمّم مكة، وبها أكواخ حقيرة، وحظائر للإبل، وقهاوي، ومسجد صغير بمئذنة، بنى أصله النبي ﷺ منصرفه من غزوة الطائف، سنة ثمان، وصلى فيه كما جاء في سيرة ابن هشام، وفيها عقب ذلك. قال ابن إسحاق: فحدثني عمرو بن شعيب أنه أقاد، يومئذ ببحرة الرغاء، حين نزلها، بدم، وهو أول دم أقيد به في الإسلام، رجل من بني ليث قتل رجلاً من هذيل فقتله به. اهـ.

وهنا قال مؤلف كتاب «مرآة الحرمين»: ولكن في زاد المعاد في هدى خير العباد في غزوة الطائف ما يأتي: ثم خرج رسول الله ﷺ من الطائف إلى الجعرانة، ثم دخل منها محرماً فقضى عمرته، ثم رجع إلى المدينة. اهـ.

قال المؤلف المذكور: والطائف في الجنوب الشرقي لمكة والجعرانة بينهما، لكنها أقرب إلى مكة، فكيف يتفق مع ذلك أنه مر ببحرة منصرفه من غزوة الطائف، مع أنها غربي مكة، ولا تقل المسافة بينهما عن ثلاثين ميلاً، وبين الجعرانة ومكة حوالي عشرة أميال، إنّا لذلك نقف موقف الشك فيما رواه ابن هشام، ونقله عنه كثير من المؤرخين حتى يأتينا اليقين. انتهى كلام صاحب مرآة الحرمين.

الجعرانة: هي بكسر الجيم وسكون العين المهملة وتخفيف الراء وهو الأشهر وبهذا ينطق الحجازيون إلى اليوم، وقيل: بكسر الجيم والعين وتشديد الراء.

نقول والله تعالى أعلم: لا داعي للشك في هذه المسألة، فإن النبي ﷺ قد نزل في الحديبية التي تسمى الآن «بالشميسي» مع أصحابه، ونزوله هنا لا شك فيه وقد قدمنا الكلام عنه هنا في أول الفصل، وبين الشميسي وبين بحرة خمسة عشر كيلو متراً، فالمسافة قريبة بينهما، وطريق المدينة، للمسافر من مكة، من قديم الزمان، هو عن طريق مرّ الظهران، المسمى الآن «بوادي فاطمة» ووادي

فاطمة واقع عند الكيلو « ٢٩ » للذاهب إلى جدة ، فعسفان ثم المحطات الأخرى ، الواقعة في طريق المدينة ، وبين عسفان ومكة مرحلتين تقريباً ، وعسفان أقرب إلى بحرة ووادي فاطمة ، فترى هذه الأماكن قريبة بعضها من بعض ، وفي كل منها طريق يؤدي إلى المدينة المنورة ، أما الطريق من مكة إلى المدينة اليوم فهو عن طريق بحرة فجدة ثم بقية المحطات ، وذلك بالسيارات وبالجمال أيضاً ، وقلّ من يذهب إليها الآن عن طريق عسفان . وهذا الطريق ، كان سابقاً يسمى بالطريق السلطاني ، وهو أحسنها سيراً وأكثرها ماءً ، كما ذكر ذلك صاحب « الرحلة الحجازية » ، فقد قال : إذا مشت القافلة من مكة من الطريق السلطاني فإنها تمر على المحطات الآتية : وادي فاطمة ، عسفان ، خليص ، القضَيمة ، رابغ ، مستورة ، ثم ذكر بقية المحطات لا داعي لذكرها هنا .

فعلم مما تقدم أن النبي ﷺ قد مرّ وأقام بالشميسي أي الحديبة ، التي حصلت فيها بيعة الرضوان بدون شك ، ولما كانت بحرة ووادي فاطمة في طريق الذاهب إلى المدينة ، فمن الجائز أن يكون النبي ﷺ مرّ بهما في طريقه إلى المدينة ، والله تعالى أعلم .

الجعرانة و مسجدها

قال الفاسي في شفاء الغرام : اختلف في ضبط العين والراء من الجعرانة ، فقال النووي في تهذيب الأسماء واللغات : الجعرانة بكسر الجيم وإسكان العين وتخفيف الراء ، هكذا صوابها عند إمامنا الشافعي والأصمعي وأهل اللغة ومحققي المحدثين وغيرهم ، ومنهم من يكسر العين ويشدد الراء ، وهو قول عبد الله بن وهب وأكثر المحدثين ، قال صاحب مطالع الأنوار : أصحاب الحديث يشددونها ، وأهل الإتقان والأدب يخطئونهم ويخففون ، وكلاهما صواب ، حكى إسماعيل القاضي ، عن علي بن المديني ، قال : أهل المدينة يثقلونها ويثقلون الحديبية وأهل العراق يخففونهما . انتهى .

قال الغازي : الجعرانة الموضع الذي أحرم منه النبي ﷺ لما رجع من الطائف ، بعد فتح مكة ، هو موضع مشهور ، على بريد من مكة ، فيما ذكره الفاكهي ، كذا في العقد الثمين .

أخرج الجندي، في فضائل مكة، بسنده إلى يوسف بن ماهك، أنه قال: اعتمر من الجعرانة ثلاثمائة نبي وكذا ذكره الفاكهي. وفي جهة الجعرانة ماء شديد العذوبة، يقال أن النبي ﷺ فحص موضع الماء، بيده المباركة، فانبجس فشرب منه النبي ﷺ وسقى الناس، وقيل: إنه غرز رمحه الميمون، فنبع الماء من ذلك المحل، فشرب منه النبي ﷺ وسقى الناس. أخرجه الفاكهي.

وإنما سميت جعرانة باسم امرأة من قريش، يقال لها رايطة بنت كعب، ولقبها جعرانة، وهي امرأة أسد بن عبد العزى. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنها هي التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ الآية. انتهى.

انظر: صورة رقم ٢٠٢، مسجد الجعرانة وبئرها

نقول: إن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، في السنة الثامنة من الهجرة، سار بمن معه إلى الطائف لغزو ثقيف وهوازن، فلما وصل المسلمون الطائف وجدوا الأعداء قد تحصنوا به، فحاصروهم ثمانية عشر يوماً، ولما رأى النبي ﷺ أن الفتح لم يؤذن فيه، استشار نوفل بن معاوية الديلي في الذهاب أو المقام، فقال نوفل: يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت أخذته وإن تركته لم يضرك، فأمر عليه الصلاة والسلام بالرحيل، وطلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف، فقال: «اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين».

ثم رجع ﷺ إلى الجعرانة حيث ترك السبي والغنائم، التي أخذوها في غزوة حنين، وأقام بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة، ومنها اعتمر ودخل مكة ليلاً، فطاف واستلم الحجر، ثم رجع إليها من ليلته، ثم إنه عليه الصلاة والسلام، أمر بالرحيل فسار الجيش آمناً مطمئناً، حتى دخل المدينة، لثلاث بقين من ذي القعدة من السنة الثامنة.

قال ابن حجر الهيثمي، رحمه الله تعالى في كتابه «تطهير الجنان واللسان» المطبوع بهامش كتابه «الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة» ما يأتي:

عمرة الجعرانة إنما فعلها ﷺ ليلاً سراً عن أكثر الصحابة، ولذا أنكرها بعضهم، وذلك أنه بعد صلاة العشاء بأصحابه في الجعرانة دخل على أهله، فلما تفرق الناس لمضاجعهم خرج ﷺ محرماً بالعمرة، في نفر قليل إلى مكة، فقضى

نسكه ثم رجع إلى أهله سراً أيضاً، ثم عند صلاة الصبح خرج من عند أهله كبائت عندهم، فلم يعلم بتلك العمرة إلا بعض خواصه ﷺ. انتهى كلامه.

فالناس يعتمون من الجعْرانة كثيراً في شهر رمضان، فتراها عامرة، في هذا الشهر، بالحجاج وأهل البلاد من كل جهة، وماء الجعرانة أحلى وأعذب من ماء مكة، فهو يشبه ماء بئر عروة بالمدينة المنورة، من حيث عذوبة طعمها وسهولة مساغها. ولقد ذهبنا إلى الجعرانة من مكة عدة مرات، فرأينا في سنة ألف وثلاثمائة وست وسبعين للهجرة قبيل الوصول إليها صخرة كتب عليها ما يأتي:

من يتوكل على الله فالله حسبه.

والله بالغ أمره، وقد جعل الله لكل شيء قدرا.

وكتبه أمية بن عبد الملك.

لسنة ثمان وتسعين هجرية.

وهو يسأل الله الجنة.

وبالجعرانة مسجد قديم نتكلم عنه كما يأتي:

أما مسجد الجعرانة فقد قال الغازي عنه في تاريخه: ومن المساجد المأثورة مسجد الجعرانة، وهو الذي أحرم منه النبي ﷺ بعمرة، حين مرجعه من الطائف، بعد فتح مكة، وموضع إحرامه من وراء الوادي، حيث الحجارة المنصوبة بالعدوة القصوى. أخرجه الأزرقي عن مجاهد، وكذا ذكره الواقدي أيضاً. ذكره في الجامع اللطيف.

وقال الفاسي في «شفاء الغرام»: الجعرانة الموضع الذي أحرم منه النبي ﷺ لما رجع من الطائف، بعد فتح مكة، هو موضع مشهور بين الطائف ومكة، وهو إلى مكة أقرب بكثير، لأن بينه وبين مكة نحو ثمانية عشر ميلاً على ما ذكره الباجي المالكي.

روى الأزرقي، عن ابن جريج، قال: أخبرني زياد بن محمد بن طارق، أخبره أنه اعتمر مع مجاهد، من الجعرانة، فأحرم من وراء الوادي، حيث الحجارة المنصوبة، قال: ومن هنا أحرم النبي ﷺ، وإني لأعرف أول من اتخذ المسجد على الأكمة، بناه رجل من قريش سماه واشترى مالاً عنده ونخلاً. «والمال عند أهل البادية يطلق على النعم والمواشي كالإبل والغنم. اهـ» (منجد). فبني هذا

المسجد ، وذكر الواقدي أن النبي ﷺ أحرم من المسجد الأقصى ، التي تحت الوادي ، بالعدوة القصوى من الجعرانة ، وكان مصلى النبي ﷺ إذ كان بالجعرانة به ، فأما الأدنى فبناه رجل من قريش واتخذ ذلك الحايط عنده «الحايط البستان جمعه حيطان وحياط . اهـ» (منجد) . ولم يجز رسول الله ﷺ الوادي إلا محرماً ، ونقل ابن خليل ، عن ابن جريج ، أن الرجل الذي بنى المسجد الأدنى هو عبد الله بن خالد الخزاعي . انتهى .

قال الغازي : مسجد الجعرانة الموجود الآن جددته زوجة سالار الملك ، الذي هو من أمراء حيدر أباد ، في سنة (١٢٦٣) ألف ومائتين وثلاث وستين من الهجرة ، كما هو مكتوب على محراب المسجد . انتهى .

مسجد نمرة بعرفات

أما مسجد نمرة بعرفات فقد تكلمنا عنه عند الكلام على عرفات فراجعه هناك حتى لا يتكرر الكلام هنا .

هذه المساجد الأربعة المذكورة هي واقعة عند حدود الحرم تماماً . ولم نذكر ما يوجد بمنى من المساجد ولا مسجد مزدلفة لأن كل ذلك واقع في داخل الحرم .

بدء بناء المساجد والجوامع في البلاد الإسلامية

المسجد والجامع بمعنى واحد ، وكان أهل الزمن الأول يصفون المسجد أحياناً فيقولون «المسجد الجامع» وأحياناً يضيفونه إلى الصفة فيقولون «مسجد الجامع» وذلك لاجتماع الناس فيه .

وفي زماننا هذا يطلق بعض أهل البلدان كلمة «الجامع» على المسجد الكبير الذي تقام فيه الجمعة ، ويطلق بعض أهل البلدان كلمة «المسجد» على أي مسجد كان ، كبيراً أو صغيراً ، كما هي عادة أهل الحجاز ، فإنهم لا يستعملون كلمة «الجامع» مطلقاً .

ولقد أخذ بناء الجوامع والمساجد في مصر ، من القرن الخامس الهجري تقريباً ، طابعاً آخر ، بحيث يكون بناؤه صالحاً لإقامة الصلوات والشعائر الدينية ، وصالحاً لتدريس كافة أنواع العلوم والفنون ، بجانب إقامة الطلبة والتلاميذ فيه ليلاً ونهاراً ،

ويطلقون أحياناً على ما كان مبنياً بهذه الصفة كلمة «المدرسة» وقد يلحق بعضها سبيل ماء لشرب المارّة، وكتّاب لتحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة، وقد ذكروا أن الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب، مؤسس الدولة الكردية، هو أول من بنى داراً للحديث، وبنى في كثير من البلدان مكاتب «كتاتيب» للأيتام وقرر، لهم ولمعلميهم، مرتبات وافرة.

يقول الأستاذ محمد لبيب البتنوني مؤلف «الرحلة الأندلسية» فيها ما يأتي: إن المساجد كانت ولا تزال في الدول الإسلامية تستعمل مدارس للعلوم المختلفة، كما هو الشأن، إلى الآن، في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة والأزهر بمصر، والمسجد الجامع ببغداد، والمسجد الأموي بدمشق، وجامع الزيتون بتونس، ومسجد الكتبية بمراكش، وجامعي السلطان أحمد والسلطان محمد بالآستانة، ومسجد عمر بالقدس. انتهى.

نقول: وقد أنشأ العثمانيون، حول المسجد الحرام، مدارس لتدرس فيها العلوم المختلفة، منذ القرن التاسع الهجري، وجعلوا، لأساتذتها وطلبتها وموظفيها، مرتبات شهرية وأوقافات مرصودة سنوية، ولا تزال إلى اليوم هذه المدارس باقية، لكنها غير مخصصة للتدريس، بل بعضها تشغلها المحاكم، وبعضها فيها مكتبة الحرم المكي، وهي واقعة من جهة باب الزيادة إلى باب الدريبة، وكذلك توجد مثلها في جهة أخرى حول المسجد الحرام، لكنها شغلت بالسكن لا بالتدريس، وقد تكلم عنها مؤرخو مكة.

أما كيفية بناء المساجد: فهي تابعة للتطورات المدنية والتقدمات العمرانية والعادات القومية في البلدان والممالك، فقد كان بناء أساس مسجد رسول الله ﷺ بالحجارة، وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع، أما جداره فبنيت باللبن، وكانت أعمدته من جذوع النخل، وسقفه من الجريد، وكان ﷺ يبني مع المسلين وينقل اللبنَ والحجارة، ويقول: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة».

فهذا المسجد النبوي الشريف، بني في ذلك الزمن، كعادة أهله في بناء بيوتهم ومنازلهم، ثم تطور الأمر حتى صار بناؤه اليوم كما نراه، فكيفية بناء المساجد تابعة للتطورات العمرانية، وهل يليق بنا، ونحن في هذا العصر الحديث، عصر الآلات الميكانيكية وعصر الكهرباء، وعصر الذهب والفضة، وعصر البناء في الماء

والطيران في السماء، أن نبني بيوتنا ومنازلنا وقصورنا بالمرمر والرخام والبللور البراق، ونزينها بالذهب والفضة، ونزخرفها بالنقوش البديعة، ثم نبني المساجد، بيوت الله الكبير المتعال، التي يذكر فيها اسمه، باللبن والطين والحجارة الصماء وجذوع النخل والجريد، وأن نوقد فيه زيتاً وفتيلاً، بينما نضيء منازلنا بالأنوار الكهربائية؟ لا والله لا يليق بنا ذلك، وإن كان الله، عز شأنه، غني عن كل ذلك، وعن عبادتنا أيضاً، فإنه تعالى ينظر إلى قلوبنا ولا ينظر إلى صورنا، ولكن ما أجمل طهارة الباطن ونظافة الظاهر، فالتجانس والتقارب، بين بناء بيوتنا وبناء بيوت الله، مطلوب معقول، بحسب التطورات في كل عصر وعادات كل بلدة.

وهذا عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لما احترقت الكعبة وضعفت جدرانها، جمع وجوه الناس وأشرافهم فشاورهم في هدم الكعبة، فأشار عليه بعضهم بهدمها، وأبى أكثر الناس هدمها، وكان أشدهم عليه إباء عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، وقال له: دعها على ما أقرها عليه رسول الله ﷺ فإني أخشى أن يأتي بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم وتبني، فيتهاون الناس في حرمتها ولكن أرقعها. فقال ابن الزبير: «والله ما يرضى أحدكم أن يرقع بيت أبيه وأمه فكيف أرقع بيت الله سبحانه وتعالى؟» ثم إنه هدمها وبناها أحسن البناء.

ومثل هذا أيضاً، حينما احترقت الكعبة، زمن قريش، فأرادوا بناءها، لكنهم هابوا أن يهدموها، فقال لهم الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل نريد الإصلاح، قال: فإن الله لا يهلك المصلحين، ثم ارتقى الوليد، قبل قريش على الكعبة، ومعه الفأس يهدمها، ويقول: اللهم لا نريد إلا الإصلاح. ثم تبعه قريش فهدموا معه.

فيؤخذ مما تقدم، أن إصلاح أيّ شيء وإتقان أيّ عمل، بنية حسنة، مطلوب شرعاً، ولا حرج في إدخال تحسينات على أمر لم تكن عليه من قبل، ما لم يكن هناك منع صريح في ذلك، فالمظاهر لها حكم قوي، فكما يجب إصلاح الباطن يلزم تجميل الظاهر، فملك بدون مشاعر الملك لا يهاب، وإدارة حكومية بدون فخامة مظهرها لا تعتبر، وإنسان بدون أن يتجمل بالثياب لا يحترم ولا تكون له مكانة، وبالأخص في زماننا هذا، نسأل الله السلامة عن خزي الدنيا والآخرة.

فهذا معاوية بن أبي سفيان ، رضي الله تعالى عنه ، الصحابي الجليل ، كاتب وحي رسول الله ﷺ لما تولى الشام من قبل عمر ، رضي الله عنه ، قدم عليه عمر راكباً حماراً فتلقاه معاوية في موكب عظيم ، ونزل معاوية وسلم على عمر بالخلافة ، فمضى عمر في سبيله ولم يرد عليه سلامه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين ، فلو كلّمته ، فالتفت عمر إلى معاوية وسأله : إنك لصاحب الموكب الذي أرى ؟ قال معاوية : نعم ، قال عمر : مع شدة احتجابك ووقوف ذوي الحاجات ببابك ؟ قال معاوية : نعم ، قال : ولم ويحك ؟ أجابه معاوية : «لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدوّ ، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخفّ بنا وهجم علينا ، وأما الحجاب فإننا نخاف من البذلة جرأة الرعية . وأنا بعد عاملك فإن استنقصتني نقصت ، وإن استزدتني زدت وإن استوقفتني وقفت» . . . قال عمر ، بعد أن سكت هنيهة : «ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه ، إن كنت صادقاً فإنه رأي لبيب ، وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب ، لا آمرك ولا أنهاك» .

انتهى نقلاً عن صحيفة ٢٢٣ من كتاب «الفاروق عمر» للدكتور محمد حسين هيكل . ومن هنا يعلم أن معاوية ، رضي الله عنه ، لم يتخذ له موكباً وحجاباً بالشام إلا للمصلحة العامة ، لا للهو والعبث والركون إلى الدنيا ، وهو الصحابي الجليل ، الذي خدم رسول الله ﷺ وله من السياسة والدهاء والفطنة والحلم ما يضرب بها الأمثال . وإن من حكايته هذه لتستخرج جملة من المسائل ، وعدة من الأمور المهمة ، لو أردنا شرحها وبيانها لطال بنا الكلام ، ولا يخفى ذلك على ذوي العقول والبصائر . فلو تتبعنا أحوال أهل الصدر الأول من الإسلام واقتفينا آثارهم وطريقتهم ، لكان اليوم للمسلمين شأن آخر غير ما نحن فيه ، نسأل الله التفويق والاعتصام بالدين وجمع شمل المسلمين والنصر على أعداء الدين آمين بفضله ورحمته إنه بعباده لطيف خبير .

هذا ، ولقد كان ابتداء إصلاح العمارات والأبنية ، في عهد الوليد بن عبدالملك ، رحمه الله تعالى ، حتى كان الناس إذا التقوا تساءلوا عن البناء والصناعة ، وهذه قبة صخرة المسجد الأقصى تدهش عقول الفنانين وأرباب الصنعة ، بما فيه من النقوش الذهبية ، والقيشاني والفسيفساء «الموازييك» ، كل هذه من عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، ثم أتى من بعدهما من عمّرها

وأصلحها ، ثم تقدم العمران والأبنية في عهد الدولة الطولونية بمصر سنة (٢٥٤ - ٢٩٢) هجرية ، ثم في عهد الدولة الفاطمية سنة (٣٥٨ - ٥٦٧) هجرية ، فقد ترقت كثير من الصناعات في عهدها وارتفعت شأن العمارات الإسلامية ، ثم في عهد الدولة الأيوبية سنة (٥٦٧ - ٦٤٨) هجرية ، فقد ازدهرت في عهدها الفنون الإسلامية وأنشئت المدارس للمذاهب والحديث الشريف ، وظهر الزجاج الملون ، في الشبابيك ، والفسيفساء المذهبة في المحاريب ، وشاع استعمال الرخام فيها . ولكن كل ذلك لم يصل إلى درجة الكمال ، بسبب اشتغال مؤسس الدولة ، صلاح الدين الأيوبي ، بحرب الإفرنج ، فكانت أيامه وأيام خلفائه فتحاً وجهاداً .

ثم جاءت دولة المماليك البحرية سنة (٦٤٨ - ٧٨٤) هجرية ، وكذلك دولة المماليك الجراكسة سنة (٧٨٤ - ٩٢٣) هجرية ، ففي هاتين الدولتين نهضت الصناعات نهضة بحق ، فتركزت قواعد العمارات ، وتطور بناء المساجد ، وتنوعت أشكال القباب والمنارات ، وتهذبت صناعة النجارة والتطعيم في الخشب بالنحاس وغيره ، وتلوين الجصّ المنقوش ، واتخذت مشكاوات لإضاءة المساجد ، واستعمل القاشاني في قمم المنارات ومدار القباب ، واستحدث المنبر الرخامي ، واتخذ الحجر في بناء القباب والمنارات بدلاً من الطوب ، وتنوعت تصميم واجهات المساجد والجوامع ، وانتشر الخط الكوفي المربع ، وظهرت الأبواب النحاسية وتكفيتها بالذهب والفضة ، وازدادت منارات المساجد رشاقة وحسناً وجمالاً ، والقباب نقوشاً ورسوماً ، وانتشرت المحاريب الحجرية ونقشها وتطعيمها بالرخام ، وتعددت المنارات والقباب في مسجد واحد ، وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر .

وأخيراً جائت الدولة العثمانية التركية ، وبذلك أدخلت في مصر من الزخارف والأساليب التركية على العمارات التي حدثت فيما بعد .

هذه نبذة قصيرة عن تطور بناء العمارات عامة ، والمساجد الخاصة ، بجميع أنواعها ، ذكرناها لمناسبة ما لبعض تلك الدول من العمارات والمنشآت السابقة ، في الحرمين الشريفين ، وإلى هنا انتهينا من كيفية بناء المساجد وتطور بناء العمارات بصورة مختصرة ، فلنذكر الآن مبدأ بناء المساجد فنقول وبا لله التوفيق :

إن أول مسجد بني في الإسلام مسجد قباء بالمدينة أي في الأيام الأولى من وصول النبي ﷺ إليها ، وبعد أن أقام بضعة أيام بقباء ، تحول ﷺ إلى المدينة ، فبنى

مسجده الشريف بها ، في موضع مبرك ناقته ، وقباء في خارج المدينة بينهما نحو اثنين كيلو متر . جاء في كتاب « التراتيب الإدارية » قال السهيلي في الرَوْض : ذكر ابن قتيبة أن الرسول ﷺ حين أسس مسجد قباء ، كان هو أول من وضع حجراً في قبلته ، ثم جاء أبو بكر بحجر فوضعه ، ثم جاء عمر بحجر فوضعه إلى حجر أبي بكر ، ثم أخذ الناس في البنيان ، فقال : هذا أول مسجد بني في الإسلام اهـ .

قال الخضري رحمه الله تعالى ، في كتابه « نور اليقين » والذي حققه المرحوم محمود باشا الفلكي : إن نزول النبي ﷺ بقباء كان في اليوم الثاني من ربيع الأول ، الذي يوافق العشرين من سبتمبر سنة (٦٢٢) ، قال الخضري في هامش الصحيفة : لما أراد المسلمون في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وضع التاريخ ، جعلوا مبدأه من هذه الهجرة الشريفة ، ولعدم المخالفة ، بين مبدأ الهجرة وبدء السنة الهلالية ، قدّموا ميعاد الهجرة شهرين وأياماً ، وجعلوا بدء الهجرة من محرم سنتها . اهـ .

ولا يخفى أن المساجد لم تكن موجودة في الممالك والبلدان إلا بعد ظهور الإسلام وفتوح الأمصار ، فقد جاء في كتاب « حسن المحاضرة » للسيوطي رحمه الله ما ملخصه :

لما افتتح عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، البلدان كتب إلى أبي موسى ، وهو على البصرة ، يأمره أن يتخذ مسجداً للجماعة ، ويتخذ للقبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة . وكتب إلى سعد بن أبي وقاص ، وهو على الكوفة ، بمثل ذلك . وكتب إلى عمرو بن العاص ، وهو على مصر ، بمثل ذلك . وكتب إلى أمراء أجناد الشام أن لا يتبدّدوا إلى القرى ، وأن ينزلوا المدائن ، وأن يتخذوا في كل مدينة مسجداً واحداً ، ولا يتخذوا القبائل مساجد ، فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده ، وكانت صلاة الجمعة تؤدى في المسجد الجامع .

* انظر: صورة رقم ٢٠٣ ، جانب من الجامع العظيم في كانتون بالصين

ولما فتح عمرو بن العاص الاسكندرية ورجع منها إلى مصر وأقام بالفسطاط ، بضم الفاء ، المسمى اليوم « مصر القديمة » ، بنى بها جامعه الشهير باسمه « جامع عمرو بن العاص » ، وهو أول مسجد أنشئ بمصر ، وذلك سنة إحدى وعشرين هجرية ، وهو الجامع العتيق المشهور بتاج الجوامع ، وكان ما حوله حدائق وأعناباً ،

فنصبوا الحبال حتى استقام لهم ، ووضعوا أيديهم «أي قاموا بالبناء» ، فلم يزل عمرو قائماً حتى وضعوا القبلة ، واتخذوا فيه منبراً ، فكتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : «أما بعد فإنه بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين أما حسبك أن تقوم قائماً والمسلمون تحت عقبيك فعزمت عليك إلا ما كسرته» اهـ . ويقال إنه وقف على إقامة قبلة مسجده ثمانون رجلاً من الصحابة ، منهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، والدرداء ، وأبو ذر ، وعقبة بن عامر ، وغيرهم ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين . وكان الذي يؤذن له في المسجد ويبخّره أبو مسلم اليافعي صاحب رسول الله ﷺ ، ولم يكن لجامع عمرو محراب ولا مئذنة ، حيث لا يعرفهما الناس ، وإنما حدثا في آخر المائة الأولى ، وكان الجامع مفروشاً بالحصباء ، اتخذوا ذلك من تحصيب أرضية المسجد النبوي الذي كان في زمنه ﷺ ، إلى أن جاء مسلمة بن مخلد ، أمير مصر ، من قبل معاوية رضي الله عنه ، ففرش مسجد عمرو بالحصير ، بعد أن جدد بناءه وزاد فيه ، وذلك سنة ثلاث وخمسين من الهجرة .

فمنذ أن فتحت مصر لم يكن بها مسجد تقام فيه الجمعة سوى جامع عمرو بن العاص ، قال القضاعي : لم تكن الجمعة تقام في زمن عمرو بن العاص بشيء من أرض مصر إلا بجامع الفسطاط ، قال ابن يونس : جاء نفر من غافق إلى عمرو بن العاص فقالوا : إنا نكون في الريف فنجتمع في العيدين الفطر والأضحى ، ويؤمنا رجل منا ، قال : نعم ، قالوا : فالجمعة ؟ قال : لا ، ولا يصلي الجمعة بالناس إلا من أقام الحدود وأخذ بالذنوب وأعطى الحقوق . اهـ ، وكما بنى عمرو بن العاص جامعه بالفسطاط بمصر بنى مسجداً في الاسكندرية ، حينما فتحها مرة ثانية ، عندما نقضوا العهد ، وذلك سنة خمس وعشرين ، في خلافة عثمان ، رضي الله عنهما ، ويسمى مسجده هذا مسجد الرحمة ، وذلك حينما دخل الاسكندرية أمعن في قتلهم ، فكلموه في ذلك ، فرفع عنهم السيف ، وبنى في هذا الموضع الذي رفع السيف عنهم هذا المسجد ، فلذلك سمي بمسجد الرحمة ، كما جاء في حسن المحاضرة .

فلما كان سنة (١٣٣) ثلاث وثلاثين ومائة قدم عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس ، من العراق ، في طلبه مروان الحمار ، فنزل عسكره في شمال الفسطاط ،

وبنوا هنالك الأبنية، فسمي ذلك الموضع بالعسكر، وبنوا به جامعاً يسمى «جامع العسكر» فصارت الجمعة تقام بهذا الجامع وبجامع عمرو.

- فلما بنى السلطان أحمد بن طولون جامعه، حين بنى مدينة القطائع بالقاهرة، أبطلت الجمعة من جامع العسكر وصارت تقام بجامع عمرو وبجامع ابن طولون، إلى أن قدم جوهر القائد واختط القاهرة وبنى الجامع الأزهر في سنة (٣٦٠) ستين وثلاثمائة، فصارت الجمعة تقام بالجوامع الثلاثة. فيكون الجامع الأزهر هو أول جامع أسس بالقاهرة.

ثم كثر بناء الجوامع والمساجد بمصر، حتى كان بها ستة وثلاثون وألف مسجداً، كما ذكره المقريزي، في خططه، والله تعالى أعلم كم بها اليوم، وبجميع الممالك الإسلامية من المساجد والجوامع، ولقد ذكر البتنوني في كتابه «رحلة الأندلس» أنه كان بمدينة قرطبة بالأندلس ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثون مسجداً. اهـ.

اللهم انصر المسلمين واجمع كلمتهم وشملهم ووفقهم للتمسك بشريعتك الغراء ودينك القويم، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين، بفضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله وسلم على النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفسطاط

قال في كتاب «قاموس الأمكنة والبقاع» عن الفسطاط ما يأتي:

قال ياقوت: هي مدينة اختطها المسلمون، عند فتح مصر، يطلق عليها اليوم اسم مصر، بين النيل والجبل الشرقي، وكان موضعها قبل ذلك فضاء أرض، وبها محل مبني يدعى بابليون، ينسب بناؤه إلى العجم، وسمي موضع منه بعد بقصر الشمع، وكان هذا القصر مقر أمراء الرومانيين وحصناً متيناً، وكان ملجأً للروم، عند قدوم عمرو بن العاص لفتح مصر في سنة ٢٠ هجرية، فغلبهم فيه، وهربوا إلى جزيرة الروضة، فاختط عمرو، في جوار هذا الحصن، جامعه المشهور، واجتمعت حوله قبائل العرب في سرادقاتهم، فتكونت المدينة، وأطلق عليها اسم «الفسطاط» ولما كثرت قبائل العرب ابتنوا فيها مساكنهم، وصار كل من تولى على مصر يجعلها مقر ولايته، حتى تضاعفت فيها العمارات، كثر عدد السكان

واتسعت أطرافها ، ولكن القحط الشديد الذي أصاب مصر من سنة ٤٥٧ واستمر إلى سنة ٤٦٤ ، حتى بلغ فيه ثمن أردب القمح ثمانين ديناراً ، ثم عدم ، وأكلت الناس بعضهم بعضاً ، جرّ إلى خراب هذه المدينة ، ولم يكد بعد ذلك يتم إصلاحها ، وبناء ما هدم منها ، حتى أحرقت في سنة ٥٦٤ ، خشية من وقوعها في يد الإفرنج ، ثم أعيد بناؤها ، ولكنها خربت في سنة ٦٠٦ بسبب الغلاء والوباء العظيم ، الذي أصاب مصر في سلطنة العادل أبي بكر بن أيوب ، ثم تحايت في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ثم خربت بسبب الغلاء والوباء أيضاً سنة ٦٩٦ ، ثم أعيد بناؤها وخربت سنة ٧٤٩ ، ثم أعيد بناء ما حوالي الجامع العتيق ، حتى أصاب مصر شرق ووباء بعد غلاء في سنة ٧٧٦ ، فخرب عامرها إلى سنة ٧٩٠ ، وبقي الجزء المعروف الآن بمصر العتيقة التابع لمحافظة مصر ، وبه من السكان نحو الاثنين وثلاثين ألفاً . انتهى من الكتاب المذكور .

بدء بناء مآذن المساجد

المآذن والمنارات بمعنى واحد ، وهو الموضع المرتفع المخصص للأذان ، وهذه المآذن في المساجد لم تكن موجودة ، في صدر الإسلام ، وإنما حدثت فيما بعد ، لذلك لما كان يوم فتح مكة ، رقى بلال فأذن على ظهر الكعبة لصلاة الظهر ، بأمر رسول الله ﷺ ، ثم كان الأذان على سطح المساجد صيفاً وشتاءً في جميع المساجد حتى في المسجدين الحرامين .

فلما جدّد مسلمة بن مخلّد ، أمير مصر ، من قبل أمير المؤمنين معاوية ، رضي الله عنه ، بناء جامع عمرو بن العاص ، بعد هدمه ، بنى فيه أربع صوامع ، في أركانه الأربعة ، برسم الأذان ، قال في مختار الصحاح : «وثريدة مصمّعة إذا دققت وحدّد رأسها وصومعة النصارى فوعلة من هذا لأنها دقيقة الرأس . اهـ» . وقال في المنجد : «صومع الشيء جمعه ، البناء علاّه ، الصومة والصومع جبل أو مكان مرتفع يسكنه الراهب أو المتعبد قصد الانفراد ، ثم أطلقت الكلمة على الدّير ، الصومعة أيضاً العقاب البرنس ، أعلى كل جبل إذا كان مستدّق الرأس . جمعه صوامع» . انتهى كلامه .

ومن هنا يعلم أن مسلمة بن مخلّد هو أول من بنى بمصر المآذن ، (المنارات) في المسجد ، وكانت مآذنه مرتفعة مستدقة الرأس وإن لم تكن بهذه الصفة ، التي هي

عليها الآن ولايبعد أن يكون مسلمة بن مخلد أخذ بناء الصوامع المستدقة الرأس عن منارة الاسكندرية الشهيرة ، التي بناها الاسكندر أو الملكة دلوكة بنت زبا ، وكانت من عجائب بنيان العالم ، وكان طولها ألف ذراع ، وكانت آثارها باقية إلى أيام قلاوون ، ثم أخذ الناس ، عن مسلمة ، بناء الصوامع على سطح المساجد ، للأذان ، وكانوا يسمونها الغرفة لعلوها أو المظلة ، فقد جاء أنه في خلافة هارون الرشيد ، عمل أمير مكة عبد الله بن محمد بن عمران الطلحي مظلة للمؤذنين على سطح المسجد ليؤذنوا فيها يوم الجمعة ، وكانوا يؤذنون قبل ذلك في يومها على سطح المسجد صيفاً وشتاءً .

وجاء في كتاب «التراتيب الإدارية» بصحيفة ٧٩ ، من الجزء الأول ، في مبحث : على أي شيء كانوا يؤذنون ، ما نصّه :

في كتاب الجمعة من تشنيف السامع على قول الراوي الصحيح ، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء والزوراء قيل أنه مرتفع كالمنارة ، وفي النزهة الثمينة في أخبار المدينة لابن النحاس .

وروى ابن إسحاق أن امرأة من بني النجار قالت : كان بيتي أطول بيت حذاء المسجد ، وكان بلال يؤذن عليه الفجر كل غداة ، فيأتي بالسحر فيجلس على البيت ، فينتظر الفجر ، فإذا رآه تمطى ، ثم قال : اللهم أحمدك وأستعينك على قريش أن يقيموا دينك ، قالت : ثم يؤذن . وذكر أهل السير أن بلالاً كان يؤذن على أسطوانة في قبلة المسجد يرقى إليها بأقتاب فيها ، وكانت خارجة من المسجد ، وهي قائمة إلى الآن في مسجد عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وروى نافع ، عن ابن عمر قال : كان بلال يؤذن على المنارة ، في دار حفصة بنت عمر ، التي تلي المسجد . قال : فكان يرقى على أقتاب فيها ، وكانت خارجة من مسجد رسول الله ﷺ لم تكن فيه و ليست فيه اليوم .

وفي غير النزهة ، أنه لم يكن منار في زمانه عليه السلام ، وإنما هو من سنة الصحابة ، وكانوا في عهده يؤذنون عند باب المسجد ، لا بين يدي الإمام ، فإنما فعله هشام وذلك مكروه ، لأنه محدث ، أحدثه هشام ، كما نقل الذي كان بالزوراء إلى المسجد هـ ، ونحوه في الوفاء للسيد السمهودي ، قائلا : يظهر من سياق ما سبق له أن أول ما جعل المنار في المسجد كان في زيادة الوليد ، ثم لما ذكر ما سبق من أن بلالاً كان يؤذن على منارة في دار حفصة ، قال : الظاهر أن

الراوي تجوز في تسميته الأسطوانة منارة، على أن الرواي لذلك احترقت كتبه، فكان يروي من حفظه، فذكره، والظاهر أن عمر وعثمان لم يتخذا منارة وإلا لنقل . اهـ، وفي «البحر» من كتب الحنفية، لم تكن في زمنه عليه السلام مئذنة . اهـ .

ولما نقله الشمس بن عابدين في رد المختار قال إثره :

وفي شرح الشيخ إسماعيل عن الأوائل للسيوطي أن المآذن بنيت بأمر معاوية و لم تكن قبل . هـ منه .

(قلت) : هذا مع ما نقله الزرقاني، على المواهب، عن الشيخ خليل في التوضيح، اختلف النقل، هل كان يؤذن بين يدي النبي ﷺ أو على المنار، الذي نقله أصحابنا أنه على المنار، نقله عبد الرحمن بن القاسم في المجموعة، وفي المرقاة عن ابن القاسم عن مالك أن الأذان في زمانه عليه السلام، كان على المنارة، وفي المدخل لأبي عبد الله بن الحاج السّنة في أذان الجمعة، إذا صعد الإمام على المنبر، أن يكون المؤذن على المنار، كذلك كان في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر هـ، وفي المدخل أيضاً المنار عند السلف بناء يبنونه على سطح المسجد هـ . انتهى من الكتاب المذكور .

قال الأزرقي في تاريخه : أول من عمل المظلّة للمؤذنين، التي على سطح المسجد، يؤذن فيها المؤذنون يوم الجمعة والإمام على المنبر عبد الله بن محمد بن عمران الطلحي، وهو أمير مكة في خلافة الرشيد هارون أمير المؤمنين، وكان المؤذنون يجلسون هناك يوم الجمعة، في الشمس، في الصيف والشتاء، فلم تزل تلك المظلّة على حالها حتى عمر المسجد الحرام، في خلافة جعفر المتوكل على الله، أمير المؤمنين، في سنة أربعين ومائتين، فهدمت تلك المظلة، وعمرت وزيد فيها، فهي قائمة إلى اليوم . انتهى كلام الأزرقي رحمه الله .

ولقد أنشأ الرشيد منائر على رؤوس الجبال تشرف على فجاج مكة، ورتب لها المؤذنين، فبنى على جبل أبي قبيس أربع منائر، وعلى رأس الجبل الأحمر (قعيقعان) منارة، وعلى الجبل المشرف على شعب عامر منارة، ومنارة على كُدَى وغيرها، وبنى مولاه (بغا) منائر أخرى على غير ذلك من الجبال، وقد أهملت تلك المنائر فلم يبق لها من أثر، ثم تطور بناء المآذن تطوراً سريعاً وعجيباً، بحسب التطورات العمرانية، كما ذكرنا ذلك عند الكلام على بناء المساجد، فتنوعت

أشكالها وصورها وأحجامها وقياساتها ، وأخذ كل قطر منها طابعاً خاصًّا ، فمنها الطويلة الرشيقة ، ومنها الغليظة المريحة ، ومنها الثقيلة الراسية ، ومنها الباسقة الثابتة ، ومنها القصيرة القائمة ، ومنها ما هو طبقة واحدة ، ومنها طبقتان ومنها ثلاث طبقات ، ومنها دائرية أسطوانية الشكل ، ومنها مربعة النوع ، ومنها برأس واحد مخروطي مستدق ، ومنها برأسين متفرعين من الأعلى ، ومنها ما درجها في بطنها وهو الغالب الكثير ، ومنها ما درجها من خارجها وهو نادر وقديم العهد كمنارة جامع طولون بالقاهرة ، ومنها منارة بدرجين أي (سلمين) فيما بين دورتيها أي (طبقتيها) الأولى والثانية فلا يرى الصاعد في أحدهما الآخر وهذا من الفنون الدقيقة في العمارة الإسلامية ، وهي المنارة التي أمر ببنائها السلطان قانصوه الغوري بالجامع الأزهر ، إلى غير ذلك من الأشكال والأنواع التي لا حصر لها .

وفي الديار المصرية اليوم كثير من أنواع المآذن القديمة والحديثة ، وكل منها تحفة رائعة قائمة بذاتها ، لسنا بصدد ذكرها ، وإليك بعض المآذن المختلفة .

انظر: الصور أرقام ٢٠٤ لمئذنة جامع المتوكل ، ورقم ٢٠٥ للمؤذن وهو فوق المنارة ، ورقم ٢٠٦ لأول مسجد في العالم.

ومن أعجب المآذن والمنارات ، ما رواه ابن بطوطة ، في رحلته ، التي كانت سنة (٧٢٥) خمس وعشرين وسبعمائة هجرية ، بصحيفة ١١٦ من الجزء الأول : فإنه لما دخل البصرة وجد أهلها يصلون الجمعة بمسجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، رضي الله تعالى عنه ، وهو على ميلين من البصرة ، فإذا صلوها يقفلون المسجد ، فلا يأتونه إلا في الجمعة الأخرى ، وهذا المسجد من أحسن المساجد .

قال ابن بطوطة : ولهذا المسجد سبع صوامع ، أحدها الصومعة التي تتحرك بزعمهم عند ذكر علي ابن أبي طالب ، رضي الله عنه ، صعدت إليها من أعلى سطح المسجد ، ومعي بعض أهل البصرة ، فوجدت في ركن من أركانها ، مقبض خشب مسمراً فيها ، كأنه مقبض مملسة البناء ، فجعل الرجل الذي كان معي يده في ذلك المقبض وقال : بحق رأس أمير المؤمنين علي ، رضي الله عنه ، تحرّكي ، وهزّ المقبض ، فتحركت الصومعة ، فجعلت أنا يدي في المقبض ، وقلت له ، وأنا أقول : بحق رأس أبي بكر ، خليفة رسول الله ﷺ تحركي وهززت المقبض فتحركت الصومعة ، فعجبوا من ذلك ، وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة ولا يخاف من يفعل مثل فعلي عندهم .

ثم قال ابن بطوطة ، بعد سطرين من هذا الكلام ما يأتي : قال ابن جزى : قد عاينت بمدينة برشانة ، من وادي المنصورة من بلاد الأندلس ، حاطها الله ، صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد الخلفاء أو سواهم ، وفي صومعة المسجد الأعظم ، وبناؤها ليس بالقديم ، وهي كأحسن ما رأيت أنت من الصوامع ، من حسن منظر ، واعتدال وارتفاع لاميل فيها ولا زيغ ، صعدت إليها مرة ، ومعي جماعة من الناس ، فأخذ بعض من كان معي بجوانب جامورها وهزّوها فاهتزّت ، حتى أشرت إليهم أن يكفوا فكفوا عن هزّها . انتهى من رحلة ابن بطوطة .

ومثل الحكاية المتقدمة : أنه توجد إلى اليوم في بلدة أصفهان الشهيرة ، في بلاد إيران ، في أحد مساجدها منارتان متقابلتان يرجع بناؤهما إلى بضع مئات السنين ، تهتزّان معاً إذا هزّ شخص إحداهما بعصا ، في المكان الذي يقف فيه المؤذن ، ولا يعرف سرّ هاتين المنارتين أحد ، من أهل أصفهان أو غيرهم ، وهاتان المنارتان أعجب من المنارتين السابقتين ، لأنهما تهتزان معاً إذا اهتزت إحداهما ، فهما متعلقتان ببعضهما في الاهتزاز ، مع أن كل واحدة منهما قائمة بذاتها في البناء ، وهذا من أدق فن المعمار ، الذي لا يهتدي إلى عمل مثلهما كل فنان . فسبحان الذي علّم الإنسان ما لم يعلم .

وقد ذكر ابن جبير في رحلته ، منارة القرون ، لكنها ليست منارة مسجد يؤذن فيه بل هي كمنارة الاسكندرية ، التي بناها الاسكندر أي عبارة عن عمود واقف كما يفهم من كلامه . وهذا نصّه : ثم نزلنا ضحوة اليوم المذكور ، بمنارة تعرف بمنارة القرون ، وهي منارة في بيداء من الأرض ، لا بناء حولها ، قد قامت في الأرض كأنها عمود مخروط من الآجر ، قد تداخل منها من الخواتيم الآجرية مثمنة ومربعة أشكال بديعة ومن غريب أمرها أنها مجلّلة كلها قرون غزلان مثبتة فيها ، فتلوح كظهر الشيهم ، وللناس فيها خبر يمنع سنده من إثباته . انتهى كلامه . وهذه المنارة واقعة قبل مدينة النجف بيوم واحد .

وعطفاً على ما تقدم نذكر هنا وصف منارة مسجد إشبيلية بالأندلس ، ناقلين من كتاب «رحلة الأندلس» للأستاذ البتنوني ، وهو المسجد الذي كان بها قبل استيلاء سان فرديناند عليها في سنة (١٢٤٨) ميلادية ، ولم يبق منه الآن سوى صحنه ومنارته ، فقد جاء فيه ما نصّه :

أمر ببناء هذه المنارة السلطان المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن من الموحدين، وهو الرابع من ملوكهم، في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، وكان في أعلاها أربع تفافيح كبيرة من النحاس، غلّفت بطبقة من الذهب بلغت نفقتها وحدها أكثر من مائة ألف دينار، فأزال القوم هذه التفافيح، بعد استيلائهم على المدينة، وبنوا مكانها على الدائرة، التي يدور عليها المؤذن، أبراجاً للنواقيس، وضعوا فوقها تمثالاً ارتفاعه أبرعة أمتار وزنته ١٢٨٨ كيلو غرام، بحال يتحرك فيها مع الرياح حيث سارت، ومنها أتت تسميتها بلفظ جيرالد «لعبة الهواء».

وهذه المنارة مربعة الشكل، وكل ضلع من أضلاعها من جهة القاعدة طوله ١٣،٦٠ متراً، وبناؤها من الطوب الأحمر، وسمك حوائطها متران ونصف متر، وفيها إلى أعلى كثير من الفتحات، التي تسمح بنفاذ الهواء والنور إلى داخلها، وارتفاعها ٧٠ متراً، وهو ما بقي من عمل العرب فبها، ويصعد إلى قمة المنارة، بطريق مائل في محيطها من الداخل، يسع فارسين يسيران أحدهما بجانب الآخر، وترى من أعلاها منظراً جميلاً للمدينة. انتهى.

وبمناسبة ذكر المنائر، حكى الزمخشري، في خالد بن عبدا لله القسري، قال لما بلغ خالداً ما قاله رجل من موالي الأنصار:

ليتني في المؤذنين نهارى ... إنهم يبصرون ما في السطوح

فيشيرون أو تشير إليهم ... بالهوى كل ذات دلّ مليح

أمر خالد بهدم المنائر اهـ. والمذكور هو خالد بن عبد ا لله القسري، كان والياً على مكة، من قبل أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان.

نقول: لقد سمعنا منذ ثلاثين سنة عن بعض مشائخنا، في الجامع الأزهر الشريف، بالقاهرة، حينما كنا نطلب العلم به، أو قرأنا في بعض كتب التاريخ عن الجامع الأزهر (لا نتذكر ذلك تماماً) أنه في وقت، من الزمن الماضي، كان المؤذنون بالجامع الأزهر عمياناً، حتى لا يبصروا عورات الجيران.

فسبحان الكبير المتعال، الذي يغير الأحوال، اللّهم يا مقلب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك وجوارحنا على طاعتك بفضلك ورحمتك يا رب العالمين آمين.

والجامع الأزهر المذكور، هو أول جامع أسس بالقاهرة، أنشأه القائد جوهر الصقلي، مولى المعزّ لدين ا لله، لما اختط القاهرة، وابتدأ بناؤه لست بقين من

جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وكمل بناؤه لسبع خلون من رمضان سنة (٣٦١) إحدى وستين وثلاثمائة ، وكان به طلسم ، لا يسكنه حمام ولا يمام ولا عصفور وكذا سائر الطيور ، وهذا الجامع المبارك لا ينقطع تدريس العلم فيه على الدوام إلى اليوم ، وكم تخرج فيه من فطاحل العلماء ، ويحق لأهل مصر أن يفخروا به .

وقد سمعنا أنهم سيقيمون له عيداً ألفياً ، بمناسبة مرور ألف عام عليه ، وهو جدير به وبكل عناية واهتمام ، جعله الله عامراً بالعلم والعمل مدى السنين والأعوام آمين .

وبمناسبة الكلام على المنارات نأتي بشيء من الملح ، فنقول : إن الملك المؤيد لما بنى جامعه الشهير باسمه ، الذي عند باب زويلة ، في انتهاء شارع الغورية بالقاهرة وانتهى من عمارته سنة (٨١٩) تسع عشرة وثمانمائة مالت منارته ، التي بنيت على البرج الشمالي من باب زويلة ، بعد سنة من بنائها ، وكان الناظر على عمارة الجامع بهاء الدين بن البرجي . قال بعض الشعراء في ذلك من الأبيات البديعة المعنى ، ما يأتي :

قال نجم الدين بن النبيه في ذلك :

يقولون في تلك المنار تواضع ... وعين وأقوال وعندي جليّها
فلا البرج أخنى والحجارة لم تعب ... ولكن عروس أثقلتها حلّيها

وقال أيضاً :

بجامع مولانا المؤيد أنشئت ... عروس سمت ما خلت قط مثالها
ومذ علمت أن لا نظير لها انثنت ... وأعجبها والعجب عنها أمالها

وقال الحافظ ابن حجر :

لجامع مولانا المؤيد رونق ... منارته بالحسن تزهو وبالزين
تقول وقد مالت عن القصد أمهلوا ... فليس على جسمي أضرّ من العين

وقال العلامة العيني :

منارة كعروس الحسن إذ جليت ... وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلط ... ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

ولما بنى السلطان حسن بن الناصر بن قلاوون جامعه الشهير باسمه، والذي هو بجوار القلعة سنة (٧٥٨) ثمان وخمسين وسبعمائة وبنى به ثلاث منارات، سقطت المنارة، التي على الباب، فهلك تحتها نحو ثلاثمائة نفس من الأيتام، الذين كانوا يحفظون القرآن الكريم بمكتب السبيل. قال الشيخ بهاء السبكي في ذلك أبياتاً وهي:

أبشر فسعدك يا سلطان مصر آتي	بشيره بمقال سار كالمثل
إن المنارة لم تسقط لمنقصة	لكن لسرّ خفيّ قد تبين لي
من تحتها قرئ القرآن فاستمعت	فالوجد في الحال أداها إلى الميل
لو أنزل الله قرآناً على جبل	تصدعت رأسه من شدة الوجل
تلك الحجارة لم تنقضّ بل هبطت	من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت فرمت	بنفسها لجوى في القلب مشتعل
فالحمد لله خط العين زال بما	قد كان قدره الرحمن في الأزل
لا يعتري البؤس بعد اليوم مدرسة	شيدت بنيانها للعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها امتلأت	علماً فليس بمصر غير مشتغل

لقد بُنيَ جامع السلطان حسن المذكور لتدرس فيه سائر العلوم، مع إقامة الصلاة فيه، وهو مسجد عظيم الاتساع شاهق البنيان، يعدّ اليوم من عجائب أبنية القاهرة في إحكام بنائه وجمال هندسته ونقوشه.

قال فيه المقريزي: لا يعرف اليوم ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحاكي هذه المدرسة «يقصد الجامع المذكور»، في كبر قالبها، وحسن هندامها، وضخامة شكلها، أقامت العمارة فيها مدة ثلاث سنين، لا تبطل يوماً واحداً، وأرصد لعمارتها في كل يوم عشرون ألف درهم، حتى قال السلطان: لولا أن يقال ملك مصر عجز عن إتمام ما بناه لتركت بناءها. انتهى.

كتبنا هذه النبذة لمناسبة ذكرنا جامع السلطان حسن، ولا نريد الكلام عن مساجد مصر لأننا لسنا في صدد ذلك، وهناك كتب مؤلفة عن مساجد مصر والقاهرة أحدثها وأجملها طبعاً كتاب «تاريخ المساجد الأثرية» للأستاذ حسن عبدالوهاب، مفتش الآثار العربية، وهو يقع في جزئين مصورين تصويراً فنياً، مطبوع بمطبعة دار الكتب المصرية، وكتاب آخر أفخم وأحسن وأجمل اسمه «مجلد

المساجد» وهو مطبوع بمصلحة المساحة المصرية ، طبعاً في غاية الفخامة والضخامة والفن البديع ، يعدّ آية من آيات الطباعة ويقع في مجلدين كبيرين .

ونرجو أن يوفقنا الله تعالى بوضع كتاب خاص عن المسجدين الحرامين بمكة والمدينة فقط وأن يطبع بمثل طبع الكتاب المذكور ، بل وأحسن منه ، إن شاء الله تعالى ، ولربما ألحقنا بهما المسجد الأقصى ، ليكون الكتاب مشتملاً على المسَاجد الثلاثة ، التي لا تشد الرحال إلا إليها . وما ذلك على الله بعزيز وهو الفتاح العليم واسع الفضل والإحسان .

مبدأ عمل محاريب المساجد

المحاريب جمع محراب بكسر الميم ، قال في مختار الصحاح : المحراب صدر المجلس ومنه محراب المسجد ، والمحراب أيضاً الغرفة ، وقوله تعالى : ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ قيل من المسجد . انتهى .

وقال في القاموس : المحراب الغرفة وصدر البيت ، وأكرم مواضعه ، ومقام الإمام من المسجد ، والموضع ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس ، ومحاريب بني إسرائيل مساجدهم ، التي كانوا يجلسون فيها . انتهى منه .

والمحراب ، الذي نتكلم عنه هنا ، هو محراب المساجد ، الذي يقف فيه الإمام للصلاة ، وهو يكون دائماً بوسط جدار المسجد القبلي ، وهو عبارة عن تجويف قائم بالجدار ، طوله متران فأكثر ، وأعلاه مستدير كنصف الدائرة ، وأحياناً لا يعملونه مجوفاً ، لعدم معرفتهم ، وإنما يكتفون برسم صورته في وسط الجدار ، للدلالة على القبلة ، والحقيقة أن لمحراب المسجد فائدة عظيمة من حيث دلالته على القبلة ، ولا يوضع المحراب إلا بعد التحرّي التام عن القبلة .

والأصل في ذلك حديث الطبراني ، في الأوسط ، عن جابر بن أسامة الجهني ، قال : لقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بالسوق فقلت : أين تريد يا رسول الله ؟ قال : نريد أن نخط لقومك مسجداً ، فأتيت وقد خط لهم مسجداً ، وغرز في قبلته خشبة فأقامها قبلة اهـ . فلا يبعد أن يكون هذا الحديث الشريف أصلاً لإنشاء محاريب المساجد بياناً للقبلة ، والله تعالى أعلم .

قالوا : وأول من أحدث المحراب المجوف عمر بن عبد العزيز ، والي المدينـة ، في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وا لله تعالى أعلم بصحـة ذلـك ، وإن صـح ذلـك فمـا نظن أن عمر عمل محراباً مجوفاً ، وإنما وضـع في صـدر المسـجد أي بوسـط جـداره القبلي علامة ، للدلالة على القبلة ، أخذاً من الحديث المتقدم . وا لله تعالى أعلم .

وأول من اتخذ المحراب بمصر هو : قُرَّة بـن شـريك العبسـي ، الـذي ولاه علـى ديار مصر أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك سنة تسعين من الهجرة ، فأقام والياً بهـا إلى أن مات سنة ست وتسعين . فإن قرة بن شريك أجرى بعض إصلاحـات ، في جامع عمرو بن العاص ، الذي بمصر ، بأمر الوليد ، فبناه في سنة (٩٣) ونصب فيـه المنبر سنة (٩٤) ، وعمل فيه المحراب المجوف ، ولم يكن به محـراب قبـل ذلـك ، ثـم بعد هذا انتشر عمل المحاريب في المساجد ، أي كان انتشـارها في أول المائـة الثانيـة للهجرة .

ولم نطلع علـى ضبـط اسـم «قُـرّة بـن شـريك» والظـاهر أنـه ، بضـم القـاف وتشديد الراء المفتوحة بعدها تاء مربوطة ، وهي كلمة عربيـة ، وليسـت مـا يقرأهـا بعضهم : «قَرَة» بفتحتين ثم هاء سـاكنة ، فهـذه كلمـة تركيـة معنـاه «الأسـود» وا لله تعالى أعلم .

واعلم أنه لم يكن في مسجد رسـول ا لله ﷺ في زمنـه ، ولا في زمـن الخلفـاء الراشدين الأربعة ، محراب قط ، وإنما حدث المحراب في أول المائة الثانية ، وفيه اليوم ستة محاريب ، ذكرها صاحب «مرآة الحرمين» .

أما عندنا ، بمكة المشرّفة ، فلا يوجد بالمسجد الحرام محراب ، ولمـاذا يكـون بـه محراب والكعبة المعظمة قائمة بوسطه ، بجلال نورها ، وعظمة بهائها ، وإليها تتجـه جميع محاريب المساجد في الدنيا .

وطبعـاً لم تكـن المحـاريب ، عنـد أول حدوثهـا ، بالصفـة الـتي نراهـا اليــوم في المساجد ، وإنما تطورت أشكالها ، وكثرت أنواعهـا ، شيئاً فشيئاً ، بحسـب تطـور العمران وتقدمه ، كما ذكرنا ذلـك عنـد الكـلام علـى بنـاء المسـاجد ، فمـن جملـة المحـاريب المتنوعـة : محـراب مسـجد قصـر الحمـراء بـالأندلس ، فقـد ذكـر بعـض المؤرخين أنه كان بحائطه أحجار ياقوت مرصعة ، في جملة ما نمّق بـه مـن الذهـب والفضة ، ومحرابه من العـاج والإبنـوس ، ولقـد ألـف الإمـام السيوطي ، رحمـه ا لله تعالى ، رسالة في المحاريب تسمى «أعلام الأديب بحـدوث بدعـة المحـاريب» وهـي

رسالة خطية توجد بدار الكتب العربية المصرية ، نقلنا ما ذكرناه ملخصاً من كتاب « حسن المحاضرة » للسيوطي ، ومن كتاب « مرآة الحرمين » لإبراهيم رفعت باشا ، رحمهما الله تعالى .

نقول : أول من طيب المحراب امرأة عثمان بن مظعون فقد روى الفاسي ، في كتابه « شفاء الغرام » : أن عثمان بن مظعون تفل في المسجد ، فأصبح مكتئباً فقالت له امرأته : مالي أراك مكتئباً ؟ فقال : لا شيء ، إلا أني تفلت في القبلة ، وأنا أصلّي ، فعَمِدت إلى القبلة فغسلتها ثم خلّقتها ، فكان أول من خلّق القبلة . انتهى .

فالمراد بالقبلة المحراب ، ومعنى خلقتها طيّبتها بالخَلوق ، بفتح الخاء ، وهو نوع من الطيب ، وتطييب المسجد وتجميره مطلوب والمحراب جزء من المسجد ، فأول من خلّق المسجد النبوي عثمان بن عفان ، رضي الله تعالى عنه .

ثم لما حجت الخيزران أم موسى وهارون ، في سنة سبعين ومائة أمرت بالمسجد أن يخلّق ، فتولّت تخليقه جاريتها مؤنسة ، فخلقته جميعه حتى الحجرة الشريفة جميعها ، ذكره الفاسي « في شفاء الغرام » .

وذكر فيه أيضاً : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتي بمجمرة من فضة ، فيها تماثيل من الشام ، فكان يجمر بها المسجد ، ثم توضع بين يديه . انتهى

وصف مسجد قرطبة ومنارته ومحرابه

قال الأستاذ محمد لبيب البتنوني المصري مؤلف "الرحلة الحجازية" في كتابه "رحلة الأندلس" يصف مسجد قرطبة بالأندلس ومنارته ومحرابه ، نختصره بما يأتي :

دخلنا المسجد من باب المنارة ، وهو بابه العمومي الكبير النحاسي ، ويبلغ طوله ثمانية أمتار وارتفاعه نحو عشرين متراً ، ووجهة البناء من الرخام المنقوش بنقوش عربية عجيبة ، أشبه شيء بالمخرّم "الدنتلاّ" وفي وسطها وأعلاها كتابة عربية لم أستطع قراءتها ، ويتكون هذا الباب ، من ظاهره ، من قطع نحاسية ، طولها ١٥ سنتيمترًا في عرض نصفها تقريبًا ، وهي مثمنة الشكل ، بعضها عمودي على الآخر ، وقد رسم القوم ، في وسط القطعة القائمة ، صلباناً ، بعد استيلائهم على

المدينة ، وتحويلهم المسجد إلى كنيسة ، كما كان سابقًا قبل أن يبنيه مسجدًا عبدالرحمن الداخل .

والمنارة في الزاوية القبلية الجنوبية من المسجد ، وهي مربعة الشكل ، وطول كل ضلع منها ١٢ متراً وارتفاعها ٩٣ متراً ، وهي خمس طبقات ، في كل طبقة عدد كبير من الأجراس .

أما القبلة فهي شيء لا يصل إليه وصف الواصف ولا مبالغة الناعت ، ويحيط بها الآن «درابزين» من الحديد ، ليمنع الناس عنها ، وقد قدرتها بسبع أمتار طولاً في اثني عشر متراً ارتفاعاً ، وفي وسطها المحراب ، وكل هذه الوجهة صنعت من الفسيفساء الصغيرة جداً والدقيقة في صناعتها ، فهي من قطع رخامية من ألوان كثيرة يدخلها قطع صدفية وذهبية ، وقد صيغت بشكل ينشأ عنه صورة فنّة في بابها ، إذا نظرت إليها من جهة اليمين رأيت مناظر غير التي تراها من جهة الشمال ، وذلك بسبب انعكاس الضوء فيها ، بحال تستهوي الألباب وتسلب العقول ، بجلال هذه الصنعة العربية ، وفي دائرة القبلة والمحراب كتابات كوفية قرآنية كثيرة ، مما تراه عادة على أمثالها ، وعن يمين القبلة ويسارها بابان لغرفتين صغيرتين ، إحداهما لتعبد الإمام والثانية لوضع لوازم المنبر ، الذي لا يوجد له أثر الآن ، والمحراب واسع من داخله ، وتعلوه قطعة واحدة من الرخام المقعر تكون سقفه .

وطول المسجد من الشمال إلى الجنوب ١٧٥ متراً ، ومن الشرق إلى الغرب ١٣٤ متراً وارتفاعه يصل إلى ٢٠ متراً ، وقد كان بالمسجد ١٢٩٣ عموداً ، كلها من الرخام ، وتيجانها منقوشة بنقوش مختلفة ، وكانت قبته قائمة على ٣٦٥ عموداً ، وكان بالمسجد مصابيح من الفضة الخالصة ، بقي إلى أوائل القرن الثامن عشر (من الميلاد) منها أربعمائة مصباح أخذها الفرنسيون ، عند دخولهم قرطبة ، في زمن نابليون الأول .

هذا ، لقد ذكرنا هذه النبذة عن مسجد قرطبة ، ليكون لدى الناس فكرة حسنة عن الغرب ، فقد قال فيه بعضهم :

الغـــرب أحســـن أرض ولـــي دلـــيل علـــيه
الـــبدر يـــرقب مـــنه والشـــمس تســـعى إليـــه

أما المساجد الشرقية العجمية فكثير منّا رآهـا رأي العين ، على أننا لـو أردنـا الكتابة عن المساجد المهمة العظيمة في البلاد الإسلامية لاقتضى أن نطوف بها مـدة من الزمن ثم نكتب عنها مجلدات .

عدد منارات المسجد الحرام سابقاً

لم تكن المنارات في المساجد معروفة في صدر الإسلام ، لبساطة بنـاء المسـاجد والمنازل ، وكون سقوفها من الخشب أو جريد النخل ، شأنها شأن المنابر ، حيث كانوا يخطبون على الأرض قياماً ، فكانوا يؤذنون للصلاة فـوق سطح المسـاجد أو على أبوابها ، وقد أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن بالظهر ، فوق ظهر الكعبة ، يوم فتح مكة ، وقريش فوق رؤوس الجبال . فـإن المسـجد كـان يومئذٍ على قـدر المطاف ، وليس له جدار يحيط به ، وليس فيه منارة أو منبر ، ثم بمرور الزمن تطـور الناس فاخترعوا المنارات الباسقات والمنابر الرشيقات ، بل صـاروا الآن يطـيرون في الهواء ويجرون على الماء ، ويريدون الوصول إلى كواكـب السـماء ، واخـترعوا مـن الأمور ما لم يخطر في عقول الأمم السابقة .

والمنارات والمنابر تختلف أشكالها وصورهـا في جميـع بـلاد الإسـلام ، وبتطـور الناس وتقدمهم في الصناعات تأخذ صورها في الإتقان وجمال الشكل وقوة البنـاء ، كما هو ظاهر في عصرنا الحاضر ، وكانت المنارات في قديـم الزمـان بسـيطة البنـاء تمتاز فقط بعلوها وارتفاعها عن المساجد ليسمع الناس صوت المؤذن .

ولنتكلم هنا أولاً عـن المنـارات الـتي كـانت في المسـجد الحرام ، زمـن الإمـام الأزرقي ، الذي كان في أوائل القرن الثـالث الهجـري ، ثـم لنتكلـم عـن مناراتـه في عصرنا الحاضر قبل التوسعة السعودية ، فنقول وبالله التوفيق ومنه المعونة والسداد :

قال الأزرقي في تاريخه : وفي المسجد الحرام أربع منارات ، يؤذن فيها مؤذنـوا المسجد ، وهي في زوايا المسجد على سطحه يرتقى إليها بدرج ، وعلى كل منـارة باب يغلق عليها شارع في المسجد الحرام ، وعلى رؤوس المنارات شراف.

١) فأولها المنارة ، التي تلي باب بني سهم ، تشرف على دار عمرو بـن العـاص وفيها يؤذن صاحب الوقت بمكة .

٢) والمنارة الثانية تلي أجياد ، تشرف على الحزورة وسـوق الخيـاطين ، وفيهـا يسحر المؤذن في شهر رمضان .

٣) والمنارة الثالثة تشرف على دار بن عباد ودار السفيانيين على سوق الليل ، ويقال لها منارة المكيين .

٤) والمنارة الرابعة ، بين المشرق والشام ، وهي مطلة على دار الإمارة ، وعلى الحذائين والردم ، وفيها يتعبّد أبو الحجاج الخراساني ، ويكون فيها بالليل والنهار ويصلي الصلوات فيها ، ولا ينحدر منها إلا من جمعة إلى جمعة ، وكان رجلاً صالحاً فيما ذكروا . انتهى من الأزرقي .

هذه المنارات الأربعة هي التي كانت ، بالمسجد الحرام ، في عصر الإمام الأزرقي . والمسجد الحرام في وقته متسع ، كما هو في وقتنا هذا للزيادة العظيمة ، التي زادها فيه أمير المؤمنين محمد المهدي ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة وزاد في درجاته آمين .

أما في عصرنا الحاضر ، قبل التوسعة السعودية ، فإن للمسجد الحرام سبع منارات ، وهي كما يأتي :

(١) منارة باب العمرة ، أنشأها أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور ، ثاني خلفاء بني العباس ، حينما زاد في المسجد الحرام من الجانبين الشامي والغربي ، وفرغ منه سنة (١٤٠) أربعين ومائة . ثم سقطت سنة (٥٥١) فعمّرها وزير صاحب الموصل محمد الجواد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني ، ثم صارت عتيقة فجددها السلطان سليمان خان ، بعد هدمها ، وذلك سنة (٩٣١) ثم جددها الشريف سرور في سنة (١٢٠١) كما هو مكتوب على باب خلوتها ، وهي العمارة الرابعة لها ، ولا تزال على هذا البناء إلى اليوم .

(٢) منارة باب السلام ، أنشأها أمير المؤمنين محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور ، ثم هدمت سنة (٨١٦) ، في زمن الناصر فرج بن برقوق الجركسي ، ثم عمرت ، ثم جددها السلطان مراد خان الثالث العثماني ، وذلك سنة (٩٨٣) ، وهي العمارة الثالثة لها ، ثم هدمت في عصرنا الحاضر في شهر رجب سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف ، وذلك في توسعة المسجد الحرام .

(٣) منارة باب علي ، أنشأها أيضاً أمير المؤمنين محمد المهدي ، ثم آلت إلى الخراب ، في عصر السلطان سليمان خان بن سليم خان ، فجدد بناؤها بالحجر الأصفر الشميسي ، وكان ذلك في حدود سنة (٩٧٠) ، وهذه هي المرة الثانية لها ، وكانت لا تزال باقية سليمة إلى اليوم ، لكنها هدمت في منتصف

شهر رجب سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف ، في توسعة المسجد الحرام التي حصلت في عصرنا الحاضر .

(٤) منارة باب الوداع ، وقديماً يسمى هذا الباب بباب الحزورة ، أنشأها أيضاً أمير المؤمنين محمد المهدي ، ثم سقطت في زمن الملك الأشرف شعبان بن سلطان حسين سلطان مصر وذلك سنة (٧٧١) ، وسلم الله الناس من سقوطها ، فأمر الملك الأشرف شعبان بتعميرها ، ففرغوا من بنائها في آخر السنة المذكورة . وهذه هي المرة الثانية لها ، ولا تزال باقية سليمة إلى اليوم .

ولم ينشئ محمد المهدي غير هذه الثلاث منارات فقط ، بالمسجد الحرام ، والظاهر أنه رحمه الله تعالى أنشأ هذه المنارات في العمارة الثانية ، التي تمت سنة سبع وستين ومائة ، وكان أمر بهذه العمارة في حجته الثانية سنة (١٦٤) .

(٥) منارة قايتباي ، وهي بين باب النبي وباب السلام ، أنشأها الملك الأشرف السلطان قايتباي ، ملك مصر ، خلف مدرسته ، التي بناها ، وذلك في حدود سنة (٨٨٠) ، وكانت باقية حتى أزيلت في عصرنا الحالي في شهر رجب سنة (١٣٧٥) ، وذلك في توسعة المسجد الحرام .

(٦) منارة باب الزيارة ، أنشأها المعتضد العباسي ، فإنه لما زاد في توسعة المسجد الحرام ، بإدخال دار الندوة إليه ، أمر أن يعمر بأساطين وطاقات وأروقة مسقفة بالساج المزخرف ، وأن تبنى عند هذه الزيادة منارة وذلك في حدود سنة (٢٨٤) أربع وثمانين ومائتين ، ثم سقطت هذه المنارة وبناها الملك الأشرف برسباي ملك مصر سنة (٨٣٨) كما هو مكتوب في لوح من الحجر بجانب المئذنة ، بواسطة الأمير سودون المحمدي ، ثم عمرت حين وقع دورها سنة (١١١٣) ، فهذه هي المرة الثالثة لها ، ولا تزال باقية إلى اليوم ، وتسمى هذه المنارة منارة باب سويقة .

(٧) منارة السلطان سليمان بن سليم خان ، أنشأها السلطان المذكور فنسبت إليه ، وهي واقعة بين مدارسه الأربعة ، من الجانب الشمالي ، أمام مدخل باب المحكمة الكبرى ، الموصل إلى المسجد ، قرب باب الزيادة ، بواسطة قاسم أمين العمارة السلطانية وذلك سنة (٩٧٣) .

والسلطان سليمان المذكور هو الذي أهدى للمسجد الحرام المنبر الرخام الذي يخطب عليه إلى اليوم . جزاه الله خير الجزاء .

إلى هنا انتهينا من ذكر منارات المسجد الحرام السبعة ، فلنذكر المنارات التي كانت بمكة المشرّفة في غير المسجد الشريف ، فنقول وبا لله التوفيق :

جاء في التاريخ أنه كان للمسجد الحرام منائر أخرى ، خلاف ما ذكرناه :

منها : منارة على باب إبراهيم ، تشبه الصومعة ، فهدمها بعض أمراء مكة . ذكرها الفاسي .

ومنها: منارة على باب الصفا ، وهي أصغرها ، وكانت علماً لباب الصفا ولا يصعد عليها لضيقها . ذكرها ابن جبير .

ومنها : منارة على الميل الذي يهرول عنده من يسعى بين الصفا والمروة . ذكرها الفاكهي . قالوا : وهذه المنائر الثلاث كانت على المسجد الحرام وهدمت ولا يعلم من بناها ولا من هدمها . انتهى .

ورأينا في هذه الثلاث المنائر أنها بنيت لا على أن تكون منائر للأذان ، وإنما بنيت لتكون علامات على بعض الأمور ، كما هو ظاهر من سياق الكلام ، وحيث أنها لم تكن مآذن بالمعنى المعروف لم يهتم أحد من ولاة المسلمين ، بعد هدمها بالتعمير ، كما لم يهتم أحد بمعرفة من أنشأها ولا متى هدمت . فلذلك نرى من الغلط قولهم : «أنه كان للمسجد الحرام منائر أخرى» والأولى أن يقال : أنه كان حول المسجد من الخارج أعلام تشبه المنائر الصغيرة وضعت لتدل على كذا وكذا ، ثم هدمت .

أما المنارات ، التي كانت بمكة المشرفة ، غير ما في المسجد الحرام ، فهي كما يلي :

كان عدد المنارات في فجاج مكة وشعابها ورؤوس جبالها نحو خمسين منارة ، وكان يؤذن على كل منارة منها ، وكان للمؤذنين أرزاق تجري عليهم ، وجامكية -أي رواتب- تصل إليهم من مصر ، مع ما يصل لمؤذني المسجد الحرام وأرباب الوظائف به . قال الفاسي : ولم يبق شيء من هذه المنائر .

نقل الفاسي عن الفاكهي ، أنه قال : وكان أهل مكة ، فيما مضى من الزمان ، لا يؤذنون على رؤوس الجبال . وإنما كان الأذان في المسجد الحرام وحده ، فكان الناس تفوتهم الصلاة ، ممن كان منهم في فجاج مكة ونائياً عن المسجد ، حتى كان في زمن أمير المؤمنين هارون الرشيد بن محمد المهدي ، فقدم عبد الله بن

مالك ، أو غيره من نظرائه مكة ففاتته الصلاة ، ولم يسمع الأذان ، فأمر أن يتخذ على رؤوس الجبال منارات ، لتشرف على فجاج مكة وشعابها ، يؤذن فيها للصلاة ، وأجرى على المؤذنين في ذلك أرزاقاً . ولعبد الله بن مالك الخزاعي منائر ، منها على جبل أبي قبيس أربع منائر ، وعلى رأس الأحمر المقابل منارة ، وعلى الجبل المشرف على شعب عامر منارة ، ومن ذلك منارة تشرف على المجزرة ، ومنارة على جبل التفاحة ، ومنارة على جبل خليفة بن عمر البكري ومنارة على كُدَى ، بضم الكاف ، تشرف على وادي مكة . فهذه المنائر كلها تنسب إلى عبد الله بن مالك الخزاعي من خدام أمير المؤمنين هارون الرشيد .

وأما (بَغَا) الذي يكنى بأبي موسى ، مولى أمير المؤمنين هارون فقد أمر بعمارة عدة منائر أيضاً ، من ذلك منارة على رأس الفلق ، ومنارة على الأحمر أيضاً ، ومنارة على جبل خليفة بجانب منارة عبد الله الخزاعي ، ومنارة على جبل المقبرة ، ومنارة على جبل الحزورة ، ومنارتان على جبل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، ولعله المسمى بالنوبي ، ومنارة على جبل الأنصاب الذي يلي أجياد ، ومنارة على ثنية أم الحارث ، المشرفة على الحصحاص ، ومنارة على الجبل المشرف على الخرمانية ، ومنارة مشرفة على الخضير أو بئر ميمون ، ومنارة بمنى عند مسجد الكبش ، فهذه كلها (لبغا) المذكور .

ثم قال الفاكهي : وكان لهذه المنائر ، فيما مضى ، أناس يؤذنون للصلاة ، تجري عليهم الأرزاق ، في كل شهر ، ثم قطع ذلك لتغير الأحوال وتطاول الأزمان ، فترك ذلك بعضهم ، وبقي منها منارات يؤذن عليها يجري على من يؤذن فيها عبدالعزيز بن عبد الله السهمي اليوم . انتهى .

قال الفاسي عقب ما تقدم ذكره : وقد ترك الأذان على جميع هذه المنارات في عصرنا ، إلاّ أن في شهر رمضان يسحّر جماعة من الناس على جبال مكة ، في كل جبل إنسان ، ويؤذن كل منهم في الجبل الذي يسحّر عليه ، وهي : جبل أبي قبيس والجبل الذي على القرارة المعروف بلعلع ، وفي جبل الأحمر ، ويقال له جبل الحارث نسبة إلى مؤذن كان يسحّر فيه ويؤذن ، وللمؤذنين على هذه الجبال جامكية « رواتب » يسيرة تصل من مصر مع ما يصل لمؤذني المسجد الحرام وأرباب الوظائف فيه . اهـ .

نقول: هذا ما كان من المنارات سابقًا، ولا أثر لوجود شيء منها الآن، ولقد ذكرنا عند الكلام على تأسيس أمانة العاصمة معرفة أهل العصور الأولى لأمور البناء وإصلاح الطرقات فراجعه إن شئت.

ابتداء ظهور المحمل

المحمل هو نوع من الهوادج، التي تحمل على الجمال، لكن المحمل اتخذ رمزًا وشعارًا لبعض أجناس الحجاج، كالمحمل المصري والمحمل الشامي والمحمل العراقي والمحمل اليمني ويكون للمحمل موكب خاص ورجال خاص، حين سفره من بلاده إلى الأرض الحجازية للحج والزيارة، ولا يسافر المحمل إلا إلى الأراضي الحجازية فقط، في موسم الحج، ولا يركب في المحمل أحد مطلقًا. أما الهودج ونحن كنا نسميه في عرفنا بالحجاز الشُقدف، بضم الشين المعجمة وسكون القاف وضم الدال المهملة، فإنه يركبه الناس ويوضع الشقدف فوق ظهر الجمل ويكون له موضعان في كل موضع يركب شخص واحد، ويسافر الناس في الشقدف على الجمال في كل وقت حيثما أرادوا، فالشقدف نوع خاص من الهوادج كما أن المحمل أيضًا نوع خاص منها. ويمتاز المحمل أنهم يلبسونه، حين سفره، بكسوة من الحرير الثمين المشغول بأسلاك الذهب والفضة المسماة بالقصب، ومكتوب عليه آيات قرآنية. والمزخرف بنقوش جميلة بديعة، والمزين بعقود لؤلؤية. وهناك أنواع أخرى للهوادج يختلف باختلاف أجناس العرب وعاداتهم.

انظر: صورة رقم ٢٠٧، المحمل المصري

انظر: صورة رقم ٢٠٨، للمحمل المصري والمحمل الشامي

قال الشيخ محمد لبيب البتنوني المصري في كتابه «الرحلة الحجازية» ما نصّه: ذهب بعض المؤرخين إلى أن المحمل يبتدئ تاريخه من سنة (٦٤٥) ستمائة وخمس وأربعين هجرية، وقالوا: إنه هو الهودج الذي ركبت فيه شجرة الدر ملكة مصر، في حجها في هذه السنة، وصار بعدها يسير سنويًا أمام قافلة الحاج، وليس فيه من أحد لأن مكان الملوك لا يجلس فيه غيرهم.

والذي نراه أن المحمل قديم جدًا ربّما كان من قبل الإسلام، وكان يطلق على الجمل الذي يحمل الهدايا إلى الكعبة المعظمة، وقد سيّر رسول الله ﷺ محملاً إلى مكة بهداياه إلى البيت المعظم، ومن ذلك ما نراه في التواريخ من اسم المحمل

العراقي والمحمل اليمني ، وما نشاهده الآن من محمل ابن الرشيد وكانوا يسمونه سبهان . ومحمل ابن سعود ومحمل ابن دينار وهذا يتوجه إلى الخرطوم ومنها بالسكة الحديدية إلى بور سودان ومنها يبحر إلى جدة . وكل ذلك ليس إلاّ جمالاً تحمل صرتهم إلى الحرمين ، مغطاة بقطعة بسيطة من الجوخ ، وكذلك محمل النظام ملك حيدر أباد بالهند ، يأتي مكة ، مع الحاجين من بلاده ، حاملاً هداياه إلى أهل الحرمين الشريفين . ولقد جاء في الكلام على «دارفور» في تاريخ السودان لنعوم بك شقير ، تحت عنوان : صرة الحرمين ، ما نصّه : «وكانت سلطنة الغور مستقلة عن دول الأرض كلها لا تدفع جزية لأحد ، ما عدا الحرمين الشريفين ، فإنها كانت تخرجهما بمحمل وصرة كل سنة ، فكان موكب المحمل يأتي إلى مصر ، ومعه الريش والصمغ وغيرهما من خيرات البلاد ، فيبيعها ويتم بثمنها نقود الصرة ، ثم يستطرد الحج إلى الحرمين مع الركب المصري» . وعليه فمحمل شجرة الدر إنما كان يسير أمامها ، حاملاً الهدايا ، التي أخذتها معها للبيت المكرم ، في هودج مزين بأبهى زينة . وغاية ما هناك أنها عنيت به ورتبت له كثيرًا من الخدم والحشم ، ومن ثم صار عادة تقوم بها ملوك مصر كل سنة ، وما زالوا يبالغون في زينته من سنة لأخرى حتى صارت كسوته بحيث لا يستطيع الجمل حمل غيرها معها ، (وكسوة المحمل الحالية مع هيكله الخشبي لا تقل عن ١٤ قنطارًا) وصار ما كان يحمل عليه من الهدايا ، يحمل في صناديق على جمال أخرى ، تسير مع الحملة . ويعمل للمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير من أيام الدولة الأيوبية . وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالقاهرة ، تمشي فيه الجنود الراكبة والبيادة وحرس المحمل وركبه وخدمته من ضوية وعكامة ، يتقدمهم أمير الحج ، الذي يعينه الجناب العالي الخديوي سنويًا ، وهو من الباشوات العسكريين في الغالب ، وبعد أن يدور المحمل دورته المعتادة في ميدان القلعة يمر على المصطبة ، وهي المكان المعد لجلوس الجناب العالي الخديوي ، يوم هذا الاحتفال ، ومعه رجال حكومته السنية من الوزراء الفخام والعلماء الأعلام وكبار ذوات العاصمة ، وهنالك يأتي حضرة مأمور الكسوة الشريفة وبيده زمام جمل المحمل فيستلمه الجناب العالي منه ويسلمه إلى أمير الحاج ، وعندها تضرب المدافع ، ويسير الموكب ، تتقدمه أشاير السادة الصوفية ، ثم الجنود ثم جمل المحمل يتقدمه أمير الحاج ، ويتلوه المحاملي والجمالة ثم الفرايحية (الطبالون) على جمالهم ، ويستمر هذا الموكب سائرًا إلى المحجر ، فالدرب الأحمر ، ويمر من بوابة المؤيد فالغورية فالنحاسين فباب النصر فالعباسية ، وهنالك

يتفرق الموكب وينزل ركب المحمل إلى خيامهم التي ضربت لهم في فضاء العباسية، وينصب المحمل في وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به، حتى إذا كان يوم السفر إلى السويس نقلوه مع أدواتهم وذخائرهم إلى وابور المحمل. الذي يكون مهيأ في محطة العباسية، وبعد الشحنة يسير إلى السويس ومنها يبحر إلى جدة، ثم يقصد مكة برًا. وفي سنة (١٣٢٨)، سافر المحمل مع قوته على الإسكندرية وعمل له فيها احتفال عظيم يوم (١٠) نوفمبر سنة (١٩١٠) حضره الجانب العالي الخديوي ومنها أبحر إلى يافا وركب الوابور إلى المدينة المنورة، وبعد الزيارة، سافر إلى مكة، من الطريق الفرعي، وبعد أداء فريضة الحج عاد إلى جدة، ومنها إلى الطور، ثم إلى السويس، ثم إلى القاهرة. والحكومة الآن تهتم في تقرير قاعدة لسيره في الطريق الأقل كلفة ومشقة. وللمحمل المصري كسوتان، كسوته اليومية وهي من القماش الأخضر، وكسوته المزركشة ولا يلبسها إلا في المواكب الرسمية. وفي أيام وجوده بمكة يوضع فيما بين باب النبي وباب السلام بكسوته اليومية، فيكون هناك مزارًا للناس على اختلاف أجناسهم، ولا ينقلونه من هذا المكان إلا في مواكبه الرسمية، وعند السفر به إلى المدينة المنورة يسير إليها ركبه، إما بالبر من الطريق السلطاني أو الفرعي، أو الشرقي، وإما من طريق البحر من جدة إلى ينبع، ومنها برًا إلى المدينة أو إلى الوجه، ومنه إلى محطة العلا، ثم يتوجه في السكة الحديدية إلى المدينة. والمحمل الآن يسير في هذا الطريق الأخير لتعنت أعراب الطريق البري من مكة وينبع، وتشددهم في طلباتهم وزيادة مرتباتهم. وعند وصول المحمل إلى المدينة المنورة يدخلها باحتفال كبير من باب العنبرية، وهنالك يطلق له واحد وعشرون مدفعًا، حتى إذا وصل إلى الباب المصري ترجل كل من في موكبه، إجلالاً لمقام الرسول، صلوات الله عليه، فإذا وصلوا إلى باب السلام أتى شيخ الحرم واستلم زمام الجمل وأصعده على سلم الباب وأناخه على تلك الصدفة الواسعة، وهنالك يرفع المحمل ويوضع في مكانه من الحرم، غربي المنبر الشريف، وترفع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء، ويلبس أمير الحاج، ومن معه من المستخدمين، لباس الخدمة في الحجرة الشريفة (وهو عمامة وفرجية بيضاء مشدود عليها حزام أبيض)، ثم يحملون كسوة المحمل، بكل احترام، ويدخلونها في الحجرة الشريفة من الباب الشامي، ويتركونها في جانب من ساحة مقام السيدة فاطمة، رضي الله عنها. ولا تزال بالحجرة الشريفة حتى يخرجونها يوم سفر المحمل من المدينة المنورة، ويوكبون بها في يوم خروجه من

المدينة كما كانت الحال في يوم دخوله . وعند عودة المحمل إلى مصر يحتفل بقدومه رسميًا احتفال كبير يحضره الجناب العالي الخديوي أو من ينيبه عنه . فيسير الموكب من العباسية إلى القلعة من الطريق ، التي كان خرج منها ، حتى إذا وصل إلى مكان الجناب العالي الخديوي في المصطبة استلم سموه زمام الجمل من أمير الحاج وسلّمه إلى حضرة مأمور تشغيل الكسوة ، وعندها تطلق المدافع ويتم الاحتفال . وتحفظ كسوة المحمل بمخزن في المالية ، وهذه الكسوة تجدّد كل عشرين سنة مرةً ، وتبلغ تكاليفها نحو ألف وخمسمائة جنيه مصري . أمّا كسوته الخضراء فيكسى بها سنويًا ، بعد عودته ، ضريح سيدي يونس السعدي (بجبانة باب النصر) وأظن أنه كانت له مدّة حياته خدمة في سفرية المحمل . وإليك كشفًا ببيان ما يصرف من المالية سنويًا في تسفير المحمل ، والمرتبات الجاري صرفها في مكة والمدينة المنورة ، حسب الوارد في الميزانية الأخيرة .

ثم ذكر الشيخ البتنوني ، رحمه الله تعالى ، في رحلته المذكورة ، جميع المصاريف التي كانت تصرف من المحمل لأهل الحرمين الشريفين ، ثم ذكر بعد ذلك بيانًا مفصلاً عن المحمل ، ونحن لم ننقله هنا لطوله ، ثم لعدم ورود المحامل إلى الحجاز من (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاثة وأربعين هجرية ، أي من حين تولّي الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، رحمه الله تعالى عليهما . فمن أراد الوقوف على ذلك فليراجع الكتاب المذكور أو غيره .

وربما يأتي ذكر المصاريف للمحمل في آخر هذا المبحث .

واعلم بأن ما ذكره البتنوني ، رحمه الله تعالى ، في أوائل هذا المبحث ، بأن رسول الله ﷺ سيرّ محملاً بهداياه إلى البيت المعظم ، مراده بالمحمل هنا أنه ﷺ أرسل رسولاً يحمل هداياه إلى البيت المعظم ، وليس المراد من المحمل المذكور هذا المحمل المتعارف عندنا الذي هو الهودج المخصوص .

قال الغازي : وفي درر الفرائد المنظمة ، وفي سنة (٧٢٠) عشرين وسبعمائة وقف بعرفة عالم عظيم من جميع البلاد ، وكان مع العراقيين محمل عليه حلي من الجواهر واللؤلؤ والذهب ما قوّم بمائتي ألف وخمسين ألف دينار من الذهب المصري . ذكره الحافظ علم الدين البرزالي . اهـ .

وأول من اتخذ المحمل « شجرة الدر » حيث حجّت من مصر عن طريق عيذاب والقصير من صعيد مصر ، في ركب كبير من الحجاج ، ثم صار المحمل

فيما بعد شعارًا اتخذه بعض الممالك الإسلامية ، كمصر والعراق والشام واليمن والروم ، وكان كل جهة ، من هذه الجهات ، ترسل مع المحمل الهدايا والصدقات وريع الأوقاف الخاصة بالحرمين الشريفين ، كما تكون مع المحمل المصري كسوة الكعبة المعظمة في كل عام ، وتكون أيضًا أحيانًا مع المحمل الرومي الآتي من البلاد التركية .

وقد انقطع ورود المحمل الرومي واليمني والعراقي إلى مكة من زمن بعيد ، أما المحمل الشامي فقد انقطع منذ سنة (١٣٣٠) ألف وثلاثمائة وثلاثين من الهجرة ، وأما المحمل المصري فلم ينقطع إلا في سنة (١٣٤٤) ألف وثلاثمائة وأربع وأربعين من الهجرة ، أي عندما تولّى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، رحمه الله تعالى ، على الحجاز ، لأنه رأى أن سير المحامل ، إلى مكة المشرّفة ، بدعة يترتب عليها أمور لا يقرها الشرع الحنيف ، فإن العوام والجهلة يتمسحون بالمحمل ، ويتبركون به ، ويقبلونه وينظر إليه بعين الإجلال والاحترام ، وهذا أمر ليس من الدين مطلقًا ، وإنما جرت بذلك العادة من قديم الزمان . فعمل بحكمته السديدة ، رحمه الله تعالى ، على إبطال حضور المحمل إلى مكة وقت الحج ، واتفق مع الحكومة المصرية على أن ترسل ، ما يخص الحرمين الشريفين ، من الأوقاف وكسوة في كل عام ، مع أمير الحج ، بدون أن يصحبه المحمل ، فكان الأمر كذلك إلى يومنا هذا . فلله الحمد على هذا التوفيق .

وإليك تفصيل هذه المحامل ، التي لم يبق لها ذكر إلاّ في كتب التاريخ ، ننقله من تاريخ الغازي .

قال الغازي في تاريخه عن المحامل ما نصّه : ذكر المحامل وتاريخها . المحمل أعواد من خشب ، على شكل الهودج ، شكله مربع ذو سقف يأخذ في الارتفاع من الجوانب إلى الوسط ، الذي فيه قائم ينتهي بهلال ، وفي العادة يسدل على ذلك الهيكل الخشبي كسوة قد تكون من الحرير ، وقد تكون من غيره ، ويوضع أثناء السفر على ظهر جمل .

وقد جاء في كتاب الكنز المدفون للسيوطي ، أن أول من أحدث المحامل في طريق مكة ، شرّفها الله الحجاج بن يوسف الثقفي .

وذكر صاحب درر الفرائد ، أن المحامل التي اعتادت أن ترد من الأقاليم إلى الحجاز أربعة : العراقي والمصري والشامي واليمني ، وهناك محمل خامس وهو

الرومي كما يأتي ذكره . وحج في بعض السنين الحلبيون بمحمل . وحج آخرون بمحامل في سنين مختلفة .

المحمل العراقي

كان المحمل العراقي أجل المحامل في وقته ، لأن الخلافة الإسلامية كانت في مدينة بغداد ، عاصمة العراق ، وكان معول أقاليم الإسلام على ما يصدر منها ويرد إليها ، والولايات والأمور الدينية والدنيوية إنما تنشأ منها ويخبر بها عنها .

ولقد اعتنى أبو سعيد بن خدابنده ، بأمر حاج العراقي ، عناية تامة ، وغشى المحمل بالحرير ورصعه بالذهب واللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر الأخرى ، حتى بلغت قيمة الحلية ٢٥٠٠٠٠ دينار من الذهب المصري أو ١٢٥٠٠٠ جنيه ، وجعل للمحمل خزاً يسبل عليه إذا وضع .

ولما تقلص ظل الخلافة عن العراق ، وآل أمره إلى الملوك والمتغلبين من الأمراء والأعيان ، ضعف شأن المحمل العراقي ، فكان يستهتر بركبه العربان ، وكثيرًا ما اعتدوا عليه ، ففي سنة (٦٣١) إحدى وثلاثين وستمائة رجع الحج العراقي ، إذ طمّ عرب الأجاودة الآبار ، واختلف الحجاج من العربان حتى ضاق الوقت ، فرجعوا من حيث أتوا . وفي سنة (٦٣٣) و (٦٣٤) و (٦٣٥) و (٦٣٦) و (٦٣٩) لم يحج العراقيون لدخول التتر بغداد ، ثم صار المحمل العراقي يجيء مرة وينقطع أخرى إلى القرن التاسع الهجري .

المحمل اليمني

قال العصامي في تاريخه: وفي سنة تسعمائة وثلاث وستين كان ابتداء حدوث المحمل اليماني ، والمحدث له الوزير مصطفى النشار ، المتولي على اليمن ، من جهة السلطان سليمان خان ، فجعله كالمحملين ومعه خلعة من جانب السلطنة ، فبرز مولانا الشريف أبو نميّ علاقات الخلعة إلى بركة الماجن ، ثم وصل هو والأمير والمحمل إلى أن حاذى الشريف داره فدخلها ، وتوجه الأمير ونزل عند سفح الجبل ، الذي على يمين الداخل إلى مكة من ثنية الحجون ، ولم يزل كذلك إلى أن بطلت الخلعة والمحمل من سنة تسع وأربعين وألف ، وذلك بسبب وقوع الفتن القوية واشتغال الدولة العثمانية بقتال أعداء الله وإعلاء كلمته العلية . انتهى .

المحمل الرومي

قال في خلاصة الكلام : وفي سنة (٩٢٣) ثلاث وعشرين وتسعمائة ، أرسل الأمير مصلح بيك بمحمل رومي وكسوة للكعبة وصدقات ، ولما أن قدم الأمير مصلح بيك بالمحمل الرومي ، والأمير العلائي بالمحمل المصري ، خرج الشريف للقائهما هو وابنه في عرضة من قومه ، فالتقوا في الزاهر ، ولبسا الخلعة وسارا مع الأمراء ، والمحمل خلفهما إلى أن أوصلاهما إلى باب السلام ، فأدخل المحملان الحرم وجعل أحدهما على يمين مدرسة الأشرف قايتباي ، والآخر على يسارها ، وفرقت الصدقة الرومية على الفقراء والمجاورين من أهل مكة ، وقرر فيها لصاحب مكة خمسمائة دينار ثم فرقت الذخيرة ، وهي صدقة كانت تخرج من خزينة مصر ، تخرجها الجراكسة ، فأبقاها السلطان سليم تفرق على العربان ، أصحاب الإدراك وفقراء أهل مكة ، ثم فرقت صدقات الأوقاف المصرية ، ويسمى الصر الحكمي ، ولم يحج في تلك السنة المحمل الشامي . انتهى .

المحمل الشامي

لم يعلم تاريخ حدوثه ، وجاء في درر الفرائد ما يدل على أن سفره إلى الحجاز قبل سفر المحمل الرومي إليه ، إذ في الدرر أنه في سنة (٩١٩) تسع عشرة وتسعمائة ، تسابق المحمل الشامي والمصري فسبق الشامي ، فشق ذلك على المصريين فعقروا جمل المحمل الشامي ، فجاء الأمير الأول للمحمل المصري وقدم جملاً حمل عليه الشامي ، الذي قال أميره : « أنا ما بقيت أرجع بالمحمل خلوهم يرجعوا به » ، وقد أصلح بين الركبين في منى الشريف بركات .

وما زال المحمل الشامي يرد إلى مكة والمدينة صحبة أميره والحجاج والجنود الشاهانية والموسيقى السلطانية والذخيرة الكافية ، إلى أن قامت الحرب الكبرى في سنة (١٣٣٣) ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية ، الموافق سنة (١٩١٤) أربع عشرة وتسعمائة وألف ، فإن الأتراك شغلوا عن إرساله منذ دخلوا في الحرب بجانب دول الاتفاق ، كذا في « مرآة الحرمين » .

وذكر الشيخ الشيبي ، في كتاب « الإتمام على أعلام الأنام » ما نصّه : وأما المحمل الشامي فإنه يجيء بمرتباته من الآستانة العلية ، ومن الشام معه الصرة

الهمايونية والشمع الكبار والصغار ، التي تسرج داخل الكعبة وخارجها ، وفي مقامات المسجد الحرام والمآثر الشريفة ، وكذا طيب الكعبة المعظّمة وبخورها ، كعطر الورد وماء الورد والعنبر والند ، وكذا الحبال التي تلزم لربط أستار الكعبة ، وتسلم لشيخ السدنة ، من طرف أمين الصرة الهمايونية بالحرم الشريف المكي . انتهى .

المحمل المصري

قالوا إن المحمل المصري يرجع تاريخ إرساله للحجاز إلى عهد «شجرة الدر» سنة (٦٤٨) ثمان وأربعين وستمائة ، وأنه كان هودجًا لها حين حجّت ، وقد زينته بخمائل الحرير والتطريز البديع ، من فوقه الأحجار الكريمة ، وكانت تحمل معها هدايا للكعبة والحجرة الشريفة ، ثم تتابع إرساله تلك الهدايا إلى يومنا هذا .

والمحمل المصري من قديم الزمان تصحبه كسوة الكعبة ، وما يلزم الحرمين ، والصدقات ، التي توزع على فقرائها ، لذلك كان في مقدمة المحامل ، وكان أميره مقدمًا في الرتبة والمنزلة ، وأول سنة نقل فيها المحمل إلى السويس سنة (٩٥١) إحدى وخمسين وتسعمائة ، وكان يقام للمحمل حفلتان بالقاهرة ، كل سنة يدور فيهما في شوارعها ، التي تكون قد زينت له ، واكترى فيها الناس البيوت والحوانيت والسطوح ليشاهدوا المحمل وحفلته ، فالمرة الأولى في رجب ، والثانية في نصف شوال ، وبدأ ذلك من سنة (٧٠٠) سبعمائة .

وفي سنة (٨٤٨) ثمان وأربعين وثمانمائة ، أبطل السلطان الظاهر جقمق دوران المحمل ، فشق ذلك على الناس ، ثم رسم الأشرف أينال بدورانه في شهر رجب سنة (٨٥٨) ثمان وخمسين وثمانمائة ، ولعب الرماحة بين يدي السلطان ، على عادة من تقدمه من الملوك في السنين الخالية . وكان ذلك بطل من نحو عشر سنين ، ثم أبطل الملك الأشرف قايتباي دورانه الرجبي ، وكذلك بطل في عصر خلفه الناصر الذي تولى سنة (٩٠١) إحدى وتسعمائة ، وكان للمحمل عفاريت من الإنس ، يأتون بألعاب يضحك منها الناظرون . ذكره في «مرآة الحرمين» .

وقال الفاضل البتنوني ، في رحلته : يعمل للمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير ، من أيام الدولة الأيوبية ، وللمحمل المصري كسوتان : كسوته اليومية ، وهي من القماش الأخضر ، وكسوته المزركشة ، ولا يلبسها إلاّ في

المواكب الرسمية، وبعد رجوعه عن سفر الحج، تحفظ كسوة المحمل بمخزن في المالية، وهذه الكسوة تجدد بعد كل عشرين سنة مرة، وتبلغ تكاليفها نحو ألف وخمسمائة جنيه مصري، أما كسوته الخضراء فيكسى بها سنويًا.

وإليك كشفًا ببيان ما يصرف من المالية سنويًا في سفر المحمل والمرتبات الجاري صرفها في مكة والمدينة المنورة حسب الوارد في الميزانية الأخيرة:

جنيهات		جنيهات	
١٢٨٢	مرتبات وتعيينات لأمير الحج ومستخدمي المحمل	٢٢٥٠٠	ثمن ومصاريف قمح الصلقة بمكة والمدينة
٢٥١١	العربان	١٦٢٩	شمع وقناديل للحرمين
١٤٩٣	الأشراف بمكة المكرمة والمدينة المنورة	١٥٥	خيام وقرب وخلافها
١٩٦١	تكية مكة المكرمة	٤٢٤٨	أجرة منقولات برًا وبحرًا وأجرة جمال
١٦٥٧	تكية المدينة المنورة	٦٤٢٠	قيمة ما يرسل كل سنة إلى الحرمين الشريفين من الزيوت والحصر وخلافها من ديوان الأوقاف
٢٨٧٩	أهالي مكة والمدينة	٢٦٥	مصاريف نثرية
٣٠٠٠	لمكة والمدينة تصرف سنويًا من أوقاف الحرمين والأوقاف الخصوصية والأهلية والخيرية ومن الخاصة الخديوية والمالية	٥٠٠٠٠	مجموع المنصرف سنويًا

مرتبات الأشراف والعربان والأهالي من الحكومة المصرية

قال الفاضل إبراهيم رفعت باشا في «مرآة الحرمين»: جرت العادة من قديم أن تصرف الحكومة المصرية مرتبات الأشراف والعربان والأهالي بمكة والمدينة، وكان المقرر في ميزانية المحمل هذا العام أي عام (١٣٢٥) للأشراف (١٢٦٥) جنيهًا مصريًا، وللعربان (٢٥١١) جنيهًا، وللأهالي (٢٨٧٩) جنيهًا، وللشيخ حذيفة، كبير قبيلة الأحامدة، مرتب سنوي ينيف على ٦٠٠ ريال، تصرف إليه نظير محافظته على ركب المحمل، أثناء مروره بالطريق السلطاني، الذي يقيم به

الشيخ حذيفة ، وهذا المرتب يصرف عليه سنويًا مر المحمل به أو لم يمر ، اهـ . انتهى كل ذلك من تاريخ الغازي .

نقول: وجميع أنواع المحامل التي كانت تأتي إلى الحرمين الشريفين في موسم الحج قد انقطع حضورها إلى الحجاز منذ تولي الحكومة السعودية عليها أي ابتداءًا من سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعون هجرية ، وما زالت الحالة كذلك حتى الآن .

سكان مكة المكرمة وعدد بيوتها ودكاكينها

يقول إبراهيم رفعت باشا في كتابه «مرآة الحرمين» : إن سكان مكة يزيدون على مائة وعشرين ألفًا ، كلهم مسلمون طبعًا . ويقول فيه أيضًا : «وبمكة ثلاثة آلاف دكان ، وستة آلاف وخمسمائة بيت مبنية بالجصّ والحجر الأصم» . ثم يقول في هامش كتابه : إن تعداد الأماكن نقله عن التقويم التركي للبلاد الحجازية سنة (١٣٠٩) وهو مطبوع بمكة بالمطبعة الأميرية .

هذا ما يقوله مؤلف الكتاب المذكور الذي حجّ سنة (١٣١٨) هـ وحجّ أيضًا ثلاث مرات بعدها وهي سنة (١٣٢٠) و (٢١) و (٢٥) ثم بعد ذلك ألف كتابه المذكور .

أما تعداد سكان مكة في عهدنا الحاضر فإنه يبلغ نصف مليون نسمة من الأهالي والمقيمين بها ، وهذا بحسب ظننا وتخميننا ، والله تعالى أعلم بالحقيقة . وأما بيوتها ودكاكينها فشيء كثير لا يحصى ، ففي كل جبل سكان ، وبين كل جبلين سكان ، فالرجل الغريب إذا نظر لمكة يظنها صغيرة لأنه لا يراها كلها ، بل يرى جزءًا منها على جبل أو في شعب من شعابها ، ولكنه لو تفقد شعابها ، ومشى بين جبالها ، لأخذه العجب ، لهذا جاء المثل العربي «أهل مكة أدرى بشعابها» .

الأعراب في مكة المشرفة

قال الغازي في الجزء الرابع ، من تاريخه ، عند الكلام على سكان مكة ، بعد انتشار الإسلام ، ما نصّه : ذكر العلاّمة الشيخ جعفر بن أبي بكر بن جعفر لبنى ،

رحمه الله تعالى ، في شرح الرسالة الجدية لابن زيدون ، بعد ذكر أمر قريش وخزاعة وما وقع بينهم ما نصّه :

وقد علم من مجموع ما تقدم ، أن سكان مكة في ذلك العهد كانوا قريشًا ومن جاورهم من خزاعة ، لكن خزاعة لما ذهبت عنهم رئاسة مكة جاوروا أطرافها شام ويمن ، ولهم بقايا إلى اليوم معروفون بين القبائل .

ثم لما جاء الإسلام ، وانتشر الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبناؤهم في الجهاد ، في سائر الجهات ، ورأوا الأراضي المخصبة ، والأوفياء الباردة ، والظلال المتفيأة ، وصارت للقوم فيها أملاك ، رغب أكثرهم في الاستيطان ثمة ، وتبعهم الجم الغفير يذهبون أرسالاً إلى مصر والمغرب والشام والعراق ، ليعيشوا مع أبناء جلدتهم في الخصب والسعة والرفاهية والدعة والظلال ، فما مضى ، بعد ظهور الإسلام نحو قرنين ، إلاّ ولم يبق في مكة والمدينة من أهليهما إلاّ أقل القليل ، مع من جاورهم من مسلمي الآفاق للتشرف بالجوار .

وكان من عادة ملوك مكة أن ينادي مناديهم ، بعد أداء مناسك الحج : « يا غريب بلادك » . هي عادة اتخذت من زمن الفاروق ، رضي الله عنه ، فإنه كان يأمر أن ينادي يومئذ : « يا أهل الشام شامكم يا أهل اليمن يمنكم » وذلك لئلا يكثر المجاورون ، فيستأثرون ، بما لهم من الثروة ، بأرزاق أهل مكة فيضيقون ، وقد تركت هذه العادة من مدة طويلة ، ولم يبق من آثارها ، إلا أن عوام باعة الأرزاق ، بعد أداء الحج ، يلهجون بقولهم : « يا غريب بلادك » ، ويزيد بعضهم : « شور الأمانة لا تبات الليلة » وقد كثر المجاورون ، وزاحموا أهل مكة في جميع الوظائف وأسباب المعاش ، أما الصرور والمرتبات ، من حنطة الجراية وغيرها ، والخلاوي أي الحجر في الأربطة والمدارس ، التي اتخذت في الأصل لطلبة العلم أو الفقراء الأهالي ، بما هو مخصص لها من مرتبات ، فقد كاد أن يستفرغه مجاوروا الأتراك لمناسباتهم ، مع مأموري الحكومة ، وصار أهل مكة المتأثلون بها فقراء ، ولا يكاد الواحد منهم أن يحصل على ما يقوم به أوده .

ثم ليعلم ، أنه ليس مرادي بأهل مكة هنا الأصليين ، الذين هم من ذرية قريش البطاح أو المهاجرين أو الأنصار ، الذين تناسلوا وتعاقبوا بمكة والمدينة من يومها إلى اليوم ، فإنه ليس بمكة ولا بالمدينة من يقطع أو يظن أنه من ذرية أولئك ، بالمعنى المنوه به سوى الشيبيين ، فإن بقاء مفتاح الكعبة بأيدي هذه العائلة ، خلفًا عن

سلف ، شاهد على ذلك ، حتى من انتمى إلى البيت النبوي من الأشراف والسادة القاطنين بمكة أو المدينة ، فإن أصولهم قد هاجروا إلى الآفاق وبقوا هنالك القرون ، ثم قدم من ذريتهم ، من قدم رغبة في الجوار أو لغاية أخرى ، ولا شبهة في علو أقدارهم ، وارتفاع مراتبهم عمن سواهم ، ومن سوى الأشراف والسادة لم يبق لهم مجد ولا فخر من حيث النسب ، لكن بقدم المحتد فمن تولد بمكة يفتخر على المجاور ، ومن له أبوان يفتخر على من له أب وهكذا ، والقدماء منهم يسمون من سواهم آفاقياً ، وهي كلمة كادت أن تكون سبة ، وأعظم منها في هذا المعنى ، قولهم : أتوي ، بفتح الهمزة والتاء ، ولعل أصله أتاوي ، قال الكسائي : الأتاوي ، بالفتح ، الرجل الغريب الذي ليس في وطنه . انتهى من الغازي .

نقول : إن الشيخ عبد الله الغازي المتوفى سنة (١٣٦٥) ألف وثلاثمائة وخمس وستين هجرية ، يقول : إن الأجانب قد زاحموا أهل البلاد في جميع الوظائف وغيرها ، فكيف لو رأى ، رحمه الله تعالى ، مزاحمة الأجانب لأهل البلاد في وقتنا الحاضر في الوظائف الحكومية والأهلية وفي جميع مرافق الحياة . فالأمر لله من قبل ومن بعد ، ورحم الله تعالى أحد شعراء مكة المشرّفة ، الذي كان في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة ، فإنه لما رأى بعض الولاة بمكة يساعد بعض الأغراب ، ومن لا قيمة لهم على أهل مكة ، ويسند إليهم بعض الوظائف والأعمال ، قال ما يأتي :

وظائف الناس قد صارت مفرقة ... ما بين عبد ومعتوق وآفاقي

وأهل مكة قد غارت نجومهم ... فما ترى كوكبًا يبدو بآفاق

الحكمة في جعل سكان مكة خليطًا من جميع الأجناس

لقد كان سكان مكة ، في زمن الجاهلية ، وفي صدر الإسلام ، من العرب الخلَّص ، وفي مقدمتهم قبيلة قريش ، فلما انتشر الإسلام ، في جميع أقطار الأرض وجهاتها ، كثر الوافدون إلى بيت الله الحرام ، من كل فج عميق ، لأداء فريضة الحج ، الذي هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، ولزيارة مسجد الرسول ﷺ ثم السلام على رسوله أفضل الصلاة والسلام عليه . ولما كانت مكة بلد الله الأمين وبلد رسوله النبي المكين ، ومن دخل حرمها كان آمنًا ، فقد أحب أكثر الناس ، من أجناس المسلمين الوصول إليها ، والإقامة بها ، ورغبوا في ذلك رغبة أكيدة ، حتى أن بعضهم يأتي إليها وحده ، تاركًا أهله وأولاده في وطنه يلحقون

به فيما بعد إذا أرادوا . وبذلك كثر فيها المهاجرون والمقيمون من مختلف أجناس العالم من المسلمين ، وبذلك كثر سكّان مكة المشرفة ، واختلط أهلها الأصليون العرب بالأعاجم الوافدين ، فتزوجوا منهم وزوجوهم ، وكل من الفريقين تعلّم لسان الآخر ، وبكثرة الخلطة والمعاشرة اندمج العرب والأعاجم في بعضهم .

فمما تقدم يعلم أنه لما كانت مكة المشرفة بلد الله الأمين وبلد رسوله النبي الكريم ، عليه أفضل الصلاة والتسليم ، لا غرابة أن يكون أهلها من جميع أجناس عباد الله المسلمين ، فهي موطن كل مسلم وفيها تطمئن قلوبهم ، وإلى بيت الله الحرام يولون وجوههم .

اللهم زد بلدك الأمين أمنًا وأمانًا ، ونعمة ورخاء وزد بيتك الحرام شرفًا وتعظيمًا ومهابة وتكريمًا ، واغفر اللهم لنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات ، وصل اللهم على سيدنا ونبينا «محمد» وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا ، والحمد لله رب العالمين .

بناء مراكز الشرطة بمكة

جاء في آخر الجزء الثالث ، من تاريخ الغازي ، عند الكلام على ترجمة المشير الحاج محمد حسيب باشا ، الذي تولى مكة من قبل الدولة العثمانية سنة (١٢٦٤) بعد ذكر ما عمله المذكور من الأعمال العمرانية وغيرها ما يأتي :

كان المذكور يعسُّ بنفسه ليلاً ، ويدور مكة بزي أحد العساكر ، ويختفي بالقهاوي ، ويتفقد المحتاجين من ذوي البيوت ، وأزال جملة من المنكرات .

وهو الذي رتب كركولات «أي مراكز الشرطة» ببطن مكة من العساكر النظامية ، فجعل في المسعى كركولاً ، وبالمدعا كركولاً ، وبسوق المعلا كركولاً ، وبالشبيكة عند المحجوب كركولاً ، وبالهجلة كركولاً ، وعند بيت الباشا كركولاً . انتهى من الغازي .

بناء القلاع والأبراج وبعض القصور المهمة سابقًا بمكة

نذكر هنا القلاع والأبراج والدور المهمة سابقًا بمكة وأطرافها ، مما جاء ذكرها في بعض كتب التاريخ الحديثة ، لأن في ذلك عبرة كبيرة للمتأمل اللبيب ،

وقد أمسكنا عن ذكر القصور والدور والسرايات ، التي وقعت عماراتها في العهد السعودي ، أي من بعد عام (١٣٥٨) ألف وثلاثمائة وثمانية وخمسين من الهجرة ، إلى وقت تأليف هذا التاريخ ، لأن في هذا العهد نهضت البلاد نهضة كبرى ، في جميع مرافق الحياة ، وشقت لنفسها طريقًا واسعًا خطت فيه بخطوات واسعة ، وبذلك اتسعت مكة ، شرّفها الله تعالى ، وامتلأت حاراتها وطرقاتها وشوارعها بالعمارات الشاهقة ، والقصور العظيمة ، والدور الجميلة الفخمة ، فلو أردنا أن نسجل كل ذلك لاحتجنا إلى مجلد خاص ، فلنقتصر على القصور القديمة ، لقلتها ولكونها صارت في حكم الآثار ، التي ينبغي أن تذكر ولا تهمل . فنقول وبالله نستعين ، فهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم :

قلعة جبل أجياد

قلعة أجياد كانت أهم قلاع مكة ، وكانت تضرب بها المدافع في رمضان وفي غير رمضان إلى سنة (١٣٦٠) تقريبًا . قال الغازي رحمه الله تعالى : وفي خلاصة الكلام : في سنة ألف ومائة وست وتسعين ، شرع مولانا الشريف سرور بن مساعد في عمارة القلعة ، التي في جياد ، بعد أن اشترى ما حولها من البيوت ، وأنفق في عمارتها مالاً كثيرًا ، ثم نقض بعد سنتين كثيرًا من بنائها وأعاده على أحسن إتقان . اهـ . قال الأستاذ السباعي : وكانت هذه القلعة تطل على داره ، في سفح الجبل ، حيث تقوم اليوم إدارة البريد ، بجوارها الخرائب الواسعة ، التي كانت تمثل دوره الملحقة بالقصر . انتهى كلامه . نقول : إن إدارة البريد ، التي ذكرها الأستاذ السباعي ، قد انتقلت من محلها المذكور إلى سوق المعلا وذلك سنة (١٣٧٧) هجرية ، ومعنى القلعة: الحصن ، أي: البناء الخاص للمحاربة .

انظر: صورة رقم ٢٠٩ ، قلعة أجياد بمكة

قلعة جبل هندي

قال الغازي : وفي خلاصة الكلام ، وفي السابع والعشرين من رجب سنة (١٢٢١) ألف ومائتين وواحد وعشرين ، أمر الشريف غالب أن يبنى له حصن ، على رأس الجبل المسمى بجبل الهندي ، وتم بناؤه في عاشر رمضان فحصّنه بالرجال والذخائر . اهـ .

وفي السالنامة الحجازية ، أنه حصل في هذه القلعة خراب ، فعمرها ووسعها شيخ الحرم المكي ، ووالي ولاية الحجاز عثمان نوري باشا ، وزينها وأحكم عمارتها وأتقنها وذلك سنة ألف وثلاثمائة . اهـ .

وجبل الهندي جزء من جبل قعيقعان ، وقد كان بهذه القلعة جنود الأتراك إلى سنة (١٣٣٤) هـ ، ثم صارت مدرسة بعد ذلك إلى سنة (١٣٧٤) هـ تقريبًا ، ثم بقيت خالية إلى يومنا هذا .

انظر: صورة رقم ٢١٠ ، قلعة جبل هندي

قلعة جبل لعلع بالفلق

وفي سنة ألف ومائتين وخمس عشرة ، بنى الشريف غالب بن مساعد الأبراج ، التي بأطراف مكة ، والقلعة ، التي على جبل لعلع المطل على العبادي ، كذا في السالنامة ، وتسمى هذه القلعة بقلعة فلفل أي قلعة جبل فلفل ، وهو لعلع . ولما أعلن الشريف حسين بن علي ، ملك الحجاز ، رحمه الله تعالى ، الحرب على الأتراك ، في اليوم التاسع من شهر شعبان عام (١٣٣٤) من الهجرة ، كان بهذه القلعة قليل من جنود الأتراك ، لا يتجاوزون الخمسين ، فتراموا بالبنادق مع جنود الشريف أقل من ثلاثة أيام ، ثم استسلموا لعدم استعدادهم للحرب . أما قلعة أجياد فقد استسلمت بعد شهر واحد ، وأما قشلة جرول فاستسلمت قبل قلعة أجياد ، وأما قلعة جبل هندي فبعد بضعة أيام استسلمت أيضًا ، ثم هدمت هذه القلعة في سنة (١٣٦٣) ثلاث وستين وثلاثمائة وألف ، وأقيمت مكانها في السنة المذكورة عمارة جديدة خاصة بإدارة الأعمال اللاسلكية التي تتصل بعموم المراكز اللاسلكية ، وبها اليوم أيضًا مدرسة لاسلكية .

انظر: صورة رقم ٢١١ ، قلعة جبل لعلع

قشلة جرول

قال الغازي : وفي سنة (١٣١٨) ، بني قشلة جرول بخارج مكة ، وجرى الاحتفال بفتحها في ١٥ ذي الحجة من السنة المذكورة .

قال العلاّمة إبراهيم رفعت باشا في كتابه «مرآة الحرمين» ما ملخصّه : وفي يوم الخميس ١٥ ذي الحجة احتفل بفتح المضيفة (المسافرخانة) ، التي شيدها ، لفقراء الحجاج ، جلالة السلطان عبد الحميد من ماله الخاص . وقد أقيم بناؤها في فضاء واسع جنوبي مكة الغربي ، وهي بناء فخم ، محكم البناء ، جميل النظام ، يحتوي على طبقتين مسقوفتين بالحديد ، الذي يتخلله عقود بالآجر الأحمر الإفرنجي والبياض ، متقن جدًا في نعومته ، والأرض مرصوفة بالبلاط وللمضيفة فناء واسع . . . إلخ وقد بلغت مصاريف عمارة هذه القشلاق تسعين ألفًا من الجنيهات الذهبية العثمانية ، وكان للجنيه الواحد الذهب قيمة كبرى في ذلك الوقت . اهـ .

والذي نعلمه عن قشلة جرول أنها لم تستعمل مضيفة قط ، والسبب ، والله تعالى أعلم ، قيام الحرب العظمى ، بعد بنائها بسنوات ، وانشغال الحكومة التركية العثمانية بها ، وكانت القشلة آهلة بجنود الأتراك ، ثم بالجنود الهاشمية ، زمن الشريف الحسين ، رحمه الله تعالى ، ثم بالجنود السعودية التابعين لوزارة الدفاع ، ولا يزالون فيها إلى وقتنا الحاضر . ومعنى القشلة: المكان الخاص بسكن الجنود ولا تصلح للمحاربة .

انظر: صورة رقم ٢١٢ ، قشلة جرول

انظر: صورة رقم ٢١٣ ، القشلة بجرول والتي بنيت في عهد الأتراك سنة ١٣٠٠هـ

قشلة أجياد

قال الغازي : بنى الوزير عثمان نوري باشا ، والي الحجاز ، في حدود سنة ألف وثلاثمائة ، بيتًا للطوبجية ، في رحبة أجياد ، والطوبجية نسبة إلى المدفع ، أي بنى ذلك البيت لجنود المدافع ، وكان يسمى قشلة جياد ، وكان عامرًا بجنود الأتراك ، في عهد العثمانيين ، ولا زال كذلك في عهد الشريف حسين بن علي ملك الحجاز رحمه الله تعالى ، وأما في العهد السعودي الآن فقد صار ذلك البيت مقرًا لوزارة المالية بمكة المشرفة .

والحق أن عثمان نوري باشا عمل أعمالاً جليلة بمكة ، فبنى دار الحميدية ، ودار المطبعة ، وقشلة أجياد ، وعمّر ما خرّب من قلعة جبل هندي ، وأجرى التلغراف من جدة إلى مكة وإلى الطائف ، وعمل دارًا للتلغراف بباب الوداع ، بلصق المسجد الحرام ، وعمل مستشفى بمنى وبازانًا عند مسجد الخيف ، وهو

الذي جلب الماء لجدة من الرغامة في مواسير . وقد تولى عثمان باشا ولاية الحجاز في عشرين من شعبان عام (١٢٩٩) ، وكان قبل ذلك بالطائف قومندار العساكر .

انظر: صورة رقم ٢١٤ ، وزارة المالية اليوم

قلعة المعابدة

هذه القلعة الصغيرة هي على رأس الجبل ، الذي على يسار الذاهب إلى منى بالمعابدة ، وهي أمام قصر الملك عبدالعزيز آل سعود ، رحمه الله تعالى ، بنيت في زمنه في سنة (١٣٤٥) هجرية تقريبًا ، وليس المقصود ، في بناء هذه القلعة الصغيرة ، الاستعداد للحرب ، بعد هذا الأمان الشامل ، وإنما بنيت على رأس الجبل المقابل للقصر الملكي كرمز عسكري ، كما توضع جنود الحرس على أبواب القصر تكملة للمظاهر الحكومية .

انظر: صورة رقم ٢١٥ ، القلعة السعودية

بناء الحصون على جبل أبي قبيس

لما كان جبل أبي قبيس مشرفًا على المسجد الحرام ، وهو بوسط مكة ، شرّفها الله تعالى ، كان بعض أمرائها يتخذون حصونهم عليه ، فمن تلك الحصون حصن مكثر بن عيسى ، فقد بناه سنة (٥٧١) إحدى وسبعين وخمسمائة . وفي هذه السنة نفسها ، صدر الأمر من بغداد ، إلى أمير الحج طاشتكين ، أخي صلاح الدين الأيوبي ، بإجلاء مكثر عن مكة وهدم حصنه ، ثم بعد الحج من هذه السنة تحاربا ، ولجأ مكثر إلى هذا الحصن ، الذي بناه بأبي قبيس ، فتحصن فيه ثلاثة أيام ، ثم سلم نفسه في اليوم الرابع لأمير الحج المذكور ، وهذا قام بهدم الحصن .

ومن تلك الحصون أيضًا : بيت النار بجبل أبي قبيس ، وهو دار واسعة بناها الشريف عبد الله بن سعيد ليتحصن بها عند الطوارئ وذلك في سنة (١١٣٦) ست وثلاثين ومائة وألف ، ووضع فيها المتاريس وسماها بيت النار ولم يسكنه أحد في زمنه وإنما كان مقفولاً معدًا للحصار . ولا تزال هذه الدار قائمة إلى اليوم ، وقد كان بها طائفة من العجزة إلى سنة (١٣٦٠) ألف وثلاثمائة وستين هجرية ، تحت

إشراف مديرية الأمن العام ، ثم نقلت العجزة إلى جهة أخرى ، والآن هذه الدار خالية ونظن أنها معروضة للبيع .

القلاع التي كانت بين مكة وجدة

لا يخفى أن طريق الحج كان ، في سابق الزمان ، مخوفًا غير آمن ، وكانت مكة كذلك ، فتقوم ثورة حربية فيها بين قبائل الأشراف ، وأن البدو كانوا يقطعون الطرق على الحجاج ، مهما كثروا ، لذلك كله بنيت القلاع والحصون في الحرمين الشريفين والطرق ، التي توصل إليهما ، ولا نريد عد القلاع وحصرها في كل ذلك ، وإنما نذكر القلاع ، التي كانت موجودة بين مكة وجدة ، والتي بنتها الحكومة العثمانية ، على رؤوس التلال والجبال ، في مفترق الطرق ، لحماية الحجاج . وهذه القلاع صغيرة بحيث يكون في كل واحد منها نحو ثلاثين جنديًا . فعدد القلاع أو الحصون أربع عشرة قلعة . قال البتنوني في كتابه «الرحلة الحجازية» : وعلى طول الطريق «أي بين جدة ومكة» أربع عشرة قلعة ، يوجد فيها الجند العثماني على الدوام ، بعضها قديم من عمل الشريف غالب أو محمد علي باشا والي مصر ، والبعض من بناء الدولة العلية ، من عهد ليس ببعيد ، خصوصًا بعدما كثر مجيء الحاج بحرًا . انتهى .

نقول : إن ما ذكره البتنوني هنا من عدد القلاع ، بين مكة وجدة ، قد خربت الآن ، لعدم الحاجة إليها ، حيث شمل الأمن جميع البقاع ، ولله الحمد ، فلم يبق منها إلاّ رسوم وأطلال لقلعة أو قلعتين فقط ، وإليك صورة القلعة الباقية إلى اليوم في طريق جدة وقد هدمت من الجهة الخلفية .

انظر: صورة رقم ٢١٦ ، قلعة صغيرة في عهد الأتراك في طريق المعابدة
انظر: صورة رقم ٢١٧ ، لقلعة صغيرة فوق جبل عبّادي التي تضرب منها المدافع

وتوجد اليوم بمكة ، بجهة محلة المعابدة ، رسوم قلعتين من القلاع القديمة أيضًا ، وهما ظاهرتان على يسار الذاهب إلى منى ، إحداهما مطلة على المعابدة ، والأخرى مطلة على شعب ذاخر ، وقد هدمتا وخربتا فلم يبق منهما إلا أطلالهما ، وإليك صورة إحداهما .

انظر: صورة رقم ٢١٨ ، قلعة صغيرة في عهد الأتراك في شعب أذاخر

بناء المطبعة الأميرية

أول مطبعة أسست في الحجاز ، هي المطبعة الأميرية ، التي سميت بمطبعة أم القرى ، وتسمى الآن مطبعة الحكومة . بناها الوزير عثمان نوري باشا ، الذي بنى الحميدية . وموقع المطبعة خلف الحميدية ، بنيت هي والحميدية في سنة ألف وثلاثمائة . وبعد عام من بنائها طبع بها تقويم الحجاز السنوي باللغة العربية والتركية ، وقد جلب لها عثمان باشا المذكور ماكينة كبيرة وبعض الأدوات ، وتسمى الآن «مطبعة الحكومة» .

بناء الحميدية

في سنة ألف وثلاثمائة ، بنى عثمان نوري باشا ، والي ولاية الحجاز ، وشيخ الحرم المكي ، «الحميدية» نسبة للسلطان عبد الحميد الثاني ، وموقعها قرب باب الوداع ، عند المسجد الحرام ، في أول أجياد . وكان بناؤها فخمًا عظيم الشأن قوي البنيان ، وبعد بناء الحميدية وجدوا أن الدار ، التي أمامها ، من جهة المسجد ، التي بنيت في موضع دار أم هانئ ، شقيقة علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، تحول بين الحميدية وبين المسجد الحرام ، وتمنع رؤية الكعبة المشرفة ، فاشتراها الوزير عثمان نوري باشا المذكور وهدمها . وقد بنيت الحميدية لتكون مقرًا لوالي الحجاز ، الذي يعين من قبل الدولة التركية ، وكان بها جنود الشرطة ، وأما مقر أمراء مكة من الأشراف ففي دار الإمارة ، التي بالغزة ، بعد سوق الليل ، وهي التي بناها محمد علي باشا والي مصر سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين في شهر رجب ، وكانت الحميدية ، إلى أن هدمت ، تحتوي على عدة دوائر حكومية : كإدارة الأمن العام ، ومجلس الشورى ، وإدارة الأوقاف وإدارة المعارف ، وإدارة إحصاء النفوس ، وكاتب عدل مكة ، والمحكمة المستعجلة الأولى ، وكان هدم الحميدية في السنة المذكورة ، لإدخالها في توسعة المسجد الحرام ، وكان مكتوبًا على بابيها الشرقي والغربي ، بعض أبيات شعرية .

بيت الحكم بالغزة

بنى محمد علي باشا حاكم مصر في سنة (١٢٢٨) ألف ومائتين وثمان وعشرين من الهجرة ، «دار الإمارة» بمحلة الغزة ، بعد سوق الليل على يمين الآتي من المسجد الحرام ، وتسمى هذه الدار «بيت الحكم» بناها لتكون دارًا لحكومة الحجاز ، ومقر الحكم لأمير مكة ، ولم تزل هذه الدار يشغلها حكام مكة إلى سنة (١٣٦٩) ألف وثلاثمائة وتسع وستين هجرية ، ثم هدمت بعد ذلك توسعة للشوارع فلم يبق لها أثر الآن .

بناء دار باناجه بالمسعى

بنى أحمد يكن باشا ، بفتح الياء والكاف ، الذي كان واليًا على الحجاز ، من طرف محمد علي باشا ، حاكم مصر ، دارًا بالمسعى أمام باب علي ، وكانت دارًا مهمة تطل على المسجد الحرام ، ليس بينهما سوى بضعة أمتار .

ثم إن باناجه باشا ، بسكون الهاء ، اشترى هذه الدار ، من ورثة أحمد يكن باشا ، في سنة (١٣٠١) إحدى وثلاثمائة وألف هجرية ، فسميت هذه الدار «بدار باناجه» ، ولما كان الطريق والممر ، بين هذه الدار والدور ، التي خلفها ضيقة ، فقد اشترت الحكومة السعودية من آل باناجه هذه الدار في سنة (١٣٦٨) ألف وثلاثمائة وثمان وستين هجرية ، فهدمتها توسعة للشارع العام .

بيت الجيلاني بالشامية

بيت الجيلاني دار فخمة عظيمة البناء ، واقعة بمحلة الشامية ، بجوار بازان الماء ، وبجوار جريدة البلاد السعودية . ولم نقف على علة تسميته ببيت الجيلاني ، والظاهر أن الذي بناها كان يلقب بالجيلاني ، وكان غنيًا واسع الثروة ، لبنائه هذه الدار العظيمة الكبيرة ، وقد جعلها وقفًا على أمراء مكة ، والجيلاني هذا غير الجيلاني الشهير ، صاحب الطريقة القادرية ، فهذا من أهل القرن الخامس أو السادس .

وقد ذكر الأستاذ السباعي في تاريخه أن الشريف عون الرفيق ولد بهذه الدار ، أي دار الجيلاني ، في أواخر ذي الحجة سنة (١٢٥٦) ست وخمسين ومائتين وألف هـ ، وهي اليوم مستودع للكتب المطبوعة ، الخاصة باسم الحكومة ، والآن يسكنها آل السحيمي الذين بيدهم هذه الكتب ، فعليه يكون بناؤها قبل السنة المذكورة ، وبجوار هذه الدار دار أخرى تشغلها جريدة البلاد السعودية اليوم ، وهي مسامة ومشابهة للتي بجوارها .

والظاهر وا لله تعالى أعلم ، أن الدارين بنيتا في سنة واحدة وبانيهما واحد ، ويصح أن يطلق عليهما قصر الجيلاني لسعتهما وكثرة مرافقهما ، وأن بعض سقوفها منقوشة بالألوان والزخارف ، ومكتوب في أعلى بعض الجدران ، مما يلي السقف ، من الجهات الأربع ، شيء من الأشعار ، حسب ما كان متبعًا عند الأقدمين .

بيت الشريف ناصر باشا بالقرارة

بيوت أشراف مكة بمحلة القرارة بمكة من أفخم البيوت وأعظمها ، وكان يسكنها الشريف ناصر ولي عهد إمارة مكة ، والذي بنى هذه البيوت أو بعبارة أخرى هذه السرايات هو الشريف عبد المطلب بن غالب ، الذي توفي بمكة في ربيع الثاني سنة (١٣٠٣) ثلاث وثلاثمائة وألف ، وقد بلغ من العمر نحو مائة سنة ، وقد شيع جنازته الشريف عون الرفيق والوالي عثمان نوري باشا ، ولم نعلم متى بناها الشريف عبد المطلب وكانت من الفخامة وعظمة البناء بحيث لا يوجد لها مثيل بمكة . ولقد هدمت بيوت الأشراف بالقرارة فلم يبق لها أثر في الوجود وذلك سنة (١٣٨٢) .

الدار التي كانت بعرفات

في سنة (١٢٠٠) مائتين وألف من الهجرة ، بنى أمير مكة الشريف سرور بن مساعد له بيتًا في عرفات ، على يسار المصلى بمسجد الصخرات ، بأسفل جبل الرحمة ، فقد أرسل ستين نفرًا من المعلمين ، غير أتباعهم لبناء البيت المذكور . ولم يسبق لغيره أن بنى بيتًا له بعرفة ، والشريف سرور كان شابًا يميل إلى البذخ والعظمة ويحب العمران ، وكان شهمًا مقدامًا ، ضرب على أيدي اللصوص

وقطاع الطرق ، وفرض عليهم العقوبات الشديدة . حكم مكة نحو خمس وعشرين سنة ، وتوفي بعد بنائه لبيت عرفة بسنتين عن خمس وثلاثين سنة تقريبًا . وقد اندثر هذا البيت فلم يبق منه سوى جزء من جدار آيل للسقوط .

وبهذه المناسبة ، نأتي بما ذكره ابن جبير ، في رحلته ، التي كانت سنة (٥٧٨) عن الدار ، التي كانت بجبل عرفات ، في زمانه . قال رحمه الله تعالى : «وفي أسفل جبل الرحمة ، عن يسار المستقبل للقبلة ، دار عتيقة البنيان ، في أعلاها غرف لها طيقان ، تنسب إلى آدم ، عليه الصلاة والسلام ، وعن يسار هذه الدار في استقبال القبلة الصخرة التي كان عندها موقف النبي ﷺ ، وهي في جبل متطامن ، وحول جبل الرحمة . وفي الدار المذكورة صهاريج للماء وجباب ، وعن يسار الدار أيضًا على مقربة منها مسجد صغير» . انتهى منه .

وقد ذكر أيضًا ، ابن بطوطة ، في رحلته ، التي كانت سنة (٧٢٥) ، هذه الدار العتيقة ، التي تنسب لآدم ، عليه السلام ، نقول : إن ما ذكره ابن جبير وابن بطوطة ، رحمهما الله تعالى ، من نسبة الدار العتيقة إلى آدم ، عليه الصلاة والسلام ، أي أنه تعارف مع حواء بعد هبوطهما من الجنة في هذا المكان ، ليس له أصل مطلقًا ، فمن الذي رآهما أو رأى أحدهما في مكان هذه الدار حتى تثبتها إليه ، ولم يكن في عرفات ، في تلك العصور الغابرة غيرهما ، ثم أليس جاء بعدهما طوفان نوح ، عليه السلام ، الذي عمّ الدنيا كلها حتى عرفات ، فمن الذي اهتدى إلى هذا المحل ، وقال إنه ملتقى أبينا آدم ، عليه السلام ، مع أمنا حواء ، رحمهما الله تعالى ورضي عنها ، ثم من وقت الطوفان إلى ما قبل الإسلام ، وإلى ما بعده ، هل ذكر أحد من قريش أو أحد من الصحابة ، رضي الله عنهم ، أن ذلك المحل هو موضع تعارفهما وإقامتهما . كلا ثم كلا . إذن فهذا القول باطل لا أصل له ، وخيال لا حقيقة له ، وهو من طوفان الخرافات ، التي امتلأت الدنيا بها ، ويشبه هذه الخرافة نسبة أولية ضرب الدينار والدرهم لآدم ، عليه السلام ، فقد جاء في كتاب «التراتيب الإدارية» ما يأتي : أخرج ابن أبي شيبة ، في مصنفه ، عن كعب ، أن أول من ضرب الدينار والدرهم آدم عليه السلام ، وذكر في آخرها أثرًا يرمي إلى قطع المسكوكات النقدية ، وهو قوله : أخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن المسيب ، قال : قرض الدرهم والدينار من الفساد في الأرض . انتهى .

فانظر رحمك الله إلى هذا القول الواهي عقلاً ، فآدم عليه السلام لمن يضرب الدينار والدرهم ، وليس على وجه الأرض في زمانه سوى نفر من بنيه ، فإذا كان قابيل حينما قتل أخاه هابيل لم يعرف كيف يدفنه ، حتى بعث الله غرابًا ، يبحث في الأرض ، ليريه كيف يواري سوأة أخيه ، فكيف يضربون الدينار والدرهم . والله تعالى أعلم.

ولقد كانت عرفات ، فيما مضى من الزمان ، مكانًا عامرًا ، فيه المزارع والمباطخ والخضرة ، وكان فيه دور حسنة لأهل مكة ، وقد ذكروا أن الصحابي الجليل عبد الله بن عامر بن كريز العبشمي ، الذي فتح فارس ، وخراسان وسجستان وكابل ، كان قد اتخذ بعرفات حياضًا ونخلاً ، كما اتخذ كذلك في بعض البلدان ، لا ضرورة لذكرها هنا .

وعرفات اليوم قاحلة يابسة ، ليس بها زرع سوى بستان صغير يسمى «بستان عرفة أو بستان عين زبيدة» ، وهو قبل مسجد نمرة بقليل للذاهب إلى عرفات ، كما أنه ليس بها شيء من البيوت والمنازل إلا منزلين مبنيان بالرضم ، خلف مسجد الصخرات ، والجدار القديم الباقي من منزل الشريف سرور المذكور في أول الفصل ، وبنايتين مبنيتين بالإسمنت برسم مستشفى الحجاج يوم الوقوف بعرفة ، وبعض الأماكن المبنية بالإسمنت أيضًا لمياه عين زبيدة . وكل ذلك قريب من جبل الرحمة .

بناء درج الحجون ودرج أبي لهب والمحك بطريق العمرة ومدرج منى

قال الغازي ص(٦٤٧) : وفي شهر رجب سنة (١١٣٢) ألف ومائة واثنين وثلاثين ، عمّر الشيخ سالم بن عبد الله البصري ، نيابة عن الأمير إسماعيل بيك بن إيواز بيك ، المحك بطريق العمرة ، فكسر أحجاره وجعله حجرًا مفروشًا ، وكان يؤذي الماشي والراكب ، ودكه بالنورة ، وكذلك درج الحجون ، وكذلك درج ربع أبي لهب .

وقال بصحيفة (٦٤٣) : وفي السنة (١٠٨٥) ألف وخمسين وثمانين ، شرع الشيخ محمد بن سليمان في إصلاح مدرج منى وبنى ظفيرتين من جانبي المدرج . انتهى .

نقول : إن كل هذه المدرجات قد أزيلت في عهد الحكومة السعودية وسويت الأرض تسوية تامة وفرشت بالإسفلت ، وذلك في سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف ، بل في هذه السنة أزيل الجبل كله ، الذي كان بظهر جمرة العقبة ، والذي كان عنده المدرج والظفيرتان ، وسويت الأرض وفرشت بالإسفلت ، فصارت كل هذه الطرق صالحة للمشاة والدواب والسيارات «الأوتومبيلات» فسبحان مغير الأحوال نسأله تعالى ، أن يغير حالنا إلى أحسن الأحوال بفضله ورحمته إنه بعباده لطيف خبير .

بناء التكية المصرية «أو المبرة المصرية»

بنى التكية المصرية ، التي بجوار الحميدية ، محمد علي باشا والي مصر في سنة (١٢٣٨) ألف ومائتين وثمان وثلاثين هجرية ، بناها لمساعدة الفقراء ، فكان يصرف منها كل يوم للفقراء خبزًا وشيئًا مما يطبخ فيها ، ومرتبات شهرية لبعض أهل مكة ، ورصد عليها أوقافًا كثيرة ومبرات كبيرة . قال الغازي ، في تاريخه : وأقيمت هذه التكية مكان دار السعادة ، التي كانت سابقاً محل حكومة بني زيد من الأشراف ، ودار السعادة بناها الشريف محمد بن بركات في سنة (٨٦٦) ست وستين وثمانمائة هجرية . وللتكية المصرية ناظر ومعاون وكتبة وخدم يقومون بما يلزم من المصالح ، وكان بها طبيب وصيدلية كاملة ، وهي مجتمع فضلاء المصريين وأعيانهم خصوصًا في أيام الحج .

ثم في شهر رجب سنة ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية هدمت هذه التكية ، لإدخالها في توسعة المسجد الحرام ، وقد أعطت الحكومة السعودية لوزارة الأوقاف المصرية مكانًا ممتازًا بمحلة أجياد لإقامة هذه التكية عليه ، عوضًا عن محلها القديم ، فبنيت على حساب وزارة الأوقاف المصرية . ومما يجدر ذكره أنه بعد قيام الثورة المصرية ، وإخراج أسرة محمد علي باشا من الحكم ، استبدلت وزارة الأوقاف اسم التكية المصرية باسم «المبرة المصرية» وذلك سنة (١٣٧٤) هجرية ، وأبطلت الصدقات اليومية من خبز وطعام وعوضت أصحابها بمرتبات شهرية .

جاء في كتاب «مرآة الحرمين»، عن التكية المصرية بمكة، ما يأتي :

هي من الآثار الجليلة ذات الخيرات العميمة، وأنها نعمت صدقة جارية لمسديها ثواب جزيل وأجر عظيم، وقد أنشأها ساكن الجنان محمد علي باشا رأس الأسرة الخديوية في سنة (١٢٣٨) ثمان وثلاثين ومائتين وألف هجرية . كما هو مسطور بدائر القبة التي بوسط التكية، تظل الصنابير (الحنفيات) التي يتوضأ منها الناس، والتكية بشارع أجياد أقيمت مكان دار السعادة، التي كانت محل حكومة بني زيد من الأشراف، ويرد إليها الفقراء، في الصباح والمساء، فيتناول الفقير في كل مرة رغيفين وشيئًا من «الشربة»، وربما أعطي أكثر من ذلك إن كان فقره مدقعًا، وكثير من نساء مكة وجواريها الفقراء يتعيشن بما يأخذن، ويكتفين بذلك عن مسألة الناس، ويصرف يوميًا من الخبز ما يقرب من (٤٠٠) إقة (حاصل ٣ أرادب من القمح) و (١٥٠) إقة من الرز، وفي يوم الخميس تزاد كمية الأرز إلى (٤٢٠) إقة، ويصرف في هذا اليوم فقط مائة إقة من اللحم، وفي كل أيام رمضان يكون المرتب كمرتب يوم الخميس ويزيد عليه (٥٠) إقة من الحمص ويصرف من السمن ما يكفي لطبخ هذه المقادير، والفقراء يزداد عددهم حتى يبلغ (٤٠٠٠) شخص، وذلك من شهر رمضان حتى آخر ذي الحجة، بورود كثير من الحجاج الفقراء من السودانيين (التكارنة) والمغاربة وغيرهم، ثم يتناقص العدد بعد ذلك إلى (٤٠٠) شخص تقريبًا .

وللتكية ناظر ومعاون وكتبة، يقومون جميعًا بخدمة الفقراء، وبها طاحونة يتناوب إدارتها أربعة بغال، تطحن القمح، وفيها مطبخ واسع به ثمانية أماكن يوضع عليها أوان ثمان من ذات الحجم الكبير (قزانات) وفيها مخبز ذو بابين يخبز به العيش، ومخزن وحجر للمستخدمين . وفي مدة الحج يسكنها بعض عمال المحمل، كالطبيب والصيدلي وكاتب القسم العسكري، وبعض الضوئية والعكامة والسقائين، ويوضع بها أمتعة الأمير والأمين وبعض الموظفين، عند ذهابهم إلى عرفات .

وفي التكية بيوت أدب وصنابير (حنفيات) ماء ومكان جميل مفروش، في وسطه بركة ماء صناعية (فسقية) . ويجلس به أمير الحج وأمين الصرة وكتابها، حينما يصرفون المرتبات، ومكتوب على باب التكية بالخط الثلث الجميل البيتان الآتيان :

لعباس مولانا الخديوي فضائل عليها دليل كل يوم مجدد
رأيناه قد أحيا تكية جدة فقلنا أعباس بنى أو محمد

سنة (١٣١٩) و (١٢٣٨) هـ .

ولو سمعت الأدعية المتصاعدة من قلوب الفقراء لرب هذه النعمة لأكبرت هذا العمل ومسديه ، وانساقت نفسك إلى أمثاله إن كان لديك سعة في المال وبسطة .

أما التكايا الأخرى فلم أزرها لأنه لا يأوي إليها فقير ، وقد سطر بواجهة تكية السيدة فاطمة قوله تعالى : ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا﴾ وأنها أنشئت في سنة (١٠٨٦) ست وثمانين وألف هجرية ، زمن السلطان الغازي محمد خان الرابع كما أسلفنا . انتهى من الكتاب المذكور .

نقول : إن عمارة التكية المصرية بقيت على بنائها الأول ، حتى إذا تولى عباس باشا حلمي الثاني ، حكم مصر ، قام بتجديدها في سنة (١٣١٩) ألف وثلاثمائة وتسع عشرة هجرية .

فما زالت التكية على هذه العمارة ، حتى هدمت بتاتًا في سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية ، وذلك لأجل توسعة المسجد الحرام .

بيت الشريف عبد الله بن محمد بالحلقة

بنى الشريف عبد الله بن محمد بن عون ، الذي تزوج ابنة ملك الحجاز الأسبق الشريف الحسين بن علي ، بيته الذي على الشارع العام ، ومؤخره على حلقة الحطب ، وكان ابتداء بنائه سنة (١٣٣٨) ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف ، وقد سكن فيه سنة أو سنتين ، وهي بناية قوية جدًا مبنية بالنورة البلدية البيضاء والحجارة ، ليس فيه شيء من النورة الإفرنجية المسماة « بالإسمنت » فإن الإسمنت أول ما عرف في الحجاز من عام (١٣٥٠) تقريبًا .

أما المسجد الذي خلفه بالحلقة فإنه مبني قبله بسنوات كثيرة .

القصور الملكية السعودية

القصر الملكي بالمعابدة بمكة ، هو أول قصر بني بها لجلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، رحمه الله تعالى ، وأحسن إليه ، بنى هذا القصر بعد تولّيه

على الحجاز ، ونظن أنه بني حوالي عام (١٣٥٠) ألف وثلاثمائة وخمسين من الهجرة .

والقصر الملكي بجدة بني بعد القصر الذي بمكة بأعوام ، وقد طبع الباب الرئيسي لقصر جدة على الأوراق النقدية «البنكنوت» من فئة الريال الواحد ، وهذا القصر من أبدع القصور الملكية .

ونكتفي بذكر هذين القصرين لأن تاريخنا يبحث عن مكة ، شرّفها الله تعالى فقط ، وذكرنا قصر جدة تبعًا لقصر مكة .

القصر السعودي بمنى

هذا القصر بني في أوائل عهد جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، رحمه الله تعالى ، أي في نحو سنة (١٣٤٦) ألف وثلاثمائة وست وأربعين هجرية . بني هذا القصر بمنى ليكون مقرًا لجلالته في أيام الحج ، وفيه يستقبل الزوار والضيوف مدة إقامة الحجاج بمنى ، ولا يزال هذا القصر مقرًا لملك المملكة العربية السعودية بمنى إلى الآن . وهو ليس بالقصر الكبير كما يتبادر إلى الذهن ، وإنما هو بناء بطابقين ، عديدة الغرف وسيعة الأرجاء ، ولا يفرش إلا في وقت الحج لنحو ثلاثة أيام ، لكنه أوسع وأكبر بكثير من قصر مزدلفة الآتي بيانه .

القصر السعودي بمزدلفة

هذا القصر بني أيضًا في أوائل عهد جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، رحمه الله تعالى ، أي في نحو سنة (١٣٤٦) ألف وثلاثمائة وست وأربعين هجرية ، بني هذا القصر بمزدلفة لينزل فيه جلالته ليلة المبيت بمزدلفة في الحج ، ثم بعد وفاة جلالته صار ينزل فيه تلك الليلة ابنه جلالة الملك «سعود» ثم صار ينزله والدة جلالته في الليلة المذكورة .

ثم إن جلالة الملك «سعود» ، حفظه الله تعالى ، أمر ببناء قصر آخر عند الجبل خلف مسجد مزدلفة لهذا الغرض ، وهو أوسع من القصر الأول بكثير ، وكان بناؤه في سنة (١٣٧٦) ألف وثلاثمائة وست وسبعين من الهجرة ، وليس بمزدلفة من البيوت غيرهما . ولا يعد هذا قصرًا بمعنى الكلمة ، وإنما هو عبارة عن

عدة غرف أمامها حوش فسيح ، ليس فيه فرش ولا رياش لأنه منزل مؤقت لليلة واحدة فقط .

المسحراتية بمكة المكرمة

ولقد كان إيقاظ الناس ، في وقت السحور ، في شهر رمضان ، أمر معروف من العصور الأولى في الإسلام ، وذلك بواسطة بعض الرجال المختصين في هذه الصنعة ، الذين نسميهم « المسحراتية » أو « المسحرين » وهؤلاء الطائفة كانوا يوظفون في هذه الصنعة بأوامر الخلفاء ويفرضون لهم أجرًا على ذلك . والسبب أن الناس ، في صدر الإسلام ، إلى أوائل القرن الرابع عشر للهجرة ، لم يكونوا يسهرون إلى نصف الليل أو أكثر ، كما في زماننا هذا ، بل كانوا ينامون بعد صلاة العشاء بنحو ساعة أو ساعتين على أكثر تقدير ، لأن السهر في اللهو والمجون مكروه ، فقد ورد في الحديث « إيّاك والسمر بعد هدأة الرِّجْل فإنكم لا تدرون ما يأتي من الله تعالى في خلقه » رواه الحاكم في المستدرك ، والسمر ، بفتح السين والميم ، هو التحدث بعد هدأة الرِجل ، وفي رواية بعد هدأة الليل . وورد « لا سمر إلاّ لمصلٍ أو مسافر » رواه الإمام أحمد . وورد أيضًا « نهى النبي ﷺ عن النوم قبل العِشاء وعن الحديث بعدها » رواه الطبراني .

قال العزيزي في الجامع الصغير ، قال العلقمي : النهي عن الحديث بعد صلاة العِشاء ، فيما لا مصلحة فيه في الدين ، خوف السهر وغلبة النوم بعده ، فيفوت قيام الليل أو الذكر فيه أو الصبح أو الكسل عن العمل بالنهار في مصالح الدنيا وحقوق الدين ، أما ما فيه مصلحة في الدين كعلم وحكايات الصالحين ومؤانسة الضيف والعروس والأمر بالمعروف فلا كراهية فيه . انتهى كلامه .

انظر: صورة رقم ٢١٩ ، فانوس يضاء بشمعتين

نقول : إن أهل القرون السابقة كانوا أهل خير وصلاح وقناعة ، لم ينتشر الفساد فيهم ، كما انتشر في زماننا هذا ، ولم تكن لديهم دواعي اللهو والمجون ، ولم تتوفر عندهم أسباب الفسق والترف والانغماس في الشهوات . وكان لديهم من الدين والحياء ما يمنعهم من التظاهر بكل ذلك . وكان لأرباب الدين والعلماء السيطرة التامة عليهم ، فكانوا يراعون حرمتهم ، ويسمعون كلامهم ، ويتبعون آداب الإسلام ، فإن وجد فيهم من شذّ عن عاداتهم ومألوفهم ، فيكون ذلك نادرًا

ويكون في ستر وخفاء . ومن أين لأولئك الأقوام أن يتخذوا السمر والسهر ، في اللهو والفساد ، ديدنهم طول حياتهم ، وهم يستضيئون بالشمع والزيت في منازلهم وبيوتهم وشوارعهم وطرقاتهم ، والاستضاءة بهما لا يبعث في النفس النشاط وقوة الاستمرار في المرح .

لذلك كان دأبهم النوم المبكر بعد صلاة العشاء ، وإن كان هناك داع للسهر فلا يتجاوز ربع الليل ، ليتمكنوا من التهجد والقيام في الفجر ، والانتشار في الصباح الباكر إلى المعيشة ، وهم على أتم ما يكون من النشاط والصحة ، لذلك ورد في الحديث: «اللهم بارك لأمتي في بكورها» .

فمن كانت حياتهم ، بهذه الوتيرة والكيفية ، فهم في احتياج إلى من يوقظهم من النوم للسحور في شهر رمضان ، ولما لم تكن ، في تلك القرون ، المدافع المدوية ولا الصفارات الصارخة ولا المفرقعات المزعجة ، كان أبسط شيء هو قيام بعض الرجال ، من بعد مضي نصف الليل تقريبًا ، ليدوروا في الشوارع والأزقة والمنعطفات ، فيطرقوا أبواب المنازل ، وينادوا أصحابها ليستعدوا للسحور ، فهؤلاء الرجال هم الذين يطلق عليهم «المسحرون» أو «المسحراتية» ، ثم تطور أمرهم إلى اتخاذ الطبول والضرب عليها بدق منتظم ، مع مناداة أصحاب البيوت من الرجال ، وهذا بدلاً عن الطرق على أبواب المنازل ، ثم تطور الحال إلى إنشاد بعض الأشعار المناسبة لشهر رمضان ، من البحور الخفيفة اللطيفة ، كبحر الرجز ، وتخصص بعضهم بإيقاظ الخلفاء والأمراء والأعيان وينشدون لهم في جنح الليل بعض القصائد المستملحة .

المسحِر أو المسحراتية ، في زماننا هذا ، لم يبق لهم إلاّ أثر بسيط لا يذكر في غالب الممالك ، أما عندنا في الحجاز فإنه لم يبق لهم أثر مطلقًا من عام (١٣٤٣) ثلاثة وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، أي منذ تولّي الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود ، رحمه الله تعالى ، على الحجاز .

فإيقاظ الناس في المدن للسحور ، في شهر رمضان ، يكون بواسطة ضرب المدافع ، وكذلك إعلامهم للإفطار في المغرب أو تنبيههم للإمساك قرب الفجر ، يكون بواسطة إطلاق المدافع أيضًا ، أما القرى البعيدة عن المدن فلا يسمع أهلها صوت المدافع ، فإن أهلها يستيقظون في الليل بأنفسهم للسحور ولقلة عددهم ، ينادون بعضهم البعض للقيام للسحور .

وفي المدن الكبيرة في الحجاز ، كمكة والمدينة وجدة والطائف ، تشتغل الدوائر الحكومية في شهر رمضان في الليل ، بدلاً عن النهار ، من بعد صلاة التراويح إلى نصف الليل ، وكذلك الدكاكين والمتاجر .

لذلك لم يبق لزوم ، في عصرنا الحاضر ، إلى صنف المسحراتية لإيقاظ الناس من النوم ، فبطلت صناعتهم وهجروا قصائدهم اللطيفة ، التي كانوا يترنمون بها في السحور .

ولنذكر هنا بعض القصائد المستملحة ، التي كان قدماء المسحرين يوقظون بها الخلفاء ، (فمنهم) ابن نقطة ، وهو الذي كان يتولى إيقاظ الخليفة الناصر للسحور ، وكان يستعمل في التسحير طريقة خاصة من إنشاد بعض القصائد من فن «الزجل» ، وكان لابن نقطة ولد ماهر ، في هذه الصنعة ، فلما مات لم يجد ولده طريقة يصل بها إلى الخليفة ليقره في منصب أبيه ، رئيسًا على طائفة المسحرين ، فصبر حتى دخل شهر رمضان ، وجمع أتباع أبيه وذهب بهم إلى مكان قريب يسمعه منه الخليفة وجعل ينشد :

يا سيد السادات	لك بالكرام عادات
أنا ولد ابن نقطة	تعيش أبويا مات

فسمعه الخليفة وأعجب به فدعاه إليه وقربه وأقره في مكان أبيه ، وفرض له ضعف ما كان لأبيه في بيت الخلافة .

فمن قول بعض مشاهير طائفة المسحرين لإيقاظ بعض الخلفاء ما يأتي :

لا زلت سعدك جديد	دائم وجدك سعيد
ولا برجت مهنًّا	بكل صوم وعيد
في الدهر أنت الفريد	وفي صفاتك وحيد
والخلق شعر منقّح	وأنت بيت القصيد
يا من جنابه شديد	ولطف رأيه سديد
ومن يلاقي الشدائد	بقلب مثل الحديد
لا زلت في تأييد	في الصوم وفي التعييد
ولا برحت ممتّع	بكل عام جديد
نحن لذلك نشيد	بقولنا والنشيد

ونبعث أوصاف مدحك	على خيول البريد
ظلك علينا مديد	ما فوق جودك مزيد
وكم غمرت بفضلك	قريبنا والبعيد
لا زلت في كل عيد	تحظى بجد سعيد
عمرك طويل وقدرك	وافر وظلك مديد

وهذا الضرب فنّ من الزجل يسمى « القوما » قيل إن أول من اخترعه هو ابن نقطة المذكور ، وقيل إنه مخترع من قبله ، وإنما نسب إليه لأنه اشتهر به . والله أعلم .

ومن هذا الضرب قال صفي الدين الحلي :

من كان يهوى البدور	ووصل بيض الخدور
بالبيض والصفر يسخو	وقد جلس في الصدور
من حب بيض الخدور	ورام لزم الصدور
يسمح وإلا فيبقى	من بينهم مهدور . . . الخ

قال ابن جبير : وأول قاضٍ بمصر خرج لرؤية الهلال عبد الله بن لهيعة . قال أبو عمر الكندي : وهو أول قاضٍ ولّي مصر عن خليفة . ولّيها عن أبي جعفر المنصور في أول سنة خمس وخمسين ومائة . اهـ .

انظر: صورة رقم ٢٢٠ ، مسحراتي لأحد البلاد العربية
انظر: صورة رقم ٢٢١ ، مدفع الافطار عند انطلاقه إيذاناً بانتهاء يوم من أيام الصيام

الثلج بمكة المكرمة

ليس الحجاز من البلاد التي تنزل فيها الثلوج ، لذلك ما كان يوجد ثلج بمكة ولا بجدة ولا بالمدينة ولا بغيرها ، نعم قد ينزل بها أحيانًا برد مع المطر . فكان الناس يبردون ماء الشرب ، في نحو الأزيار والشراب ، « بكسر الشين المعجمة » ، جمع شربة بالفتح ، وهي آنية من الطين يعمل بكل بلدة كمكة والمدينة وجدة وغيرها . وهي المسماة بمصر « بالقلل » بضم القاف ، جمع قلة .

ويضعون هذه الشراب في أماكن معرضة للهواء لتبرد الماء حسب طبيعة الجو ، ومن الغريب أن الهواء الحار المسمى «بالسموم» بفتح السين المهملة ، يبرد الماء في الشراب إلى أقصى حد ، لكن الناس ينفرون من هذا السموم ويقفلون النوافذ التي تأتي به .

بقي الحجاز على هذا الحال الطبيعي ، من تبريد الماء في الشراب والأزيار ، من قديم الزمان إلى عصرنا هذا ، الذي كثرت فيه الاختراعات والمصانع والآلات الميكانيكية والكهربائية ، أي إلى سنة (١٣٣٢) اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة تقريبًا ، فكان أول مصنع للثلج بمكة عمله رجل اسمه النويلاتي ، من تجار أهل الشام المقيمين بالحجاز ، ورجل آخر اسمه الحاج نسيم ، وهو من الشام أيضًا ، ولا ندري أيهما سبق الآخر في عمل المصنع . ثم كثرت المصانع بمكة من بعد عام (١٣٥٠) .

فالمصانع الموجودة الآن للثلج بمكة ، أي سنة (١٣٧٧) هي كما يأتي :

١) مصنع شركة الاقتصاد الوطنية ، ٢) مصنع عبد الله باحمدين ، ٣) مصنع عبد الله كعكي ، ٤) مصنع عطا إلياس ، ٥) مصنع طه خياط ، ٦) مصنع الشيبي ، ٧) مصنع خميس نصار ، ٨) مصنع الإسعاف .

ومما يناسب هذا المقام ما ذكره الغازي في تاريخه نقلاً عن كتاب إتحاف الورى لابن فهد : وفي سنة (١٦٠) ، حج ثالث خلفاء العباسيين ، أبو عبد الله الملقب بالمهدي ، ولد المنصور ، فحمل له الأمير محمد ابن سليمان الثلج حتى وافى به مكة ، وهذا شيء لم يتم لأحد قبله ، وقسم المهدي في الحرمين الشريفين أموالاً عظيمة وهي ثلاثون ألف ألف درهم ، وصل بها معه من العراق ، وثلاثمائة ألف دينار وصلت إليه من مصر ، ومائتا ألف دينار وصلت إليه من اليمن ، ومائة ألف ثوب وخمسون ألف ثوب ، فرق جميع ذلك على أهل الحرمين . ذكره ابن فهد . انتهى من الغازي .

وقال في صبح الأعشى : أول من حُمل إليه الثلج الحجاج بن يوسف . اهـ .

ذكر الغازي في الجزء الأول من تاريخه ، (ص٦٩٧) ما خلاصته : أنه في سنة ست وستين وثلاثمائة حجت جميلة بنت ناصر الدولة ، التي يضرب بها المثل في أفعال البرّ ، وأنفقت في الحرمين أموالاً عظيمة ، والذي أنفقته في حجّها ألف ألف وخمسمائة ألف دينار ، من ضرب أبيها وزوجها ، وإنها زوّجت بالحرمين

كل علوي وعلوية ، وسقت أهل عرفة كلهم السويق والسكر والثلج حملته معها ، وحملت معها البقول مزروعة في مراكن الخشب . . . إلى آخر ما ورد في تاريخه . انتهى .

وبمناسبة ما ذكرناه عن الثلج بمكة نذكر هنا ما كتبه القلقشندي ، في مؤلفه «صبح الأعشى» ، الذي فرغ من تأليفه سنة (٨١٤) أربع عشرة وثمانمائة من الهجرة ، عن نقل الثلج إلى البلاد التي ليس فيها ثلج . فقال في الجزء (١٤) ما يأتي :

«الباب الثالث من الخاتمة ، في ذكر هُجن الثلج ، والمراكب المعدة لحمل الثلج ، الذي يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وفيه ثلاثة فصول :

«الفصل الأول في نقل الثلج» :

اعلم أن ماء نيل مصر لما كان من الحلاوة واللطافة على ما لا يساويه فيه نهر من الأنهار ، على ما تقدم ذكره في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية ، مع شدة القيظ بها في زمن الصيف ، وسخونة الهواء ، الذي قد لا يتأتى معه تبريد الماء ، وكان الثلج غير موجود بها ، وكانت الملوك قد اعتادت الرفاهية ، مع اقتدارها على تحصيل الأشياء العزيزة ، وولوعهم بجلبها من الأماكن البعيدة ، إكمالاً لحال الرفاهية ، وإظهارًا لأبهة الملك ، دعاهم كمال الرفاهية والأبهة إلى جلب الثلج من الشام إلى مصر ، لتبريد الماء به ، في زمن الحر . على أن ذلك كان في غيرهم من الملوك التي لا ثلج بحاضرتهم .

وقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه «الأوائل» أن أول من حمل إليه الثلج الحجاج بن يوسف بالعراق . ثم لاعتناء ملوك مصر بالثلج قرروا له هجنا تحمله في البر وسفنا تحمله في البحر ، حتى يصل إلى القلعة المحروسة .

«الفصل الثاني» :

«من الباب الثالث من الخاتمة ، في المراكب المعدّة لنقل الثلج من الشام» قد ذكر في «التعريف» أنها كانت في أيام الملك الظاهر بيبرس ، تغمده الله تعالى برحمته ، ثلاثة مراكب في السنة لا تزيد على ذلك ، قال : ودامت على أيام سلطاننا .

(يعني الملك الناصر «محمد بن قلاوون») في السلطنة الثالثة، وبقيت صدرًا منها، ثم أخذت في التزيد إلى أن بلغت أحد عشر مركبًا في مملكتي الشام وطرابلس، وربما زادت على ذلك. قال: وآخر عهدي بها من السبعة إلى الثمانية تطلب من الشام ولا تكلف طرابلس إلا المساعدة، وكل ذلك بحسب اختلاف الأوقات ودواعي الضرورات.

قال: والمراكب تأتي دمياط في البحر، ثم يخرج الثلج في النيل إلى ساحل بولاق، فينقل فيه على البغال السلطانية، ويحمل إلى الشرابخاناه الشريفة، على ما تقدم ذكره.

وقد جرت العادة، أن المراكب، إذا سفرت سفر معها من يتدركها من ثلاجين لمداراتها. ثم الواصلون بها في البحر يعودون على البريد في البر.

«**الفصل الثالث**»:

«من الباب الثالث من الخاتمة في الهُجن المعدّة لنقل ذلك».

قد ذكر في «التعريف» أنه مما حدث، في الدولة الناصرية، «محمد بن قلاوون» واستمر. وقد كان قبل ذلك لا يحمل إلا في البحر خاصة. ثم ذكر أن هذه المراكز من دمشق إلى الصَّنمين، ثم منها إلى بانياس، ثم منها إلى إربد، ثم منها إلى بيسان، ثم منها إلى جينين، ثم منها إلى قاقون، ثم منها إلى لُدّ، ثم منها إلى غزة، ثم منها إلى العريش، ثم منها إلى الورّادة، ثم منها إلى المُطَيْلب، ثم منها إلى قَطْيا، ثم منها إلى القُصَير، ثم منها إلى الصالحيّة، ثم منها إلى بُلَيْس، ثم منها إلى القلعة.

قال: والمستقر في كل مركز ست هُجن: خمسة للأحمال، وهجين للهجان، تكون كل نقلة خمسة أحمال، وهذه الهجن من الشام إلى العريش على المملكة الشامية، خلا هجينين فإنها على صَفَد. ومن الورادة إلى القلعة هجن من المناخات السلطانية، والكلفة على مال مصر. ولا تستقر هذه الهجن بهذه المراكز إلا أوان حمل الثلج، وهي حزيران وتشرين الثاني. وعدة نقلاته إحدى وسبعون نقلة، متقارب مدد ما بينها، ثم صار يزيد على ذلك. ويجهز مع كل نقلة بريدي يتداركه، ويجهز معه ثلاج خبير بحمله ومداراته، يحمل على فرس ببريد ثان. قال: واستقر في وقت أن يحمل الثلاج على خيل الولاية.

واعلم أن الثلج إذا وصل على المراكب والهجن حتى انتهى إلى القلعة ، خزن بالشرابخاناه السلطانية . قال في « التعريف » : وقد قرر أن يحمل من الثلج على الظهر ما يحمل ، استقر منه خاص المشروب ، لأنه يصل أنظف وآمن عاقبة ، على أن المتسفّرين يأخذون الجاشني منه ، بحضور أمير مجلس وشاد الشرابخاناه السلطانية وخزانها . أما المنقول في البحر فلما عدا ذلك . قال وللمجهزين به من الخلع ورسوم الإنعام رسوم مستقرة ، وعوائد مستمرة .

قلت : وقد جرت العادة أن واصل الثلج في كل نقلة في البر والبحر تكتب به رجعة من ديوان الإنشاء . انتهى كل ذلك من كتاب صبح الأعشى .

تأسيس أمانة العاصمة

نعني بأمانة العاصمة بلدية مكة المشرفة ، فمكة هي عاصمة بلاد الحجاز ، وهي كبرى مدنها ورئيس بلديتها يطلق عليه ، في عصرنا الحاضر ، أمين العاصمة . والبلديات لم تكن معروفة في الحجاز ، في سابق الأزمان ، وما عرفت إلاّ في عهد الشريف الحسين بن علي ، رحمه الله تعالى ، فإنه بعد أن أخرج الأتراك من الحجاز في سنة (١٣٣٤) هجرية ، استقل بملك الحجاز ، وكانت مكة المكرمة عاصمة ملكه ، ففيها كانت إقامته الدائمة ، فبعد أن استقلّ ، وصار يلقب بملك الحجاز ، قام ينظر إلى مصالح بلاده ، ومصالح حياة رعيته الحجازيين ، ولسنا هنا في صدد بيان كيفية استقلاله ومحاربته للأتراك ، فإن ذلك يعلم من المصادر التاريخية ، وإنما نحن نبين هنا إنشاء أمانة العاصمة وتاريخ تأسيسها فنقول وبا لله التوفيق :

إن الشريف الحسين بن علي ، رحمه الله تعالى ، لما تولى حكم الحجاز ، من قِبل الدولة التركية العثمانية ، أمر بإنشاء البلدية بمكة المكرمة في سنة (١٣٣٢) ألف وثلاثمائة واثنتين وثلاثين هجرية ، ولم يكن ، قبل عهده ، بلديات بالحجاز ، غير أنه كان في عهد الشريف عون ، الذي كان واليًا على الحجاز ، من قِبل الأتراك ببضع سنوات ، رجل مهندس اسمه عبد الله أبو لِيَّة ، من أهل جياد بمكة ، فإن هذا الرجل وحده كان يفسح للناس ببناء البيوت والمنازل ، ويقضي ويصلح بين المتخاصمين ، فمن لم يرض بحكمه حوّله إلى الشرع الشريف ، ولذلك كانت بيوت مكة ومنازلها قديمًا متداخلة ، بعضها ببعض ، والحارات ضيقة ، خصوصًا وأن كل واحد

منهم يحب أن يكون بيته بقرب المسجد الحرام، ولو على رؤوس الجبال، وما كانوا يحبون البعد عن المسجد الحرام والسكنى في أطراف مكة كعهدنا الحاضر.

فلما أمر الشريف الحسين بن علي، رحمه الله تعالى، ملك الحجاز الأسبق، بإنشاء وتأسيس أمانة العاصمة في السنة المذكورة (١٣٣٢) هـ، جعل الشيخ عبدالقادر الشيبي رئيسًا لها، وجعل معه الأعضاء وهم:

١) الشيخ عبد الله أبو الخير.

٢) الشيخ عبد الوهاب خوقير.

٣) الشيخ ياسين العظمة.

٤) الشيخ محمد الزبيدي.

٥) الشيخ سليمان التركي.

وهذا الأخير رجل مهندس، ولقد جمع هذا الرجل، في إحدى المرات، المعلمين، من البنايين بمكة، وقال لهم: إذا سمعتم أهل العمارات يتخاصمون فيما بينهم على أرض أو بناء أخبرونا بذلك حتى نصلح بينهم، لأن لا يتعدى أحد على أحد، ونبَّه عليهم أن أي أحد من المعلمين البنائين يريد أن يبني بيته، فزملاؤه، من أهل الصنعة، يخدمون في البناء ثلاثة أيام مجانًا، والبلدية تعطيه كوشان التعمير مجانًا أيضًا، وكانت البلدية تعطي كوشان التعمير لكافة الناس، بمقابل هللتين عن كل ذراع، أي في مقابل نصف قرش في ذلك الزمن، فانظر، رحمنا الله تعالى وإياك إلى حسن معاملة البلدية مع الأهالي وإلى قوانينهم اللطيفة.

ثم إن الشريف الحسين المذكور عزل الشيخ عبدالقادر الشيبي من رئاسة البلدية، ووضع مكانه الشيخ يوسف قطان، الذي هو والد الشيخ عباس قطان، رحم الله تعالى الجميع، ولم يغير أحدًا من الأعضاء. ثم نقل الشريف الحسين الشيخ يوسف قطان من رئاسة أمانة العاصمة وجعله وزيرًا للنافعة، أي وزيرًا للأوقافات الخيرية، التي ليس لها أحد، ولنوع من الصدقات والخيرات، يقوم بها. وكان ذلك بعد إخراج الأتراك من الحجاز.

وجعل الشيخ عبدالقادر عبده رئيسًا لأمانة العاصمة، ثم عزله وجعل مكانه الشيخ عبد الله مشاط، من شعب عامر بمكة، ثم عزل جميع الأعضاء وأبدلهم

بآخرين ، ثم عزل المشاط وجعل مكانه الشيخ أحمد السبحي ، من الشبيكة بمكة ، ثم عزله وجعل مكانه الشيخ عبد الحي قرار .

ثم لما تولّى الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، رحمه ا لله تعالى ، على الحجاز ، جعل الشيخ عبداللطيف عالم ، بفتح اللام ، المطوف رئيسًا لأمانة العاصمة ، ثم وضع مكانه الشريف محمود من شعب عامر بمكة ، ثم وضع مكانه الشيخ عبدالرحمن بشناق من القشاشية بمكة ، ثم وضع مكانه الشيخ عباس قطان ولبث في رئاسة أمانة العاصمة مدة طويلة ، ثم تولى بعده الشيخ عبد الرؤوف الصبان فمكث بها بضع سنوات ، ثم تولى بعده الشيخ محمد صادق في سنة (١٣٧٢) هـ ، فمكث نحو سنتين فقط وهو ومن سبقه من أهالي مكة المكرمة ، ثم تولى بعده الشيخ عبد ا لله بن خثلان في سنة (١٣٧٤) ، وهو من أهالي نجد ، ثم تولى بعده الأستاذ عبدا لله عريف من أهالي مكة ، وهو ما زال رئيسًا لأمانة العاصمة إلى اليوم ، فعمل من الأعمال المجيدة ما لم يعمله أحد من سلفه ، وإن شاء ا لله تعالى ، سنكتب عن أعماله بحثًا وافيًا ، وهنا نضع صور اثنين من رؤساء أمانة العاصمة المتأخرين تخليدًا لذكراهم ، نسأل ا لله تعالى أن يوفق الجميع لخدمة هذا البلد الأمين ، فيؤخذ مما تقدم أن جميع البلديات ، في المدن الحجازية الكبرى ، قد أنشئت بعد بلدية مكة المكرمة في ذلك الحين .

هذا ولقد استقينا هذه المعلومات من أحد المعمرين بمكة من المعلمين البنائين الشهيرين ، وهو جارنا العزيز الشيخ علي هليكة ، أدام ا لله تعالى عليه الصحة والعافية والنعم الوافية وستره وإيانا في الدنيا والآخرة وختم أعمالنا وأعماله بالأعمال الصالحة على طهارة ونظافة وراحة تامة إنه سبحانه وتعالى سميع مجيب .

ترجمة سعادة الأستاذ عبدالله عريف « أمين العاصمة »

هو من أهل مكة ومن المتعلمين المثقفين ، اشتغل بالأدب ، في بادئ حياته ، فأسندت إليه جريدة البلاد السعودية ، التي تصدر بمكة المشرّفة ، فقام بإدارتها خير قيام ، حتى صار من أبرز الصحفيين ، اشتغل فيها زمنا طويلا ، ثم في سنة

(١٣٧٩) ألف وثلاثمائة وتسع وسبعين هجرية ، أسندت إليه الحكومة السعودية رئاسة أمانة العاصمة .

انظر: صورة رقم ٢٢٢ ، الأستاذ عبد الله عريف

لقد تولى سعادة الأستاذ عبد الله عريف أمانة العاصمة في السابع والعشرين رجب سنة (١٣٧٩) ، بأمر رسمي من الجهات العليا من سمو نائب جلالة الملك المعظّم ورئيس مجلس الوزراء ، الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود الذي تولى المُلك في (٢٧) جمادى الثانية سنة (١٣٨٤) هـ ، وإليك نصّ الأمر الرسمي :

حضرة المكرم الأستاذ عبد الله عريف

بناءً على ما اقتضته المصلحة العامة فقد ارتأينا تعيينكم أمينًا للعاصمة براتبها المقرر وقد أبلغنا وزارة الداخلية باعتماد ذلك لإجراء الدور والتسليم بينكم وبين سلفكم حسب الأصول . فيقتضي مباشرة عملكم بما نأمله فيكم من جد ونشاط متمنين لكم التوفيق والسداد ،

في ٢٣ / ٧ / ١٣٧٩هـ

التوقيع

فيصل

والحق يقال أن تعيين الأستاذ عبد الله عريف أمينًا للعاصمة قد صادف محله ، فلقد قام بمشاريع عظيمة لم يسبق لأسلافه مثلها ، وما ذلك إلاّ بتوفيق العزيز الحكيم .

قام الأستاذ عبد الله عريف في أمانة العاصمة بخدمات كبيرة لم يسبقه إليها أحد ، فوسّع الشوارع والطرقات ، وافتتح الميادين بمكة المشرّفة ، وغرس في الشوارع المهمة بعض الشجيرات ، وأحسن مناظرها ببعض النباتات ، ووضع في ميادينها أربع نافورات ، لتجميل المناظر . فاتساع شوارع مكة وبناء بعض درج جبالها المسكونة لم تكن إلاّ في عهده أمدّه الله تعالى بالمعونة والتوفيق وأكثر من أمثاله الفضلاء آمين . وكان ساعده الأيمن في أعماله الجيدة ومشاريعه العديدة هو سعادة الشيخ عبد الله بن صدّيق وكيل أمانة العاصمة كما ستأتي ترجمته .

انظر : الصورتين رقم ٢٢٣، لأحد الشوارع الحديثة عند مدخل مكة المكرمة، ورقم ٢٢٤ لمدخل مكة المكرمة الحديثة بعد حملة الإصلاح العمرانية فيها .

ترجمة الشيخ عبد الله بن صديق وكيل أمانة العاصمة

هو شاب فاضل ذكي لبيب ، اجتماعي نشيط ، التحق بأمانة العاصمة وما زال يتدرج ويترقى في الوظيفة ، بجده وإخلاصه ، حتى وصل إلى وظيفة وكيل أمانة العاصمة ، وذلك في أول سنة (١٣٨١) ألف وثلاثمائة وإحدى وثمانين هجرية ، وفي عهده حصلت توسعة الشوارع وتجميلها ، كما سبقت الإشارة إلى بيانها ، في ترجمة سعادة الأستاذ عبدا لله عريف ، فهو أيضًا من بناة الإصلاح بعاصمة المسلمين «مكة المكرمة» تلك البلدة الطاهرة المقدسة .

انظر : الصورة رقم ٢٢٥، للأستاذ عبد الله بن صديق.

وإليك نبذة من ترجمة حياته الوظيفية كما كتبها لنا بنفسه وهي كما يأتي :

١) التحق بأول وظيفة بخدمة الحكومة السنية بتاريخ ٦٦/٨/١٦ إلى ٦٧/٧/٢ بوظيفة مأمور ملفات بأمانة العاصمة .

٢) ثم تعين بوظيفة كاتب آلة اعتبارًا من ٣/ ٦٧/٧ إلى ٦٧/١٢/٣٠ في نفس الأمانة .

٣) ترفع إلى وظيفة معقب ورئيسًا للأرشيف العام اعتبارًا من ٦٨/١/١ إلى ٧٠/٦/٣٠ بأمانة العاصمة .

٤) ترفع إلى وظيفة محرر أول ، ومشرف على إدارة التحرير اعتبارًا من ٧٠/٧/١ إلى ١٣٧٤/١٢/٣٠هـ .

٥) ثم ترفع إلى وظيفة مدير إدارة التحريات والقيام بأعمال أمين العاصمة في حالة غيابه اعتبارًا من ٧٦/٦/١ إلى ١٣٨٠/١٢/٣٠هـ .

٦) ترفع إلى وظيفة وكيل أمين العاصمة اعتبارًا من ٨١/١/١ وما زال بها إلى تاريخه .

٧) ابتعث إلى القاهرة لحضور دورة معهد الإدارة العامة بالقاهرة والأمم المتحدة في عام ٨١ تحصل على شهادة المعهد وتخصص في الأبحاث المتعلقة بالإدارة العامة وطرق التنظيم الإداري .

هذه نبذة من ترجمة الأستاذ عبد الله بن صديق، وفقه الله تعالى، وسدد خطاه آمين.

معرفة أهل الصدر الأول بأمور البناء وإصلاح الطرقات

جاء في الجزء الأول من كتاب «التراتيب الإدارية» بعنوان: معرفته عليه الصلاة والسلام، وأهل الصدر الأول، بأمور الهندسة والبناء وإصلاح الطرقات، ما نصّه:

في طبقات ابن سعد لما أقطع، عليه السلام، الدور بالمدينة خط لعثمان بن عفان داره اليوم، ويقال إن الخوخة، التي في دار عثمان اليوم، وجاه باب النبي عليه السلام، الذي كان المصطفى، عليه السلام، يخرج منه، إذا دخل دار عثمان اليوم، وفي أزهار الرياض للإمام أبي العباس المقري، نقلاً عن خط أبي زيد عبدالرحمن الغرناطي، على هامش الشفا عند ذكر عياض، أنه عليه السلام قال: وهو بموضع نعم، موضع الحمام هذا، ما نصّه: هو داخل في معرفته ﷺ بالهندسة والبناء، ذكره أبو نعيم في رياضة المتعلمين، ورواه عن أبي رافع قال: مر رسول الله ﷺ على موضع فقال: نعم الحديث، قال: فبنى فيه الحمام. اهـ. وقال الخفاجي، في نسيم الرياض، على هذا المحل: فيه الإخبار بحال البناء ومهاب الأهوية. اهـ.

وسيأتي في باب المنادى، عن سنن أبي داود، أن النبي ﷺ بعث أن ينادي في معسكره: أن من ضيق منزلاً أو قطع طريقًا فلا جهاد له، وذلك لما ضيّق الناس المنازل وقطعوا الطرق، فيؤخذ منه أنه عليه السلام كان يحب النظام، حتى في نصب الأخبية في السفر، فكيف لا يحب ذلك في محل الاستيطان والبناء المشيّد، قال شارح السنن فيه أنه لا يجوز لأحد تضييق الطريق، التي يمر منها الناس، ونفى جهاد من فعل ذلك على طريق المبالغة في الزجر والتنفير، وكذلك لا يجوز تضييق المنازل لما في ذلك من الأضرار. اهـ.

وفي سيرة عمر أنه لما أذن ببناء البصرة والكوفة خطوا الشوارع على عرض عشرين ذراعًا وطول أربعين ذراعًا، والأزقة تسعة أذرع، والقطائع ستين ذراعًا، وبنوا المسجد الجامع بالوسط، بحيث تتفرع الشوارع، وذلك بأمر عمر رضي الله عنه، وهذا يدل على نفاق سوق الهندسة حتى في البناء في الزمن الأول سفرًا

وحفرًا وتخطيطًا ، وفي سيرة عمر أيضًا أنه لما جاء الشام سنة ١٧ رتب الشواتي والصوائف ، أي: الجنود التي تغزو في الصيف ، والجنود التي تغزو في الشتاء ، وسدّ فروج الشام ومساكنها وهي النقط العسكرية وخطوط الدفاع .

وفي فتوح البلدان ، أن معاوية كتب إلى عمر ، بعد موت أخيه يزيد ، يصف له سوء حال الشام ، فكتب إليه في حرمة حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على مناظيرها ، واتخاذ المواقيد لها ، (والمناظير قباب مبنية على رؤوس الجبال العالية) بين كل بلد وآخر ، بحيث يتقارب بعضها ويشرف بعضها على بعض ، ويقام فيها حراس يوقدون النيران عندما يرون إقبال العدو من جهتهم ، فيوقد حراس المناظير الذين يلونهم كذلك ، وهكذا حتى يصل الخبر إلى المدينة أو الثغر أو المسلحة في زمن قليل ، فيسرعون لإمداد الجهة التي أقبل منها العدو ، وهذا كذلك يدل على نفاق أسواق الهندسة في البناءات الحربية والمراكز العسكرية ، وفي فتوح البلدان أيضًا أن عمر كان يشترط على أهل الذمة إصلاح الجسور والطرق .

بدء بناء البيوت بمكة

لم تكن معروفة منذ قديم الزمان ، فأول من اكتشفها خليل الله ابراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، وذلك حينما أمره الله تعالى أن ينقل ابنه إسماعيل مع أمه هاجر إلى مكة ، فأتى له بالبراق فركبوا عليه من الشام قاصدين مكة ، يدلّهم عليها وعلى معالم الحرم وموضع البيت جبريل عليه السلام ، فقدموا مكة وليس بها أحد من البشر ، فلا بناء ولا ماء ولا شجر مثمر ، اللهم إلاّ أشجار العِضاه بكسر العين المهملة « بوزن كتاب » وهي أشجار عظيمة ذات شوك ، وهذه الأشجار لا تزال إلى اليوم موجودة في أراضي الحجاز وهي الأشجار الطبيعية ، التي تنبت بنفسها ، وتسمى شجر البادية ، غير أنها كانت في تلك الأيام كثيرة وافرة وضخمة عظيمة لم تمتد إليها يد الإنسان بالقطع والاحتطاب ورفعها من الطرقات ومواضع المساكن ، أما بعد استيطان البشر بمكة ، فقد نقصت هذه الأشجار الشوكية ، بل تكاد أن لا يوجد منها شيء ، في بطن مكة .

فلما أقام بمكة إسماعيل مع أمه ، وأظهر الله تعالى لهما ماء زمزم ، بفضله وكرمه ، حسبما اقتضته الإرادة الأزلية ، وردت عليهما قبيلة من جرهم ، فاستأذنوهما في النزول عندهما ، ثم أرسلوا إلى أهليهم فقدموا إليهم ، ثم عمرت

مكة بهم وبغيرهم من قبائل العرب ، لكن كانوا يسكنون خارج مكة في أوديتها وشعابها تعظيمًا لبيت الله الحرام ، فلم يكن في وسط مكة شيء من البيوت مطلقًا إلاّ البيت الحرام إلى أن كان زمن قصيّ كما سيأتي .

يقول الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه «قصص الأنبياء» ولم يبن بمكة شيء ، بعد البيت ، إلاّ في القرن الثاني قبل الإسلام ، في عهد قصيّ بن كلاب ، فإنه بنى دار الندوة ، وتبعته قريش تبني حول المسجد ، وكان المسجد ساحة فبنوا حوله ، وذلك من نحو خمسين ومائة سنة قبل الإسلام . انتهى كلامه .

ولقد كانت القبائل ، من جرهم والعمالقة وخزاعة وقريش وغيرهم ، يسكنون بشعاب مكة ويقطعون بظاهرها ، ولا يقيمون بها إلا نهارًا ولا يدخلونها على جنابة ، فإذا أمسوا خرجوا إلى الحلّ ، ويتركون حول الكعبة بدون بنيان ، احترامًا لها وتعظيمًا لشأنها ، فلا يجترئ أحد أن يبني بجوارها دارًا ولا جدارًا . فلما آل الأمر إلى قصيّ بن كلاب ، الذي كان قبل الهجرة بنحوٍ مائة وثلاثين سنة ، جمع قومه ، بطون قريش ، وأمرهم أن يبنوا حول الكعبة بيوتًا من جهاتها الأربع ، وقال لهم : إن سكنتم حول الكعبة هابتكم الناس ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم ، فبدأ هو أولاً ببناء دار الندوة في الجانب الشمالي للكعبة ، وهو فسحة باب الزيادة ، فكانت دار الندوة أول دار بنيت بمكة قبل الإسلام بنحو قرن ونصف . ثم قسّم قصيّ باقي الجهات ، بين قبائل قريشٍ ، فبنوا بيوتهم حولها ، فكان ذلك أول بدء البنيان حول الكعبة ، فكل من بنى بيتًا من قبائل قريش حول الكعبة سمي : «قريش البواطن» وكانوا يبنون بيوتهم مدورّة الشكل تعظيمًا للكعبة . فأول من بنى بيتًا مربعًا حميد بن زهير ، وعندئذ قالت قريش : «ربّع حميد بيتًا إما حياة وإما موتًا» أي تخوفوا عليه من الإنتقام الإلهي ، حيث خالف عادة العرب ، فبنى بيتًا مربعًا فأشبه تربيع الكعبة ، قال الأزرقي : كانت دار حميد بن زهير اللاصقة في ظهر الكعبة ، كانت تفيء على الكعبة بالعشي ، وتفيء عليها بالبكر . اهـ .

ولقد ذكر بعضهم أن أول دار بنيت بمكة هي دار العجلة . فهذا وهم منهم لا أصل له مطلقًا ، وهم نقلوه عن غيرهم بدون تأمل وبحث ، فالأصح أن دار الندوة هي أول دار بنيت بمكة ، في عهد قصيّ بن كلاب ، قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وهذا مما لا شك فيه لدى المتأمل .

ودار العجلة ذكرها الإمام الأزرقي في تاريخه، والأزرقي حجة لدى الجميع، فهو كالمولود بمكة في القرن الثاني للهجرة، ومن علمائها الأعلام، وشيخ المؤرخين قاطبة، وفي المثل: «أهل مكة أدرى بشعابها» فقد قال رحمه الله تعالى، عن دار العجلة في تاريخه ما يأتي: دار العجلة ابتاعها عبد الله بن الزبير من آل سمير بن موهبة السهميين، وإنما سميت دار العجلة لأن الزبير حين بناها عجّل وبادر في بنائها فكانت تبنى بالليل والنهار، حتى فرغ منها سريعًا، وقال بعض المكيين: إنما سميت دار العجلة لأن ابن الزبير كان ينقل حجارتها على عجلة اتخذها على البخت والبقر. انتهى كلام الأزرقي.

فدار العجلة ربما كانت موجودة قبل ابن الزبير، الذي قتل سنة ثلاث وسبعين من الهجرة بعدة سنوات. والحكم بأنها أول دار بنيت بمكة غير صحيح مطلقًا. والصحيح الذي لا شك فيه وهو المعتمد أن أول دار بنيت بمكة هي دار الندوة.

فعلم مما تقدم أن قصيّ بن كلاب، الجد الرابع للنبي ﷺ هو الذي أمر قريشًا أن تبني بيوتها حول الكعبة بمكة، لا تهاونًا بأمرها وإنما ملاذًا بها حتى تهابهم الناس فلا يستحلون قتالهم ولا يهضمون حقوقهم، كما أنه هو أول من بنى دارًا قبل قريش، وهي دار الندوة، لتقتدي قريش به في بناء بيوتها، وانظر إلى حكمة قصي في بدء بناء دار الندوة قبل بناء دار خاصة لنفسه، فدار الندوة هي عبارة في عرفنا ونطلق عليها في عصرنا هذا «قصر الحكم» أو «دار البرلمان» أو «دار مجلس الوزراء» أو «دار الإمارة» لأن دار الندوة كانت قريش لا تبرم أمرًا إلاّ فيها، ولا يقبل فيها من غير بني قصيّ إلا من بلغ سن الأربعين، ويدخلها بنو قصيّ جميعًا كبيرهم وصغيرهم، وغير ذلك من الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يكون عضوًا فيها.

فالابتداء ببناية هذه الدار التي هي في مصلحة كل قبائل قريش، قبل بناء بيوتهم، بل حتى قبل بناء بيت لحاكم مكة، هو عين الصواب والحكمة.. ولقد جعلنا لدار الندوة مبحثًا خاصًا فارجع إليه إن شئت.

ولم تكن في صدر الإسلام، بيوت بمكة تكرى ولا تباع. قال الإمام الأزرقي في تاريخه عن علقمة بن نضلة: كانت الدور والمساكن على عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، رضي الله تعالى عنهم، ما تكرى ولا تباع ولا تدعى إلا السوائب، من احتاج سكن ومن استغنى أسكن.

قال يحيى : قلت لعمرو بن سعيد : فإنك تكري ؟ قال : قد أحل ا الله الميتة للمضطر إليها . وروي عن ابن جريج ، قال : كان عطاء ينهي عن الكراء في الحرم ، وقال ابن جريج : أخبرني عطاء أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تبوّب أبواب دور مكة . اهـ .

فأول دار بمكة عمل بها بابان هي دار هند بنت سهيل . وذلك كما رواه الأزرقي ، في تاريخ مكة ، أن هند بنت سهيل استأذنت عمر ، رضي ا الله عنه ، أن تجعل على دارها بابين ، فأبى أن يأذن لها ، وقال : إنما تريدون أن تغلقوا دوركم دون الحاج والمعتمرين ، وكان الحاج والمعتمرون ينزلون في عرصات دور مكة . فقالت هند : وا الله يا أمير المؤمنين ما أريد إلا أن أحفظ على الحاج متاعهم ، فأغلقها عليهم من السرق ، فأذن لها فبوّبتها . انتهى من الأزرقي .

هذا ما كان من ابتداء البنيان وظهور البيوت في مكة المشرفة ، ولا يخفى الفرق الكبير بين تلك البيوت البدائية العربية ، وبين ما فيها الآن من القصور الفخمة والعمارات الضخمة ، والبيوت المكلفة بالآلاف المؤلفة ، نسأل ا الله العزيز الكريم أن يوفقنا لشكر نعمائه ليزيدنا من فضله وإحسانه في بلدته الطاهرة المطهرة ، زادها ا الله شرفًا وأمنًا ورزقًا ورخاءً ، وخيرًا وعمرانًا ، ووفقنا فيها لصالح الأعمال حتى يتوفانا بها على الإيمان الكامل آمين وصلى ا الله على نبينا « محمد » أبي القاسم الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين .

امتداد البيوت والعمارات بمكة

لم تكن مكة المشرفة معروفة مسكونة ، إلاّ بعد إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، فحينما جاء إليها ، من أرض الشام ، لأول مرة ، بابنه إسماعيل وأمه هاجر ، راكبين البراق ، يدلهم عليها جبريل ، عليه السلام ، لم يكن بها إنس ولا بشر ، فوضعهما في مكان زمزم ومكان البيت ومعهما جراب من تمر وسقاء من ماء ، ثم رجع من حيث أتى ، فلما نفد الماء وأشرفا على الهلاك ، جاء جبريل وضرب بجناحه الأرض فخرج لهما ماء زمزم ، وبعد أيام مرت بها قبيلة من جرهم ، فاستأذنوا هاجر في النزول عندها ، فأذنت لهم ، فدامت إقامتهم معها حتى كثروا ، فلما كبر إسماعيل عليه السلام تزوج بامرأة منهم .

ثم أمر الله، عزّ شأنه، خليله إبراهيم أن يبني بيته الحرام بمكة ليحج الناس، فأتى إليها وبناه هو وابنه إسماعيل عليهما السلام بالرضم، أي بالحجارة فقط من غير طين، كما تقدم تفصيل ذلك، ثم كثر الناس وازداد سكان مكة شيئًا فشيئًا من ذلك العصر إلى اليوم، وما كانوا يسكنون عند البيت تعظيمًا له، وإنما كانوا يبعدون عنه، فيتخذون منازلهم بين الشعاب والجبال، حتى كان قصيّ بن كلاب، الجد الرابع لنبينا محمد ﷺ، فجمع القبائل وأمرهم أن يبنوا حول البيت الحرام حتى تهابهم الناس، فما كانت تتجاوز منازلهم حول البيت.

ثم لما كثر الناس بعد الإسلام، وصار المهاجرون يفدون إلى مكة ويقيمون بها، امتدت البيوت إلى أول المدّعى وأول أجياد وأول الشبيكة وأول المسفلة، وهذا رسول الله ﷺ، بعد أن سكن المدينة، كان إذا جاء مكة لم ينزل في بيوتها، وإنما ينزل بأعلى مكة جهة الحجون وكانت تضرب قبته بالأبطح، وكان المحصب مناخ للركبان، والأبطح والمحصب بأعلى مكة. قال الفاسي بصحيفة (١٣) في كتابه «شفاء الغرام» ما ملخصه:

ذكر الفاكهي ما يقتضي أن الناس، فيما مضى، كانوا لا يتجاوزون في السكنى البئر، التي عند المسجد، الذي عند الردم، بأعلى مكة، ويقال لها البئر العليا «أي بئر جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل». وهذه البئر لا زالت إلى اليوم موجودة وبها الماء، وهو على يمين الصاعد من المدّعى إلى المعلى، في الزقاق الضيق، الذي بين مسجد الراية وبين البيت المقابل له.

ثم قال الفاكهي: سمعت بعض أهل مكة من الفقهاء يقولون: كان الناس لا يتجاوزون في السكنى من قديم الدهر هذا البئر، إنما كان الناس فيما دونها إلى المسجد، وما فوق ذلك خال من الناس.

ثم قال أيضًا: وسمعت أبا يحيى بن أبي مسرة يقول: كان آخر البيوت عند الردم نحوًا من هذا الموضع، واحتج في ذلك بقول عطاء: إذا جاوز الردم «يعني الحاج» صنع ما شاء اهـ. والمقصود بالردم ردم عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وهو برأس المدّعى، والفاكهي توفي سنة (٢٨٠) فيكون من أهل القرن الثالث. قال الفاسي، المتوفى سنة ٨٣٢ في كتابه المذكور: وللناس اليوم منازل كثيرة مسكونة فوق هذا المسجد والبئر المشار إليها من جانبي الوادي، وهي من الجانب الذي يكون على يمين الصاعد من مكة المشرفة. اهـ.

ثم ازداد سكان مكة، شرّفها الله تعالى، فامتدت الدور والمساكن إلى ما فوق هذه الجهات، وكانت تبنى بدون نظام ولا انسجام، وكانت متداخلة بعضها ببعض بشكل قد يحجب النور والهواء عن غالبها، وكانت الأزقة والشوارع ضيقة جدًا لتزاحم البيوت في السهل والجبل، وذلك حتى لا يتعدوا كثيرًا عن محيط البيت الحرام، ثم امتدت الدور والمساكن الآن، في أطراف هذا البلد الأمين، زادها الله شرفًا وخيرًا وأمنًا وأمانًا، حتى كادت تصل إلى منتصف حدود الحرم في بعض الجهات.

وبمناسبة العمران القائم الآن، في عصرنا الحاضر، على قدم وساق، في أنحاء المملكة العربية السعودية، أحببنا ذكر امتداد المنازل والبيوت في أطراف مكة المكرمة، بدون التعرض لامتدادها وكثرتها في بقية المدن، لأن كتابنا هذا خاص بتاريخ مكة، ولا بد من ذكر ما كانت مكة من العمران قديمًا، للمقارنة بين القديم والحديث على هذا الامتداد في البيوت والعمران بمكة المشرفة قد وصل في بعض جهاتها إلى خمس كيلومترات وفي بعض أكثر من ذلك، وقد سبق الكلام على أن مكة كانت مسورة، فنقول وبالله التوفيق:

جاء في تاريخ الغازي، نقلاً عن الفاسي، الذي توفي سنة (٨٣٢) اثنين وثلاثين وثمانمائة، ما نصّه:

وطول مكة من باب المعلاة إلى باب الماجن، يعني درب اليمن بالمسفلة، موضع السور الذي كان موجودًا في زمانه، من طريق المدّعى والمسعى ومسيل وادي ابراهيم، والسوق الذي يقال له الآن: سوق الصغير، مع ما فيه من دورات ولفتات ليست على الاستقامة، أربعة آلاف ذراع واثنان وسبعون ذراعًا، بتقديم السين، بذراع اليد، وهو ينقص ثمن ذراع عن ذراع الحديد المستعمل الآن، يعني الذراع الشرعي.

وطول مكة من باب المعلاه إلى باب الشبيكة، من طريق المدّعى، ثم يعدل عنه إلى سويقه، ثم إلى الشبيكة أربعة آلاف ذراع ومائة ذراع واثنان وسبعون ذراعًا، بتقديم السين، بذراع اليد أيضًا. انتهى من تاريخ الغازي.

نقول: أما عرض مكة فلم يذكره الغازي، لأن عرضها معروف فهو يمتد من الجبل إلى الجبل والجبال على جانبي مكة متقاربة جدًا، فإن أكثر بيوت مكة واقعة بين الشعاب والجبال، فإذا قارنا مقدار امتداد العمران في طول مكة، أمكننا معرفة

سريان العمران بين الجبال والشعاب في جميع أنحاء مكة وملتوياتها . وفي المثل العربي: «أهل مكة أدرى بشعابها» ، وإليك صورة بعض البيوت التي بين الجبال .

انظر: صورة رقم ٢٢٦ ، بعض البيوت التي بين جبال مكة المكرمة وبعضها مبني بالصنادق (الأخشاب الملبسة بصفائح التنك).

ولقد كانت المنازل والبيوت بمكة إلى رأس القرن الرابع عشر الهجري ، أي إلى عام (١٣٠٠) ، إلى حلقة المعلى ، أي لا تصل إلى مقبرة المعلاة ، بدليلين :

الأول : جرت العادة أن تكون حلقة البلدة في خارجها بعد العمران ، «أي السوق العام الذي يباع فيه الخضروات وغيرها بالجملة في الصباح الباكر كل يوم» .

والثاني : ما أخبرنا به المعمرون في وقتنا الحاضر عن ذلك ، ولقد ذكر الغازي في تاريخه في الجزء الأول ، بصحيفة (٣١٦) أن سوق بيت الحطب كان بالمدّعى في سنة (٩١٨) ثمان عشرة وتسعمائة ، وهو كلام معقول جداً .

وذكر القطبي في تاريخه وهو الذي توفي عام (٩٨٨) ثمان وثمانين وتسعمائة هجرية ، أن أحد الشيوخ المعمّرين أخبره أنه شهد الظباء تنزل من جبل أبي قبيس إلى الصفا ، وتدخل إلى المسجد لقلة الناس . فهذه الحكاية ليست ببعيدة ، فإن جهة جبل أبي قبيس وأجياد والمصافي لم تكن آهلة بالناس في ذلك العصر ، أما اليوم فليس في تلك الجهات موضع متر إلا وهو عامر مسكون ، ومن وراء تلك الجهات من فوق الجبال يؤدي إلى جهة منى وهي عامرة بالسكان أيضًا .

ثم إنه منذ سنة (١٣٦٠) ستين وثلاثمائة بعد الألف تقريبًا ، سرى العمران في أطراف مكة كلها ، بل في أنحاء جميع المملكة السعودية ، سيرًا حثيثًا ، ومشى بخطى واسعة ، فأصبحت العمارات الضخمة والمنازل الجميلة والقصور العظيمة على أحدث طراز بمكة المشرفة ، تصل من أعلاها إلى طرف جبل حراء وإلى قرب منى ، وتصل من أسفلها إلى قرب جبل ثور ، ومن ناحية الشبيكة تصل إلى منتهى جرول والطندباوي ، وإلى طريق جدة وإلى ناحية الزاهر والشهداء إلى أن تصل بوادي التنعيم موضع إتيان العمرة .

ولم تكن في تلك النواحي عمارات ولا سكن إلاّ ما ندر جدًا ، فما كانت البيوت تتعدى قشلة جرول ، أما جهة الزاهر فإن أول من بنى فيه بيتًا هو أحمد عزت باشا الأرذنجاني ، الذي تولى جدة من طرف الدولة العثمانية سنة (١٢٦٩)

تسع وستين ومائتين وألف ، فبنى البيت بالزاهر بالقرب من شهداء فخ ، في مدة ولايته هذه كما ذكره الغازي في الجزء الثاني من تاريخه . ويرجع سبب امتداد العمران إلى خمسة أمور :

(الأول) كثرة النقود بأيدي الناس وزيادة الرفاهية .

(والثاني) وصول الماء إلى جميع الجهات .

(والثالث) الأمن والأمان في جميع المملكة .

(والرابع) وجود المواصلات وكثرة السيارات (الأوتومبيلات) في البلاد .

(والخامس) كثرة سكان البلدة لكثرة النازحين إليها من جميع الممالك الإسلامية .

فانظر رحمك الله ، كيف كانت مكة في سابق العهد ، ثم كيف صارت اليوم ، فسبحان المتصرف في الكون ، وسبحان القائل في كتابه العزيز في سورة البقرة : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ .

والقائل في سورة آل عمران : ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ .

والقائل في سورة يونس : ﴿إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾ .

تنظيف الشوارع وإصلاحها

تنظيف الشوارع وإصلاحها هو من خصائص البلديات «أمانة العاصمة» اليوم ، لكن لو رجعنا إلى القرون السابقة لوجدنا أن ولاة الأمور كانوا يهتمون بأنفسهم به ، بل كانوا ينظرون في كل ما يهم المسلمين من صغيرة وكبيرة ، مع ما كان لديهم من الرجال والأعوان الموظفين في شتى الدواوين والإدارات .

روى الإمام الأزرقي في تاريخه : أصعد عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، المعلاة في بعض حاجته ، فمر بأبي سفيان بن حرب يهن جملاً له ، فنظر إلى

أحجار قد بناها أبو سفيان، شبه الدكان في وجه داره، يجلس عليه في فيء الغداة، فقال له عمر: يا أبا سفيان ما هذا البناء الذي أحدثته في طريق الحاج؟ فقال أبو سفيان: دكان نجلس عليه في فيء الغداة. فقال له عمر: لا أرجع من وجهي هذا حتى تقلعه وترفعه. فبلغ عمر حاجته، فجاء والدكان على حاله، فقال له عمر: ألم أقل لك لا أرجع حتى تقلعه، قال أبو سفيان: انتظرت يا أمير المؤمنين أن يأتينا بعض أهل مهنتنا فيقلعه ويرفعه، فقال عمر، رضي الله عنه،: عزمت عليك لتقلعنه بيدك ولتنقلنه على عنقك، فلم يراجعه أبو سفيان حتى قلعه بيده ونقل الحجارة على عنقه وجعل يطرحها في الدار، فخرجت إليه هند ابنة عتبة، فقالت: يا عمر أمثل أبي سفيان تكلفه هذا وتعجله عن أن يأتيه بعض أهل مهنته؟ فطعن بمخصرة كانت في يده في خمارها، فقالت هند: ونفحتها بيدها إليك عني يا ابن الخطاب، فلو في غير هذا اليوم تفعل هذا لاضطمت عليك الأخاشب، قال: فلما قلع أبو سفيان الحجارة ونقلها استقبل عمر القبلة، وقال: الحمد لله الذي أعز الإسلام وأهله، عمر بن الخطاب، رجل من بني عدي بن كعب، يأمر أبا سفيان بن حرب، سيد بني عبد مناف بمكة، فيطيعه، ثم ولى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، انتهى من الأزرقي.

وقال الغازي نقلاً عن كتاب «بلوغ القرى» ما يأتي: وفي صبح يوم الأحد خامس عشر ذي القعدة سنة (٩١٥) خمس عشرة وتسعمائة، شق الأمير خير بك المعمار المسعي وغيره، ونادى بشيل القمائم من أمام البيوت، ثم مر على بيت الزمزمي فرأى أمام بيتهم بعض شيء من ذلك، فسأل عن أصحابه فحضر إليه ثابت بن حسن بن ثابت الزمزمي، فوشحه بعضاً، ثم أمر به فوضع في الأرض، فضربه تحت رجليه، ثم مر على رباط السيد حسن بن عجلان فرأى شيئًا تحت جانبه مما يلي زقاق الحمام، فنادى شيخ الرباط فحضر إليه شيخه، وهو أحمد الفقيه بن عبدالمعطى بن حسان فوضع الآخر وضربه تحت رجليه، ثم مر على أوقاف الجمالي ناظر الخاص فرأى شيئًا من ذلك، فسأل عن المتكلم عن ذلك، فقيل محمد زمان، فحضر فضربه على رجليه ضربًا كثيرًا وطيف به البلاد. فلما رأى الناس منه ذلك، بادروا بشيل ما تحت بيتهم، وأمر بقطع أماكن كانت ضرورية بشيلها، مثل زقاق التمر والزقاق الذي بجنب بيت جانبك بالمدّعى يعني بقربه، وتوعد الناس كثيرًا، وقيل عنه أنه قال: تفتح مكة فتحًا جديدًا.

ويقول صديقنا الأستاذ السباعي في كتابه «تاريخ مكة»:وفي عام (١١٢٠) عشرين ومائة ألف من الهجرة، فكر رجال الحكومة في مكة وعلى رأسهم الشريف عبد الكريم بن محمد بن يعلى في توسعة الشوارع، فندبت لجنة لذلك، كانت تدور في الأسواق، لتشرف على هدم الدكك الخارجة عن حدود الدكاكين والبيوت، وإزالة المباسط من الأسواق، وكذلك الأشرعة «الظلل» وقد استمر العمل على ذلك عشرة أيام. انتهى.

وقال الغازي: وفي ٢٥ صفر سنة (١٣٣٥)، صدرت الأوامر السنية لوكالة النافعة الجليلة، بتوسيع شارع سوق المدعا، وصرف ما يلزم للهدم والبناء ونقل الأنقاض ومشترى الأخشاب ونجارتها من صندوق وكالة النافعة. وفي ٢٥ ربيع الثاني انتهى إنشاء الشارع المذكور، ومجموع ما هدم وأعيد بناؤه من الدكاكين بعد توسيع الشارع ثلاثة وأربعون دكانًا من الجهة الشرقية، مبتدأ من ركن دار الفنتيانة إلى دكة المقسم، وإحدى وثلاثون دكانًا من الجهة الغربية مبتدأ من ربع مغازل إلى دكة الشاذلي في سوق الحريرية، وبلغ عرض الشارع بين عشرة أذرع ونصف واثني عشر ذراعًا ونصف. انتهى.

العَلَم الحجازي

العَلَم بفتح أوله وثانيه، واللواء بكسر اللام والمد، والراية كلها بمعنى واحد وبعضهم فرّق بينها، لكن التفرقة فيها عرفية، فقيل: اللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه، والراية: ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح، وقيل: اللواء دون الراية، وقيل: اللواء العلم الضخم، والعلم علامة لمحل الأمير، يدور معه حيث دار، والراية يتولاها صاحب الحرب، فالعلم هو شعار الأمم ورمز الحكومات من قديم العصور والأزمان، وجميع الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية تجعل العلم في أرفع مكانة. وإن الجنود، بمختلف فرقها، مشاة وركبانًا، تنظر إلى علمها نظر افتخار واحترام، ويؤدون له التحية في أوقات خاصة، ويعتبرونه شرفهم الأسمى، لذلك إذا مشت الجنود إلى الحرب أو الطرقات تحمل كل فرقة منهم علمًا. ولقد كان لعقد اللواء بمكة شأن كبير في زمن الجاهلية، فكان اللواء بيد بني عبد الدار، ولقد كان المسلمون يوم فتح مكة، تحمل كل كتيبة راية، وكانت الكتيبة التي فيها رسول الله ﷺ، يحمل رايتها الزبير بن العوام، رضي الله تعالى عنه. ثم كان

رسول الله ﷺ يعقد الرايات لأمراء البعوث والسرايا ففي الصحيحين لأعطينّ الراية غدًا رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب لله ورسوله ويحبّه الله ورسوله ، يعني علي بن أبي طالب ، قال يوم خيبر ، رواه سهل بن سعد ، رضي الله تعالى عنه .

ولقد جاء عن رايات رسول الله ﷺ في تاريخ الخميس ما يأتي :

وأما راياته عليه السلام ، فالعُقاب ، وكانت سوداء من صوف ، من ستر باب عائشة . وقد مرّ في غزوة خيبر ، وكانت له ألوية بيضاء وربما جعل فيها السوداء ، وربما جعلت من خمر نسائه . وللترمذي : رايته سوداء مربّعة من نمرة ، ولمحيي السنّة: لواؤه أبيض مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولأبي داود: رؤيت رايته صفراء . انتهى منه .

قال في كتاب « التراتيب الإدارية » للحافظ المحدّث الشهير السيد الكتاني في الجزء الأول منه ، عن من حمل رايته ولواءه ﷺ ما نصّه : فمنهم أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، والزبير بن العوام ، وسعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وقيس بن سعد بن عبادة ، ومصعب بن عمير وذلك مفرّق في غزواته ﷺ ، أنظر سيرة ابن هشام والروض وغيره . انتهى منه .

وقال في كتاب « التراتيب الإدارية » المذكور ، عن ألوان راياته ﷺ ما نصّه : قال ابن إسحاق : دفع ﷺ اللواء يوم غزوة بدر الكبرى إلى مصعب بن عمير ، وكان أبيضًا ، وفي سنن النسائي وأبي داود ، عن جابر ، أنه كان لواؤه ﷺ يوم دخول مكة أبيض الأصفر ، وفي سنن أبي داود ، عن سماك بن حرب ، عن رجال من قومه ، عن واحد منهم ، قال : رأيت راية النبي ﷺ صفراء الأغبر . ذكر ابن جماعة ، في مختصر السير ، في باب: سلاح رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب والأخرى مع بعض الأنصار ، وذكر عبد الله بن حيّان الأصبهاني في كتاب أخلاق النبي ﷺ عن الحسن : كانت راية النبي ﷺ سوداء تسمى العُقاب ، وفي تاريخ البخاري ، عن الحارث بن حسّان ، قال : دخلت المسجد فرأيت النبي ﷺ قائمًا على المنبر يخطب ، وفلان قائم متقلّد السيف ، وإذا رايات سود تخفق ، قلت: ما هذا ؟ قالوا: عمرو بن العاص قدم من جيش ذات السلاسل . انتهى من كتاب التراتيب الإدارية المذكور .

وفي السنة الثامنة من الهجرة في شهر جمادى الأولى وقعت غزوة مؤتة ، وقد جعل ﷺ الأمير زيد بن حارثة ، فكان بيده الراية ، وقال ، عليه الصلاة السلام :

إن أصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة . فقاتل زيد بن حارثة ، رضي الله عنه ، حتى استشهد ، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب فقاتل ، رضي الله تعالى عنه ، حتى استشهد ، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة فقاتل ، رضي الله نعالى عنه ، حتى استشهد .

ثم إنّ المسلمين اتفقوا على تأمير خالد بن الوليد ، رضي الله تعالى عنه ، فلما أخذ الراية قاتل يومه قتالاً شديدًا ، وفي اليوم الثاني خالف ترتيب العسكر ، فجعل الساقة مقدمّة والمقدمّة ساقة ، والميمنة ميسرة والميسرة ميمنة ، فظنّ الروم أنّ المدد جاء للمسلمين فأخذهم الخوف والرعب ، ومكث عدة أيام يناوش الأعداء حتى تراجعوا وانقطع القتال .

ولقد أخبر رسول الله ﷺ الناس باستشهاد الثلاثة المذكورين ، قبل أن يأتي خبرهم ، فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب . وكانت عينا رسول الله ﷺ تذرفان ، ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم . انتهى .

ولنشر الأعلامِ والرايات جاء ما نصّه : (تنبيه) في تاريخ الوزير جودت باشا التركي الشهير نقلاً عن تاريخ واصف أفندي ، مقالة يبيّن فيها ما كان للألوية من الاعتبار في الدول ، صدّرها بقوله :

إنّ السرّ في إحداث السنجق واللواء ، هو أنه إذا اجتمع قوم تحت لواء واحد يجعل بينهم الاتحاد ، بمعنى أن هذا اللواء يكون علامة على اجتماع كلمتهم ودلالة على اتحاد قلوبهم ، فيكونون كالجسم الواحد ، ويألف بعضهم بعضًا أشدّ من ائتلاف ذوي الأرحام ، وإذا كانوا في معركة القتال لا ييأسون من الظفر ما دام لواؤهم منشوراً ، بل تقوى همتهم ويشتد عزمهم ، فإذا سقط لواؤهم أخذوا من جانب العدوّ ، وباتوا موضوعًا للخوف والرهبة ، فيهزم بعضهم ويتبدّد الآخر ، بخلاف ما إذا كان علمهم مرفوعًا خافقًا مزدهيًا تبتهج به نفوسهم ، فتأخذهم شدّة الفرح والبسالة ، وتتسلّط على أعدائهم هزمة الرعب فتأخذ بمجامع قلوبهم .

وكما أن الموسيقى العسكرية تنعش أرواحهم ، وتحثهم على الإقدام والشجاعة ، كذلك مناظر الألوية وتموّجها ، فإنها تحدث فيهم دواعي العزّة ، وتجلب لأعدائهم الدهشة والفتور . وكان لجميع الأمم السالفة والدول الماضية ،

آلات موسيقية وأعلام عديدة ، ولم يكن في زمن النبي ﷺ موسيقى بل أعلام فقط .. الخ .

نقول : لقد كان استعمال الرايات في العصور السابقة في الجيش المقاتل فقط ، أما في عصرنا فإنها تستعمل في الحرب ، تأخذه الجيوش في القتال ، وتستعمل في الأعياد ، دينية كانت أو قومية ، وتستعمل عند استقبال الملوك وكبار الأمراء ، وترفع على دوائر الحكومات ودواوينها لدى المسلمين في كل يوم جمعة من كل أسبوع ، وترفع عليها في كل يوم أحد لدى المسيحيّين . ولكل حكومة ودولة رايتها بشكل خاص ولون معروف ورسم مختار .

ترجمة خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه

جاء في الجزء السادس من شرح زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ، عن ترجمة خالد بن الوليد ، رضي الله تعالى عنه ، عند حديث : «لا ولكنْ لم يكنْ بأرض قومي فأجدني أعافُه -يعني الضَّبَّ- » ما يأتي :

وأما راوي الحديث ، فهو خالد بن الوليد ، سيف الله الشجاع المشهور ، الذي يوزن بألف رجل في الشجاعة ، رضي الله تعالى عنه ، وهو ابن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي ، يكنّى أبا سليمان ، وأمه لبابة الصغرى بنت الحارث بن حرب الهلالية ، وهي أخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب ، وهما أختا ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ ، كان أحد أشراف قريش في الجاهلية ، وكان إليه أعنة الخيل في الجاهلية ، وشهد مع كفّار قريش الحروب إلى عمرة الحديبية ، كما ثبت في الصحيح أنه كان على خيل قريش طليعة ، ثم أسلم في سنة سبع بعد خيبر ، وقيل قبلها ، ووهم من زعم أنه أسلم سنة خمس ، وقد شهد غزوة مؤتة مع زيد بن حارثة ، فلما استشهد الأمير الثالث أخذ الراية فانحاز بالناس ، وخطب النبي ﷺ فأعلم الناس بذلك ، كما ثبت في الصحيح ، وكان الفتح على يديه ، وشهد مع رسول الله ﷺ فتح مكة فأبلى فيه ، وجرى له مع بني خزيمة ما جرى ، ثم شهد حنيناً والطائف في هدم العزى ، وله ثمانية عشر حديثا ، اتفق البخاري ومسلم على حديث واحد منها ، وهو هذا الحديث ، وانفرد البخاري بحديث موقوف عليه ، روى عنه ابن عباس وجابر والمقدام بن معدي كرب وقيس بن أبي حازم وعلقمة بن قيس وآخرون .

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة، قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ منزلاً، فجعل الناس يمرون فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من هذا؟ فأقول: فلان، حتى مر خالد، فقال: من هذا؟ قلت: خالد بن الوليد، فقال نعم، عبد الله هذا سيف من سيوف الله، رجاله ثقات، وأرسله النبي ﷺ إلى أكيدر دومة، فأسره، فأتى به وحقن له دمه وصالحه النبي ﷺ على الجزية. وأرسله أبو بكر إلى قتال أهل الردة فأبلى في قتالهم بلاءً عظيمًا، ثم ولاه حرب فارس والروم فأثّر فيهم تأثيرًا شديدًا وافتتح دمشق. وعن عروة قال: لما فرغ خالد من اليمامة أمره أبو بكر بالمسير إلى الشام فسلك عين التمر، فسبى ابنة الجودي من دومة الجندل، ومضى إلى الشام فهزم عدو الله، فاستخلفه أبو بكر على الشام، إلى أن عزله عمر. وقد روى البخاري في تاريخه: أن عمر رضي الله تعالى عنه، خطب واعتذر من عزل خالد، فقال أبو عمرو بن حفص بن المغيرة: عزلت عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ووضعت ما رفعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال عمر: إنك قريب القرابة حديث السن مغضب لابن عمك.

وأسند ابن أبي الدنيا إلى قتادة، قال: بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، خالد بن الوليد إلى العزى فهدمها، وعقد أبو بكر، رضي الله عنه، لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة وقال: إني سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، يقول: نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سلّه الله على الكفار. وقال أحمد: حدّثنا حسين بن علي، عن زائدة، عن عبدالملك بن عمير، قال: استعمل عمر أبا عبيدة على الشام وعزل خالد بن الوليد، فقال خالد: بعث عليكم أمين هذه الأمة، سمعت رسول الله ﷺ يقوله. فقال أبو عبيدة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: خالد سيف من سيوف الله نعم فتى العشيرة، وروى أبو يعلى عن ابن أبي أوفى رفعه: لا تؤذوا خالدًا فإنه سيف من سيوف الله، صبّه الله على الكفار، وأخرج سعيد بن منصور أن خالد بن الوليد فقد قلنسوته يوم اليرموك، فقال: اطلبوها. فلم يجدوها، فلم يزل حتى وجدوها، فإذا هي خلفه، فسئل عن ذلك فقال: اعتمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فحلق رأسه، فابتدر الناس شعره، فسبقتهم إلى ناصيته، فجعلتها في هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالاً وهي معي إلا تبين لي النصر، ورواه أبو يعلى مختصرًا، وقال في آخره: فما وجهت في وجه إلاّ فتح لي.

وقال ابن عبد البر، في خبر إسلامه: وكان خالد على خيل رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وكانت الحديبية في ذي القعدة سنة ست، وخيبر بعدها في المحرم وصفر سنة سبع، وكانت هجرته مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة، فلما رآهم رسول الله ﷺ قال: رمتكم مكة بأفلاذ كبدها، ولم يزل، من حين أسلم، يوليه رسول الله ﷺ أعنة الخيل، فيكون في مقدمتها في محاربة العرب، وجزم بأنه لا يصح لخالد بن الوليد مشهد مع رسول الله ﷺ قبل الفتح، وبعثه رسول الله ﷺ إلى الغميصا ماء من مياه جذيمة من بني عامر، فقتل منهم ناسًا لم يكن قتله لهم صوابًا، فوداهم رسول الله ﷺ وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، وخبره بذلك من صحيح الأثر ولهم حديث، وأخرج ابن عبد البر بإسناده إلى الشعبي عن عبد الله بن أبي أوفى، قال: اشتكى عبدالرحمن بن عوف خالد بن الوليد للنبي، عليه الصلاة والسلام، فقال: يا خالد لم تؤذي رجلاً من أهل بدر، لو أنفقت مثل أحد ذهبًا لم تدرك عمله؟ قال: يا رسول الله إنهم يقعون بي فأرد عليهم، فقال: لا تؤذوا خالدًا فإنه سيف من سيوف الله صبّه الله على الكفار.

وأخرج ابن سعد بإسناده إلى زياد، مولى آل خالد، قال: قال خالد عند موته: ما كان في الأرض من ليلة أحبّ إليّ من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو، فعليكم الجهاد، وروى أبو يعلى بإسناده قال: قال خالد: ما ليلة تهدى إليّ فيها عروس أنا محب أو أبشر فيها بغلام أحبّ إليّ من ليلة شديدة الجليد، فذكر نحوه، ومن هذا الوجه عن خالد فقد شغلني الجهاد عن تعلّم كثير من القرآن.

وكان سبب عزل عمر خالدًا ما ذكره الزبير بن بكار، قال: كان خالد إذا صار إليه المال قسّمه في أهل الغنائم، ولم يرفع إلى أبي بكر حسابًا، وكان فيه تقدّم على أبي بكر، يفعل أشياء لا يراها أبو بكر، وقد أقدم على قتل مالك بن نويرة، ونكح امرأته، فكره ذلك أبو بكر، وعرض الديّة على متمم بن نويرة، وأمر خالدًا بطلاق امرأة مالك، ولم ير أن يعزله، وكان عمر ينكر هذا وشبهه على خالد، ولما حضرت خالد بن الوليد الوفاة، قال: لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدي موضع شبر إلاّ فيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثم ها أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء.

وتوفي خالد بن الوليد بحمص، وقيل بل توفي بالمدينة سنة إحدى وعشرين، وقيل بل توفي بحمص ودفن بقرية على ميل من حمص سنة إحدى وعشرين أو اثنتين وعشرين، في خلافة عمر بن الخطاب، وأوصى إلى عمر بن الخطاب، ثم قال: إذا أنا متّ فانظروا في سلاحي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل الله تعالى، قال في الإصابة: فلما توفي خرج عمر إلى جنازته، فقال: ما على نساء آل الوليد أن يسفحن على خالد دموعهن، ما لم يكن نقع ولا لقلقة، قال الحافظ بن حجر وهذا يدلّ على أنه مات بالمدينة، وقوله: ما لم يكن نقع... الخ، النقع: بوزن النفع الغبار أي ما لم يقع مع البكاء جعل الغبار على الرأس، وما لم تقع لقلقة وهي شدّة الصوت كما قال أبو عبيد، وبالله تعالى التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

انتهى من كتاب «زاد المسلم» من الجزء السادس.

نقول: لقد كان العَلَم المستعمل في الحجاز هو العلم التركي، وهو علم رسم بوسطه صورة الهلال وبوسط الهلال نجمة واحدة. وكان هذا العلم مستعملاً في كافة البلدان التي تقع تحت حكم الدولة التركية العثمانية، ومن ضمن هذه البلدان بلاد الحجاز، فلما زال حكم الأتراك عن الحجاز في سنة (١٣٣٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة، بسبب قيام الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق بالنهضة المعروفة التي كانت في شهر شعبان من السنة المذكورة، وصارت بلاد الحجاز مستقلّة بنفسها، اتّخذ الشريف الحسين المذكور، رحمه الله تعالى، علمًا خاصًا لبلاد الحجاز وبعبارة أخرى علمًا خاصًا لحكومته المسمّاة بـ «الحكومة العربية الهاشمية» وشكل هذا العلم يتكون من أربعة ألوان، من الأبيض والأسود والأخضر والأحمر.

وسبب اختيار هذه الألوان الأربعة لعَلَم الحكومة العربية الهاشمية، هو ما جاء بجريدة القبلة، التي صدرت بمكة المشرفة، في عددها ٨٢ من السنة الأولى، وهذا نصه:

اللون الأسود رمز راية العُقاب وهي راية النبي ﷺ المشهورة، التي كان يتبرّك كبار الصحابة، رضوان الله تعالى عليهم، بحملها في حروبهم، وهي التي أشار إليها أمير المؤمنين علي، كرّم الله تعالى وجهه، بقوله، عندما خاض حصين بن المنذر بهذه الراية المباركة:

لمن رايـة سـوداء يخفـق ظلّهـا إذا قيـل قدّمهـا حصيـن تقدمـا
ويقدّمهـا في المـوت حتى يزيرهـا حياض المنايا تقطـر المـوت والدمـا

ولقد اتخذت دولة بني العباس السواد شعارًا لها حتى عرفت به وعـرف بهـا ، واللون الأخضر الذي بين السـواد والبيـاض ، هـو الشـعار الـذي اشـتهر عـن أهـل البيت ، عليهم السلام منذ أحقاب طويلة ، والبياض أيضًـا كـان شـعارًا للعـرب في دور من أدوارهم .

وأما اللون الذي شمل هذه الرموز التاريخية الثلاثة بشـكل «مثلّـث» فهـو لـون راية الأسرة المالكة الكريمة ، من عهد جدّهـا سـاكن الجنـان الشـريف أبـي نمـي إلى عهدنا هذا .

وعلى ذلك ، فإن الرايـة الجديـدة ، الـتي صـدرت الإرادة السـنية الملوكيـة بـأن تكون رايـة الحكومـة العربيـة الهاشمية ، قـد لوحـظ فيهـا أن تكـون جامعـة لرمـوز الاستقلال العربي في كل أدواره التاريخية . اهـ .

انتهى من كتاب "تاريخ الحجاز" للأستاذ حسين نصيف .

ثم لما تولّى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، رحمه الله تعـالى ، على البلاد الحجازية في سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجـرة ، صار للبلاد الحجازية ، بل للمملكة العربية السـعودية ، علـمٌ آخـر غـير العلـم المتقـدم ذكره ، وهذا العلم السعودي بلون واحد فقط وهو اللون الأخضر ، مكتـوب عليـه كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسـول الله» في سـطر واحـد ومرسـوم تحتهـا صورة السيف ، وهو شعار لطيف ، فقد كان لواء النبي ﷺ الأبيـض مكتوبًـا عليـه «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله» .

بعض ما قيل في العَلَم:

حُييـت يـا علمًا تحيى النفوس بـه والعِلـمُ والعـدل والمعروف والهمـم
خفقت فوق رؤوس الجيش منتصـراً وشـاهداك السيوف الحمر والأمـم
لا زلت في الحـرب خفاقًـا تحنّ إلى تقبيـل طيـاتك الأفـواه والنسـم
ولا برحـت شـعارًا للعُـلا ولمـن لاذوا بظلّـك فخـرًا أيهـا العَلَـم
يـا لـواء الأمـان والنصـر بـل يـا معقـل العـزّ والمعـالي السـنيه
زاحـم النجـم في المراتـب واغلـب بثبـات يـد الزمـان القويـه

يـا لـواء بـك افتخـرت اعـتزازًا ويجيـش ذوي النفـوس الحميـه
نصرت يا علمًا تسمو البلاد بـه والبيض والحمـر والقرطـاس والقلـم
تذللت لعُـلاك الصعب وانبجست منـك المعـارف أنـت المفـرد العلـم
حيّاك حيّاك رب الناس من علـمٍ تهـدى إليـك ريـاح النصر والخـدم

ما قيل في الراية :

أمـن العيـون ونورهـا صنعـوك أم مـن شـغاف قلوبهـم نسـجوك
وضعـوك في مـرّ النسـيم لتعلـني حريّـة القـوم الألى وضعـوك
منك استمدّوا المجد والشرف الـذي يتفـاخرون بـه إذا نظـروك
وإذا همو عرضوك في سوق الوغـى بـاعوا نفوسـهم ومـا بـاعوك
إن مـات قـوم في سـبيلك أيقنـوا أن الخلـود جـزاء مـن نصـروك
يتسـابقون إلى القتـال لعلمهـم أن الهـلاك عقـاب مـن خذلـوك

انتهى .

ولنشر الأعلام والرايات لدى الدول والحكومات ، اصطلاحات ونظام خاص في الحفلات والأعيـاد والمناسبات الشتى ، مـن استقبال وانتصـار ووفـاة العظمـاء ووصول البواخر والبوارج الحربيّة إلى الموانئ البحريّة وإقلاعهـا عنهـا وغير ذلـك . ويعرف هذه الاصطلاحات المسؤولون والقائمون بالأعمال .

إستعمال الطوابع البريدية في الحجاز

كانت الطوابع ، بجميع أنواعهـا ، مستعملة في الحجـاز ، منـذ عهـد الحكومـة التركية ، فلما استقلّ الحجـاز بنهضـة الشريف الحسين بن علي ، ملـك الحجـاز الأسبق ، رحمه الله تعـالى ، في سنة (١٣٣٤) أربـع وثلاثين وثلاثمائة وألـف مـن الهجرة ، صدرت ، في هذا العهد الجديد ، أنواع الطوابع البريدية . وكانت تستعمل في الرسائل البريدية والعرائض الشخصية والمسائل الرسمية .

انظر: صورة رقم ٢٢٧ ، بعض طوابع الحكومة التركية التي كانت تستعمل في الحجاز إلى سنة ١٣٣٤هـ

ثم لما تولى الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، رحمه الله تعالى، على الحجاز سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، صدرت طوابع جديدة في عهده بجميع أنواعها وبأثمان مختلفة.

. انظر: صورة رقم ٢٢٨، بعض طوابع الحكومة السعودية التي تستعمل من عام ١٣٤٣هـ إلى يومنا هذا

ولا تزال هذه الطوابع مستعملة، في جميع المملكة العربية السعودية، حتى اليوم، وبين وقت وآخر تصدر بعض أنواع منها لمناسبات مختلفة، ونحن قد اكتفينا هنا بعرض بعض الطوابع خوفاً من التطويل، ومن أراد الاطلاع على جميع ما صدر من الطوابع في مملكتنا فعليه بالاتصال بهواة الطوابع وهم كثيرون في كل قطر ومملكة.

فممن اشتهر في مملكتنا بجدة بجمع الطوابع والاشتغال بها صديقنا المحترم الشيخ عبدالرحمن كتوعة. فله ذوق حسن وترتيب مبتكر، فإنه يكتب بعض الآيات أو الأحاديث النبوية وبعض الحكم والأمثال على كرتون -ورق مقوى- أو على خشب. ثم يفرغ حروفها، ويلصق عليها أنواع الطوابع المختلفة، من جميع البلدان ومختلف الأثمان والألوان، فتخرج الكتابة وعليها مسحة من الجمال الفني والابتكار البديع.

ولننقل عن تاريخ الطوابع في المملكة العربية السعودية منذ قيام الحرب العالمية الأولى، وذلك من «مجلة الثقافة الإسلامية» الصادرة في ١١ شوال سنة ١٣٧٦هـ الموافق ١١ مارس سنة ١٩٥٧م. في العدد الخاص بالمملكة العربية السعودية، بقلم الأستاذ صالح الحاج هادي التميمي، عضو جمعية هواة الطوابع العراقية، فقد جاء فيها ما نصه:

(١) صدرت أول مجموعة طوابع حجازية سنة ١٩١٦ ميلادية، وكانت سبعة طوابع تتراوح فئاتها بين (ثمن قرش وقرش واحد) مع العلم بأن هذه الطوابع تحمل كلمة «مكة المكرمة».

(٢) سنة ١٩١٧ ميلادية صدرت بمجموعة أخرى من ستة طوابع، تحمل أشكالاً مختلفة، وتتراوح بين البارة الواحدة والقرشين.

(٣) سنة ١٩٢٢ ميلادية وشحت الطوابع الستة الماضية بكلمة (الحكومة العربية الهاشمية) ويظهر على طرف الطابع سنة ١٣٤٠ هجرية.

(٤) سنة ١٩٢٢-٢٤ ميلادية صدرت مجموعة جديدة، ذات زخارف جميلة، تتروواح قيمتها بين (ثمن قرش وعشرة قروش) وكان عددها عشرة طوابع.

(٥) سنة ١٩٢٤ ميلادية وشحت الطوابع الماضية، عدا ثلاث فئات منها، بعبارة (تذكار الخلافة) وتحتها (شعبان) وثم تاريخ السنة أي (١٣٤٢) هجرية.

وفي تلك السنة وشحت الطوابع العشرة الماضية بالكلمات (الحكومة الحجازية ٥ ربيع الأول (١٣٤٣).

(٦) سنة ١٩٢٥ ميلادية وشحت طوابع علي بن الحسين على طرفي الطابع الكلمات (٥ ربيع الأول) و (١٣٤٣) في داخل إطار، وبعدها صدرت بعض المجموعات كتب عليها مستحق (ضريبة).

وفي هذه السنة ظهرت طوابع في هذه السنة تحمل الكلمات (تذكار الحج الأول ١٣٤٣ عهد السلطنة النجدية).

(٧) سنة ١٩٢٦ ميلادية صدرت طوابع (بريد الحجاز ونجد) وهي بزخارف جميلة وعددها ستة طوابع. وصدرت في تلك السنة طوابع موشّحة للطوابع الماضية، بمناسبة انعقاد المؤتمر الإسلامي ٣ ذي القعدة سنة ١٣٤٣ هجرية.

(٨) سنة ٢٦-١٩٢٧ ميلادية صدرت ثمانية طوابع تحمل اسم المملكة العربية، وتتراوح بين فئات (ثمن قرش وعشرة قروش).

(٩) سنة ١٩٣٤ ميلادية صدرت أول مجموعة تحمل اسم المملكة العربية السعودية، وعددها اثني عشر طابعًا، وهي تذكارية، إذ تحمل الكلمات (ذكرى مبايعة ولاية العهد).

(١٠) صدرت طوابع للبريد سنة ١٩٣٤-٤٣ ميلادية وعددها ١١ طابعًا تتراوح فئاتها بين (ثمن قرش- ٢٠٠ قرش) وهي تستعمل لحد الآن.

(١١) سنة ١٩٤٦ ميلادية صدر طابع واحد تذكاري من فئة نصف قرش، ويحمل صورة خارطة المملكة العربية السعودية والمحميات (شبه جزيرة العرب). وقد صدر بمناسبة (عودة جلالة الملك إلى عاصمة مملكته).

(١٢) سنة ١٩٤٩ ميلادية صدرت أول مجموعة للبريد الجوي، وتتكون من ستة طوابع تتراوح بين القرش ومئة قرش، وهي تحمل صورة طائرة.

(١٣) سنة ١٩٥٠ ميلادية صدر طابعان بمناسبة زيارة ملك الأفغان للسعودية ، ويحمل شعاري الأفغان والسعودية . وهي من فئة نصف قرش وثلاثة قروش . وهذه الطوابع تذكارية .

(١٤) سنة ١٩٥١ ميلادية صدر طابعان بمناسبة زيارة الملك عبد الله (ملك الأردن) للسعودية ، ويحمل شعاري الأردن والسعودية ، وهي من فئات نصف قرش وثلاثة قروش . وهذه الطوابع تذكارية .

(١٥) سنة ١٩٥٢ ميلادية صدرت خمسة طوابع للسكك ، وتحمل صورة قطار وجمل ، وتتراوح فئاتها بين نصف قرش و ٢٠ قرش ، مع العلم بأنها صدرت بعض المجاميع للطوابع الحكومية (الرسمية) وطوابع للإسعاف وهذه تعتبر من الطوابع المالية لا البريدية ، ولكن بعض الكتلوكات تأخذها على اعتبار بأنها بريدية . انتهى من المجلة المذكورة .

طوابع البريد التي تحمل صورة الكعبة المعظمة

لأول مرة في التاريخ ، تطبع بمكة المكرمة الطوابع البريدية ، التي تحمل صورة الكعبة المعظمة . إنها لرمز وحيد فريد مشرّف . وكان طبعها في سنة (١٣٨٤) ألف وثلاثمائة وأربع وثمانين هجرية ، وهذه الطوابع ، التي تحمل صورة الكعبة الشريفة ، طبعت على ثلاثة أنواع ، كل نوع منها بلون مغاير للآخر ، فالنوع الأول من قيمة أربعة قروش ، والنوع الثاني من قيمة ستة قروش ، والنوع الثالث من قيمة عشرة قروش وربما في المستقبل تطبع منها بأثمان مختلفة .

ونقترح على المسؤولين أنّهم إذا طبعوا هذه الطوابع مرة ثانية ، أن يرسموا عليها أجمل صورة للكعبة ، ولا بأس أن يظهر فيها صورة الميزاب وحجر إسماعيل . لأنّ الشيء يكون بحسن منظره . والله الموفق .

بدء استعمال طوابع البريد في العالم

جاء في مجلّة اسمها «على كيفك» التي صدرت بمصر في ١٥ فبراير عام ١٩٣٩ ميلادي ، في العدد العاشر ، تحت عنوان «طوابع البريد قصة ميلادها-بدء هواية جمعها- الطابع الذي كان سببًا في حفر قناة باناما» ما يأتي :

كان أول من فكّر في إصدار طوابع البريد عالم رياضي يدعى البروفسور رولند هيل، وقد أتته الفكرة فجأة حينما كان يقضي إجازته في إحدى قرى اسكتلندة سنة (١٨٣٨) م.

واتفق أنه كان واقفًا في الطريق، عندما وصلت عربة البريد، فرأى الغلام الموزّع يسلّم الخطابات والرسائل لأصحابها الملتفّين حوله، وهو قابع في مكان الحوذي في أعلى العربة، وكانت بين الجمهور فتاة جميلة، ذات شعر أحمر، تدعى ماري، جاءت هي الأخرى لترى هل من خطابات لها، فأعطاها ساعي البريد خطابًا تلقفّته بلهفة، وراحت تقلّبه برهة بيدها أمام الحاضرين، ثم لدهشة الجميع ردّته إليه وعلامات الألم بادية على محياها وقالت: «يجب أن أعيده إليك لأني لا أملك نقودًا». فرثى مستر رولند لحال الفتاة، وتطوّع لدفع أجرة البريد عنها، فتسلّمت الرسالة من جديد بعد أن مانعت طويلاً في قبول المساعدة.

ولما مضت العربة، قالت ماري للمحسن: «كان يجب عليك أن لا تدفع شيئًا» فاستغرب رولند وسألها: «ألا تريدين قراءة الخطاب؟» فأجابته: «بالطبع كلا، لأني قرأته أمام الجميع». ثم فتحت الخطاب أمامه فإذا به يحوي قطعة من الورق بيضاء لا كتابة عليها، وفسّرت الأمر قائلة: «خطيبي جندي يعمل في معسكرات ويلز، واعتاد أن يكاتبني أسبوعيًا، ولذا وجب عليّ أن أدفع عشرة قروش كل مرة، إذا أردت أن أحصل على الخطاب. وتصور يا سيدي أن هذه القيمة تعادل مرتبي الأسبوعي، فمن أين لي الحصول على مأكلي ومشربي وملبسي، لو ذهب هذا الراتب رسومًا للبريد؟ ولذا استنبطنا نحن الإثنان نوعًا من الاصطلاحات الجفرية، نضعها على الغلاف، ونتفاهم بها، فمثلاً دائرة صغيرة حول الحروف الأولى من اسمي تعني «أحبك» وإذا كان هناك خط تحت اسم المرسل، وهو خطيبي، فمعنى ذلك: «أن الأمور ليست على ما يرام» وصليب صغير في الركن الأيسر من الغلاف يدلّ على عكس ذلك. وهكذا وبهذه الطريقة يمكننا تبادل الرسائل دون أن ندفع مليمًا واحدًا. فحالما استلم الخطاب أقلّبه بيدي وأقرأ ما عليه من علامات، دون أن يفطن أحد، ثم أعيد إليه الخطاب متظاهرة بالحزن، لعدم إمكاني دفع القيمة، وأظنك رأيتني وأنا أقوم بالدور فما رأيك؟» فقال هيل: «الفكرة شيطانية طريفة، ولكن عيبها أن الحكومة وأصحاب امتياز البريد يتحملون مصاريف خطاباتكما». وافترق هيل عن الفتاة، بعد أن قرر في

نفسه أن يستخدم كل مواهبه العقلية لحل هذه المشكلة وقطع دابر التلاعب ، وفكر في أنه لو لم تكن أجرة البريد ، التي يدفعها المرسل إليه ، باهظة جدًا لما ارتكبت تلك الفتاة ، بدافع الفقر ، ذلك الأمر الشائن ، وهو السرقة ، ولما كان عدد من يستخدمون البريد في توصيل رسائلهم ضئيلاً جدًا . وفكّر طويلاً في هذه العقدة حتى توصّل إلى حلّها . فسارع وطلب الإذن في مقابلة أحد الوزراء، فأجيب طلبه . وبعد أن شرح للوزير حكاية الفتاة ، وارتفاع أجور البريد ، قال : أرى يا معالي الوزير أنّه يجب ألا يزيد أجر الخطاب الواحد على ما يعادل أربع مليمات ، ولكي نمنع التلاعب منعًا باتًا ، يجب أن يدفع المرسل القيمة مقدمًا ، وطريقة ذلك أن يشتري قطعة من الورق ، على أحد وجهيها هذه العبارة : « قيمة البريد خالصة » . أما الوجه الآخر فيغطى بالصمغ ليلصق على الغلاف ، وما على إدارة البريد ، حالما تتسلم الخطاب ، إلاّ أن تلغي هذه الورقة ، لئلا تستعمل مرة أخرى ، ثم عرض على الوزير نموذجًا من اختراعه لما يجب أن تكون عليه هذه الورقة . وكان مربعًا صغيرًا من الورق ، على أحد وجهيه رسم يشبه الملكة فكتوريا ، أما الوجه الآخر فكان مغطى بالصمغ . وهنا اعتدل الوزير في مجلسه ، وسأل المخترع متهكماً : « إن لم أخطئ فحضرتك أستاذ رياضيات ؟ » فقال هيل : « بالطبع ، كما تقولون معاليكم » . فقال الوزير له : « إذن يا سيدي يمكنك أن تقنع نفسك بحسبة بسيطة ، وأنت في منزلك ، بعدم فائدة هذا الاختراع » .

ولما رأى المخترع أن هذه المقابلة لم تثمر الثمرة المرجوّة ، قرّر أن يقوم بالدعاية لمشروعه ، بنشر كتاب خاص عنه ، مدعمًا بالإحصائيات . واستعان بطلبه على توزيع نسخ الكتاب . ومن الغريب أن الحكومة البريطانية قبضت على بعضهم بتهمة توزيع الكتاب ، ومع ذلك فإن المشروع وجد كثيرين من المحبّذين والأنصار ، فانهالت الرسائل على إدارة البريد ، تطالبها بتقرير الطابع ذي الأربعة المليمات ، ومن الفئات التي اقترحها المخترع . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قامت المظاهرات تطالب الحكومة بتنفيذ المشروع على وجه السرعة . وحدثت معارك في الطرقات والشوارع ، والتحم البوليس بالأهالي ، وكادت تحدث فتنة ، لو لم يصل خبر الاختراع وذيوله إلى مسامع الملكة فيكتوريا ، فأرسلت تستدعي الأستاذ الشاب للتشرّف بمقابلة جلالتها ، وليعرض على مسامع الملكة تفاصيل اختراعه العجيب ، الذي أقام الامبراطورية وأقعدها . وتشرّف المخترع بالمقابلة . وأطنب في شرح اختراعه أمام جلالتها ، وحدّثها عن حلمه الجميل في أن تكون

كافة أجزاء الامبراطورية البريطانية متّصلة ببعضها برباط البريد الحيّ، نظير فئة واحدة، تكون في متناول الجميع، ولا يعجز عنها الفقير. واسترسل في تعداد ما ستفيده صناعة بريطانيا العظمى وتجارتها من هذا الاختراع الجليل الشأن، وختم كلامه بأن عرض على جلالتها مربعًا صغيرًا من الورق الأسود، يحمل صورتها بالحبر الأحمر. وكان هذا أول طابع في العالم من فئة (البنس) أو الأربعة مليمات. وبعد أن فكرت جلالتها طويلاً، والمخترع أمامها لا يبدي حراكًا، في انتظار الحكم السامي، التفتت إليه، وقالت: «أظن أن مشروعك معقول وعملي معًا. وسأساعدك في مجلس الوزراء، ولكن هذه الصورة (مشيرةً إلى صورتها بالحبر الأحمر) يجب أن تكون أجمل مما هي عليه الآن». وبهذا أثبتت جلالتها أنّها امرأة كما أنها ملكة، وتحقق حلم هيل، وجاء اليوم الموعود في ٦ مايو سنة (١٨٤٠م) الذي عرضت فيه الطوابع فئة أربعة مليمات للبيع، لأول مرة، وفي أقل من شهرين تضاعف عدد الخطابات والرسائل، حتى بعد عشر سنوات صارت عشرة أضعافها. وازدادت إيرادات البريد البريطانية من (٧٠) ألفًا من الجنيهات إلى (٧٠٠) ألف من الجنيهات. وما حلّت سنة ١٨٤٩ حتى كانت طوابع البريد انتشرت في كل مكان، وبدأت بمدينتي زوريخ وجنيف السويسريتين، والبرازيل ثم بافاريا وفرنسا ومعظم أقطار أمريكا الشمالية. ولم تمض سنوات قلائل حتى كان هناك (٢٠٠) نوعًا من طوابع البريد المستعملة.

وهنا ظهرت هواية جمع طوابع البريد، وتفنّن الهواة في ابتكار الحيل الطريفة، للحصول عليها، وهنا ساقت المجلّة المذكورة حكايتين:

الأولى: تتلخص أنّ أحدهم نشر في جريدة التيمس الإنجليزية، في أحد أيام سنة (١٨٤١) أنه من هواة الطوابع، وأنه بلغ من العمر عتيًا، وهو من كبار المثرين، قد هدّد ابنته الشابة بأنّها إن لم تأته، في ظرف سنة واحدة، بخمسين ألفًا من طوابع البريد المبصومة بالإمضاء، فسيزجّ بها في إحدى الأديرة النائية، مدى الحياة. وكان من مفعول هذا الإعلان أن انهالت الطوابع المختومة بكثرة هائلة، من جميع أنحاء العالم، على ابنته، رحمةً بها ومساعدة لها. وبهذه الحيلة جمع الرجل كمية هائلة من طوابع البريد من جميع أنحاء العالم.

الثانية : تتلخص أنه في سنة ١٩٠٢ ، كان البرلمان الأميركي (الكونجرس) يتناقش في مشروع حفر قناة في برزخ أميركا الوسطى . وقد انقسم الأعضاء إلى قسمين : قسم يريد أن تشق القناة في منطقة باناما ، والآخر في نيكاراجوا .

فالقسم الأول يزعم أن شق القناة في منطقة نيكاراجوا لا فائدة فيها ، بل يذهب المشروع والتكاليف هباء ، لأن الأرض بركانية فتثور بين حين وآخر ، والقسم الثاني ينفي حدوث ثورة بركانية في تلك المنطقة ، ثم إن أحد أعضاء القسم الأول عثر ، في أحد حوانيت بيع طوابع البريد ، على طابع بريد ، مما تصدره جمهورية نيكاراجوا . وكان يمثل بركان (مونو تومبو) الواقع في الطريق المزمع شق قناة نيكاراجوا . وهذا الطريق معرّض لخطر ثوران البركان ، من حين لآخر ، فكان العثور على هذا الطابع ، وإطلاع أعضاء المجلس عليه مؤيدًا لرأي القسم الأول ، وهو شق القناة في منطقة باناما . وعليه وافق المجلس على هذا الرأي بالإجماع . انتهى ما ذكرته المجلّة المذكورة .

جمع خطوط التوقيعات والإمضاءات

وبمناسبة ذكرنا للطوابع وهواتها ، نذكر هنا هواة « الأتوجراف » بضم الهمزة والتاء الممدودتين وإسكان الجيم ، وهي كلمة إفرنجية معناها جمع توقيعات وإمضاءات المشاهير من الرجال والنساء .

وأول بدء العناية بجمع الإمضاءات بخط يد أصحابها المشاهير ، كان في فرنسا ، في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد ، ثم انتشرت هواية الناس بجمعها ، في أوائل القرن العشرين للميلاد ، أي: عند ظهور السينما ، فقد كان الغربيّون يقبلون إقبالاً عظيمًا على المشتغلات في السينما ، ممن لهنّ شهرة واسعة وجمال رائع ، حتى أن بعضهنّ ، لما كثر الإقبال عليهنّ ، صرن يبعن إمضاءاتهن بمبالغ خيالية . فلقد اشترى بعضهم إمضاء النجمة « إيزادورا دنكان » ذات الشهرة الواسعة ، التي أمضتها على تذكرة مسرح ، بمبلغ ألف وخمسمائة جنيه . اشتراها تاجر فحوم من نيوكاسل بإنجلترا .

وكان النجم « رامون نوفارو » والنجمة « كلارا بو » من أشهر نجوم هوليود منذ ربع قرن ، عاش كل منهما نصف حياته هدفًا لهواة جمع التوقيعات بمبالغ طائلة ، ولقد أصبح اليوم « بورصة » للتوقيعات والإمضاءات تباع فيها وتشترى .

أما البلدان العربية فقد سرت الرغبة عند بعض الناس لجمع توقيعات المشاهير ، فيجمعون إمضاءات الملوك ورؤساء الدول والوزراء والأمراء وكبار العلماء ، وكذلك إمضاءات الفنانين والفنانات على اختلاف طبقاتهم وتنوع فنونهم .

ونحن نرى أنه لا بأس بجمع خطوط وإمضاءات العظماء والمشاهير ، في كل علم وفن ، بل وصورهم ورسومهم أيضًا ، «فللناس فيما يعشقون مذاهب» إذ الواقع أننا لو عثرنا على كتاب أثريّ قديم يرجع تأليفه إلى نحو خمسمائة سنة أو أكثر ، فإن ثمن الكتاب يكون بحسب قدمه أولاً ، ثم بحسب نوع المعلومات التي تكون فيه ، فإذا كان هذا الكتاب بخط نفس مؤلّفه كان ثمنه مضاعفًا بدون شك .

فجمع الإمضاءات في حد ذاته ليس فيه شيء مطلقًا ، فهو من قبيل اقتناء بعض الأمتعة النادرة والأشياء الأثرية ، أما إذا نظرنا إلى شراء الإمضاءات والتوقيعات بمبالغ كبيرة ، فقد يكون ذلك من الإسراف الذي لا يقرّه الشرع الشريف . ولا نبالغ إذا قلنا أن ذلك من الجنون ، وقد قيل في المثل: «الجنون فنون» .

ولنا في هذا الموضوع اقتراح لطيف وهو :

إننا نحبّذ كثيرًا أن يكون لدى كل أمة من الأمم ، عربيّة أو غير عربيّة ، سجلات رسمية خاصة ، تجمع فيها صور ملوكها وعظمائها ومشاهيرها من العلماء والفنانين والتجار والمخترعين ، وأن يكون تحت كل صورة صحيفة واحدة بخط يد صاحبها ، مع توقيع اسمه الصريح ، وإمضائه المشبك ، الذي اعتاد توقيعه بشكل خاص في خطاباته الخاصة ومعاملاته الرسمية ، وأن يكتب تحت كل صورة ملخص تاريخ صاحبها . وأن يكون من هذه السجلات بعضها في مكاتب الملوك الخاصة ، وبعضها في المكتبات العامة ، ليسهل للباحثين والمؤرّخين الاطلاع عليها . ويشبّه هذا تقريبًا بدفتر الزيارات ، التي اصطلح الناس على استعماله في المتاحف والمكتبات ونحوهما . فتنفيذ هذا الاقتراح من الحكومات ، بصفة رسميّة ، سيكون له نفع عظيم للأجيال القادمة والأمم الآتية . ولئن كان هذا حديث عهد اليوم وأمر عادي عندنا ، فإنه لرجال المستقبل أمر ذو بال ، وأثر خالد يعتزّون به . والله تعالى أعلم بما كان وما يكون فإنه سبحانه علاّم الغيوب ، وغفّار الذنوب وستّار العيوب ، لا إله إلاّ هو العزيز الغفّار .

تاريخ النقود منذ صدر الإسلام

بمناسبة ظهور أول عملة ورقية سعودية في سنة (١٣٧٢) اثنين وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، أحببنا وضع كتاب عن النقود العربية، ولكن أشغالنا الكثيرة حالت دون ذلك. فلما اشتغلنا الآن بتأليف كتاب عن تاريخ مكة، كان لزامًا علينا أن نتناول الكلام على النقود المتداولة في الحجاز، في الوقت الحاضر، والنقود التي كانت في صدر الإسلام.

وقد ظهر من أنواع النقود الآن عدّة أنواع، من الذهب والفضة والنيكل والنحاس والورق، (بفتح الواو)، وإن شاء الله تعالى ستتكلّم هنا بالتفصيل عن كل ذلك. ولنبدأ الآن في الكلام عن النقود في صدر الإسلام. فنقول وبالله التوفيق:

وأما النقود العربية في صدر الإسلام، فقد اختلف الكلام عنها، ونرى أن ما جاء في كتاب «التراتيب الإدارية» للعلاّمة المحدّث الشهير الشيخ الكتاني الفاسي كافٍ لكل من أحب الإلمام عن تاريخ النقود العربية، فقد أتى فيه من التفصيل ما فيه الكفاية. لذلك أحببنا أن ننقل هنا ما جاء في الكتاب المذكور، عن النقود العربية . . . وإليك نص كلامه عنها، بصحيفة (٤١٣) من الجزء الأول:

قال أبو محمد عبد الحق بن عطية، في جواب سئله في سنة (٦١٦)، قال أبو عبيد القاسم بن سلام، عن بعض شيوخه: «إن الدراهم كانت على عهده، عليه السلام، على نوعين: السوداء الدامية، وزن الدرهم منها ثمانية دوانق، والطبرية، وزن الدرهم منها بأربعة دوانق». قال: وكان الناس يزكون بشطرين من الكبار والصغار.

قال أبو العباس العزفي: قال أبو جعفر الداوودي: وذكر قول من قال: إن الدرهم لم يكن معلومًا في زمن النبي ﷺ، هذا قول فاسد، لم يكن القوم ليجهلوا أصلاً من أصول الدين، فلا يعلمون فيه نصًا وقد كان للنبي ﷺ السعاة، فلا يجوز أن يظن بهم جهل مثل هذا، ولم يأت ما قاله من طريق صحيح. وقال أبو عمر ابن عبد البر وعياض. لا يجوز أن تكون الأوقية على عهد رسول الله ﷺ مجهولة المبلغ من الدراهم في الوزن ثم يوجب الزكاة عليها، وهو لا يعلم مبلغ وزنها، وتقع بها البيوعات والأنكحة، وهذا يبيّن أن قول من قال أن الدراهم لم تكن

معلومة إلى زمن عبدالملك، حتى جمعها برأي الفقهاء وهم، وإنما معنى ذلك أنها لم تكن من ضرب أهل الإسلام، وعلى صفات لا تختلف، وإنما كانت مجموعات من ضرب فارس والروم، وصغار وكبار أو قطع فضة غير مضروبة ولا منقوشة، يمانية ومغربية، وبعد ذلك في أيام عبدالملك كرهوا الضرب الجاري من ضرب الروم فردّوها إلى ضرب الإسلام.

(زقلت) قال النووي، في شرح المهذّب الصحيح: الذي يتعيّن اعتماده واعتقاده، أن الدراهم المطلقة في زمن رسول الله ﷺ كانت معروفة الوزن، معلومة المقدار، وهي السابقة إلى الإفهام وبها تتعلّق الزكاة، وغيرها من الحقوق والمقادير الشرعية، ولا يمنع من هذا كونه كان هناك دراهم أخر، أقل أو أكثر من هذا المقدار، فإطلاق النبي ﷺ الدراهم محمول على المفهوم من الإطلاق، وهو كل درهم ستة دوانق وكل عشرة سبعة مثاقيل. وأجمع أهل العصر الأول فمن بعدهم إلى يومنا هذا، ولا يجوز أن يجمع على خلاف ما كان في زمن رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين.

وأما مقدار الدرهم والدينار، فقال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عطية، في كتاب «الأحكام»: قال ابن حزم: بحثت غاية البحث عن كل من وثقت بتمييزه، فكل اتفق على أن دينار الذهب بمكة وزنه مائتان وثمانية وعشرون درهمًا، بالدراهم المذكورة. هذا كلام ابن حزم. وكان النووي بعد إيراده في شرح المهذب، وقال غيره: هؤلاء وزن الرطل البغدادي مائة وثمانية وعشرون درهمًا وأربعة أسباع الدرهم، وهو تسعون مثقالاً بواسطة «سبل الرشاد» للشامي.

وقال أبو السعود الفاسي، في إملاءاته على الصحيح، على قوله في كتاب النكاح: وزن نواة من ذهب، المراد بالنواة قيل: نواة التمر وقيل: اسم بمقدار من الوزن كان عندهم، كما هو عند غيرهم، ولم تكن سكة عند النبي ﷺ ولا أبي بكر ولا عمر، ولم يضربوا سكة في الإسلام حتى ضربها عبدالملك بن مروان، إلا أنهم كانوا يتعاملون بسكة فارس والروم، وكان لهم من ذلك درهمان، فجمع عبدالملك نصف هذا مع نصف هذا وجعله درهمًا واحدًا. اهـ.

وقال الحافظ السيوطي في رسالته «قطع المجادلة في تغيير المعاملة»، قال الخطابي: كان أهل المدينة يتعاملون بالدراهم، وقت قدوم النبي ﷺ، ويدلّ عليه

قول عائشة ، في قصة شرائها بريرة : إن شاء أهلك أن أعدّها لهم عدة واحدة ، فعدّت الدراهم ، فأرشدهم النبي عليه السلام إلى الوزن ، وجعل الوزن عيار أهل مكة . وكان الوزن جاري بينهم في الدراهم ستة دوانق ، وكانوا يتعاملون بها ، وهو درهم الإسلام في جميع البلدان . وأما الدنانير فكانت تحمل إليهم من بلاد الروم .

وقال ابن عبد البر في «التمهيد» : كانت الدنانير في الجاهلية وأول الإسلام بالشام وعند عرب الحجاز كلها رومية ، تضرب ببلاد الروم ، عليها صورة الملك واسم الذي ضربت في أيامه مكتوبة بالرومية ، وكانت الدراهم بأرض العراق وأرض المشرق كلها كسروية ، عليها صورة كسرى واسمه فيها مكتوب بالفارسية . اهـ . وقال العزفي: قال الخطابي : كانت الدنانير تحمل إليهم في زمن رسول الله ﷺ من بلاد الروم ، فكانت العرب تسمّيها الهرقلية. (قلت): وهذه الدراهم ، مع إثبات صور ملوك الروم عليها ، كانوا في صدر الإسلام يصلون بها ويحملونها معهم ، ولا يتنزهون عن ذلك . وقد كنت رأيت ، في سفري لتطوان ، عام (١٣٤١) درهمًا من هذه الدراهم الهرقلية منقوش عليها صورة هرقل ، ثم اشتريت بعد ذلك درهمًا رسم عليه اسم قيصر وصورته ، ولعلّه أحد القياصرة المعاصرين لأول الإسلام .

وفي فتاوى الشهاب الفقيه أحمد بن حجر الهيثمي ، جماعة ذكروا جواز حمل الدنانير ، التي تجلب من أرض الإفرنج ، وعليها صورة حيوان حقيقية يقينًا واستدلّوا على ذلك بأنها كانت تجلب من عندهم في زمن السلف ، ولم ينهوا عن حملها في العمامة وغيرها ، لأن القصد منها النقد لا تلك الصور ، ولتعذّر إزالتها أو تعسّره ، قال : فإذا جاز هذا في تلك الدنانير فجواز الكتابة في الورق الإفرنجي أولاً وإن تحقق أن فيه صورة حيوان . اهـ .

انظر: صورة رقم ٢٢٩ ، النقود الإسلامية القديمة

وفي فتاوى الشهاب أحمد الرملي الشافعي المصري أنه سئل عن دنانير عليها صورة حيوان تامة ، أيحرم حملها كحرمة الثياب المصورة ، ويجوز الاستنجاء بها بناء على حرمته بالمضروبة أم لا ؟ فأجاب بأنه لا يحرم حملها ولا الاستنجاء بها . فقد قال ابن العراقي : عندي أن الدراهم الرومية ، التي عليها الصور ، من القسم الذي لا ينكر لامتهانها بالإنفاق والمعاملة . وقد كان السلف يتعاملون بها من غير

نكير ، فلم تحدث الدراهم الإسلامية إلاّ في زمن عبدالملك بن مروان ، كما هو معروف . اهـ منها .

تنبيه : سبق أنه لم يكن في زمن الرسول ﷺ سكة ولا زمن أبي بكر ولا عمر ، والمعروف أن أول من ضرب السكة عبدالملك بن مروان . قال ابن سعد ، في الطبقات : حدّثنا محمد بن عمر الواقدي ، حدّثنا عبدالرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه ، قال: ضرب عبدالملك بن مروان الدنانير والدراهم سنة خمس وسبعين ، وهو أول من أحدث ضربها ، ونقش عليها ، وفي أوائل العسكري أنه نقش عليها اسمه ، وأخرج ابن عساكر عن المغيرة ، أول من ضرب الدراهم الزيوف عبد الله بن زياد ، وهو قاتل الحسين ، نقله السيوطي في أوائله والشامي في سيرته .

أقول : وربما يعكر عليه وعلى ما سبق ، من أن الدراهم في الزمن النبوي لم تكن من ضرب أهل الإسلام ، ما وقع في سنن أبي داود وابن ماجة من حديث علقمة بن عبد الله ، عن أبيه ، قال : نهى رسول الله ﷺ عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس . بوّب عليه ابن ماجة بقوله : باب النهي عن كسر الدراهم والدنانير ، وأبو داود بقوله: باب كسر الدراهم ، وأخرجه أيضًا أحمد والحاكم في المستدرك . قال الحافظ الشوكاني: في نيل الأوطار ، قوله : سكة ، بكسر السين المهملة ، أي: الدراهم المضروبة على سكة الحديد المنقوشة ، التي تطبع عليها الدراهم والدنانير ، وقوله : الجائزة بينهم يعني: النافقة في معاملتهم ، وقوله: إلاّ من بأس كأن تكون زيوفًا . وفي معنى كسر الدراهم كسر الدنانير والفلوس ، التي عليها سكة الإمام ، لا سيما إذا كان التعامل بذلك جاريًا بين المسلمين كثيرًا . اهـ .

وقال شيخ كبير من شيوخنا ، محدّث المدينة المنوّرة ومسندها ، الشيخ عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي ، في حاشيته على سنن ابن ماجة ، المسماة «إنجاح الحاجة» في الحديث : النهي عن الكسر بثلاثة شرائط :

الأول : أن تكون سكة الإسلام ، الثاني : أن تكون رائجة ، والثالث : أن لا يكون فيها بأس وضرر على المسلمين . فلو أزال سكة الكفّار لم يكن موردًا للنهي وكذا لو أزال السكة غير الرائجة والمزيّفة . اهـ . ونقله عنه الكنكوهي في «التعليق المحمود على سنن أبي داود» وأقرّه ، وهذا كما ترى كالصريح في أنه كان للمسلمين في الزمن النبوي سكة مضروبة ، كانوا يتعاملون بها .

و لله در صاحب العلامة السيّد أحمد بن محمد الحسني الشافعي المصري، حيث قال في ص(١٨١) من نهاية الأحكام فيما للنيّة من الأحكام، بعد أن ذكر حديث أبي داود ونحوه: مقتضى هذا أن سكة المسلمين كانت معروفة ومستعملة في زمنه عليه السلام، وليس ما يخالفه من الأقوال الدالة على أن سكة المسلمين لم تضرب إلاّ في عهد عمر أو في عهد من بعده أولى بالقبول منه إلاّ بمرجح وأين هو؟ اهـ بلفظه.

وفي تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان ص(١٣٨): أما النقود، التي ضربت في عهد الخلفاء الراشدين، فكانت نحاسيّة وفي غاية البساطة كما جرى في الشكل، وليس عليها من الكتابة إلاّ صورة الشهادة بالحرف الكوفي. ولم تضرب النقود الفضية في الإسلام حتى أيام الخليفة عبدالملك ثم صور نقوده.

وقد انتقده الرحالة الشيخ محمد أمين بن الشيخ حسن الحلواني المدني، في رسالته «نشر الهذيان من تاريخ جرجي زيدان» بقوله: لم يثبت في الرواية الصحيحة أن أحدًا من الخلفاء الأربعة ضرب سكة أصلاً إلاّ علي بن أبي طالب، فإنه ضرب الدراهم، على ما نقله صبحي باشا الموره لي، في رسالة له، ورسم فيها صورة ذلك الدرهم، وعزا ذلك إلى لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة، وأما هذه الثلاثة المسكوكات التي رسمها جرجي زيدان، فلا تثبت على فرض وجودها، لأنّه لم تكن عليها تواريخ دالة على زمانها، وأكبر شيء فيها دال على كذبها على الخلفاء، كون أحدها فيه صورة شخص، وهذا مما تحرمه الديانة الإسلامية. فكيف يفعل ذلك الخلفاء وكون هذه المسكوكات مزوّرة غير بدع عن الإفرنج وبياعي الأنتيكات اهـ؟ أنظر ص(٥) منه طبع لكنوا بالهند. فكان غاية جواب جرجي زيدان عن ذلك بأنه أخذ تلك الرسوم عن مؤلف فرنسي وأحال على ص(٢٦) من تاريخ مصر المارسا. أنظر رد رنان على نشر الهذيان.

وكأنهم لم يروه في المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية، للشيخ حمزة فتح الله المصري ص(١٥٢) ج(١) نقلاً عن شرح العيني على البخاري، أنه نقل عن المرغيناني أن الدراهم كانت شبه النواة، ودوّرت على عهد عمر، لما بعث معقل بن يسار وحفر نهره، الذي قيل فيه: «إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل» ضرب حينئذ عمر الدراهم على نقش الكسروية، وشكلها بأعيانها، غير أنه زاد في

بعضها الحمد لله ، وفي بعضها محمد رسول الله ، وفي بعضها لا إله إلاّ الله وحده ، على وجه وعلى الآخر عمر .

فلما بويع لعثمان ضرب دراهم نقشها : الله أكبر ، فلما اجتمع الأمر لمعاوية ضرب دنانير عليها تمثاله متقلدًا سيفا .

فلما قام عبد الله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدوّرة ، ثم غيّرها الحجّاج ، ولما استقر الأمر لعبدالملك بعد ابن الزبير ضرب الدنانير والدراهم في سنة (٧٦) ست وسبعين من الهجرة . اهـ .

ولا ما في رسالة النقود الإسلامية للمؤرخ الشهير التقي المقريزي ، فإن فيها نحوِ ما ذكر عن المواهب باللفظ . وزاد أن معاوية ضرب دنانير عليها تمثال ، متقلدًا سيفًا ، وذكر أن عبدالملك بن مروان لما أمر الحجّاج بضرب السكة ضربها ، وقدمت مدينة الرسول ﷺ وبها بقايا الصحابة ، فلم ينكروا منها شيئًا سوى نقشها ، فإن فيه صورة ، وكان سعيد بن المسيّب يبيع بها ويشتري ولا يعيب من أمرها شيئًا اهـ أنظر ص(٥) منها ، ونحوه في خطط مصر لوزير المعارف بمصر الشيخ علي بن مبارك باشا أنظر ص(٦) من ج(٢٠) منها ، وقد ساق كل كلام المقريزي المذكور محتجًا به الشيخ عبد الغني النابلسي ، في شرحه على الطريقة المحمدية أنظر ص(٤٩٩) ج(٢) .

ووقع في وفيات الأسلاف ص(٣٦١) ما نصّه : وأقدم سكة في الإسلام فيما وجد ما ضرب في خلافة عثمان سنة ثمان وعشرين من الهجرة بقصبة هرتك ، من بلاد طبرستان ، وكتب فيها ، بالخط الكوفي : بسم الله ربي . وفي خلافة علي سنة (٣٧) وكتب فيها : ولي الله . وفي سنة (٣٨) و (٣٩) : بسم الله ربي .

وفي درهم بالخط الكوفي في جانب منها : «الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» وفي دورته : «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» وفي الجانب الآخر «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وفي دورته : «ضرب هذا الدرهم بالبصرة سنة أربعين» وفيها ضرب بدر بيجرد سنة سبعين ، وفي يزد سنة إحدى وسبعين ، بالخط الكوفي ، بسم الله ، وفي الطرف الآخر بالخط البهلوي عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين .

وقيل : أول من ضرب النقود مصعب بن الزبير ، سنة سبعين ، بأمر أخيه عبد الله ، ونقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد : أن عبدالملك أمر الحجاج بضرب الدراهم ، وتمييز المغشوش من الخالص سنة (٧٤) ، وقال المدائني سنة (٧٥) : ثم أمر بضربها في النواحي سنة (٧٦) هـ ، وهذه الدراهم ما وقع نظري عليها وإنما نقلته عما نقله الثقات في هذا الشأن . اهـ .

ثم وجدته أخذ ذلك من تاريخ الوزير جودت باشا التركي الشهير ، فإنه نقل كل ما ذكر عن تاريخ واصف أفندي ، وفيه أيضًا ذكر واصف أفندي أنه نقل عن التواريخ الموضوعة في أخبار سلاطين العرب ، أن عمر بن الخطاب ضرب سكة في عام (١٨) على النقش الكبير وكتب على بعضها لا إله إلا الله محمد رسول الله . وعلى بعضها : لا إله إلا الله واسم عمر .

ثم قال : إلاّ أنه ثبت نقلاً أن حضرة عمر لم يضرب سكة باسمه ، والرواية المذكورة يحتمل أن تكون غلطاً حصل من السكة التي ضربها أحد الأتراك بطبرستان ، المسمى عمر على المنوال السابق ، فالظاهر أن تاريخها المكتوب بالخط البهلوي لم يتمكنوا من قراءته ، وأسندت إلى حضرة عمر عندما قرئ اسم عمر ، وكذلك السكة المنسوبة إلى عبد الله بن الزبير لم يطلع عليها أحد من أهل العلم .

ومن المسلّم عند أهل العلم ، أن الذي أحدث ابتداء ضرب السكة العربية هو الحجّاج ، ولكن ظهر خلاف ذلك عند وجود الكشف الجديد في هذا الفن سنة (١٢٧٦) .

وذلك أن رجلاً إيرانيًا اسمه جواد ، أتى إلى دار السعادة ، بسكة فضية عربية ضربت في البصرة سنة أربعين هجرية وأنا الفقير رأيتها بين المسكوكات القديمة الإسلامية ، عند صبحي باشا أفندي ، مكتوب على أحد وجهيها بالخط الكوفي : «الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد» وفي دورتها : «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» وعلى الوجه الآخر : «لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له» وفي دورتها : «ضرب هذا الدرهم بالبصرة سنة أربعين» .

ونقل عن بعض المورخين ، أنه ضرب على السكة صورة معاوية وخالد بن الوليد مقلدين سيفيهما ، وتابعهما واصف أفندي فأدرج ذلك في تاريخه . ولكن هذه الرواية المذكورة لم يصل نقلها إلى درجة الثبوت والصحة ، ولكن أنا الفقير

رأيت على وجه الترتيب جميع المسكوكات الأموية المخلفة، التي ضربت عندهم في دور الضرب، من الذهب والفضة، في كل سنة على الترتيب السابق من سنة (٧٢) إلى تاريخ انقراض دولتهم سنة مائة واثنين وثلاثين هجرية، فلم يكن على أحدها اسم الخليفة اهـ. راجع مقدمة التاريخ المذكور ص(٢٧٤).

ووقع في رسالة لصديقنا الكاتب الكبير الأصيل السيّد توفيق البكري الصديقي المصري، في الموافقة بين الأعراف الأوروبية والأعراف العربية، منقولة في شرح كتابه صهاريج اللؤلؤ ص(٢٩٠) أن عمر بن الخطاب كان يستعمل الورق والجلود مكان النقود للحاجة، وأنشد لأبي تمام:

لم ينتدب عمر للإبل يجعل من   جلودها النقد حين عزّه الذهب

أقول: وبمكتبتنا في قسم النقود دراهم مكتوبة بالكوفي عليها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وفي آخر الكتابة اسم «علي» يقطع الناظر المتأمل فيها وفي كتابتها ونقشها القديم أنها لعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه.

انتهى كل ذلك من كتاب «التراتيب الإدارية» للحافظ المحدّث الشهير السيّد الكتاني، ثم ذكر بعد ما نقلناه جملة من الفوائد، لم نر نقلها خوف إطالة المبحث، فمن شاء فليرجع إلى الكتاب المذكور.

نقول: إن الكتب التي تبحث عن النقود العربية قليلة جدًا، وأحسن ما ألّف في ذلك وطبع في عصرنا الحاضر «كتاب النقود العربية وعلم النميات» وضعه الأب أنستاس ماري الكرملي البغدادي عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة.

وقد طبع هذا الكتاب في المطبعة العصرية بمصر القاهرة سنة (١٩٣٩) ميلادية.

وتوجد مؤلفات أخرى في النقود الإسلامية، منها ما رأيناه بالمدينة المنوّرة، في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، حين زيارتنا لها في محرم سنة (١٣٧٧) سبع وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، من نسخة خطيّة اسمها «نبذة في النقود الإسلامية» وهي مقيّدة في فهرست المكتبة تحت رقم (٦٣٦) قسم التاريخ، وقد كتبت بخط النسخ الجميل المذهّب، وهي تحفة فنيّة في ذاتها، وعسى الله أن يوفّقنا لنسخها وطبعها في المستقبل القريب.

وإليك الكلام عن النقود المتداولة في عصرنا الحاضر .

النقود المتداولة في الحجاز

كل أنواع النقود الخارجية أي المستعملة في جميع البلدان والأقطار ، هي تستعمل عندنا في الحجاز ومقبولة التعامل بها في جميع أيام السنة ، وبالأخص في أوقات الحجّ ، لأن الحجاج يأتون بنقود بلادهم للتعامل بها عندنا ، ونحن هنا لا نريد الكلام عن أنواع النقود الخارجية ، وإنما نحب أن نأتي بنبذة عن النقود الحجازية فقط فنقول وبالله تعالى التوفيق :

جاء في « تاريخ مكة » لصديقنا الفاضل الأستاذ أحمد السباعي ، أن الشريف علي بن عنان ، لما كان بمصر ، عقد له ملكها « برسباي » الولاية على مكة المشرفة ، وذلك في موسم عام (٨٢٧) سبع وعشرين وثمانمائة هجرية فاصطحب الشريف علي بن عنان معه إلى مكة مطبعة لضرب النقود ، فضربت باسمه على أثر وصوله . انتهى من الكتاب المذكور .

فعلى هذا تكون هذه المطبعة هي أول مطبعة للنقود في الحجاز .

جاء في تاريخ الغازي : وفي يوم الخميس رابع ربيع الأول سنة (٨٨٩) تسع وثمانين وثمانمائة من الهجرة خرجت السكة الجديدة سكة المساعيد ، وزفّت بالمغاني والمطبّلين والمزمّرين والجعيدية من بيت الشريف إلى الأسواق والشوارع وإلى بيت الشريف أيضًا ، وعمل صرف الأشرفي ثلثمائة مسعودي ، والمحلقة باثني عشر مسعوديًا . وكانت المسعودية العتيقة وصلت أربعة آلاف مسعودي وشيء ، فإن المحلقِ أصرف بمائة وستين ، وكان صرف الأشرفي بالمحلقة خمسة وعشرين نصفًا بل وشيئًا أيضًا ، وكان بها رفق للناس ، وإن كان حصل لهم بها ضرر لعدم ضبطها بصرف واحد ، وتضرّر الناس بالجديدة إذ التفاوت بين الأسعار في الدراهم يسير . انتهى من الغازي .

ومما يناسب ما تقدّم ما جاء في تاريخ الغازي : إنه في سنة (١١٠٠) مائة وألف من الهجرة أمر مولانا الشريف أحمد بن غالب بأناس بلغه أنهم يسكّون الدراهم ، فأمر بنهب بيوتهم ، ففعل بهم ذلك ، وأمهلوا نحو خمسة أيام ، وأخرجوا من البلد ، وأحضر آلات السكة بين يديه فصلحت المعاملة . انتهى .

هذا ولقد رأينا في عصرنا الحاضر من النقود التي كانت تستعمل في الحجاز ثلاثة أنواع . (الأول) ما كان مطبوعًا باسم الدولة العثمانية التركية من النقود والطوابع ، ثم زال استعمالها في الحجاز ، بعد الحرب العالمية العظمى ، أي من بعد سنة (١٣٣٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية ، بسبب استقلال الحجاز وزوال حكم الأتراك عنه .

فقد كانت العملة التركية ، بجميع أنواعها من الذهب والفضة والنيكل والنحاس ، تستعمل في جميع الممالك العثمانية ، كالحجاز ومصر والشام واليمن والعراق وتركيا ، لأنها كانت تضرب باسم خليفة المسلمين ، الذي كان يحكم جميع البلاد الإسلامية ، حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، ثم انتهى عهد الخلافة وزال حكم الأتراك عن أكثر بلاد الإسلام .

وقد كتب في وسط الوجه الأول من الجنيه العثماني الذهبي ما يأتي :

«عز نصره ضرب في قسطنطينية ١٣٢٧» مع شيء من الحلية والنقش . وكتب في وسط الوجه الثاني منه ما يأتي : «اسم السلطان الغازي فلان» على شكل طغراء ، مع شيء من الحلية والنقش وعدد من النجوم .

وكتب في وسط الوجه الأول من الريال الفضة ما يأتي:

«عز نصره ضرب في قسطنطينية سنة ١٣٢٧» ويحيط بدائره عدة من الهلال أيضًا وفي وسط كل هلال نجمة .

وكتب في وسط الوجه الثاني «اسم السلطان الغازي فلان» ، ويحيط بدائره عدة من الهلال أيضًا وفي وسط كل هلال نجمة . وكان القرش الواحد التركي يساوي أربعين يارة .

ثم لما نهض الشريف حسين بن علي ملك الحجاز الأسبق ، رحمه الله تعالى ، نهضته المعروفة ، وأجلى الأتراك عن الحجاز ، واستقلّ فيه بالحكم ، ضرب نقودًا بمكة باسمه من الذهب والفضة والنيكل والنحاس ، فلقد كتب على الوجه الأول من الجنيه الذهب الدينار : «عبده وابن عبده -الحسين بن علي- الناهض بالبلاد العربية» وفي وسط الدينار كلمة «هاشمي» .

وكتب على الوجه الثاني من الدينار الذهب : «ضرب بمكة المكرّمة -عاصمة الحكومة العربية- سنة ١٣٣٤ وفي وسطه كلمة «دينار» .

وكتب على الوجه الأول من الريال الفضة «أمر بتعامله عبده وابن عبده الحسين بن علي سنة ١٣٣٤».

وكتب على الوجه الثاني من الريال «الحكومة العربية الهاشمية ضرب بمكة المكرّمة» وكتب في وسط قطعة النقود النحاسية كلمة «قرش واحد» وكتب حولها «ضرب سنة ١٣٣٤ بمكة المكرمة عاصمة الحكومة العربية الهاشمية».

وكتب في وجهها الثاني «عبده وابن عبده الحسين بن علي وفّقه الله».

أسعار المبيعات بالجملة بالنقود الهاشمية

ثم قال الغازي رحمه الله تعالى بعد ما تقدّم ما يأتي:

بيان أسعار الحاجيات طبق الأوراق البلدية الملصقة في الشوارع، والتي تضمّنها النداء الرسمي، وها هي كما يأتي:

الرز البنوري	الكيس بمائة واثنين وستين قرشًا.
الرز الهورة	الكيس بمائة وثمانية وسبعين قرشًا.
الرز المزة	الكيس بمائة وتسعين قرشًا.
الرز الراري	الكيس بمائة واثنين وخمسين قرشًا.
العدس الهندي	الكيس بمائة واثنين وثلاثين قرشًا.
العدس الصعيدي	الكيس بمائة واثنين وثمانين قرشًا.
الحنطة الكراشي	الكيس بمائة واثنين وثلاثين قرشًا.
الحنطة السندية	الكيس بمائة واثنين وخمسين قرشًا.
الحنطة البصراوي	الكيس بمائة وسبعة وعشرين قرشًا.
الدخن	الكيس بمائة واثنين وثلاثين قرشًا.
الشعير	الكيس بمائة وقرشين.
الذرة	الكيس بمائة واثنين وأربعين قرشًا.
الدقيق الخشن	العدلة بمائة وخمسة وثمانين قرشًا.
الدقيق الناعم	العدلة بمائة وثمانية وتسعين قرشًا.
السكر الدبارة	القنطار بمائة وثمانية وتسعين قرشًا.
القاز	الصندوق بمائة وسبعة قروش.

السمن الحجازي	المن بمائتين وأربعة وأربعين قرشًا .
السمن البحري	المن بمائة وخمسة وتسعين قرشًا .
الزيت السمسم	التنكة بمائة واثنين وعشرين قرشًا .

انتهى من تاريخ الغازي .

أسعار المبيعات بالتفرقة

ثم ذكر الغازي أسعار المبيعات بالتفرقة ، بالنقود الهاشمية ، بما يأتي :

الرز المزة	الكيلة بتسعة قروش .
الرز البنوري	الكيلة بسبعة قروش .
الرز الهورة	الكيلة بثمانية قروش .
الرز الراري	الكيلة بستة قروش ونصف .
العدس الهندي	الكيلة بستة قروش ونصف .
العدس الصعيدي	الكيلة بعشرة قروش .
الحنطة الكراشي	الكيلة بستة قروش .
الحنطة السندية	الكيلة بستة قروش ونصف .
الحنطة البصراوي	الكيلة بخمسة قروش ونصف .
الدخن	الكيلة بأربعة قروش .
الشعير	الكيلة بأربعة قروش ونصف .
الذرة	الكيلة بأربعة قروش ونصف .
الفول الصعيدي	الكيلة بأحد عشر قرشًا .
الفول المصوعي	الكيلة بثمانية قروش .
الدقيق الخشن	الكيلة بأربعة قروش ونصف .
الدقيق الناعم	الإقة بثلاثة قروش ونصف .
العدس أبو جبة	الكيلة بثمانية قروش .
الحمص المدشوش	الكيلة بعشرة قروش .
السكر الدبارة	الإقة بخمسة قروش ونصف .
القاز	الإقة بخمسة قروش ونصف .

الشاهي الأسود	الإقة بثلاثين قرشًا .
الشاهي الأخضر	الإقة بخمسة وأربعين قرشًا .
السمن الحجازي	الإقة باثنين وعشرين قرشًا .
السمن البحري	الإقة بثمانية عشر قرشًا .
الزيت السمسم	الإقة بأحد عشر قرشًا .
القرص العيش	بنصف قرش .

انتهى من تاريخ الغازي .

والآن نبدأ الكلام عن النقود السعودية فنقول :

ظهور النقود العربية السعودية

عندما تولى الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، رحمه الله تعالى ، على الحجاز ، في سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، ضرب أول نقود في عهده ، في السنة المذكورة ، من النحاس من قطعة القرش وأجزائه .

فلقد كتب على القطعة النحاسية من فئة النصف قرش ، على وجهه الأول ، ما يأتي : « نصف قرش ضرب في أم القرى » وكتب على وجهها الثاني بالطغراء «عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل» سنة (١٣٣٤) .

ومثل ذلك على ربع القرش . أما نفس القرش فلم يقع في أيدينا في الوقت الحاضر .

ثم في سنة (١٣٤٤) ألف وثلاثمائة وأربع وأربعين هجرية ، وهي السنة الثانية من تولّي الملك عبدالعزيز ، رحمه الله تعالى ، على الحجاز ، صدر من النقود النيكل قطعة من فئة القرش الواحد ، كتب على أحد وجهيها «قرش واحد ١٣٤٤» وكتب على الوجه الثاني «عبدالعزيز السعود ملك الحجاز وسلطان نجد» ، كما صدر أيضًا نصف القرش وربعه .

وفي سنة (١٣٤٦) أعيد طبع القرش الواحد ، وكتب على الوجهين ما كتب على القرش السابق ، غير أنه زيد في هذا كامة «وملحقاتها» عند جملة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها . كما أعيد طبع نصف القرش وربعه .

وفي سنة (١٣٤٦) ست وأربعين وثلاثمائة وألف هجرية أيضًا طبع لأول مرة في العهد السعودي، الريال الفضة، وكان حجمه كبيرًا بالنسبة للريالات التي طبعت بعده، يعني أن هذا الريال الكبير بقدر الريال الصغير الذي طبع بعده بمرّتين، فوزن الكبير سبعة دراهم ونصف درهم. ووزن الريال الصغير ثلاثة دراهم ونصف وقيراطان ونصف قيراط.

وقد كتب على وجهه الأول في الوسط «عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود» وبدائره «ملك الحجاز ونجد وملحقاتها» مع الشعار الحكومي وهو سيفان متقاطعان، وعن يمينهما نخلة وعن شمالهما نخلة. وكتب على وجهه الثاني في الوسط «ضرب في مكة المكرّمة سنة ١٣٤٦» وبدائره «ريال عربي سعودي واحد» مع كتابة رقم (١) وعن يمينه نخلة وعن يساره نخلة.

ثم أعيد طبعه في عام (١٣٤٨) وكتب على وجهيه ما كتب على الريال الأول المذكور.

وفي سنة (١٣٤٨) أعيد طبع القرش الواحد أيضًا، وكتب على وجهيه ما كتب على القرش الذي قبله مع ذكر السنة التي ضرب فيها. وفي سنة (١٣٥٤) أعيد طبع الريال الفضة للمرة الثالثة، وكان حجمه نصف حجم الريال السابق، وقد كتب على وجهه الأول في الوسط «عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود» وكتب بدائره «ملك المملكة العربية السعودية» مع الشعار الحكومي وهو سيفان متقاطعان وعن يمينهما نخلة وعن شمالهما نخلة.

وكتب على الوجه الثاني في الوسط «ضرب في مكة المكرمة سنة (١٣٥٤)» وبدائره «ريال عربي سعودي واحد» مع كتابة رقم (١) وعن يمينه نخلة وعن يساره نخلة.

وطبع أيضًا في السنة المذكورة نصف الريال وربعه.

وفي سنة (١٣٥٦) أعيد طبع القرش الواحد أيضًا، وكتب على أحد وجهيه (قرش واحد) مع ذكر سنة ضربه، وكتب على الوجه الثاني ما يأتي «عبدالعزيز السعود ملك المملكة العربية السعودية».

وطبع معه أيضًا نصف القرش وربعه.

ثم أعيد طبع الريال أيضًا في سنة (١٣٦٧) للمرة الرابعة، وكتب على وجهيه ما كتب على الريال السابق، مع ذكر سنة ضربه.

ثم أعيد طبع الريال أيضًا في سنة (١٣٧٠) للمرة الخامسة، وكتب على وجهيه ما كتب على الريال السابق، مع ذكر سنة ضربه.

وفي سنة (١٣٧٠) سبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة طبع لأول مرة في العهد السعودي الجنيه الذهب، وقد كتب على وجهه الأول في الوسط «عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود» وبدائره «ملك المملكة العربية السعودية» مع الشعار الحكومي، وهو سيفان متقاطعان، وعن يمينهما نخلة وعن يسارهما نخلة.

وكتب على وجهه الثاني في الوسط «ضرب في مكة المكرّمة سنة (١٣٧٠)» وبدائره «جنيه عربي سعودي» مع كتابة رقم (١) وعن يمينه نخلة وعن شماله نخلة.

وكان وزن الجنيه الذهب درهمين ونصف درهم، مع العلم بأن الدرهم يساوي ستة عشر قيراطًا.

انظر: صورة رقم ٢٣٠، بعض الصور للنقد السعودي

وكلمة (جنيه) ليست عربية، ومعناها الدينار، ويطلق الجنيه في اصطلاح زماننا على العملة الذهبية أو ما يقوم مقامه من الأوراق النقدية، كالجنيه المصري، مثلاً.

ولقد جاء عن معنى الجنيه الذهب، في مجلّة الهلال المصرية في أربعين سنة، بتاريخ (١٩٣٢) ميلادية، ما يأتي:

الجنيه، هو مأخوذ من جينيا أو غينيا، بلاد واقعة على سواحل إفريقيا. وفي سنة (١٥٨٨) ميلادية تألفت شركة تجارية إنجليزية سارت إليها للتجارة، وأخذت ترسل من محصولات تلك البلاد إلى إنجلترا، وفي جملة ذلك معدن الذهب، فضربت الحكومة الإنجليزية من هذا الذهب دنانير سمّتها باسم تلك البلاد. ولم تكن ضربت الليرات الإنجليزية المتداولة، وأقدم تلك الجنيهات ضرب سنة (١٦٦٣)، وقد نقش عليها صورة الفيل، إشارة إلى أنه ذهب إفريقي. وفي سنة (١٨١٧) م ضربت الليرة الإنجليزية، وأبطل ضرب الجنيهات المتقدّم ذكرها. انتهى من المجلّة المذكورة.

ثم في سنة (١٣٧٤) أعيد طبع الريال للمرة السادسة وكتب على وجهيه ما كتب على الريال السابق مع ذكر سنة ضربه . وطبع في السنة المذكورة أيضًا نصف الريال وربعه .

وفي سنة (١٣٧٦) طبع من النقود النيكل قطعة من فئة القرش الواحد ، كتب على أحد وجهيها «قرش واحد ١٣٧٦» وكتب على الوجه الثاني ما يأتي: «سعود بن عبدالعزيز السعود ملك المملكة العربية السعودية» ، وجعل في وسطه شعار المملكة وهو نخلة وسيفان متقاطعان .

وفي السنة المذكورة أي سنة (١٣٧٦) هجرية طبع من النقود النيكل قطعة من فئة القرشين ، كتب على أحد وجهيها «قرشان ١٣٧٦» . وكتب على الوجه الثاني ما يأتي : «سعود بن عبدالعزيز السعود ملك المملكة العربية السعودية ، وجعل في وسطه شعار المملكة وهو نخلة وسيفان متقاطعان .»

وفي سنة (١٣٧٦) هـ أيضًا طبع من النقود النيكل قطعة من فئة أربعة قروش ، كتب على أحد وجهيها «أربعة قروش» مع ذكر السنة التي ضربت فيها . وكتب على الوجه الثاني ما كتب على قطعة القرشين السابقة .

استعمال الأوراق النقدية في المملكة السعودية

لم يسبق للحكومات السابقة في الحجاز أن طبعت أوراقًا نقدية للتعامل بها ، فلما تولّت الحكومة العربية السعودية عليها ، أصدرت لأول مرة في سنة (١٣٧٢) ألف وثلاثمائة واثنتين وسبعين هجرية ، ورقة من فئة «عشرة ريالات» . طولها أربعة عشر سنتيمتر ، وعرضها ستة سنتيمتر ونصف ، كتب على وجهها الأول في أعلى الورقة : «مؤسسة النقد العربي السعودي» ، وفي الجانب الأيمن منها ما يأتي :

صدر هذا الإيصال من قبل المؤسسة لتيسير أداء حامله فريضة الحج ، وذلك بجعل حصوله على الريالات العربية ، في متناول يده بسهولة وسرعة ، أثناء إقامته في البلاد العربية السعودية ، وبدون تكبّده نفقة الصرافة» .

وكتب في الجانب الأيسر منها ما يلي : نشهد بأن المؤسسة تقتني في خزنتها بجدة مبلغ عشرة ريالات عربية تحت طلب حامل هذا الإيصال . وهو قابل

للصرف الكامل، وتدفع قيمته فور تقديمه من قبل حامله إلى أي مركز من مراكز المؤسسة . الإصدار الأول (١٣٧٢) . وذلك تحت توقيع نائب رئيس مجلس الإدارة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله السليمان، والمحافظ المستر جورج بلاور، ونائب المحافظ راسم الخالدي .

وفي وسط الورقة وضع الشعار السعودي، وفي جميع أركانها الأربعة كتب رقم (١٠) بالعربي والإنجليزي، وكتب في أسفل الورقه ما نصّه : دس ريال، عشرة ريالات، ده ريال، سقولة ريال، مع بعض حروف أو كلمات إنجليزية .

وكتب على وجهها الثاني من أعلى الورقة أرقام متسلسلة ومن أسفلها كلمات إنجليزية، وفي جميع أركانها الأربعة رقم (١٠) بالعربي والإنجليزي .

وفي وسط الورقة كتب ما نصّه : تحتفظ مؤسسة النقد العربي السعودي في خزائنها بمبلغ عشرة ريالات، تحت طلب حامل هذا الإيصال، وهو إيصال قابل للتحويل بدون قيد أو شرط .

ثم ترجمت بعد ذلك هذه العبارة إلى ثلاث لغات مختلفة .

ثم صدرت، في عام (١٣٧٣) ألف وثلاثمائة وثلاثة وسبعين هجرية، ورقة نقدية من فئة «عشرة ريالات» طولها سبعة عشر سنتيمتر وعرضها ثمانية سنتيمتر .

كتب على وجهها الأول في أعلى الورقه «مؤسسة النقد العربي السعودي» ثم رقم متسلسل . وفي الجانب الأيمن منها ما يأتي : «صدر هذا الإيصال من قبل المؤسسة لتيسير أداء حامله فريضة الحجّ، وذلك بجعل حصوله على الريالات العربية في متناول يده، بسهولة وسرعة، أثناء إقامته في البلاد العربية السعودية، وبدون تكبّده نفقة الصرافة» وتحت ذلك كتب «دس ريال، عشرة ريالات»، ثم كلمات إنجليزية، وتحتها رقم متسلسل . وكتب في الجانب الأيسر منها ما يلي : «نشهد بأن المؤسسة تقتني في خزنتها بجدة مبلغ عشرة ريالات عربية، تحت طلب حامل هذا الإيصال . وهو قابل للصرف الكامل وتدفع قيمته فور تقديمه من قبل حامله إلى أي مركز من مراكز المؤسسة» وكتب تحت ذلك «ده ريال، سقولة ريال» ثم كلمات إنجليزية، وبعدها مذكور عام صدورها وهو (١٣٧٣) . وكل ذلك تحت توقيع نائب رئيس مجلس الإدارة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله السليمان، والمحافظ المستر جورج بلاور، ونائب المحافظ راسم الخالدي .

وفي وسط الورقة وضع رسم لميناء جدة، وبه السنابيك، وفي جميع أركانها الأربعة كتب رقم (١٠) بالعربي والإنجليزي. وكتب في أسفل الورقة كلمات إنجليزية.

وكتب على وجهها الثاني من أعلى الورقة «مؤسسة النقد العربي السعودي».

وفي الجانب الأيمن والأيسر منها وضع الشعار السعودي، وفي وسطها كتب ما يلي: «تحتفظ مؤسسة النقد العربي السعودي في خزائنها بمبلغ عشرة ريالات تحت طلب حامل هذا الإيصال، وهو إيصال قابل للتحويل بدون قيد أو شرط» ثم ترجمت بعد ذلك إلى ثلاث لغات مختلفة، ووضع في وسط هذا الترجمة رقم (١٠).

وفي جميع أركانها الأربعة رقم (١٠) بالعربي والإنجليزي. وفي أسفلها مكتوب «عشرة ريالات».

ثم في عام (١٣٧٣) هـ أيضًا صدرت ورقة نقدية من فئة «خمس ريالات» طولها خمسة عشر سنتيمتر ونصف وعرضها ستة سنتيمتر ونصف.

كتب على وجهها الأول في أعلى الورقة «مؤسسة النقد العربي السعودي» ثم رقم متسلسل. وفي الجانب الأيمن منها ما يأتي: «صدر هذا الإيصال من قبل المؤسسة لتيسير أداء حامله فريضة الحجّ، وذلك بجعل حصوله على الريالات العربية في متناول يده، بسهولة وسرعة، بمجرّد وصوله إلى البلاد العربية السعودية، وبدون تكبّده نفقة الصرافة». وتحت ذلك كتب «يخ ريال، بانج ريال» ثم كلمات إنجليزية، وتحتها كتب العام الذي صدرت فيه وهو عام (١٣٧٣) هـ وبعد ذلك رقم متسلسل.

وكتب في الجانب الأيسر منها ما يلي: «نشهد بأن المؤسسة تقتني في خزنتها بجدة مبلغ خمسة ريالات عربية تحت طلب حامل هذا الإيصال. وهو قابل للصرف الكامل وتدفع قيمته فور تقديمه من قبل حامله إلى أي مركز من مراكز المؤسسة» وكتب تحت ذلك «ليم ريال، خمسة ريالات» ثم كلمات إنجليزية. وكل ذلك تحت توقيع نائب رئيس مجلس الإدارة الشيخ عبدالعزيز بن عبد الله السليمان، والمحافظ المستر جورج بلاور ونائب المحافظ راسم الخالدي.

وفي وسط الورقة وضع رسم لميناء جدة وبه سنبوك ، وفي جميع أركانها الأربعة كتب رقم (٥) بالعربي والإنجليزي . وكتب في أسفل الورقة كلمات إنجليزية .

وكتب على وجهها الثاني من أعلى الورقة «تحتفظ مؤسسة النقد العربي السعودي في خزائنها بمبلغ خمسة ريالات تحت طلب حامل هذا الإيصال ، وهو إيصال قابل للتحويل بدون قيد أو شرط» .

وفي الجانب الأيمن والأيسر منها ترجمة هذه الكلمة إلى أربع لغات مختلفة .

وفي وسط هذه الورقة وضع الشعار السعودي . وفي جميع أركانها الأربعة رقم (٥) بالعربي والإنجليزي . وكتب في أسفل الورقة كلمات إنجليزية .

ثم صدرت في عام (١٣٧٥) ورقة نقدية من فئة «ريال واحد» طولها ثلاثة عشر سنتيمترًا وعرضها سبعة سنتيمتر .

كتب على وجهها الأول في أعلى الورقة «مؤسسة النقد العربي السعودي» .

وفي الجانب الأيمن منها ذكرت السنة التي صدرت فيها وهي سنة (١٣٧٥) هجرية ، ثم كتب ما يأتي : «صدر هذا الإيصال ، من قبل المؤسسة ، لتيسير أداء حامله فريضة الحجّ ، وذلك بجعل حصوله على الريالات العربية في متناول يده ، بسهولة وسرعة ، أثناء إقامته في البلاد العربية السعودية ، وبدون تكبّده نفقة الصرافة» وتحت ذلك كتب «ريال واحد ، ساتو ريال» . ثم كلمات إنجليزية وتحتها رقم متسلسل .

وكتب في الجانب الأيسر منها رقم متسلسل ، ثم «نشهد بأن المؤسسة تقتني في خزنتها بجدة مبلغ ريال عربي واحد تحت طلب حامل هذا الإيصال ، وهو قابل للصرف الكامل وتدفع قيمته فور تقديمه من قبل حامله إلى أي مركز من مراكز المؤسسة» وكتب تحت ذلك «يك ريال ، ايك ريال» ثم كلمات إنجليزية . وكل ذلك تحت توقيع رئيس مجلس الإدارة الشيخ محمد سرور الصبان والمحافظ المستر استنلش .

وفي وسط الورقة رسم لجانبي الشارع المؤدي إلى القصر الملكي بجدة وقد ظهرت البوابة الرئيسية للقصر في نهايته . وفي جميع أركانها الأربعة كتب رقم (١) بالعربي والإنجليزي .

وكتب من أسفل الورقة كلمات إنجليزية .

وكتب على وجهها الثاني من أعلى الورقة «تحتفظ مؤسسة النقد العربي السعودي في خزائنها بمبلغ ريال واحد تحت طلب حامل هذا الإيصال ، وهو إيصال قابل للتحويل بدون قيد أو شرط .

وفي الجانب الأيمن منها والأيسر ترجمة لهذه الكلمة بأربع لغات مختلفة . وفي وسط هذه الورقة وضع الشعار السعودي . وفي جميع أركانها الأربعة رقم (١) بالعربي والإنجليزي .

هذا وفي أول عام (١٣٨٥) من الهجرة كنا طلبنا من سعادة محافظ مؤسسة النقد العربي السعودي بجدة ، أن يتكرّم فيفيدنا ببعض المعلومات الهامة عن النقد السعودي ، فورد لنا منه الجواب الآتي ، نذكره هنا بنصه ، وهو هذا :

«فضيلة الأستاذ الجليل محمد طاهر كردي السليمان

مكة المكرّمة

تحيّة طيبة وبعد ،

تلبية لرغبة فضيلتكم برقيًا برقم ٣٢/٢٣ في ٨٥/١/١١ يسرّنا أن نورد لكم أدناه المعلومات المطلوبة .

١- طرحت إيصالات الحجّاج «فئة عشرة ريالات الطبعة الأولى» في التداول يوم ١٨/١١/٣٧٢هـ الموافق ٢٩/ ٧/١٩٥٣م واستمرّ التعامل بها بجانب الريالات الفضيّة والجنيهات الذهبيّة .

٢- ولقد ظهرت الطبعة الثانية من إيصالات الحجّاج «فئة عشرة ريالات» في التداول بتاريخ ١٣٧٣/٩/١٥ هـ الموافق ١٩٥٤/٥/١٨م .

٣- أما فئة الخمسة ريالات من إيصالات الحجّاج فقد ظهرت في التداول بتاريخ ١٣٧٣/١٠/١٣هـ الموافق ١٩٥٤/٦/١٤م وفئة الريال الواحد يوم ١٣٧٥/١١/٢٣هـ الموافق ١٩٥٦/٧/٢م .

٤- ولقد حددّت المادة الثانية من المرسوم الملكي رقم ٦ الصادر في أول رجب ١٣٩٧هـ قيمة الريال السعودي بـ (١٩٧٤٨٢) ر . جرام من الذهب الخالص ، وبصدور هذا المرسوم توقّف التعامل بالريالات الفضيّة كعملة قانونيّة للبلاد .

وختاماً نرجوا من الله لكم التوفيق في إنهاء مؤلف تاريخ مكة . والله الموفق»

المحافظ: أنور علي

ولقد ذكرنا في كتابنا «تاريخ الخط العربي وأدبه» المطبوع على نفقة مكتبة الهلال بمصر، عن النقود الموجودة إلى اليوم، ما يأتي : وأما ما يوجد من النقود والأوراق البردية المكتوبة في دار الكتب العربية بمصر فنحو خمسة آلاف قطعة من النقود العربية من ذهبية وفضية ونيكل وبرونز، من العهد القديم إلى الآن، أقدمها دينار عبدالملك بن مروان ضرب سنة (٧٧) هـ، وهو أول دينار ضرب في الإسلام في عهد بني مروان . (ويوجد) في متحف الاسكندرية نقود من عهد البطالسة (وتوجد في المتحف الأدبي (بفينا) عاصمة النمسا خطوط مكتوبة سنة ٢٤ هجرية، وقد رآها الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية رحمه الله تعالى بفينا، كما توجد فيها مجموعة قيّمة من نقود ملوك حمير، فإنهم كانوا ينقشون عليها صورهم وأسماءهم وأسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند (الحروف الحميرية) وأحياناً ينقشون عليها صور الثور أو الصقر أو البومة . وهنا نضع صور بعض النقود الإسلامية القديمة . انتهى منه .

هذا ما ذكرناه في كتابنا المذكور عن النقود فقط، وذكرنا فيه أيضًا كثيرًا مما يوجد اليوم في دور الآثار والمتاحف، من مختلف الأشياء والمخطوطات، لم ننقلها هنا حتى لا يطول بنا الكلام .

وحبّذا لو أن الحكومات الإسلامية كافة، من عرب وعجم، لو اتفقوا على استعمال نقود موحّدة بجميع أنواعها وأجزائها، بعد أن يتفقوا على وضع أسماء خاصة لها، بجميع أجزائها من ذهب أو فضة أو نيكل أو برونز أو صفيح . ففي هذا تيسير كبير للمسافرين بين البلدان الإسلامية قاطبة، ويسهّل تعاملهم بين جميع الطبقات، حتى في مسائل التجارة، فلا يحتاجون إلى مقارنة الأسعار بين بلدتهم والبلدة التي سافروا إليها .

أول استعمال عملة النقد وعملة الورق

جاء في مجلّة «الهلال»، في الجزء الرابع من السنة الأربعين : إن أول من استعمل النقود المعدنية أهالي ليديا، بآسيا الصغرى، وأول قطعة سكّت كانت في سنة ٧١٦ قبل الميلاد . أما عملة الذهب فالمعروف أن أول من أمر بسكّها هو

قارون « كروسوس » ملك لسيديا حوالي سنة ٥٥٠ قبل الميلاد ، ولا يعلم متى بدئ باستعمال ورق النقد على وجه التحقيق . وقد زعم بعض المؤرخين أن الصينيين أول من استعمل ورق النقد ، ولكن هذا لم يثبت بعد ، والأرجح أن إنجلترا أول من استعمل البنكنوت ، بعد حرب نابليون ، ويوجد الكلام على البنك والبنكنوت في مجلة « مصر الحديثة » المصورة بتاريخ ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٠ .

التعامل بالفلوس الورق

وقال ابن بطوطة في رحلته التي كانت سنة (٧٢٥) خمس وعشرين وسبعمائة من الهجرة ، ما يأتي :

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعًا ، كما ذكرناه وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد « الكاغد هو الورق بفتح الواو والراء » كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطبع السلطان ، وتسمى الخمس والعشرين قطعة منها « بَالِشْت » بباء موحدة وألف ولام مكسورة وشين معجم مسكن وتاء معلوة . وهي بمعنى الدينار عندنا ، وإذا تمزقت تلك الكواغد « أي الأوراق » ، في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضها جددًا ، ودفع تلك الكواغد ، ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها ، لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان .

وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء ، وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار ذهب يريد شراء شيء ، لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه حتى يصرفه بـ « البالِشْت » ويشتري به ما أراد . انتهى من رحلة ابن بطوطة .

النقود

جاء في الجزء الثالث من كتاب « المطالعة الوافية » عن استعمال النقود وذلك نقلاً بتصرف من كتاب « موجز النقود والسياسة النقدية » تأليف زكريا مهران ، ما يأتي :

عاش الإنسان أول أمره مع الحيوان محدود المطامع ، فإن بدت له حاجة اغتصبها ، فإن لم يستطع انصرف عنها عاجزًا ثم اتخذ من الحجارة عددًا يتقي بها

الضواري ، أو يصيدها ، فيتّخذ من لحومها طعامًا ، ومن جلودها لباسًا ثم لم يلبث أن وجد قضاء حاجاته في المقايضة ، فاجتاز مرحلة الحيازة غصبًا إلى مرحلة المقايضة طوعًا .

وكانت الحاجات المتبادلة هي اللحوم والجلود والعظام . واللحوم سريعة العطب ، فلم تصلح للتبادل ، وبقيت الجلود والعظام . ولا تزال بعض قبائل الهنود في أمريكا ، والزنوج في أفريقية ، تتعامل بعظام الحيوان .

ثم عرف الإنسان الزراعة ، واستأنس الماشية ، وعثر على النحاس ، فاستخدمه في تقوية عدده الخشبية والحجرية ، وصنع منه آلات لأغراض مختلفة .

وفي ذلك الوقت أدرك الإنسان معنى الرزق والثروة ، وتعامل بأنفس ما يملكه من عدد القتال ، وأدوات الفلاحة ، والغلّات الزراعية ، والماشية . وقد كان للثور شأن عظيم ، في تاريخ المقايضة ، فقد كان له من القيمة ما للذهب الآن ، ولذلك رسمه قدماء المصريين على آثارهم جاثمًا في كفة ميزان ، وفي الكفة الأخرى حلقات المعادن المعروفة لعهدهم . وكذلك كان قدماء الإغريق ، شأنهم في ذلك الوقت البعيد شأن قبائل خط الاستواء اليوم ، إذ يقدّرون الرقيق والأسلحة والبارود بالثيران .

والحقيقة أن العرف والعادة ، في كل شعب ، كانا يقضيان دائمًا بالتماس مادة نافعة أو ضرورية من المواد الموفورة لديه ، يتبادل بها أفراده فيما بينهم تبادل النقود ، ويرضونها ، تسهيلاً لمعاملاتهم ، أو تحقيقًا لمنفعة .

ثم أدرك الإنسان أن تلك السلع ، مرهقة في التبادل بها ، فالماشية تحتاج إلى إطعام ، وإيواء ورعاية ، وقد تنفق أو تمرض . والغلات قد يلحقها الفساد ، إذا تقادم عليها العهد ، وقد تلتهمها النيران أو الفيران ، أو تكسد سوقها ، فلا بد إذن من الاعتماد على سلعة ، تجمع بين النفاسة والسلامة ويسر الاستعمال . فاتّخذ من المعادن وسيطًا في التبادل ، وتدرج فيها وفي قيمها وأشكالها وحجومها وأوزانها ووجوه استخدامها على صور متعدّدة شتى .

ثم جاء دور إشراف الحكومات على العملة المعدنية ، كي يأمن المتعاملون الغش والتزييف ، ولا سيما إذا كانت من معدن نفيس كالذهب والفضة ، وسنّت الدول القديمة كمصر والإغريق القوانين ، تنص على عقوبات صارمة لمن يغش أو يخدع .

ثم قامت الحكومات نفسها بسك النقود التي تحتاج إليها، وطبعها بطابعها الرسمي، وحرّمت على الأفراد أن يسكوها، كما حرّمت عليهم استعمال المعادن النفيسة، إلاّ إذا كانت مختومة بخاتمها.

وأجمع الباحثون على أن الشعب المصري القديم، كان أول الشعوب التي سكت العملة المعدنية، فقد ثبت أن قدماء المصريين، قد تعاملوا وتعاقدوا، وقدّروا قيم السلع بحلقات من المعادن، ذات أوزان ثابتة، أقدمها من النحاس، وذلك قبل المسيح بأربعة آلاف سنة. أما حلقات الذهب، فقد اتخذوها عملة قبل المسيح بنحو ألف ومائتي سنة، وأما الفضة فقد كانت نادرة عندهم فاستعملوها بعد ذلك.

أما التعامل بقطع يضربها الحاكم باسمه، فالخلاف في ذلك، قائم بين الباحثين: فذهب بعضهم إلى أن الصينيين كانوا أول من فعل ذلك قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة، وذهب «هيرودت» إلى أن الليديين كانوا أسبق منهم.

هذا وعرفت مصر قديمًا، سك النقود التي يصدرها الحاكم باسمه بعد الفتح المقدوني، فقد ضرب الاسكندر لنفسه عملة يخلّد بها ذلك الفتح، وانتسابه لآمون بمعبد سيوة، فرسم صورته على تلك العملة، واضعًا قرنين في رأسه، دلالة على انتسابه لآمون، الذي كان شعاره الكبش ذا القرنين، ولذلك سمي بالاسكندر ذي القرنين.

ولما آلت مصر إلى حكم البطالسة «بعد موت الاسكندر وتقسيم ملكه» سكت لنفسها نقودًا، تعد من أرقى النقود وأجملها، في دار بنتها واستخدمت لها الفنانين من بلاد الإغريق، وقد راجت هذه النقود وانتشرت بين جميع أمم البحر المتوسط أيام كانت الاسكندرية وطن المال والعلوم.

انتهى من كتاب «المطالعة الوافية».

كلام ابن خلدون عن النقود

قال العلامة ابن خلدون المولود سنة (٧٣٢) سبعمائة واثنتين وثلاثين هجرية والمتوفى سنة (٨٠٨) هجرية في مقدمته عن النقود عند الكلام على الخطط الدينية الخلافية، ما يأتي:

وأما السكة فهي النظر بالنقود المتعامل بها بين النـاس ، وحفظهـا مما يداخلهـا من الغش أو النقص ، إن كان يتعامل بها عددًا أو ما يتعلّق بذلك ، ويوصل إليه من جميع الاعتبارات ، ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود ، بالاستجادة والخلوص ، برسم تلك العلامة فيهـا من خاتم حديد ، اتخذ لذلك ، ونقش فيه نقوش خاصة به ، فيوضع على الدينار بعد أن يقـدّر ويضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش ، وتكون علامة على جودته ، بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف أهل القطر ، ومذاهب الدولة الحاكمة ، فإن السبك والتخليص في النقود لا يقف عند غاية ، وإنما ترجع غايته إلى الاجتهاد ، فإذا وقف أهل أفق أو قطر على غاية من التخليص وقفوا عندها ، وسمّوها إمامًا وعيارًا يعتبرون به نقودهم وينتقدونها ، فإن نقص عن ذلك كان زيفًا ، والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار ، فتندرج تحت الخلافة وقد كانت تندرج في عموم ولاية القاضي ، ثم أفردت لهذا العهد كما وقع في الحسبة هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية . انتهى من مقدمة ابن خلدون .

ثم قال ابن خلدون في النقود أيضًا ، في موضع آخر ، عند الكلام على شارات الملك والسلطان ، ما يأتي : السكة : وهي الختم على الدينار والدراهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ، ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة ، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى ، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه ، فيكون التعامل بها عدداً ، أو إن لم تقدّر أشخاصها يكون التعامل بها وزنا ، ولفظ السكة كان اسمًا للطابع ، وهي الحديدة المتخذة لذلك ، ثم نقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه ، وهي الوظيفة ، فصار علمًا عليها في عرف الدول ، وهي وظيفة ضرورية للملك ، إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ، ويتّقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة ، وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها تماثيل تكون مخصوصة بها ، مثل تمثال السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ، ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم .

ولما جاء الإسلام أغفل ذلك لبداوة العرب ، وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنًا ، وكانت دنانير الفرس ودراهمهم بين أيديهم ، يردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصارفون بها بينهم ، إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغفلة الدولة عن ذلك .

وأمر عبدالملك الحجّاج ، على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد ، بضرب الدراهم وتمييز المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين ، وقال المدايني سنة خمس وسبعين : ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين ، وكتب عليها « الله أحد الله الصمد » ، ثم ولّي ابن هبيرة العراق ، أيام يزيد بن عبدالملك ، فجود السكة ، ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ، ثم يوسف بن عمر بعده .

وقيل : أول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق ، سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله ، لما ولي الحجاز ، وكتب عليها في أحد الوجهين « بركة الله » وفي الآخر « اسم الله » ، ثم غيرها الحجّاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج ، وقدّر وزنها على ما كانت استقرّت أيام عمر ، وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دوانق ، والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم ، فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل .

وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة ، وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطًا ومنها اثنا عشر ومنها عشرة ، فلما احتيج إلى تقديره في الزكاة أخذ الوسط ، وذلك اثنا عشر قيراطًا . فكان المثقال درهمًا وثلاثة أسباع درهم ، وقيل : كان منها البغلي بثمانية دوانق ، والطبري أربعة دوانق ، والمغربي ثمانية دوانق ، واليمني ستة دوانق ، فأمر عمر أن ينظر الأغلب في التعامل ، فكان البغلي والطبري وهما اثنا عشر دونقًا ، وكان الدرهم ستة دوانق ، وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالاً ، وإذا نقصت ثلاثة أعشار المثقال كان درهماً ، فلما رأى عبدالملك اتخاذ السكة لصيانة النقدين الجاريين في معاملة المسلمين من الغش ، فعين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر ، رضي الله عنه ، واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صوراً . العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها ، مع أن الشرع ينهى عن الصور ، فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الملة ، وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين ، والكتابة عليهما في دوائر متوازية ، يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تهليلاً وتحميداً وصلاة

على النبي وآله، وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة، وهكذا أيام العباسيين والعبيديين والأمويين. وأما صنهاجة فلم يتخذوا سكة لآخر الأمر، اتخذها منصور صاحب بجاية، ذكر ذلك ابن حماد في تاريخه، ولما جاءت دولة الموحدين، كان مما سن لهم المهدي إتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل، وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه، ويملأ من أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً، ومن الجانب الآخر كتبا في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده، ففعل ذلك الموحدون، وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد. ولقد كان المهدي، فيما ينقل، ينعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع، نعته بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله المخبرون في ملاحمهم عن دولته، وأما أهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرة، وإنما يتعاملون بالدنانير والدراهم وزناً بالصنجات المقدرة بعدة منها، ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة، واسم السلطان، كما يفعله أهل المغرب، ذلك تقدير العزيز العليم. انتهى من مقدمة ابن خلدون.

مقدار الدينار والدرهم الشرعيين

قال ابن خلدون في مقدمته عن مقدار الدرهم والدينار، عند الكلام على شارات الملك والسلطان مايأتي: ولنختم الكلام في السكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارهما، وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار، والموازين بالآفاق والأمصار، وسائر الأعمال، والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيراً من الأحكام بهما، في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرهما، فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار معين، في تقدير تجري عليهما أحكامه دون غير الشرعي منهما.

فاعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين، أن الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب، والأوقية منه أربعين درهماً، وهو على هذا سبعة أعشار الدينار، ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير، فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبة وخمسا حبة، وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع، فإن الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع، أجودها الطبري وهو ثمانية دوانق، والبغلي وهو أربعة دوانق، فجعلوا

الشرعي بينهما وهو ستة دوانق ، فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغلية ، ومائة طبرية ، خمسة دراهم وسطاً .

وقد اختلف الناس هل كان ذلك من موضع عبدالملك ، أو إجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه ، وذكر ذلك الخطابي في كتاب معالم السنن ، والماوردي في الأحكام السلطانية ، وأنكره المحققون من المتأخرين لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين ، في عهد الصحابة ومن بعدهم ، مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرهما كما ذكرناه . والحق أنهما كانا معلومي المقدار في ذلك العصر ، لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق ، وكان مقدارهما غير مشخص في الخارج ، وإنما كان متعارفاً بينهما بالحكم الشرعي ، على المقدار في مقدارهما وزنتهما ، حتى استفحل الإسلام وعظمت الدولة ، ودعت الحال إلى تشخيصهما في المقدار والوزن ، كما هو عند الشرع ، ليستريحوا من كلفة التقدير ، وقورن ذلك أيام عبدالملك فشخص مقدارهما ، وعينهما في الخارج كما هو في الذهن ، ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه ، إثر الشهادتين الإيمانيتين ، وطرح النقود الجاهلية رأساً حتى خلصت ، ونقش عليها سكة ، وتلاشى وجودها .

فهذا هو الحق الذي لا محيد عنه ، ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار والدرهم ، واختلفت في كل الأقطار والآفاق ، ورجع الناس إلى تصور مقاديرهما الشرعية ذهناً ، كما كان في الصدر الأول ، وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم بمعرفة النسبة التي بينهما وبين مقاديرهما الشرعية .

وأما وزن الدينار باثنين وسبعين حبة من الشعير الوسط ، فهو الذي نقله المحققون وعليه الإجماع ، إلا ابن حزم خالف ذلك وزعم أن وزنه أربعة وثمانون حبة ، نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق وردّه المحققون وعدّه وهماً وغلطاً وهو الصحيح ، والله يحق الحق بكلماته ، وكذلك تعلم أن الأوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس ، لأن المتفارقة مختلفة باختلاف الأقطار ، والشرعية متحدة ذهناً ، لا اختلاف فيها ، والله خلق كل شيء فقدره تقديراً .

انتهى من مقدمة ابن خلدون .

نقول: إنه يوجد بعض الكتب المؤلفة قديماً وحديثاً عن النقود الإسلامية منها كتاب مسكوكات إسلامية وهو باللغة التركية ومنها كتاب طبع بمصر نسينا اسمه .

وبمكتبة شيخ الإسلام حكمت عارف كتاب اسمه «نبذة في النقود الإسلامية» وهو بنمرة (٦٣٦) .

بعض آبار مكة المكرمة

مكة في سابق العصور والدهور ، أي : قبل أن يأتي سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بابنه إسماعيل وأمه هاجر ، كانت وادياً غير ذي زرع ، ولم تكن بها طيور ولا ذات ضرع ، بل كانت صحراء قاحلة ناشفة ، مليئة بأشجار السلم ، ذات الشوك التي تنبت بنفسها على مياه الأمطار فقط ، فلم تكن بمكة في تلك العصور البعيدة أنهار ولا آبار مطلقاً ، لذلك لم تكن مكة معروفة ولا مطروقة ، فلا يمر بها بشر ولا طير ولا حيوان ، لأنهم يحتاجون إلى الماء ولا ماء فيها .

فلما أذن الله تبارك وتعالى لخليله أبي الأنبياء ، إبراهيم ﷺ أن يذهب إلى مكة بابنه إسماعيل وأمه هاجر ، عليهما الصلاة والسلام ، ويسكنهما بمكة ، ثم يعود وحده إلى فلسطين ، عند زوجته الأولى سارة ، رضي الله تعالى عنها ، فامتثل أمر ربه عز وجل ، وقام قاصداً مكة ، يدله عليها جبريل ، صاحب الأنبياء ، عليه وعليهم الصلاة والسلام .

فلما وصل إليها وترك فيها ابنه الرضيع إسماعيل وأمه هاجر، ومعهما جراب من تمر وقربة من ماء ، كما فصلنا ذلك في محله من هذا الكتاب ، ونفد ما عندهما من الماء القليل ، عطش إسماعيل عليه الصلاة والسلام عطشاً شديداً حتى كاد يهلك ، أغاثهما الله تعالى فأخرج لهما ماء زمزم فشربا منه ، وبسبب وجود هذا الماء المبارك أقامت عندهما قبيلة جرهم ، حتى عمرت مكة ، شرفها الله تعالى ، من ذلك الحين إلى عهدنا الحاضر .

فتكون بئر زمزم هي أول بئر وأقدم بئر عرفت بمكة المكرمة، ولم يكن بمكة قبلها بئر ولا ماء قط ، ولازالت عامرة سائغة واقية شافية إلى يوم القيامة بفضل الله تعالى ورحمته .

الكلام على الآبار التي كانت موجودة بمكة شرفها الله تعالى قديماً وحديثاً ، يطول شرحها ويعسر إحصاؤها ؛ فبعضها قد طمرت قديماً ، أي قبل عصرنا الحاضر، وبعضها قد طمرت أيضاً في عصرنا هذا ، اعتماداً على وجود عين زبيدة ، وهذا خطأ لا يقره الناس عليه ، لأنه لو حصل خراب في عين زبيدة بسبب السيول أو غيرها ، لتعب الناس أشد التعب في البحث عن الماء العذب ، ولقد كتبنا مقالة مستفيضة في عام (١٣٧٥) هجرية ، عن وجوب المحافظة على آبار مكة المشرفة ، وذلك في بعض الجرائد المحلية التي كانت تصدر بمكة المشرفة ولا نبالغ إن قلنا إنه يوجد بمكة أكثر من مائة بئر صالحة للشرب وسقي الحدائق المنزلية ، بالتحديد يوجد في محلة جرول وحدها نحو أربعين بئراً .

وها نحن نذكر الآن بعض آبار مكة المشرفة التي سمعنا عنها أو رأيناها وإليك بيان ذلك :

الآبار التي كانت بمكة

من المعلوم أن مكة المشرفة لم يجعلها الله تعالى ذات عيون وأنهار ، ومما لاشك فيه أنها حينما عمرت لابدّ وأن يكون فيها من المياه ما يكفي أهلها ، فهذه المياه هي مياه الآبار ، التي حفرت بها جاهلية وإسلاماً ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : لما انتشرت قريش بمكة وكثر ساكنها ، قلّت عليهم المياه واشتدت المؤنة في الماء فحفروا بمكة آباراً . اهـ .

ولقد خصص الأزرقي مبحثاً للآبار التي بمكة قبل زمزم ، ومبحثاً للآبار بعد زمزم في الجاهلية ، ومبحثاً في الآبار الإسلامية ، ومبحثاً للعيون التي أجريت في الحرم، وكل هذه المباحث قيمة ، ولكن لو ذكرناها هنا لطال بنا الكلام ، فمن أحب الاطلاع عليها فليراجع الجزء الثاني من تاريخ الأزرقي .

وقول الأزرقي: الآبار التي كانت قبل زمزم ليس المقصود من القبلية قبل خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، لأنه لم تكن آبار بمكة قبل بئر زمزم مطلقاً ، والتي كانت معجزة وكرامة لإسماعيل وأمه ، وإنما المقصود بالقبلية قبل حفر عبد المطلب بن هاشم موضع بئر زمزم ، الذي كان قد درس مكانه وعفى أثره حينما استخفت جرهم بالحرم ، وتهاونت بحرمة البيت وأكلت مال

الكعبة المعظّمة ، فلما أراد الله تعالى إكرام عبد المطلب بذلك بوّأه له ، وعرفه موضعه ، فقام بحفر مكان البئر حتى خرج له ماء زمزم ثانياً كما بيّنا قصّة ذلك .

وفي عصرنا هذا يوجد بمكة كثير من الآبار القديمة والحديثة ، مع أن ماء عين زبيدة وماء عين العزيزية ملأتا أطراف مكة و لله الحمد ، وماء بعض هذه الآبار معدنية مهضمة نافعة ولذيذة الطعم ، خصوصاً إذا بردت في الشراب والقلال والأواني الفخارية كما جربناها بأنفسنا .

نسأل الله تعالى أن يديم نعمه على بلده الأمين ، وأن يكثر ماءه ورزقه وخيره وأمنه وأمانه بفضله ورحمته ، إنه بعباده لطيف خبير .

بئر زمزم

بئر زمزم هي أشرف آبار الدنيا على الإطلاق ، وأول بئر خرجت في مكة المشرفة لإسماعيل ابن خليل الله إبراهيم عليهما السلام ، وقد تقدم الكلام عليها بالتفصيل التام عند بنايات الكعبة المشرفة ، فراجعه إن شئت فإنه مبحث نفيس .

بئر ذي طوى

قال الغازي: أخرج الأزرقي عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ كان ينزل بذي طوى حين يعتمر ، وفي حجته حين حج تحت سمرة في موضع المسجد . اهـ.

قال ابن الجوزي «في المثير» : وقد بنته زبيدة «أي المسجد» كذا في البحر العميق ، قلت: وقد دثر هذا المسجد و لم يعرف الآن ، كذا في تحصيل المرام .

ثم قال الغازي ص٣٩٣: قال الفاسي : هو الموضع الذي يستحب فيه الاغتسال للمحرم ، هو على مقتضى ما ذكره الأزرقي في الموضع الذي يقال له بين الحجونين ، لأنه قال : بطن ذي طوى ، ما بين مهبط ثنية المقبرة التي بالمعلاة ، إلى الثنية القصوى التي يقال لها الخضراء ، تهبط على قبور المهاجرين .

وقال النووي : إنه موضع بأسفل مكة في طريق العمرة المعتادة ، ويعرف اليوم بآبار الزاهر ، واستحباب الغسل بذي طوى للمحرم ، هو مذهب الأئمة الأربعة ، إلا أن أصحابنا لا يستحبونه للحائض والنفساء، لأنهما لا يؤمران بالطواف عند

قدومهما مكة ، والغسل إنما شرع لأجل الطواف ، والله تعالى أعلم ، وإنما يطلب من المحرم الاغتسال إذا كان في طريقه . انتهى.

وجاء في كتاب الغازي أيضاً ما نصّه : قال السنجاري في منائح الكرم : وفي سنة (١١٠١هـ) أمر الصنجق محمد بيك ببناء بئر طوى ، فبنى عليه طاجناً بقبة صغيرة ، وبنى إلى جانبه مسقفاً للبواب ومطاهر ومسجداً ، وجعل هناك صفة منتزه ، وعين لها معلوماً وجراية للخادم المقيم بها لجبه الماء جزاه الله خيراً .

انظر: الصور أرقام ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ لباب وبئر ذي طوى ، ويرى المؤلف وبعض أولاده على باب البئر

بركة الماجن

جاء في مختار الصحاح البركة بالكسر كالحوض ، والجمع البرك، قيل : سميت بذلك لإقامة الماء فيها ، وكل شيء ثبت وأقام فقد برك . اهـ .

قال الغازي ص(٥٢١) : بركة الماجن بالنون هي على طريق جبل ثور بأسفل مكة ، وشهيرة لدى العامة ببركة ماجد بالدال ، وهي قديمة بئر غزيرة الماء مربعة الشكل تقريباً ، يحيط بها سور بقدر قامة من الجهات الأربعة ، ونحن في ربيع الأول عام (١٣٧٦) ستة وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، أخذنا قياس هذا السور فطول الجدار الذي يقابل الشمال والذي فيه باب البركة واحد وثلاثون متراً وربع المتر ، ومثله طول الجدار المقابل له ، وطول الجدار الشرقي يقابل الجبل أربعون متراً ، ومثله الجدار المقابل له .

يقول الغازي عنها في تاريخه ما يأتي :

أقول : هي الآن ملآنة ، وبجانبها بستان للشريف علي ابن المرحوم الشريف عبدالله يستقى منها ، وقد رفع الشريف علي جدرانها الأربع ، بحيث لا يقدر أحد على النزول إليها ، وكان الناس قبل ذلك ينزلون فيها ويغتسلون منها ، وكثيراً منهم كانوا يغرقون ويعطبون فيها ، وأما الآن فسلمت نفوسهم من العطب والهلاك .

والشريف علي بن عبدالله المذكور، تولى أمارة مكة بعد وفاة الشريف عون في عام (١٣٢٣) ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف من الهجرة .

قال الغازي : وقد عمرت ونظفت هذه البركة سنة (٨٤٨) ، قال ابن فهد: وفي سنة ثمان وأربعين وثمانمائة عمر السيد حسن ناظر الاسكندرية البركة بأسفل مكة ، المعروفة ببركة الماجن ، وأخرج ما كان فيها من التراب ورفع جدرانها الأربع . اهـ .

نقول : وقد سدوا سطح بركة ماجن في زماننا هذا سنة (١٣٨٠هـ) .

جاء في تاريخ الغازي نقلاً عن تحصيل المرام ، بعد الكلام على السيل الكبير الذي دخل المسجد الحرام سنة (١٢٧٨) ثمان وسبعين ومائتين وألف ما يأتي :

وفيه أيضاً في موضع آخر وفي هذا السيل عثر مولانا الشريف عبد الله على عين ماء كشف عنها السيل أسفل مكة ، تصب في (بركة ماجن) ، فأمر بتبريح دبلها وتبعه بالحفر فأخذوا في الحفر ، فمال بهم الدبل من البركة إلى قدام مولد سيدنا حمزة ، ثم إلى مجرى السيل ، من جهة جبل عمر ، ثم مال بهم إلى الهجلة إلى السوق الصغير ، ثم دخل من تحت باب إبراهيم ، حتى خرج بهم من تحت منارة باب علي ، ثم أخذ على القشاشية ، فوجدوا خرزة قدام بيت اليماني بجانب البئر من جهة سوق الليل ، وأدركهم الحج وبطل العمل اهـ . انتهى من الغازي .

والظاهر أن أول ما زرع عند بركة ماجن كان سنة (٨٥١) كما يفهم ذلك صريحاً من عبارة ابن فهد، ثم كثر الزرع فيما بعد حتى صار الآن يطلق عليه بستان بركة ماجن .

انظر: صورة رقم ٢٣٤ ، بركة ماجن بالمسفلة بمكة سنة ١٣٧٦هـ

وتوجد في زماننا بعض آبار نذكر منها بئر الداوودية ، وبئر الكحالية بالمعلا ونظن أنها ردمت ، وبئر جبير بن مطعم وهي بأول المدعا ، أي عند الزقاق الملاصق لمسجد الراية بالجودرية ، وهي البئر التي بلصق جدار بيت الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق ، رحمه الله تعالى .

قال الأزرقي عن هذه البئر : إن قصياً حفرها في الجاهلية ، وبئر في بستان المنتزه التي في معمل الثلج بجهة مقبرة المعلا ، وبئر في دار أبي سفيان بالمدعى ، والتي تسمى اليوم بمستشفي القبان ، وبئر في نفس المسجد الحرام عند باب إبراهيم ، وهي بئر عظيمة جداً ، وبئر في دار الأيتام التي بمحلة أجياد وهذه أيضاً بئر عظيمة جداً ، وهناك أبيار أخرى بجهة الشبكية وبجهة أجياد وبجهة المعابدة وبجهة جرول .

هذه الأبيار موجودة إلى اليوم ، وقد ذكر الإمام الأزرقي ، رحمه الله تعالى ، في تاريخه بعض الآبار التي كانت في الجاهلية وبعد الإسلام بمكة المشرفة .

منى

مِنَى تكون أول منزل من منازل الحج ، بعد مكة المشرفة ، وتكون ثالث منزل من منازل الحج ، لمن وقف بعرفات ، أي هي آخر منازل الحج ، بعد الوقوف بعرفات ؛ فالعيد الأكبر للحجاج يكون في منى ، يقضون فيها ثلاثة أيام بلياليها ، ثم ينصرفون منها إلى مكة المشرفة ، ثم يرجعون إلى بلادهم .

والمسافة بين مكة والمشاعر المقدسة كما يأتي :

١) المسافة من المسجد الحرام إلى مسجد الخيف ٩ كيلو مترات .

٢) المسافة من مسجد الخيف إلى مسجد مزدلفة ٥ كيلومترات .

٣) المسافة من مسجد مزدلفة إلى مسجد نمرة بعرفات ٧ كيلو مترات .

٤) المسافة من مسجد نمرة إلى مسجد الصخرات عند جبل الرحمة بعرفات ٣ كيلو مترات .

ويوجد بمنى مسجدان مهمان ، أولهما مسجد الخيف وثانيهما مسجد الكوثر.

انظر: صورة رقم ٢٣٥ ، خريطة منى في عهد الأتراك

انظر: صورة رقم ٢٣٦ ، جزء من منى في عهد الأتراك

انظر: صورة رقم ٢٣٧ ، سوق الجمال إلى المجزرة بمنى لذبحها في أيام الحج

ذبح الهدايا بمنى

ذكر الغازي في تاريخه ، نقلاً عن تحصيل المرام ما يأتي :

إنه لما حصل الوباء بمكة ، ثاني يوم النحر واستمر بمنى قبل السنة المذكورة بعام واحد ، جاءت الأوامر ، من الدولة العثمانية إلى مكة ، في شهر شوال من السنة المذكورة ، ببناء خمسمائة كنيف بمنى ، وأن يجعلوا بها مكاناً خاصاً لذبح الحيوانات ، وكانت قبل ذلك تذبح بها في كل مكان ، انتهى منه .

راجع منظر ٣٠١، وهو صورة سوق الجمال إلى المجزرة بمنى لذبحها في أيام الحج.

وفي عصرنا الحاضر ، خشية من حصول الأمراض والوباء على الحجاج في منى ، فقد أمرت الحكومة بتخصيص مكان في آخر منى تذبح فيه الحيوانات ، على كافة أنواعها ، ويسمى هذا المكان : (المجزرة) في عرف الحجازيين وبالمذبح في عرف المصريين . وهذا أمر مشكور مستحسن ، ولكننا نقترح أن يجعل في أطراف منى عدة مذابح ، ليسهل على الحجيج ذبح الأضحية والفدية ، وما يأكلونه لأنفسهم ، لأن مجزرة واحدة في منتهى منى يصعب على الحاج الذي في أول منى الوصول إليها ، لذلك يضطر أن يذبح الحيوان في محل إقامته من خيمة أو تحت صخرة وإليك ما يأتي من التفاصيل :

لسنا نتكلم هنا عن حكم الذبائح وأنواعها وكيفية ذبحها وتفرقتها للمستحقين ، وإنما نتكلم عن الأصل فيها من قديم الزمان ، ناقلين كلام البتنوني في كتابه « الرحلة الحجازية » فإنه قال رحمه الله تعالى ما ملخصه: القربان شيء كان يتقرب به الناس من قديم الزمان إلى الله تعالى ، وكان يختلف نوعه باختلاف الأزمنة والأمكنة، وأول ما وصلنا من أمر القرابين أن قابيل بن آدم قرب إلى الله شيئاً من ثمرات أرضه ، وقرب أخوه هابيل ذبيحة من أبكار غنمه ، قال الله تعالى : ﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر﴾ .

وبعد الطوفان بنى نوح مذبحاً لله قرب إليه فيه كثيراً من الحيوانات ، وكان يحرقها على المذبح ، وكان إبراهيم يتقرب إلى الله تعالى بالخبز والخمر ، وقد أمره الله أن يذبح له عجلة وعنزاً وكبشاً وحمامة ويمامة (انظر سفر التكوين آية ٩ و ١٧) كما أمره أن يفتدي ولده الذبيح بكبش يذبحه قرباناً ، وذهبت على سنته العرب قبل الإسلام ، ثم المسلمون من بعدهم في أضحيتهم ، وكان بنو إبراهيم يقربون إلى الله الذبائح ويحرقونها ، حتى أتى موسى فقسم الذبائح إلى دموي وغير دموي ، وهذا القسم الأخير كان ينحصر في الماشية ، التي كانوا يطلقونها في البرية لله تعالى ، ومنها أتت السائبة والبحيرة ، والحامي عند العرب : وهي التي كانوا يطلقونها لأصنامهم ، وما زالت فيهم حتى حرمها الإسلام .

ومعنى السائبة : الناقة إذا ولدت عشر إناث ليس بينها ذكر سيبت فلم يركب ظهرها و لم يشرب لبنها و لم يجز وبرها .

والبحيرة، بكسر الحاء: هي بنت السائبة يخلى سبيلها مع أمها، والحامي: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات، ليس بينها ذكر حمي وخلي في إبله يضرب فيها فلا ينتفع به بغير ذلك، والعرب يلحقون بها الوصيلة، وهي الشاة التي أتأمت عشر إناث متتابعات، في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر.

أما الذبائح الدموية فكانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام: الذبيحة المحرقة، وذبيحة التكفير عن الخطايا، وذبيحة السلامة. وكانوا يحرقون الأولى ولا يبقون منها شيئاً إلا جلدها فيأخذه الكاهن. والثانية كانوا يحرقون منها جانباً والباقي يأكله الكهنة. أما الثالثة فكانت اختيارية ولحمها حل لهم. وكانوا يشترطون في هذه الذبائح أن تكون خالية من العيوب. وإذا عجز الإنسان عن تقديم ذبيحة من ذوات الأربع كان يكتفي بتقديم ذبيحة من الطيور.

أما الذبيحة، عند المسيحيين، فهي محصورة في لحم المسيح ودمه، اللذين يقدمهما الكاهن، في صورة خبز وخمر للمتناولين منهما.

فلما غشت عبادة الأوثان والكواكب في الناس كانوا يقدمون إليها شيئاً من نباتات حقولهم، ويحرقونها على هياكلهم، ثم آل أمرهم إلى استعمال النباتات العطرية كالند والعود وأمثالهما من الأصماغ ذات الروائح الحسنة. وفشا استعمالهما بعد ذلك في الحفلات الدينية على اختلاف أنواعها.

وكان قدماء اليونان يدخلون الملح في قرابينهم، لأنه كان عندهم رمزاً للصداقة، كما كان رمزاً لحسن القرى. وكانوا يضعونه مع حب الشعير في سلة، ويقدمون منه شيئاً إلى الحاضرين، ويظهر أن عادة بعض المصريين، من رش الملح في مجتمعاتهم على رؤوس الناس مختلطاً في الغالب مع حب القمح، وكذلك ما يرشونه منه في أسبوع المولود، إنما هي مستمدة من هذا الأصل.

أما الرومان فكانوا يقدمون الذبائح إلى آلهتهم بكثرة، وكان الحاضرون يأخذون من لحومها تبركاً. ويفرقون منه جانباً على من لم يكن حاضره من ذويهم وأهليهم، وهي عادة باقية في حجاج الهنود والجاوة المسلمين إلى الآن. وكانت كهنتهم وقت تقديم ذبائحهم يرشون على الحاضرين بواسطة غصن من شجر الغار عسلاً وماءً.

وترقى الناس في ذلك حتى صاروا يرشون ماء الورد في اجتماعاتهم، ولا تزال هذه العادة مستعملة في الحفلات الدينية على اختلاف مذاهبها إلى الآن.

ولم تقتصر ذبائح القربان على الحيوانات، بل بالغ كثير من الأمم فيها حتى كانوا يقدمون ذبائحهم من البشر، كالفينيقيين والكنعانيين والصوريين والفرس والرومان والمصريين وغيرهم، وما زالت هذه العادة الشنيعة فاشية، وعلى الخصوص في أوربا، حتى صدر قرار من مجلس الأعيان الروماني بمنعها سنة ٦٥٧ ميلادية، ومع ذلك فقد استمرت في بلاد الغال وبلاد الجرمان إلى ما بعد هذا التاريخ بمدة طويلة.

وكان المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء، ملك الحيرة، يقدم إلى معبوده العزى، الذبائح من البشر، ولا شك أنه أخذ هذه العادة عن وثني الفرس.

وقد كان قدماء المصريين يقدمون إلى النيل وكان من معبوداتهم في يوم ١١ بؤونة من كل سنة، غادة من فتياتهم، وبعد أن يزينوها بأحسن زينة يغرقونها فيه استمطارًا لرحمة ربّهم. وما زالت هذه العادة السخيفة حتى أبطلها عمرو بن العاص ووافقه عليها ابن الخطاب، رضي الله عنهما، كما هو مبسوط في المقريزي، في الكلام على مقاييس النيل وزيادته.

وكثير من العجائز المصريات إلى الآن، يعملن عروسة من الطين ويغرقنها في إناء من الماء، في هذه الليلة، التي يسمونها ليلة النقطة. ويزعمن أن ماء الإناء إذا زاد ثاني يوم عما كان عليه، كان النيل عالياً في سنته وإلا فلا. ولا شك أن هذه العادة صورة بسيطة من التي أبطلها عمرو.

ومن هذا ترى أن المسلمين كانوا أسبق الأمم في تحريم الذبائح البشرية. وهم يسوقون ذبائحهم إلى البيت الحرام بمكة، في حجهم، ويسمونها هدياً ومعناه الهدية. وهو إما من البدن الإبل أو البقر أو الغنم. والإبل أحسنها، ويشترط ألا يكون عمرها أقل من خمس سنوات، وألا يكون عمر البقر أقل من سنتين، والغنم أقل سنة.

وقد قسموا الهدي إلى واجب في دم الكفارات، ومندوب في دم الشكر. واشترطوا أن يكون ذبح الهدي بمنى في أيام النحر وهو الأفضل، أو بمكة في غير أيام التشريق، وأن يفرق لحمه على الفقراء من عباد الله.

انتهى من الرحلة الحجازية.

انظر: صورة رقم ٢٣٨، جزء من مجزرة منى من الداخل
انظر: صورة رقم ٢٣٩، جزء من مجزرة منى من الداخل

رجم الجمرات الثلاث بمنى

لا نقصد من رجم الشياطين، حكم الرمي وكيفيته، ولكن نتكلم هنا عن أصل الرجم قديماً، ناقلين كلام البتنوني، رحمه الله تعالى، في كتابه «الرحلة الحجازية» فإنه قال ما ملخصه:

الرجم، في اصطلاح الحجيج: رمي غرض مخصوص في منى بسبع حصيات في حجم الفولة، وهذا الغرض يسمى جمرة، والجمرات الثلاث: جمرة العقبة، والجمرة الوسطى، والجمرة الصغرى، ولكل جمرة مكان مخصوص، ورميها واجب باتفاق المذاهب.

والعرب كانوا يرجمون هذه الجمرات الثلاث في حجهم قبل الإسلام، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم، وهو في تلك الجهة، بذبح ولده إسماعيل، فأخذه وسار ليصدع بأمر ربه فوسوس له الشيطان بأن لا يفعل، فأخذ حصيات ورماه بها، وكان ذلك في المكان الذي به الجمرة الأولى، فتركه وسار إلى هاجر، وأخذ يقبح لها عمل إبراهيم، فأخذت حجارة ورمته بها، وكان ذلك في مكان الجمرة الثانية، فذهب إلى إسماعيل يشنع له عمل أبيه، فأخذ قبضة من الحصى ورماه بها، وكان ذلك في مكان الجمرة الثالثة. لذلك كانت ترجم العرب هذه الأمكنة مشخصين ذلك الشيطان، وأقرهم عليه الإسلام.

ولا غرابة في ذلك لأن الناموس الطبيعي يقضي بأن يكون كل معنى من المعاني مصدره المادة، وعليه فهذا الرمي المادي يوصل بلا شك لمعنى دقيق جليل في ذاته، وهو تربية ملكة حديدة في شخص الرامي، وهي مخالفة شيطان النفس والابتعاد عن مسالك الشرور. والرجم أمر قديم في الأمم، قال الله تعالى في سورة الشعراء في إجابة قوم نوح على نصائحه لهم: ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين﴾ وقال تعالى في سورة هود، في جواب أهل مدين على نصيحة نبيهم شعيب لهم: ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز﴾.

وذكر الرجم في بني إسرائيل قال: «فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع إسرائيل معه، وصعدوا بهم إلى وادي عخور، فقال يشوع: كيف كدرتنا

يكدرك الرب في هذا اليوم ، فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة » . والنصارى يرجمون مكان شجرة التين ، التي لعنها المسيح ، حينما أراد أن يأكل منها و لم يجد فيها ثمراً ، ومكان هذه الشجرة على طريق الذاهب من بيت المقدس إلى نهر الأردن ، في الوادي الذي ينزل على يسار جبل الزيتون .

والعرب كانوا يرجمون في الجاهلية من سخطوا عليه حياً أو ميتاً ، فكانوا يرجمون الزاني المحصن حياً لشناعة عمله ، وأقرتهم عليه الشريعة الغراء ، كما كانوا يرجمون قبور من ينقمون عليهم ، وهم يرجمون من القرن الأول قبل الهجرة قبر أبي رغال في المغمس بين مكة والطائف ، لأنه كان يقود جيش أبرهة إلى مكة « أي يدلهم عليها » . فمات في هذا المكان قبل وصوله إليها . والمسلمون يرمون قبر أبي لهب خارج مكة ، ويرمون قبر أبي جهينة ، في طريق العمرة ، لأنه كان من حكام مكة الظالمين .

وقد ورد في قوله : « إن المسلمين يرمون قبر أبي لهب خارج مكة » هذا الكلام لا صحة له مطلقاً ، وإن كان ذلك شائعاً إلى اليوم حتى عند أهل مكة ، فقبر أبي لهب ليس في هذا المكان ، وإنما هنا قبر رجلين لطخا الكعبة المشرفة ، في دولة بني العباس ، فكان الناس يرجمونهما كما ذكر ذلك صاحب « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » ، وقد نبهنا على هذا سعادة الأستاذ الكبير الشيخ أحمد إبراهيم الغزاوي ، شاعر جلالة مليكنا المعظم ورئيس مجلس الشورى في مقالاته الممتعة ، التي يكتبها تحت عنوان « مطالعات وتعليقات » بجريدة البلاد السعودية الغراء ، في الرقم المتسلسل (٥٦٣) أسبغ الله عليه نعمه وأدام توفيقه .

وما ذكره البتنوني هنا من علة رجم الجمرات ، ذكره الإمام الأزرقي برواية أخرى ، عن مجاهد ، أنه قال : لما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، "ربنا أرنا مناسكنا" ، أمر أن يرفع القواعد من البيت ثم أري الصفا والمروة ، وقيل : هذا من شعائر الله . قال : ثم خرج به جبريل فلما مر بجمرة العقبة إذا بإبليس عليها فقال جبريل : كبر وارمه ، ثم ارتفع إبليس إلى الجمرة الوسطى ، فقال له جبريل : كبر وارمِهِ ، ثم ارتفع إبليس إلى الجمرة القصوى ، فقال له جبريل : كبر وارمِهِ ، ثم انطلق به إلى المشعر الحرام « أي مزدلفة » ثم أتى به إلى عرفة فقال له جبريل : هل

عرفت ما أريتك ثلاث مرات ؟ قال : نعم ، قال فأذن في الناس بالحج ... الخ . انتهى .

والحكمة في رمي الحجارة لا تعقل لأنه أمر تعبدي ليس للعقل فيه مجال ، كما يفهم ذلك مما أخرجه سعيد ابن منصور أنه ﷺ سئل عن رمي الجمار فقال : «الله ربكم تكبرون ، وملة أبيكم إبراهيم تتبعون ، ووجه الشيطان ترمون» انتهى .

ولقد كان بظهر جمرة العقبة جبل مستطيل ، غير مرتفع سوى بضعة أمتار ، ويبلغ طوله نحو مائة متر تقريباً ، فأزالته الحكومة السعودية سنة (١٣٧٨) ألف وثلاثمائة وثمانية وسبعين هجرية .

إزالة الجبل الذي بظهر جمرة العقبة

جمرة العقبة وهي التي ترمى فقط من مزدلفة يوم عيد الأضحى ، ليس لها إلا وجه واحد ، لأنها ملتصقة بالجبل ومنه يكون الرمي ، فإن النبي ﷺ رمى من بطن الوادي فجعل مكة عن يساره ومنى عن يمينه ، وكذلك فعل الصحابة من بعده رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

أما الجمرتان الأولى والوسطى فرميهما يكون من جميع الأطراف ، حيث يقعان بوسط الشارع لا يتصل بأحدهما شيء مطلقاً .

وبوسط كل جمرة من الجمرات الثلاث علامة كالعامود مرتفعة نحو قامة مبنية بالحجارة إشارة إلى موضع الرمي ، وهذه العلامات على الجمرات لم تكن في صدر الإسلام وإنما أحدثت فيما بعد ، والعلامة التي على جمرة العقبة ملتصقة بالجبل كما ترى كل ذلك في الصورة .

انظر: الصور أرقام ٢٤٠ ، ٢٤١ للجمرة الوسطى ، والكبرى ، ورقم ٢٤٢ للجمرات الثلاث .

ثم إنه في القرن الثالث للهجرة كاد محل الرمي من جمرة العقبة أن يختفي لكثرة الحصى المتجمع من رمي الناس ، ولغفلتهم عن إزالتها وإبعادها فبنى إسحاق بن سلمة الصائغ من وراء الجمرة جداراً ورفعه عن أعلاها حتى لا يتمكن الناس من الرمي من أعلى جمرة العقبة ، بعد أن أزال الحصى المتجمعة عن محل الرمي ، وكان ذلك في النصف من شعبان سنة (٢٤٢) اثنتين وأربعين ومائتين من الهجرة ، بأمر

أمير المؤمنين المتوكل على الله ، كما ذكره الإمام الأزرقي في تاريخه وسنذكر عبارته . وإليك صورة جمرة العقبة والجدار المبني وراءها ظاهر فيها ، كما تظهر فيها العلامة المنصوبة لمحل الرمي .

انظر: صورة رقم ٢٤٣ ، جمرة العقبة أثناء الإصلاحات الجديدة

وهذا الجدار الذي يظهر في الصورة الفوتوغرافية ، ليس هو نفس الجدار الذي بناه إسحاق بن سلمة الصائغ ولكن هذا موضعه ، فإن هذا الجدار قد جدد بناؤه مراراً وتكراراً في هذه السنين الطويلة التي مرت ، وتعد بنحو (١١٣٤) سنة من تاريخ البناء الأول إلى تاريخ كتابة هذه السطور والذي يظهر لنا من كلام الأزرقي الآتي أن هذا الجدار الذي بناه إسحاق هو أول جدار بني على جمرة العقبة . والله تعالى أعلم .

وإليك عبارة الأزرقي بعد أن ذكر أن حجبة الكعبة كتبوا إلى أمير المؤمنين المتوكل على الله بجعل جميع زوايا الكعبة من الذهب الخالص وعمل منطقة من الفضة توضع فوق إزار الكعبة تحيط بتربيعها من جميع الجهات ، وتلبيس كرسي مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالفضة ، بدلاً من الرصاص ، إلى غير ذلك (قال) : فأمر أمير المؤمنين بعمل كل الإصلاحات بغاية الإحكام وأمر بتوجيه إسحاق بن سلمة الصائغ إلى مكة المشرفة وهو من كبار أهل الصناعات والحرف وله دراية واسعة ووجّه معه من الصناع من اختارهم إسحاق بن سلمة المذكور ، ممن لهم معرفة بشتى الصناعات من الصواغ والرخاميين وغيرهم فكانوا نيفاً وثلاثين رجلاً فقدم إسحاق بمن معه من الرجال والذهب والفضة والرخام والآلات إلى مكة لليلة بقيت من رجب سنة (٢٤١) إحدى وأربعين ومائتين ، ومعه كتاب مختوم بخاتم أمير المؤمنين إلى عامل مكة لمساعدة إسحاق وتسهيل مهمته فباشر إسحاق بن سلمة عمله بمكة وبمنى في شعبان من السنة المذكورة وانتهى من جميع الأعمال كلها في النصف من شهر شعبان من السنة التالية أي سنة (٢٤٢) وبعد فراغه من الحج في آخر السنة المذكورة انصرف إسحاق راجعاً بعد أن سلم حجبة الكعبة ما خلطه مما بقي من الجص الصنعاني وما قلع من أرض الكعبة من الرخام المتكسر ، مما لا يصلح إعادته في شيء من العمل وثلاثة حقاق من الذهب الرقيق وجراب فيه تراب مما قشر من جدار الكعبة ومسامير فضة صغار ترك إسحاق كل ذلك لدى الحجبة لما عسى أن يحتاجوا إليه لها .

هذا ما ذكره الأزرقي أتينا به تمهيداً لكلامه عن بناء الجدار الذي وراء جمرة العقبة فقد قال رحمه الله تعالى عنه ما يأتي :

وابتدأ إسحاق بن سلمة عمل الذهب والفضة والرخام في الدار المعروفة بخالصة في دار الخزانة عند الخياطين وصار إلى منى فأمر بعمل ضفيرة تتخذ ليرد سيل الجبل عن المسجد ودار الإمارة فاتخذ هناك ضفيرة عريضة مرتفعة السمك وأحكمها بالحجارة والنورة والرماد ، فصار ما ينحدر من السيل يتسرب في أصل الضفيرة من خارجها ، ويخرج إلى الشارع الأعظم بمنى ، ولا يدخل المسجد ولا دار الإمارة منه شيء وصار ما بين الضفيرة والمسجد وهو عن يسار الإمام رفقاً للمسجد وزيادة في سعته ثم هدم المسجد وما كان من دار الإمارة مستهدماً وأعاد بناءه ورم ما كان مسترماً ، وأحكم العقبة وجدرانها ، وأصلح الطريق التي سلكها رسول الله ﷺ من منى إلى الشعب ومعه عباس بن عبد المطلب الذي يقال له شعب الأنصار الذي أخذ فيه رسول الله ﷺ البيعة على الأنصار وكانت هذه الطريق قد عفت ودرست فكانت الجمرة زائلة عن موضعها أزالها جهال الناس برميهم الحصى وغفل عنها حتى أزيحت عن موضعها شيئاً يسيراً منها من فوقها فردها إلى موضعها الذي لم تزل عليه وبنى من ورائها جداراً أعلاه عليها ومسجداً متصلاً بذلك الجدار لئلا يصل إليها من يريد الرمي من أعلاها وإنما السنة لمن أراد الرمي أن يقف من تحتها من بطن الوادي فيجعل مكة عن يساره ومنى عن يمينه ويرمي كما فعل رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده وفرغ من البرك وأحكم عملها ، وعمل الفضة على كرسي المقام مكان الرصاص الذي عليه واتخذ له قبة من خشب الساج مقبوة الرأس بضباب لها من حديد ملبسة الداخل بالأدم .. انتهى المراد من كلام الأزرقي .

فهذا هو تاريخ بناء الجدار الذي وراء جمرة العقبة الملتصق بالجبل الذي وراءه. ولم نر أحداً من المؤرخين ذكر شيئاً عن هذا الجدار غير الأزرقي .

انظر: صورة رقم ٢٤٤ ، جمرة العقبة بعد إزالة الجبل من ظهرها وفرش الأرض بالاسفلت

وأما الجبل الذي وراء جمرة العقبة فقد كان في كل موسم حج يتخذ الناس حوله دكاكين للحلاقة وبيع المأكولات من قديم الزمان إلى عصرنا هذا أي إلى سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف حيث صدرت فتوى شرعية من

الشيخ عبدا لله بن عمر بن دهيش رئيس المحاكم الشرعية بمكة المكرمة بإزالة هذا الجبل لتوسيع المنطقة المحيطة بجمرة العقبة على أن لا يرمى من خلفها أي موضع الجدار وكانت هذه الفتوى صدرت من فضيلته بناء على طلب من سمو وزير الداخلية الأمير عبدا لله الفيصل آنذاك فأزالت حكومتنا السعودية في هذه السنة المذكورة هذا الجبل توسعة على الناس فقد كان بين هذا الجبل والجبل المقابل له ممر ضيق يمر الناس عليه مشاة وركباناً وبالسيارات (الأوتومبيلات) فلما أزيل الجبل المذكور الذي وراء العقبة تفسح الطريق وتوسع فاستراح الناس بذلك وفي سبيل إزالة الجبل الذي كان بظهر جمرة العقبة وإصلاح الشارعين من العقبة إلى مكة وإصلاح بحر الكبش بمنى ضرب وأثير (٣٥٠) ثلاثمائة وخمسون طناً من الديناميت . والطن هو /١٠٠٠/كلغ .

أما جمرة العقبة بعد إزالة الجبل ؛ فقد بنت الحكومة السعودية جداراً في ظهر العلامة المنصوبة (الشاخص) كالجدار الذي كان في قديم الزمان ، حتى لا يرمي الجمرة أحد من وراء ظهرها بل يكون الرمي من بطن الوادي ، كما كان سابقاً ، وقد تم بناء هذا الجدار الذي بظهر جمرة العقبة في النصف الأول من جمادى الأولى سنة (١٣٧٦) من الهجرة سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف .

وصفة هذا الجدار الذي بني جديداً لأول مرة عقب إزالة الجبل الذي كان بظهر جمرة العقبة هي أن الجدار المذكور عبارة عن بناء مربع لاصق بجمرة العقبة من الخلف طوله خمسة أمتار وستون سنتيمتراً ، وعرضه ثلاثة أمتار وستون سنتيمتراً وارتفاعه متران وعشرة سنتيمترات .

فكان رمي الناس في حجهم جمرة العقبة لأول مرة بعد إزالة الجبل وبناء هذا الجدار المربع في سنة (١٣٧٦) ست وسبعين وثلاثمائة وألف وهي نفس السنة التي أزيل فيها الجبل وبني فيها البناء المربع المذكور .

فإذا تأملنا نجد أن هذا الجبل الذي بظهر العقبة كان في موضعه هذا منذ أن خلق ا لله الدنيا في بدء الخلق إلى عصرنا هذا ثم إنه أزيل الجبل كله من وجه الأرض في السنة المذكورة فسبحان من له البقاء والدوام وسبحان من يغير ولا يتغير جل جلاله وعظمت قدرته وقد صدق من قال : (همم الرجال تزيل الجبال) اللهم ثبت قلوبنا على دينك وتوفنا مسلمين آمين يا رب العالمين.

واعلم أن ما بين جمرة العقبة وبين الجمرة الوسطى (١١٦) متراً وما بين الجمرة الوسطى وبين الجمرة الصغرى (١٥٦) متراً. هكذا ذكره إبراهيم رفعت باشا رحمه الله تعالى في كتابه «مرآة الحرمين».

عمل مراحيض بمنى

في منى يوجد كثير من بيوت الخلاء العامة «أي الطهائر» في اصطلاح الحجازيين ويسمى بيت الخلاء بمصر الكنيف أو المرحاض، عملت لقضاء حاجة الإنسان في مختلف جهات منى. ففي كل جهة منها نحو عشرة مراحيض، مبنية كلها بالحجارة والنورة يبنى أولاً جدار طوله نحو عشرة أمتار وارتفاعه أقل من القامة ثم تقسم هذه الجدر إلى نحو عشرة مراحيض يفصل بين كل واحدة منها جدار قصير وليس لهذه المراحيض ضمن سقف وبالضرورة هذه المراحيض العامة لا تكون نظيفة أبداً.

وكان ابتداء عمل هذه المراحيض سنة (١٢٨٢) اثنتين وثمانين ومائتين وألف، فقد ذكر الغازي في تاريخه نقلاً عن كتاب «تحصيل المرام» أنه لما حصل الوباء بمكة، ثاني يوم النحر واستمر بمنى قبل السنة المذكورة بعام واحد جاءت الأوامر من الدولة العثمانية إلى مكة في شهر شوال من السنة المذكورة ببناء خمسمائة كنيف بمنى وأن يجعلوا بها مكاناً خاصاً لذبح الحيوانات وكانت قبل ذلك تذبح بها في كل مكان. اهـ.

انظر: صورة رقم ٢٤٥، خزانات المياه وبأسفلها دورة المياه المراحيض،

ولما قامت حكومتنا السعودية بحركة عمرانية واسعة بالحرمين الشريفين بل بأنحاء المملكة كلها عملت بمنى عدة مراحيض بالإسمنت والحديد وكان ذلك سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف.

والحقيقة أن كثرة بناء المراحيض العامة في «منى» لقضاء الحاجة لها نفع كبير لعامة الحجاج من جهة راحتهم ومن جهة نظافة منى فإنهم يمكثون بها ثلاثة أيام أو أربعة. وأما في عرفات وفي مزدلفة فلا لزوم لعمل مراحيض بهما لقلة مكث الحجاج فيهما لأنهم يمكثون في عرفات يوماً واحداً، وفي مزدلفة ليلة واحدة.

وعرفات ومزدلفة صحراء واسعة لا بناء فيهما ، وأما منى ففيها كثير من البيوت والمنازل .

وحبذا لو بنت الحكومة مراحيض كثيرة لا عدد لها في أوساط منى وأطرافها لكن أن تكون تحت سطح الأرض لعدم تشويه المنظر وتضييق الأمكنة.

المفجر وراء منى

المفجر : موضع معروف من قديم الزمان إلى اليوم وهو يقع في أواخر منى على يمين الصاعد إلى مزدلفة من بطن منى من جهة مسجد الخيف ، ويقع على يساره إن ذهب من وراء جبال منى ، وهو موضع مشهور يمتد من سفح الجبل من بطن منى إلى سفح الجبل من الجهة المقابلة من وراء منى ، وهذا الجبل مشقوق من وسطه ، ممهد طريقه ومبلط بالحجارة المرصوفة من أول الشق إلى أن يتنزل الإنسان منحدراً من الجبل إلى ما وراء منى ، وهذا الطريق المرصوف بالحجارة واسع جداً ، وفي أسفله من وراء منى يوجد خزان كبير للماء تابع لعين زبيدة فإن بهذا المكان مجرى قناة عين زبيدة وقد أقيم عليه آلة بخارية رافعة لتوصيل الماء إلى قناة منى ، وقد رصف هذا الطريق في عهد الأتراك لكن لا نعلم متى رصف ولماذا رصف.

وهذا المفجر يقال له بطحاء قريش كانوا في الجاهلية وأول الإسلام يتنزهون به ويخرجون إليه بالغداة والعشي .

ورد في تاريخ الأزرقي : أنه لما كان آخر أيام منى ، أرسلت قضاعة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصي بن كلاب «الجد الرابع للنبي ﷺ» ما جعل له حليل «وهو ولاية البيت» وعظموا عليهم القتال في الحرم وحذروهم الظلم والبغي بمكة وذكروهم ما كانت فيه جرهم وما صارت إليه في حين ألحدوا فيه بالظلم والبغي .

فأبت خزاعة أن تسلم ذلك ، فاقتتلوا بمفضى مأزمي منى . قال : فسمي ذلك المكان «المفجر» لما فجّر فيه وسفك من الدماء وانتهك من حرمته ، وقد اقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت القتلى من الفريقين جميعاً وفشت فيهم الجراحات وقد استكفى حاج العرب من مضر واليمن بالنظر إلى قتالهم ثم تداعوا إلى الصلح

ودخلت قبائل العرب بينهم ، وعظموا على الفريقين سفك الدماء والفجور في الحرم فاصطلحوا .. إلى آخر ما جاء فيه .

وقد ذكرنا هذه القصة في محلها في مكان آخر . هذا هو أمر المفجر بمنى .

بناء المدرجات بمنى والعمرة وغيرهما سابقاً

لا يخفى أن أرض مكة وما يحيط بها أرض جبلية صخرية ، فالمشي في بعض طرقاتها فيه بعض صعوبة لذلك قام بعض من وفقهم الله تعالى بإصلاح الطرقات العامة الواقعة بين جبلين متقاربين وذلك بتكسير الصخور من الطريق ثم فرشه بالأحجار والنورة « الجص » وجعله على هيئة الدرج ، يكون طولها بمقدار ما بين الجبلين وغالباً يكون نحو خمسة أمتار ، وعرض كل درجة نحو متر واحد ، وأما ارتفاعها فأقل من الشبر حتى يمكن المشي بسهولة للإنسان والدواب ، أي بصفة الأحجار المفروشة الباقية إلى اليوم ، بأسفل جبل الرحمة بعرفات .

وهذه العملية أي فرش الطرق وكذلك داخل المساجد والمنازل بالأحجار المنحوتة بالنورة كان أمراً شائعاً فيما سبق من الأزمان قبل أن يهتدوا إلى فرش الطرقات بالإسفلت « الزفت » فإنهم لم يهتدوا إلى هذا إلا منذ خمسين سنة تقريباً فكان مما فرشوه بالحجارة مدرج منى وهو الطريق الضيق الذي كان بين الجبل الذي بظهر جمرة العقبة والجبل المقابل له فكانت قوافل الجمال المحملة في أيام الحج تمر منها بسهولة تامة ، وطريق العمرة إلى التنعيم ، وكان طريقاً ضيقاً بين جبلين متقابلين بقرب التنعيم بعد الشهداء وكذلك طريق الحجون بالمعلا وكذلك الطريق الضيق بين الجبلين بريع أبي لهب ولا تزال آثار حجارة هذا الطريق باقية إلى اليوم .

وفرشوا أيضاً أسفل جبل الرحمة بعرفات بالحجارة والنورة ، ولا يزال هذا الفرش باقياً إلى اليوم على حاله بدون أن يحدث فيه خراب يذكر ، كما لا يزال فرش الحجارة فوق جبل الرحمة على حاله أيضاً إلى اليوم ، وأما الدرج المبنية المؤدية إلى فوق الجبل فقد حدث فيها خراب .

وإليك ما ورد في التاريخ عن فرش هذه الأماكن بالحجارة والنورة : فقد جاء في تاريخ الغازي ، نقلاً عن السنجاري ، في حوادث سنة (١٠٨٥) خمس وثمانين ألف : وفي شوال من هذه السنة شرع الشيخ محمد بن سليمان في تنظيف الحجون ، وأمر بجعل ظفيرتين من الجانبين رضماً بلا طين ، وكان ابتداء عمله يوم

السبت سادس شوال . ولما فرغ من ذلك شرع في إصلاح مدرج منى ، وتكرر ركوبه لذلك مراراً عديدة ، فبرحه وبنى ظفيرتين أيضاً من جانبي المدرج . انتهى .

وجاء في الجزء الأول من تاريخ الغازي عن فرش طريق ربع أبي لهب وغيره بالحجارة لسهولة الممر والمشي فقال : وفي شهر رجب سنة (١١٣٢) اثنتين وثلاثين ومائة وألف عمّر بطريق النيابة عن الأمير إسماعيل بك ابن إيواز بك ، مولانا الشيخ سالم بن عبدالله البصري المحك بطريق العمرة ، فكسر أحجاره وجعله حجراً مفروشاً ، وكان يؤذي الماشي والراكب ، ودكّه بالنورة وكذلك درج الحجون ، وكذلك درج ربع أبي لهب .

مسجد الخيف في منى

قال في مختار الصحاح : الخَيف ما انحدر عن غِلَظ وارتفع عن مسيل الماء ومنه سمي مسجد الخيف بمنى . اهـ .

قال الأزرقي : اسم الجبل الذي مسجد الخيف بأصله الصابح ، واسم الجبل الذي في وجاهه على يسارك إذا أتيت من مكة القابل وهو من الأثبرة . اهـ . ومسجد الخيف بمنى ، هو أوسع من مسجد مزدلفة ومن مسجد نمرة بعرفات ، ولقد قمنا بذرع هذه المساجد الثلاثة في آخر شعبان سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة . فطول مسجد الخيف مائة وخمسة وثلاثون متراً ، وعرضه مائة وأربع أمتار ، وله من الجهة الشرقية ثلاثة أبواب ، ومن الجهة اليمانية «أي الجنوبية» باب واحد فقط . وقد ذكرنا قياس المسجدين الآخرين عند الكلام عليهما ، ولقد زيد في مسجد الخيف بمنى بعض زيادات في التعمير الذي حصل في سنة (١٣٨٣) هـ .

انظر: صورة رقم ٢٤٦ ، مسجد الخيف بمنى وتظهر بعض المنازل التي أنشئت عنده من جهة الجبل

انظر: صورة رقم ٢٤٧ ، الباب العمومي لمسجد الخيف بمنى ويرى المؤلف وولده

فمسجد الخيف مشهور عظيم الفضل ، ففي الجامع اللطيف : أخرج الطبراني ، في معجم الكبير ، عن ابن عباس ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال: "صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً منهم موسى" . وكذا أخرجه الأزرقي أيضاً، وفي رواية عن مجاهد خمسة وسبعون نبياً

وأخرج الأزرقي عن ابن عباس قال: "صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً ، كلهم مخطمون بالليف" . قال مروان : يعني رواحلهم ، وذكر العلاّمة صاحب القاموس ، في كتابه « الوصل والمنى في بيان فضل منى » بسند جيد عن أبي هريرة ، أنه كان يقول : "لو كنت من أهل مكة لأتيت مسجد منى كل سبت". وأخرج الأزرقي ، عن أبي هريرة بلفظ : "لو كنت من أهل مكة ما أتى علي سبت حتى آتي مسجد الخيف فأصلي فيه". انتهى.

وذكر المحب الطبري في القرى عن مجاهد قال : "حج البيت خمسة وسبعون نبياً كلهم قد طاف بالبيت ، وصلى في مسجد منى ، فإن استطعت أن لا تفوتك الصلاة فيه فافعل" . أخرجه الأزرقي وأبو سعد . انتهى.

وقال الأسدي في أخبار الكرام: ومصلاه ﷺ فيه ، وهو محل محراب القبة الكبيرة التي في وسط المسجد ، كما قاله ابن ظهيرة . انتهى .

وقال في تحصيل المرام ، وفي الإعلام: وقد بنيت قبة على موضع مصلى رسول الله ﷺ . وفي حاشية الشيخ يحيى الحباب: مصلاه ﷺ هو في المحراب الذي في القبة الكبيرة ، التي في وسط مسجد الخيف . انتهى .

ثم قال القطب في الإعلام: وهذه القبة ، التي بصحن المسجد التي على موضع مصلاه ﷺ بناها السلطان قايتباي وذلك في آخر سنة سبع وسبعين وثمانمائة أو التي بعدها. انتهى .

قال الأزرقي : إن قبر آدم عليه السلام بقرب المنارة فيها ، ذكره القرشي. وقيل: قبره في جبل أبي قبيس ، وقيل: في الهند ، وقيل غير ذلك .

وقال العلامة الميرغني في عدة الإنابة : وأما تعيين مصلى النبي ﷺ منه فعند المحراب ، الذي في القبة التي في وسط المسجد فإنه بني في موضع أحجار كانت هناك، وكان مصلاه ﷺ عندها.

والقبة هي المسجد الأصلي . قيل: إنه محل الأنبياء ومصلى الأخيار، وفيه قبر آدم عليه السلام ، وأما ما زاد على القبة فمن زيادة الأشرف قايتباي .

وأخرج الأزرقي عن خالد بن مضرّس أنه رأى أشياخاً من الأنصار يتحرون مصلى رسول الله ﷺ أمام المنارة قريباً منها .

قال جدي : الأحجار التي بين يدي المنارة وهي موضع مصلى النبي ﷺ لم نزل نرى الناس وأهل العلم يصلون هنالك ، ويقال له: مسجد العيشومة ، وفيه عيشومة أبداً خضراء في الجدب والخصب بين حجرين من القبلة ، وتلك العيشومة قديمة لم تزل ثَمّ . انتهى ، ولا وجود لها الآن . انتهى ما في عدة الإنابة .

وقال ابن فهد في إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، في حوادث سنة أربعين ومائتين : إنه كتب والي مكة إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله أن ما على ظهر الكعبة من الكسوة أضر بجدرانها وإنما لو جردت أو خففت عنها بعض ما عليها من الكسوة ، كان أصلح وأوفق وأن أمطار الخريف قد كثرت وتواترت بمكة ومنى في هذا العام فهدمت منازل كثيرة وأن السيل حمل في مسجد رسول الله ﷺ وإبراهيم نبي الله ﷺ المعروف بمسجد الخيف فهدم شقوته وعامة جدرانه وذهب بما فيه من الحصباء فأعراه وهدم من دار الإمارة بمنى وما يليها جدران وعدة أبيات وهدم العقبة المعروفة بجمرة العقبة وبركة الياقوتة وبرك المأزمين والحياض المتصلة بها ، وأن العمل في ذلك إن لم يتدارك ويتبادر بإصلاحه كان على سبيلٍ زيادة . فوجه أمير المؤمنين المتوكل على الله في سنة إحدى وأربعين رجلاً من صنّاعه يقال له إسحاق بن سلمة إلى مكة ، فقدمها وبعد قدومه بأيام دخل الكعبة ومعه العامل بمكة وصاحب البريد وجماعة من الحجبة وناس من أهل مكة فوجدوا الجدار كأصح ما يكون من البناء وأحكمه فقام إسحاق بن سلمة بين بابي الكعبة وأشرف على الناس قال: يا أيها الناس احمدوا الله سبحانه وتعالى على عمارة بيته ، فإنا لم نجد به من الحدث ما كتب به إلى أمير المؤمنين بل وجدنا الكعبة وجدرانها أتقن ما يكون وسار إلى منى فأمر بعمل ضفيرة تتخذ لترد سيل الجبل عن المسجد ودار الإمارة فاتخذ هناك ضفيرة مرتفعة السمك ، وأحكمها بالحجارة والنورة .

ثم هدم المسجد وما كان من دار الإمارة مستهدماً وأعاد بناءه ورمَّ ما كان مسترمّاً ، وأحكم العقبة وجدرانها وأصلح الطريق التي سلكها رسول الله ﷺ من منى إلى الشعب ومعه العباس بن عبدالمطلب ، والذي يقال له شعب الأنصار الذي أخذ فيه رسول الله ﷺ البيعة على الأنصار ، وكانت هذه الطريق قد عفت ودرست وكانت الجمرة زائلة عن موضعها أزالها جهال الناس برميهم الحصى وغفل عنها حتى أزيلت عن موضعها شيئاً يسيراً منها من فوقها ، فردها إلى

موضعها الذي لم تزل عليه وبنى من ورائها جداراً أعلاه عليها ومسجداً متصلاً بذلك الجدار لئلا يصل إليها من يريد أن يمر من أعلاها وإنما السنة لمن أراد الرمي أن يقف من تحتها من بطن الوادي فيجعل مكة عن يساره ومنى عن يمينه ، كما جعل رسول الله ﷺ وأصحابه من بعده. وفرغ من البرك وأحكم عملها . انتهى .

انظر: صورة رقم ٢٤٨ ، لوسط مسجد الخيف بمنى ويرى المؤلف وولده

انظر: صورة رقم ٢٤٩ ، لمحراب مسجد الخيف بمنى

وقال السنجاري : وفي سنة خمسمائة وتسع وخمسين جدد الوزير محمد بن علي بن المنصور المعروف بالجواد الأصفهاني مسجد الخيف والحِجْر بسكون الجيم ، وزخرف الكعبة وبذل مالاً لصاحب مكة حتى مكّنه من ذلك . وهو الذي بنى المسجد الذي على جبل عرفات ، وعمل الدرج إلى الجبل ، وعمل بعرفات مصانع الماء . انتهى .

انظر: صورة رقم ٢٥٠ ، منبر مسجد الخيف بمنى

انظر: صورة رقم ٢٥١ ، منازل مسجد الخيف بمنى ويرى المؤلف وولده

وقال ابن فهد في حوادث سنة أربع وسبعين وثمانمائة : وفيها في آخر السنة أخرب مسجد الخيف بمنى المعظم ، وبنيت جدرانه المحيطة به بالحجر والنورة والجص ، وبنيت شراريف على دائيرة جدره ، وبنيت أربع بوايك بالجهة القبلية منه بقراقنص سمان ، يعلو البئر المذكورة كليخون قناطر، يعلو القناطر المذكورة مقالي مقببة بالطوب والنورة والجص عدة القناطر المذكورة مائة واثنتان وسبعون قنطرة ، وعدة المقالي المذكورة إحدى وتسعون مقلاة ، وبني محراباً بصدر الجهة القبلة المذكورة بالرخام الأصفر المنحوت بيمنته ويسرته عمودان من رخام أصفر وعلوه تاريخ مذهب ، مكتوب فيه اسم السلطان ، وعلى المحراب المذكور قبة عظيمة مرتفعة محكمة العمل ، يعلوها هلال من نحاس مبيض معظم ، وبنيت أيضاً قبة عظيمة مثمنة عالية على المحراب الشريف النبوي ، الذي بوسط المسجد الشريف أمام المنارة القديمة دور القبة المذكورة ستون ذراعاً بالعمل ، وذرع بطنها من المنارة إلى المحراب الشريف النبوي خمسة عشر ذراعاً بالعمل في مثل ذلك . وارتفاع القبة المذكورة عشرون ذراعاً بالعمل ، وبداير القبة المذكورة من أعلاها تاريخ مكتوب فيه اسم السلطان ، وبأعلى القبة هلال كبير من نحاس مبيض ، وبنيت بوابة عظيمة

مرتفعة معقودة بالرخام الأصفر بطراز من رخام أبيض محيط بالبوابة مكتوب منقوش أعلاه بتاريخ مكتوب عليه اسم السلطان مطلي جميع ذلك بالذهب واللازورد معرقاً ، وبنيت مئذنة علو البوابة المذكورة ، محكمة العمل ، مقرنصة حسنة الصنعة بثلاثة أدوار وبعنق وخوذة على ستة أعمدة ، يعلو الخوذة المذكورة هلال كبير من نحاس مبيض ، وبنيت بوابتان أيضاً للمسجد المذكور شرقية ويمانية ، وبني سبيل ملاصق للمسجد على يمين الداخل من باب المسجد ، بواجهة مبنية بالرخام الأصفر المنحوت المحكم العمل تحته صهريج كبير برسم الماء ، وعمل بالسبيل المذكور طاقات من الرخام الصفر يتناول من الطاقات المذكورة الماء المعد للشرب ، وبالسبيل أربعة شبابيك حديداً كباراً ، من جهاته الأربع مفروشة أرض السبيل بالرخام الأصفر وبه بيارة يستقي منه المار من الصهريج المذكور على حوضه ، وبالسبيل المذكور خزانة حاصل لآلات السبيل المذكور ، وللسبيل المذكور بابان أحدهما من الطريق والآخر من داخل المسجد ، واستجد صهريج خارج المسجد وبني دبل كبير له محكم مبني با لنورة مدموك يتوصل منه الماء إلى الصهريج القديم الذي هو داخل المسجد وحفرت بئر هناك كانت مطمومة مقابل باب المسجد بالقرب منه ومبيض جميع المسجد باطناً وظاهراً وبرق جميع سطحه بالنورة ونظف ذلك كله في مدة أولها يوم الأحد سابع عشر ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين وآخرها عاشر ذي القعدة سنة أربع وسبعين ، وجملة المصروف على ذلك ثلاثة آلاف ومائتان وتسعة وعشرون أشرفياً وثلثا أشرفي انتهى.

وذكر السيد أحمد دحلان في سالنامته: بناء مسجد الخيف الموجود الآن هو بناء السلطان قايتباي سلطان مصر بناه سنة أربع وسبعين وثمانمائة ، ووسعه عما كان قبل ذلك ، وجعل في وسطه مصلى النبي ﷺ ، وبنى داراً على جانبه يسكنها أمير الحاج أيام منى ، وجدد أعلام الحل من جهة عرفة . انتهى .

وفي مرآة الحرمين: مسجد الخيف بمنى في الجهة الجنوبية على يسار القادم من عرفات ويمين المقبل من مكة ، وهو مسجد وسيع محكم البناء مستطيل الشكل ، طول ضلعه البحرية ١٣٠ متراً وضلعه الغربية طولها ١٠٠ متر وبابه الأكبر في واجهته البحرية وفوق هذا الباب مئذنة بنيت بالطوب الأحمر ، ارتفاعها ١٤ متراً وعلى يسار الداخل منه مقابر تعلوها قباب أقيمت على عقود ، وفي جهة المسجد الغربية أربعة أروقة (بواكي) ، كل رواق يمتد من شمالي المسجد إلى جنوبيه ،

وعرض الأربعة ٣٧ متراً ؛ أي من صحن المسجد إلى جداره الغربي ، وفي كل رواق ٢١ عقداً ، أعني في كل جدار يمتد من الشمال إلى الجنوب ، والأروقة مسقوفة بقباب ظاهرة من الداخل فقط ، أما سطح المسجد فمستو ، وعرض الرواق الفضاء ٤,٥ متراً ، أما بالجدران فضعف ذلك، وسمك الجدر التي أقيمت عليها قباب الأروقة ١,٥٥ متراً وفي وسط الرواق الملاصق للجدار الغربي منبرٌ ومحرابٌ عليهما قبةٌ فخمة ، وفي صحن المسجد قريباً من جداره الشرقي قبة عظيمة ، أقيمت على ثمانية عقود وبها محراب ، وهي موضع خيمة النبي ﷺ في حجة الوداع ، وقد صلى النبي ﷺ بمكانها الأوقات الخمسة ، وبالجهة الشرقية من القبة مئذنة مبنية بالطوب الأحمر ارتفاعها ٦٠,١٤ متراً ، ولها باب صغير خارج القبة يصعد منه إليها ، ودرجها ثلاث وسبعون وارتفاع الدرجة ٢٠ سنتيمتراً ، وبالمسجد أربعة صهاريج كبيرة متجاورة بين القبة والضلع الشمالية أقيمت لحفظ مياه الأمطار بها والشرب منها في مواسم الحج .

والمسجد مكشوف ما عدا جهتيه الشمالية والغربية ، وجدره لها دعامات من الداخل والخارج ، وارتفاعها ٥ أمتار ، وعلى الجدر من الأعلى شرافات ، وله ثلاثة أبواب شمالي وغربي وشرقي ، وبالجهة الشرقية من المئذنة الشرقية على علو أربعة أمتار مكتوب: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم جدد لله الملك المعظم ملك الملوك الملك المنصور عمر بن علي ابن رسول صاحب اليمن مسجد الخيف سنة ٦٧٤).

وعلى بابه الشمالي مكتوب: عمّر مسجد الخيف السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي سنة ٨٩٤، وَقد عمر هذا المسجد في زمن الخليفة المعتمد أحمد بن المتوكل العباسي سنة ٢٥٦، وجدده الوزير محمد بن علي المعروف بالجواد الأصفهاني سنة ٥٥٩، وكذلك أم الخليفة العباسي الناصر لدين الله وأقام فيه عمارة الملك المظفر صاحب اليمن وهو الذي أقام المئذنة ، التي بجوار القبة .

وفي سنة ٧٢٠ أنفق عليه أحمد بن عمر المعروف بابن المرجاني التاجر الدمشقي ما يزيد على ٢٠٠٠٠ درهم . وفي سنة ٨٢٠ عمر بمعرفة الشيخ علي البغدادي ، ولم يعرف من قام بنفقه هذه العمارة . وفي سنة ٨٧٤ أمر الملك الأشرف قايتباي ببناء هذا المسجد ، فبني بناء محكماً . وفي سنة ١٠٧٢ عمّره السلطان محمد قزلار الآغا ، وكان القائم بالعمارة والي جدة وشيخ الحرم سليمان

بك . وفي سنة ١٠٩٢ عمّره سليمان آغا مرسلاً من قبل السلطان محمد خان. انتهى.

موضع مصلى النبي ﷺ بمسجد الخيف بمنى

ذكر الغازي في تاريخه ما نصّه : وقال الأسدي في أخبار الكرام : ومصلاه ﷺ فيه، وهو محل محراب القبة الكبيرة التي في وسط المسجد ، كما قاله ابن ظهيرة. انتهى.

وقال في تحصيل المرام : وفي الإعلام : وقد بني قبة على موضع مصلى رسول الله ﷺ وفي حاشية الشيخ يحيى الحباب: مصلاه ﷺ هو المحراب الذي في القبة الكبيرة التي في وسط مسجد الخيف . انتهى .

ثم قال القطب في الإعلام : وهذه القبة التي بصحن المسجد والتي على موضع مصلاه ﷺ ، بناها السلطان قايتباي ، وذلك في آخر سنة سبعة وسبعين وثمانمائة أو التي بعدها، انتهى .

قال الأزرقي: إن قبر آدم عليه السلام بقرب المنارة فيها ، ذكره القرشي . وقيل: قبره في جبل أبي قبيس ، وقيل: في الهند ، وقيل: غير ذلك .

وقال العلامة الميرغني في عدة الإنابة : وأما تعيين مصلى النبي ﷺ منه فعند المحراب الذي في القبة ، التي في وسط المسجد ، فإنه بني في موضع أحجار كانت هناك ، وكان مصلاه ﷺ عندها .

والقبة هي المسجد الأصلي ، قيل : إنه محل الأنبياء ومصلى الأخيار وفيه قبر آدم عليه السلام وأما ما زاد على القبة فمن زيادة الأشرف قايتباي . وأخرج الأزرقي عن خالد بن مضرّس أنه رأى أشياخاً من الأنصار يتحرون مصلى رسول الله ﷺ أمام المنارة قريباً منها .

قال جدي : الأحجار التي بين يدي المنارة وهي موضع مصلى النبي ﷺ لم نزل نرى الناس وأهل العلم يصلون هنالك ، ويقال له: مسجد العيشومة وفيه عيشومة أبداً خضيراء في الجدب والخصب بين حجرين من القبلة ، وتلك العيشومة قديمة لم تزل ثَمّ . انتهى ، ولا وجود لها الآن . انتهى ما في عدة الإنابة .

نقول : مصلى النبي ﷺ في وسط أرض مسجد الخيف أي بحوشه ، وعليه قبة وبجوارها مئذنة صغيرة.

مسجد المرسلات

قال الغازي صحيفة (٣٥٨) : ومنها مسجد لطيف ، يماني مسجد الخيف ، فيه غار به أثر ، يقال : إن أثر رأس رسول الله ﷺ بلحف الجبل المشرف على مسجد الخيف ، المسمى بالضب بمعجمتين وموحدة ، نقله الصفاني والصابح بمهملتين بينهما ألف وموحدة .

أخرج ابن جبير أن النبي ﷺ جلس بهذا الغار مستظلاً فيه ، فمس رأسه الكريم الحجر ، فلان حتى أثر فيه تأثيراً بقدر دورة الرأس ، فصار الناس يبادرون بوضع رؤوسهم في هذا الموضع تبركاً واستجارة لرؤوسهم بموضع مس الرأس الكريم ألا تمسه النار برحمة الله عز وجل . انتهى .

ويعرف بغار المرسلات وهو مشهور به إلى هذا الوقت ، وفي صحيح البخاري في باب ما يقتله المحرم من الدواب من رواية ابن مسعود أنه قال : بينما نحن مع النبي ﷺ في غار بمنى ، إذ نزلت عليه : ﴿والمرسلات عرفاً﴾، وإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها إذ وثبت علينا حية ، فقال النبي ﷺ اقتلوها ، فابتدرناها فذهبت ، فقال النبي ﷺ : وقيت شركم كما وقيتم شرها .

قال القطب في الإعلام : .. وفي مسجد الخيف على يمين الذاهب إلى عرفات وبجنبه غار فيه تجويف في سقفه ، يزعم العامة أنه لان لرأسه ﷺ ... إلى أن قال : ولم أقف على خبر أعتمده في ذلك إلا أن الأثر وارد بنزول سورة المرسلات . انتهى .

قال الغازي : هنا أقول : قد اندرس مسجد المرسلات الآن ، ولم يبق أثر للمسجد ولا للغار.

مسجد الكبش بمنى

مسجد الكبش هذا بمنى ، وهو مكان معروف ، قال عنه العلامة ابن ظهيرة القرشي في كتابه الشهير "الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف" ما نصه : (ومنها) مسجد يقال له مسجد الكبش على يسار الصاعد إلى عرفة بسفح ثبير ، وهو مشهور ، والمراد بالكبش هو الذي فدي به الذبيح إسماعيل أو إسحاق على خلاف في ذلك .

ونقل الفارسي عن الفاكهي رحمهما الله تعالى ما يقتضي أن الكبش نحر في غير هذا الموضع بين الجمرتين .

ويؤيده ما أخرجه الطبري عن ابن عباس أن النبي ﷺ نحر في منحر الخليل عليه السلام الذي نحر فيه الكبش المفدى به ، ثم بينه الطبري فقال : وذلك في سفح الجبل المقابل له ، يعني ثبيراً ، وأراد بذلك الموضع الذي عند مسجد النحر المتقدم آنفاً والله أعلم بالحقائق . انتهى منه .

نقول: إنه لم يبق اليوم لهذا المسجد من أثر والله تعالى أعلم .

مسجد البيعة بقرب منى

مسجد البيعة واقع قبيل جمرة العقبة على يسار الذاهب إلى منى ، بينه وبين الجمرة شيء قليل ، وهو داخل في شعب من الجبل ، وهذا الشعب يسمى شعب الأنصار وشعب البيعة . قال الإمام الأزرقي في تاريخه عن هذا المسجد ما نصه : قال أبو الوليد : حدثني جدي حدثنا داود بن عبدالرحمن العطار ، عن عبدالله بن عثمان بن خيثم ، عن أبي الزبير محمد بن مسلم أنه حدثه جابر ابن عبدالله الأنصاري ، أن رسول الله ﷺ لبث بمكة عشر سنين ، يتبع الحاج من منازلهم في الموسم بمجنة وعكاظ ، ومنازلهم بمنى : «من يأويني وينصرني حتى أبلغ رسالات ربي وله الجنة» فلا يجد أحداً يأويه ولا ينصره ، حتى إن الرجل يرحل صاحبه من مضر أو اليمن ، فيأتيه قومه أو ذو رحمه فيقولون : احذر فتى قريش لا يفتنك ، يمشي بين رجالهم ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، يشيرون إليه بأصابعهم ، حتى بعثنا الله عز وجل له من يثرب ، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ، ويقرئه القرآن فينقلب إلى

أهله فيسلمون بإسلامه ، حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، ثم بعثنا الله عز وجل له فائتمرنا واجتمعنا سبعين رجلاً منا فقلنا: حتى متى ندع رسول الله ﷺ يطرد من جبال مكة ويخاف ؟! فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم فتواعدنا شعب العقبة ، واجتمعنا فيه من رجل ورجلين ، حتى توافينا عنده فقلنا : يارسول الله على ما نبايعك؟ قال : تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، وعلى التفقّد في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى أن تقوموا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم يثرب ، فتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم وأزواجكم ولكم الجنة ، فقمنا إليه نبايعه ، فأخذ بيده أسعد بن زرارة ، وهو أصغر السبعين رجلاً إلا أنا ، فقال : رويداً يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعضّكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على عضّ السيوف إذا مستكم ، وعلى قتل خياركم ومفارقة العرب كافة ، فخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون على أنفسكم خيفة فذروه هو أعذر لكم عند الله . قالوا : أمط عنا يدك يا أسعد بن زرارة ، لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها ، فقمنا إليه رجلاً رجلاً يأخذ علينا شرطه ويعطينا على ذلك الجنة . انتهى من تاريخ الأزرقي .

قال الغازي في تاريخه عن مسجد البيعة : قال في الإعلام : هو مسجد على يسار الذاهب إلى منى ، بينه وبين العقبة التي هي حد منى مقدار غلوة أو أكثر.

وقال في تحصيل المرام : وهذا المسجد في شعب ، على يسار الذاهب إلى منى ، قدام جبل الصراصر ، بقرب عقبة منى الذي فيه الدرج ، بينه وبين العقبة التي هي حد منى ، مقدار غلوة سهم أو أكثر . انتهى .

قال القطب : وهو مسجد منهدم ، فيه حجران مكتوب فيهما ما يدل على ذلك ، في أحدهما : أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله تعالى ببناء هذا المسجد مسجد البيعة ، التي كانت أول بيعة بويع فيها رسول الله ﷺ ، عقد له العباس بن عبد المطلب ، وأنه بني في سنة أربع وأربعين ومائة والمشار إليه هو أبو جعفر المنصور العباسي .

وعمّره أيضاً المستنصر العباسي ، كما في حجر آخر بناه في سنة تسع وعشرين وستمائة ، وتلك الأحجار ملقاة بذلك المسجد الخراب ، يخشى عليهما الضياع فيندثر أثر هذا المسجد .

انظر: صورة رقم ٢٥٢ ، مسجد بيعة العقبة

وكان المرحوم إبراهيم دفتر دار مصر سابقاً أمير عين عرفات رحمه الله تعالى شرع في تجديد هذا المسجد وأسسه ، وبنى بعض طاقاته وجدرانه ، وتوفي قبل أن يتمه ، وما وفق أحد بعده إلى الآن إلى إتمامه ، وهو من المساجد النبوية المأثورة ، وهو الذي بايع النبي ﷺ سبعون من الأنصار بحضرة عمه العباس بن عبد المطلب ، فنادى أزبّ العقبة «وهو شيطان ذلك المكان» : معاشر قريش إن الأوس والخزرج بايعوا محمداً على أن ينصروه ، فأمسكت الأنصار بقوائم سيوفها وقالوا : لنقاتلن الأسود والأحمر دون رسول الله ﷺ ، فكفاهم الله تعالى ببركة نبيه ﷺ شر ذلك الشيطان، ثم هاجر النبي ﷺ هو وأبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة لما أذن لهما في الهجرة ، وهذا مسجد شريف يستجاب فيه الدعاء، فرحم الله من يكون سبباً في تجديده وعمارته . انتهى ما في الإعلام .

وقال المحبي في خلاصة الأثر : ومن آثار السلطان أحمد بن محمد بن مراد خان عمارة مسجد البيعة ، وهو بالقرب من عقبة منى على يسار الصاعد . انتهى .

وفي تحصيل المرام قلت : قد عمر هذا المسجد في دولة السلطان عبدالمجيد، في سنة ألف ومائتين ونيف وخمسين ، وهو رواق واحد من جهة القبلة ، وفي صدره محراب ، وقدام المحراب صحن كبير ، وعلى الصحن حائط عال والآن عمار . وطول هذا المسجد من محرابه إلى آخر الرحبة ثمانية وثلاثون ذراعاً وسلس . انتهى من تاريخ الغازي .

نقول : إن مسجد البيعة هو قبيل جمرة العقبة على يسار الذاهب من مكة إلى منى ، والمسافة بين هذا المسجد وبين جمرة العقبة بأول منى ، هي كالمسافة بين الصفا والمروة أي نحو ثلاثمائة متر .

ولا يزال هذا المسجد عامراً غير منهدم ، وفيه حجر واحد مكتوب بالخط الكوفي ، وهو مثبت عند محرابه خارج المسجد لامن داخله ، ولم نتمكن من قراءة ما هو مكتوب فيه .

انظر: صورة رقم ٢٥٣ ، انظر: صورة أخرى لمسجد بيعة العقبة

كان رسول الله ﷺ يقوم في مواسم الحج، يدعو إلى توحيد الله تعالى وعبادته من أقبل إلى مكة من العرب من سائر الأطراف، ولما كان الموسم الذي قبل هجرة النبي ﷺ بنحو سنتين وبضعة أشهر، أقبل من المدينة إلى مكة جماعة من الخزرج، فجاءهم رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، وكانوا قد سمعوا به من يهود المدينة، فأسلموا ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم، وكانوا ستة نفر من الخزرج، فلما قدموا المدينة أخبروا قومهم بأمر رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم ودخل في جميع دور الأنصار.

فلما كان الموسم الثاني، أي: قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر، أتى من المدينة اثنا عشر رجلاً فاجتمعوا برسول الله ﷺ وبايعوه على الإسلام، وبعد أن تمت هذه البيعة، بعث معهم مصعب بن عمير من بني عبد الدار بن قصي، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم في الدين. فكان إسلام هؤلاء النفر وذهاب مصعب بن عمير معهم سبباً في دخول أشراف أهل المدينة في الإسلام، فما بقيت دار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات إلا بعض بطون قليلة.

فلما كان الموسم الأخير قدم مصعب بن عمير وخرج من المسلمين عدد كبير، ومعهم حجاج من قومهم ممن لم يسلموا وما زالوا على الشرك، فأرسل المسلمون إلى رسول الله ﷺ يواعدونه عند جمرة العقبة للمقابلة من أوسط أيام التشريق.

قال الخضري في محاضراته «تاريخ الأمم الإسلامية» عند تكملة هذا المبحث: فلما انتهى أمر الحج ومشاعره، وحان الموعد، خرج المسلمون من رحالهم بعد انقضاء ثلث الليل يتسللون تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة، وكانت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين هما: نسيبة بنت كعب من بني مازن بن النجار الخزرجية، وأسماء بنت عمرو إحدى نساء بني سلمة من الخزرج، واستمروا ينتظرون الرسول ﷺ حتى جاءهم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتواثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس فقال: يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من

ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج بـه إليكـم ، فمـن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

فقال المتكلم من الخزرج : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول ا لله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم عليه السلام فتلا عليهـم القـرآن ودعـا إلى ا لله ورغـب فيـه ، ثـم قـال: "أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم" فأخذ سيدهم البراء بـن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول ا لله ، فإنا وا لله أهل الحروب ، وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر .

فقال أبو الهيثم بن التيهان : يـا رسـول ا لله إن بيننـا وبـين الرجـال حبـالاً وإنـا قاطعوها -يعني يهود المدينة- ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثـم أظهـرك ا لله أن ترجع إلى قومك وتدعنا . قال : فتبسـم الرسـول ﷺ ثـم قـال : الـدم الـدم والهـدم والهدم ؛ يعني أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ، ثم قـال لهم : أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ؛ تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس فقال لهم : أنتـم علـى قومكـم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم ، وأنا كفيل على قومي.

وها هي أسماء النقباء .

١) أسعد بن زرارة من بني النجار ابن ثعلبة من الخزرج .

٢) سعد بن الربيع من بني مالك ابن امرئ القيس من الخزرج .

٣) عبدا لله بن رواحة من بني عمرو ابن امرئ القيس من الخزرج .

٤) رافع بن مالك من بني زريق ابن عامر من الخزرج .

٥) البراء بن معرور ابن بني سلمة ابن سعد من الخزرج .

٦) عبدا لله بن عمرو من بني سلمة ابن سعد من الخزرج .

٧) عبادة بن الصامت من بني غنم ابن سالم من الخزرج .

٨) سعد بن عبادة من بني ساعدة من الخزرج .

٩) المنذر بن عمرو من الخزرج .

١٠) أسيد بن حضير من بني عبد الأشهل من الأوس .

١١) سعد بن خيثمة من بني كعب ابن حارثة من الأوس .

١٢) أبو الهيثم بن التيهان من بني عبد الأشهل من الأوس .

وكان أول من ضرب بيده على يد رسول الله مبايعاً البراء بن معرور ، وبنو النجار يزعمون أن أول من بايع هو أسعد بن زرارة ، وبنو عبد الأشهل يقولون : إنه أبو الهيثم بن التيهان .

والقول الأول أثبت ، لأن البراء بن معرور كان كبير القوم ، وبعد أن انتهت المبايعة أمرهم رسول الله ﷺ أن يعودوا إلى رحالهم ، فذهبوا إلى مضاجعهم فناموا .

ولما أصبحوا كان الخبر قد بلغ قريشاً ، فجاء رؤساؤهم إلى منازل الأنصار وقالوا : يا معشر الخزرج قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم .

فانبعث من هناك من مشركيهم يحلفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه ، وهم في يمينهم صادقون لأنهم لم يعلموه ، وقال لهم عبد الله بن أبي بن سلول وهو سيد من سادتهم لم يسلم : إن هذا الأمر جسيم ، ما كان قومي ليفتاتوا علي بمثل هذا وما علمته ، فانصرفوا عنه .

نفر الناس من منى ، وتحسست قريش الخبر فوجدوه قد كان لكن بعد أن فاتهم الأنصار ، بعد ذلك أمر الرسول أصحابه بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال لهم : إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها فخرجوا أرسالاً رجالاً ونساءً إلا من حيل بينهم وبين الهجرة من المستضعفين . انتهى من الكتاب المذكور .

انظر : الصور أرقام ٢٥٤ لشارع الجمرات بمنى ، و ٢٥٥ لمقر إرشاد الحجاج بوزارة الحج والأوقاف بمنى ، و ٢٥٦ لأحد الأطباء وهو يقوم بالكشف على أحد الحجاج ، و ٢٥٧ لخيام وسيارات الحجاج بمنى ، و ٢٥٨ للقصر الملكي في منى .

مزدلفة

مزدلفة هي ثاني منزل من منازل الحج بعد مكة المشرفة أو بعد الوقوف بعرفات أيضاً ، يبيت فيها الحجاج ليلة العيد الأكبر فقط بعد الوقوف ، ثم يذهبون منها إلى منى.

ومزدلفة هي المشعر الحرام ، والمسافة بين مسجد الخيف بمنى ومسجد المزدلفة خمسة كيلو مترات ، وبين مزدلفة وجبل عرفات عشرة كيلو مترات كما تقدم بيانها في أول الكلام على منى ، وتقع مزدلفة كلها في الحرم ، ولا يوجد بمزدلفة مسجد غير المسجد المذكور والله الموفق .

المشعر الحرام "مزدلفة"

قال الله عز شأنه في سورة البقرة : ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين ۝ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ۝ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾ .

والمشعر الحرام: هو جبل في آخر المزدلفة من جهة منى يقال له «قُزَح» على وزن عُمَرٍ ، ففي صحيح مسلم: «أن النبي ﷺ وقف به يذكر الله ويدعو حتى أسفر جداً» ، والمشعر من الشعار وهو العلامة ، سمي به لأنه من معالم الحج ، ووصف بالحرام لحرمته ، فلا يفعل فيه شيء لم يؤذن فيه .

وعند ابن عباس وسعيد بن جبير رضي الله عنهما ، المشعر الحرام هو ما بين جبلي مزدلفة ، قال في روح المعاني للعلامة الألوسي : والمشهور أن المشعر مزدلفة كلها فقد أخرج وكيع وسفيان وابن جرير والبيهقي وجماعة عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ، أنه سئل عن المشعر الحرام ، فسكت حتى إذا هبطت أيدي الرواحل بالمزدلفة ، قال : هذا المشعر الحرام .

نقول : الذي نفهمه نحن من قوله تعالى : ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ أن المراد بالمشعر الحرام جميع حدود مزدلفة التي ينزل بها الحجاج ليلة النحر بعد إفاضتهم من عرفات ، ثم إن سنية الوقوف بعد صلاة

الصبح إلى الإسفار بجبل قزح بمزدلفة للذكر والدعاء مسألة أخرى ، فمن دفع من مزدلفة إلى منى بعد صلاة الصبح ولم يقف بجبل قزح فلا شيء عليه مطلقاً .

ويدل على هذا ما صح عن علي رضي الله عنه ، «أنه ﷺ لما أصبح بجمع أتى قزح فوقف عليه وقال: هذا قزح وهو الموقف وجمع كلها موقف» والمراد بكلمة «جَمْع» بفتح الجيم وإسكان الميم مزدلفة .

وقُزَحَ بضم القاف وفتح الزاي ، ويوافقه ما في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه «أنه ﷺ لما صلى الصبح بمزدلفة ركب ناقته القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ودعا الله وهلله وكبره ، ولم يزل واقفاً حتى أسفر جداً» .

فالوقوف والدعاء بعد صلاة الصبح على جبل قزح أمر آخر ، فمن تركه لا شيء عليه ، وهو الوقوف الأصغر تشبيهاً بالوقوف الأكبر بعرفات ، وتوديعاً لهذا المكان الحرام .

روى الإمام الأزرقي في كتابه «أخبار مكة» قال ابن جريج : قال محمد بن المنكدر : أخبرني من رأى أبا بكر الصديق رضي الله عنه واقفاً على قزح ، وقال ابن جريج : قلت لنافع مولى ابن عمر : أين كان يقف ابن عمر بجمع كلما حج؟ قال : على قزح نفسه ، لا ينتهي حتى يتخلص فيقف عليه مع الإمام كلما حج . اهـ ، فمن لم يتمكن من صعود الجبل وقف بجنبه.

وذكر الأزرقي في الكتاب المذكور موضع نزول النبي ﷺ بمزدلفة فقال : عن ابن جريج قال : قال لي عطاء : بلغني أن النبي ﷺ كان ينزل ليلة جمع في منزل الأئمة ، وليلة جمع يعني دار الإمارة التي في قبلة مسجد مزدلفة .

ويظهر من روايات الأزرقي عند ذكر المزدلفة وحدودها... إلخ، أنه كان بمزدلفة قليل من الدور كدار الإمارة وبيوت ابن الزبير والله أعلم.

أما مسجد مزدلفة وفيه المنارة فهو بوسط مزدلفة تقريباً ، وربما كان أقرب إلى جبل قزح، وهو مبني على أرض مستوية في الظاهر والحقيقة أنه مبني على ربوة صغيرة غير مرتفعة ، ولذلك ارتفع جداره عن الأرض بنحو قامة ، وردم داخله بالحجارة والأتربة ليستوي داخله فلا تظهر فيه نتوءات الربوة وانخفاضاتها ، فصار المسجد بذلك مرتفعاً عن وجه الأرض .

أما إيقاد منارة المسجد سابقاً بالقناديل والسرج والأتاريك، وفي أيامنا هذه إيقادها بالكهرباء ليلة الثامن والتاسع والعاشر من ذي الحجة فليس ذلك بمستحدث، وإنما هو جرياً على العادة القديمة من قبل الإسلام في الإيقاد بمزدلفة كما سنتكلم عن ذلك في غير هذا المحل بعنوان «الإيقاد بمزدلفة».

نقول: لقد اختلف الناس اليوم عامتهم وخاصتهم في جبل قزح فلا أحد يعرفه بالضبط، فمنهم من يقول: هو موضع المسجد، ومنهم من يقول: هو جبل آخر غير المسجد، ومنهم من يقول: هو الجبل الصغير الواقع في وسط المزدلفة.

ولقد بحثنا عن ذلك كثيراً وسألنا عنه كثيراً، فخرجنا من ذلك بنتيجتين هما إلى الصواب أقرب إن شاء الله تعالى وإليك رأينا:

(النتيجة الأولى) أن موضع مسجد مزدلفة ليس هو جبل قزح بيقين، لأن المسجد ليس على جبل، وإنما هو مبني على أرض صخرية مرتفعة، ولا يبعد أن يكون موضع المسجد هو مكان نزول النبي ﷺ بمزدلفة ومحل مبيته، فلما صلى الصبح فيه ركب ناقته وأتى إلى قزح فوقف عليه، فقد جاء في تاريخ الأزرقي بصحيفة (١٥٥) عن عطاء قال: بلغني أن النبي ﷺ كان ينزل ليلة جمع في منزل الأئمة -الآن ليلة جمع يعني دار الإمارة- التي في قبلة مسجد مزدلفة. انتهى كلامه.

ودليلنا على أن مسجد مزدلفة ليس على جبل قزح هو أن الإمام الأزرقي المولود بمكة في القرن الثاني للهجرة، قال بصحيفة (١٥١) من الجزء الثاني في تاريخه: وذرع ما بين مؤخر مسجد مزدلفة من شقه الأيسر إلى قزح أربعمائة ذراع وعشرة أذرع، فقول الأزرقي صريح أن موضع المسجد غير موضع جبل قزح.

(والنتيجة الثانية) أن جبل قزح هو الجبل الصغير الواقع على يسار مسجد مزدلفة للمتوجه إلى مكة، وهذا الجبل سهل الطلوع للراجل والراكب، لصغره وانخفاضه وبسطته، ليس فيه نتوءات ولا صخر ولا أحجار.

ودليلنا على أن جبل قزح هو على يسار مسجد مزدلفة للمتوجه إلى مكة ما ذكره الأزرقي في تاريخه في صحيفة (١٥١) من الجزء الثاني، حيث يقول في عبارته المتقدمة: «وذرع ما بين مؤخر مسجد المزدلفة من شقه الأيسر إلى قزح أربعمائة ذراع وعشرة أذرع» فيعلم من صريح هذه العبارة أن جبل قزح على

يسار المسجد، وقول الإمام الأزرقي أكبر حجة، لأنه من أهل القرن الثاني للهجرة، فهو قريب عهد بصدر الإسلام، كما يعلم من صريح قوله أن مسجد مزدلفة قديم العهد ليس بحديث وإنْ تعدد بناؤه وعمارته، وقد ذكر رحمه الله تعالى ذرع هذا المسجد ووصفه في زمانه.

البناء الذي كان على قزح

لما كان جبل قزح بالمزدلفة قد وقف عليه رسول الله ﷺ، بنى الناس عليه بناية صغيرة من قديم الزمن للدلالة عليه، لكن مع الأسف الشديد ليس عليه في زماننا هذا بناء ولا علامة، لذلك لم يعرف الناس موضعه.

قال الإمام الأزرقي المولود بمكة في القرن الثاني للهجرة في تاريخه، في صحيفة (١٥١) من الجزء الثاني ما نصه: «وقزح عليه أسطوانة من حجارة مدورة، تدوير حولها أربعة وعشرون ذراعاً، وطولها في السماء اثنا عشر ذراعاً، فيها خمس وعشرون درجة، وهي على أكمة مرتفعة كان يوقد عليها في خلافة هارون الرشيد بالشمع ليلة المزدلفة، وكانت قبل ذلك توقد عليها النار بالحطب ... إلخ». انتهى من الأزرقي.

وقال الحافظ الطبري في كتابه «القرى لقاصد أم القرى» في صحيفة (٣٨٠) ما نصه: وقزح بضم القاف وفتح الزاي ثم حاء مهملة: موضع من المزدلفة، وهو موقف قريش في الجاهلية، إذ كانت لا تقف بعرفة، وقال الجوهري: قزح اسم جبل بالمزدلفة.

ثم قال الطبراني: قلت: وقد بني عليه بناء، فمن تمكن من الرقي عليه رقى، وإلا وقف عنده مستقبل القبلة، فيدعو ويكبر ويهلل ويوحد، ويكثر من التلبية إلى الإسفار، ويستحب أن يدعو بدعاء ابن عمر المتقدم في فصل ركعتي الطواف وباب السعي.

ولا ينبغي أن يفعل ما تطابق عليه الناس اليوم من النزول بعد الوقوف من درج في وسطه ضيقة، يزدحم الناس على ذلك حتى يكاد يهلك بعضهم بعضاً، وهو بدعة شنيعة، بل يكون نزوله من حيث رقيه من الدرج الظاهرة الواسعة.

وقد ذكر ابن الصلاح في منسكه: أن قزح جبل صغير في آخر المزدلفة ثم قال بعد ذلك: وقد استبدل الناس بالوقوف على الموضع الذي ذكرناه، الوقوف على بناء مستحدث في وسط المزدلفة ولا تتأدى به هذه السنة والله المستعان. هذا آخر كلامه، والظاهر أن البناء إنما هو على الجبل كما تقدم ذكره ولم أر ما ذكره لغيره.

انتهى من كتاب القرى للطبري.

واعلم أن الوقوف على جبل قزح بالمزدلفة أمر يرجع عهده إلى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، فقد روى الأزرقي في تاريخه، في صحيفة (١٣) من الجزء الأول، كيفية حج إبراهيم ﷺ بابنه إسماعيل ومن معه من مسلمي جرهم، فقال بعد أن ذكر ذلك: ثم بات بمزدلفة حتى إذا طلع الفجر صلى بهم صلاة الغداة، ثم وقف به على قزح من مزدلفة وبمن معه، وهو الموقف الذي يقف به الإمام، حتى إذا أسفر غير مشرق دفع به وبمن معه يريه ويعلمه كيف ترمى الجمار... إلخ، انتهى من الأزرقي.

وروى فيه أيضاً في صحيفة (١٢٢) ما يأتي: ... فإذا جاؤا عرفة أقاموا بها يوم عرفة، فتقف الحلة على الموقف من عرفة عشية عرفة، وتقف الحمس على أنصاب الحرم من نمرة، فإذا دفع الناس من عرفة وأفاضوا أفاضت الحمس من أنصاب الحرم، وأفاضت الحلة من عرفة حتى يلتقوا بمزدلفة جميعاً، وكانوا يدفعون من عرفة إذا طفلت الشمس للغروب، وكانت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم، فإذا كان هذا الوقت دفعت الحلة من عرفة، ودفعت معها الحمس من أنصاب الحرم، حتى يأتوا جميعاً مزدلفة فيبيتون بها، حتى إذا كان في الغلس وقفت الحلة والحمس على قزح، فلا يزالون عليه حتى إذا طلعت الشمس وصارت على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم، دفعوا من مزدلفة وكانوا يقولون: أشرق ثبير كيما نغير أي أشرق بالشمس حتى ندفع من المزدلفة. فأنزل الله في الحمس: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ يعني عرفة والناس الذين كانوا يدفعون منها، أهل اليمن وربيعة وتميم، فلما حج النبي ﷺ خطب الناس بعرفة فقال: "إن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون من عرفة إذا صارت الشمس على رؤوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوههم، وإنا لا ندفع من عرفة حتى تغرب الشمس، ويحل فطر الصائم، وندفع من مزدلفة غداً إن شاء الله

قبل طلوع الشمس، هدينا مخالف لهدى أهل الشرك والأوثان". انتهى من تاريخ الأزرقي.

الإيقاد بمزدلفة

الإيقاد بمزدلفة أمر قديم، يرجع عهده إلى قصي بن كلاب، وكان الإيقاد بالحطب، لكن لم نرَ من تكلم عن سبب الإيقاد بمزدلفة دون عرفات، والذي نراه والله تعالى أعلم هو أن قريشاً كانت تقف بالمزدلفة ولا تقف بعرفات، وذلك ترفعاً أن يقفوا مع القبائل التي تقف بعرفات.

ودليلنا على ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس... الآية﴾ ومكان إفاضة الناس عرفة لا مزدلفة.

ذكر الإمام الأزرقي في تاريخه عن عبدالله بن خارجة عن أبيه قال: لما أفضى سليمان ابن عبدالملك ابن مروان من المأزمين نظر إلى النار التي على قزح، فقال لخارجة بن زيد: يا أبا زيد، من أول من صنع هذه النار ههنا؟ قال خارجة: كانت في الجاهلية وضعتها قريش، وكانت لا تخرج من الحرم إلى عرفة، تقول: نحن أهل الله، قال خارجة: فأخبرني رجال من قومي أنهم رأوها في الجاهلية وكانوا يحجون منهم حسان بن ثابت، في عدة من قومي قالوا: كان قصي بن كلاب قد أوقد بالمزدلفة ناراً، حيث وقف بها حتى يراها من دفع من عرفة.

وذكر الأزرقي أيضاً عن نافع عن ابن عمر قال: «كانت النار توقد على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم».

وذكر أيضاً عن غنيم بن كليب عن أبيه عن جده قال: «رأيت النبي ﷺ في حجته وقد دفع من عرفة إلى جمع والنار توقد بالمزدلفة، وهو يؤمها حتى نزل قريباً منها»، ثم كان يوقد عليها في خلافة هارون الرشيد بالشمع ليلة المزدلفة، ولما مات كانوا يضعون عليها مصابيح كباراً يسرج فيها بفتل جلال فكان ضوؤها

يبلغ مكاناً بعيداً ، ثم صارت اليوم توقد عليها مصابيح صغار وفتل رقاق ليلة المزدلفة . اهـ من الأزرقي .

ثم صار الإيقاد على المنارة بالقناديل بواسطة الزيت ، ثم لما ظهر غاز الاستصباح استبدلت القناديل الزيتية بالأتاريك ، وهي مصابيح غازية عظيمة الضوء جداً ، ولا يزال الأمر كذلك إلى الآن فتوضع جملة أتاريك ليالي الحج على منارة مسجد الخيف بمنى ومسجد مزدلفة ومسجد نمرة بعرفات وعلى جبل الرحمة أيضاً ، وإن شاء الله عما قريب ستنار كلها بالكهرباء بل لقد وصلت الكهرباء إلى منى .

والحقيقة أن إنارة المساجد الثلاثة في منى ومزدلفة وعرفات ليالي الحج لها كثير من الفوائد ، أهمها استبشار الحاج عند رؤيته لها من بُعْد واطمئنانه بانتهاء رحلته وقرب استراحته ، أقام الله شعائر الإسلام وأدامها إلى يوم القيامة وأعز الإسلام والمسلمين آمين .

مسجد مزدلفة

مسجد مزدلفة يقع على يمين الصاعد إلى عرفات من الطريق العام ، ويقع جبل قزح على يسار هذا المسجد للمتوجه إلى مكة ، بينهما أربعمائة ذراع وعشرة أذرع كما ذكره الأزرقي . والمسجد مبني في أرض مزدلفة في بقعة مرتفعة صخرية ، وبآخر المسجد محراب ، وبوسطه منارة يؤذن عليها ، وتوقد عليها السرج ليلة المزدلفة ، وبلصق المنارة بناء صغير ارتفاعه إلى نصفها ، ومدخله من باب المنارة من محل ما يؤذن الإنسان ، جعلت للصلاة والجلوس ، ويكفي لنحو عشرة أشخاص .

ولم يكن على هذا المسجد بناء محيط من قديم الزمان ، لكن في شهر ذي القعدة سنة (١٣٧٥) خمس وسبعين وثلاثمائة وألف ، أحيط المسجد بجدران مرتفعة من جميع جهاته ، ولهذا المسجد أربعة أبواب فقط ، بابان من الجهة الشمالية التي على الطريق العام ، وبابان من الجهة الجنوبية التي تواجه الجبل الذي وراءه .

وقد أخذنا قياس هذا المسجد في آخر شعبان سنة ألف وثلاثمائة وست وسبعين، فكان طوله ستين متراً ، وعرضه ثمانية وثلاثين متراً ، وارتفاع جداره عن أرض الطريق نحو أربعة أمتار .

انظر: صورة رقم ٢٥٩ ، مسجد المزدلفة
انظر: صورة رقم ٢٦٠ ، جانب من مسجد المزدلفة

ومسجد مزدلفة قديم العهد ، لكن يتجدد بناؤه وعمارته كلما احتاج إلى إصلاح ، فقد ذكره الإمام الأزرقي في تاريخه ، المولود بمكة في القرن الثاني للهجرة ، وذكر ذرعه وقياسه بصحيفة (١٥١) من الجزء الثاني بتفصيل تام ، كما ذكر بهذه الصحيفة موقع جبل قزح بالنسبة لهذا المسجد ، قال : وكان على هذا الجبل أسطوانة مبنية بالحجارة طولها اثنا عشر ذراعاً ، كان يوقد عليها ليلة المزدلفة .

وأما ما ذكره صاحب العقد الفريد كما سيأتي ، من أن قصي بن كلاب هو الذي بنى المسجد بمزدلفة فليس بصحيح ؛ فإن المساجد لم تكن معروفة قبل الإسلام ، ولكن قصي بن كلاب كان يقف بمزدلفة بجبل قزح ، ويوقد النار عليه ليراها الناس من بعد ، وهو أول من أوقد بمزدلفة للناس ، فربما أتى الوهم من هنا لصاحب العقد الفريد رحمه الله تعالى .

قال الغازي صحيفة (٣٧٨) : قال الفاسي في وصفه مزدلفة : وبها مسجد حول قزح وهو صغير مربع ليس بالطويل الحيطان ، طوله إلى جهة القبلة كذا وكذا... إلخ ثم قال: وفي قبلته محراب فيه حجر مكتوب فيه «إن الأمير بلبغا الخاصكي جدّد هذا المكان بتاريخ ذي القعدة سنة ستين وسبعمائة» . انتهى .

قال الغازي : وفي «مرآة الحرمين» : وفي سنة ٨٤٢ أمر السلطان جقمق الأمير سيدون بتعمير هذا المسجد ، وفي سنة ٨٧٤ في سلطنة قايتباي أمر أمير مكة الشريف محمد بن بركات بتبييضه ، وفي سنة ١٠٧٢ عمّره سليمان بك والي جدة من قبل السلطان محمد . اهـ .

قال المحب الطبري في شرح التنبيه : قزح ، بقاف مضمومة ثم زاي مفتوحة ثم حاء مهملة ، في وسط مزدلفة وقد بني عليه بناء من يمكنه الوقوف عليه وقف وإلا وقف عنده مستقبل القبلة ، ويكثر من التلبية ويدعو .

أما صفة البناء الذي على قزح الآن ، فإنه بناء مربع يشبه المنارة ... إلى آخر وصفه للبناء ، ثم قال : وكان اعتبار ما ذكرناه من ذرعه وصفته في ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثمانمائة بحضوري ، وصفته هذه تخالف صفته التي ذكرها الأزرقي ، واقتصرنا عليها لكونها أبلغ في تعريفه ، وما عرفت متى بني هكذا .

وبناه في الجاهلية قصي بن كلاب جد النبي ﷺ على ما ذكره ابن عبد ربه في «العقد الفريد» ، وأما خبر الوقيد عليه فإنهم كانوا يوقدون فيه بالشمع في خلافة الرشيد ، فلما مات كانوا يوقدون عليه بمصابيح كبار ، ثم صاروا يوقدون عليه بمصابيح صغار ، والأصل في استحباب الوقوف على قزح ، ما رويناه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه "أن النبي ﷺ لما أصبح بجمع أتى قزح فوقف عليه وقال : هذا قزح وهو الموقف وجمع كلها موقف" . انتهى من تاريخ الغازي .

هذا ولقد تكلمنا على جبل قزح وعلى المشعر الحرام وعلى الإيقاد بمزدلفة في هذا الكتاب ، فراجعها إن شئت.

انظر: صورة رقم ٢٦١ ، محراب مسجد مزدلفة

اقتراحنا بشأن مسجد مزدلفة

مما لا شك فيه أن جميع المساجد تكون محاطة بالجدران ، ولها باب أو أكثر يقفل ويفتح ، وهذا للمحافظة على ما بداخلها من الأشياء واللوازم ، من فراش وأدوات وضوء وقناديل وسرج وغير ذلك .

أما إذا كان المسجد في صحراء ، كمصلى الأعياد في خارج البلدة الذي لا يستعمل للصلاة إلا نادراً كصلاة العيد والاستسقاء ، وليس بداخله شيء مطلقاً يخشى من سرقته ، فهذا لا داعي لتسويره وتبويبه وإحاطته بالجدران .

لهذا نرى أنه من المستحسن إزالة ما تجدد من البناء بمسجد مزدلفة في عصرنا هذا ، لأن هذا البناء المرتفع يحجب الناس وهذا الحجيج الأعظم على من كان داخل المسجد ، فإن رؤية الناس بعضهم لبعض على صورة العبادة في فريضة الحج ، على ما فيها من الروعة والدهشة والجلال ، تبعث في النفس النشاط والإقبال على التلبية والتكبير والتهليل ، فللجماعة والاجتماع نشوة وفرحة وراحة للنفس لا تكون في الحالة الفردية .

وأيضاً أن وقت وجود الناس بمزدلفة هو ليلة واحدة في كل عام وهي ليلة عيد الأضحى ، وذلك بعد الدفع من عرفات ، فلا يستحسن البناء المرتفع وتسوير مسجد مزدلفة بحيث يحجب الناس من كان بداخله ، بل لا معنى لتسوير هذا المسجد بالذات من جميع جهاته ، والحال أنه واقع في الصحراء في خلاء مزدلفة ، وليس إلا رمال فقط فلا يخاف على شيء يسرق منه .

فعسى أن يتنبه لهذه المسألة المهمة أولو الأمر ، فيأمرون بإزالة السور المستحدث حول المسجد المذكور وإرجاعه إلى سابق عهده فيكون بدون تحليق ، وفي هذا من المصلحة ما لا يخفى، والله تعالى الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب .

انظر: صورة رقم ٢٦٢ ، القصر الملكي في مزدلفة

انظر: صورة رقم ٢٦٣ ، أحد صنابير المياه التي أعدتها الحكومة بمزدلفة لراحة الحجاج

عرفات

عرفات تكون ثالث منزل من منازل الحج بعد مكة المشرفة ، أو تكون هي أول منزل من منازل الحج باعتبار الوقوف بها .

فالوقوف بعرفات يكون في الحل ولا يكون في الحرم مطلقاً ، وقد بينا حدود عرفات بالتفصيل في كتابنا « إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة » المطبوع بمصر بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده .

ولا يوجد بعرفات غير مسجد نمرة وغير مسجد الصخرات .

عرفة والوقوف بها

قال الفاسي رحمه الله تعالى في كتابه « شفاء الغرام » ما نصه :

وأما تسميتها عرفة فلتعارف آدم وحواء فيها ، لأن آدم أهبط بالهند وحواء بجدة فتعارفا بالموقف ، قاله الضحاك .

وقيل: لأن جبريل عليه السلام ، عرف الخليل عليه السلام فيه المناسك يوم عرفة .

وقيل: الناس يعترفون فيها بذنوبهم .

وقيل : غير ذلك من الأقوال التي ذكرناها في أصل هذا الكتاب وهي تسعة أقوال . وا لله أعلم بالصواب .

وأما جمعها وصرفها فذكر جوازه جماعة من العلماء منهم النووي لأنه قال : وجمعت على عرفات وإن كان موضعاً واحداً ، لأن كل جزء منه يسمى عرفة ، ولهذا كانت معروفة كقصبات ، قال النحويون : ويجوز ترك الصرف ، كما يجوز ترك صرف غايات وأذرعات ، على أنها اسم مفرد لبقعة . اهـ . انتهى من شفاء الغرام .

نقول : إن ما ذكره العلامة الفاسي من الأقوال في تسمية عرفة ، إنما هو بحسب الظاهر ، والحقيقة التي ينبغي الاعتراف بها ، هي أن الأسماء لا تعلل ، فعرفة اسمها عرفة من قديم الأزمان .

وعرفات هي أشهر من نار على علم ، وكل من حج لا بد له أن يقف بعرفة لخبر : « الحج عرفة » فمن أحرم بالحج ووقف بعرفة فقد أدرك الحج وعليه إتمام بقية الأعمال ، ومن فاته الوقوف بعرفة فقد فاته الحج ، فلا يطالب ببقية الأعمال ، وإنما يطالب بالتحلل كما هو معروف في كتب الفقه .

وفضل يوم عرفة معروف فهو يوم عظيم فيه يتجلى ا لله تعالى على عباده الذين وقفوا به متجردين من الثياب والزينة ، يدعونه ويلبون ويستغفرونه ، يتجلى ا لله على هذا الجمع الغفير بالرحمة والغفران والعتق والإحسان ، وإنه تعالى ليباهي بهم الملائكة وهو الغني عن العالمين ، كل هؤلاء لا يرجون في ذلك اليوم إلا ا لله ، ولا يدعون إلا إياه ، نشيدهم الروحي «لبيك اللهم لبيك» ، وشعارهم الديني « لا إله إلا ا لله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » ، قد تركوا أوطانهم وفارقوا أولادهم ، وكشفوا رؤوسهم ونزعوا ثيابهم وأبدلوها بالإحرام الأبيض كالأكفان ، ووقفوا في صحراء عرفات وميدانه امتثالاً لأمر ا لله وابتغاءً لمرضاته . وفي يوم عرفة نزلت الآية الكريمة : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ .

ويعقب يوم عرفة يوم العيد الأكبر ، عيد الأضحى المبارك ، وكم وقف ويقف بعرفات من الأمم الماضية والآتية منذ وجود البيت الحرام إلى قيام الساعة ، والحق أن يوم عرفة ليوم عظيم ، فيه تسكب العبرات ، وتقال العثرات ، وترتجى الطلبات ، ويوم عرفة أعظم المجامع على وجه الأرض ، قد اختلط فيه الأبيض بالأسود

والصغير بالكبير والغني بالفقير والعالم بالجاهل والأمير بالخامل يدعون ربهم خوفاً وطمعاً .

والحق يقال أن الناظر في يوم عرفة إلى تلك الجموع المحتشدة الذين أتوا من كل فجٍ عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ، ليندهش اندهاشاً ويزداد إيماناً بالله الواحد القهار ، الذي له ما في السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى .

والمسافة بين مكة وعرفات نحو عشرين كيلو متراً ، وتقع في الحل لا في الحرم ، وعرفة ميدان واسع ، أرضه مستوية ، يحيط بميدانه سلسلة من الجبال الشامخة تشبه الدائرة ، ويقع على شماله جبل الرحمة ، وهو جبل صغير بالنسبة لما حوله من الجبال ، وأعلى هذا الجبل سطح مستو مبلط بالحجارة منذ قديم الزمن ، وبوسط سطحه علم مبني بالحجارة طوله نحو ثلاثة أمتار أو أربعة ، يعلق فيه ليلة عرفة جملة مصابيح.

وقد بنى الوزير الجواد الأصفهاني في منتصف القرن السادس للهجرة درجاً من أسفل هذا الجبل إلى سطحه لسهولة الصعود ، ولا فضيلة للوقوف على هذا الجبل « جبل الرحمة » في يوم عرفة ، فلا يسن الرقي عليه ذلك اليوم بل يكره ، ومن وقف عليه أجزأه ، فميدان عرفة كله موقف ، وجهلاء الحجاج يعتقدون أن الصعود على هذا الجبل واجب ، فيلزم على حضرات المطوفين التنبيه عليهم بأن الرقي عليه بدعة لا ينبغي فعله ، أما الصعود عليه بقصد النزهة وترويح النفس وحسن المنظر فلا بأس به شأنه شأن البقية الجبال.

وفي أسفل جبل الرحمة مسجد الصخرات ، وهو مسجد صغير محاط بجدار قصير ، وفي مكان هذا المسجد وقف رسول الله ﷺ عشية عرفة.

وبأسفل هذا الجبل مجرى عين زبيدة ، وعليه شاخص مثبت فيه بعض الأحجار المكتوبة من قديم الزمن ، وإن شاء الله تعالى سننقل نص الكتابات التي عليها عندما تسنح لنا الفرصة .

انظر: صورة رقم ٢٦٤ ، خريطة لعرفات في عهد الأتراك

قال صاحب كتاب « مرآة الحرمين » عن عرفة ما نصه :

ميدان عرفة وجبالها على بعد (٢١٤٧٦) متراً من باب المعلا بمكة ، تجد في طريق الطائف علمين هما حدود عرفة من جهة مكة وهما في الحل ، بعد العلمين المنصوبين على حدود الحرم بمسيرة (٢٥) دقيقة ، وعرفة ميدان واسع أرضه مستوية ، يبلغ نحو ميلين طولاً في مثلهما عرضاً ، وتحيط به سلسلة جبال على شكل قوس كبير ، ويمر بطرفي القوس من جهة الجنوب الطريق إلى الطائف ، وفي شماله جبل الرحمة المعروف عند الناس بجبل عرفات وإنما جبل عرفات ما أطاف بهذا الميدان ، وجبل الرحمة أصغر جزء فيه ، ويبلغ ارتفاع هذا الجزء ثلاثين متراً ، وطوله نحو (٣٠٠) متر ، وفي متوسط ارتفاعه مستوى طوله (١٥) متراً في عرض (١٠) أمتار ، به مسجد إبراهيم عليه السلام ، كما يقولون ، وفي قمة الجبل مستو واسع مبلط في وسطه مصطبة ، في ركنها الغربي علم مبنى كأعلام الحرم ، يعلق به جملة مصابيح يهتدي بها الناس ليلاً إلى موطن الجبل ، وقد تقدم تفصيل بعض ذلك في ص(٤٤) من الرحلة ، وبهذا الميدان يخيم الحجاج أيام عرفة ، وبه جملة مساجد وعدة أحواض وسوق ، ومجرى عين زبيدة يطيف بالميدان كما تطيف الجبال ، وقد قدمنا لك ذكر الأحواض ووصفها بالتفصيل ومقاسها في الرسم (٧٧) ، وفي ص(٢٠٨و٢٠٩) . وكذلك تكلمنا على مجرى عين زبيدة بعرفة ، وذكرنا الكتابات التي وجدناها بجبل الرحمة دالة على العمارات المختلفة في ص (٢١٤) و(٢١٥) ، وذكرنا أيضاً ما نقدناه هنالك من النظام والأعمال فلا داعي لذكره ، فارجع إليه إن شئت . اهـ من الكتاب المذكور .

لكن قوله : «وبه جملة مساجد» غير صحيح ، وهو سبق قلم من المؤلف رحمه الله تعالى ، فليس في ميدان عرفة غير مسجدين : «مسجد الصخرات» وهو بأسفل جبل الرحمة ، ومحل هذا المسجد هو موقف رسول الله ﷺ عشية عرفة.

و «مسجد نمرة» ويسمى مسجد عرفة ، وهو بأول الميدان للذاهب من مكة إلى عرفة ، خارج عن حدودها بعيد عن جبل الرحمة ، وهو الذي يصلي فيه الإمام بالناس يوم عرفة . فلا يوجد بعرفات غير هذين المسجدين من قديم الزمان ، ومسجد نمرة أقدم من مسجد الصخرات .

انظر: صورة رقم ٢٦٥ ، جانب من عرفات ويرى به جبل الرحمة

حدود عرفات

من أحسن ما كتب بالتفصيل عن حدود عرفات هو ما ذكره الإمام النووي رحمه الله تعالى في المجموع شرح المهذب بصحيفة (١٠٥) من الجزء الثامن، وهذا نصه:

وأما حد عرفات فقال الشافعي رحمه الله تعالى: هي ما جاوز وادي عُرَنة بعين مضمونة ثم راء مفتوحة ثم نون إلى الجبال القابلة مما يلي بساتين ابن عامر، هذا نص الشافعي وتابعه عليه الأصحاب.

ونقل الأزرقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حد عرفات من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبال عرفات إلى وَصِيق، بفتح الواو وكسر الصاد المهملة وآخره قاف، إلى ملتقى وصيق ووادي عرنة.

قال بعض أصحابنا: لعرفات أربع حدود:

(أحدها) ينتهي إلى جادة طريق المشرق.

(والثاني) إلى حافات الجبل الذي وراء أرض عرفات.

(والثالث) إلى البساتين، التي تلي قرية عرفات، وهذه القرية على يسار مستقبل الكعبة إذا وقف بأرض عرفات.

(والرابع) ينتهي إلى وادي عرنة.

قال إمام الحرمين: ويطيف بمنعرجات عرفات جبال وجوهها المقبلة من عرفات.

اعلم أنه ليس من عرفات وادي عرنة ولا نمرة ولا المسجد المسمى مسجد إبراهيم ويقال له أيضاً مسجد عرنة، بل هذه المواضع خارجة عن عرفات على طرفها الغربي مما يلي مزدلفة ومنى ومكة، هذا الذي ذكرته من كون وادي عرنة ليس من عرفات، لا خلاف فيه، نص عليه الشافعي واتفق عليه الأصحاب.

وأما نمرة فليست أيضاً من عرفات بل بقربها، هذا هو الصواب الذي نص عليه الشافعي في مختصر الحج الأوسط وفي غيره، وصرح به أبو علي البندنيجي والأصحاب، ونقله الرافعي عن الأكثرين.

قال : وقال صاحب الشامل وطائفة : هي من عرفات ، وهذا الذي نقله غريب ليس بمعروف ولا هو في الشامل ولا هو صحيح بل إنكار للحس ولما تطابقت عليه كتب العلماء .

انظر: صورة رقم ٢٦٦ ، الحجاج تحت جبل عرفات يبتهلون ويلبون

وأما مسجد إبراهيم فقد نص الشافعي على أنه ليس من عرفات ، وأن من وقف به لم يصح وقوفه ، هذا نصه وبه قطع الماوردي والمتولي وصاحب البيان وجمهور العراقيين .

وقال جماعة من الخراسانيين منهم الشيخ أبو محمد الجويني والقاضي حسين في تعليقه ، وإمام الحرمين الرافعي : مقدم هذا المسجد من طرف وادي عرنة لا في عرفات ، وآخره في عرفات ، قالوا : فمن وقف في مقدمه لم يصح وقوفه ، ومن وقف في آخره صح وقوفه .

قالوا : ويتميز ذلك بصخرات كبار فرشت هناك .

قال الشيخ أبو عمرو ابن الصلاح : وجه الجمع بين كلامهم ونص الشافعي أن يكون زيد في المسجد بعد الشافعي هذا القدر الذي ذكروه وا لله أعلم .

قلت: قال الأزرقي : في هذا المسجد ذرع سعته من مقدمه إلى مؤخره ، مائة ذراع وثلاثة وستون ذراعاً ، قال : ومن جانبه الأيمن إلى جانبه الأيسر من عرفة والطريق مائتا ذراع وثلاثة عشر ذراعاً ، قال : وله مائة شرفة وثلاث شرفات ، وله عشرة أبواب . قال : ومن حد الحرم إلى مسجد عرنة ألف ذراع وستمائة وخمسة أذرع . قال : ومن مسجد عرفات هذا إلى موقف النبي ﷺ ميل وا لله أعلم .

واعلم أن عرنة ونمرة بين عرفات والحرم ليستا من واحد منهما ، وأما جبل الرحمة ففي وسط عرفات ، فإذا علمت عرفات بحدودها ، فقال الماوردي : قال الشافعي : حيث وقف الناس من عرفات ، في جوانبها ونواحيها وجبالها وسهلها وبطاحها وأوديتها وسوقها المعروفة بذي المجاز أجزأه ، قال : فأما إن وقف بغير عرفات من ورائها أو دونها ، عامداً أو ناسياً أو جاهلاً بها فلا يجزئه ، وقال مالك : يجزئه وعليه دم وا لله أعلم .

انتهى من كتاب المجموع للنووي ، وهو أحسن ما كتب في حدود عرفات .

قال ابن حجر في حاشيته على الإيضاح : قال التقي الفاسي : وحد عرفة من هذه الجهة الآن أي جهة مكة بيّن وهو علمان بعد العلمين اللذين هما حد الحرم إلى جهة عرفة ، وكان ثمة ثلاثة أعلام فسقط واحد وبقي أثره مكتوباً عليه : إن الآمر بإنشائها بين منتهى أرض عرفة ووادي عرفة مظفر الدين صاحب إربل سنة خمس وستمائة . انتهى من الحاشية المذكورة .

وإربل : بلدة شهيرة من بلاد الأكراد ، وهي بلدة مؤلف هذا الكتاب ويقال لها إربيل ، وعوام الأكراد يسمونها : هَوْلِيرْ ، بفتح الهاء وسكون الواو وكسر اللام وياء بعدها ، وصاحبها الملك مظفر الدين رحمه الله ، أفرد له ابن خلكان ترجمة طويلة ، وقال عنه: إنه كان له في فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحداً فعل ذلك ما فعله ، ولم يكن في الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة ، وكان يقيم في كل سنة سبيلاً للحاج ، ويسيّر معه جميع ما تدعو حاجة المسافر إليه في الطريق ، ويسيّر صحبته أميناً معه خمسة أو ستة آلاف دينار ينفقها بالحرمين على المحاويج وأرباب الرواتب ، وله بمكة حرسها الله تعالى آثار جميلة وبعضها باق إلى الآن ، وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف ، وغرم عليه جملة كثيرة ، وعمر بالجبل مصانع للماء ، فإن الحجاج كانوا يتضررون من عدم الماء . توفي رحمه الله تعالى سنة ثلاثين وستمائة . اهـ .

وقد ذكرنا هذه الجملة لمناسبتها للمقام ، ومن أراد الوقوف على معرفة أحوال الأكراد وما لهم من مآثر وخدمات إسلامية ، فليراجع كتاب "تاريخ الكرد وكردستان" ، وكتاب "مشاهير الأكراد" وهما مطبوعان بمصر.

انظر: صورة رقم ٢٦٧ ، خيام الحجاج بعرفات

وصف وقوف الحجاج بعرفات

رأينا في كتاب البتنوني رحمه الله تعالى المسمى « بالرحلة الحجازية » وصف وقوف الحجاج بعرفة في زمانه ، وما اقترحه من العمل في عرفات ، فأحببنا نقله هنا ليظهر الفرق الكبير بين ما كانت عليه عرفات سابقاً وبين ما هي عليه اليوم ، وقد كان مؤلف الكتاب المذكور حج مع خديوي مصر « عباس حلمي باشا الثاني » في سنة (١٣٢٧) هجرية ألف وثلاثمائة وسبع وعشرين ، وهذا نص ما جاء في الرحلة الحجازية :

« الوقوف بعرفة » عند وصول الحجاج إلى هذا الوادي ، ينزل ركب المحملين « أي المحمل المصري والمحمل الشامي » بخيامهم قريباً من جبل الرحمة ، يليهما مضارب الحجاج على اختلاف أجناسهم ، وعلى سفح عرفة من عاليه إلى جبل الرحمة ، ترى حجيج الأعراب محتشدين إلى جوف الجبل ، بعضهم فوق بعض كالحجر المرصوص ، أما باقي الحجيج فإنه ينصب الخيام في بطن الوادي الذي يزدحم إليه الناس ، حتى لا تكاد ترى فيه مكاناً خالياً من واقف أو قاعد ، وجمالهم وحميرهم مربوطة بجوارهم ، وترى الكل في صعيد واحد ، حتى يتعذر على الإنسان السير إلى أي جهة أراد ولو لضرورة في نفسه ، ولو كان مولانا الشريف يأمر بتقسيم وادي عرفة إلى أحذية أفقية يقسمها شارع راس ، ويخصص كل حذاء لسكنى جماعة من الحجيج وجمالهم من ورائهم ، وتوضع لذلك علامات من البناء لا يتجاوزها الحجاج في وضع مضاربهم ، ولا الجمالة في ربط جمالهم ، ويعيّن لهذا النظام من يحفظه مع الدقة ، لكان له شكر الله والملائكة والناس أجمعين ، وفي سعة الوادي ما يضمن لدولته إقامة الكل على الراحة التامة ، لأن هذا التزاحم إنما سببه التقرب من مجرى الماء ومن السوق الذي تراه بجوار مسجد الصخرات، (ويباع فيه بعض الأغذية الضرورية)، وربما كان لتزاحمهم سبب آخر وهو خوفهم من الأعراب الذين يكون لهم من سعة هذا الرحاب عون على النهب والسلب وبسبب هذا التزاحم يضل الناس عن أمكنتهم إذا تركوها لأمر ما ، ولذلك تراهم ينادون على بعضهم إما بأسمائهم أو بألفاظ اصطلح عليها أهل كل جهة ، حتى إذا سمعها واحد منهم أجابه بصوت عال وقصد مصدر الصوت وهذه الحركة لا تكاد تنقطع مدة الإقامة بعرفة .

انظر: صورة رقم ٢٦٨ ، جبل عرفات وبجانبه محطة المياه ومخططات تقسيم الأراضي للحجاج والمطوفين

ويجدر بدولة مولانا الشريف إصدار أمره الكريم بالعناية التامة ، بملاحظة فتحات مجرى عين زبيدة ، وتعيين خدمة مخصوصين لها ، لا يدعون أحدًا من الحجاج يعبث بها أويغتسل فيها ، وخصوصاً أولئك المجذومين الذين يغتسلون في الحوض الذي يسمونه بحوض المجذومين ، زاعمين أن فيه شفاءهم ، وهم بعملهم هذا إنما يضرون إخوانهم المسلمين بنقل العدوى إليهم .

ولا يغرب عن فكره السامي أن علماء البكتريولوجيا ذهبوا إلى أن الماء هو أكبر موصل للعدوى، وخصوصاً في وباء الكلوليرا، نسأله تعالى السلامة لعباده.

ويوم الوقوف هو التاسع من ذي الحجة مع قليل من ليلة العاشر باتفاق المسلمين، فإذا ثبت هذا اليوم عند القاضي بالصفة الشرعية، وقف جميع المسلمين على اختلافهم في الجنسيات والمذاهب، من غير أن يكون للشك تأثير عليهم، إلاّ الشيعة من الأعجام، فإنهم لو حصل عندهم أدنى شك في رؤية هلال ذي الحجة، بمعنى أنه لم يشاهده منهم الجم الغفير، وقفوا يوم التاسع والعاشر احتياطاً.

وفي عرفة ترى الناس مشتغلين كل بشأنه، وهم وإن انفصلوا في هياكلهم، فإن قلوبهم مرتبطة ارتباط ذرات الجسم الواحد ببعضها، وبعد صلاة العصر يتحرك المحملان بحرسهما إلى منحدر جبل الرحمة، وينهض خطيب عرفة (وهو في الغالب قاضي مكة الذي يتعين من قبل السلطان) فيصعد بناقته من طريق حلزوني إلى صخرة في صدر هذا الجبل، ويخطب نيابة عن خليفة رسول الله ﷺ خطبة يعلم الناس مناسك الحج، ويكثر فيها من الدعاء والتلبية، ومن دونه مبلغون، بأيديهم مناديل يشيرون بها في كل تلبية إلى الواقفين دون الصخرة، فيقول الكل: «لبيك اللهم لبيك» بصوت يكاد يصعد بالأحشاء إلى عنان السماء، فيا لها من ساعة ترى الناس فيها قد تجردوا بالمرة عن أنفسهم، فلا يكادون يشعرون بما يحيط بهم من معالم الحياة، وقد تغلّب وجدانهم على وجودهم، وظهرت روحانيتهم على جسمانيتهم، حتى كأنهم في لباسهم الأبيض الطاهر النقي، ملائكة لله في هذا الوادي، الذي يردد أصواتهم وابتهالاتهم إلى واجب الوجود، إلى الملك المعبود، إلى الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فإذا تراجع إليهم صدى هذا الصوت، أحدث في نفوسهم هزة، تدق لها قلوبهم، وتضطرب منها أفئدتهم، خشية من رب الأرباب ومالك الرقاب، هنالك تسوخ النفوس في ظروفها، وتنكمش الجسوم على هياكلها، من رهبوت هذا الملكوت، وحشاشات القلوب تتصبب من آماق عيونهم أسفاً على ما اقترفوه من ذنوب وعيوب، وتتلاحق الأرواح إلى التعلق بأستار رحموت رحمانها، تائبة مستغفرة ضارعة إليه تعالى بقبولها في ساحة غفرانه، مؤملة في عظيم كرمه وإحسانه، ولا تلبث أن تتراجع، وهي على يقين

من قبولها في ساحة الرحيم الرحمن، وقد وقر في نفوس ذويها حب الفضيلة وبغض الرذيلة، وحسب الإنسان من فضيلة الحج هذه الحسنة الجميلة.

ويستمر الناس على هذه الحال، حتى إذا غابت الشمس في الأفق أطلق صاروخ من قبل الخطيب إعلاناً بتمام الموقف، عندها تتحرك المحامل بين ضروب المدافع وعزف الموسيقات وأصوات الابتهالات وكثرة الدعوات وانهمال العبرات، ويكون كل حاج قبل ذلك قد حمل رحله واستعد للإفاضة، فينفر الناس مرة واحدة من عرفات مسرورين هاتفين بهتاف الفرح والحبور، حتى إذا وصلوا إلى ذينك العلمين خرجوا من بينهما، وهناك ترى الزحام لا يوصف والناس في حركة هائلة إلى المزدلفة، فإذا وصلوها نزلوا بها، وأقام بها الحنفية إلى ما بعد صلاة الصبح، والشافعية إلى ما بعد نصف الليل، أما المالكية فحسبهم من الإقامة بها قدر ساعة، يجمعون فيها جمارهم من الحصى الموجود في أرضية واديها وهي تسع وأربعون حصاة في قدر الفولة، يتناولها الحاج من رمال تلك الصحراء الواسعة، ليرجم بها في منى التي ينزل إليها من ليلته.

انظر: الصور أرقام ٢٦٩ لأعلى جبل عرفات، و ٢٧٠ لأحد شوارع عرفات المؤدي إلى جبل الرحمة، و٢٧١ لغار نمرة بعرفات، والمؤلف واقفاً على بابه الكبير في (١٣٧٦هـ)

وأغلب الحجاج يقلدون مالكاً، ويسرعون في النزول إليها، حتى يجدوا لهم فيها مكاناً يقيمون به على راحتهم وفي صباح النحر وهو يوم العيد الأكبر، يكون عموم الحجاج وصلوا إلى منى، ويخيم المحمل المصري في شمال المصطبة، التي فيها مخيم الشريف، والمحمل الشامي إلى جوار مسجد الخيف، وهو مسجد كبير ذو فضاء واسع مربع، يحيط به سور متسع، وإلى حائطه الغربي رواق على طوله، قام سقفه على أعمدة من البناء.

وباب هذا المسجد إلى الشمال، وفي وسط صحنه تجاه الباب قبة كبيرة أقيمت على مكان يصلي الناس فيه، وهو المكان الذي صلى فيه رسول الله ﷺ، وبجوار هذه القبة مئذنة صغيرة بناها السلطان قايتباي سنة ٨٧٤، وبنى بجانب هذا المسجد داراً كان ينزل إليها أمير الحاج المصري، فاندثرت ولكن المسجد باق على حاله، إلا أنه يحتاج من داخل سوره وخارجه إلى عناية ذوي الشأن، حتى يكون نظيفاً بعيداً عن عبث العابثين، إن لم يكن لموجبات الدين فلموجبات

الصحة العمومية ، وخصوصاً في منى التي تكتب فيها صحيفة الحاج الصحية ، وتساق على أجنحة البرق إلى جميع الأقطار المسكونة .

وبمجرد وصول الحجاج إلى منى يقصدون من فورهم جمرة العقبة ، فيرمونها وينحرون ويحلقون أو يقصرون ، ثم يلبسون ملابسهم : وعندها يحل لهم كل شيء ما عدا النساء والطيب . وذبائح القربان تذبح في شرقي منى ، وتلقى في حفر تحفر هناك لهذا الغرض . وكلما امتلأت حفرة ، بجثث القرابين ، ردمت وحفرت غيرها . وهكذا ويكون لها ، بعد الحج ، رائحة كريهة جداً ، ولو كانت الحكومة تعتني بجمع ما يتراكم فيها من العظام مع ما يتخلف منها حول مكة ، وتبيعه لإحدى الشركات بجدة ، وتصرف ثمنه في تحسين طرق الحجاج ، ونظافة شوارع مكة ، لكان فيه فائدة كبيرة .

وقد طلبت شركات كثيرة التزام ذلك من الحكومة السابقة فلم يقبل طلبها . أما الحكومة الحالية فأظن أنها لا ترى مانعاً في ذلك ما دام في مصلحة البلاد .

ويقيم الحجاج بمنى ، إلى عصر اليوم الثالث عشر من ذي الحجة ، ثم ينزلون إلى مكة لأداء الركن الباقي من أركان الحج ، وهو طواف الإفاضة والسعي ، لمن لم يكن سعى بعد طواف القدوم . ومن الناس من ينزل إلى مكة أول يوم ، بعد رمي جمرة العقبة ، لاستكمال جميع مناسك الحج ، ثم يرجعون من يومهم إلى منى ، فيقيمون فيها مع إخوانهم ثاني وثالث أيام التشريق ، ويرجمون في كل يوم منها الجمرات الثلاث ، وفي عصر اليوم الثالث ينزلون إلى مكة . انتهى من الرحلة الحجازية .

انظر: الصور أرقام ٢٧٢ ، لجانب من خيام الحجاج بعرفات وخزانات المياه المتوفرة لراحة الحجاج ، و ٢٧٣ لنجل المؤلف بملابس الإحرام بعرفات، و ٢٧٤ لعين سبيل الماء بعرفات بالقرب من مسجد نمرة والمؤلف واقفاً أمامه .

الوقوف بعرفات

اعلم أن الوقوف بعرفات في الحج يشبه محشر يوم القيامة ، كما أن النوم يشبه الموت والاستيقاظ منه يشبه البعث والنشور والقيام من القبور . فالوقوف بعرفات هو المحشر الأصغر ، ولقد كتبناه في كتابنا المطبوع المسمى "إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة". ونحن ننقل ما كتبناه فيه هنا تتميماً للفائدة العامة .

أما دعاء يوم عرفة فقد ذكرناه في غير هـذا المحل ، وإليـك مـا جـاء في كتابنـا المذكور :

يسـن للحـاج أن يكـثر بعرفـة مـن الدعـاء والذكـر والتلبيـة وقـراءة القـرآن والاستغفار والتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ، وأفضل الدعاء ما راوه الـترمذي وغيره ، عن رسول ا لله ﷺ أنه قال : « أفضل الدعاء يوم عرفة ، وأفضـل مـا قلـت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا ا لله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهـو على كل شيء قدير » .

وفي كتاب الترمذي عن علي ، رضي ا لله عنه ، قال : « أكثر مـا دعـا بـه ﷺ يوم عرفة في الموقف : اللّهم لك الحمد كالذي نقول ، وخيراً مما نقول ، اللهـم لـك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك ما بي ولك ربي تراثي ، اللّهم اني أعوذ بك من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر ، اللّهم إني أعوذ بـك مـن شـر مـا تجيء به الريح » . وليدع لنفسـه ووالديه وأقاربـه وشـيوخه وأصحابـه وسـائر مـن أحسن إليه ، وسائر المسلمين الأحياء منهـم والأمـوات ، وليحـذر مـن التقصـير في ذلك ، فإن يوم عرفة يوم عظيم قد لا يمكن تداركه ، وفيه تسكب العبرات وتقـال العثرات وترتجى الطلبات ، فإنـه لمجمـع عظيـم ، بـل إنـه أعظـم المجـامع علـى وجـه الأرض ، كيف لا وقد اجتمع من المسـلمين مـن مشـارق الأرض ومغاربهـا سـائر الشعوب والأمم ، من مختلف الأجناس واللغات ، أتوا من كل فج عميق ووقفوا في يوم واحد ، في مكان واحد ، محرمين علـى هيئـة واحـدة ، وفي لحظـة واحـدة ، قـد تركوا الأوطان والعمارات ، ووقفوا بصحراء عرفات يسـكبون العـبرات ، اختلـط بعضهم ببعض ، لا فرق بـين الأمـير والحقـير، والغـني والفقـير والمـالك والمملـوك ، والأبيض والأسود ، شعارهم « لبيك اللهـم لبيـك ، لبيـك لا شـريك لـك لبيـك » كل واحد لا يرجو ذلـك اليـوم غـير ا لله ولا يطلـب إلا رحمتـه ورضـاه ، بخشـوع وخضوع وذلة وافتقار ، مخلص لـه الديـن ولـو كـره الكـافرون ، حقـاً إنـه لموقـف عظيم ومحشر كبير وبرهـان سـاطع علـى عظمـة ا لله تعـالى وجلالـه ، وأن الملـك والملكوت لله الواحد القهار ، وأنه جل شأنه يتجلى على عباده ذلك اليوم بـالمغفرة والرحمة والعتق من النار ، ويباهي بهم الملائكـة ، ففـي صحيـح مسـلم : أن رسـول ا لله ﷺ قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق ا لله تعالى فيه عبداً من النـار مـن يـوم عرفة ، وأن يباهي بهم الملائكة يقول : ما أراد هؤلاء؟ » .

وروى أحمد والطبراني: أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة يقول: أنظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً» وقال عليه الصلاة والسلام: «ما رؤي الشيطان أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا أن الرحمة تنزل فيه فيتجاوز عن الذنوب العظام» نسأل الله الحي القيوم أن يتقبل منا صالح الأعمال، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه وأن يتغمدنا برحمته في الدنيا والآخرة، إنه بعباده لطيف خبير. اهـ.

انظر: صورة رقم ٢٧٥، أحد صنابير الماء بعرفات والحجاج يستقون ويغتسلون

الحج ووصف الوقوف بعرفات

ذكرنا في كتابنا المطبوع المسمى «إرشاد الزمرة لمناسك الحج والعمرة» أسرار الحج ومزاياه، ورأينا أن نذكر شيئاً من ذلك هنا تكملة للفائدة، وإليك بعض ما جاء فيه:

يرتبط الحج بالكعبة المعظمة منذ بنائها الأول، فهو لذلك من الأمور الدينية القديمة العهد جداً، وقد حج كثير من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكان أهل الجاهلية يحجون ويقفون بعرفات ويبيتون بمزدلفة ويمكثون بمنى، وكانوا يصنعون للحجاج طعاماً أيام الموسم بمكة ومنى، ولما حج سيدنا يونس عليه السلام كان يؤثر عنه: «لبيك كاشف الكرب لبيك».

ولئن كان الحج خامس أركان الإسلام في الترتيب كما جاء في الحديث الشريف «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت» كما في رواية ابن عمر فإنه جامع لمعانيها كلها، كذلك الإسلام فإنه أتى آخراً ولكنه جمع حقائق الأديان كلها، وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، كما يقول في كتابه العزيز: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ ويقول: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾.

وما كان الحج خامس الأركان ترتيباً إلا لكونه واجباً في العمر مرة على المستطيع، بخلاف الصلاة والزكاة والصيام فإنها تتكرر على الدوام إما يومياً وإما سنوياً، فالحج هو أكبر مؤتمر إسلامي دائر بدوران السنين والأعوام إلى يوم القيامة، وهو أوسع وأشرف مجمع ديني وأعظم وأفخم ناد صحراوي يعقد بأمر

إلهي وبوازع الإيمان القوي مرة كل عـام، وأعضـاء هـذا المؤتمـر الأكـبر هـم جميع المؤمنـين علـى اختـلاف طبقـاتهم وتنـوع شعوبهم وأممهـم ، لا فـرق بـين الكبـير والصغير ، والأمير والحقير ، والغني والفقير ، والعـالم والجـاهل والعـامل والعـاطل ، وكل منهم يشعر بـالوحدة العامـة ويهـدف إلى التمسـك بـالعروة الوثقـى الـتي لا انفصام لها .

ولقد كان الإفرنج والحكومات الأجنبية يتخوفـون ويهـابون الإسـلام لأمريـن خطيرين :

(الأول) الحج إلى بيت الله الحرام الذي هو بمثابة الوحدة الإسلامية التي تجمع كلمتهم وتقوي عزائمهم (والثاني) الخلافة وهي التي يستندون إليها ويرتبطون بها ويستظلون تحت لوائها ، فهي مركز سلطانهم ومصدر نفوذهم .

ولقد بسط الكلام عـن الحـج والخلافـة بمـا يشـفي الغليـل (المسـتر لـو ثـروب سنودارد الأمريكـي) في الفصـل الثـاني بعنـوان «الجامعـة الإسـلامية» مـن كتابـه «حاضر العالم الإسلامي» بتعليقات أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، فانظر إليه فإنه كتاب قيم جداً .

أما الخلافة فلا تتكلم عنهـا ، وأمـا الحـج فكيـف لا يخـافون منـه وهـو العـامل الأكبر في التعاون والتعـاضد والرابطـة أليـس يقـول الله تعـالى : ﴿ليشـهدوا منـافع لهم﴾ فأي منفعة أعظم وأكبر للمسلمين من تقوية الرابطة الدينية ؟ وربط الشعوب المختلفة بعضها ببعض الذين أتوا من كل فج عميق ، ففـي إطـلاق لفـظ المنـافع في الآية دليل واضح على تعميمها ، فيدخل فيها كل ما له منفعة للمسـلمين كـالأمور الوطنية والعلمية والثقافية والاجتماعية والإنسـانية والتجاريـة وغـير ذلـك ، والحـق يقال : إن الناظر في يوم عرفة إلى تلك الجموع المحتشدة ، وإلى ذلـك البحـر الزاخـر من المسلمين الذين أتوا يوحدون الله ويلبون دعاءه من مشارق الأرض ومغاربها ، ومن مختلف الأجناس واللغات ، لينده‍ش اندهاشاً ويستغرب عجبـاً ، ويـزداد إيمانـاً با لله تعالى وبقدرته وعظمته «وما راءٍ كمن سمعا» .

فلئن شرعت صلاة الاستسقاء باجتماع الناس بأطفالهم ودوابهم وحيواناتهم، لإنـزال القطـر والمطر ، ولئـن جعلـت أيضـاً صـلاة الجمعـة فرضـاً لوعـظ النـاس وإرشادهم لأمور دينهم ودنياهم ، فإن يوم عرفة لأعظم مـن الاستسـقاء والجمعـة، وهو أفضل الأيام على الإطـلاق ، ولذلـك كـان صبيحـة ليلتهـا هـو العيـد الأكـبر

للمسلمين في جميع الأقطار، وكيف لا يكون كذلك والله عز شأنه يتجلى على هذا الجمع الغفير من الأمة المحمدية بالرحمة والغفران والفضل والإحسان والعتق من النار، بل حتى يباهي بهم الملائكة، ذلك يوم اختلط فيه العربي بالعجمي والأبيض بالأسود، والحيوان بالبشر، وصار كل واحد يدعو الله مخلصاً بقلبه، سائلاً له بلسانه ولغته، ساكباً من العبرات والدموع ما يبلغه أعلى مراتب الخضوع والخشوع، كلهم في ذلك اليوم لا يرجون إلا الله، ولا يدعون إلا إياه، نشيدهم الروحي «لبيك اللهم لبيك» وشعارهم الديني «لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»، قد تركوا أوطانهم وفارقوا أولادهم، وكشفوا رؤوسهم، ونزعوا ثيابهم وأبدلوها بالإحرام الأبيض كالأكفان، ووقفوا في ذلك الفضاء الواسع، امتثالاً لأمر الله وابتغاء لمرضاته.

مسجد نمرة بعرفات

مسجد نمرة بفتح النون وكسر الميم ويجوز إسكان الميم مع فتح النون أو كسرها، هو مسجد معروف بعرفة، وفيه يستحب للإمام أو نائبه أن يخطب يوم عرفة في وقت الظهر للناس يبين لهم كيفية الوقوف وشرطه وآدابه، ونمرة موضع قرب عرفات وليس منها، ومثلها وادي عرنة، وعرفات واقعة أمامهما.

قال النووي: نمرة موضع معروف بقرب عرفات خارج الحرم، بين طرف الحرم وطرف عرفات.

وقال الفاسي: هو الموضع الذي يؤمر الحاج بنزوله إذا توجه من منى في يوم عرفة، وهو بطن عرنة بالنون على ما ذكره ابن خليل في منسكه.

وعرنة بالنون قال الفاسي: وهو الموضع الذي يستحق للحاج التجنب فيه من الوقوف، وهو بين العلمين اللذين هما حد عرفة والعلمين اللذين هما حد الحرم من هذه الجهة، وقد اختلف فيه فقيل: إنها من الحرم، وهذا يروى عن ابن الحبيب المالكي. وقيل: إنها من عرفة، ومذهب الشافعي أنها ليست من عرفة. اهـ.

وقد نص الشافعي على أن مسجد إبراهيم (مسجد نمرة) ليس من عرفات، وأن من وقف به لم يصح وقوفه وبه قطع بعضهم.

وقال جماعة منهم الرافعي: مقدم هـذا المسجد من طرف وادي عرنة لا في عرفات، وآخره في عرفات، قالوا: فمن وقف في مقدمه لم يصح وقوفه، ومن وقف في آخره صح وقوفه. انتهى.

وهناك أعلام لعرفات في الحد الغربي تفصل بينها وبين وادي عرنة وقفت عليها أنا وفضيلة الشيخ عبدالله بن عمر ابن دهيش رئيس المحاكم الشرعية بمكة المكرمة، وابنه عبدالملك، وابنه عبد اللطيف وصورتها، وفضيلة الشيخ واقف عندها. انظر الصورتين الآتيتين.

انظر: صورة رقم ٢٧٦، مسجد نمرة من الداخل

انظر: صورة رقم ٢٧٧، مسجد نمرة من الخارج

ومسجد نمرة يقال له مسجد عرنة بضم العين وفتح الراء، ومسجد إبراهيم أيضاً نسبة إلى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، كما هو صريح كلام الأزرقي في غير موضع، وجزم به الرافعي والنووي.

وإلى هذا جنح الفاسي في كتابه «شفاء الغرام» فإنه قال فيه ما نصه:

ويقال لهذا المسجد «أي مسجد عرفة» مسجد إبراهيم، وإبراهيم المنسوب إليه هذا المسجد هو الخليل عليه السلام كما يقتضيه كلام الأزرقي في غير موضع، وجزم به الرافعي والنووي.

وأنكر ذلك القاضي عز الدين بن جماعة قال: وليس لذلك أصل، وخطأ الشيخ جمال الدين الأستاذان الرافعي والنووي فيما ذكراه من نسبة هذا المسجد للخليل عليه السلام، وذكر أن ابن سراقة سبقهما إلى هذا الخطأ في كتابه الإعداد.

وفيما ذكره الأسنوي وابن جماعة نظر لمخالفته ما يقتضيه كلام الأزرقي وهو عمدة في هذا الشأن، كيف وقد وافقه عليه غير واحد من كبار العلماء ومنهم ابن المنذر فيما نقله عنه سليمان بن خليل. والله تعالى أعلم.

انتهى كلام الفاسي في نسبة المسجد إلى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

نقول: إن كلا الفريقين لم يستدل على دعواه في نسبة المسجد إلى سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أو عدمه، ونحن نذهب مع من قال أن مسجد إبراهيم نسبة إلى خليل الرحمن إبراهيم ﷺ.

ونستدل على ذلك بما ذكره الأزرقي في تاريخه في الجزء الثاني عند الكلام على ذرع ما بين مزدلفة إلى عرفة ومأزميها ومسجدها ؛ فإنه رحمه الله تعالى بعد أن ذكر قياس مسجد عرفة ووصفه قال في آخره ما نصه :

قال أبو الوليد «يعني الأزرقي نفسه» : ومن حد الحرم إلى مسجد عرفة ألف ذراع وستمائة وخمسة أذرع ، ومن نمرة وهو الجبل الذي عليه أنصاب الحرم على يمينك إذا خرجت من مأزمي عرفة تريد الموقف ، وتحت جبل نمرة غار أربعة أذرع في خمسة أذرع ، ذكروا أن النبي ﷺ كان ينزله يوم عرفة حتى يروح إلى الموقف، وهو منزل الأئمة إلى اليوم .

والغار داخل في جدار دار الإمارة في بيت الدار ، ومن الغار إلى مسجد عرفة ألفا ذراع وأحد عشر ذراعاً ، ومن مسجد عرفة إلى موقف الإمام عشية عرفة ميل . يكون الميل خلف الإمام إذا وقف وهو حيال جبل المشاة . انتهى كلام الأزرقي .

وحبل المشاة المذكور هنا ، هو صخرة الال الذي في بطن مسجد الصخرات التي بقرب جبل الرحمة ، وهو الذي وقف عليه الصلاة والسلام عنده على ناقته عشية عرفة ، قال النويري : الحبل بالحاء المهملة من أسماء الرمال وهو ما استرق من الرمل .

وقال الأزرقي في موضع آخر في تاريخه عن ابن جريج قال : سألت عطاء: أين كان رسول الله ﷺ ينزل يوم عرفة ؟ قال: بنمرة منزل الخلفاء إلى الصخرة الساقطة بأصل الجبل عن يمينك وأنت ذاهب إلى عرفة ، يلقى عليها ثوب يستظل به ﷺ . انتهى من الأزرقي .

انظر: صورة رقم ٢٧٨ ، مسجد نمرة بعرفات

فعلم من كلام الإمام الأزرقي هنا -وهو إمام أقواله معتمدة لقرب زمنه بعهد النبي ﷺ لأنه مولود في القرن الثاني من الهجرة- أن النبي ﷺ كان ينزل في يوم عرفة في الغار الذي تحت جبل نمرة الذي هو أربعة أذرع في خمسة أذرع ، فتكون مساحته عشرين ذراعاً ، ثم يذهب من هذا الغار إلى الموقف بعد أن تميل الشمس ، وأن ذرع ما بين هذا الغار ومسجد عرفة «أي مسجد إبراهيم» ألفا ذراع وأحد عشر ذراعاً أي نحو ألف متر .

إذا فهمنا ذلك علمنا فيما يظهر من نزول النبي ﷺ في هذا الغار، ثم خروجه إلى الموقف يوم عرفة، إنما هو اقتداء بمن كان قبله من الأنبياء، وهم اقتداء بخليل الله إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، حيث إنه هو الذي أمره الله عز شأنه أن يؤذن في الناس بالحج، وأراه جبريل عليه السلام المواقف والمشاعر كلها، حتى إن إبراهيم عليه السلام لما حج بابنه إسماعيل وبسكان الحرم من جرهم وصل بهم إلى نمرة، حتى إذا مالت الشمس جمع بين الظهر والعصر هنالك، ثم راح بهم إلى الموقف بعرفة كما ذكره الأزرقي.

وموقفه وموقف جميع الأنبياء عشية عرفة هو نفس موقف نبينا محمد ﷺ وعليهم أجمعين، أي في موضع مسجد الصخرات بقرب جبل الرحمة.

فإن قيل: سلمنا أن إبراهيم الخليل أو نبينا محمداً عليهما الصلاة والسلام نزلا في غار جبل نمرة، ولكن لم يكن هنالك في زمنهما مسجد حتى ينسب إلى إبراهيم الخليل؟

نقول: لا يخفى أن من السنة للحاج أن يخرج من مكة يوم التروية وهو ثامن ذي الحجة إلى منى، فيصلي بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وأن يبيت بها ويصلي الصبح في اليوم التاسع وهو يوم عرفة، فإذا طلعت الشمس على جبل ثبير سار من منى إلى عرفات، فإذا وصل إلى نمرة وهي بقرب عرفات وليس منها «أي في جهات مسجد نمرة وقبله بقليل» جلس بنمرة وصلى الظهر والعصر مجموعتين، ثم يسير من نمرة إلى عرفات للوقوف بها، فكأن النزول في وادي نمرة الذي هو قبيل عرفات إنما هو للاستراحة وأداء صلاة الظهر والعصر فيه تأهباً واستعداداً للوقوف بعرفة.

فعليه لا يبعد أن إبراهيم أو نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهما صلى الظهر والعصر في موضع مسجد نمرة بعد أن ضُرب لكل منهما قبة أو خيمة ليستظل تحتها، ، ثم سار بعد ذلك إلى عرفات للوقوف بها، فاتخذ الناس موضع مصلاه بنمرة مسجداً والله تعالى أعلم بالغيب.

ولم نقف على من بنى مسجد نمرة أول مرة، لكن قال الفاسي في شفاء الغرام عن ذلك ما يأتي:

ولم يذكر الأزرقي الوقت الذي بني فيه هذا، وذكر ابن عبد البر أنه بني هذا المسجد بعد مصير الأمر لبني هاشم بعشر سنين، هكذا نقله عن ابن عبد البر الشيخ

خليل، في توضيحه على مختصر ابن الحاجب، وبه فسر قوله: وإنما حدث بعد بني هاشم بعشر سنين، لأنه يوهم أنه حدث بعد انقراضهم، وعلى هذا يكون بني هذا المسجد في أوائل عشر الخمسين ومائة والله تعالى أعلم.

انتهى من شفاء الغرام للفاسي.

وقال ابن فهد في حوادث سنة أربع وسبعين وثمانمائة وفيها عمّر مسجد نمرة بعرنة المعروف بمسجد إبراهيم وأنشئ له رواقان عظيمان بصدر القبلة برسم الظل للحاج.. ثم ذكر بالتفصيل التام عمارة المسجد، فانظر إن شئت في تاريخ الغازي، وهذه العمارة من عمارة السلطان قايتباي. كما ذكره القطبي في تاريخه بصحيفة (١٩٦).

ولقد حصلت عدة عمارات في مسجد نمرة بعرفات في عصور مختلفة منذ نشأة بنائه لأول مرة في حدود سنة مائة وخمسين من الهجرة كما مرّ، ولم نقف على عدد ما حصل فيه من العمارات ولكن ذكر المؤرخون أن الجواد الأصفهاني عمّره في سنة (٥٥٩) تسع وخمسين وخمسمائة، وعمّره السلطان جقمق (٨٤٣) ثلاث وأربعين وثمانمائة، على يد الأمير سيدون أو سودون، وعمّره السلطان قايتباي سنة (٨٧٤) أربع وسبعين وثمانمائة، وعمّر في زمن السلطان محمد سنة (١٠٧٢) اثنتين وسبعين وألف على يد والي جدة سليمان بك.

نقول: وفي عصرنا هذا حصلت في مسجد نمرة ترميمات وإصلاحات، فإنه في سنة (١٣٨٣هـ) حصلت في مسجد نمرة عمارات وزيد في مساحته، ولقد ذكر الإمام الأزرقي بصحيفة (١٥١) من الجزء الثاني من تاريخه، وصف هذا المسجد بالتفصيل كما ذكر وصفه أيضاً الفاسي في شفاء الغرام بصحيفة (٣٠٥) لم ننقل ذلك الوصف حتى لا يطول بنا الكلام.

ونحن قد أخذنا قياس هذا المسجد في آخر شعبان (١٣٧٦) ألف وثلاثمائة وست وسبعين من الهجرة فكان كالآتي:

طول هذا المسجد مائة متر، وعرضه ثمانون متراً، وفيه باب واحد من جهة القبلة، وخمسة أبواب من الجهة الشرقية.

أنظر: صورة رقم ٢٧٩، مسجد نمرة بعرفات

انظر: صورة رقم ٢٨٠، مسجد الصخرات بعرفات

مسجد الصخرات بعرفة

مسجد الصخرات بعرفة معروف وهو بأسفل جبل الرحمة، على يمين الصاعد إلى الجبل من الدرجات المبنية فيه. وهو مسجد مرتفع عن الأرض قليلاً، وبه محراب واحد، يحيط به جدار صغير جداً، وفيه صخرات كبار، وعند هذه الصخرات وقف رسول الله ﷺ عشية عرفة على ناقته القصواء.

قال شيخنا، شارح «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم» عند حديث: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت.. الخ» ما نصه: (وقوله): ثم ركب القصواء، هي بفتح القاف وبالمد وخطأ القاضي عياض ضم القاف مع القصر، والقصواء هي ناقته ﷺ التي كان لا يقدر على حمله حين نزول الوحي عليه سواها، ويقال لها الجدعاء والعضباء، قال في قرة الأبصار:

وكان لا يحمله إن نزلا	عليه وحي غيرها ونقلا
إن اسمها الجدعاء والعضباء	فقد ترادفت لها الأسماء

وترادف الأسماء لها، هو الذي تدل عليه الأحاديث خلاف ما قاله ابن قتيبة من عدم الترادف (قال النووي): قال محمد بن إبراهيم التيمي التابعي وغيره: وإن العضباء والقصواء والجدعاء اسم لناقته واحدة كانت لرسول الله ﷺ. انتهى من الكتاب المذكور.

ومسجد الصخرات غير مسقوف، في وسطه جدار يقسمه إلى قسمين بالعرض، يمتدمن فتحة مدخله الذي على يمين مستقبل القبلة إلى الفتحة المقابلة للأولى الذي على يسار المستقبل.

وأرض المسجد فيها عدة صخار لكن بعضها مطمور في الرمل، وبعضها ظاهر. فالقسم الأول من المسجد أعلى بقليل من القسم الثاني، وفي هذا القسم يوجد المحراب، وفي كل من القسمين أربعة صخور ظاهرة.

والمسجد محاط بجدران قصيرة من الجهات الأربع، فالجدار الذي فيه المحراب طوله ١٣ متراً وربع المتر، والجدر الذي على يمين مستقبل القبلة طوله ٨ أمتار، ومثله الجدر المقابل له على اليسار، أما الجدر مقابل للقبلة في ظهر المسجد، فهو دائري غير مستقيم، بمعنى أنه يدور على الصخرات البارزة من الأرض.

قال الأزرقي : وموقف النبي ﷺ عشية عرفة ، بين الأجبل النبعة والنبيعة والنابت ، وموقفه منها على النابت وهي الظراب التي تكتنف موضع الإمام والنابت عند النشزة التي خلف موقف الإمام وموقفه ﷺ على ضرس من الجبل النابت مضرس بين أحجار هنالك ناتئة في الجبل ، الذي يقال له ألال بعرفة على يسار طريق الطائف، وعن يمين الإمام وله يقول نابغة بني ذبيان:

بمصطحبات من لصاق وثبرة　　　يزرن الالاً سيرهن التدافع

اهـ .

قال في القاموس: النبعة والنبيعة كجهينة موضعان بعرفات . وقال أيضاً: ذات النابت موضع بعرفات قال في معجم البلدان : ألال جبل عرفة نفسه .

قيل إنه سمي: الالا لأن الحجيج إذا راده الوأي اجتهد ليدركوا الموقف . انتهى.

لصاف بوزن قطام ، وثبرة ماء إن بناحية الشواجن في ديار ضبة . كذا في معجم البلدان .

انظر: صورة رقم ٢٨١ ، المؤلف وهو على مسجد الصخرات بعرفات

وجاء في تاريخ الخميس عند ذكر حجة الوداع ، بعد أن ذكر خطبة النبي ﷺ قال: ثم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرة وجعل حبل المشاة بين يديه ، فوقف مستقبل القبلة ، وكان يوم الجمعة ، وكان واقفاً إذ نزل عليه : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم... الآية﴾ . انتهى منه .

قوله: حبل المشاة هو صخرة ألال ، قالوا: والوقوف عند هذه الصخرات هو موقف جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قال النويري رحمه الله تعالى في كتابه « نهاية الأرب في فنون الأدب » : الحبل بالحاء المهملة من أسماء الرمال وهو ما استرق من الرمل . اهـ .

يقول مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردي المكي الخطاط غفر الله تعالى له ولوالديه ولكافة المسلمين آمين : إن مسجد الصخرات لا بناء فيه غير ما يحيط به من جدار قصير ، نحو نصف قامة من الأرض ، وفيه محراب صغير وقد كبس المسجد بالرمل بقدر ارتفاعه عن الأرض لتتساوى أرضه حيث فيها عدة صخار ولا تزال إلى اليوم ظاهرة فيه ، غير أنه لا يعرف موقف النبي ﷺ فيه بالضبط وما ذكره الإمام الأزرقي كان يعرفه رجال زمانه .

وعرفة كلها موقف، والوقوف في موقف رسول الله ﷺ أو ما حوله أولى وأفضل، ولم يقف عليه الصلاة والسلام في هذا المكان إلا لقربه من جبل الرحمة، الذي بوسط عرفات تقريباً، ولسهولة الوقوف على هذه الصخرات الصغار، وليرى من أمامه من المسلمين المؤمنين فتقر عينه بهم. والله تعالى أعلم.

ولا يطلب الصعود على جبل الرحمة ولا الوقوف عليه يوم عرفات، وإن ما اعتاده جهلاء الحجاج من التسابق في الوقوف على هذا الجبل هو خطأ لا مزية بينهم وبين من وقف في فسيح الأرض، وليس فيه إلا زيادة التعب عليهم، وإن من ظن أن الوقوف لا يصح بدون الرقي على جبل الرحمة فهو مخطئ وظنه في غير محله. فينبغي إفهام الحجاج ذلك وتعليمهم مسائل الحج على الوجه الصحيح، أما الصعود على جبل الرحمة للتنزه والاستراحة وترويحا لنفس فليس فيه شيء مطلقاً. أما نسبة المسجد إلى الصخرات فهي معقولة لأن فيه صخرات عديدة.

وأما ما يقال أن النبي ﷺ صلى فيه، فأعتقد أن هذا غير صحيح؛ لأنه ﷺ كان قد حج بين صلاتي الظهر والعصر في مسجد نمرة، ثم ذهب إلى عرفات ووقف على ناقته في موضع هذا المسجد، عند جبل الرحمة، فلم يصل فيه صلاة أبداً بل دفع عند الغروب إلى مزدلفة فجمع فيها المغرب والعشاء.

كما أعتقد أن البناء الذي أحيط به ذلك المكان، فاتخذه الناس مسجداً إنما هو محدث بعد الثلاثة القرون الأولى الفاضلة، كما أعتقد أن الناس بعد ذلك أحاطوا موضع وقوفه ﷺ بعرفات بجدار من الجهات الأربع ووضعوا فيه محراباً صغيراً إشارة للقبلة حفظاً واحتراماً لهذا الأثر الشريف والمحل المنيف وبمرور الزمن سمى الناس هذا الموضع بمسجد الصخرات.

كيفية الطلوع من مكة إلى عرفات

يطلع الناس من الحجاج وأهل البلاد من مكة إلى عرفات للحج بست وسائل:

١) قسم منهم يطلعون مشاة على الأقدام، إما لفقرهم أو ابتغاء زيادة الثواب.

٢) وقسم منهم يركبون الخيل والبغال والحمير.

٣) وقسم منهم يركبون العربات ذات عجلتين تجرها البغال وهذا نادر وقد بطل الآن .

٤) وقسم منهم يركبون النياق وتسمى بمصر «الهجن» جمع هجين ، ويسمى بالحجاز «الركاب» ، و «الدلائل» .

٥) وقسم منهم يركبون الجمال وعليها «الشقادف» و «الشباري» وهي نوع من الهوادج . وبعضهم يركبون الجمال بدون الشقادف والهوادج .

٦) وقسم منهم يركبون أنواع السيارات «الأوتومبيلات» .

وأما القسم الخامس وهم الذين يركبون الجمال المحملة بالشقادف فقد كان نصف الحجيج من أهل البلاد والغرباء يطلعون من مكة إلى عرفات بهذه الوسيلة وكذلك كان الحجاج يأتون من جدة إلى مكة ، ومنها إلى المدينة بهذه الوسيلة أيضاً ثم بطلت بظهور السيارات التي ذكرناها فكنت ترى مكة من اليوم الخامس من ذي الحجة ممتلئة شوارعها وطرقاتها وأزقتها بالشقادف ، كل واحد يخرج شقدفه أمام بيته ومحله ، فيصلحه ويستره ويزينه حتى إذا حان وقت الطلوع إلى عرفات جاءت الجمال مع البدو والعرب من كل حدب وصوب حتى لا ترى موضعاً خالياً بمكة من السهل والجبل إلا وقد امتلأ من الشقادف والجمال والجمّالة ، فسبحان مالك الملك ذو الجلال والإكرام .

إن من رأى العهد الماضي والعهد الحاضر مثلنا ليعجب أشد العجب أين ذهبت تلك الجمال التي لا تعد ولا تحصى ، وكيف كانت عين زبيدة تكفيها وتكفي هذا الحجيج العظيم مع أن الجمال تشرب أكثر من بني آدم .

والآن قد خلفت الجمال التي تسمى «سفينة الصحراء» هذه السيارات المختلفة الأحجام والأشكال والله سبحانه وتعالى أعلم ماذا سيكون في المستقبل وماذا يأتي به الزمان من العجائب . وليس ببعيد أن تحل سكة الحديد محل السيارات من مكة إلى عرفات في الحج ، أو يطلع الناس إلى عرفات بالطائرات أو القاذفات الصاروخية فيصلون إليها في دقيقة واحدة أو في لمح البصر ، ومن يكن في الأزمان المقبلة سيتذكر قولنا هذا فالملك لله الواحد القهار .

اللهم عمّر قلوبنا بنور الإيمان والمعرفة ، واشرح صدورنا لطاعتك ، وارزقنا القوة للقيام بالأعمال الصالحات ، وأصلح منا النيات ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين آمين يا رب العالمين .

والشقادف هو نوع من الهوادج ، وهي مستعملة من قديم الزمان . قال عنها ابن جبير ، في رحلته التي كانت سنة (٥٧٨) من الهجرة عند كلامه على وقوف الحجاج بعرفات ، ما يأتي :

ولهم أيضاً في مراكبهم على الإبل قباب تظلهم ، بديعة المنظر عجيبة الشكل ، قد نصبت على محامل من الأعواد يسمونها الشقاوات ، وهي كالتوابيت المجوفة ، هي لركابها من الرجال والنساء كالأمهدة للأطفال ، تملأ بالفرش الوثيرة ، ويقعد الراكب فيها مستريحاً كأنه في مهاد لين ، فسيح ، وبإزائه معادله أو معادلته في مثل ذلك من الشقة الأخرى ، والقبة مضروبة عليهما ، فيسار بهما وهما نائمان لا يشعران بشيء أو كيف ما أحبا ، فعندما يصلان إلى المرحلة التي يحيطان بها ، ضرب سرادقها للحين، إن كانا من أهل الترفة والتنعم ، فيدخل بهما إلى السرادق وهما راكبان ، وينصب لهما كرسي ينزلان عليه ، فينقلان من ظل قبة المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ولا خطفة شمس تصيبهما ، وناهيك من هذا الترفيه فهولاء لا يلقون لسفرهم وإن بعدت شقته نصباً ، ولا يجدون على طول الحل والترحال تعباً ودون هؤلاء في الراحة راكبو المحارات ، وهي شبيهة الشقادف التي تقدم وصفها في ذكر صحراء عيذاب ، لكن الشقادف أبسط وأوسع ، وهذه أضم وأضيق وعليها أيضاً ظلائل تقي حر الشمس ، ومن قصرت حاله عنها في هذه الأسفار فقد حصل على نصب السفر الذي هو قطعة من العذاب . انتهى .

وقال ابن جبير أيضاً في مكان آخر من رحلته : الشقاديف وهي أشباه المحامل، وأحسن أنواعها اليمانية ، لأنها كالأشاكيز السفرية ، مجلدة متسعة يوصل منها الإثنان بالحبال الوثيقة ويوضع على البعير ، ولها أذرع قد حفت بأركانها ، يكون عليها مظلة فيكون الراكب فيها مع عديله من كن من لفح الهاجرة ، ويقعد مستريحاً في وطائه ومتكئه ، ويتناول مع عديله ما يحتاج إليه من زاد وسواه ، ويطالع متى شاء المطالعة في مصحف أو كتاب ، ومن شاء ممن يستجيز اللعب بالشطرنج أن يلاعب عديله تفكهاً وإحجاماً لنفس لاعبه ، وبالجملة فإنها مريحة

من نصب السفر وأكثر المسافرين يركبون الإبل على أحمالها ، فيكابدون من مشقة سموم الحر عنتاً ومشقة .

أما القسم السادس الأخير ، يكاد يكون ثلاثة أرباع هذا الحجيج الأعظم والربع الباقي يدخل فيه جميع الأقسام الخمسة المتقدمة لأن المملكة السعودية ما شاء الله قد امتلأت بالسيارات بكل أنواعها و لم تدخل هذه السيارات إلى البلاد إلا بعد أن تولى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى على الحجاز ، وذلك سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة وحين دخول السيارات للحجاز كانت الجمال التي تمشي في داخل البلدة أو خارجها سواء كان ليلاً أو نهاراً إذا رأتها جفلت منها وخرجت من صفوفها وهي محملة فهربت يميناً أو شمالاً فما ألفتها إلا بعد مدة شيئاً فشيئاً .

أما قبل هذه السنة المذكورة فلم يكن ببلاد الحجاز كلها إلا سيارة واحدة فقط ، وكانت ملكاً لشريف مكة جلالة الملك الأسبق الشريف الحسين بن علي رحمه الله تعالى ، و لم يكن يستعملها إلا نادراً في وقت نزوله إلى جدة وفي غير ذلك كان يركب الخيل .

اختراع السيارات واستعمالها

لما ظهر الأوتومبيل قامت حوله القيامة ، وأجمع الكبير والصغير على أنه خطر على المارة والأمن وحدث أن الإمبراطور أورليان عندما دخل أنطاكيا يحمل أكاليل الظفر لم يجرؤ علي ركوب عربته خشية الرأي العام . ولقد ظل بعض كبار الأغنياء بمصر زمناً طويلاً يترددون في استعمال العربات والأوتومبيلات وداموا يمتطون ظهور الحمير البيضاء المقصوصة الشعر ، المكسوة سرجها بالقطيفة الحمراء ، يخترقون شوارع المدينة الكبرى فيقف لهم الناس إجلالاً على الجانبين ، ويقولون : إن ظهر الدابة أكثر وجاهة وأعز جانباً وأرفع مقاماً من متكآت العربة ومساند الأوتوموبيل ، وإن خطورة الحمار الهادئة ، ومشيته الوئيدة الناعمة أصح للمعدة والأمعاء من رجة السيارة وسرعتها الخاطفة وصعودها وهبوطها وحركاتها البهلوانية الشيطانية وجموحها الذي لا يكبح .

درج جبل الرحمة بعرفات

الدرج التي عملت بجبل الرحمة بعرفات هي درج غير منتظمة يبلغ عددها نحو ٩٠ درجة ، ويختلف ارتفاع الواحدة منها عن الأخرى . وعلى يمين الصاعد منها على الجبل في منتصفه تقريباً ، مسطح مستو ، به مصلى ذو قبلة ، هذا المصلى والدرج بناهما الوزير محمد بن علي المنصور المعروف بالجواد الأصفهاني سنة٥٥٩ .

ذكره الغازي في الجزء الأول بالصحيفة التابعة لصحيفة (٣٧٦) نقلاً عن «مرآة الحرمين» .

العثور على بئر قديمة بعرفات

قال الغازي في الجزء الثالث من تاريخه : وفي شهر ربيع الثاني سنة ١٣٤٦ست وأربعين وثلاثمائة وألف عثرت إدارة لجنة عين زبيدة على آثار بئر قديمة في جبل عرفات ، فرفع العمال الأتربة والحجارة الموجودة فيه ، فظهر آثار ماء . والبئر المذكورة منقورة بين الصخور ، ويقدر قطرها بسبعة أمتار ، أما عمقه فثلاثة وعشرون متراً ، وقد وجد بين الأتربة حجر منقوش عليه ما نصه :

لا إله إلا الله عز شأنه

بسم الله الرحمن الرحيم

أدام الله مولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين أمر الأمير الأصفهسلار الكبير مظفر لدين بن زين الدين ، رضي الله عنه ، بإبداع هذه البئر في موقف عرفة ومهبط الرحمة ، منهلاً لحاج بيت الله الحرام ، ومسبلاً محبساً على كافة المسلمين عامة، ابتغاء رضاه الله تعالى وطلباً للثواب ، في أيام عدل مولانا الأمير الشريف أمير الحرمين عز الدين أبي عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن الحسني خلدالله ملكه ، والمتولي على عمارة البئر العبد الفقير إلى الله تعالى عمر بن إبراهيم بن خلكان غفر الله له وعبدالعزيز بن أبي بكر الأربلي وقمر الدين الحلبي في سنة سبعة وستمائة . انتهى من الغازي.

عين زبيدة

ماء مكة وعين زبيدة

لقد تكلم كثير من المؤرخين عن الماء في مكة ، وقد أحببنا نقل ما ذكره المؤرخ العلامة الشيخ عبدالله الغازي المتوفى سنة (١٣٦٥) خمس وستين وثلاثمائة وألف في تاريخه المسمى «إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام» فإنه ذكر في الجزء الأول من تاريخه في الباب السابع عند ذكر العيون والبرك والآبار والسقاية ما نصه :

قال أبو الوليد الأزرقي رحمه الله تعالى : كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قد أجرى في الحرم عيوناً ، واتخذ لها أخيافاً ، فكانت حوائط وفيها النخيل والزرع .

(منها) حائط الحمام وله عين ، وهو من حمام معاوية الذي هو بالمعلاة إلى موضع بركة أم جعفر ، وذلك الموضع الساعة يقال له حائط الحمام ، وإنما سمي حائط الحمام لأن الحمام كان من أسفله ، وكان له مشرع يرده الناس .

(ومنها) حائط عوف موضعه من زقاق خشبة دار مبارك البركي ودار جعفر بن سليمان ، وهما اليوم من حق أم جعفر ، ودار مال الله وموضع الماجلين ، ماجلي أمير المؤمنين هارون ، الذي بأصل الحجون ، فهذا كله موضع حائط عوف إلى الجبل . وكانت له عين تسقيه ، وكان فيه النخل وكان له مشرع يرده الناس.

(ومنها) حائط يقال له الصفى ، موضع من دار زينب بنت سليمان ، التي صارت لعمرو مسعدة ، والدار التي فوقها إلى دار العباس بن محمد ، التي بأصل نزاعة الشوى ، وكانت له عين وكان له مشرع يرده الناس . يقول فيه الشاعر:

سكنوا الجزع جزع بيت أبي   موسى إلى النخل من صفى السباب

(ومنها) حائط يقال له حائط مورش ، ومورش كان قيماً عليه في موضع دار محمد بن سليمان بن علي ودار لبابة بنت علي ودار ابن قثم اللواتي بفم شعب الخوز. وكان فيه النخل ، وكانت له عين ومشرع يرده الناس إلى اليوم. وكان فيه النخل والزرع حديثاً من الدهر على طريق منى وطريق العراق .

(ومنها) حائط خرمان ، وهو من ثنية أذاخر إلى بيوت جعفر العلقمي ، وبيوت ابن أبي الرزام وماجله قائم إلى اليوم . وكان فيه النخل والزرع حديثاً من الدهر ، وكانت له عين ومشرع يردها الناس .

(ومنها) حائط مقيصرة ، وكان موضعه نحو بركتي سليمان بن جعفر إلى قصر أمير المؤمنين المنصور أبي جعفر . وكانت له عين ومشرع وكان فيه النخل .

(ومنها) حائط حراء وضفيرته قائمة إلى اليوم ، وكان فيه النخل ، وكان له مشرع يرده الناس .

(ومنها) حائط ابن طارق بأسفل مكة ، وكانت له عين تمر في بطن وادي مكة تحت الأرض ، وكانت له عين ومشرع ، وكان فيه النخل .

(ومنها) حائط فخ وهو قائم إلى اليوم .

(ومنها) حائط بلدح فهذه العيون العشرة أجراها معاوية ، رضي الله عنه واتخذها بمكة واتخذت بعد ذلك ببلدح عيون سواها ، منها : عين سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص ببلدح وهي قائمة إلى اليوم ، وحائط سفيان والخيف الذي أسفل منه وهما اليوم لأم جعفر.

وكانت عيون معاوية تلك قد انقطعت وذهبت ، فأمر أمير المؤمنين الرشيد بعيون منها ، فعملت وأحييت وصرفت في عين واحدة ، يقال لها الرشاد ، تسكب في الماجلين ، اللذين أحدهما لأمير المؤمنين الرشيد ، بالمعلاة ، ثم تسكب في البركة التي عند المسجد الحرام ثم كان الناس بعد قطع هذه العيون ، في شدة من الماء . وكان أهل مكة والحاج يلقون من تلك المشقة ، حتى أن الراوية لتبلغ في الموسم عشرة دراهم وأكثر ، فبلغ ذلك أم جعفر بنت أبي الفضل جعفر بن أمير المؤمنين المنصور، فأمرت في سنة أربع وتسعين ومائة بعمل بركتها ، التي بمكة ، فأجرت لها عيناً من الحرم ، فجرت بماء قليل ، لم يكن فيه ريّ لأهل مكة ، وقد غرمت من ذلك غرماً عظيماً فبلغها ، فأمرت جماعة من المهندسين أن يجروا لها عيوناً من الحل ، وكان الناس يقولون : إن ماء الحل لا يدخل الحرم ، لأنه يمر على عقاب وجبال ، فأرسلت بأموال عظام ، ثم أمرت من يزن عينها الأولى ، فوجدوا فيها فساداً ، فأنشأت عيناً أخرى إلى جانبها ، وأبطلت تلك العيون ، فعملت عينها هذه بأحكم ما يكون من العمل ، وعظمت في ذلك رغبتها ، وحسنت نيتها ، فلم تزل تعمل فيها حتى بلغت ثنية خل ، فإذا الماء يظهر في ذلك الجبل ، فأمرت بالجبل

فضرب فيه ، وأنفقت في ذلك من الأموال ما لم يكن تطيب بها نفس كثير من الناس، حتى أجراها الله عز وجل لها ، وأجرت فيها عيوناً من الحل منها : عين من المشاش واتخذت لها بركاً تكون السيول إذا جاءت تجتمع فيها ، ثم أجرت لها عيوناً في حنين، واشترت حائط حنين ، فصرفت عينه إلى البركة ، وجعلت حائطه سداً يجتمع فيه السيل ، فصارت لها مكرمة ، لم تكن لأحد قبلها ، وطابت نفسها بالنفقة فيها ، بما لم تكن تطيب نفس أحد غيرها به ، فأهل مكة والحاج إنما يعيشون بها بعد الله عز وجل.

البرك التي أمر ببنائها أمير المؤمنين المأمون العباسي

ثم أمر أمير المؤمنين المأمون صالح بن العباس في سنة عشرة ومائتين أن يتخذ له بركاً في السوق خمساً ، لئلا يتعنا أهل أسفل مكة والثنية وأجيادين والوسط إلى بركة أم جعفر ، فأجرى عيناً من بركة أم جعفر من فضل مائها في عين تسكب في بركة البطحاء عند شعب ابن يوسف وجه دار ابن يوسف ، ثم يمضي إلى بركة عند الصفا ، ثم يمضي إلى بركة عند الخياطين ، ثم يمضي إلى بركة بفوهة سكة الثنية ، دون دار أويس ، ثم يمضي إلى بركة عند سوق الحطب بأسفل مكة ، ثم يمضي في سرب ذلك إلى ماجل أبي صلاية ، ثم إلى الماجلين الذين في حائط ابن طارق ، بأسفل مكة ، وكان صالح بن العباس لما فرغ منها ، ركب بوجوه الناس إليها ، فوقف عليها ، حين جرى فيها الماء، ونحر عند كل بركة جزوراً وقسم لحمها على الناس . انتهى .

قال ابن فهد : وبلغ ذلك ، أي أمر البرك ، أم جعفر زبيدة ، فأتاها أمير مكة صالح بن العباس ، فسلم عليها ، فلامته في أمر البرك ، التي عملت في سنة عشر ، وقالت : هلا كتبت إليّ حتى كنت أسأل أمير المؤمنين أن يجعل ذلك إليّ ، فأنفق فيها كما أنفقت في البركة التي عملتها حتى أستتم ما نويت في أهل حرم الله . فاعتذر إليها صالح من ذلك . انتهى .

أول من اتخذ الحياض بعرفات وأجرى إليها الماء

وفي تحصيل المرام ، قال العلامة الحافظ ابن حجر في الإصابة ، في ترجمة عبدالله بن عامر بن كريز : إنه من عام حجه جمع العيون وصرفها في عين

واحدة . وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة ، وأجرى إليها ماء العين ، فبقي الناس براحة من جهة الماء في مكة وعرفة ، زمن الحج، واستمر الحال كذلك زمناً طويلاً ثم تخربت العيون ، التي كانت تصب في العين الواحدة ، التي صنعها عبدالله بن عامر ، وانقطع الماء عن أهل مكة وكان ذلك في أواخر زمن من دولة بني أمية . وأصاب الناس ، بعد قطعها ، شدة من قلة الماء ، حتى رجعوا إلى الشرب من الآبار ، فصاروا يجلبون الماء إلى مكة من الخارج ، واستمروا كذلك في أوائل دولة بني العباس إلى أن وفق الله تعالى أمير المؤمنين هارون الرشيد فأمر بإصلاح بعض العيون ، التي تخربت وانقطعت انتهى . ثم انقطعت هذه العيون ، وكان الناس بعد قطعها في شدة من قلة الماء ، وكان أهل مكة والحجاج يرون من ذلك مشقة ، حتى أنا لبدرة وهي القربة الصغيرة تبلغ عشرة دراهم أو أكثر ذكره القرشي.

إيصال زبيدة رحمها الله تعالى عين حنين إلى مكة

قال العلامة القطبي : فلما بلغ ذلك أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هارون الرشيد واسمها أمة العزيز وكان جدها المنصور يرقصها وهي طفلة ، ويقول : أنت زبيدة ، فاشتهرت بها . وكانت من أهل الخيرات ولها مآثر عظيمة إلى الآن ، منها : إجراء عين حنين إلى مكة المشرفة ، وصرفت عليها خزائن أموال إلى أن جرت إلى مكة وهي واد قليل الأمطار ، بين جبال سود عاليات خاليات من المياه والنبات وصفها الله تعالى بأنها واد غير ذي زرع ، فنقبت أم جعفر زبيدة الجبال إلى أن سلك الماء ، من أرض الحل إلى أرض الحرم وأنفقت على عملها ألف ألف وسبعمائة ألف مثقال من الذهب فلما تم عملها اجتمع المباشرون والعمال لديها وأخرجوا دفاترهم لإخراج حساب ما صرفوه ليخرجوا من عهدة ما تسلموه من خزائن الأموال .

وكانت في قصر عال مشرف على الدجلة فأخذت الدفاتر منهم ورمتها في بحر الفرات ، وقالت : تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقي عنده شيء من بقية المال فهو له ، ومن بقي له شيء عندنا أعطيناه وألبستهم الخلع والتشاريف فخرجوا من عندها حامدين شاكرين وكانت هذه العين ترد إلى مكة وينتفع الناس بها ، ومنبع هذه العين في ذيل جبل شامخ يقال له : طاد ، بالطاء المهملة والألف وبعدها دال مهملة ، من جبال الثنية من طريق الطائف . وكان يجري الماء إلى أرض ، يقال

لها حنين يسقى بها نخيل ومزارع مملوكة للناس، وإليها ينتهي جريان هذا الماء. وكان يسمى حائط حنين، يعني لبساتين حنين، وهو موضع غزا فيه النبي ﷺ المشركين وخبرها مذكور في كتب سير النبي ﷺ فاشترت زبيدة هذا الحائط وأبطلت تلك المزارع والنخيل وشقت له القناة في الجبال وجعلت لها الشحاحيذ «أي البرك» في كل جبل يكون ذيله مظنة لاجتماع الماء عند الأمطار، وجعلت فيه قناة متصلة إلى مجرى هذه العين في محاذاتها يحصل منه المدد لهذه العين فصار كل شحاذ عيناً تساعد عين حنين: منها عين مشاش وعين ميمون وعين الزعفران وعين البرود وعين الطارقي وعين ثقبة والخريبات، وكل مياه هذه العيون تنصب في دبل عين حنين ويبطل بعضها ويزيد بعضها وينقص بحسب الأمطار الواقعة على أم إحدى هذه العيون أو على جميعها إلى أن وصلت على هذه الصورة إلى مكة المشرفة.

إيصال زبيدة رحمها الله تعالى عين نعمان إلى عرفات

ثم إنها «أي زبيدة» أمرت بإجراء عين وادي نعمان إلى عرفة، وهي عين منبعها ذيل جبل كرا، وهو جبل شامخ جداً، أعلاه أرض الطائف، فينصب منه في قناة إلى موضع يقال له الأوجر من وادي نعمان، وتجري منه إلى موضع بين جبلين شاهقين، في علو أرض عرفات، فيها مزارع فعملت القنوات إلى أن جرى ماء عين نعمان إلى أرض عرفات، ثم أديرت القناة بجبل الرحمة، محل الموقف الشريف الأعظم في الحج، وجعلت منها الطرق إلى البرك التي في أرض عرفات، فتملئ ماء يشرب منه الحجاج، في يوم عرفة، ثم استمر عمل القناة إلى أن خرجت من أرض عرفات إلى خلف جبل من وراء المأزمين على اليسار للعائد من عرفات يقال له: طريق ضاب، بالضاد المعجمة المفتوحة فالألف بعدها باء موحدة مشددة وتسمى الآن عند أهل مكة المظلمة بضم الميم ثم ظاء معجمة ساكنة فلام مكسورة ثم ميم مفتوحة ثم هاء التأنيث، ثم تصل منها إلى المزدلفة، ثم تصل إلى جبل خلف منى في قبليها، ثم تنصب في بئر عظيمة، مطوية بأحجار كبار جداً، تسمى هذه البئر بئر زبيدة، وإليه ينتهي عمل هذه القناة، وهي من الأبنية المهيلة مما يتوهم أنها من بناء الجن، وهو عمل زبيدة إلى هذه البئر، ثم تركتها. انتهى.

والقناة المذكورة قال عنها في «مرآة الحرمين» ما يأتي : وهذه القناة عرضها من الأعلى متر وقد تزيد، وفراغها من ٥٠ إلى ٦٠ سنتيمتراً ، وعمقها متر ونصف وارتفاع الماء في قاعها ٧٠ سنتيمتراً ، وقد يزيد ، وقد ينقص ، وهي مغطاة بأبنية الحجارة ، وبالغطاء فتحات لأخذ الماء منها ، عرضها ستون سنتيمتراً ، وتنقص أو تزيد ، والفتحات يتباعد بعضها عن بعض بمسافات مختلفة حسب الحاجة وسطح القناة تارة يكون مساوياً لسطح الأرض وتارة يرتفع عنها ، وقد يصل الارتفاع إلى سبعة أمتار وتارة تسير في تخوم الأرض على مقربة من سطحها أو أبعد اهـ . مرآة الحرمين .

انظر: صورة رقم ٢٨٢ ، مجرى عين زبيدة مأخوذة من كتاب «مرآة الحرمين» لإبراهيم رفعت باشا

وقال العلامة الفاضل السيد عبدالله بن السيد محمد صالح الزواوي ، في كتاب «بغية الراغبين وقرة عين أهل البلد الأمين» فيما يتعلق بعين الجوهرة السيدة زبيدة أم الأمين ، بعد ذكر قصة إجراء عين نعمان إلى أرض عرفة ، ثم أديرت القنوات بجبل الرحمة محل الموقف الشريف الأعظم في الحج ، وجعل فيها الطريق إلى البرك التي في أرض عرفات ، فتمتلئ ماء يشرب منه الحجاج يوم عرفة ، ثم استمر عمل القنوات متوجهاً إلى جهة الشام ، وهناك بازان اسمها فقير الذئب الأعلى . والمساحة من جبل الرحمة إليه ألف وثلاثمائة وثمانية وسبعون متراً ، وبعده بازان فقير الذئب الثاني ، والمساحة إليه أربعمائة وخمسة أمتار ، ثم ينعطف الدبل نحو المغرب داخلاً في وادي المغمس ، وينتهي إلى حوض البقر ، والمساحة بينهما ألف وأربعمائة وعشرون متراً ، وفيه خمس وعشرون خرزة ، ومنه متوجهاً في باطن الجبل ، وهو الموضع المسمى بالخاصرة ، ويقرب منها أراضي زراعة يقال لها : الهمدانية ، ثم يرجع منه يميناً إلى بازان الحقابة ، الذي على يسار الذاهب إلى عرفات ، ثم يتوجه يميناً أيضاً إلى بازان المعترضة وبعده يتعلق الدبل بسفح المأزمين ، على يسار القادمين من عرفات ، ويقال له : طريق ضب ، وهو المعروف الآن بالقناطر ، ثم يصل منها إلى مزدلفة ، ثم يتوجه من مزدلفة ماراً بوادي النار ، وهناك بازان عند رأس جبل على يسار الذاهب إلى مكة ، يقال له : دقم الوبر ، ومنه يكون الدبل متعلقاً في الجبل إلى المفجر ، وهناك ماكينة الوابور، هي آلة بخارية ترفع المياه من المجرى وتوصلها في أنابيب حديدية إلى أماكن مخصوصة بمنى اهـ . مرآة الحرمين . عند الربع الذي يرد منه أهل منى ، وهذه الماكينة جعلت لإيصال

الماء في ماسورة إلى بعض أمكنة بمنى ، يرد منها الحجاج، ثم يتوجه منحدراً خلف جبل منى إلى فتحات موازية لمدرج منى ، بجانبها مسجد وحوض لسقيا الدواب ، يسمى : حوض البقر الثاني ، ومنه يكون الدبل تحت الأرض إلى بئر عظيمة مطوية بأحجار كبيرة جداً ، تسمى : بئر زبيدة ، إليها ينتهي عمل القناة ، ولعله كان في عزمهم إيصالها إلى مكة لتتصل بعين مكة ، التي هي عين حنين ، فوقف العمل إلى البئر المذكور «والمسافة بين هذا البئر وبين المنبع ٣٣٠٠٠ متر . اهـ . رحلة صادق باشا» . وصارت عين نعمان خاصة بعرفة ومنى ، من ذلك الزمن قال : وكان الخلفاء والسلاطين عند انتظام سلطنتهم كلما بلغهم حدوث خراب في هذه العيون أو قنواتها يرسلون من يعمر ذلك على هذا المنوال .

إجراء أمير المؤمنين المتوكل على الله جعفر عين عرفات إلى مكة

فممن عمرها المتوكل على الله جعفر بن المعتصم فإنه لما حصلت زلازل سنة إحدى وأربعين ومائتين وغارت عيون مكة أرسل إلى مكة مائة ألف دينار ذهباً لإجراء ماء عين عرفات إليها ، فصرف فيها إلى أن جرت . ذكر ذلك السيوطي ، في تاريخ الخلفاء ، وذكر الحافظ نجم الدين عمر بن فهد في كتابه «إتحاف الورى بأخبار أم القرى» في حوادث سنة خمس وأربعين ومائتين ، فيها غارت عين مشاش ، وهي عين مكة ، فبلغ ثمن القربة درهمان فبعث المتوكل على الله جعفر بن المعتصم مالاً فأنفق عليها حتى جرت ، وكذا ذكره ابن الأثير في تاريخه .

تعمير مظفر الدين صاحب إربل عين عرفات

ومنهم صاحب إربل مظفر الدين كجك كوكبوري بن علي سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، ثم عمرها سنة خمس وستمائة أيضاً .

تعمير المستنصر العباسي عين عرفات

ثم عمّرها بعد ذلك أمير المؤمنين المستنصر بالله العباسي مراراً ، منها : في سنة خمس وعشرين وستمائة ، ثم في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة . قال القطب رحمه

الله : هكذا وجدت ذلك مكتوباً في نصب حجارة مبنية قرب الموقف الشريف بعرفات . انتهى .

ثم عمّرها الأمير جوبان نائب السلطان أبي سعيد ملك التتار بالعراقيين سنة ست وعشرين وسبعمائة . ذكره في كتاب المنتقى في أخبار أم القرى وهذا نص عبارته :

تعمير الأمير جوبان عين عرفات

وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة عمّر بازان رسول الأمير جوبان بن تلك بن تداون ، نائب السلطنة بالعراقين عن السلطان أبي سعيد بن خدا بنده ، ملك التتر عين عرفة وكان الناس في جهد عظيم بسبب قلة الماء بمكة ، فإن الراوية كانت تبلغ بها في الموسم عشرة دراهم مسعودية ، وفي غير الموسم من ستة دراهم إلى سبعة ، فقصد الأمير جوبان عمل خير بمكة ، فدله بعض الناس على عين ، كانت تجري في القديم ، تعطلت وندب بعض ثقاته وأعطاه خمسين ألف دينار ، وجهزه في موسم سنة خمس وعشرين ، فلما قضى حجه تأخر بمكة واشتهر أمره بها ، فأعلم بعين في عرفة ، فنادى بمكة من أراد العمل في العين فله ثلاثة دراهم في كل يوم ، فهرع إليه العمال ، وخرج بهم إلى العمل فلم يجبر أحداً منهم ولا استحثه وإنما كانوا يعملون باختيارهم ، فأتاه جمع كثير من العرب ، وعمل حتى النساء إلى أن جرى الماء بمكة بين الصفا والمروة في ثاني عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، فكانت مدة العمل أربعة أشهر . وكثر النفع بهذه العين ، وعمّ وعظم ، وصرفه أهل مكة إلى مزارع الخضروات ، فكان جملة ما أصرف عليها في هذه العمارة مائة ألف درهم وخمسون ألف درهم ، فلما فرغ بازان من عمارة العين قدم إلى مصر ، واجتمع بالسلطان وعرّفه خبر العين ، فشق عليه ذلك وقال له على لسان النائب : من أذن لك في هذا ولَمَ لمْ تشاورني ؟ فقال للنائب : عرف السلطان أن جوبان ما فعل من الخير ، وبقي الأمر للسلطان ، إن شاء يخرب أو يعمر . فهذا شيء قد فعله من فعله ، وخرج عنه الأمر إليكم . فلما سمع قوله السلطان سكت ، وكان مباشر عمارة هذه العين الشيخ نجم الدين بن خليفة بن محمود الكتاني . انتهى .

إجراء الملك الناصر محمد بن قلاوون عين ثقبة إلى مكة

وقال التقي الفاسي في «شفاء الغرام» : ومن العيون التي أجريت بمكة عين أجراها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، صاحب مصر في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة في مجرى عين بازان على ما ذكر البرزالي في تاريخه ، نقلاً عن كتاب العفيف المطري إليه ، لأنه قال في ذكر أخبار هذه السنة : إنه ورد عليه كتاب من العفيف المطري ، فيه أمور ، منها : وأجريت عين أخرى كانت تعرف بعين جبل ثقبة، مما يلي جبل حراء على مجرى العين الجوبانية ، وأنفق عليها قدر يسير قدر خمسة آلاف درهم ، ووصلت إلى مكة ، وخرجت من أسفلها ، وكان ذلك علي بن هلال الدولة مشرى المعماير ، وتاريخ كتاب العفيف سلخ ربيع الأول من سنة ثمان وعشرين. انتهى . ومنها عين أجراها الأمير المعروف بالملك نائب السلطنة بمصر ، في سنة خمس وأربعين وسبعمائة من منى إلى بركة السلم بطريق منى .

تعمير عين بازان سنة ٨١١

قال الفاسي : وعمرت عين بازان ، بعد ذلك ، غير مرة ، منها في سنة إحدى عشرة وثمانمائة . وهذه العمارة من جهة السيد الشريف حسن بن عجلان نائب السلطنة بمكة والأقطار الحجازية ، أعلى الله قدره ، وكان دخولها مكة في آخر العشر الأوسط من جمادى الأولى ، وجرت جرياً حسناً ، بحيث امتلأت منها بركة الماجن بأسفل مكة ، وتعدى الماء إلى غيرها ، وكثر الدعاء له بسبب ذلك ، لما حصل بها من عظيم النفع .

وبيعت منها الراوية بربع مسعودي ، بعد أن كانت بدرهمين مسعوديين وأزيد، فلله الحمد والشكر ، ثم حصل من جريانها قصور في آخر السنة ، ثم انصلح حالها في أول سنة اثنتي عشرة وثمانمائة ، من غير عمل ، ثم تغير حالها قليلاً ، ثم عمرت وانصلح حالها كثيرا ، ثم تغير حالها كثيراً في آخر هذه السنة ، ثم جرت جرياً حسناً في العشر الأخير من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشر وثمانمائة ، ثم بعد ذلك قل ماؤها ولقي الناس بمكة شدة بسبب ذلك ، وعرف بهذا الأمر مولانا السلطان الأعظم الملك المؤيد أبو النصر شيخ صاحب الديار المصرية والشامية والحرمين ، فتطوع بألفي دينار ذهباً لعمارة هذه العين . وندب القائد علاء الدين

لعمارة ذلك، فشرع في العمارة والتنظيف والإصلاح، حتى وصل الماء بمكة المشرفة، وحصل به النفع، وكان حصول هذا الخير مكة في شعبان سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وابتدأ العمل فيه من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، ثم قل جريان الماء من العين المذكورة، بعد قليل من جريانها الأول. ويسر الله دخول سيل فيها فجرت جرياً أحسن من جريها الأول، وصرفت إلى بركتي المعلاة، اللتين على يمين الداخل إلى مكة، فامتلأتا وحصل بها للحجاج نفع كثير، ولم يبق فيهما، بعد سفر الحاج، ما فيه كثير نفع، وغلا الماء كثيراً، وشق ذلك على الناس، فوفق الله تعالى القائد علاء الدين لعمارة العين، وبعث إليها عمالاً ومهندساً، يعمروا فيها ما لم يعمروا في النوبة الأولى، وبعض ما عمّر فيها لتخر به السيل، ووصل الماء إلى مكة بعد ذلك في آخر صفر سنة اثنين وعشرين وثمانمائة، وكان جريه قليلاً، فزادوا في العمارة، حتى كثر جري الماء، وعظم النفع به، بحيث بيعت الراوية بنصف مسعودي وبجائز وبدرهم، وهذا أكثر ما بيعت به الراوية، بعد عمارة العين في النوبة الثانية. وبلغني أنها بيعت بجائز. وقد وصل الماء إلى ماء العين إلى البركة، التي بأسفل مكة، المعروف ببركة الماجن، خارج باب مكة، بعد تنظيف الطريق إليها. وكان جريانه القوي في العمارة الثانية، في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. انتهى.

وفي إتحاف فضلاء الزمن: وفي سنة خمس وعشرين وثمانمائة حصل بعض خراب في عين عرفة، فأشار سيدي الشيخ العرابي عمر، نفعنا الله به، على الشريف حسن بعمارة ذلك، فأعطاه بذلك خمسين ألف درهم، وصرفه في ذلك فخلصت ولم تسوق العمارة، فعرف الشريف فأعطاه خمسين ألف أيضاً، وأقام على ذلك الصرف نائبه جابر الحراش، فقال له الحراش: ملوك الآفاق أقوى منك، وإذا علم بذلك صاحب مصر لنسبك إلى كثرة الأموال وطمع فيك، واستعاد الشريف الدراهم، فأرسل يقول له الشيخ العرابي: إن لم توف لنا وإلا أجمع من أهل الخير ما أتم به عمارتها، فأجابه الشريف: بأن غيرنا أقوى منا. وجاء من أخبر الشيخ أن ذلك من الحراش، فتغير ظاهر الشيخ عليه، فقدر الله أن الشريف غضب على الحراش فشنقه. انتهى.

تعمير عين حنين سنة ٨٣٥

قال الغازي : وقال ابن فهد في حوادث سنة خمسين وثلاثين وثمانمائة : وفيها عمّر الخواجة سراج الدين عمر بن محمد المزلق الدمشقي ، أحد التجار عين حنين المعروفة بعين بازان ، فجرت في شهر رمضان ودخلت مكة ، ومرت على سوق الليل إلى الصفا ، وانتهت إلى باب إبراهيم إلى الماجن ، فعم النفع بها وكثر الخير ، لشدة احتياج الناس بمكة إلى الماء وقلته أحياناً وغلا سعره وكان مصروفه عليها خمسمائة دينار . وقال في حوادث سنة ثمانمائة وإحدى وخمسين : وفيها عمّر الناظر بيرم خواجة عين حنين وغيرها من أعين مكة ، فجرى الماء جرياً حسناً ، حتى وصل إلى بركة الماجن ، فزرعوا بقربها وعمّ انتفاع الناس بها . انتهى .

تعمير عين حنين وعين عرفات سنة ٨٧٥

قال الغازي : وقال العلامة القطبي : ثم عمّر أيضاً من ملوك الجراكسة الملك الأشرف قايتباي عين عرفات ، فأجراها إلى أرض عرفات ، وعمر عين حنين إلى أن جرت إلى مكة ، في سنة ثمانمائة وخمس وسبعين انتهى .

وفي إتحاف فضلاء الزمن جدد الملك الأشرف قايتباي عين عرفات ، وابتدأ المعمار العمل فيها من سفح جبل الرحمة إلى وادي نعمان ، فوجد الماء بكثرة فاقتصر على ذلك ، ولم يصل إلى آخر العين . وكانت قد انقطعت منذ مائة وخمسين سنة . وكان الحجاج يقاسون يوم عرفة من قلة الماء ما لا يصبر عليه . ثم أصلح البركة وملأها . انتهى .

وقال العلامة إبراهيم رفعت باشا في «مرآة الحرمين» : وفي سنة ٨٥٢ عمرت عين حنين ، بمعرفة بيرم خواجة ناظر الحرمين الشريفين ، ثم خربت العيون بعد ذلك ، وأصاب الناس جهد جهيد ، وبلغ ذلك الملك الأشرف قايتباي ، فأمر بتعمير عين مكة وعين عرفات سنة ٨٧٥، وبدأت العمارة في عين عرفات من جبل الرحمة إلى وادي النعمان ، حيث وجدوا الماء هنالك بكثرة ، فخلوا سبيله إلى عرفة فوصلها بعد أن انقطع عنها مائة وخمسين سنة ، كان الحجاج يقاسون فيها يوم عرفة الظمأ الشديد ، وقد أصلح البرك التي بعرفات وملأها بالماء ، وكذلك عمّر عين حنين ، حتى وصلت مياهها إلى مكة وعمّر أيضاً عين خليص وأجراها

وبنى قبتها . وقد رأيت للملك الأشرف قايتباي خطبة ، نقشبت في لوح من الحجر ، وضع لجبل الرحمة على مقربة من القناة فنقلتها بالقلم الرصاص في ٩ ذي الحجة سنة ١٣١٨ في مدة أربع ساعات وذلك لصعوبة قراءتها ، وشدة الزحام ، ولولا من يدفع عني المزاحمين جهده ما تمكنت من نقلها وهذا نصها .

صورة الكتابة التي على الحجر

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبمنه وفضله تكمل المسرات، وبتوفيقه تجري الخيرات على يد من اختار من أهل السعادات ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الذي نبع الماء من بين أصابعه في الآيات ، وفتح الله تعالى به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ، وختم ببعثه الرسالات صلى الله عليه وآله وصحبه أولي البر والصلات أزكى السلام وأفضل الصلاة وبعد : فإن عين عرفة المشرفة كانت قد محى اسمها وتعطل رسمها وعفى أثرها ولم يبق إلا خبرها ، وهمّ كثير من الملوك والسلاطين بعمارتها ، فلم يساعدهم القدر على مقاومتها ، ومضى على ذلك دهور ويئس منها ، لما أتى عليها من العصور ، فلما منّ الله على العباد بولاية من صلحت به الرعية والبلاد وانحسمت بوجوده مواد الجور والفساد ، هو مولانا السلطان الأعظم ، مالك رقاب الأمم ، حاوي فضيلتي السيف والقلم ظل الله الممدود على العالم ، سلطان الإسلام والمسلمين ، قامع الكفرة والمشركين ، محيي مآثر الخلفاء الراشدين مالك البرين والبحرين ، خادم الحرمين الشريفين السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي ، نصره الله نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً قريباً وعمّ أمره الشريف بإجرائها بتلك الأماكن المشرفة المباركة لوفد بيت الله تعالى وأضيافه المباهي بهم الملائكة رسل الله تعالى لا رياء فيها ولا امتراء يجد ثوابها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، فجرت بحمد الله وتوفيقه في أسرع مدة ، يقارب إحصاؤها أشهر العدة مع تنظيف قعرها وبناء أساسها وبركها ، وعمل شرعتها تنفع أهل الشريعة ، وبناء قناتها المحيطة بجبل الرحمة رحمة الله الواسعة ، فالله يجدد لمولانا وسلطاننا وكل محيطه عزاً ونصراً ، ويجري له على ما أجرى في الدارين إجراء وذلك على يد الجنابين العاليين الأشرفين الكبيرين لسلطاننا الحالي الأشرف وشقيقه المباشر للعمل السيفي سنقر الجمالي الأشرفي ، أجزل الله تعالى ثوابها

وأحيا مجدها ابتداؤها ربيع الآخر ، وآخرها شهر رجب الفرد الحرام عام خمسة وسبعين وثمانمائة سنة ٨٧٥ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . انتهى .

تعمير عين حنين وعين عرفة سنة ٨٩٣

قال الغازي : وفي كتاب بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى للشيخ عبدالعزيز بن نجم الدين عمر بن فهد : وفي شهر رمضان سنة ثمانمائة واثنتين وتسعين أصرف الأمير سنقر المحتسب ، مشد العمارة السلطانية على عمال يشتغلون في عين أبي رخم ، فإن المطر لما وقع أمر بالكشف عنها وعن عين حنين وعن عين ثقبة . فقيل له : إن الماء كثير في عين أبي رخم وفي عين حنين ، فأصرف على عمال كثير يتوجهون لعين حنين ، وعلى جماعة بل لعلهم نحو الثلاثين يتوجهون لعين أبي رخم ، فتوجهوا ، فلما كان يوم السبت سابع عشر شهر ذي القعدة من السنة المذكورة وصل الماء من عين أبي رخم إلى البازان ، التي عند الصفا ، فحصل للناس بها سرور عظيم ، فا لله يديمها على المسلمين ، ويأتي بعين حنين على العادة فإن العمل فيها ، وكان حصل للناس شدة عظيمة في هذه السنة بل من العام الماضي وصار الناس ما يستقون الماء إلا من الأبيار . ثم إن كثيراً من الأبيار نشف ومن الماء البحر (المالح) أيضاً فإن كثيراً من الآبار ، التي بمكة نشفت وصارت الراوية الحلو تسوي قريب المحلق والبحر النصف من ذلك ، فلما وصلت العين ، رخص الماء .

وفي ليلة السبت في آخر شهر رمضان سنة ثمانمائة وثلاث وتسعين أصرف ابن أخي الخواجة الشمس بن الزمن على عمال يشتغلون في العين ، فاشتغلوا فيها فوجدوا ماءً قليلاً في أثناء العين فوصل إلى قرب مكة وإليها في أوائل شوال ثم انقطع .

وفي ليلة الخميس ثاني عشرين شهر شوال سنة تسعمائة واثني عشر ، أصرف أمير جدة الأمير حسين على العمال لعمل عين عرفة على يد القائد مفتاح البقيري ، فعملوا فلما ضاق شرع في تبطيل الآبار ، التي بعرفة ومزدلفة ، ثم بعد الحج عادوا لشغل عين عرفة .

وفي ثاني تاريخ ربيع الثاني سنة تسعمائة وثلاث عشرة أصرف ناظر الخواص على عمال يعملون في عين مكة كل عشرة أيام بأشرفي ، وكان أرسل للقائد مفتاح البقيري أن يحضر فحضر ، وتوجها ، وبعض جماعته إلى عرفة للكشف عن عينها فرأى ذلك ، ثم جاء إلى عين حنين وعاد لمكة صبح يوم السبت خامس عشر من الشهر .

وفي يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة تسعمائة وأربع عشرة توجه الشريف قايتباي والقضاة الثلاثة والباش إلى عرفة لأجل نظر عين عرفة والكلام في ذلك وعادوا حتى يشاوروا الشريف بركات وقدم لهم القاضي الشافعي مأكولاً كثيراً هناك ، ثم في بيت الشريف بمنى ، ثم نزلوا وجاؤوا إلى مكة يوم السبت . وفي يوم الأحد ثامن شهر ذي القعدة سنة تسعمائة وخمس عشرة وصل الأمير خير بك المعمار المرسل من طرف السلطان قانصوه الغوري ، لأجل عمارة المسجد الحرام وعين حنين .

وفي ضحى يوم الجمعة سادس عشرين شهر ربيع الثاني سنة تسعمائة وست عشرة قرئ مرسومان بالحطيم : واحد للسيد الشريف بركات بن محمد بن بركات ، والثاني للسيد قايتباي . ومما كان فيهما : إنكم تجتمعون وتنظرون في أمر العين وغيرها من الأعين وعين عرفة والزعفرانة وأبي رخم والثقبة ، فإن الغرباء الذين كانوا بمكة في العام الماضي قاسوا شدة من عدم الماء ، وإن بعض أهل مكة لهم عبيد يبيعون الماء ، ويعوقون العين وما في قلوبهم رحمة ولا خوف من الله ، ويكتب بذلك محضر ويكون بحضرة الباني الذي من جهتنا ، وينظر أيضاً في الأعين ، التي بوادي مرّ والجموم والمضيق ، وإن كان شيء للناس فنشتري منهم ، وتخبرونا كم المسافة أيضاً حتى يجيئكم جوابنا ، ولو كان الماء في أرض أو نخل لأحد فنشتري أيضاً .

وفي عصر يوم الاثنين عشرين جمادى الأولى سافر الباش خير بك ومعه القاضيان الحنفي والشافعي والتجار لأجل كشف عين مكة والأعين التي ذكرها السلطان في مراسيمه ، لأجل مكة ، وتوجه أيضاً النوري علي بن خالص ومحيي الدين بن زقيط الناظران بجدة ، والتجار شمس الدين القادري وشمس الدين الحموي وخير الدين بن سلامة وقاسم الشرواني والسيد عرار بن عجل ومفتاح البقيري ، فناموا قريباً من مكة ، ثم أصبحوا في البرود ، فجلسوا به يوم الخميس وهم

يكشفون عن الأعين . فقال لي المعلم علي بن طنين ، وكان معهم : أنهم رأوا عين مكة من أعلاها ثم يجي منها شيء ، وإنما من عينين الماء قليل ، وهو حنين والمشاش ، وتوجه القاضيان والسيد عرار والبقيري ومحيي الدين بن زقيط إلى وادي نخلة فصادفوا بها صبح الجمعة القاضيان المالكي والحنبلي ، ورأوا أعينها ، وتوجه الباش ومن جاء معه لبلاد سولة ، لرؤية عينها ، وحمل له واحد من أشياخ وادي نخلة ضيافة كبيرة إلى سولة ، فأكل وأصبح بمكة وهو وجميع من معه من القضاة والتجار .

ثم في يوم الاثنين سابع عشرين الشهر توجه الباش والقاضيان الأولان معه والسيد هزاع ومفتاح البقيري إلى وادي الجموم ، لرؤية عينها وعادوا ليلة الثلاثاء ثامن عشرين الشهر ، ثم عقد مجلساً بالقضاة والتجار عصر يوم الأربعاء تاسع عشرين الشهر ، وتكلموا في أمر عين الجموم وغيرها وإنهم يتوجهون ويقيسون حتى يجاوبوا السلطان بما يصلح ثم سافروا بقية يومهم والليلة التي تليه إلى وادي الجموم ثم عادوا ليلة الجمعة وقالوا : عين الجموم تصل بمكة ، وإن مكة ما تعلو إلا بخمسة أذرع وإن بين الجموم وسبيل شميلة خارج درب الشبيكة خمسة وثمانون ألف ذراع . وفي أول الجمعة من شهر جمادى الآخر سنة تسعمائة وست عشرة توجه الأمير الباش خير بك المعمار إلى العين ، وكان أرسل عمالاً يصرفون عليها وأخذ معه عمالاً أيضاً ، ثم أرسل جميع البنائين الذين معه والعمال ، وأخذ نورة وجليا ، قالوا : نحو مائة جمل ، وذكروا أن الماء بالعين ، وإنما يحتاج الإصلاح . وجلس هناك ومعه مفتاح البقيري والعمال والبناؤون والمنورون ويشتغلون ، وكانوا أكثر من مائتين ، ولما فرغ الشغل من أعلى العين عمل ثلاث برك بجانب حرف العين ، تكون كالمصفاة للعين وكتب في حجر نقراً : إنهم عمروا العين . وجعل ذلك وعاد الأمير والفعلة إلى العلمين وأرسل بعض البناة والعمال يشتغلون في الميضأة وترك الباقين يشتغلون في العين .

وفي عصر يوم الأربعاء ثاني عشر رجب وصلت عين حنين لبازان ، ونودي بالزينة في البلد فزين كثير من الناس على قدر حالهم .

وفي صبيحة يوم الخميس ثالث عشر الشهر برز القضاة والتجار إلى الأمير الباش خير بك المعمار وهو مخيم تحت جبل حراء فدخل مكة وهو معهم ومعه النفط والمغاني من الدرب والمعمارية وخلع على المهندس ابن عصفور ، وجماعة

غيره من المعمارية ، وابتهج الناس بذلك كثيراً ، ثم انقطع جريان العين في هذا اليوم فقالوا : مسدودة . ثم جاءت آخر النهار ، ثم انقطعت قبل المغرب .

وفي صبيحة يوم الجمعة رابع عشر الشهر توجه الأمير لإصلاح ما بقي ، وقال: إنها تحتاج عمل ثلاثة أو أربعة أشهر ، وأنها من يوم عمرت ما صلحت على ما ينبغي وما يقال عن أهل مكة ليسدونها كذب فإنها تحتاج إلى عمل كثير وما عمل فيها من العام الماضي من جهة الخواجا القاري والخواجا ابن عباد الله فقليل وما نظفت كما ينبغي بل كانوا ينظفون شيئاً من أعلى التراب ويتركون غالبه ، وبعد ذلك دعا القضاة والتجار إليه وأراهم العمل ، وأراد كتابة محضر بما عمل .

وفي ليلة رابع عشرين الشهر وصل الأمير خير بك المعمار من عمارة العين ، ودخلت العين مكة ، واستمر ذلك أياماً والله يديمه ، واجتمع الأمير والقضاة وبعض الفقهاء والتجار في بيته ، وأمر بكتابة محضر فشرع في ذلك ، وفي ليلة الخميس ثاني عشر شهر رمضان سنة تسعمائة وسبع عشرة حصل بمكة مطر قوي ، وفي يومه جاء البناة والعمال من عمل العين ، وجاء السيل فدخل العين .

وفي يوم الجمعة أو فيما بعده توجه الباش خير بك المعمار إلى عرفة لرؤية العين بها ، ثم أرسل البناة والعمال والمنورين والمنقلين فاشتغلوا . انتهى ما في بلوغ القرى.

انقطاع عين حنين والعيون عن مكة المشرفة

قال الغازي : قال العلامة قطب الدين رحمه الله تعالى : ثم انقطعت في أوائل الدولة العثمانية ، بهذه الأقطار الحجازية ، وبطلت العيون لقلة الأمطار وتهدمت قنواتها ، وانقطعت عين حنين عن مكة المشرفة ، وصار أهل مكة يستقون من الآبار حول مكة من أبيار يقال لها : العسيلات ، من علو مكة ، قريب من المنحنى ومن آبار في أسفل مكة من مكان يقال لها : الزاهر ، ويسمى الآن بالحوض ، في طريق التنعيم ، وكان الماء غالياً قليل الوجود ، وكذلك انقطعت عين عرفات وتهدمت قنواتها وكان الحجاج يحملون الماء إلى عرفات من الأمكنة البعيدة ، وصار فقراء الحجاج في يوم عرفة لا يطلبون شيئاً غير الماء لعزته ، ولا يطلبون الزاد وربما جلبه بعض الأقوياء من الأماكن البعيدة للبيع ، فيحصلون أموالاً من ذلك

لغلو ثمنه ، وإني أذكر أن في سنة تسعمائة وثلاثين قلّ الماء في الآبار البعيـدة أيضـاً ، فارتفع سعر الماء جداً في يوم عرفة ، وكنت يومئذ مراهقاً في خدمة والدي رحمه الله ، وفرغ الماء الذي كنا حملناه من مكة إلى عرفات ، وعطش أهلنا فتطلبت قليلاً من الماء للشرب فشتريت قربـة مـاء صغيرة جداً يحملها الإنسان بإصبعه بدينار ذهب ، والفقراء يصيحون من العطش يطلبون مـن المـاء مـا يبل حلوقهم في ذلـك اليوم ، فشرب أهلنا بعض تلك القربة وتصدقوا بباقيه على بعض من كـان مضطراً من الفقراء وعطشت عقيبه ، وجاء وقت الوقوف الشريف والناس عطـاش يلهثـون فأمطرت السماء وسالت السيول من فضل الله تعالى ورحمته والناس واقفون تحت جبل الرحمة فصـاروا يشربون مـن السيل مـن تحت أرجلهم ويسقون دوابهـم ، وحصل البكاء الشديد والضجيج الكثير من الحجاج في وقت الوقوف لما رأوا من رحمة الله تعالى ولطفه بهم وإحسانه إليهم وتكرمه عليهـم ، ولا أزال أتذكـر تلك الساعة وما حصل بها من اللطف العظيم من كرم الله العميم .

صدور الأوامر السلطانية بإصلاح عين حنين وعين عرفات

قال الغازي : وبرزت الأوامر السـلطانية بـإصلاح عـين حنـين وعـين عرفـات وعين لها ناظراً اسمه مصلح الديـن مصطفـى مـن المجـاورين بمكـة ، فبـذل جهـده في عمارتها وإصلاح قناتها إلى أن جرت عين حنين إلى أسـفل مكـة تصـب في بركـة ماجن، وأصلح عين عرفات وأجراها إلى أن صارت تملأ البرك بعرفات ، وذلك في سنة تسعمائة وإحـدى وثلاثـين ، وصـار الحجـاج يـروون مـن ذلـك المـاء العـذب الفرات ، بعد ذلك العطش الشديد في يوم عرفات ، ثـم اشـترى نـاظر العـين عبيـداً سوداً من خزائن السلطنة الشريفة برسم خدمـة العين لإخـراج ترابهـا مـن الدبـول والقنوات وهذه خدمتهم دائماً.

قال القطبي : وهم باقون إلى الآن طبقة بعد طبقة لهذه الخدمة .

ثم توجه مصطفى ناظر العين إلى الأبواب السلطانية السليمانية وعرض في أمـر العين أحوالاً يجب عرضها ، فأجيب إلى كل ما سأل وعـاد مجبـوراً إلى مصـر ، ثـم ركـب من بندر السويس إلى مكة فغرق في بحر القلزم شـهيداً . وكـانت وفاتـه في سنة تسعمائة وسبع وثلاثين ، واستمرت عين حنين جاريـة إلى مكـة ، لكنهـا تقـل تارة وتكثر أخرى ، بحسب قلة الأمطار وكثرتها ، وعين عرفات تجري مـن نعمـان

إلى عرفة إلى أن صارت عرفات فيها بساتين وصار بها الغروس، ثم قلت الأمطار إلى أن يبست العيون ونزحت الآبار في سنين متعددة من سنة تسعمائة وخمس وستين وما بعدها. وكانت سنوات تقارب سنين يوسف شداداً عجافاً، وانقطعت العيون إلا عين عرفات فإنها لم تنقطع إلا أنها قلّ جريانها في تلك السنوات.

صدور الأوامر السلطانية بإصلاح العيون

قال الغازي: فلما عرضت أحوال العين إلى الأبواب الشريفة السلطانية السليمانية التفت الخاطر العاطر السلطاني إلى تدارك ذلك بأي وجه يكون، وأمر بالفحص على أحوال العيون وكيف يكون جريانها إلى بلد الله الأمين، فاجتمع المرحوم عبد الباقي بن علي المغربي قاضي مكة، والأمير خير الدين صنجقدار جدة وغيرهما من الأعيان وتفحصوا وداروا وتشاوروا فأجمع رأيهم على إن أقوى العيون عين عرفات، وطريقها ظاهر ودبولها مبنية إلى بئر زبيدة خلف منى، وإن الذي يغلب على الظن أن دبولها من بئر زبيدة إلى مكة مبنية أيضاً، وأنها مخفية تحت الأرض وأنها تحتاج إلى الكشف عنها والحفر إلى أن تظهر لأن زبيدة لما بنت الدبول من عرفات إلى بئرها المشهور، جميعها ظاهر على وجه الأرض فالباقي من ذلك المحل أيضاً مبني إلا أنه خافٍ تحت الأرض، واستغنت عن عين عرفات بعين حنين، وتركت هذه وصارت نسياً منسياً. هكذا ظنوا وخمنوا، ثم إنهم تتبعوا عين عرفات من أولها، من الأوجر إلى نعمان ثم إلى عرفة ثم إلى المزدلفة ثم إلى بئر زبيدة وأصلحوا هذه الدبول الظاهرة وكشفوا عن الباقي، وبنوا ما وجدوا منها منهدماً ورمموا الباقي احتاجوا إلى ثلاثين ألف دينار ذهباً وذرعوه وقاسوه فكان من الأوجر إلى بطن مكة خمسة وأربعين ألف ذراع بذراع البنائين الآن، وهو أكبر من الذراع الشرعي بقدر ربعه، وهذا الذي تخيلوه من وجود بقية الدبل تحت الأرض لم يوجد في كتب التواريخ وإنما أداهم إلى ذلك مجرد الظن بحسب القرائن وعرضوا ذلك على أبواب السلطنة في أوائل سنة تسعمائة وتسع وستين، فلما وصل علم ذلك إلى المسامع الشريفة السلطانية السليمانية التمست صاحبة الخيرات كريمة مولانا السلطان سليمان خان حضرة خانم سلطان أن يأذن لها في عمل هذا الخير، حيث كانت صاحبة الخير أولاً أم جعفر زبيدة العباسية فناسب أن تكون هي

صاحبة هذا الخير فأذن لها في ذلك فاستشارت الحضرة السليمانية وزراء ديوانها الشريف العالي فيمن يصلح لهذه الخدمة، فاتفقت آراؤهم على الأمير الكبير المعظم إبراهيم باشا دفتر دار مصر ، فأعطته السلطانة خمسين ألف دينار ذهباً بزيادة عشرين ألف ذهب على ما خمنوه فتوجه من البر إلى مكة المشرفة وكان وصوله إلى جدة لثمان بقين من ذي القعدة سنة تسع وستين وتسعمائة ، ثم ركب منها إلى سيدنا مولانا الشريف محمد بن أبي نمي ، وكان يومئذ نازلاً بمر الظهران فقابله بالإجلال والتعظيم ومد له سماطاً ولاطفه وآكله، وعرض على سيادته ما جاء بصدده فقوبل بامتثال الأمر الشريف السلطان ، وبذلك الهمة والجهد في إتمام المهم المنيف الخاقاني ، وأن يقوم بذلك بنفسه وولده وأتباعه وخدمه ، ثم قابله عند دخوله مكة سيدنا ومولانا الشريف حسن بن أبي نمي ، صاحب مكة بالترحيب والاحترام ثم جاء للسلام عليه شيخ الإسلام مولانا القاضي حسين الحسني ، ففرح به الأمير إبراهيم وقابله بالإجلال والتعظيم ، وعرض عليه أموره وأحواله واستشاره في سائر ما بدى له من أحواله فأشار إليه بالآراء الصائبة ، وأعلمه بما ينبغي رعايته وما يجب عليه ملاحظته من الأمور اللازمة .

فأول ما بدأ تنظيف بعض الآبار التي يستقي منها الناس وإخراج ترابها ثم بعد الفراغ منها توجه للكشف عنها إلى أعلى عرفات ، وكثر تردده إليها وتفطنه لمجاريها ومثاقبها ومشاركها والفحص عن أحوالها وشرع في الكشف عن دبول عين عرفات وضرب أوطاقه في الأوجر من وادي نعمان في علو عرفات وشرع في حفر قعرها وتنظيف دبولها وكانت مماليكه هم القائمون بهذه الخدمة وهم نحو الأربعمائة وأقام بهذا العمل من الأوجر إلى مزدلفة وكتب نحو ألف نفس من العمال والبنائين والحجارين والقطاعين والنجارين وغيرهم ممن يحتاج إليهم ، وأتى بآلات العمارة وصحبها معه من مصر ، من مكاتل ومساحي ومجاريف وحديد وبولاد ونحاس ورصاص وغير ذلك وعين لكل طائفة قطعة من الأرض لحفرها وتنظيف ما فيها من الدبول وكان يظن أنه يفرغ من هذا العمل الذي جاء بصدده فيما دون عام ويرجع إلى الأبواب السلطانية لينال المناصب العالية ويظفر بالمراتب السامية ، ويأبى الله إلا ما أراد واستمر على هذا الجد والاجتهاد إلى أن اتصل عمله بعمل زبيدة إلى بئر التي انتهى عملها إليها ، ولم يوجد بعده دبل ولا آثار عمل ، وضاق ذرعه بذلك وعلم أن الخطب كبير وأن العمل خطير وتحقق أنا لقدر الباقي من هذا العمل إنما تركته زبيدة اضطراراً بغير اختيار وعدلت عنه إلى عين

حنين وتركت العمل من عند البئر لصلابة الحجر ، وصعوبة إمكان قطعه وطول مسافة ما يجب قطعه فإنه يحتاج من بئر زبيدة إلى دبل منقور تحت الأرض من الحجر الصوان ، طوله ألفا ذراع بذراع البنائين حتى يتصل بدبل عين حنين ، وينصب فيه ويصل إلى مكة ولا يمكن نقب ذالك الحجر تحت الأرض فإنه يحتاج في النزول إلى خمسين ذراعاً من العمق وصار لا يمكن ترك ذلك بعد الشروع فيه حفظاً لناموس السلطنة الشريفة فما وجد الأمير إبراهيم حيلة غير أن يحفر وجه الأرض إلى أن يصل إلى الحجر الصوان ، ثم يوقد عليه بالنار مقدار مائة حمل من الحطب الجزل ليلة كاملة في مقدار سبعة أذرع في عرض خمسة أذرع من وجه الأرض والنار لا تعمل إلا في العلو ولكن تعمل عملاً يسيراً جداً من جانب السفل فيلين الحجر من جانب السفل مقدار قيراطين من أربعة وعشرين قيراطاً من ذراع فيكسر بالحديد إلى أن يصل إلى الحجر الصلب الشديد فيوقد عليه بالحطب الجزل ليلة أخرى وهلم جراً إلى أن ينزل في ذلك الحجر مقدار خمسين ذراعاً في العمق في عرض خمسة أذرع إلى أن يستوفي ألفي ذراع تقطع على هذا الحكم ، وذلك يحتاج إلى عمر نوح ومال قارون وصبر أيوب وما رأى عن ذلك محيصاً فأقدم عليه إلى أن فرغ الحطب من جميع جبال مكة فصار يجلب من المسافات البعيدة وغلا سعره وضاق الناس بذلك وتعب الأمير إبراهيم لذلك وذهبت أمواله وخدامه وأولاده ومماليكه ، وهو يتجلد على ذلك إلى أن قطع من المسافة ألف ذراع وخمسمائة ذراع بالعمل وصار كلما فرغ المصروف أرسل وطلب مصروفاً آخر ، إلى أن صرف أكثر من خمسمائة ألف دينار ذهباً من الخزائن العامرة .

وتوفي إبراهيم بيك ناظر العمارة في سنة تسعمائة وأربع وسبعين ثم أقيم بعده في هذه الخدمة سنجق جدة الأمير قاسم بك ، بإقامة سيدنا ومولانا السيد حسن صاحب مكة أدام الله تعالى دولته وسعادته ، وعرض ذلك إلى الباب العالي وأمره أن يباشر هذه الخدمة إلى أن يصل من تعينه السلطنة الشريفة لأداء هذه الخدمة وكانت السلطنة الشريفة العظمى قد انتقلت من المرحوم السلطان سليمان خان ، إلى نجله الأسعد الأمجد السلطان سليم خان فتعين لها من الباب العالي دفتر دار مصر يومئذ محمد بك أكمك جي زاده ، وكان من أعيان الأمراء والسناجق الكبراء له عقل تام ورأي ثاقب وصل إلى هذه الخدمة الشاقة وبذل فيها نفسه وماله وأظهر تجمله وتحمله واحتماله ، وما بلغ التمام إلى أن وافاه الحمام ، وانتقل إلى رحمة الله تعالى سنة تسعمائة وست وسبعين .

ثم أقيم في خدمة عمل العين، الأمير قاسم بك المذكور سابقاً، سنجق جدة المعمورة أقامة فيها سيدنا ومولانا السيد حسن صاحب مكة، وأمره بمباشرة العمل وعرض ذلك على الأبواب الشريفة السليمية، فبرز الأمر الشريف السلطاني باستقرار قاسم بك المذكور في خدمة العين أميناً على مصارفها أن يكون شيخ الإسلام قاضي القضاة وناظر المسجد الحرام القاضي حسين الحسني ناظراً على ما بقي من عمل عين عرفات إلى أن تصل إلى مكة المشرفة فاستمر الأمير قاسم مباشر التعاطي هذه الخدمة فما أراد الله تعالى أن يتم العمل الشريف على يد قاسم بك فطرقه الأجل وانتقل من دار الدنيا الفانية إلى دار الآخرة الباقية سنة تسع وسبعين وتسعمائة.

ثم توجه مولانا القاضي حسين توجهاً تاماً إلى تكميل ما بقي من عمل عين عرفات باعتبار ما بيده من النظر عليها حسب الأحكام الشريفة السلطانية وعرض على الأبواب الشريفة وفاة قاسم بك وعدم تعطيل العمل إلى أن يأتي أمين لإكمال العمل من الباب العالي فبرزت الأوامر الشريفة السلطانية بأن يكمل ذلك العمل مولانا شيخ الإسلام القاضي حسين، فأقدم بهمته العلية أتم إقدام إلى إكمال هذا العمل بالاهتمام التام فساعدته السعادة والإقبال على الإتمام والإكمال فكمّل العمل المبارك فيما دون خمسة. أشهر، بعد أن عجز عن إتمامه الأمراء المذكورون قريباً من عشرة أعوام وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وصول عين عرفات إلى مكة سنة ٩٧٩

قال الغازي: فجرت عين عرفات وانفجرت ينابيعها الجاريات ووصل الماء هو يجر في الدبول والقنوات إلى أن دخل مكة لعشر بقين من ذي القعدة الحرام سنة تسع وسبعين وتسعمائة، وكان ذلك اليوم عيداً أكبر عند الناس وزال بوصول ذلك الماء إلى البلد كل هم وبأس وعمل ذلك اليوم مولانا المشار أسمطة عظيمة في الأبطح ببستانه العظيم الأفيح وجمع بين الأكابر والأعيان في ذلك المكان ونصب لهم السرادقات والصيوان وذبح أكثر من مائة من الغنم ونحر عدة من الإبل والنعم، وقدم للناس على طبقاتهم أنواع الموائد والنعم، وخلع على أكثر من عشرة أنفس من المعلمين والبنائين والمهندسين حللاً فاخرة، وأحسن إلى باقيهم بالإنعامات الوافرة وتصدق على الفقراء والمساكين شكراً لهذه النعمة الجزيلة وحمداً على هذه

المنة الجليلة ، حيث أنعم الله بها على عباده وأحيا وأخصب منها خير بلاده وكان يوماً مشهوداً وساعة سعيدة وزماناً مسعوداً ، ثم جهز أخبار هذه البشائر العظمى إلى الباب الشريف العالي السلطاني السلطان سليم خان وإلى صاحبة الخيرات بلقيس الزمان حضرة خانم سلطان فأنعمت بالإنعامات الجزيلة على سائر المباشرين والمتعاطين هذه الخدمة الشريفة الجزيلة ، وحصل لمولانا شيخ الإسلام المشار إليه ترقيات عظيمة وصارت هذه العين من جملة الآثار الباقية على صفحات الليالي والأيام والأعمال الصالحات الباقية التي لا يفنيها تكرر السنين والأعوام . انتهى .

قال العلامة السنجاري في « منائح الكرم » وجملة ما صرف على ذلك كما رأيته بخط بعض الأفاضل خمسة لكوك وسبعة آلاف دينار ، وذلك غير ما صرف على إحضار أرباب الصناعات من الحدادين والحجارين والقطاعين وغيرهم . انتهى . وانتهى من الغازي . نقول : أللك كلمة هندية معناها مائة ألف . فيكون جملة ما صرف خمسمائة ألف دينار وسبعة آلاف دينار .

بناء بقية دبول عرفات من الأبطح إلى آخر المسفلة

قال الغازي : وفي الإعلام وفي سنة تسعمائة وتسع وسبعين برز الأمر الشريف من حضرة السلطان سليم خان بن سليمان خان ببناء المسجد الحرام جميعه على وجه الإتقان والإحكام وعين بهذه الخدمة الشريفة فخر الأمراء العظام ذخر الكبراء ذوي الاحترام أحمد بك وأضيف إليه عمل بقية دبل عين عرفات من الأبطح إلى آخر المسفلة بمكة المشرفة فإن السلطنة الشريفة أمرت أن يبنى لها دبل مستقل ولا تجري في دبل عين حنين فعينت هذه الخدمة أيضاً للأمير أحمد المذكور ووردت الأوامر السلطانية لناظر المسجد الحرام ، بدر الملة والدين والقاضي حسين الحسني أن يكون الناظر على هذه الخدمة الشريفة والمتكلم عنها من جانب السلطنة المنيفة ففرح بهذه الخدمة الشريفة الفرح التام ، وقام في ذلك أحسن قيام ووصل لهذه العمارة الشريفة معمار دقيق الأنظار أجمع المهندسون على تقدمه في هذه الصناعة محمد جاوش الديوان العالي ، فاتفق الناظر والأمير والمعمار على الشروع في هدم ما يجب هدمه إلى أن يوصل إلى الأساس فشرع أولاً في إكمال الدبل المستقل لإجراء عين عرفات وبنائه من جهة المدعا ، ثم مر به في عرض خان قايتباي إلى جهة المروة ، ثم إلى جهة سويقة ، ثم عطف به إلى السوق الصغير وأكمله إلى منتهاه ،

وبنى قبة في الأبطح جعل فيها مقسم مـاء عرفـات، وركـب في جـدره بزابيز مـن النحاس يشرب منها الماء، ثم بنى مسجداً وسبيلاً وحوض ماء للدواب علـى يمين الصاعد إلى الأبطح في قبلي لبستان بيرم خواجة الصائر إلى المرحومة الخاصكيـة أم السلاطين، وبنى مسجداً آخر وسبيلاً ومتوضأً في انتهاء سوق المعـلاة علـى يسـار الصاعد وعرض ذلك على أبواب السلطنة فأنعمت على الأمير المشار إليـه بسـبعين ألف عثماني ترقياً في علوفته في مقابلة هذه الخدمة. انتهى.

تعمير عيون مكة وآبارها سنة ٩٨٢

قال الغازي: وفي كتاب «بغية الراغبين» وفي سنة اثنتين وثمـانين وتسـعمائة حصل تعمير في عيون مكة وآبارها، وبني فيها دار الشفا والحمامـات وغـير ذلـك من الأعمال الصالحة، كل ذلك علـى يـد وزيـر السـلطان مـراد خـان ووزيـر أبيـه السلطان سليم حضرة محمد باشا، ومن خيراته الدائرة إجراء العيون ومـن أعظمهـا إجراء عين عرفات إلى مكة. انتهى.

تعمير عين عرفات سنة ١٠٢٥

قال الغازي: وفي «منائح الكرم» وفي سنة ألف وخمس وعشرين عمرت عين عرفة على يد حسن باشا، ولما وصل المـاء إلى مكـة فـرح بـه النـاس فرحـاً شـديداً لتعبهم بعدمه، وأرّخ هذا التعمير الإمام علي بن عبدالقادر الطبري، بقوله:

كـم مسـت الأكبـاد شـغوله ... بحرقـتي بـؤس وبلـواء

وكـم غـدا القلـب بنـار الظمـا ... في جمرتـي يبـس والظمـاء

حتـى أغـاث الله أم القـرى ... بنعمـتي فضـل ونعمـاء

فقلـت هـذا العـام تاريخـه ... قـرت عيـون النـاس بالمـاء

وقال الشيخ إبراهيم الرحال من أصحاب الباشا المعمار كان طبيباً له مـن قصيدة مـدح بها الباشا حسن المعمار:

وليـدع بالخـير للبشـا الأنـام علـى ... هـذا ويثـني عليـك السـر والعلـن

أكـرم بهـا نعمـة تـاريخ أولهـا ... وفقت للخير والإحسان يا حسـن

وفي «مرآة الحرمين» لإبراهيم رفعت باشا : ورأيت من لوحة هذه الكتابة أمر بتعمير عين عرفات مولانا السلطان الأعظم والخاقان الأفخم خادم الحرمين الشريفين السلطان أحمد خان ابن السلطان محمد خان ، أيد الله سلطنته إلى آخر الزمان سنة ١٠٢٥ بمباشرة الفقير إليه سبحانه وتعالى حسن باشا عفى عنه . اهـ .

انقطاع عين عرفات عن مكة سنة ١٠٦٦

قال الغازي : وفي سنة ألف وست وستين انقطعت عين وعرفة وتعب الناس في أمر الماء فعين لعمارتها صاحب جدة محمد بك ، فطلع إلى مكة وشرع في عمارتها ورمّم ما انهدم من الدبول إلى أن سارت ودخلت مكة بعد أن كانت القربة تؤخذ بأربعين محلقاً ، وفرح الناس بورودها .

تعمير عين عرفات سنة ١٠٨٤

قال الغازي : وفي ضحى يوم السبت الرابع من ذي القعدة سنة ألف وثلاثة وثمانين كان وصول علي أغا الطون باشا معماراً على العين ، وسبب وصوله عرض من الشيخ محمد بن سليمان إلى الأبواب ، يذكر أن العين تحتاج إلى عمارة ، وبعث به مع أحد الكشاف الذين كانوا بمكة من التجريدة التي كانت مع محمد جاويش حين رجع في رجب من السنة المذكورة وشرع المعمار في التأهب لعمارة العين وجمع المعلمين والآلات وخرج إلى عرفات لتنظيف الدبول وخرج معه محمد جاويش ثم رجع محمد جاويش ليلة الأحد سادس عشرين محرم سنة ألف وأربعة وثمانين .

وفي يوم الثلاثاء خامس صفر خرج الشيخ محمد بن سليمان إلى عرفات للإشراف على العين ، ثم عقبه مولانا الشريف بركات فطلع ليلة الأربعاء ونزل ليلة الجمعة وقبل يوم الجمعة ، وفي يوم الاثنين الثالث عشر من جمادى الأولى سنة ألف وأربع وثمانين قطعت العين من مكة لقصد تعمير الدبول بعد أن ملئت البرك بالمعلاة وملأ الناس صهاريجهم ، ثم إن الله تعالى تداركهم بأمطار توالت فجرت العين و لم يطل انقطاعها .

وفي «مرآة الحرمين» وقد رأيت مكتوباً على حجر رخام ثبت بجبل الرحمة على يمين الصاعد إليه العبارة الآتية : يا محمد بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله

حق حمده على أفضاله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله أمر حضرة السلطان الأعظم والخاقان الأفخم، مولى ملوك العرب والعجم السلطان الغازي محمد خان ابن السلطان إبراهيم خان، عز نصره بإجراء عين عرفات وتعمير أبنيتها واتصاله إلى الحرم المنيف بفضله تعمرت سنة أربع وثمانين وألف (سنة ١٠٨٤) من هجرة من له العز والشرف على يد عمدة أعيان الدولة الحاج علي آغا بن مصلى قهوجي باشا السلطان، وكان الله له ووفقه لمرضاة الله (وفي الآخر كلمتان لم أعرفهما). انتهى.

وفي يوم الاثنين ثاني عشر ذي القعدة سنة ألف وتسع وثمانين جاء ناظر العين وأخبر بأن سيلاً جاء بالأوجر وأخرب نحواً من عشر خرزات ودفنها، فبادر إلى هذه الخدمة الوزير عثمان حميدان وأصرف على العملة من عنده وشرعوا من يومهم في التوجه إلى العمل وانقطعت العين من مكة بسبب هذا العمل إلى ثالث ذي الحجة فأطلقوها إلى مكة وحصل بورودها غاية السرور.

وفي شهر ذي الحجة الحرام سنة ألف وإحدى وتسعين غيمت السماء وأمطرت قبل صلاة الظهر واستمر المطر إلى العصر وكثر السيل ودخل الحرم، وحصل بذلك خراب عظيم في العين.

تعمير العين سنة ١٠٩١

قال الغازي في تاريخه نقلاً عن منائح الكرم، ما يأتي: ولما كان يوم الثلاثاء رابع شعبان المكرّم ورد مكة سليمان آغا ميرياخور السلطان الأعظم الخاقان الأفخم السلطان محمد خان بمرسوم سلطاني وقفطان لمولانا الشريف سعيد بن بركات ومضمون المرسوم إرسال المذكور لتعمير العين وما حدث فيها بموجب السيل الحادث في شهر ذي الحجة الحرام من السنة الماضية، فأشرفوه على ما تحتاج إليه العين من العمارة وغيرها، وأمر مولانا الشريف بمساعدته والنظر إليه فأنزلوه دار الوزير عثمان حميدان، ثم شرع في يتنظيف البرك في المعلاة وزاد في طولها إلى السماء مقدار قامة لارتفاع الأرض، ثم صرف همه إلى العين، فركب ونزل بوادي نعمان، بعد جمع المعلمين والمهندسين من المكيين والمصريين فاتفق رأيهم على بناء سد ليمنع سيل ذلك الوادي من الوصول إلى قنوات العين، فإن أكثر خرابها إنما هو لانهيال التراب ودفن تلك الخرزات، فشرع في بناء ذلك السد

وبنى على رؤوس القنوات الحواجز المسماة بالخرزات فبنى نحو عشرين خرزة وأبان في مباشرته عن همة عالية و لم يزل يجتهد بنفسه وعبيده وبسط يده للعمال مع حسن معاشرته لهم إلى أن أتم كل خلل وجده ، ثم التفت إلى عين حنين فبعث من ينظر له فيها وعمّر بقية الأماكن المأثورة بمكة كمسجد الخيف وقبة حراء ، وزاد في درج أبواب الحرم من خارج زعم أنها تمنع السيل من الدخول ثم التفت إلى أسفل مكة ، وهو المسفلة فجعل هناك قناة واسعة لفضالة السيل إلى بركة ماجن .

وفي ضحى يوم السبت الثامن من ذي القعدة الحرام سنة ألف وتسع وتسعين وصل مكة آغاة القفطان السلطاني بالخلعة السلطانية لمولانا الشريف أحمد بن غالب وصل معه معمار للعين بسبب عرض بعثه مولانا الشريف أحمد بن زيد ، وفي يوم السابع عشر من ذي القعدة طلع صاحب جدة وقاضي الشرع ومعهم المعمار المذكور إلى نعمان للإشراف على العمارة التي عمّر صاحب جدة في السنة التي قبل هذه فأشرفوا ونزلوا .

ما كسر من قناة العين سنة ١١٠٤

قال الغازي في تاريخه نقلاً عن « منائح الكرم » ما يأتي :

وفي يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الثاني سنة (١١٠٤) كسر من قناة العين نحواً من ثلاثين ذراعاً ، فجاء الخبر لمولانا الشريف سعد فبعث من وقته بالمهندسين فأشرفوا فاقتضى رأيهم أن يجعلوا دبلاً من خشب يجرون فيه العين إلى أن يفرغوا من الشغل في المنهدم فبعث إلى نائب جدة أحمد آغا ، ناظر العين ، فحضر من ليلته ، وأوجد لهم الوزير عثمان حميدان بجميع ما يحتاجوه من الخشب ، فبذل الهمة

وصنعوه بمكة وطلعوا به رابع عشر الشهر ، وركبوه وأجروا فيه الماء يوم الجمعة سابع عشر الشهر، واستمر الشغل فيها بغاية الصحة إلى أن تم بناء المهدوم وأجروا فيه الماء ثاني عشرين الشهر .

تعمير عين عرفات سنة ١١٢٤

قال الغازي في تاريخه نقلاً عن «منائح الكرم» ما يأتي :

وفي يوم الجمعة ثالث عشرين شوال سنة (١١٢٣) ألف ومائة وثلاث وعشرين وصل مكة المشرفة محمد بك بن حسين باشا المعين من طرف السلطان الغازي أحمد خان لعمارة عين مكة وهو الذي قد جاء سابقاً سنة ألف ومائة وثمانية بثمن غلال أهل الحرمين المنكسر ، وكان وصوله صحبة المراكب إلى بندر جدة ومعه مهمات ما تحتاج إليه العمارة من خشب وحديد وغير ذلك . وجاء بمعلمين من الآستانة ، وأخذوا له جميع ما يحتاج إليه من مصر لأنه وصلها في السنة التي قبل هذه وأقام بها وقضى منها مصالحه وأتى من جدة إلى مكة ، ودخلها ليلة الجمعة .

وفي يوم الثلاثاء سابع عشرين الشهر المذكور عزم مولانا الشريف بعد الظهر هو ومحمد بك بن حسين باشا المعمار والسيد يحيى بن بركات وجمع من السادة الأشراف وقاضي مكة المشرفة والمفتون وبعض العلماء وإبراهيم باشا متولي جدة والشيخ محمد الشيبي والسيد أحمد أفندي نائب الحرم الشريف والمهندسون وأرباب الخبرة لأجل الكشف عن الخراب الذي بالعين ، وما تحتاج إليه من العمارة فوصلوا إلى عرفة ، وقد كان حضرة الشريف أمر بنصب الصيوان والخيام ، وجعل السماط بها ، وكذلك ما يحتاج إليه الأمر من عليف وكلف بحيث لا يتكلف أحد ممن تبعه من صغير وكبير إلى نقل طعام ولا غيره ، منذ غيبتهم ، ويأتون تلك الليلة بها ، وفي الصبح قرئ الخط الشريف الوارد صحبة محمد بيك المعمار بسبب العمارة ومضمونه أننا قد عينا فخر الأماجد والأعيان محمد بيك بن حسين باشا ، زيد بجده لعمارة عين مكة المشرفة وأصحبناه مائتي كيساً ، منها خمسون كيساً مهمات ومائة وخمسون كيساً من النقد العين ، وأمرنا بعد الكشف بنظركم ونظر قاضي مكة وشيخ الحرم ، متولي جدة أن يعمر عمارة ماكنة بحيث تبقى زمناً طويلاً وإذا

احتاجت العمارة إلى مهمات ودراهم تعرفونا بسرعة نرسل جميع ما يحتاج إليه الأمر .

فبعد تمام القراءة توجه الجميع إلى وادي نعمان ، وأشرفوا على الخراب الذي بالعين وتكلم المهندسون بأن الأمر يحتاج إلى إصلاح خمس من الخرزات ، وإحداث عشر أخر مستجدة ، وتصليح بقية الدبول من نعمان إلى مكة فتكلم حضرة الشريف مع محمد بيك فيما قاله المهندسون فأجاب بأني مأمور بتعمير الخراب ، وأما إحداث شيء من الزوائد فيحتاج رفع ذلك بعرض إلى السلطان نصره الرحمن ، فاتفق الحاضرون جميعاً أن الأمر يحتاج إلى ما قاله المهندسون من إحداث الخرزات ، وعمارة الدبول والعرض بذلك فبات الجميع ليلة الخميس بنعمان على أجل إكرام وأكمل نظام ، وصاروا منها يتبعون أثر العين ويكشفون ما بها من خراب ودمار إلى أن وصلوا المفجر ، وباتوا فيه ليلة الجمعة على أحسن حال ، وصبح يوم الجمعة سلخ شوال ركبوا ودخلوا مكة واتفقوا في الشروع للعمارة بعد توجه الحج الشريف ؛ لأن الوقت قد ضاق وتم الأمر على هذا ، وكتبوا محضراً إلى الدولة العلية بجميع ما وقع من الكشف ، وطلب ما يحتاج إليه الأمر من الزوائد وغيره ، بعد الحدس والتخمين اللائق بأهل الخبرة من المهندسين والحاضرين ، وقصدهم يرسلونه إلى الدولة العلية ، وضمن المهندسون أن قدر ما يصرف فيه من الدراهم على تعمير عمارة عين مكة على الوجه المطلوب ، نحواً من مائة ألف شريفي أحمر ومائتي وأربعين أحمر ، فكتبوا بذلك دفتراً ووضعوا عليه خطوط العلماء والفقهاء والمشرفين على العمارة جميعهم . انتهى ما في منائح الكرم .

وذكر العلامة الطبري رحمه الله ، في إتحاف فضلاء الزمن أيضاً ، هذه العمارة الأخيرة في حوادث سنة ١١٢٣، ثم ذكر في حوادث سنة ألف ومائة وخمس وعشرين ، وفي هذه السنة تمت عمارة العين على أحسن شأن وأبهج رميم وبنيان ، بنظر المعمار الأمين محمد بيك ابن حسن باشا ، وقد طلب بعد التمام تاريخاً من مولانا المفتي عبدالقادر فأجابه لالتماسه سريعاً ، وأباحه دّراً بديعاً ، ثم أطلعني عليه فرأيت من الواجب تقريظه للمشار إليه .

صورة ما كتبه الشيخ عبد القادر مفتي مكة

قال الغازي نقلاً عن الطبري في إتحاف فضلاء الزمن : وهـذا صورة مـا كتبه الشيخ عبدالقادر مفتي مكة عند الانتهاء من عمارة العين :

الحمد لله الذي أنزل من السماء مـاء فسلكه ينـابيع في الأرض ، وبسطه في بساط البسيطة وأقطارها المحيطة بالطول والعرض ، ونحمده على أن جعل من المـاء كل شيء حي ، ونشكره ، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتبوءها مـن الجنـة مـا هـو خير مقاماً وأحسن مقيلاً ، ونرد بها عيناً فيها تسمى سلسبيلا ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبـده ورسوله المخصوص بالحوض المورود يوم العطش الأكبر القائل وهو الصادق الأمين أن في كل كبد حرّى أجراً ، الأول الذي كان نبياً وآدم بين المـاء والطين ، الآخر الذي يكون تحت لوائه آدم فمن دونه صلى الله عليه وعلى سائر من انتسب إليـه ، خصوصاً له مصابيح الدجى وصحبه مقاليد الهدى (وبعد) فقد أمر مولانـا سلطان الإسلام والمسلمين ، ظل الله الممدود على سائر العـالمين ، والخليفـة على الخليقـة ، الملك العدل حقيقة ، خادم الحرمـين الشريفين والمسجد الأقصى ، حـاكم المحلين المنيفين والممـاليك التي لا تحصى ، القـائم بفرضيـة الجهـاد ، البـاذل في إحيـاء كلمـة التوحيد غاية الوسع ونهاية الاجتهاد ، حضرة مولانا السلطان الغـازي أحمـد خـان نصره الرحمن ، وخلد ملكه ، وأجرى في مجاري السعادات فلكه ، وأعـز سلطانه ، وجعل من الملائكة المقربين أنصاره وأعوانه ، بتجديد عمارة عين عرفات منبع الخير والفيض والبركات ، وأرسل من عنده لمباشرة ذلك ، وتمهيد أسباب هذه المسالك ، أحد أمناء مملكته وكبراء دولته ، عظيم الأمانة ، مستقيم الديانـة ، مشكور البـاطن والظاهر والسيرة والمعتمد عليه في سائر الأمور الخطيرة ، حضرة مولانا محمـد بيـك بن المرحوم حسـين باشـا ، زاد الله بـه روح الوجـود انتعاشـاً ، فبـذل في أداء هـذه الخدمة الجليلة غاية الوسع والاجتهاد ، قرن الله سائر حركاته فيها باليمن والتوفيـق والسداد ، فعمر من ابتداء علة مكة جدر بستان الخـاصكي ، وأتـى في عملـه على جميـع القنـاطر بـالمفجر وبـازان ووادي المغمـس وعرفـات والكسـار وسـائر هـذه المناظر ، حتى أنشد الناظر يقول الشاعر (كم ترك الأول للآخر) فجميع ما وجده من ذلك خراباً أو صائر إليه ، عمره وجدده بغاية الإتقان والإحكام ، وقام إليـه إلى سلخ جدار أو ترميم أصلحه وأعاده على الوجه المستقيم ، وما هو قائم علـى أصلـه

لم يتعرض له بفعله ، وجدد من الخرزات ما هو لازم العمل ، وأزال بتنظيف الدبول من أرض نعمان إلى بركة ماجن أسفل مكة ما فيها من خلل ، وعمّر جميع الموارد وشرح بفعله الحسن من كل أحد من سكان هذا المقام صدره ، وهو في كل ذلك متلطف بالخدام والعمال ، موصل إليهم أجورهم بالتمام والكمال ، فاستجلب بذلك مولانا السلطان قراءة الفواتح الشريف والتضرع والابتهال وصالح الدعوات المنيفة ، فالله تعالى يديمه بهذه الصفات ويوفقه للباقيات الصالحات ، ولما أن أتم الله هذا العمل وأكمله وأتقنه ، وحسنه وجمله ووفقه لهذه الخدمة السنية الفاخرة وجعل هذا الخير العظيم على يده ويكفي ذلك سعادة في الدنيا والآخرة ، أرخه لسان الحال وأنشد بفصح المقال فقال :

فاق سلطان البرايا عربها ثم العجم
بمزايا ليس تحصى وبها جف القلم
خص أهل الله بالنعما وبالحسن عم
إذ حبا جيران بيت الله ذا الفضل الأعم
ولهم أجرى عيوناً غمضت عيناً وفم
ثم أضحت جاريات ساهرات لم تنم
فلذا أضحوا جهاراً بالدعاء المغتنم
رب أيد ملكه كي يجتني غرس النعم
وأبقه ما دامت الدنيا على رؤوس الأمم
وبذا التاريخ أضحى بيت شعر محتكم
قد بنى السلطان أحمد وعمّر عين الحرم

انتهى .

وفي الإتحاف أيضاً : وفي شهر ربيع الثاني من سنة ست وثلاثين ومائة وألف تطبقت العين من جهة عرفة ، فطلع إسماعيل باشا والقاضي ، وأشرفوا عليها ، وفي سابع عشرين الشهر المذكور ، عينوا لعمارة العين جملة معلمين فخرجوا لها ولا أمكن أن يتوجهوا وحدهم لأجل انقطاع الدرب حتى أرسلوا معهم بعض العساكر وعينوا لهم شريفاً يقيم عندهم يقال له : السيد عبد المعين بن حسن وعملوا له كل يوم نصف قرش .

وفي يوم الجمعة ثالث عشرين شهر ذي القعدة من سنة سبع وثلاثين ومائة وألف خرج إلى أشراف العين إلى نعمان باكير باشا وصحبته القاضي والشيخ سالم البصري والسيد أحمد بن مساعد نيابة عن حضرة الشريف والأفندي يحيى ولد المفتي نيابة عن والده الشيخ عبدالقادر المفتي .

وفي ليلة الأحد عند غروب الشمس عاد الباشا ومن معه وقد أخبرني ثقة أنهم أشرفوا على أربع عشرة خرزة ، وأنهم قدروها بمائة وخمسين كيساً واتفقوا أن يعرضوا فيها للأبواب العلية .

وفي رابع عشرين ذي القعدة من سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف خرج للكشف عن العين باكير باشا وشريف مكة لينظروا ما فيها من الخراب لأنهما قد بلغهما ذلك .

وفي سادس عشرين منه عاد حضرة الشريف والباشا من العين .

وفي أول ليلة من شهر ذي الحجة سنة تسع وثلاثين ومائة وألف توجه حضرة الباشا إلى النعمان للكشف عن العين وتصليح الخرزات والدبول وفي ثاني الحجة عاد الشريف وبعده عاد الباشا .

وفي عاشر عاشوراء من سنة أربعين ومائة وألف حصل في ماء العين خلل من عبيد العين ، فنادى الباشا شيخ عبيد العين والناظر ، وهو عبد موسى آغا ، فهرب ، وشيخ العبيد قبض عليه الباشا وضربه ثلاثمائة كرباج وحبسه فلما بلغ عبيد العين ذلك اجتمعوا وتسلحوا وجاؤوا إلى المعلا وبها بعض جماعة الباشا فاهتوشوا وإياهم لكنهما سلما فلما بلغ الباشا ذلك التزم أنه يسفرهم ويقتل شيخهم فذهبوا وتوجهوا بالشريف عبدا لله فطيب خاطر الباشا عليهم وأطلق لهم شيخهم .

وفي اثنين وعشرين ربيع الأول من سنة أربعين بعد المائة والألف بعد صلاة العصر قصد حضرة باكير باشا نحو نعمان للكشف عن العين وفي سبع وعشرين من الشهر المذكور عاد .

وفي أول الشهر ربيع الثاني من السنة المذكورة توجه إلى العين حضرة باكير باشا لأنه فتح هناك خرزة واحتاج أمره أن يكون واقفاً عليها وفي هذه المدة كثر الماء في البزابيز وجميع الخرزات فجزى ا لله أرباب الحسنات خيراً وفي ثمان من شهر ربيع الثاني عاد من العين باكير باشا .

وفي سابع شوال من السنة المذكورة ذهب إلى الكشف القاضي والمفتيين ونائب الشريف سليم آغا ونائب الباشا ابن أخته أحمد بيك وأشرفوا على عين مكة فوجدوا بها خراباً كبيراً فأخبروا الشريف بذلك، فأمرهم بالعمارة والباشا تمنّع منها، وقال: بعد الحج وا لله يلطف بالمسلمين. انتهى.

وفيه أيضاً في حوادث سنة أربعين ومائة ألف: وكانت الوقفة بالسبت و لم يحصل من المخالفات شيء وكانت الوقفة في غاية الأمن وإنما شاق على الناس قلة وجود الماء فقد بيعت القربة بثلاثين ديواني والبزابيز ناشفة والآبار والأعين كذلك فنسأل ا لله أن يفرج علينا ولا يؤاخذنا بسوء أعمالنا وأفعالنا.

وفي يوم عشرين منه ترحل الحج الشامي وعرض الشريف في أمر العين للسلطنة، وأرسل عروضه صحبة الحج، وفي سبع وعشرين ذي الحجة أراد الباشا النزول إلى جدة فمنعه الشريف عبدا لله، وقال له: حتى نشرف على العين نحن وأنت ونعمّر خرابها فمني لذلك مائتين كيس وأنت كذالك تسلم مثلها فإذا جاء المعمار حاسبناه وأخذنا ما هو لنا.

وفي هذا اليوم أرسل الشريف لجميع من له خدمة في العين وأمره أن ينوب نائباً وينزل هو ونائبه إلى نعمان، فقالوا له: النواب فيهم الكفاية ونزولنا ليس بعادة. فقال: لا بد من نزولكم مع نوابكم تشرفون، فأكثر الناس عافوها وأخرجوا كشوفاتها مع الدلال يعرضوها للبيع وخرج إلى نعمان من لا مراد له في البيع مع نايبه صحبة عبيد العين ليكشفوا الخراب وينظفوا. انتهى.

انقطاع الماء عن مكة وتعمير العين سنة ١٢٤٢

قال الغازي في تاريخه نقلاً عن كتاب «بغية الراغبين»: ثم إنه في سنة أثنتين وأربعين وألف انقطع الماء عن مكة بالكلية لخراب حدث بالدبول بأسباب السيول، ومكث الناس نحو شهر في ضيق عظيم، فأرسل والي مصر في ذلك الوقت محمد علي باشا وأمر بتعميرها فعمّرت وصرف على ذلك مبلغ وافر حتى صلحت.

ثم بعد ذلك بقيت هذه العين تارة تقل بقلة الأمطار وتارة تزيد بزيادتها إلى سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف.

وفي هذه السنة حدث سيل عظيم، وتخربت منه بعض الدبول وشح الماء عن مكة أياماً قلائل فعمّر ما تخرّب من الدبول وجرى الماء إلى مكة بأحسن حال، واستمر إلى سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف.

ثم قلّ الماء في العين، خصوصاً في شهر شعبان وآل إلى الانقطاع ووصل إلى مكة الوزير الأعظم السيد محمد شرواني باشا، والياً على الأقطار الحجازية وحين رفع إليه خبرها، أمر الوزير المذكور فوراً بثلاثين ألف قرش من جيبه الخاص، وعين جماعة للقيام بغاية الاهتمام وقال: عمّروا واصرفوا، ولو زاد المصروف ما زاد، ولو لم تأمر الدولة بذلك، فأنا المكلف والمخاطب فبتلك الهمة رجع للعين رونقها الأول، ومات الوزير المذكور في الطائف، ثم بعد موته اجتمع جماعة من علماء مكة المكرمة بشريف أمير مكة ذلك الوقت دولة المرحوم سيدنا الشريف عبدالله باشا، وهم: الشيخ عبدالرحمن سراج مفتي مكة، والشيخ عبدالله الشيبي فاتح بيت الله الحرام والشيخ عبدالرحمن جمال والشيخ عبدالقادر خوقير وغيرهم، وعولوا على جمع المال، من أهل البر والإحسان لإصلاح عين عرفات وإصلاح عين حنين وإجرائها لإعانة عين عرفات فوفق الله معهم أصحاب الهمم العالية الراجين ثواب الله سبحانه، منهم: المرحوم الشيخ أحمد أفندي المشاط فإنه دفع من عنده مائة جنيه، وجمع من تجار الهند بجدة مبلغاً، وصادف وجود أشخاص كرام مثل الحاج عبد الواحد الشهير بوحدانة الميمن، والحاج عبد الله عرب الميمن فساعدوا على هذا العمل الخيري أحسن مساعدة وعمروا ما تيسر لهم تعميره إلى أن جرى الماء بمكة واستراح الناس قليلاً ولكنهم علموا وتحققوا أن آلامهم لا تنقطع وتحتاج العين إلى نفقات هائلة.

أول جمعية لجمع الإعانات لتعمير عين مكة سنة ١٢٩٥

قال الغازي في تاريخه: ثم في سنة خمس وتسعين ومائتين وألف، رغب الشهمان الكريمان المتقدم ذكرهما وهما الحاج عبد الواحد وحدانة، والحاج عبدالله عرب وبعض جماعة معهما في القيام بهذا العمل الخيري وأن يقوموا به كل القيام ويجمعوا لذلك الإعانات من كل الجهات الإسلامية فوصل الحاج عبدالواحد والحاج عبدالله المذكوران ومعهما أشخاص، يترجمون ويوضحون الكلام الميمن إلى دار دولة أمير مكة ذلك الوقت وهو المرحوم المبرور الشهيد سيدنا الشريف

الحسين باشا يستأذنوه في هذا العمل الخيري فرحب بهم دولة الأمير وأظهر لهم الممنونية من همتهم ورغبتهم في هذا العمل الخيري والمهم ، غير أنه أخبرهم بأنه حيث أن الحكومة مرتبة سنوياً ألف جنيه عثماني لعين زبيدة فربما أنها لا تأذن لأحد بالمداخلة في هذا العمل وأن الأمر يحتاج إلى مذاكرة مع الولاية وكان الوالي في ذلك الزمن هو دولة راشد باشا ، ووعدهم بمذاكرته فخرجوا من لدى الأمير المشار إليه شاكرين لطفه وذهبوا أيضاً إلى الوالي وذاكروه في هذا الأمر ، ثم اجتمع بدولة الأمير وأخبره وتذاكر معه فاتفقوا على الاستئذان من الدولة العلية سوية ، واستأذنا فعلاً وتحصلوا على الإذن فصدر الأمر من المقامين العاليين بتشكيل لجنة فيها من الأشراف والأهالي وأفضل المجاورين كفضيلة المرحوم الشيخ الهندي رحمه الله فتشكلت اللجنة وشرعوا في الاكتتاب فتبرع دولة الأمير الخطير المذكور بمبلغ سبعمائة وخمسين ريالاً مجيدياً ، وتبرع دولة الوالي بمائتين وخمسين ريالاً مجيدياً ، وتبرع جملة من التجار والأهالي كل على قدر استطاعته وكتبوا إلى جميع الجهات الإسلامية خصوصاً مصر والأقطار الهندية ، واهتموا بهذا الأمر كل الاهتمام وقاموا به أحسن قيام ، وشرعوا في العمل بهمة عالية وسافر بعضهم إلى الهند لجمع الإعانات لهذا العمل الخيري .

ونظموا اللجنة بمكة رئيسها مفتي الأحناف بمكة المكرمة ، فضيلة المرحوم عبدالرحمن سراج رئيساً فخرياً ليسوق المسلمين لهذا العمل الخيري .

وكتبوا الكتابات المشوقة لهذا العمل وأعلنوا ذلك في الجرائد لجملة من اللغات ويرأسهم بالنظر للعمل والصرف المرحوم الحاج عبد الواحد وحدانة ، فإنه كان أمين الصندوق وكانت مباشرة الأعمال بنظر الأفاضل الكرام بعد الاستشارة والمداولة في اللجنة المذكورة ولا يعملون عملاً إلا بقرار منها فاجتمع في الصندوق مقدار عظيم وساعدتهم الحكومة المحلية على هذا العمل الخيري أتم مساعدة و لم تجعل لها عليهم يداً أصلاً إلا بالمساعدة عند الاحتياج منهم إليها ، وطلبوا من الهند مهندسين وصناعاً وخرجوا بهم إلى عرفة وذرعوا وقاسوا وحققوا أن المسافة بين مكة وبين منبع عين زبيدة من وادي نعمان تنوف على سبعة عشر ألفاً من الأمتار وأن تقديم العمل من عين زبيدة من جهة عرفة أنفع فاجتهدوا في ذلك وشرعوا في الأعمال وحفروا وبحثوا من أسفل الدبل من بعد حدود عرفة إلى جهة وادي نعمان نحو ستمائة ذراع بنوا فيها عدة خرزات دفنوا بعضها وأبقوا البعض لسقيان العربان

وكان شروعهم في العمل من مكة بتنظيف الدبول، وتعمير ما تخرّب منها، حتى وصلوا إلى المفجر وأوصلوا الماء إلى منى بالآلة النارية من المفجر ونحتوا لأجل ذلك بعض الجبال، ولم يزالوا في عملهم حتى وصلوا إلى عرفة وبنوا في عملهم هذا عدة خرزات في طريق مكة وبازانات بمكة منها بازان الشعب، وبازان سوق الليل وبازان القشاشية وبازان أجياد، وبازانين بحارة المسفلة، وبازان بحارة الباب، وبازان الشامية وبازان بسوق المعلا يسمى بازان التمارة، وعمروا ما كان خراباً وزادوا عدد موارد الماء بالبلدة وقطعوا الجبل الطويل الكائن بأول مكة وهو الريع المعترض وسط الطريق المشهور بريع الرسام وبنوا به دبلاً طويلاً يجري فيه الماء إلى حارة جرول، وبنوا في حارة جرول بازاناً عظيماً، يسقي الناس منه وكذلك أجروا عملاً آخراً من جهة العين الأصلية بمكة وهي عين حنين فإنهم اشتغلوا فيها واجتهدوا في إصلاح عين الزعفرانة، والشحاحيذ المعينة لعين حنين. انتهى.

صفة جريان عين زبيدة في الأرض

قال الغازي: وفي كتاب «دليل الحج للوارد إلى مكة والمدينة من كل فج» لصادق باشا أمين الصرة: وقد صار إصلاح عين زبيدة في سنة ألف ومائتين وست وتسعين، لأنه قد حصل فيها قبل أوان الحج بعض أهدام وجرى ترميمه في غاية الإتقان من أهل الخيرات حتى صار ماؤها يجري في قناة مبنية من المنبع إلى مكة كقناة الوابور عرضها من الأعلى متراً بل تارة يزيد، وفراغها من خمسين سانتي إلى ستين، وعمقها متر ونصف وارتفاع الماء عن قاعها سبعون سانتي، مغطاة ببناء من الحجارة وبالغطاء فتحات بقدر خمسين سانتي أو أكثر لأجل الملك، منها وهذه الفتحات متباعدة عن بعضها بنحو العشرة أوالعشرين متراً على حسب المواقع وبجانبها أحواض أخرى لشرب المارين، وأحواض أخرى لشرب الآدميين، وسطح القناة تارة يكون مساوياً لسطح الأرض وتارة مرتفعاً عنها إلى سبعة أمتار على حسب ارتفاع الأرض وانخفاضها كما شاهدت جميع ذلك بعرفات حيث تمر بجانب جبل الرحمة من الجهة الشرقية من عرفات متجهة إلى منى ثم إلى مكة وهناك نصب من جملة صهاريج متعددة وفي سنة ألف ومائتين وسبع وتسعين أرسل من مصر إمداداً خمسة وعشرون ألف جنيه مع أحد معاوني الداخلية وبرفقته أحد المهندسين المشهورين لمشاهدة العمارة الجارية بقناة العين مع كونها قد انتهت

تقريباً ، وشاهدت القناة مبنية بناءً متيناً من مكة إلى عرفات ، وفي عام آخر وجدت تعميرها صار إتمامه حتى إن الماء كثر بمكة وجهاتها . انتهى .

قال العلامة الزواوي : ومكثت اللجنة التي كان رئيس عملها المرحوم الحاج عبد الواحد الميمني تعمل بعزم وهمة نحو ثلاث سنين ، ثم حصل الضعف في عملهم شيئاً فشيئاً والماء جار بمكة أحسن جريان وكان صندوق عين زبيدة ذلك الزمان عامراً بالنقود المتواترة عليه بالإعانات دواماً من جهة الهند وغيرها ، واستمر كذلك إلى أن حدثت أمور طفيفة مخالفة لتعليمات اللجنة من أمين الصدنوق ثم تداخلت الحكومة المحلية في أمر النقود الموجودة في صندوق عين زبيدة بتناول شيء منها احتاجوه وصرفوه في بعض التعميرات اللازمة لها فلما بلغ أهل الهند أخذ ذلك المبلغ من صندوق العين لغير أعمال العين وقفوا عن إرسال الإعانات وكان ذلك سبباً لاستياء هيئة اللجنة حتى أوقفوا الأعمال ، ثم استعفى الرئيس وأكثر أعضاء اللجنة وسافر الحاج وحدانة بعد ذلك بنحو عامين إلى الهند .

تشكيل لجنة ثانية للعين

قال الغازي في تاريخه : وتشكلت لجنة جديدة كان الرئيس عليها والعامل فيها سعادة المرحوم صادق بك مرة والرئيس الفخري هو المرحوم الشريف حسين بن يحيى واستولى على ما بقي في صندوق العين ، وكان ذلك مبلغاً وافراً لأنه يقال : إنه كان الموجود في الصندوق عند الأخذ منه نحو سبعة وخمسين ألف جنيه وكان يصرف منه عليها .

ثم ترأس بعده المعلم الشقيري وحجب وغيرهم ، وبقي عملهم كذلك والماء بمكة تارة يقل وتارة يكثر وعين عرفة كذلك دواماً العمل واجتهدوا زيادة في تنظيف دبول عين حنين ، التي منها الزعفران وغيرها وكان أكبر عامل فيها هو المرحوم الفاضل الشيخ عبدالقادر خوقير ، بل كان يرجح العمل فيها على العمل في جهة نعمان ويصرح بأنها هي عين مكة الأصلية ، وكان له جملة من المساعدين في فكرة ذلك وحصل النفع العظيم من أعمالهم ، ثم انقطع العمل من الجهتين ، وبقي جريان الماء على عادته ، يزيد تارة مع توارد الأمطار وأخرى عند قلتها وقد حصل النقص الظاهر في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة وألف في عين زبيدة من جهة وادي نعمان وانقطع من جهة وادي حنين ، وكان ذلك بسبب قلة الأمطار فأمر أمير

مكة ذلك الوقت الشريف عون الرفيق باشا بإخراج صرفية ، وكان الرئيس في ذلك الوقت على القمسيون ، وهو المرحوم السيد سلطان الداغستاني ، فخرجوا وبحثوا وتقدموا في دبل العين نحو أربعة عشر ذراعاً وحصل من عملهم ذلك بعض فائدة أياماً قلائل .

جمع إعانات جبرية للعين

قال الغازي في تاريخه : ثم اشتد الحال وقل ماء العين في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة وألف وكان أمير مكة ذلك الوقت دولة الشريف علي باشا فأمر بتشكيل قومسيون تحت رئاسته بمكة وقومسيون بالطائف ، وجمعوا إعانات جبرية من مكة وجدة والطائف ، وكتبوا إلى الآستانة العلية بطلب إعانة زبيدة من جميع الولايات واجتمع عندهم بمكة نحو عشرة آلاف جنيه ، على ما قيل واجتمع بالآستانة العلية نحو ستة وثلاثين ألف جنيه ، وأخرجوا صرفيات لتنظيف الدبول والتقدم في وادي نعمان بالحفر والتعمير ووصل من الآستانة العلية مهندسون وهم : نشأت بك وتوفيق بك وغيرهم ووصل معهم شيء مما اجتمع من الإعانات بالآستانة العلية يقال : إنه نحو عشرة آلاف جنيه فاشتغلوا بهمة قوية في وادي نعمان ، وكانوا يخرجون في كل شهر نحو خمسة أو ستة أو سبعة رؤساء من المعلمين كل رئيس يترأس على جملة من المعلمين والعمال وأتباعهم وتكلف مصرف كل رئيس وأتباعه نحو مائتين إلى ثلاثمائة جنيه حتى تقدموا في نعمان إلى جهة أم العين التي هي منابعها الأصلية نحو سبعين ذراعاً ، وعمّروا أيضاً في نفس مكة عمارات كثيرة نقبوا فيها بعض دبول مكة وبرّحوا جميع الدبول بمكة ، ونظفوها وأصلحوا ما كان مهندماً منها ، وعمّروا دبلاً في الشامية من عند القصر المشنشن إلى المقسم الذي كان عند باب الزيادة وأصلحوا البازان الذي في الشامية ، وأوجدوا خرزة بين الشامية والقرارة وصرفوا في أعمالهم هذه مصاريف كبيرة .

ثم وصل في أول سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف مهندس ومفتش للبحث عن أحوال تعمير عين زبيدة وكيف صرفوا مبالغ الإعانات التي اجتمعت من مكة وجدة والطائف والذي وصلهم من إعانات الآستانة وخرج المفتش المذكور إلى وادي نعمان ، وكان معيته الشاب النبيه السيد هاشم بن المرحوم السيد السلطان الدغستاني فوصلوا إلى شداد للكشف ورأى الأعمال العظيمة بنعمان ، ثم وضع

خريطة عظيمة من أم عين زبيدة بقرب بلاد السبحي من شداد إلى مكة ونظمها أحسن تنظيم وأبقاها في قومسيون عين زبيدة وأخذ نقلها معه إلى الآستانة العلية ويقال إنه ذرع المتخرب من عين زبيدة في وادي نعمان ، من بعد شغل المرحوم الحاج وحدانة ثم الشقيري إلى موضع أم عين زبيدة فوجده ثلاثة آلاف وخمسمائة وسبعين ذراعاً .

أحوال العين أيام تولية الشريف الحسين بن علي

ملك الحجاز الأسبق

قال الغازي في تاريخه : ثم في أواخر سنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف تعين أمير على مكة المكرمة دولة الأمير الخطير الصالح العادل دولة سيدنا الشريف حسين بن المرحوم الشريف علي بن محمد بن عون أدام ا لله دولته وخلد بالإقبال صولته وجعل الخير والبركة في أعماله وأنجاله الكرام ولا يزال مظهراً لكل خير وإحسان فإنه بمجرد وصوله إلى مكة المكرمة صرف أفكاره في الإصلاحات وتفقد أحوال البلاد الطاهرة واجتهد في الاهتمام بكل ما فيه صلاح سكانها وراحتهم وما ينفع للوافدين إليها من كل فج عميق فمما كان مهماً عنده أمر إصلاح عين زبيدة من جهة وادي نعمان ومن جهة حنين ، وعنده العلم الوافي بما كان من أحوالها في الأزمان السابقة وما وقع من العناية بها أيام أعمامه الكرام خصوصاً زمن عمه المرحوم الشهيد حسين باشا وهم الحاج وحدانة فإن دولته كان من العاملين في ذلك القمسيون أحسن الأعمال وكان من أعضائه وعنده الاطلاع التام بما كان منه ، ويعلم أنه لو استمر على حالته الأولى وتحسن بعض التحسين و لم يحصل عليه التعدي لكان نفعه دائماً قوياً مستمراً نافعاً من غير تكليف على الدولة بشيء ما .

تشكيل لجنة ثالثة للعين

قال الغازي في تاريخه : فلذلك صمم «أي الشريف الحسين بن علي على ملك الحجاز الأسبق» على تشكيل هيئة جديدة لهذا العمل الخيري ، واتفق في ذلك مع والي الولاية ذلك الوقت وهو دولة كاظم باشا واجتمع رأيهم عليه ، وأن

تكون اللجنة على حالها أول أمرها في زمن الحاج وحدانة ، متشكلة من الأفاضل من كل جنس وأن تكون هيئتها حرة مطلقة التصرف ليس للحكومة المحلية معارضتها ولا التداخل فيها ولا في أحوالها وشؤونها بوجه ما ، بل عليها مساعدتها ومعاضدتها فشكل دولته اللجنة المذكورة في أوائل شهر محرم الحرام سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وألف فانتخبوا من العلماء والسادة والمجاورين من كل من هو مشهور بالعفاف والاستقامة والديانة ، وكونه ذا معارف في الجهات الإسلامية ومشهوراً لديهم بالغنى والعفاف فتشكلت الهيئة المذكورة من عدة من أهالي مكة والمجاورين ، وعدد من تجار الأتراك وعدد من علماء القازان ، ومن علماء بخارى وتجارهم ومن علماء الهند وتجارهم ومن علماء الجاوى وتجارهم وبعد أن عينتهم الحكومة رسمياً أخذوا في تحرير الكتب إلى الجهات ، واستنهاض همم أولي الثروة والخير ، ليمدوا يد الأعانة والمساعدة في ذلك بكل جهة ، ونشروا المقالات على صفحات الجرائد فأخذت الإعانات تنهال وتأتي من ذوي الهمم العلية والنفوس الأبية ،خصوصاً من جهات الهند ومصر والجاوى .

دنفت الهيئة الموقرة تبتدئ في الأعمال ، فشرعوا في تبريح دبول مكة والدبول المتقدمة إلى جهة عين حنين ، وكلما تقدم التبريح زيادة في المسافة حصلت الزيادة في الماء وغزرت مادته وقوي جريه ، حتى قطعوا من أول وقت شروعهم إلى غاية شهر ربيع الأول من العام الثلاثين والثلاثمائة والألف من زمام الشغل في وادي حنين ، الذي كان التبريح منتهياً إليه ، بعد الأعمال المتقدمة زمن الحاج وحدانة ومن عمل بعده ، مقدارا زائدة على أربعة آلاف ذراع بذراع العمل المعماري وعلى ألف ذراع في جهة وادي نعمان وأمثال ذلك في البلدة ، وكانت الخرزة التي انتهى عمل المتقدمين عندها تسمى الهاشمية وكان مدة عمل هذه اللجنة التي تيسر لها فيه هذا العمل العظيم من تبريح هذا المقدار في نعمان ومثله من جهة حنين وأمثال أمثاله في البلدة ومنها إلى وادي نعمان ومن الإصلاحات والتعميرات العظيمة النفع ، كما سيذكر ذلك مفصلاً كله لا تتجاوز ثلاث سنوات .

ثم في الثالث والعشرين من ذي الحجة الحرام آخر السنة المذكورة جاء سيل عظيم ، ودخل الحرم الشريف وامتلأ المسجد بالماء والتراب ودخل سيل آخر أيضاً في دبل عين زبيدة أعلى عرفات إلى قريب منى ، وسد الدبل بالأتربة حتى انقطع الماء عن مكة المكرمة ، ولكنه بحمده تعالى لم يضق الحال كثيراً على أهل بلد الله

الحرام وسكانه والموجودين فيه من الحجاج وكان ذلك بأسباب تقدم حصول أمطار بمكة المكرمة وجبالها ووجود شيء من المياه في حفر الجبال والمصافي وغيرها، وكون صهاريج البازانات وصهاريج البلدة ممتلئة بالماء ووجود قليل من الماء في دبل عين الزعفران.

وكان الصندوق في ذلك الوقت فيه مبلغ وافر من النقود، ففي الحال أخرجوا عملة بكثرة يبرحون الدبول من مواضع عديدة لم تمض مدة سبعة أيام إلا والماء جار في الدبول، ووصل إلى مكة المكرمة، وانتفع الناس به.

خراب العين وانقطاع الماء عن مكة سنة ١٣٢٨

قال الغازي في تاريخه: وفي الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف جاء سيل عظيم من وادي رهجان، وهجم على وادي نعمان بقوة، ودخل في دبل عين زبيدة وهدم عدة من الخرزات القديمة التي هي من أعمال هيئات لجان عين زبيدة المتقدمين، وانصب ماؤه في نفس دبل العين، حتى اختلط بمائها ووصل إلى مكة بقوة نحو يومين، ثم وقف بالكلية لسبب انسداد كثير من الدبول في عرفة وما بعده إلى جهة مكة بالتراب فلما بلغ دولة أمير مكة ذلك خرج هو وأولاده وطنب خيامه في وادي نعمان وأمر هيئة عين زبيدة بالاستعداد وأخرج الصرفيات المتعددة ورأى الخراب الذي وقع ومن سوء الخظ كان صندوق عين زبيدة في السنة المذكورة خالياً عنا لنقدية إلا الشيء اليسير الذي لا يجوز خلو الصندوق عنه، ولذلك تلطف دولة الأمير الخطير حفظه الله بهيئة لجنة عين زبيدة، وصرح لهم بأن لا يهتموا من جهة المصرف وأنه متكفل بتدبير ذلك بأي طريق كان وألزمهم العمل والهمة بكل جهدهم فقاموا أحسن قيام واجتهدوا كل الاجتهاد وأخرجوا عدة صرفيات للتبريح والشغل من كل جهة وحصلت نهضة من الأهالي والمجاورين فتبرعوا بالإعانات على قدر استطاعتهم وتبرع كل من الموسرين بقدر همته واستطاعته واجتمعت إعانات جزئية بحسب البلدة وسكانها واستمر دولة الأمير في وادي نعمان نحو عشرة أيام ثم رجع إلى مكة أياماً ثم عاد ثانياً حفظ الله بنفسه واستمر مدة قائماً على العمال والأشغال ومن المعلوم أن العمل بحضوره يتضاعف عما لو كان غائباً عنهم وكان دولته حفظه الله يأمر بذبح الذبائح من الإبل والبقر للعملة الذين يشتغلون في التبريح

فالبعض من جيبه الخاص والبعض من طرف لجنة عين زبيدة بأمره وإشارته حتى كان العمل مستمراً ليلاً ونهاراً ، وحين رأى الناس عناية دولته حفظه الله وطول مكثه في وادي نعمان وتحمله هو وأنجاله الكرام والأشراف حرارة الشمس والمشتاق العظيمة لأجل راحتهم خرجوا أفواجاً أفواجاً للعمل وبذل العموم والخصوص ما في وسعهم من مال ونفس ولم يرجع أخيراً حتى جرى الماء إلى مكة المشرفة وكان يوم وصول الماء إلى مكة عيداً عظيماً على الناس وصارت ألسنة الأهالي والمجاورين وكل ساكني مكة تلهج بالدعاء لدولة الأمير من صميم الفؤاد ولهجت الصحف بالثناء على غيرته وحميته .

وفي اليوم الثاني عشر من شهر محرم الحرام من عام الثلاثين والثلاثمائة والألف حدث بمجيء سيل عظيم من وادي نعمان ورهجان ودخل الفري الكبير الذي في باطنه عدة خرزات من آخر أعمال اللجنة التي كانت في زمن الحاج وحدانة ومن أعمال من عمل بعده وكذا هذه اللجنة أيضاً فإنها أحدثت قريباً منه عدة خرزات وبقيت حفرة هذه الفري المذكور كبيرة متسلطة على جميع الخرزات فدخلها السيل وعلا خرزة منها كانت منخفضة ومنها سقاية الأشراف العبادلة سكان الهاوة وغيرهم حتى دخل في دبول عين زبيدة وسدها بالتراب ومنع جريان الماء إلى عرفة وانقطع الماء عن مكة بالكلية فحينئذ ركب أمير مكة حفظه الله بخيله ورجله ووصل إلى وادي نعمان وكشف على الخراب ورجع ثاني يوم إلى مكة ، وأمر لجنة عين زبيدة بإخراج صرفية بعملة كثيرين للعمل المذكور وأن يهتموا به أعظم اهتمام فقاموا بذلك واجتهدوا كل الاجتهاد حتى ما مضت عشرة أيام إلا والماء جاري في الدبول ووصل إلى مكة وفرح الناس بوصوله واستقوا منه ولم يزل عملهم في التبريح والتعمير إلى أن رجعت الأشياء إلى مجاريها وكان ذلك بعد نحو شهر وزيادة .

ثم إن هيئة لجنة عين زبيدة لما رأت دوام البلاوي والمصائب على عين زبيدة ومجاريها بأسباب أفرية وادي نعمان المتقدم ذكرها وأن الكائنة تحت لا تزال السيول تدخلها وتخرب في الدبول ولا يزال الناس في تعب عظيم من ذلك استحسنت رفع الحال وإيضاحه إلى دولة الأمير وطلب رأيه العالي في طريق رفع هذه المضار وحرروا له مذكرة في هذا الخصوص فمن حين وقع نظره على المذكرة المذكورة اهتم لذلك فخرج دولة الأمير بنفسه وأولاده وجملة من الأشراف

والعربان الذين يعتادون أمور العين ويعرفون أشغالها وخرج أيضاً لجنة عين زبيدة وجملة من الأعضاء وخرج بمعيتهم المفاتي المحترمين وجملة من الذوات وخرج جملة من المهندسين والمعلمين وكشفوا كشفاً دقيقاً وتحققوا به لزوم تقديم العمل في دفع الضرائر التي تتوراد على دبل عين زبيدة لسد الحفر وجميعها والسعي في عمل سد قوي مانع لضرر السيول عن دبول عين زبيدة واستحسنوا العمل فيه بالبقر فاشترى دولته من جيبه الخاص عدداً من البقر لشغل السد وما يحتاجه وساعد بجميع الأعمال من جيبه الخاص تبرعاً منه لهذا العمل الخيري العظيم مدة خمسة عشر يوماً حتى يتحصل لصندوق عين زبيدة شيء من النقدية يكفيهم للعمل المذكور فأشار بجمع إعانة طفيفة من أهالي البلدة وأمر بدفع ما كان قد اجتمع عنده إعانة من أهالي البلدة الطاهرة، برسم المدرسة الخيرية إلى صندوق عين زبيدة ليصرف ذلك لهذا العمل المهم، وأمر اللجنة بالشروع في العمل المذكورة مقدمين الأهم فالأهم وأن يديموا عملهم في تبريح الدبول بما يتوارد إليهم من أهل الخير بنفس البلدة الطاهرة التي أشار دولته بجمعه وبما يصلهم من الخارج وأخرجت العملة للدفن في الأفرية ثم لتبريح الدبول أيضاً في زمام الشغل وهكذا.

وقد تقدم عملهم الذي وقفوا عنده من جهة عين مكة الأصلية التي هي عين حنين وتوضيحه أن اللجنة من أول أمرها لما رأت انقطاع الماء عن مكة من جهة عين حنين بأسباب وقوف الأعمال فيها مدة طويلة وتوارد السيول على الدبول ومجاري الماء فيها حتى أخربتها وملأت دبولها بالأتربة الكثيرة وحصل الهجوم في دبل الزعفرانة الكائنة عند مدرج الغويرات فاندك الدبل بالتراب وانقطع دبل المعيصم وانحبس ماؤه في أعلاه عند أول خرزة وراء السد حتى صارت موردا لقريش استحسنت هيئة اللجنة المذكورة عند أول شروعها في الأعمال في أول سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وألف تبريح طريق دبل الزعفرانة الذي كان اشتغل فيه المرحوم الشيخ عبدالقادر خوقير ومن كان معه، ثم ترك العمل فيه بالكلية فعزموا وعينوا من يعتدون صدقه وأمانته وهمته وهو الشيخ خليفة بن نبهان على شغل العين جهة حنين وأرسلوا معه العمال والصناع واستمر عمله ذلك إلى آخر سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة وألف وجرى الماء في دبل الزعفران، وعمروا دبل المعيصم حتى اتصل بالزعفرانة عند خرزة تقابل جبل القويرات واستمر الماء منحدراً إلى دبل عين عرفة يصل ماء الزعفرانة إلى خرزة جديدة بنيت في بطن البستان الشهير ببستان بنونه الذي هو قبال دكة المنحنى ثم منها يجتمع في خرزة أيضاً في البستان

المذكور وهي قديمة يجتمع فيها ماء عرفة وماء حنين ، وينحدر الجميع في مجرى واحد إلى البلدة في التشمة المعمرة قديماً في حارة المعابدة ، فجرى عمل الشيخ خليفة ومن معه بهمة عظيمة .

اكتشاف دبول بعض العيون ومساحة ما بين بعضها

قال الغازي في تاريخه : ووجدوا في أعمالهم «أي الشيخ خليفة ومن معه» عدة دبول لعدة عيون شحاحيذ مبنية بالبناء الملوكي الجيد ، والكل منه دفن بالأتربة وقد قطعها السيول فبرحوا وعمروا منها ، في هذا العمل وهذه المدة القصيرة ثلاثة دبول : دبل الزعفران ودبل المعيصم ودبل ثقبة ومساحة ما تبرح وأصلح من دبل عين الزعفرانة من بستان بنونة إلى آخر الخرزة الظاهرة الكائنة في الخريق تنوف على أربعة آلاف متر ، والخرزة التي هي في الخريق بعدها بنحو سبع خرزات تحت الأرض هي لدبل الزعفران ومساحة ما تبرح من محل اجتماع المعيصم بالزعفران إلى نهاية خرزة وراء السد ، التي هي مورد لقريش ألفان ومائة وخمسة وسبعون متراً وقد كشفوا إلى جهة الأمية أربعين خرزة في باطن الأرض ومساحة ما تبرح من دبل ثقبة ، من محل اجتماعه بالزعفرانة إلى آخر الحفريات الظاهرة خلف السد الصغير تسعمائة وخمسة وعشرون متراً وبنوا في جهة حنين حين عملهم ذلك سبع خرزات مجددة ظاهرة أحدها مكتوب عليها اسم بنهاني وذلك غير إصلاح وترميم خرزات أخر فجملة ما تعمر من الخرزات الظاهرة جهة حنين نحو اثنتي عشرة خرزة .

وأما الخرزات المعمرة في الدبول ولم تظهر على وجه الأرض فتنوف على المائة خرزة ثم وقفوا العمل في جهة حنين على نية العود إليه عند السعة ، وقدموا العمل من جهة وادي نعمان لكون منابع الماء في وادي نعمان أكثر والعمل فيه أولاً أصلح وتقدموا أيضاً في أعمالهم جهة الوادي المذكور نحو ألف ذراع بنوا فيها ثماني عشرة خرزة والمسافة بين الخرزات متفاوتة ما بين عشرين ذراعاً إلى ثلاثين وأربعين إلى سبعين ذراعاً ، وكل ذلك بحسب الاقتضاء وذلك غير الخرزتين العظيمتين التي فزع في حفر فريها وتعمير بعضها ، بعض أهالي البلدة بنظر دولة الأمير حفظه الله وهما على منفذ واحد في السفل وكان ذلك الموضع ضيقاً شديداً ، يصعب العمل فيه على العملة صعوبة شديدة ، وذلك لزم الحال فيه إلى حفر فرى عظيم واسع طول

خمس وأربعين متراً في عرض سبعة وثلاثين متراً يكون مربع ذلك ألفاً وستمائة وخمسة وستين متراً و لم يزل يتناقص على حسب عادة الحفريات كلما نزلوا مقدار ذراعين فصلوا منه دكة بمقدار ذراع لوقوف العملة عليها يسمى ذلك ركازاً إلى أن وصل في أسفله إلى عرض سبعة عشر ذراعاً وأما الطول فهو على حاله خمسة وأربعين ذراعاً وذلك متصل بأسفل الدبل عند منابع الماء وعمقه في باطن الأرض يزيد على ثلاثة وعشرين متراً ، وبنوا فيه الخرزتين اللتين طلع بهما كالمنارتين على وجه الأرض وقد صرف في هذه الحفريات وبناء القصبات ما ينوف على ألف جنيه وذلك غير عمل أهل البلدة المتبرع به منهم مجاناً وغير ما صرفه دولة الأمير من جيبه الخاص. انتهى ما في بغية الراغبين بحذف واختصار .

استعمال العرب لمواسير المياه

كان إيصال المياه ، في الأزمان السابقة ، من مجاري الماء إلى داخل البلدة ، بواسطة شق الأرض وبناء القنوات والدبول والمجاري فيها وفي عصرنا هذا أي في العهد السعودي من سنة (١٣٧٠) ألف وثلاثمائة وسبعين تقريباً شاع استعمال مواسير المياه لإيصال ماء عين زبيدة في شوارع مكة وأزقتها إلى داخل البيوت وطبقات المنازل كما هو الحال في الممالك والأقطار الأخرى .

ويعتقد الناس أن عمل المواسير هو من اختراع الإفرنج فقط في هذا العصر وهو كذلك في ظاهر الأمر ولكن الحقيقة اختراع المواسير هو من عمل العرب فقط ، ثم تركوا هذا الأمر واهتدى إليه الإفرنج في هذا العصر ، وشاع استعمالها شيوعاً ذائعاً .

ودليلنا على أنا العرب هم الذين استعملوا مواسير المياه قديماً هو ما ذكره الإمام الأزرقي في تاريخه ، فقد قال في الجزء الثاني عند ذكر ما عمل في المسجد من البرك والسقايات ما نصه :

حدثنا أبو الوليد قال : حدثني جدي قال : حدثنا عبدالرحمن بن حسن ابن القاسم بن عقبة بن الأزرق عن أبيه قال : كتب سليمان بن عبدالملك بن مروان إلى خالد بن عبدالله القسري أن أجر لي عيناً تخرج من الثقبة من مائها العذب الزلال حتى تظهر بين زمزم والركن الأسود ويضاهى بها رغم ماء زمزم .

قال : فعمل خالد بن عبد ا لله القسري البركة التي بفم الثقبة يقال لها : بركة القسري ، ويقال لها أيضاً بركة البردى «بفتح أوله وثانيه» بيئر ميمون ، وهي قائمة إلى اليوم بأصل ثبير فعملها بحجارة منقوشة طوال وأحكمها وأنبط ماءها في ذلك الموضع ثم شق لها عيناً تسكب فيها من الثقبة وبنى سد الثقبة وأحكمه .

والثقبة شعب يفرع فيه وجه ثبير ثم شق من هذه البركة عيناً تجري إلى المسجد الحرام ، فأجراها في قصب من رصاص حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقية من رخام بين زمزم والركن والمقام فلما أن جرت وظهر ماؤها أمر القسري بجزر فنحرت بمكة وقسمت بين الناس وعمل طعاماً فدعا عليه الناس ، ثم أمر صائحاً فصاح : «الصلاة جامعة» ثم أمر بالمنبر فوضع في وجه الكعبة ، ثم صعد فحمد ا لله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس احمدوا ا لله تبارك وتعالى وادعوا لأمير المؤمنين الذي سقاكم الماء العذب الزلال النقاخ ، بعد الماء المالح الأجاج ، الماء الذي لا يشرب إلا صبراً «يعني زمزم» .

قال : ثم تفرغ تلك الفسقية في سرب من رصاص يخرج إلى وضوء كان عند باب المسجد باب الصفا في بركة كانت في السوق قال : فكان الناس لا يقفون على تلك الفسقية ولا يكاد أحد يأتيها وكانوا على شرب ماء زمزم أرغب ما كانوا فيه .

قال : فلما رأى ذلك القسري صعد المنبر فتكلم بكلام يؤنب فيه أهل مكة فلم تزل تلك البركة على حالها حتى قدم داود بنعلي ابن عبدالله بن عباس مكة حين أفضت الخلافة إلى بني هاشم فكان أول من أحدث بمكة هدمها ورفع الفسقية وكسرها وصرف العين إلى بركة كانت بباب المسجد . قال : فسر الناس بذلك سروراً عظيماً حين هدمت . انتهى من الأزرقي .

ثم جاء في هامش الأزرقي عند هذا الكلام ما نصه :

وزاد الفاكهي فيما ذكر الأزرقي قال : فكان ذلك السرب الرصاص على حاله حتى قدم بشر الخادم مولى أمير المؤمنين في سنة ست وخمسين ومائتين فعمل القبة التي إلى جانب بيت الشراب وأخرج قصب خالد هذه التي من رصاص التي كان عملها سليمان بن عبدالملك فأصلحه وجعله في سرب الفوارة التي يخرج منها الماء من حياض زمزم تصب في هذه البركة التي بباب المسجد انتهى .

فعلم مما تقدم أن مواسير الرصاص لمجرى الماء كانت معروفة عند العرب قبل عصرنا هذا بثلاثة عشر قرناً أي من منذ ألف وثلاثمائة سنة .

استعمال أنابيب المياه بمكة المشرفة

نقول : ولد كان ابتداء استعمال مواسير المياه بمكة المشرفة في سنة (١٣٧٥) ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين تقريباً ، فتمتد هذه المواسير من مجاري عين زبيدة إلى المنازل في مختلف الحارات والشوارع وتصل هذه المواسير الممتدة في تحت الأرض إلى أعلى طبقات الدور والمنازل كما أنها تمتد من باطن الأرض إلى أعلى جبال مكة ، ليأخذ سكان هذه الجبال الماء من هذه المواسير ، ولقد ارتاحت الناس بهذه الحالة أشد الارتياح فجزى الله تعالى العاملين والمخلصين خير الجزاء .

أنابيب الماء والتدفئة

لما أدخلت نظم التدفئة وأنابيب الماء وشيدت المنازل العالية ذات الأدوار العديدة في رومه استشاط سفيكا الحكيم الروماني غيظاً ونقم عليها وأعلن سخطه على رؤوس الملأ قائلاً : إنها خطر وتهجم على الأخلاق وتهديم للفضيلة وتحسر على الماضي ، وأبان كيف أن الأقدمين كانوا يعيشون أحراراً نبلاء تحت سقوف من القش، في حين أن العصريين عبيد أرقاء تستر زلتهم قصور عمادها المرمر والرخام وجدرانها المنقوشة بالذهب الوهاج . اهـ .

انظر: الصور ٢٨٣ لسقاء يحمل تنكتين من الماء – يستقي بالزفة ، و٢٨٤ لسقاء آخر يحمل قربة من الماء ، و٢٨٥ لبعض السقاؤون يستقون من بازان سوق الليل، و٢٨٦ لسقاء وحماره يحمل أربع تنكات من الماء .

الاستقاء بالقِرَب وبصفائح التنك

جاء في كتاب التراتيب الإدارية في الجزء الثاني ما نصه : في سنن النسائي عنا بن مسعود كان النبي ﷺ يأمرنا بالصدقة فما يجد أحدنا ما يتصدق به حتى ينطلق إلى السوق فيحمل على ظهره فيجيء ... الحديث .

ثم صدر أمر رسمي بمكة المشرفة في أول محرم ١٣٨٢ بعدم السقاية بالقرب في جميع البازانات بمكة المكرمة ، بل على كلٍ سقاء أن يستقي بالزفة وهي أن يحمل الماء في برميل أو تنكتين يجعل بينهما عوداً ثم يحملها على كتفه ويذهب بهما إلى البيوت بعد أن يملأها بالماء وبذلك بطل الاستقاء بالقرب والاستقاء بالقرب معمول به من آلاف السنين في جميع بلدان العالم فسبحان مغير الأحوال .

بازان القاضي

بازان القاضي الواقع في درب منى على يمين الذاهب إلى منى على يمين جبل الرخم عمقه نحو (٣٠) متراً ويشمل علىٍ نحو (٧٠) درجة ويتراوح ارتفاع الدرجات في ما بين (٢٥) ، (٣٠) سنتيمتراً ومحاط بسور عرضه (٦) أمتار وطوله (١٥) متراً وعشرين سنتيمتراً وارتفاعه متران وله باب من جهة الغرب وتحته مجرى ماء عين زبيدة تجري فيها الماء إلى داخل مكة حتى اليوم ووسطه وأسفله مبني بعقود وكذلك بعض جداريه ليحفظ تساقط الحجارة والصخور الرخوة من الوقوع في المجرى لعدم استيرادها وقد حفر على الصخر الصماء منذ عام (٩٦٩) هجرية وهذا البازان عمل على نفقة ابنة السلطان سليمان وسقف البازان مكشوف والماء يجري من باطن الأرض إلى ذلك البازان .

انظر: صورة رقم ٢٨٧ ، المؤلف يصعد من بازان القاضي مجرى عين زبيدة تحت الأرض، قبيل منى ١٣٧٦، هـ

انظر: صورة رقم ٢٨٨ ، المؤلف عند بازان القاضي مجرى عين زبيدة تحت الأرض، قبيل منى سنة ١٣٧٦هـ

بازان حبس الجن

ثم بعد حوالي (٥٠٠) متراً على ما يقابل البازان المذكور ، على اليمين أيضاً ، من طريق الإسفلت ، توجد بركة قديمة كبيرة الوسع ، تعرف بحبس الجن ، يقارب عملها بازان القاضي المذكور محاط بسور ، وبازان حبس الجن هذا مبني بوسطها من مقر البركة إلى أعلى بترتان أي حائطان مضلعان عرض كل منها نحو ثلاثة أمتار وعرضه أكثر من متر بين الحائطين وبين جدرانه من الجهات الأربع قطع من الحجارات الضخمة لحول كل حجر نحوٍ مترين وأكثر والعجيب من هذه البركة ومن حجاراتها التي بنيت لها عظيمة جداً لا يقدر على حمل الواحدة منها عشرة

رجال بل في نظرنا يستحيل رفعها بواسطة الرجال والله تعالى أعلم . إننا لنقف مندهشين من بنائه وسقف البازان مكشوف والماء يجري من باطن الأرض إلى ذلك البازان .

وهناك بركة أخرى مثل بازان القاضي وهي قبله وإنها لبركة عجيبة أيضاً يعلم من كل ذلك ، ما كان الأقدمون يكلفون أنفسهم في سبيل توفير المياه والراحة بسكان بلد الله الحرام .

انظر: صورة رقم ٢٨٩ ، المؤلف ينظر إلى البركة العظيمة التي يرجع عهدها إلى نحو ألف عام ومعه بعض الناس قبيل منى وفي ظهرها

انظر: صورة رقم ٢٩٠ ، بئر الجن كما يقوله العوام وهو في طريق منى على يمين الصاعد إليها

انظر: صورة رقم ٢٩١ ، فوهة البازان قبيل منى مجرى عين زبيدة، سنة ١٣٧٦هـ

ما عملته هيئة عين زبيدة سنة ١٣٣٥ بمكة المكرمة

قال الغازي في تاريخه : وفي أوائل سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وألف شرعت هيئة عين زبيدة في إخراج الصرفيات اللازمة إلى وادي نعمان ، والتقدم في تنظيف القناة إلى الأمام وبناء الخرزات التي ظهرت فانتهت من بناء خرزتين بالأحجار والنورة يبلغ طول الخرزة الواحدة من ظهر القناة المدفونة تحت الأرض إلى وجه الأرض ثلاثين متراً وأتمت بناء خرزتين أيضاً بقيتا من العام الذي قبله واتخذوا لها الاحتياطات اللازمة من البناء حولها خوفاً من السيل الذي يمر من بين الخرزات في بطن الوادي من دخوله في بطن القناة وسده وشرعوا في تخليط موضع لجعله أنهاراً للوزام الصرفيات التي تخرج إلى نعمان ومأوى للعمال يأوون فيه من شدة الحر والبرد لأن أنهارها القديمة أصبحت بعيدة جداً عن موضع الاستقبال الآن ، نظراً للتقدم إلى الأمام سنوياً وأجروا بناء البعض منه وسيتم إن شاء الله تعالى تدريجاً حسب الظروف.

صدور أمر جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود بتعمير العين سنة ١٣٤٤

قال الغازي في تاريخه : وفي السادس عشر من ربيع الأول سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف دهم السيل في وادي نعمان قناة عين زبيدة ودخل فيها وخرب منها ثلاث خرزات وانقطع الماء عن الوصول إلى مكة المكرمة زهاء ثلاثة شهور فأصدر جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن السعود بتعمير ما خرب من جيبه الخاص وحض أعضاء هيئة عين زبيدة على التشمير عن ساعد الجد ، وبذل الهمة في إجراء العمل فشرعوا العمارة بجد واجتهاد وهمة ونشاط إلى أن سهل الباري بتعمير ما خرب ووصلت المياه إلى البلدة الطاهرة وسقت العموم وذلك في شهر جمادى الثانية سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف ومجموع ما صرف في هذا التعمير ألفين وثلاثة وعشرين جنيهاً إنكليزياً وهذا عدا ما صرف على جند الإخوان الذين قاموا بالمساعدة الفعلية في وادي نعمان طوال مدة التعمير من الأرزاق والعطية لكل واحد منهم ريالاً مجيدياً في كل يوم وكان يبلغ مائة وخمسين كذا في «الخلاصة المفيدة لأحوال عين زبيدة» للفاضل الأديب الشيخ عبدالقادر ملا قلندر أمين صندوق عين زبيدة -وفيها أيضاً- المبلغ الموجود بصندوق عين زبيدة لغاية سنة ١٣٤٥ مائة وأربعة وعشرون ألف وثمانية وسبعون قرشاً أميرياً واثنتا عشرة بارة ونصف أميري لا غير . اهـ . انتهى من الغازي .

البرك الواقعة بمكة وما حولها

قال الغازي رحمه الله تعالى في تاريخه ما نصه : الفصل الثاني في البرك الواقعة بمكة المكرمة ، قال في تحصيل المرام في ذكر البرك : وأما البرك ففيها أي بمكة عدة برك :

(منها) بركتان عند باب المعلا متلاصقتان على يسار الخارج من مكة إلى المعلا جددنا في زمن الناصر حسن صاحب مصر في سنة سبعمائة وتسع وأربعين ذكره القرشي . قلت : لم يبق لهما أثر وقد أدركنا واحدة منها معطلة يسمونها بركة المصري والآن ملغونة وكانت في مقابلة بركة الشامي وبينهما الطريق .

(ومنها) بركتان على يمين الخارج إلى المعلا أحدهما بلصق سور باب المعلا بيستان الصارم وكانتا معطلتين فعمرت إحداهما سنة ثمانمائة وثلاث عشرة وملئت من العين ذكره القرشي . قلت : هي الآن عمار موجودة تسمى الآن بركة الشامي والبستان اسمه الكمالية بجانبها . انتهى .

أقول : لم يبق لها أثر وقد أدركناها معطلة والآن مدفونة .

(ومنها) بركتان عند مولد النبي ﷺ بسوق الليل بيستان المسلماني على ما ذكر ولا وجود لهما الآن .

(ومنها) بأسفل مكة بركة يقال لها بركة الماجن . انتهى .

أقول : هي الآن عمار ملآنة وبجانبها بستان للشريف علي بن المرحوم مولانا الشريف عبدالله يستقي منها ، وقد رفع الشريف على جدارتها الأربع في سنة (٨٤٨) بحيث لا يقدر أحد على النزول إليها . وكان الناس قبل ذلك ينزلون فيها ويغتسلون منها، وكثيراً منهم كانوا يغرقون ويعطبون فيها ، وأما الآن فسلمت نفوس الناس عن العطب والهلاك .

وقد عمرت ونظفت هذه البركة في سنة ثمان وأربعين وثمانمائة (قال ابن فهد) : وفي سنة ثمان وأربعين وثمانمائة عمر السيد حسن ناظر الاسكندرية البركة بأسفل مكة المعروفة ببركة الماجن وأخرج ما كان فيها من التراب ، ورفع جداراتها الأربع . انتهى .

وفي تحصيل المرام قال القرشي : وبحرم مكة مما يلي منى وعرفة عدة برك (منها) البركة المعروفة ببركة السلم ، ولم يعرف من أنشأها ، وجدّدها الأمير المعروف بالملك نائب السلطنة بمصر ، وعمّر العين التي يصل إليها الماء منها ، وهذه العين مجراها من منى وذلك في سنة سبعمائة وخمس وأربعين (يقول) مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردي : إن بركة السلم رأيناها في عام (١٣٧٧هـ) وكانت جافة ليس فيها قطرة ماء ، وهي واقعة على يسار الذاهب إلى منى قبيل مسجد البيعة.

وبطريق منى مما يلي المزدلفة في طريق عرفة عدة برك معطلة عمّر بعضها نائب السلطة في دولة الملك أشرف شعبان صاحب مصر وبعضها عمّرها إقبال الدين المستنصر العباسي في سنة ستمائة وثلاث وثلاثين . انتهى .

وقال الفاسي في شفاء الغرام : وبعرفة عدة برك وغالبها الآن ممتلىء بالتراب ، حتى صار ذلك مساوياً للأرض بعضها من عمارة العجوز والدة المقتدر ، وذلك خمس برك وتاريخ عمارتها سنة خمس عشرة وثلاثمائة وبعضها عمّرها المظفر صاحب إربل في سنة أربع وتسعين وخمسمائة وفيما بعدها وبعضها عمّرها إقبال الشرابي المستنصري العباسي في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وعمارتهما للبرك المكتنفة بعين عرفة أيضاً واسم إقبال باق في بعض البرك التي حول جبل الرحمة ، وعمّر بعضها الملك نائب السلطنة بمصر، ثم عمّر بعضها في دولة الملك الأشرف شعبان صاحب مصر . انتهى .

وأول من اتخذ الحياض بعرفة ، وأجرى عليها العين عبدا لله بن عامر بن كرز . كذا في أسد الغابة ، وقد جددها السلطان سليمان وجددت بعده مراراً وهي الآن عمار مملوءة من عين عرفة . ذكره في تحصيل المرام . انتهى من الغازي .

الآبار التي بمكة وما حولها

قال الغازي في تاريخه : الفصل الثالث في ذكر الآبار التي بمكة قال الشيخ محمد الصباغ المكي في «تحصيل المرام» : قال القرشي في «البحر العميق» : ذكر الأزرقي شيئاً من خبر آبار الجاهلية والإسلامية بمكة وحرمها ، وليس يعرف الآن مما ذكره إلا النادر وجملة ما احتوى عليه سور مكة من الآبار ثمانية وخمسون بئراً ، ومن الآبار المعروفة التي ذكرها الأزرقي البئر التي برباط السدرة حفرها هاشم بن عبد مناف وقيل قصي.

قلت : رباط السدرة كان من باب السلام إلى باب النبي ، ثم قال القرشي : وكانت هذه البئر شارعة على المسعى .

ومنها بئر بالمدرسة الأفضلية ، وبئر بالميضاة الصرغتمشية وبرباط الخليفة وبرباط الفعالية وبالمدرسة المنصورية وعند باب الحزورة ، حفرها المهدي وفي دار الملاعبة وبمدرسة المجاهدية وبرباط كلاله بالمسعى وبالمطهرة الناصرية ، عند باب بني شيبة وبمطهرة الأشرف شعبان بالمسعى ومنها عند حمام سوق الليل ، لعلها بئر عبد شمس وبقربها بئر لأبي مغامس وعندها مسجد وبقرب ذلك أيضاً بئر ، وبئران بالمعلا بشعب عامر أحدهما في بستان هذا الشعب والآخر بفم الشعب ، وبئر في البستان الذي عند باب المعلا ، وبئر أم الفاغية عند سبيل ابن ظهيرة ، وبئر عند

مسجد الراية وهي بئر جبير بن مطعم. انتهى من شفاء الغرام للفاسي. ثم قال الفاسي: وبأجياد عدة آبار ثم سردها، ثم من جملة الآبار التي بأسفل مكة، بئر يقال لها: بئر النبي والناس يستشفون بماء هذا البئر. قال الفاسي: ولعلها البئر السنبلة بئر خلف بن وهب الجمحي الذي ذكرها الأزرقي، وقال: إن النبي ﷺ بصق فيها وإن ماءها جيد يشفي من الصداع.

ومنها بمسيل وادي إبراهيم بئر عند باب إبراهيم، وبئر برباط الموفق، وبئر في وسط السويقة، يقال: إنها من عمارة عبدالله بن الزبير، وبئر آخر بالسويقة بقعيقعان، وأما الآبار التي بين باب المعلا ومنى، فستة عشر بئراً فمنها قرب باب المعلا لأم سليمان عند تربتها وتنسب أيضًا للملك المسعودي صاحب مكة وبئر الطواشي عند طرف المقبرة من أعلاها وبئر بالستان الذي أنشأه القائد سعد الدين، وبئر في البستان الذي أمامه جهة منى، وبئر بين هذين البستانين إلى جهة شعب البياضية، وبالمعابدة بئر آدم عليه السلام، علي يمين الذاهب إلى منى وليست على جادة الطريق، وبئر يقال لها البياضية، والبئر المعروف ببئر ميمون بن الحضرمي وهي التي الآن بالسيل المعروف بسيل الست، بطريق منى، قال الأزرقي: وكانت آخر بئر حفرتها الجاهلية قال: وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ فمن يأتيكم بماء معين﴾ قالوا: زمزم وبئر ميمون ابن الحضرمي.

ومنها البئر المعروفة بصلاصل، قال الأزرقي: وهي البئر التي بفم شعب البيعة عند العقبة أي عقبة منى، والناس يسمون هذه البئر بئر مسهر، ويسمونها بصلاصل وهي قريبة من العقبة. وذكر الأزرقي أنها من الآبار الإسلامية وسميت بصلاصل بن أوس بن مخاسن. رواه الفاكهي.

قال الفاسي: وأما الآبار التي بمنى فهي خمسة عشر، وقال الأزرقي: وأما الآبار التي بالمزدلفة فثلاثة، وأما الآبار التي بعرفة فهي آبار كثيرة، قال القرشي والتي فيها الماء الآن ثلاثة، وأما الآبار، التي بظاهر مكة من أعلاها فيما بين بئر ميمون الحضرمي والأعلام، التي هي حد الحرم، في طريق وادي نخلة، فهي خمسة عشر بئراً.

وأما الآبار التي بأسفل مكة من جهة التنعيم فهي ثلاثة وعشرون بئراً بجادة الطريق، منها: بئر الملك المنصور صاحب اليمن عند سبيله تعرف بالزكية، ومنها الآبار المعروفة بآبار الزاهر الكبير، وبعض هذه الآبار من عمارة المقتدر العباسي،

وبقرب الشبيكة آبار أخر في الزاهر الصغير ، وهي ثلاثة آبار ، وبقرب هذه الآبار بئر يبطن ذي طوى ، على ما ذكره الأزرقي في تعريف ذي طوى . انتهى . وقد عمّر هذا البئر في سنة ألف ومائة وواحد .

قال السنجاري في «منائح الكرم» : وفي سنة (١١٠١) أمر الصنجق محمد بيك ببناء بئر طوى ، فبنى عليه طاجن بقبة صغيرة ، وبني إلى جانبه مسقفاً للبواب ومطاهر ومسجداً ، وجعل هناك صفة منتزه ، وعين لها معلوماً وجراية للخادم المقيم بها لجبه الماء جزاه الله خيراً . انتهى .

وبأسفل مكة أيضاً بئر يقال لها : الطندباوي ، وبأسفل مكة مما يلي باب الماجن عدة آبار ذكر هذا القرشي . انتهى ما في تحصيل المرام .

وذكر العلامة السيد الزواوي في بغية الراغبين أن الآبار التي بنفس مكة المكرمة داخل البلدة الطاهرة أي الموجودة الآن تزيد على خمسين بئراً والتي منها حوالي المسجد الحرام سبعة آبار : واحدة عند باب السلام الكبير ، وواحدة عند باب السلام الصغير ، وواحدة عند باب القطبي ، وواحدة في المحكمة الشرعية ، وواحدة عند باب الدريبة ، وواحدة في زاوية السمان ، وواحدة عند باب الزيادة ، بقرب دكان القزاز ، ادخلوه في وقف عبدالشكور ، ودفنوها ، وصارت دكاناً يؤجر ، وفي حارة جرول ستة آبار : واحد أمام مسجد جرول ، وواحد ذو قبة وهي بئر طوى الشهيرة المأثورة ، وواحدة عند الإنشاءات ، وواحدة بئر الهندي ، وبئر العتبة ، وبئر عند بيت الجنيد ، الذي بجرول . وفي حارة الباب ثلاثة آبار : واحد عند مسجد سيدنا خالد ، رضي الله عنه الشهير بمسجد الراية ، وواحد عند بيت قمري ، وبئر في الخندريسة ، وبحارة الشبيكة خمسة آبار : بئر المظعون ، وبئر عند القبور ، وبئر عند باب الداودية ، وبئر بحوش الآغاوات بسوق الصغير ، وبئر في الهجلة عند الحلقة ، وبحارة الشامية عند المدرسة السليمانية . أقول : وبحارة الشامية قريب البازان عند الفرن بئر وماؤه بغاية الملوحة ، وبحارة المسفلة عشرة آبار : بئر في حوش ناظرين ، وبئر في بيت بكري أحمدوه ، وبئر في زاوية سيدنا أبي بكر الصديق ، وبئر عند بيت أبي خطمة ، وبئر بحوش الغزة ، وبئر في حوش المداح ، وبئر عند باب السيد كوشك ، وبئر وراء بيت السيد كوشك ، وبئر في زاوية المغاربة ، ويقال له : رباط سيدنا عثمان ، رضي الله عنه ، وبئر عند بركة ماجن ، وبحارة أجياد سبعة آبار : بئر تسمى بئر الحمام ، وبئر في المصافي ، وبئر عند بازان

أجياد ، وبئر في فرن الميري ، وبئر الغسالة ، وبئر بليلة ، وبئر الطبجية . وبحارة القشاشية أربعة آبار : بئر في زقاق الحجر ، وبئر في زقاق محرم ، وبئر عند بيت البو ، وبئر في زقاق بحرة ، وبحارة الغزة ثلاثة آبار : بئر في سوق الليل ، وبئر خلف بيت الإمارة الجليلة ، وبئر قدام بيت المحلاوي ، وبحارة شعب عامر بئرين : بئر غيلما ، وبئر بالبرحة ، وبحارة السليمانية ثلاثة آبار : بئر عند المسجد ، وبئر عند بركة الشامي ، وبئر في الشرشورة ، وذلك خلاف الآبار الموجودة خارج البلدة ، وهي كثيرة . انتهى من الغازي .

ثم قال الغازي : وفي العدد (١٣٠) من جريدة «أم القرى» التي تصدر بمكة، ذكر بعض آبار مكة ننقلها هنا بنصه وهو :

عدد	(الآبار التي على يمين الصاعد إلى عرفات)
١	بئر غيلمة ، عن يمين الصاعد إلى عرفات أمام المعلا .
١	بئر العواجي ، الكائنة بالبستان عند حوض أبي طالب .
٢	بئران بداخل البياضية ، أحدهما عن يمين الداخل إلى الديوان ، والآخر في المقابل .
٣	ثلاثة أبيار فرع البياضية ، أحدهم بواجهة البستان عن يمين الصاعد ، والثاني في مقابله ، والثالث في واجهة البستان .
١	بئر عند المهدلي ، ولها درج ينزل عليها إلى الماء وهي متسعة جداً .
	(الآبار التي في داخل منى)
١	بئر عند جمرة العقبة ، معدة لسقيا العموم .
١	بئر بداخل شعبة حرب ، وهي غزيرة المياه .
١	بئر عند مجر الكبش عليها مزرعة .
١	بئر في بستان حامد القرشي .
١	بئر في وسط سوق العرب على يمين الصاعد وهي كثيرة الاستعمال للحجاج .
	(الآبار التي على يسار الصاعد إلى عرفات)
١	بئر الشرشورة وهي ملاصقة للمعلا .
١	بئر في الجعفرية في داخل الحوش .
٢	بئران في بستان الجبرتي .

١	بئر في الشبيبة.
١	بئران في بستان بنونة منهما سقيا البستان .
١	الغسالة متسعة مشهورة بهذا الاسم .
١	الزبيدية بجوار بئر الغسالة .
١	الجرفانية وهي من بلاد الشيخ يوسف قطان .
١	بئر عند المحامل بطريق منى .
١	بئر مقابل المهدلي وهي بدرج متسعة .
١	بئر عند مسجد العشرة في زوايا الجبل .
	(الآبار على يسار الصاعد إلى مزدلفة)
١	بئر خلف الصهريج العمومي عند البستان .
١	بئر خلف السيل المصري في شعبة حرب .
١	بئر مقابل الخرابة مقابل محطة المصري .
٢	بئران بشعبة المعيصم بالقرب من وادي محسر بآخر منى .
	(آبار مزدلفة)
٤	أربعة آبار خلف بازان عين زبيدة مقابل المشعر الحرام .
١	بئر أمام دكاكين الحلوانية ولها بئر ظاهرة .
١	بئر بعرفات تحت جبل الرحمة عند بركة المصري مشهورة .

انتهى من الغازي .

العيون التي بأطراف مكة

ويختم الغازي في تاريخه كلامه عن عين زبيدة وحنين بذكر العيون التي بجهات مكة ، شرفها الله تعالى ، فيقول : وفي الأرج المسكي والتاريخ المكي للعلامة علي بن عبدالقادر الطبري ، وفي زماننا بجهات مكة عيون كثيرة بنيت من قرب ، فمنها بالقرب من عين عرفات : عين المحمدية ، وعين العابدية ، وعين اليونسية (فالأولى) منها منسوبة لمولانا السيد محمد بن عبدالمطلب بن حسن (والثانية) منسوبة لمولانا السيد فضل بن مسعود (والثالثة) منسوبة إلى القائد أحمد بن يونس وزير مكة المشرفة .

ومنها عين الأحمدية ، وبرود ، وهما بالقرب من الجعرانة (الأولى منهما) منسوبة لمولانا السيد أحمد بن عبد اللطيف (والثانية) تنسب لمولانا السيد فضل بن مسعود .

ومنها الحسينية ، وهي مما يحاذي آخر مكة ، وهي منسوبة لمولانا السيد حسين بن حسن .

وفي حدود الثلاثين بعد الألف ظهرت عين مقابل بستان القاضي حسين المالكي بأرض المعابدة ، فأصلحها القائد ريحان بن سالم ، وزير مكة وحاكمها ، وكان ماؤها تغلب عليه الملوحة ، واستمرت مدة ، ويقال إنها لحقت بعين عرفة وحنين . انتهى .

وفي الرحلة اليمانية : وبوادي نعمان عين اسمها «سمار» للأشراف ، وعين اسمها «الشرائع» شرقي مكة ، وفي وادي نعمان أيضاً من جهة جنوب بمكة عينان ، إحداهما الحسينية والثانية العابدية للأشراف ، وعينان بوادي ملكان للأشراف أيضاً . انتهى من الرحلة .

نقول : إن كل ما تقدم من أول مبحث عين زبيدة وغيرها إلى هنا ، نقلناه من تاريخ الغازي رحمه الله تعالى ، الذي لم يطبع إلى الآن ، وقد نقلناه بترتيب كتابه حرفاً حرفاً بدون تصرف فيه ، ما عدا عناوين المباحث ، فقد وضعناها من عندنا لسهولة المطالعة والفهم ، وقد آثرنا نقل هذا المبحث القيم من تاريخ الغازي دون غيره ، لأن تاريخه حاو لما في جميع التواريخ في غالب المباحث والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب .

الخلاصة المفيدة عن عين زبيدة

لقد أتينا فيما تقدم بالتفصيلات التامة الوافية عن عين زبيدة ، حتى لم يبق موضع للمزيد من الكلام . بقي علينا أن نذكر هنا خلاصة وافية وزبدة نافعة كافية عما تقدم ، بحيث يسهل على القارئ الكريم فهم تاريخ عين زبيدة ، وبحيث يمكن له أن يتخيل ويتصور كيفية مجرى هذه العين المباركة، من منبعها إلى أن تصل مكة ، شرفها الله تعالى وغفر لزبيدة ورحمها رحمة الأبرار ، وأسكنها فردوس جنته ، وسقاها من حوض النبي ﷺ ، ونحن معها إن شاء الله تعالى بمحض فضله ورحمته جل جلاله ولا إله غيره . فنقول وبالله التوفيق :

اعلم : أن عين زبيدة تطلق على عينين : (الأولى) عين نعمان وهي على يمين عرفات بينهما نحو ... كيلو متر تقريباً ، وبعضهم يسميها «عين عرفات» لأنها تأتي من طريقها فنسبت غليها ، فعين نعمان تنبع من ذيل جبل «كرا» بفتح للكاف والراء المهملة ، في منتهى وادي نعمان فتصب في قناة إلى موضع يقال له «الأوجر» من وادي نعمان (والثانية) عين حنين وهي علي يسار عرفات إلى جهة الطائف ، أي إلى ما فوق الشرائع بنحو ... كيلو متر تقريباً . وكانت عين حنين أول ما أجرتها زبيدة رحمها الله تعالى ، فلما وصلت إلى مكة قامت بإجراء عين نعمان بعرفات . وعين حنين تنبع من جبل عال يقال له «طاد» بقرب الشرائع جهة الطائف .

وهاتان العينان النضاختان أتت بهما زبيدة رحمها الله تعالى وجزاها عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء إلى مكة المكرمة من منابعها الأصلية ، في سنة (١٧٤) أربع وسبعين ومائة من الهجرة ، وزبيدة هي بنت جعفر ابن المنصور زوجة هارون الرشيد واسمها أمة العزيز وستأتي ترجمتها . ولا يعرف أحد مقدار التعب والصعوبات التي تكبدوها في سبيل إيصال الماء إلى «مكة» بلد الله الأمين ، ولا المصاريف والنفقات العظيمة التي لا تحصر إلا من ذهب بنفسه إلى وادي نعمان ، ووصل إلى موضع حنين ، وعاين ارتفاعات الأرض وانخفاضها ورأى الجبال والصخور التي أجروا الماء من بينها ، وعملوا في حفرها وتكسيرها بالأدوات اليدوية من غير أن تكون لديهم آلات ميكانيكية ، وأدوات حديثة فنية ، ومفرقعات ودناميتات فما كانوا يعتمدون إلا على الله تعالى وإلى قوة إيمانهم وإخلاصهم وتقواهم ، «وإنما الأعمال بالنيات» وقد قال الأقدمون في أمثالهم : «همة الرجال تقلع الجبال» . ولشعراء العرب بعض أقوال في واد نعمان كقولهم :

أيا جبلي نعمان بالله خليا   نسيم الصبا يخلص إليّ نسيمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت   على كبد حراً تجلت همومها

ولنذكر من أعمالهم الجبارة العظيمة الخالدة شيئين على سبيل المثال لا الحصر، ليتصور القارئ الكريم الصعوبات التي لاقوها حتى وصل الماء إلى مكة المشرفة :

(الشيء الأول) بئر زبيدة ، ويسميها العام بـ «حبس الجن» لكون النزول إليها مخوف لعمقها والتعاريج التي فيها وهذه البئر واقعة على يمين الذاهب من مكة إلى

منى من جهة خط الإسفلت الذي خلف منى بينها وبين الجبل الغربي الذي عندها أقل من خمسين متراً .

وعمق هذه البئر من وجه الأرض إلى الماء ثلاثة وعشرون متراً ، أي يقرب من خمسين ذراعاً ، وينزل إليها بدرج طويل عددها ثلاث وسبعون درجة .

فزبيدة رحمها الله تعالى قد أوصلت عين نعمان من فوق عرفات إلى هذه البئر أي إلى قرب مكة فكان الناس يستقون من هذه البئر .

أما عين حنين فقد أوصلتها زبيدة إلى داخل مكة فكانت جارية بوسطها دائماً.

والسبب الذي أوقفت زبيدة عين نعمان إلى هذه البئر التي وراء منى بقرب مكة هو تعذر وصولها إلى نفس البلدة بسبب أن الماء يجري تحت الأرض بعمق ثلاثة وعشرين متراً ، أي نحو خمسين ذراعاً والأرض كلها صخرية جبلية يتعذر حفرها فاكتفت بإيصال عين نعمان إلى هذا المكان مع جريان عين حنين إلى داخل مكة .

ثم لما قل جريان عين نعمان ويبست العيون والآبار وحصلت شدة بمكة بسبب الماء ، عرض ذلك على خليفة المسلمين السلطان سليمان خان ، فسمعت بهذا الخبر ابنته المسماة « فاطمة خانم سلطان » فالتمست من أبيها السلطان سليمان المذكور أن يأذن لها في إيصال الماء من بئر زبيدة التي بأعلى مكة خلف منى على نفقتها الخاصة اقتداء بزبيدة رحمها الله تعالى فأذن لها بالقيام بهذا العمل الخيري الجليل باسمها الخاص ونفقتها الخاصة فأسندت أمر القيام بهذه الخدمة إلى أشهر الرجال البارزين من الأمراء فقدموا إلى مكة شرفها الله تعالى بالمال والرجال والأدوات وأحضروا المهندسين والبنائين والحفارين والحدادين والحجارين والقطاعين والعمال من الآستانة ومصر والشام وحلب واليمن وغيرها ، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة (٩٦٩) تسعمائة وتسع وستين من الهجرة .

فأول ما عملوه تنظيف الآبار وإخراج الأتربة منها وحفرها ليكثر ماؤها ، وكذلك تنظيف دبول ومجاري عين نعمان من فوق عرفات إلى أن وصلوا بئر زبيدة التي خلف منى .

ثم رأوا أن إيصال الماء، من هذه البئر إلى مجرى عين حنين عند بستان بنونة الواقع بالشبيبة يحتاج إلى حفر ألفي ذراع بذراع البنائين أي إلى حفر كيلو متر واحد تقريباً وهذا عمل ليس بالهين لأنه يحتاج أن ينزلوا في حفر الأرض إلى عمق خمسين ذراعاً والحفر لا يكون إلا في الجبال الصلب الصخرية القوية جداً فأرادوا أن يتراجعوا ويصرفوا النظر عن إيصال الماء إلى مكة من بئر زبيدة لولا أنهم رأوا أن تركهم العمل لا يليق باسم السلطان خليفة المسلمين.

فشمروا عن ساعد الجد، وتوكلوا على الله بخلوص النية، وقاموا بهذا العمل الجبار فكانوا يحفرون وجه الأرض إلى أن يصلوا إلى الحجر الصوان والصخر الصلد ثم يوقدون عليه النار بالحطب بمقدار مائة حمل منه ليلة كاملة، ثم يكسرون الصخور والحجارة العظام بالحديد ولكن لا ينكسر منه إلا القليل بسبب أن قوة النار تكون من فوق لا من تحت وهكذا كانوا يكسرون الجبال والصخور والحجر الصوان إلى أن وصلوا بالماء إلى بئر القاضي المسمى ببازان القاضي.

وهذا البازان هو (الشيء الثاني) الذي نذكره على سبيل المثال كما قلنا فيما تقدم. وهذا البازان المسمى ببازان القاضي هو يشبه تقريباً بئر زبيدة المسمى بـ «حبس الجن» المتقدم ذكرها والظاهر والله تعالى أعلم أن قاضي مكة شيخ الإسلام القاضي السيد حسين الحسيني ناظر المسجد الحرام، الذي صدر الأمر السلطاني بأن يكون ناظراً ومشرفاً على مشروع إيصال الماء، لما قام بإكمال عمل إيصال الماء إلى مكة بعد موت رئيس ومدير العمل الأصلي الذي كان بيده تنفيذ المشروع والعمل نسب إليه هذا البازان فقيل له: «بازان القاضي».

وهذا البازان واقع عند قهوة الششة «بشينين معجمتين مشددتين بعدهما تاء مربوطة» وهو واقع على يسار الساعد إلى منى قبل بئر زبيدة فإذا استقبل الإنسان من البازان جهة عرفات أي الشرق كان جبل حراء على شماله وجبل الصدر في الشرق وبين البازان وجبل حراء نحو كيلو متر واحد ونصف كيلو متر وبينه وبين الجبل الذي أمامه في جهة الشرق نحو مائتي متر.

وعمق هذا البازان من وجه الأرض إلى الماء كعمق بئر زبيدة التي تقدم الكلام عليها أي نحو ثلاثة وعشرين متراً أي ما يقرب من خمسين ذراعاً، وينزل إليه بدرج طويل عددها ثلاث وسبعون درجة أي أن عدد درجاته كعدد درجات بئر زبيدة أيضاً وبين هذه البئر وبين بازان القاضي المذكور كيلو متر واحد أو أقل.

ثم أوصلوا الماء من هذا البازان إلى أعلى مكة أي إلى جهة بستان بنونة المذكور ، وهنا التقى هذا الماء الوارد من عين نعمان من عرفات بالماء الوارد من عين حنين فصارا يجريان معاً من مكان بستان بنونة في قناة واحدة ومجرى واحد حتى يدخلا إلى بطن مكة المشرفة أكثر الله خيرها وبركاتها .

فكان وصول الماء إلى مكة من بئر زبيدة في أواخر ذي القعدة سنة (٩٧٩) تسع وسبعين وتسعمائة هجرية ، أي أن هذا العمل الجبار وشق الجبال والصخور والأحجار دام عشر سنوات تماماً وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً وعيداً عظيماً وقد عمل قاضي القضاة السيد حسين الحسيني المذكور احتفالاً كبيراً ووليمة عظيمة في بستانه في الأبطح دعا فيه خلقاً كثيراً من العلماء والأعيان والأكابر وغيرهم وذبح من الغنم والإبل والشياه عدداً وفيراً وتصدق كثيراً على الفقراء والمساكين .

ثم أرسل البشائر العظمى إلى السلطان وإلى «فاطمة خانم سلطان» فأنعمت عليه وعلى غيره الإنعامات الوافرة وعملت خيرات وصدقات كثيرة شكراً على ما أنعم الله تعالى عليها ، من إيصال هذه العين إلى البلدة الطاهرة «مكة» على نفقتها الخاصة .

قال العلامة القطبي في تاريخه عن مكة ، وكان رحمه الله تعالى حاضراً وقت عمل إيصال الماء : إن الأمير إبراهيم الذي كان قائماً بأمر العين ، صرف مقدار خمسمائة ألف دينار ذهباً تقريباً حتى حفر وقطع ألف ذراع . اهـ .

فعليه تكون النفقات التي صرفت في إيصال الماء من بئر زبيدة إلى أن وصل إلى بستان بنونة أي إلى أن اتصل ماء نعمان بماء حنين نحو واحد مليون دينار ذهباً وليس ذلك بقليل .

كما أن شق الجبال والصخور القوية وحفر الأرض إلى عمق خمسين ذراعاً لمسافة أكثر من كيلو واحدة ليس من السهولة واليسر في زمن ليس فيه أدوات كهربائية ولا آلات ميكانيكية ، بل كان تكسير الجبال والصخور بطريقة بدائية ، بإيقاد الحطب ليلاً ونهاراً حتى لقد ذكر الإمام القطبي في تاريخ مكة أنهم ثابروا على إيقاد الحطب على الجبال والصخور لشق طريق للماء إلى أن فرغ الحطب من جبال مكة فصار يجلب من المسافات البعيدة وغلا سعره وضاق الناس بذلك . اهـ . وقد قدمنا تفصيل كل ذلك في أوائل المبحث فراجعه إن شئت .

فانظر رحمك الله إلى قوة إيمانهم ويقينهم وعلى إخلاصهم في إتقان العمل وإلى حبهم العظيم في خدمة بلد الله الأمين مكة المشرفة والعمل على راحة أهلها وحجاجها وبذلك خلد الله أسماءهم ويترحم عليهم العباد ودام ثوابهم بهذه الصدقة الجارية فلا ينقطع إلى يوم المعاد فرحمهم الله تعالى رحمة واسعة وجزاهم عن المسلمين خير الجزاء فلا نعمة تعدل وجود الماء ولا يعرف نعمة ذلك إلا من فقد الماء، لهذا قال الله عز شأنه في آخر سورة الملك: ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾.

نعم يأتينا به الله تعالى بفضله ورحمته وبره وإحسانه إنه بعباده لطيف خبير.

واعلم: أن عين نعمان وعين حنين، تجري كل واحدة منهما على حدة في القنوات من منبعهما حتى تصلا إلى أعلى مكة فوق محلة المعابدة أي إلى بستان بنونة «بضم النون الأولى وتشديدها» المسمى قديماً ببستان القاضي، وهو المعروف الآن «بالشيبية» الذي فيه قصر سمو ولي العهد المعظم الأمير فيصل بن عبدالعزيز آل سعود فإذا وصلتا إلى أعلى مكة في المحل المذكور اجتمعتا في مجرى واحد ودخلتا معاً إلى نفس البلدة ثم توزعان بواسطة القنوات المبنية والمواسير الرصاصية أو الحديدية في أطراف البلدة ليصل الماء إلى كل محلة وحارة وهذه المواسير الرصاصية لم تستعمل في مكة إلا في العهد السعودي فقط، أي في سنة (١٣٧٠) سبعين وثلاثمائة وألف هجرية تقريباً.

ولعين حنين فروع كثيرة تمدها بالماء كالزعفران والبرود والثقبة وغيرها كما سيأتي بيانها أما عين نعمان فليس لها فروع.

وهنا يجب علينا أن «نعطي القوس باريها» فنترك المجال لصديقنا العزيز الأستاذ محمد نور قمر علي، رئيس قسم توزيع المياه بمكة المشرفة ليتكلم بقلمه عن خلاصة عين زبيدة لأنه الرجل الوحيد الذي يعلم مسالك ومجاري العين في داخل البلدة وخارجها حق العلم ويعرفها حق المعرفة قال أمد الله تعالى في حياته:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الفاضل الأستاذ الشيخ طاهر كردي الخطاط الموقر.

بعد التحية والاحترام لقد طلب مني فضيلتكم أن أكتب لكم تعريفاً مختصراً حول عين زبيدة فعليه أفيدكم حسب اطلاعي في بعض النسخ من تواريخ مكة

المكرمة ومن استمراري في عمل توزيع مياه عين زبيدة لمدة سبعة وعشرين عاماً متواصلاً أقول : في أوائل دولة بني العباس بلغت زبيدة ، زوجة الرشيد عن خراب عيون مكة المكرمة فاستأذنت الرشيد وأمرت بإجراء عين حنين إلى مكة ومنبع هذا العين ذيل جبل طاد في طريق الطائف يجري ماؤه إلى أرض حنين التي وقع فيها القتال بين النبي ﷺ وبين بني هوازن وهو بقرب وادي يدعان من أودية عرفة فاشترت زبيدة حائط حنين وأبطلت المزارع والنخيل الموجودة بها وبنت القنوات وشقت الجبال وجعلت لها الشحاحيذ في كل جبل يكون ذيله مظنة لاجتماع الماء عند هطول الأمطار وجعلت له القنوات متصلة إلى مجرى عين حنين ليحصل منها المدد للعين وصار بعد هذا التعمير كل شحاذ منها عيناً لها اسم خاص كعين (مشاش) وعين (ميمونة) وعين (الزعفران) وعين (البرود) وعين (الصرفة) وعين (ثقبة) وعين (الخريبات) وسميت هذه العيون كلها بعين حنين التي أوردتها السيدة زبيدة إلى مكة المكرمة وهي عين زبيدة الأصلية لمكة ثم أمرت بعد إيصال عين حنين إلى مكة بإجراء عين وادي نعمان إلى عرفة ومنبع هذه العين بذيل جبل كرا وينصب من ذيل جبل كرا في قناة له إلى الأوجر من وادي نعمان فعملت منها القنوات إلى عرفات وأديرت القنوات بجبل الرحمة محل الموقف الشريف وجعلت منها المجاري إلى البرك التي بأرض عرفات ، ثم توجه عمل القنوات من عرفة إلى مكة من الطريق الخلفي لمنى إلى بئر زبيدة المعروفة عند أهل مكة بجبس الجن وإلى هذا الموقع ينتهي عمل السيدة زبيدة لعين نعمان ؛ حيث لم تتمكن من إيصال عين نعمان بعين حنين لصلابة الحجر وصعوبة إمكان قطعه لطول مسافته التي يبلغ ألفي ذراع من الذراع المعماري وعرضه خمسة أذرع وعمقه خمسين ذراعاً حتى يصل إلى منسوب ماء عين نعمان ولهذا تركت العمل إلى بئرها المشهور ببئر زبيدة وبقيت كذلك عين نعمان لعرفة ومزدلفة ومنى ، وعين حنين لمكة ، وفي أوائل عام ٩٤٩ هجري اجتمع القاضي عبد الباقي المرحوم ، قاضي مكة يومئذ والأمير خير الدين سنجق وعرض أمر إيصال ماء عين نعمان إلى عين حنين ، إلى مسامع السلطان سليمان خان ، فسمعت فاطمة هانم كريمة السلطان المشار إليه بذلك الخبر فالتمست من السلطان أن يأذن لها في ذلك العمل الخيري فأذن لها بذلك فحملت السلطانة هذا الأمر دفتر دار ديوان مصر ، الأمير إبراهيم بن تكز ، ووصل المذكور في اثنين وعشرين من شهر ذي القعدة عام ٩٦٩ واتصل بأمير مكة في ذلك الوقت الشريف حسين بن نمي كما اتصل بشيخ الإسلام مولانا القاضي

حسين الحسني وقام بمباشرة عمل التنظيف أولاً حسب الاستشارة، ثم بدأ في عمل قطع القطعة الباقي من بئر زبيدة إلى دبل عين حنين، الواقع ببستان بنونة والمعروف الآن ببستان سمو سيدي الأمير فيصل ولي العهد بالشبيبة وذلك في نهاية عام ٩٧٠، وكان عمله شاقاً جداً كما ينبئنا بذلك نفس العمل، وقد قام بهذا العمل الجبار إلى أن توفاه الله في الثالث من شهر رجب من عام ٩٧٤ ثم تولى العمل الأمير قاسم بيك تحت إشراف قاضي القضاة حسين الحسني المذكور واستمر في مباشرة العمل إلى أن توفاه الله في أول رجب من عام ٩٧٩ ثم تولى مباشرة العمل مولانا شيخ الإسلام القاضي حسين الحسني، وأتم عملها في عشرين من ذي القعدة من عام ٩٧٩، ووصل ماء عين نعمان للسيدة زبيدة إلى مجرى ماء عين حنين التي هي عين مكة الأصلية للسيدة زبيدة رحمها الله وأسكنها الفردوس الأعلى إنه مجيب الدعاء، وأما من أمر ماء عين حنين قد توقف ماؤها من زمن بعيد بسبب السيول التي دمرتها وسدت مجاريها، وكان آخر إصلاح جرى فيه عام ١٣٢٨، والآن لا يصلنا من ماء عين حنين أو فروعها شيء سوى جزء يسير من أحد فروعه، وهي الزعفرانة وأحيط فضيلتكم أن معالم هذه المجاري موجودة كلها، والبعض منها استغلتها الأيادي الجبارة التي لا تخشى الله، هذا مع تقديم عجزي وقصوري لكثرة أعمالي التي لا يخفاكم فأرجو المعذرة إذا لم يوفى غرضكم المنشود والله يحفظكم سيدي.

حرر في ١٣٧٧/٥/٢٤.

رئيس قسم توزيع المياه بمكة

محمد نور قمر علي

انتهى ما كتبه الشيخ محمد نور قمر علي سلمه الله تعالى آمين.

(واعلم) أن بعض الناس يظن أن عين زبيدة بمكة آتية من بغداد، عن طريق البر لكن ليس الأمر كذلك فهذا بعيد الاحتمال جداً.

والذي جعلهم يظنون هذا الظن هو أن زبيدة زوج هارون الرشيد رحمها الله تعالى قد بنت في طريق الحج في زمنها من بغداد إلى مكة كثيراً من البرك والآبار

والمصانع والمنازل ، تملأ كل هذا من ماء المطر وغيره للحجاج ، وأهل تلك الأماكن لهذا يقولون أن زبيدة أتت بالماء من بغداد إلى مكة .

فهنيئاً لزبيدة هذه الصدقات الجارية من وقتها إلى ما شاء الله أحسن الله إليها وأسكنها فسيح جناته بفضله ورحمته .

ترجمة زبيدة

هي أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور وهي زوجة هارون الرشيد وابنة عمه ، وأم الأمين محمد بن هارون الرشيد ، وفي ابن خلكان : قال الطبري في تاريخه : أعرس بها هارون الرشيد في سنة خمس وستين ومائة وكانت وفاتها سنة ست عشرة ومائتين في جمادى الأولى ببغداد رحمها الله تعالى وتوفي أبوها جعفر بن المنصور في سنة ست وثمانين ومائة رحمه الله تعالى انتهى من ابن خلكان

وزبيدة هي صاحبة عين الماء بمكة الشهيرة باسمها «عين زبيدة» وهي التي أمرت بحفر الآبار وعمل البرك والصهاريج العظيمة في طريق الحج من بغداد إلى مكة المشرفة .

وقد ذكرنا الكلام على عين زبيدة تلك العين التي خلدت ذكرها إلى اليوم وصار الناس يترحمون عليها ما شرب الماء شارب بمكة .

جاء في تاريخ القطبي عنها ما ملخصه : زبيدة اسمها «أمة العزيز» كان جدها المنصور يرقصها وهي طويلة ويقول : «أنت زبيدة» فاشتهرت بها ، وكانت من أهل الخير ولها مآثر عظيمة إلى الآن ، منها : إجراء عين حنين إلى مكة المشرفة ، وأصرفت عليها خزائن الأموال إلى أن جرت إلى مكة المشرفة ، وهي واد قليل الأمطار بين جبال سود عاليات خاليات من المياه والنبات وصفها الله تعالى بأنها واد غير ذي زرع فنقبت «أم جعفر زبيدة» الجبال إلى أن سلك الماء من أرض الحل إلى أرض الحرم ، وأنفقت على عملها ألف ألف وسبعمائة ألف مثقال من الذهب .

فلما تم عملها اجتمع المباشرون والعمال لديها وأخرجوا دفترهم لإخراج حساب ما أصرفوه من عهدة ما تسلموه من خزائن الأموال ، وكانت في قصر عال مطل على الدجلة فأخذت الدفاتر ورمتها في بحر الفرات وقالت : تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقي عنده شيء من بقية المال فهو له ، ومن بقي له شيء عندنا أعطيناه ثم ألبستهم الخلع والتشاريف فخرجوا من عندها حامدين شاكرين وبقي لها هذا الأثر العظيم في العاملين رحمها الله تعالى وأسكنها الفردوس في أعلى علّيين . انتهى .

ولقد ذكرنا عن عين زبيدة فصلاً خاصاً فيما تقدم ولا نريد هنا إعادة الكلام .

والحقيقة أن عملها هذا كان عظيماً جباراً ، يذكره الناس لها إلى ما شاء الله ، وما تعاقب الحجيج إلى بلد الله الأمين عاماً بعد عام وكثير من الناس يعتقد أن عين زبيدة بمكة متصل ببغداد بالفرات ، ولكن لا صحة لذلك مطلقاً بل وغير معقول ذلك، وإنما جاء هذا الوهم مما عملت أيضاً في طريق الحج من بغداد إلى مكة من الآبار والصهاريج والبرك ، فكانوا يقولون : إن زبيدة أوصلت الماء من بغداد إلى مكة ومن هنا جاء الوهم فظن بعضهم أن الماء وصلت في قنوات ومجاري تحت الأرض من بغداد إلى مكة . والحقيقة هي كما ذكرنا .

جاء في تاريخ ابن خلكان ما نصه : قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في « كتاب الألقاب » : أنها « أي زبيدة » سقت أهل مكة الماء بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار ، وأنها أسالت الماء عشرة أميال بحطّ الجبال ونحت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم ، وعملت عقبة البستان ، فقال لها وكيلها : تلزمك نفقة كثيرة . فقالت : اعملها ، ولو كانت ضربة فأس بدينار وإنه كان لها مائة جارية يحفظن القرآن ولكل واحدة ورد عشر القرآن ، وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من قراءة القرآن ، وإن اسمها أمة العزيز ، ولقّبها جدها أبو جعفر المنصور « زبيدة » لبضاضتها ونضارتها ، انتهى منه .

قال ابن كثير في تاريخه : كان لزبيدة من الجمال والمال والخير والديانة والصدقة والبر شيء كثير ، وروى الخطيب أنها حجت فبلغت نفقتها في ستين يوماً أربعة وخمسين ألف ألف درهم . توفيت زبيدة ببغداد في جمادى الأولى سنة ست عشر ومائتين .

ثم روى البغدادي عن عبدالله بن المبارك ، أنه قال : رأيت زبيدة في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقالت : غفر لي في أول معول ضرب في طريق مكة . قلت: فما هذه الصفرة ؟ قالت : دفن بين ظهرانينا رجل يقال له بشر المريسي ، زفرت عليه جهنم زفرة فاقشعر لها جسدي ، فهذه الصفرة من تلك الزفرة .

وورد أنها رؤيت في المنام ، فسئلت عما كانت تصنعه من المعروف والصدقات، وما عملته في طريق الحج ، فقالت : ذهب ثواب ذلك كله إلى أهله ، وما نفعنا إلا ركعات كنت أركعها في المسجد . انتهى من تاريخ ابن كثير رحمهما الله تعالى .

ويذكر القطبي في تاريخه أن زبيدة رحمها الله تعالى بنت بمكة دارين جهة باب إبراهيم وذلك سنة (٢٠٨) ثمان ومائتين من الهجرة .

وصف الخراساني لزبيدة رحمها الله تعالى

روى المسعودي وهو من أهل القرن الثالث الهجري ، في أواخر الجزء الثاني من تاريخه عند ذكر خلافة القاهر بالله عن العلامة بأخبار بني العباس محمد بن علي العبدلي الخراساني الأخباري ، أنه قال : خلا بي القاهر فقال : أصدقني أو هذه وأشار إلي بالحربة فرأيت والله الموت عياناً بيني وبينه ، فقلت : أصدقك يا أمير المؤمنين . فقال لي : أنظر يقولها ثلاثاً ، فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : عما أسألك عنه ولا تغيب عني شيئاً ، ولا تحسن القصة ولا تسجع فيها ولا تسقط منها شيئاً ، قلت : نعم يا أمير المؤمنين قال : أنت علامة بأخبار بني العباس من أخلاقهم وشيمهم من أبي العباس فمن دونه فقلت : على أن لي الأمان يا أمير المؤمنين ، قال : ذلك لك . قلت:

أما أبو العباس السفاح ، فكان سريعاً إلى سفك الدماء واتبعه عماله في الشرق والغرب من فعله واستنّوا بسيرته .. إلى آخر ما ذكره في وصف أمراء المؤمنين حتى جاء في وصف زبيدة ، فقال عنها ما يأتي :

كان أحسن الناس في أيام الرشيد فعلاً أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور لما أحدثه من بناء دور السبيل بمكة ، واتخاذ المصانع والبرك والآبار بمكة وطريقها المعروف إلى هذه الغاية ، وما أحدثته من الدور للتسبيل بالثغر الشامي وطرسوس وما أوقفت على ذلك من الوقوف .

ثم قال المذكور عن زبيدة أيضاً بعد بضعة أسطر ما يأتي :

وكان من فعلها وحسن سيرتها في الجد والهزل ، ما برزت فيه على غيره ، فأما الجد والآثار الجميلة التي لم يكن في الإسلام مثلها . مثل حفرها العين المعروفة بعين المشاش بالحجاز ، فإنها حفرتها ومهدت الطريق لمائها في كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر ، حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكة ، فكان جملة ما أنفق عليها مما ذكر وأحصي ألف ألف وسبعمائة ألف دينار ، وما قدمت ذكره من المصانع والدور والبرك والآبار بالحجاز والثغور ، وإنفاقها الألوف على ذلك ، دون ما كان في وقتها من البذل وما عم أهل الفاقة من المعروف والخصب .

وأما الوجه الثاني مما تتباهى به الملوك في أعمالهم وينعمون به في أيامهم ، ويصونون به دولهم ، ويدون في أفعالهم وسيرهم : فهو أنها أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر ، وصنع لها الرفع من الوشي ، حتى بلغ الثوب من الوشي الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار ، وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري ، يختلفون على الدواب في جهاتها ، ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها ، وأول من اتخذ القباب الفضة والآبنوس والصندل ، وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي ، والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق ، واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر ، وتشبه الناس في سائر أفعالهم بأم جعفر . انتهى من الكتاب المذكور .

ترجمة الوزير الجواد الأصفهاني

الوزير الجواد الأصفهاني هو : جمال الدين أبو جعفر بن علي بن أبي منصور ، وزير صاحب الموصل أتابك زنكي بن آق سنقر ، في الثلث الأول من القرن السادس للهجرة ، فلما قتل الملك المذكور استوزره سيف الدين غازي بن أتابك زنكي ، وفوّض إليه الأمور وتدبير الدولة .

قال ابن خلكان : فظهر حينئذ جود الوزير المذكور ، وانبسطت يده ، ولم يزل يعطي ويبذل الأموال ، ويبالغ في الإنفاق حتى عُرف بالجواد وصار ذلك كالعلم عليه ، حتى لا يقال : إلا جمال الدين الجواد ، ثم قال : وأثر آثاراً جميلة ، وأجرى الماء إلى عرفات أيام الموسم ، من مكان بعيد ، وعمل الدرج من أسفل الجبل إلى أعلاه ، وبنى سور مدينة الرسول ﷺ وما كان خرب من مسجده ، وكان يحمل

في كل سنة إلى مكة شرفها الله تعالى وإلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام من الأموال والكسوات للفقراء والمنقطعين ما يقوم بهم مدة سنة كاملة .

إيصال عين العزيزية بعين زبيدة

وفي زماننا هذا قد ازداد سكان مكة المكرمة زيادة عظيمة عن ذي قبل ، بسبب كثرة الوافدين والمقيمين بها من الأقطار الإسلامية وبسبب ازدياد العمران وبناء البيوت حول مكة المشرفة على الطراز الحديث ، وهذا يقتضي إقامة الحدائق في بعض البيوت المستلزمة لتوفير المياه لها ، فرأى ملك المملكة السعودية عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ، رحمه الله تعالى ، أن يمد عين زبيدة بعين أخرى ضماناً لأهل هذه البلدة المقدسة في سقياهم وسقيا حدائقهم . وفي أواخر سنة (١٣٧١) ألف وثلاثمائة وإحدى وسبعين هجرية وصل الماء من عين العزيزية إلى مكة المشرفة واختلطت بعين زبيدة .

ولما كان صديقنا الفاضل الشيخ محمد نور قمر علي رئيس قسَّامي عين زبيدة بمكة المشرفة هو أدرى بمثل هذه الأمور وخبيراً بمياه مكة المكرمة ، فقد طلبنا منه كتابة نبذة عن هذه العين الجديدة التي وصلت إلى مكة المشرفة في السنة المذكورة، التي تسمى بعين العزيزية نسبة للملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله تعالى وأحسن جزاءه فكتب الشيخ محمد نور المذكور هذه النبذة الآتية عن العين العزيزية . وإليك نص كتابته حيث يقول حفظه الله تعالى :

عين العزيزية بمكة

في المبحث المتقدم تكلمنا عن عين زبيدة بما فيه الكفاية ، والآن نريد أن تحدث عن عين العزيزية فنقول وبالله تعالى التوفيق :

إن ازدياد السكان بمكة المشرفة وكثرة المهاجرين عليها من كافة الأقطار ، وورود الألوف المؤلفة من حجاج بيت الله الحرام في موسم حج كل عام ، جعل مكة المطهرة تشعر بنقص في الماء خصوصاً في وقت الحج .

فعند ذلك أحس جلالة الملك المرحوم عبدالعزيز آل سعود بحاجة البلدة الطاهرة إلى عين جديدة تساعد عين زبيدة في مد مكة بما تحتاجه من المياه العذبة الصافية ، وتساعد أيضاً في ازدهار حركة العمران فيها . ففي أوائل عام (١٣٧٠)

هجرية أصدر أمره الكريم بالبحث عن عين قريبة من مكة المكرمة ، تكون مياهها حلوة صافية فوفق الله تعالى رجاله المخلصين إلى شراء عين تسمى : العين الجديدة ، وتقع في الجانب الشمالي من مسيل السيل المنحدر من وادي النخلة الشامية ، والذي يمر من وادي المضيق إليها وهي تبعد عن مكة المكرمة بمسافة ستة وأربعين كيلو متراً .

ولم يمض شيء من الوقت حتى صدر أمر جلالته المطاع إلى معالي الشيخ محمد بن لادن ، مدير الإنشاءات الحكومية ، بإيصال ماء عين الجديدة إلى مكة المكرمة .

وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر شوال عام (١٣٧١) هجرية وصل الماء إلى مكة المكرمة ، وجرى لوصوله احتفال عظيم حضره معالي الشيخ محمد بن لادن ، ومدير إدارة عين زبيدة ، وجمع غفير من الموظفين والأهالي .

فعمت البشرى جميع الأهالي ، وحصل السرور العظيم لكافة سكان هذه البلدة والوافدين إليها ، فأخذت الألسن تلهج بالدعاء الصالح لفاعل هذا الخير العظيم مولانا جلالة الملك المعظم .

ومن شدة سرورهم لهذا العمل الخالد تقدموا إلى المسؤولين باقتراح يقضي بأن تحمل هذه العين اسم جلالة الملك المعظم تخليداً لذكرى هذا العمل النبيل الذي أسداه إلى شعبه الوفي ، وعلى الوافدين إلى هذه الديار المقدسة فما كان من المسؤولين إلا أن استجابوا لهذا الطلب ، فسميت بالعين العزيزية وستبقى إن شاء الله حاملة هذا الاسم الكريم إلى ما شاء الله ، فجزى الله المليك خير الجزاء وأسكنه فسيح جناته إنه سميع مجيب الدعاء .

نبذة حول عين العزيزية بمكة المكرمة

إن عين العزيزية قبل سلخ ملكيته باسم مولاي المرحوم جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل السعود كانت تسمى بعين الجديدة ، وإن مشرعة هذه العين ومزرعته واقعة في الجانب الشمالي من مسيل السيل المنحدر من وادي النخلة الشامية، والتي تمر من وادي المضيق إليها ، وعند صدور أمر مولاي المرحوم جلالة الملك على سعادة الشيخ محمد بن لادن بإيصال ماء عين الجديدة إلى مكة المكرمة من مسافة ستة وأربعين كيلو متراً بدأ سعادته العمل فيها باذلاً جهده العظيم لتحقيق رغبة المليك المفدى في عام ١٣٧٠.

وفي شوال من عام ١٣٧١ وصل الماء إلى مكة المكرمة وعلى أثره صدر الأمر السامي إلى إدارة عين زبيدة بأخذ الماء الكافي من العين الجديدة وعلى أثر ذلك وردت إليّ مذكرة برقم ١٣٨٤ ٢٨/١٠/١٣٧١ للاتصال مع سعادة الشيخ محمد بن لادن لأخذ الماء الكافي من العين الجديدة ، وبعد الاتصال تقرر الحضور في عصر اليوم الثاني لفتح الماء . ويوم ٢٩/١٠/١٣٧١ في الساعة الحادية عشرة حضر رئيس إدارة عين زبيدة الشيخ عابدين خوجه ، وسعادة الشيخ محمد بن لادن وبعض الموظفين من كلا الطرفين لمشاهدة فتح الماء وأمر سعادة الشيخ محمد بن لادن بفتح الماء إلى خرزة دبل عين زبيدة الواقعة في المعابدة بقرب القصر الملكي ، وبذلك حصل السرور العظيم لجميع سكان هذه البلدة والوافدين إليها في ذلك الوقت ولهجت ألسنة الجميع بالدعاء الصالح لرائد هذا الخير العظيم مولانا جلالة الملك المعظم .

ومن السرور الذي وصل إلى قلوب أفراد الشعب في ذلك الوقت هتفوا قائلين للمسؤولين : إن هذا العين لا بد من أن يحمل اسم جلالة الملك عبدالعزيز تخليداً لذكرى هذا العمل النبيل الذي أسداه إلى شعبه ، وإلى الوافدين إلى هذه الديار المقدسة فما كان من المسؤولين إلى أن يجيبوا هذا الطلب وسميت في ذلك الوقت بعين العزيزية وستبقى حاملة اسم هذا الملك العظيم إلى أبد الآبدين إن شاء الله ، فجزاه الله عنا خير الجزاء وأن يسكنه في جنات النعيم . اهـ .

تعريف موجز عن إيصال ماء عين العزيزية بمكة المكرمة مع بيان المسافات .

أولاً : إنشاء خزان نمرة ١ على جانب مزرعة الجديدة وتسليط مياه العين على الخزان المذكور ، ثم سحب المياه من الخزان بواسطة أنابيب مقاس اثنا عشرة بوصة ١٢ إلى خزان نمرة ٢ الذي أنشئ بريع الوزراء والمسافة من خزان نمرة ١ إلى خزان نمرة ٢ خمسة عشر كيلومتراً ، ثم سحب المياه من خزان نمرة ٢ إلى سد العدل بمكة ، بواسطة الأنابيب المشار إليها أعلاه ، والمسافة من خزان ٢ إلى سد العدل ثلاثين كيلو متراً ومن سد العدل إلى الحديقة التي أمام باب القصر الملكي بالمعابدة من الناحية العليا ، والمسافة من سد العدل إلى الحديقة كيلو متراً واحداً تقريباً ، ثم إخراج فرع بوصة ١٢ من الحديقة إلى خرزة دبل عين زبيدة بجوار خرزة موردة البرج بقرب الحديقة ، وفيها يختلط ماء عين العزيزية بماء عين زبيدة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تتصل بعض أنابيب الماء لداخل البلدة بخط بوصة ستة الممتد من

الحديقة إلى قرب مركز شرطة الحجون ، وبذلك تعمم ماء عين العزيزية في داخل البلدة ، وخصوصاً في الأماكن المرتفعة التي كانت لم تصلها الماء من عين زبيدة لانخفاض منسوبها كما أخرج فرع آخر من المفرق الذي يبعد من سد العدل بخمسة كيلو مترات تقريباً متجهاً إلى خزان المعيصم الكبير الذي يغذي منى ومزدلفة منها . والمسافة من المفرق إلى خزان المعيصم ثلاثة كيلوا مترات . وخزان المعيصم أنشئ من ضمن هذا المشروع ، ثم سحب خط بوصة ١٢من خزان المعيصم متجهاً إلى منى ، ومنه إلى الجمرة الوسطى ، والمسافة من خزان المعيصم إلى الجمرة الوسطى خمسة كيلو مترات ، وبذلك قد تعمم الماء في جميع النواحي ، من منى ومزدلفة كما أنشئ خزان من ضمن هذا المشروع بمنى ، تحت الخزان الجبلي الكبير وأخذت له فرع خط بوصة من الخط الرئيسي من منى . اهـ .

مسافة عين حنين ، العين الأصلية لمكة من منبعها إلى درجة الصفا :

المسافة من ذيل جبل طاد إلى الخنقة ستة عشر كيلو متراً .

المسافة من الخنقة إلى القهوة التي أمام مشرعة عين الشرائع ثمانية كيلو متراً .

المسافة من القهوة التي أمام مشرعة عين الشرائع إلى درجة الصفا بمكة ، اثنان وثلاثون كيلو متراً (٣٢) .

مسافة عين نعمان من منبعها بذيل جبل كرا من جهة شعب العشرة إلى درجة الصفا:

المسافة من داخل البلدة من درج الصفاء إلى قهوة الطائف بعرفة بقرب موردة الكسار اثنان وعشرون كيلو متراً (٢٢) .

المسافة من قهوة الطائف بعرفة بقرب الكسار إلى العنبر الجديد (المستودع) بنعمان ستة كيلو مترات (٦) .

المسافة من العنبر الجديد بوادي نعمان إلى بئر آل الحسن الكبكبي الواقعة بأول وادي نعمان من جهة ذيل جبل كرا ستة عشر كيلو متراً (١٦) .

المسافة من بئر آل الحسن الكبكبي إلى ذيل جبل كراء التي بها شعب العشرة ثلاثة كيلو مترات (٣) .

انتهى جميع ما ذكره الشيخ محمد نور قمر علي عن العين العزيزية بمكة . فله منا مزيد الشكر والثناء .

القضاء والإفتاء بمكة

لا نريد في هذا الفصل سرد أسماء قضاة مكة ومفاتيها ، منذ بدء الإسلام إلى اليوم ، وإنما نذكر نبذة صغيرة عن جهة تعيينهم ، ومما لا يخفى أن ولاة الأمور هم الذين يعينون القضاة في البلدان من عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم إلى يومنا هذا ، وكان سلاطين آل عثمان يرسلون قضاة لمكة من استامبول .

فقد قال الغازي في تاريخه ما نصه :

وفي سنة ٩٤٣ (تسعمائة وثلاث وأربعين) ورد أول قاض لمكة من الروم (أي من قبل سلطان الترك) ولم يزل القاضي يصل من الروم إلى زمننا هذا ، وكان قبل ذلك قضاة مكة منها ، كبيت آل الطبري والظهيريين والنوريين . ذكره الطبري في الإتحاف اهـ .

ثم ما زال الأمر كذلك حتى زوال حكم الأتراك من الحجاز سنة (١٣٣٤) وقيام حكم الشريف حسين بن علي ، رحمه الله تعالى في هذه السنة فكان تولي القضاء على مكة بأمر الشريف المذكور ، ثم بعد زوال حكمه وتولي آل سعود على الحجاز ، صار تولي قضاء مكة بأمر ملك المملكة العربية السعودية .

ومن أشهر المحاكم بمكة وأقدمها المحكمة الشرعية الكبرى ومقرها بباب الزيادة، وبها ثلاثة قضاة غير رئيسهم الذي هو رئيس المحكمة وجميع المحاكم مرجعها ديوان واحد يسمى «ديوان رئاسة القضاة» .

قال الأستاذ أحمد السباعي في كتابه تاريخ مكة : أما القضاء فكان يتولى منصبه في مكة علماء الأتراك الذين تنتدبهم الدولة التركية وكانت أحكامهم مرتبطة بمشيخة الإسلام في الآستانة فكان القاضي يمثل سلطة الأتراك الدينية ويرأس الحفلات التي ينصب فيها أمراء مكة ، ويعقد المراسيم الخاصة بذلك، ويتولى تقديم الخلع السلطانية إلى الأمير . اهـ .

وقد ذكر الأستاذ السباعي في كتابه المذكور البيوت الشهيرة بالعلم من أهل مكة .

وأما وظيفة الإفتاء فقد ذكر في كتابه المذكور أيضاً ما ملخصه :

كانت أمور الفتوى، في هذا العهد، أي «عهد العثمانيين الأول» تسند إلى بيوت العلم من المكيين بتأييد من الدولة العثمانية بخلاف وظيفة القضاء، فقد اختص العثمانيون أنفسهم بها، فكان الناس إذا لم يقتنعوا بحكم القاضي التركي لجأوا إلى استفتاء المفتي في قضاياهم، فإذا أفتى في صالحهم استندوا على فتواه ورجعوا بها إلى مجلس القاضي، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة مفتي مختص ويرأسهم مفتي الحنفية، لأن السلطان على مذهب أبي حنيفة، وأول من تولى رئاسة الفتوى في عهد العثمانيين هو الشيخ قطب الدين الحنفي المكي.

ومما يناسب هذا المقام ما ذكره القلقشندي في كتابه صبح الأعشى:

إن أول قاض كان في الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، استقضاه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، في خلافته فمكث سنة لا يأتيه أحد في قضية. انتهى.

وهذا لا يستغرب في عهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فلقد تغلغل الدين والتقوى في نفوسهم، وسرى العدل والإنصاف فيهم سريان الدم في الشرايين والأوردة، وفي المثل «لو أنصف الناس استراح القاضي».

ومن أحسن الحكم والوصايا ما كتبه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في القضاء لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه وهو ما ذكره صاحب كتاب جواهر الأدب وهذا نصه:

«أما بعد» فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله، وأشبهها بالحق. واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإذا أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو نسب

فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر، ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام.

ولقد جاء في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي بالجزء الثاني عشر بصحيفة (٢٤٠) صورة المرسوم السلطاني لأحد العلماء بتوليه قضاء مكة المشرفة، أحببنا نقلها هنا لما فيها من الفوائد الجمة، والظاهر أنه مرسوم صادر عن سلاطين مصر قبل حكم الأتراك.

قال القلقشندي رحمه الله تعالى عن صورة المرسوم ما نصه:

وهذه نسخة توقيع بقضاء مكة المشرفة:

الحمد لله الذي أنفذ الأحكام بالبلد الحرام وأيد كلمة الشرع في بلده ومنشئه بيد الركن والمقام، وجعل الإنصاف الجزيل حول حجر إسماعيل متسق النظام.

نحمده حمداً حسن الدوام، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد قائم بحقها أحسن القيام، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله السامي من ولد سام، والذي قام لله حتى ورمت منه الأقدام، وأسري به من مكة إلى السماء مرتين: في اليقظة والمنام، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، أئمة الصلاة والصيام وسلم تسليماً.

وبعد: فإن وظيفة القضاء بمكة المعظمة هي أجل منصب بتلك الأباطح ونورها في الجبين لائح، فإن الشرع نشأ منها والوحي أنزل فيها، فزهيت البطائح وظهرت النصائح، وأطربت الصوادح، وأسكتت النوائح وغمرت المنائح وانتشرت المصالح فمن ولي الحكم بها وعدل فذلك هو العدل الصالح، وكيف لا وماء زمزم شرابه وأستار البيت تمسها أثوابه، وعلى الله أجره وثوابه، وفي ذلك الجناب الشريف كرم جنابه وإذا دعا الله عند الملتزم جاءه من القبول جوابه.

ولما كان فلان هو فرع الدوحة المثمرة، ومحصل من العلوم الشرعية المادة الموفرة وله البحوث التي (هي) عن أحسن الفوائد وغرر الفرائد مسفرة ورضي أهل

الحرم، لما جبل عليه من خير وكرم (تمسك) بالعروة الوثقى والقوى الأتقى فلا جرم.

فلذلك رسم ... لا زال ...

فليكن في أم القرى كالوالد المشفق على الورى وليتمسك من التقوى بأوثق العرا، وليخش رب هذا البيت إنه سميع يسمع ويرى ووفد الله قطعوا إليه المراحل في السرى ليصافحوا كفّه المضمخ عنبراً، وليقض بين الخصوم بالحق فمثله من درأ الباطل قد جعله الله جار بيت عالي الذرا، وفي أرض شرف الله جبالها وقدس غيرانها، فمنها: غار ثور وغار حرا، لأن النبي ﷺ كان يتعبد في غار حرا، وأوى إلى غار ثور لما هاجر مؤيداً مظفراً، والوصايا كثيرة وملاكها تقوى الله، فليتمسك بها من أمام وورا، والله تعالى يجعل نهاره منوراً وليله مقمراً بمنه وكرمه. انتهى من صبح الأعشى.

فانظر رحمك الله إلى المراسيم السلطانية لتعيين القضاة سابقاً وإلى المراسيم لتعينهم في عصرنا الحاضر، تجد فرقاً كبيراً في الصورة والإنشاء فسبحان من بيده ملكوت السموات والأرض.

وعلى سبيل الاستطراد نقول: إن ابن بطوطة ذكر في رحلته التي كانت سنة (٧٢٥) أن قاضي الاسكندرية عماد الدين الكندي، وهو إمام من أئمة علم اللسان كان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم قال: لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها، رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب. انتهى.

قال العلامة ابن خلدون في مقدمته عن القضاء عند الكلام على الخطط الدينية الخلافية، ما يأتي: وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة، فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في عمومها، وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء إلى من سواهم وأول من دفعه إلى أميره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحاً بالبصرة وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة.

وإنما كانوا يقلدون القضاء لغيرهم ، وإن كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة العامة ، وكثرة أشغالها ، من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية ، فاستحقوا القضاء في الواقعات بين الناس واستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفاً على أنفسهم ، وكانوا مع ذلك إنما يقلدونه أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء ولا يقلدونه لمن بعد عنهم في ذلك .

وأما أحكام هذا المنصب وشروطه فمعروفة في كتب الفقه ، وخصوصاً كتب الأحكام السلطانية ، إلا أن القاضي إنما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ، ثم دفع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدرج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى .

واستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع الفصل بين الخصوم ، استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه ، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء على رأي من رآه والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليصل له الوثوق بهم ، وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته .

وقد كان الخلفاء من قبل يجعلون للقاضي النظر في المظالم ، وهي وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء ، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدي ، وكأنه يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه ، ويكون نظره في البينات والتقرير واعتماد الإمارات والقرائن ، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق ، وحمل الخصمين على الصلح واستخلاف الشهود ، وذلك أوسع من نظر القاضي .

وكان الخلفاء الأولون يباشرون بها بأنفسهم ، إلى أيام المهتدي من بني العباس، وربما كانوا يجعلونها لقضاتهم ، كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي إدريس الخولاني وكما فعله المأمون ليحيى بن أكثم والمعتصم لأحمد بن أبي داؤد ، وربما كانوا يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف ، وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالطائفة إلى أرض الروم ، وكذا منذر بن سعيد قاضي عبدالرحمن الناصر من بني أمية بالأندلس .

فكانت تولية هذه الوظائف إنما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له ، من وزير مفوّض أو سلطان متغلّب ، وكان أيضاً النظر في الجرائم وإقامة الحدود ، في الدولة العباسية والأموية بالأندلس ، والعبيدين بمصر والمغرب راجعاً إلى صاحب الشرطة وهي وظيفة أخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلاً ، فيجعل التهمة في الحكم مجالاً ، ويفرد العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، ويقيم الحدود الثابتة في محالها ، ويحكم في القود والقصاص ، ويقيم التعزير والتأديب في حق من لم ينته من الجريمة ، ثم تنوسي شأن هاتين الوظيفتين في الدول ، التي تنوسي فيها أمر الخلافة ، فصار أمر المظالم راجعاً إلى السلطان ، كان له تفويض من الخليفة أو لم يكن ، وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منها : وظيفة التهمة على الجرائم وإقامة حدودها ، ومباشرة القطع والقصاص حيث يتعين ، ونصب لذلك في هذه الدول حاكم يحكم فيها بموجب السياسة دون مراجعة الأحكام الشرعية ، ويسمى تارة باسم الوالي وتارة باسم الشرطة ، وبقي قسم التعازير وإقامة الحدود في الجرائم الثابتة شرعاً ، فجمع ذلك للقاضي مع ما تقدم ، وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته ، واستقر الأمر لهذا العهد على ذلك ، وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة ، لأن الأمر لما كان خلافة دينية ، وهذه الخطة من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها إلا من أهل عصبتهم من العرب ومواليهم بالحلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أو غنائه فيما يدفع إليه .

ولقد كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري الذي ولاه القضاء بالكوفة كتاباً قيماً تدور عليه أحكام القضاة ، وفيه يقول :

أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف

الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت القضية عليه ، فإن ذلك أنقى للشك وأجلى للعماء ، المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زوراً وظنيناً في نسب أو ولاء فإن الله سبحانه عفا عن الأيمان ودرأ بالبينات ، وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فإن استقرار الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر ، والسلام. انتهى كتاب عمر.

انتهى كل ذلك من مقدمة ابن خلدون .

القاضي يحكم بحسب الظاهر

أحكام القضاء في جميع المسائل الدينية من نحو الأموال والمناكحات راجعة إلى نفس القاضي ، وهو أدرى بما يجب عليه وما يلزمه ونحن إنما نعقد هذا المبحث لبيان معنى حديث مروي في الصحيحين يتعلق بالمحاكمة ، وهو هذا :

قال رسول الله ﷺ : «إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار». رواه البخاري ومسلم عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها .

ومعنى الحديث : لعل وصف بعضكم ألحن أي أبلغ في تقرير مقصوده من بعض من لا يقدر على إظهار حجته لسوء منطقه وعجزه ، فمن حكم له من حق أخيه بشيء فلا يأخذه ، فالنبي ﷺ إنما يحكم بالظاهر وبحسب ما يسمع ، لذلك قال في مسألة أخرى : «إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم». رواه أحمد والبخاري .

ونحن كم رأينا بعض الناس ممن لهم حق واضح إذا جلس أمام القاضي أو الحاكم لا يقدر على إظهار ما في نفسه ، بل يعجز عن إثبات حقه ، بينما خصمه يغلبه بجرأة جنانه وطلاقة لسانه ، وهو ظالم لا حق له في شيء .

إن بعض الناس أوتي ذرابة اللسان ، وقوة الجنان ، وإن لم يكن متعلماً ، وبعضهم أوتي ضعفاً في المنطق وعياً في اللسان ، وحياءً زائداً في المجالس والمجتمعات ، وخوفاً ورهبة في التحاكم .

وصريح هذا الحديث : أن بعضهم يأخذ ما لا حق له فيه ، من طلاقة لسانه ، وحسن تقريره فمن أخذ شيئاً لا يستحقه حاسبه الله عليه ، فليتق الله ربه .

إنشاء المحكمة الشرعية الكبرى

المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة لم نعلم متى أنشئت وظهرت في الوجود ، وقد كانت موجودة في عصر الحكومة العثمانية التركية ، والذي يظهر لنا والله تعالى أعلم بغيبه أنها أنشئت منذ ثلاثة قرون تقريباً ، أي منذ كثرت الدعاوى والشكاوي وقلت الأمانة في الناس ، فرأت الدولة التركية العثمانية لا بد من إنشاء محكمة رسمية تدوّن فيه المحاكمات ، ولا يبعد أنها أنشئت في زمن إنشاء جميع المحاكم في جميع البلاد الإسلامية تبعاً للتطور . والله تعالى أعلم .

رؤساء المحكمة الشرعية الكبرى بمكة

من سنة (١٢٠٥) هجرية إلى سنة (١٣٨٤) هجرية .

لقد كتبنا خطاباً في غرة شهر شعبان سنة (١٣٨٤) هجرية لحضرة صاحب الفضيلة العلامة الجليل الشيخ سليمان بن عبيد رئيس المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة ، نسأله عن تاريخ إنشاء هذه المحكمة ، وعن أسماء قضاتها في العصور السابقة، فورد لنا منه ، حفظه الله تعالى وأدام توفيقه ، الجواب الآتي نذكره بنصه ، وهو هذا :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد طاهر الكردي المحترم ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد : إشارة إلى خطابكم المؤرخ في ١٣٨٤/٨/١هـ والذي ترغبون فيه الإفادة عن تاريخ تنظيم المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة وعن أسماء قضاتها من ذلك التاريخ وعن مدة من تولى رئاستها لكي تكتبوا عن ذلك في تاريخكم المزمع إبرازه إلى حيّز الوجود ، ونحيط

فضيلتكم أننا لم نجد إلى ذلك سبيلاً، فيما قبل عام ١٢٠٤هـ، أما بعد ذلك فإليكم ما وصل إليه معلومنا نحو طلبكم .

من عام ١٢٠٥ إلى عام ١٢٠٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد أفندي .

من عام ١٢٢٨ إلى عام ١٢٣٠ تولى رئاسة المحكمة الشيخ فضيلة الشيخ محمد تقي الدين .

من عام ١٢٣٠ إلى عام ١٢٣١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حافظ محمد حامد .

في عام ١٢٣٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عمر أفندي زاده .

في عام ١٢٣٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد قدسي .

من عام ١٢٣٣ إلى عام ١٢٣٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ درّي زاده الحاج محمد عابد .

من عام ١٢٣٦ إلى عام ١٢٣٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حمد الله بن عزت زاده .

من عام ١٢٣٨ إلى ١٢٣٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عثمان لطفي أفندي .

من عام ١٢٣٩ إلى عام ١٢٤٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد صادق أفندي .

من عام ١٢٥١ إلى عام ١٢٥٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد إبراهيم خليل .

من عام ١٢٥٤ إلى عام ١٢٥٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد حسين أفندي .

في عام ١٢٥٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ يحيى توفيق أفندي .

من عام ١٢٥٧ إلى عام ١٢٥٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد مصطفى عاصم .

من عام ١٢٥٩ إلى عام ١٢٦٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد سعيد أفندي .

من عام ١٢٦٠ إلى عام ١٢٦١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد طاهر أفندي .

من عام ١٢٦٢ إلى عام ١٢٦٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى نوري .

من عام ١٢٦٣ إلى عام ١٢٦٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى حامد .

في عام ١٢٦٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد عماد الدين .

في عام ١٢٦٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد توحيد .

في عام ١٢٦٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ إبراهيم أدهم .

في عام ١٢٦٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد سعد الله .

في عام ١٢٧٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى حمدي .

في عام ١٢٧١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ علي رضا .

في عام ١٢٧٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد شمس الدين .

في عام ١٢٧٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد رشدي .

في عام ١٢٧٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد عزت .

في عام ١٢٧٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ سيروز حسن .

في عام ١٢٧٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد شمعي .

في عام ١٢٧٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد شمس الدين .

في عام ١٢٧٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد قدري .

في عام ١٢٧٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حافظ محمد .

في عام ١٢٨٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد توفيق .

في عام ١٢٨١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد خالد .

في عام ١٢٨٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد أمين بيك الحريزو .

في عام ١٢٨٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد أمين أفندي .

في عام ١٢٨٤ إلى عام ١٢٨٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمود بيك ثم مصطفى نظمي .

في عام ١٢٨٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى نظمي .

من عام ١٢٨٧ إلى عام ١٢٨٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد سعيد أفندي .

في عام ١٢٩٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عزت زاده محمد حفيد محمد رضا .

في عام ١٢٩١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد عفيف أفندي .

في عام ١٢٩٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد نوري أفندي .

في عام ١٢٩٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ إبراهيم أدهم أفندي .

في عام ١٢٩٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حسن صبري أفندي .

في عام ١٢٩٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد ثروت أفندي .

في عام ١٢٩٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى فائق أفندي .

في عام ١٢٩٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ كرام الدين .

في عام ١٢٩٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد أمين أفندي .

في عام ١٢٩٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى رشدي .

في عام ١٣٠٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عمر فهمي أفندي .

في عام ١٣٠١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى النيب .

في عام ١٣٠٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد أمين .

في عام ١٣٠٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ بغدادي زاده عبد الرحيم .

في عام ١٣٠٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد سعيد أفندي .

في عام ١٣٠٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ يونس وهبي أفندي .

في عام ١٣٠٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد أحمد عطا الله شكري .

في عام ١٣٠٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد شكري .

في عام ١٣٠٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حسين رشدي .

في عام ١٣٠٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد ضياء الدين .

في عام ١٣١٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبدا لله صائب أفندي.

في عام ١٣١١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد عاصم أفندي .

في عام ١٣١٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد سالم أفندي .

في عام ١٣١٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ كمال الدين أفندي .

في عام ١٣١٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد نظيف أفندي .

في عام ١٣١٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبد الكريم أفندي .

في عام ١٣١٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد عارف أفندي .

في عام ١٣١٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد فؤاد أفندي .

في عام ١٣١٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى نعيم أفندي .

في عام ١٣١٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد هاشم بن عثمان.

في عام ١٣٢٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد هاشم أفندي .

في عام ١٣٢١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبدا لله كمال الدين أفندي .

في عام ١٣٢٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ إبراهيم حقي أفندي .

في عام ١٣٢٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد جمال الدين .

في عام ١٣٢٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد رفعت أفندي .

في عام ١٣٢٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مفتي زاده أحمد نظيف .

في عام ١٣٢٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حسين فهمي أفندي .

في عام ١٣٢٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حافظ عثمان نوري .

في عام ١٣٢٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ مصطفى بن الدين الآلوسي .

في عام ١٣٢٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عمر خلوص .

في عام ١٣٣٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ علي رضا .

من عام ١٣٣١ إلى عام ١٣٣٢ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أسعد شكري ثم عمر فخر الدين .

من عام ١٣٣٢ إلى عام ١٣٣٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ سليمان رشدي .

من عام ١٣٣٣ إلى عام ١٣٣٤ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد حلمي .

من عام ١٣٣٤ إلى عام ١٣٣٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ صالح صدقي .

من عام ١٣٣٦ إلى عام ١٣٤٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أسعد دهان .

من عام ١٣٤١ إلى عام ١٣٤٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبدالله أبو الخير ميرداد .

من عام ١٣٤٣ إلى عام ١٣٤٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد المرزوقي .

من عام ١٣٤٩ إلى عام ١٣٥٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد كماخي .

من عام ١٣٥١ إلى عام ١٣٥٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد قاري .

من عام ١٣٥٧ إلى عام ١٣٦٥ تولى رئاسة المحكمة فضيلة السيد محمد زكي البرزنجي .

من عام ١٣٦٥ إلى عام ١٣٦٦ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد يحيى أمان .

في عام ١٣٦٧ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ سالم شفي .

من عام ١٣٦٧ إلى عام ١٣٧١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبد الحميد حديدي .

من عام ١٣٧١ إلى عام ١٣٨٣ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبدالله بن دهيش .

في عام ١٣٨٣ إلى عام ١٤٠١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ سليمان بن عبيد .

هذا ومن عام ١٣٨٣هـ توليت رئاسة هذه المحكمة ، وتتكون في الوقت الحاضر من رئيس ومساعد وخمسة أعضاء وملازمين وأرجو الله تعالى أن يجعلني من الذين يقولون بالحق وبه يعدلون وأن يعافيني من هذا العمل العظيم الخطر ، وأن يدلني بمن هو أكفأ مني في الوقت القريب العاجل إنه سميع مجيب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

في ١٣٨٤/١٠/١٧هـ

رئيس المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة

سليمان بن عبيد

هذا هو نص مذكرة فضيلة الشيخ سليمان بن عبيد رئيس المحكمة الشرعية الكبرى بمكة المكرمة في وقتنا الحاضر وهو من أفاضل علماء نجد من أهل الدين والاستقامة كما أن سلفه فضيلة الشيخ عبد الله بن دهيش من أفاضل علماء نجد أيضاً وقد تولى ابنه الشيخ عبدالملك بن دهيش رئيساً مساعداً لمحكمة مكة المكرمة من عام ١٣٨٢هـ إلى عام ١٤٠٣هـ . وإن من يتأمل الأسماء الواردة في هذه المذكرة يجد أن غالبهم من الأتراك تعينهم الدولة العثمانية التركية رؤساء للمحكمة الشرقية بمكة ، ثم من بعد زوال حكم الأتراك من الحجاز وغيرها من البلدان العربية أي من سنة ١٣٣٤ هجرية نجد أن رؤساء المحكمة الشرعية بمكة المشرفة كلهم من أهلها ، كما هو ظاهر من هذه المذكرة القيمة المعبرة .

إنشاء المحاكم المستعجلة

أما المحاكم المستعجلة فقد كان أول تأسيسها وإنشائها في عهد الشريف الحسين بن علي بعد أن استقل بالحجاز فإنه رحمه الله تعالى أصدر أمره بتأسيس محكمة جديدة بمكة تسمى : «محكمة المواد المستعجلة» وذلك في السابع عشر من رجب سنة (١٣٣٦) ست وثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية ، وانتخب لرئاستها

المرحوم الشيخ سالم شفي . ثم في شهر صفر سنة (١٣٣٧) صدر أمره أيضاً بتأسيس محكمة مستعجلة بجدة ، وانتخب لرئاستها السيد عبدالله خيار .

وقد وضع في قانون ونظام المحاكم المستعجلة إحدى عشرة مادة للسير بمقتضاها ذكر كل ذلك الشيخ عبدالله الغازي رحمه الله تعالى في الجزء الثالث من تاريخه ونحن لم ننقله منه حتى لا يطول الكلام .

ويوجد الآن في هذا العصر بمكة المكرمة ثلاث محاكم مستعجلة .

واعلم بأن الإفتاء من الوظائف الشرعية يجب المحافظة عليها . وإليك نص المذكرة التي رفعها إلى الحكومة المصرية العلامة الكبير والعلم الشهير في جميع الأقطار الإسلامية فضيلة الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية سابقاً المتوفى في عصرنا الحاضر ، رحمه الله تعالى وهذه المذكرة طبعت بالقاهرة بالمطبعة السلفية في سنة (١٣٤٦) ولما كانت في حجم رسالة صغيرة أحببنا نقلها هنا زيادة في الفائدة وهي هذه :

مذكرة :

من حضرة مولانا الأستاذ الأكبر صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية سابقاً رحمه الله تعالى مقدمة لمجلس الشيوخ المصري ببيان أن وظيفة الإفتاء وظيفة شرعية دينية يجب على ولي الأمر أن يوظف فيها من يليق لها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

حضرة صاحب العزة وكيل مجلس الشيوخ .

أرجو عرض ما يأتي على نظر مجلس الشيوخ الموقر :

إنه تقدم باقتراح طلب إلغاء وظيفة الإفتاء بالديار المصرية ، ولما لإقرار هذا الاقتراح من المضار الكثيرة ، أردت أن أعرض للمجلس أن وظيفة الإفتاء كوظيفة القضاء من أهم مصالح المسلمين وتعد في شريعة الإسلام من الفرائض الدينية التي يجب على ولي الأمر مراعاتها ، ونصب من يقوم بها ممن هو أهل لها من العلماء وإن لم يقم ولي الأمر بذلك كان آثماً .

والأصل في ذلك أن جميع الخطط الدينية كانت للنبي ﷺ وحده فلما كثر المسلمون أقام من ينوب عنه في تلك الخطط فجعل من قبله ولاة وأمراء وقضاة ومفتيين، وغير ذلك مما اقتضاه نظام الحكم في عصره ﷺ، ثم تبعه في ذلك الخلفاء الراشدون واستمر العمل على ذلك إلى يومنا هذا.

وكل وال يملك في ملكه جباية الخراج، وتعيين الحكام وغير ذلك تكون تلك الخطط في مملكته من وظائفه يعين فيها من ينوب عنه في كل منها. ولذلك لما ذكر ابن خلدون الخطط الدينية المختصة بالخلافة، وترجع إلى الخطط الملوكية السلطانية عدّ منها الفتيا وجعلها من مصالح المسلمين وجعل مراعاتها من الواجبات على ولي الأمر (انظر ص١٨٢ من مقدمته).

وقال الجلال الدواني في شرحه العقائد العضدية، ص٦٨: يجب على الكفاية تفصيل الدلائل ليتمكن معه من إزالة وإلزام المعاندين وإرشاد المسترشدين، وقد ذكر الفقهاء أنه لا بد أن يكون في كل حد مسافة القصر شخص متصف بهذه الصفة، ويسمى «المنصوب للذب والمنع» ويحرم على الإمام إخلاء مسافة القصر عن مثل هذا الشخص، كما يحرم عليه إخلاء مسافة العدوى عن العالم بظواهر الشريعة والأحكام التي تحتاج إليها العامة. اهـ.

وهذا هوالمسمى بالمفتي الآن. قال في الحواشي الجديدة: مسافة العدوى التظلم إلى القاضي لأجل عدم حضور الخصم لبعده وحكم الشرع في هذه المسألة أن الخصم إذا كان في موضع أو ابتكر إليه يحضر بمجلس القضاء، ويجيب خصمه ويبيت في منزله، فالقاضي يحضره بخط الإحضار، فالمقصود ههنا أنه يجب على الإمام نصب من هو عالم بظواهر الشريعة والأحكام ليرجع إليه الناس في حوائجهم الشرعية في هذه المسافة بأن يذهب الناس إليه بكرة ويرجعون إلى منازلهم مساء اهـ. وقال صاحب النهر: والأصح أن الإفتاء غير مكروهة لمن كان أهلاً، وعلى ولي الأمر أن يبحث عمن يصلح للفتوى، ويمنع من لا يصلح، ونقل عن بعض الشافعية أنه إن لم يكن غيره عليه وإلا فهو فرض كفاية. اهـ.

وليس من ضروريات إقامة ولي الأمر مفتياً وتوظيفه شرعاً، أن يكون لهذا المفتي مرتب من بيت المال «المالية» بل المفتي عامل للمسلمين، قد حبس نفسه لعملهم، فيجب أجره من مالهم فإن أخذه من بيت المال فليس له أن يأخذ من الناس شيئاً، وإن لم يكن له مرتب أخذ أجره ممن يستفتيه.

وعلى ذلك لا يلزم من إلغاء مرتبه وحذفه من ميزانية الدولة إلغاء الوظيفة التي يجب على ولي الأمر أن يقيم فيها من يليق لها ، وأنا لا أظن أن المجلس يوافق على أن المفتي يأخذ أجره ممن يستفتيه ، ويرى المجلس الموقر أني لا أدافع عن راتب الوظيفة ودرجه في الميزانية أو حذفه منها ، وإنما أنا أبيّن حكم الشريعة في وظيفة الفتيا ذاتها ، كإحدى الخطط الدينية التي يجب على ولي الأمر أن ينصب فيها من يقوم بها نيابة عنه.

أهمية وظيفة الإفتاء :

إن وظيفة الإفتاء من أهم الوظائف التي يلزم أن تكون قائمة دائمة ، بالديار المصرية لوجوه :

أولاً : أن جميع وزارات الحكومة وتوابعها ، كالمحافظة ونحوها ، يرجعون إليه، فيما يتعلق بالمسائل الشرعية ، لأن فتواه باعتباره موظفاً يكون لها الصبغة الرسمية ، فيصح للحكومة أن تعتمد عليها ، وترجع فيها فيما يتعلق بتلك المسائل إليها .

ثانياً : أن كثيراً من القضايا المدنية التي تنظر بالمحاكم الأهلية تحتاج المحكمة التي تنظر بها القضية إلى أن تتنور في حكمها بفتوى شرعية ، ولكنها لا تطلب ذلك بصفة رسمية ، فحينئذ يلجأ الخصوم إلى الحصول على فتوى شرعية بما ذكر ، ويقدمونها لتلك المحكمة كمستند ، فلو لم يكن بالديار المصرية مفت موظف يمكن أن يأتي كل واحد من الخصمين بفتوى شرعية تؤيد طلباته ، ولا يعدم وجود مفتٍ يكون بحراً في ذمته يعطيه ما يطلبه ، فوجود مفت موظف يعطي لفتواه الصبغة الرسمية ترفع الإشكال ويمكن للمحكمة التي تنظر بالقضية أن تعتمد عليها وتستنير بما فيها .

ثالثًا : أن المفتي الذي يقيمه ولي الأمر في مصر ليس مرجعاً في الفتاوى للمسلمين فقط ، بل لغيرهم من الملل الأخرى ، يرجعون إليه في فتاواه ، ويعملون بها فيما يتعلق بالمواريث والأوقاف .

رابعاً : أن المواد التي يقع فيها الخلاف بين الأسر ذوات الشرف والعماد بالقطر المصري ، لا يريدون أن يلجأوا فيها إلى القضاء ، شرعياً كان أو أهلياً ، حفظاً لكيان تلك الأسرة ، فيلجأون إلى فتوى المفتي الموظف بمصر والخلاف الذي يحسم على هذا الوجه أكثر بكثير مما يحسم أمام الجهات القضائية خصوصاً في قضايا الأوقاف والمواريث ، فضلاً على أن أكثر الخصومات أمام جهات القضاء يطول

مداها ، وربما يموت الخصمان فتقوم ورثتهما مقامهما ، ولا تنتهي تلك الخصومة ، وإن انتهت بعد اللتيا والتي ، فلا تنتهي إلا بعد أن يخسر كل من الخصمين كل شيء حتى الجلد والسقط ، ويعلم ذلك لمن يرجع إلى فتاوى المفتيين السابقين .

خامساً : أن مفتي الديار المصرية ليس مرجعاً للمصريين فقط في فتاواه ، بل هو مربع لمختلف الأقطار ، لا فرق بين البعيد منها كالهند والقريب كالشام ، فإن أكثر هذه الأقطار ترجع فيما يشكل عليها من الأحكام الشرعية أو فيما يختلف فيه علماؤها إلى فتوى مفتي الديار المصرية ، ويكون قوله الفصل في ذلك ، وهذا مما يجعل لمصر فخراً وشرفاً على سائر الأقطار الأخرى ، ويجعل المجلس حريصاً كل الحرص على إيجاد وظيفة الفتوى ، لو لم تكن موجودة فكيف لا يحرص على إبقائها حيث كانت موجودة ؟ فإلغاء وظيفته هدم لمرجع عامل منظور إليه بعين الاحترام من سائر المسلمين .

سادساً : أن مفتي الديار المصرية بمقتضى وظيفته وعمله هو شيخ لعلماء الحنفية ، ومعين ناظراً أصلياً على أوقاف كثيرة وناظراً حسبياً كذلك ومرتبط به وظائف كثيرة في مصالح الأزهر وأوقافه . ففي إلغاء وظيفة الفتوى تعطيل لكل هذه المصالح ، وهذا لا يلتئم مع المصلحة العامة وموجب للارتباك بلا مبرر .

النتيجة :

يعلم مما أوضحنا أن وظيفة الإفتاء وظيفة من الوظائف الدينية ، التي يجب على ولي الأمر أن ينصّب فيها من يقوم بها ، كوظيفة القضاء . وقد جعلتها الشريعة الإسلامية من الفرائض الدينية ، ومن أهم المصالح الإسلامية ، وأنها وظيفة لها الأهمية الكبرى على الوجه الذي فصلنا.

وما أظن أن المجلس بعد الذي أوضحناه يوافق على إلغائها ، ويخالف ما قضت به الشريعة الإسلامية ، خصوصاً مع ما لهذه الوظيفة من الأهمية وشرف المنزلة .

والذي أرجوه من المجلس أن يسن قانوناً ، يحتم فيه مراعاة توفر الشروط الشرعية ، فيمن يوظف في تلك الوظيفة ، ويقطع عرق المحسوبية والأغراض ، التي تؤدي إلى أن يوظف فيها ، من لا يليق لها ولا تليق له ، ويحط من كرامتها ويضع احترامها ، ولكل عالم سيرة وسيرته بنزاهة أو غيرها .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم

كما إني أرجو أن يلغى بالنظر إلى وظيفة الإفتاء، تقييد الموظف فيها بسن مخصوص، فإن من شرط المفتي إن لم يكن مجتهداً أن يكون قادراً على استنباط الأحكام في الحوادث المتجددة، من أصول الشريعة وأدلتها الأربعة، وكلما كان الموظف فيها أكبر سناً وأغزر علماً وأوسع اطلاعاً كان أوفر عقلاً وأكثر وقاراً وحلماً. وإني مع ثقتي بنظر المجلس الموقر لهذا الأمر الخطير بما يليق به من كامل العناية أقدم لعزتكم وافر شكري واحترامي وفقنا الله لما فيه السداد والرشاد إنه هو الرؤوف بالعباد.

القضاء في عهد الخلفاء الراشدين

قال الخضري رحمه الله تعالى في محاضراته «تاريخ الأمم الإسلامية» عن القضاء، في عهد الخلفاء الراشدين ما يأتي:

كان القضاء معتبراً من عمل الخليفة؛ لأن معناه فصل الخصومات والمنازعات، على حسب القانون الشرعي المأخوذ من الكتاب والسنة، فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم، ويستفتون في الحكم، إن كانت هناك حاجة إلى الاستفتاء، ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتدبيرها، فوّضوا هذا العمل إلى من في مكنتهم الاستنباط ولكنهم لم يتسموا باسم القضاء إلا من عهد عمر بن الخطاب فإنه بعث قضاة إلى الأمصار، ووضعه لهم أنموذجاً يسيرون عليه، واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين.

ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من الفخر شرفهم واستقلالهم في الحكم، فلم يعرف عن أحد منهم، في ذلك العصر ميل إلى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به، وكان سواء في نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية، ولم يكن لأمراء الأمصار سلطان عليهم في قضائهم، فكان تعيينهم من الخليفة رأساً، وأحياناً يكتب الخليفة إلى الأمير أن يولي فلاناً قضاء بلده، وعلى الحالتين التعيين صادر من الخليفة، وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه.

ومن أحسن ما رأينا في أمر القضاة ما كتبه علي بن أبي طالب إلى أحد عماله: «ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك، ممن لا تضيق به

الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه ، ولا يشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم إلى أقصاه أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم ، وأخبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه إطراء ، ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل ، ثم أكثر تعاهد قضائه ، وأفسح له في البذل ما يزيل عليه ، وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك» .

وكان في كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام كان يستعين بهم القاضي ويستفتيهم إذا أشكل عليه أمر ، وأهم ما كان يدعوهم إلى ذلك أن سنة رسول الله ﷺ لم تكن مجموعة في كتاب ، بل كانت في صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثاني جزءاً ، وقد لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر ، فربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصاً ويكون النص وهو الحديث عنده غيره ، وبذلك كانوا يسألون هل عندكم شيء في هذا من سنة رسول الله ﷺ ، ولم يجمعوا هذه الفتاوى ولا الأقضية في كتاب خاص يرجع إليه من بعدهم وكان ما ذكرناه من أمر السنة سبباً كبيراً من أسباب اختلافهم في الفتاوى والأقضية .

لم يكن القاضي في أحكامه موكولاً إلى الاجتهاد الصرف ، كما يظن بعض الباحثين ، ويجعل ذلك من عيوب القضاء ، وإنما كان موكولاً إلى الاجتهاد في فهم القانون الشرعي وتطبيقه على الحوادث والواقعات ، حقيقة أن ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية ، وليس هذا عيباً في القوانين التي يراد منها الابقاء بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان .

الاجتهاد للقاضي ، والحال ما ذكرنا أمر لا بد منه ، ولذلك أعده المتقدمون من الشروط المتحتمة . لم يكن تعيين القضاء مانعاً الخلفاء من نظر أي خصومة تعرض عليهم ، وقد حصل ذلك من الخلفاء ، في آنات كثيرة ، فكأن القضاة كانوا نواباً للخلفاء .

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الأحكام ولا أن صور الأحكام كانت تعطى للمحكوم له ، لأن ذلك لم يكن ما يدعو إليه ما دام التنفيذ في يد القاضي فهو الذي يقضي وهو الذي ينفذ الحكم ، ويظهر لنا مما

قرأنا من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون للتنفيذ، لأن من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ما قُضي عليه به من الحقوق فكان المتنازعون أقرب إلى كونهم مستفتين.

ويظهر لنا أن قضاء القضاء في عهد الخلفاء الراشدين كان قاصراً على فصل الخصومات المدنية، أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاة الأمصار لأنا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصاً أو جلد بسكر ولم يبلغنا أن قاضياً ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفذها، وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها إلا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة ولم يبلغنا أيضاً أن قضاة الأمصار كانوا ينيبون عنهم قضاة في غير الحواضر الكبرى، وذلك كله دليل على قلة القضايا والخصومات.

انتهى من الكتاب المذكور.

القضاء في عهد الأمويين

جاء في أواخر الجزء الثاني من كتاب «محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية» للشيخ محمد الخضري رحمه الله تعالى: لم يزل القضاء في عهد هذه الدولة (أي الدولة الأموية) على بساطته التي كان عليها في عهد الخلفاء الراشدين إلا أن تناكر الخصوم أرشدهم إلى تسجيل الأحكام. قال محمد بن يوسف الكندي في كتاب الذين ولّوا مصر ص(١٠): اختصم إلى سليم بن عنز -قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان- في ميراث فقضى بين الورثة، ثم تناكروا فعادوا إليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه، وأشهد فيه شيوخ الجند. قال: فكان أول القضاة بمصر سجل سجلاً بقضائه.

ولم يكن القضاة يتقيدون برأي في أحكامهم إذ لم تدون إذ ذاك أحكام فقهية يقر عليها الخلفاء، ويحتمون العمل على مقتضاه، فكان الأمر راجعاً إلى القضاة أنفسهم أو إلى ما يشير به المفتون من كبار المجتهدين في أمصارهم.

كان توبة بن نمر لا يملك شيئاً إلا وهبه ووصل به إخوانه وأفضل به عليهم فلما ولّي القضاء بمصر في عهد هشام بن عبدالملك كان يرى أن يحجر على السفيه والمبذر، فرفع إليه غلام من حمير لا تحوي يده شيئاً إلا وهبه وبذّره، فقال توبة: أرى أن أحجر عليك يا بني. قال: فمن يحجر عليك أيها القاضي؟ والله ما نبلغ في أموالنا عشر معشار من تبذيرك فسكت توبة ولم يحجر على سفيه بعد.

فهذا الخبر يدل على مقدار ما كـان للقضـاة مـن الحريـة في اختيـار الآراء الـتي يقضون بها ، وأحياناً يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم في الحوادث المختلفة إذا اشتبه عليهم الأمر فيها ، كما كتب عياض بن عبيد الله الأزدي قـاضي مصر مـن قبـل عمر بن عبدالعزيز إليه يسأله في أمر الشفعة وأن سلفه كـانوا يقضـون فيهـا لـلأول فالأول من الجيران فكتـب إليـه أن يجعلهـا للشـريك وحـده . وقـال : فـإذا وقعـت الحدود بين أهل الشرك في الميراث أو غيره ، وضربت مداخل النـاس الـتي يدخلـون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة .

وبذلـك كـانت الأحكـام تخـالف بعضهـا بعضـاً في الأمصـار المختلفـة لأن المجتهدين لم يكونوا على رأي واحد و لم تلتفت الدولة إلى التفكير فيما يجمع كلمـة المجتهدين على شيء يقضي به قضاتهم ، أو يحمل مجتهدي كل مصر على عمـل مـا يصلح لذلك المصر ، مستمدين من أصول الدين لم يفعلوا هـذا ولا ذاك بـل تركـوا لكل قاض تمام حريته في الحكم بما يراه .

وكـان يضـاف إلى القضـاء مراقبـة أمـوال اليتـامى ، وأول قـاض نظـر فيهـا عبدالرحمن بن معاوية بن خديج قاضي مصر مـن قبـل عبدالعزيـز بـن مـروان فإنـه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذالك كتاباً ، وكـان عنـده وقال الكندي : فجرى الأمر على ذلك .

وكانوا يتولون الأحباس ، وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس توبـة بـن نمر في زمن هشام بن عبدالملـك وإنمـا كـانت الأحبـاس في أيدي أهلهـا وفي أيـدي أوصيـائهم فلمـا كـان توبـة قـال : مـا أرى مرجـع هـذه الصدقـات إلا إلى الفقـراء والمساكين ، فأرى أن أضع يدي عليها ، حفظاً لها مـن التـواء والتـوارث فلـم يمـت توبة حتى صار الأحباس ديواناً عظيماً ، وكان ذلك سنة (١١٨) أول إنشاء ديوان الأوقاف بمصر فذلك كان اختيار القضـاة يرجـع غالبـاً إلى أمـراء الأمصـار ، فهـم الذي يعينون من يقوم بالقضاة بين الناس ، وأحيانـاً كـانوا يولـون مـن قبـل الخلفـاء أنفسهم ، وقاضي حاضرة الخلافة يختاره الخليفة ، وليس له أدنـى امتيـاز عـن سـائر القضاة ولا أرى في اختيارهم ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن مما يحوجهم إلى مد الأيدي إلى السحت .

رأيت أن عبدالرحمن بن بحيرة كان يتولى القضاء بمصر ، ومعه القصص وبيـت المال فكان رزقه في السنة من القضاء مئتي دينار ، ومن القصص مئتي دينـار ورزقـه

في بيت المال مئتي دينار ، وكان عطاؤه مئتي دينار ، وكانت جائزته مئتي دينار ، فكان يأخذ ألف دينار في السنة .

ورأيت في الكندي أمراً بصرف مرتب قاض ، في عهد مروان الثاني ، هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عيسى بن أبي عطاء إلى خزان بيت المال ، أعطوا عبدالرحمن بن سالم القاضي رزقه أشهر ربيع الأول وربيع الآخر سنة (١٣١) عشرين ديناراً واكتبوا بذلك البراءة وكتب يوم الأربعاء لليلة خلت من ربيع الأول سنة (١٣١) وبذلك يظهر أن الأرزاق كانت تصرف مقدماً » .

انتهى من محاضرات الخضري .

القضاء في العهد العباسي

جاء في كتاب « مثل عليا من قضاء الإسلام » تأليف الأستاذ محمود الباجي ، ما نصه : أحرز القضاء في العهد العباسي على استقلاله الكامل ، وخرج عن نفوذ الخلافة وسلطان الملك ، ولمعت في عاصمة المملكة الإسلامية ، وفي عواصم البلاد التابعة لها أسماء كثيرة من أئمة القضاء وشيوخ الحكم وسجل المؤرخون صفحات لامعة من صنوف العدالة وأنواع الإنصاف ونقل رواد الأمم الغربية حوادث عن سير المحاكم الإسلامية تعتبر - لولا التعصب الأعمى - من بين الشواهد الكثيرة على الأمجاد الإسلامية في كل نواحيها .

وفي خلافة الرشيد ، تعددت الدوائر القضائية ببغداد وأعطي لأبي يوسف لقب « قاضي القضاة » لأول مرة في الإسلام ، ومنح السلطات المطلقة لانتخاب قضاة أقسام العاصمة ، ومدن الأقاليم ، وفرض أبو يوسف زياً خاصاً يرتديه رجال الحكم ، وارتفعت جراية القاضي إلى (٢٧٠) ديناراً في السنة يساوي بسعر اليوم (مليوناً ونصف مليون) وكانت في العهد الأموي ألف دينار في السنة .

وقد تردد القضاء في عهد المنصور بين أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد الشيباني، وهم من أئمة الدين الأعلام وعبدالله بن وهب وسفيان الثوري والغوث بن سليمان .

تداخل القاضي أبو يوسف لما قلّد قضاء الجماعة، لإصلاح نظم السجن، والترفيه عن حالة نزلائه فوجه رسالة إلى الخليفة الرشيد جاء فيها:

«فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم، وصير ذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر، فإنك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن.. وول ذلك رجلاً من أهل الخير، يثبت أسماء من في السجن، ممن تجري عليهم الصدقة شهراً فشهر. ويقعد ويدعو باسم رجل، رجل، ويدفع ذلك إليه في يده..

وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء، وفي الصيف قميص وإزار، ويجري على النساء مثل ذلك، وكسوتهم في الشتاء قميص ومقنعة وكساء، وفي الصيف قميص وإزار ومقنعة. وأنهوا عن غل السجين، إلا إذا خيف فراره، وعن ضربه إلا إذا أقيم عليه حد. وأذنوا له، إذا كان عليه ديون، أن يخرج فيخاصم».

لقد بلغ القضاء في أحكامه ومؤسساته ونظام ترافعه، ووسائل تنفيذه في العهد العباسي، شأواً بعيداً في الرقي والازدهار. وبلغ من نفوذ القضاء ما رواه أسد بن الفرات من أن «أبا يوسف كان ينظر بين خصمين بحضرة هارون الرشيد، فتوجه القضاء على أحدهما فجثا الرشيد وأقبل ببصره نحو أبي يوسف حتى أنفذ القضاء. ثم قال: «هكذا أفعل أنا وسائر من معي حتى قضاء أبي يوسف» ولا غرابة فيما أخذته بعض المحاكم الغربية اليوم عن هذا التقليد الإسلامي، من الوقوف ورفع الأسلحة عند الشروع في النطق القضائي.

ولئن كان الإجلال يصدر في محاكم الغرب، عن الجيش والعامة فهو في محاكم الإسلام يصدر عن الخليفة الإمام وعن خاصته من الوزراء والكبراء.

كان من نتائج استقلال القضاء وتنظيمه أن استطاع الجمهور من شعوب الخلافة الإسلامية بسط رقابته الشديدة على أداة الحكم وأنواع الأحكام، وأصبح الرأي العام يعلق على الأقضية التي تصدر ولو كان متعلقها جرة ماء تحطمها امرأة.

وقد روى الحسن بن زياد: قال: «كنا يوماً بباب أبي يوسف ونحن ننتظره إذ أقبل من دار الرشيد وهو يبتسم فقال: حدثت مسألة في دار أمير المؤمنين اليوم، رفع إليه أن قاضياً بأرمينية اختصم إليه جاريتان في جرتين وقد استقيا ماء من بعض المواضع، فوضعتا جرتيهما لتستريحا، فسقطت جرة كل واحدة على جرة صاحبتها فانكسرتا فاختصمتا إلى القاضي فقالت كل واحدة منهما: سقطت جرة هذه على جرتي فانكسرت. فجعل القاضي ينظر إليهما، لا يعرف المدعية منهما

من المدعى عليها ، فقال للقيم : «أخّرهما عني ، فأخرهما ثم صاحتا فأدناهما ثم أذن بتأخيرهما ثم قال للقيم : اذهب واشتر لهما جرتين وأرحني منهما ، وعلق الجمهور الأرميني على الحكم : بأن القاضي لم يحسن أن يحكم في جرتين حتى غرمهما .. وقال القاضي : سبحان الله ، أوَلاَ يرضى الجمهور أن أحكم فيما أحسن ، وأغرم فيما لا أحسن .

وبلغت القضية إلى أمير المؤمنين ببغداد .

قال الحسن بن زياد : فقلنا لأبي يوسف : كيف الجواب في هذه المسألة ؟ قال : «إن كانت الجاريتان وضعتا الجرة في مستراح للمسلمين ، فكل واحدة منهما جاعلة جرتها في حقها ، غير جانية على صاحبتها وإن كانتا وضعتا الجرتين في غير مستراح المسلمين ، فكل واحدة جانية على صاحبتها ، وعلى كل واحدة قيمة جرة صاحبتها».

وإن كانت إحداهما في مستراح والأخرى في غير مستراح ، فالتي في غير المستراح جانية على التي في المستراح .

بلغ من نفوذ القضاء ، في العهد العراقي الشأو الذي يحكيه الحسن بن أبي مالك ، إذ يقول : «سمعت أبا يوسف في مرضه الذي مات فيه يقول : والله ما زنيت قط ، ووالله ما جرت في حكم قط ، ولا أخاف على نفسي إلا من شيء كان مني . فقلت له : ما هو ؟ قال : كان هارون الرشيد يأمرني أن آخذ قصص الناس فأقرأها ثم أوقع لهم فيها بمحضره . فكنت آخذها قبل ذلك بيوم فأتصفحها ، فجمعتها مرة فتصفحتها فإذا فيها قصة لنصراني ظلم من هارون الرشيد ، أمير المؤمنين في ضيعة في يده يزعم أنه غصبه إياها فدعوته فقلت له : هذه الضيعة في يد من هي ؟ قال : في يد أمير المؤمنين . فأردت تقريب الأمر عليه ، فقلت له : من يبيع ثمارها ؟ قال : أمير المؤمنين قلت : ومن يجمع غلاتها ؟ قال : أمير المؤمنين . وجعلت كلما أردت منه أن يذكر خصماً غير أمير المؤمنين رد الخصومة فيها إلى أمير المؤمنين فجعلت قصته مع قصص الناس ، فلما كان يوم المجلس جعلت أدعو بالناس رجلاً رجلاً ، حتى وقعت قصة النصراني بيدي ، فدعوته فدخل فقرأت قصته على أمير المؤمنين ، فقال : هذه الضيعة لنا ورثناها عن المنصور فقلت للنصراني : قد سمعت الذي قال ، أفلك بينة على ما تدعي ؟ قال : لا ، ولكن خذ لي بيمينه ، قال : فقلت لهارون : أتحلف يا أمير المؤمنين ؟ قال :

نعم . فحلف ، وانصرف النصراني . قال أبو يوسف : «فما أخاف على نفسي إلا من هذا» .

قال الحسن : فقلت : وأي خوف في هذا ؟ وقد فعلت الذي فعلت . فقال : من تركي أن أقعده معه في مجلس الخصم .

فهذا المقياس الصغير لنفوذ القضاء ، نستطيع أن نقيس عليه المدى البعيد ، الذي وصل إليه الاستقرار الحكمي ، وخضوع الناس جميعهم إلى القضاء المستقل عن جميع السلطات ملكاً وحكومة وشعباً .

ويستطرد المؤرخ الصيمري ، في سرد ذيول هذه القصة الرائعة ، فيقول : «وقد أدبر الشيخ النصراني قائلاً : استفه كشربة سويق .. وتريد وجه أمير المؤمنين ، حين قولٍ خصمه ، حتى قال أبو يوسف : هلكت وهلك الرجل ، ولكن الخليفة أطرق قليلاً ثم قال : «سبحان ا لله ولا بد من الإنصاف» .

توسع قضاة هذا العصر في الاجتهاد المطلق ، وعلى رأسهم القاضي أبو يوسف، وقد قال يحيى بن خالد : «لا يكون بلوغ مثل أبي يوسف لدرجة الاجتهاد المطلق موضع تردد ، ولم يتخلف عن درجة أبي يوسف أفذاذ المجمع الفقهي ، وسورة بن الحكم ، وأبو العباس الطوسي ، والقاضي عبدا لله غانم الرعيني ، والفضل بن حاتم ، والفضيل بن عياض ، ويحيى بن معين .

ومن رأي أبي يوسف في الأخذ بالإقرار قوله :

«من ظُن به أوتَوُهِّم عليه سرقة ، أو غير ذلك ، فلا ينبغي أن يعزر بالضرب والتوعد والتخويف ، فإن من أقر بسرقة أو بحد أو بقتل وقد فعل ذلك به فليس إقراره ذلك بشيء ولا يحل قطعه ولا أخذه بما أقر به . وعن عمر أنه قال : ليس الرجل بمأمون على نفسه إن أجعته ، أو أخفته ، أو حبسته أن يقر على نفسه .

وكذلك لا يعتبر إقرار الرجل عما وجب عليه فيه الحد ، ما لم يردده ، ثم يسأل عنه ، هل به لمم ، هل به جنون ، هل في عقله شيء ينكر ، فإن لم يكن في عقله شيء من ذلك وجب عليه الحد» .

فهل يختلف رأي أبي يوسف عن أحدث رأي جنائي ، يحسبه الجاهل من نعم العصر الحاضر ؟ وهل في عرض قضاة البحث اليوم المجرم على الاختبار العقلي

لمعرفة مدى مسؤوليته بالجريمة ، إلا أخذ بالإجراء الذي قرره أبو يوسف ، في السنة الثانية للهجرة ؟ توفي عام (١٨٢) .

ومن رأيه : عدم قبول شهادة كبار الدولة .

وقد رد يوماً من الأيام شهادة الفضل بن الربيع ، وزير الخليفة الرشيد ، فعاتبه الخليفة في ذلك يسأله : لم رددت شهادته ؟ فقال أبو يوسف : «سمعته يقول لك : أنا عبدك ، فإن كان صادقاً فلا شهادة للعبد . وإن كان كاذباً فكذلك ... » .

انتهى من الكتاب المذكور .

تقسيم سحنون القضاء إلى درجات

جاء في كتاب «مثل عليا من قضاء الإسلام» تأليف محمود الباجي ، المطبوع بتونس سنة (١٣٧٦) هجرية ما يأتي :

كان القضاء قبل ولاية سحنون خاضعاً لمبدأ التوحيد والتجمع ، وكان يجري في محكمة وحيدة يديرها القاضي بمعاضدة كاتبه وعدليه . واستمر الأمر كذلك إلى عام (٢٣٤) أربع وثلاثون ومائتين من الهجرة ، الذي انتخب فيه سحنون للقضاء . وقد أصبح هذا النظام ملائماً لحالة البلاد ، وامتداد العمران في أطرافها ، وتزايد عدد السكان وانتشار الحضارة ، وتلاشي سلطة المحكمين من رؤساء القبائل وكبراء العشائر ، وشعور الشعب بقوة واستقلال قضائه ، ونزاهة ونفوذ حكّامه ، واكتظّت المحكمة بالقضايا وامتلأت رحابها بالمتقاضين ، وتنوعت الأقضية بما حدث من النشاط في الحركة التجارية والتبادل الاقتصادي بين عاصمة البلاد وبين ما افتتحه العرب والأفريقيون من الجهات والأقاليم . وكان لزاماً أن يتناسب جهاز القضاء مع الوضع الذي أصبحت عليه مملكة فتية تخطو نحو الرقي والازدهار .

فلما ولي سحنون القضاء ، وجد نفسه تجاه هذه الحالة الجديدة ، وشاء أن يساير حركة التنظيم التي تناولت النواحي الإدارية والعسكرية والمالية ، ولم تبق إلا الناحية القضائية تنتظر المصلح الجريء والعالم المجتهد كما أدرك أن خصومه من الرجعيين الذين يتوقع منهم مقاومة عنيفة لبرامجه الإصلاحية ومناهضة جبارة لانقلابه الخطير ، قد تشتت شملهم ، وضعفت قوتهم ، وبذلك أقدم غير هيّاب ولا متردّد ، وأعلن سلسلة برامجه الإصلاحية .

قسم سحنون القضاء إلى ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : درجة القضاء الفوري (أو دائرة صاحب المظالم) وهذا النوع من القضاء عهد إلى دائرة حكمية يرجع لنظرها من حيث الموضوع كل القضايا التي لا تزيد أهميتها المالية على عشرين ديناراً في خصوص المادة المدنية .

ويرأس هذه الدائرة قاض له خبرة خاصة بالأحوال التجارية والصناعية وبما اعتاده الناس في معاملتهم وتعارفوه في صفقاتهم كما له حذق زائد ومهارة واسعة في التوفيق وإصلاح ذات البين وله احترام في نفوس الناس .

وتقضي هذه الدائرة قارة ومتنقلة فهي تتبع الخصومة ، وتنتصب في أشهر أسواق العاصمة وأكثرها حركة ونشاطاً ، فهي غير مقيدة الاختصاص بالنسبة لمرجعي النظر الترابي والشخصي والقضايا التي تتجاوز أهمية موضوعها المالي العشرين ديناراً ترفع إلى الدائرة العليا ... وقد تلقى هذه الأحداث بمزيد من الغبطة والابتهاج وحمد الناس لسحنون ابتكاره العظيم وأقبلوا على التقاضي لدى دائرة الفور حيث وجدوا فيها السرعة التي ينشدونها والقرب الذي يريدونه .

وجاء من بعد سحنون كثير من القضاة فأقروا الدائرة الفورية ووسعوا في مشمولات أنظارها الحكمية ، فأصبحت على عهد عيسى بن مسكين قاضي القيروان تنظر في القضايا التي تبلغ أهميتها المالية مائة دينار . وكانت في ذلك العهد مسندة إلى لياقة القاضي سليمان بن سالم الكندي .

أما في عهد سحنون فقد أسند قضاء الدائرة الفورية إلى كفاءة الفقيه الكبير حبيب بن نصر التميمي الذي توفرت فيه شروط الحنكة والدراية والنشاط .

ولا تنظر دائرة القضاء الفوري في المخالفات والجنح التي تستوجب التعزير ولا في الجنايات التي تستوجب إقامة الحدود .

الدرجة الثانية : درجة القضاء البلدي (أو دائرة صاحب الحسبة) وهذه الدائرة ترجع لنظرها كل المخالفات التي ترتكب ضد المصالح العامة ، والصحة العامة والنظافة والطرقات العامة ، والمؤسسات ذات الصبغة العمومية كالمساجد والمعابد والمعاهد ، وضد الأخلاق الفاضلة وحقوق التجاور والتساكن كما يرجع لنظرها إجراء الرقابة على المكاييل والموازين ومعروضات الأسواق من أطعمة وأشربة وعلى نظام العرض والطلب وعلى راحة السكان وأمنهم .

وقد كانت هذه الدائرة قبل عهد سحنون خارجة عن أنظار كبير قضاة المملكة ويتولاها قضاة يقع تعيينهم من الأمير ويكونون مسؤولين إليه وحده وهو الذي يجري رقابته عليهم ويأمر بعزلهم .

فلما أسند القضاء إلى سحنون رأى أن في خروج القضاء البلدي عن نظره مساساً باستقلال القضاء عن الإدارة والإمارة وسبباً لحدوث ارتباكات لا تتلاءم مع منهبه القضائي فبادر بالمطالبة بضم هذا النوع من القضاء إلى سلطته الخاصة ومشمولات أنظاره وتم له ذلك ، فأحرز القضاء بهذا الانتصار على كمال استقلاله وعظيم نفوذه .

وأمكن للإمام أن يحدد مرجع نظر هذه الدائرة بغاية الدقة وأن يرتب لها أعوانها ويقرر لكل عون منطقة نفوذه الترابية وماله من حقوق وامتيازات وما عليه من تكاليف وواجبات واستطاع أن يستبدل الأقدمين من رجال تلك الدائرة بآخرين محرزين على الثقة والنزاهة ورضى العموم والخصوص .

وبهذا أدت دائرة القضاء البلدي واجبها الخطير على أكمل وجه وساد بفضلها النظام والأمن بين المتساكنين وأصبحت البلاد الإفريقية التي تعج بمختلف العناصر والأجناس تنافس العواصم الشرقية (ولا أقول الغربية) في ازدهارها وعمرانها ونظافتها وأمنها .

ولقضاة وأعوان هذه الدائرة وقائع وحوادث لا تكفي لتسجيلها المؤلفات الضخمة .

الدرجة الثالثة : درجة القضاء العالي (أو محكمة قاضي القضاة) وتنظر دائرة القضاء العالي أصالة في الجنح المستوجبة للتغيير ، وفي الجنايات المستوجبة للحدود ، وتنظر أيضاً فيما هو خارج عن اختصاصات دائرتي المظالم والحسبة .

ويتولى أمر هذه الدائرة القاضي الذي ينتخبه رجال العلم ويعينه الأمير الشرعي، ويتساوى في التقاضي أمامها الملك والراعي والجاهل والعالم والعظيم والحقير.

وقد أصبح لهذه الدائرة في عهد سحنون من الجلال الرائع والعظمة الهائلة ما أخضع لها حملة التيجان وأرهب أولي المكانة والشأن وغدت الأقدام تثبت أمام العروش المذهبة وتتزلزل أمام بيت القاضي وحول سدته الترابية الخشنة .

وشاء سحنون أن يتخذ بيت قضائه في احضان المسجد الجامع وبين أحد أجنحته الخارجية فخلع عليه بذلك المهابة والإكبار وأفاض عليه من روحانية العبادة وجلال التجرد والنسك ما جعله يبتعد عن المادة ويقترب من الناموس الأعظم حتى أدى ذلك إلى تشجيع الصعلوك على مقاضاة الأسياد والكبراء، ومجالستهم الجنب بالجنب ومجادلتهم الكلمة بالكلمة.

وقد ابتكر سحنون خطة الكتابة العامة لدائرة القضاء العالي، وأسندها إلى مزاحمه العلامة القاضي سليمان بن عمران زعيم الكوفيين والمرشح الثاني لولاية القضاء الأفريقي، وقصد سحنون أن يصيب بذلك التعيين ثلاثة أهداف:

الأول: إرضاء أتباع المذهب الكوفي في شخص زعيمهم.

الثاني: الاستفادة من مواهب سليمان وغزير علمه.

الثالث: تمرينه على القضاء (وفعلاً فقد انتخب بعد ذلك في منصب القاضي الأكبر).

ولم يتردد سليمان في قبول ما عرضه عليه سحنون حرصاً على زيادة الارتواء من منهله الذي لا ينضب، ومعينه الذي لا يغور، ورغبة في ممارسة ما عرف عن سحنون من شدة التحري وقوة البداهة وبراعة الاستنتاج.

كما أحدث سحنون ديوان التسجيل وأناطه بعهدة عالمين فقيهين يتوليان تسجيل الأحكام والاعترافات والشهادات في مجلس القاضي وبين يديه.

أحدث سحنون نظامي الاستقدام الشخصي كتابة ومشافهة، والاستقدام الجبري (ولو أنه لم يضطر كثيراً لاستعماله).

وكان إذا استدعي كبير في المثول بين يدي القاضي يأمر عون المحكمة بسحبه ووضع حبل في عنقه إن اقتضى الحال ذلك وعمد ذات مرة إلى إذاعة منشور في أطراف المملكة يستنفر فيه جيشاً من الفتيان والشبان ليقدموا عليه وينفذوا أمره.

كما أحدث طريقة على الغائب (وهي التي جرى عليها في الظروف الأخيرة، عمل المحاكم التونسية).

كما أحدث الجدول اليومي المعد لضبط أسماء المتقاضين بحسب أسبقيتهم في الحضور وأوجب أن لا يخرق نظام الأسبقية إلا إذا حضر مضطر أو ملهوف فيكون له حق الأولوية، وكما قرر أن يجري القضاء في بيت المحكمة بمحضر

الكاتب وشاهدي التسجيل والخصوم ونوابهم (باستثناء أمراء بني الأغلب الذين كان لا يقبل عنهم نواباً) .

لم يكن سحنون بتقاضى أي راتب أو جراية ، في مقابلة قيامه بمأمورية القضاء وكان يتفق من إيراداته الخاصة التي تبلغ غلاتها السنوية خمسمائة دينار وكان الأعوان والكتّاب يتقاضون رواتبهم من مال الجزية .

وقد نجم عن زهد الإمام في الجرايات وعطاءات الدولة والملوك أن صرّح يوماً أمير القيروان تصريحاً سجله التاريخ بمداد الفخر ، حيث قال :

«إن سحنون لم يركب منا دابة ولم يأخذ منا رزقاً ولم يتعرض لنا بسداد حاجته فلم يخافنا ..» .

ومن إصلاحات سحنون تحجير إيداع الأمانات بدار القضاء ، وتسمية أمناء توضع تحت أيديهم الأمانات على نظام واحتياطات خاصة وبشروط معينة .

يمكن أن نقارن بين مذاهب سحنون الأفريقية في الإصلاح القضائي ومذاهب الإمام أبي يوسف يعقوب العراقية ، وأن نفاخر بما أقدم عليه قاضينا العظيم ومن جاء بعده من التغييرات الجوهرية التي جعلت أداة الحكم هنا وهناك تساير إلى أبعد حد ما بلغته المملكة الإسلامية من رقي وحضارة واتساع وامتداد .

وقد رأينا كيف كانت القيروان تنافس دار الخلافة الإسلامية في أزهر عصورها وأقوى عهودها في ابتكار المناهج الحكمية وإقامة القضاة الأعلام ومنح السلطات الكاملة للمؤسسات القضائية وتأليف المصنفات الضخمة عن فقه القضاء علماً وعملاً وعن الوقائع والحوادث وقد تعددت المحاكم في عاصمة القيروان كما حدث ذلك ببغداد وامتازت القيروان ، بأنها عقدت لرجالها لواء قيادة الجيوش ، وولاية القضاء في شخص رجل واحد وهو : القائد القاضي أسد بن الفرات فاتح صقلية وصاحب الآراء الفذة في الكتاب والسنة والمجتهد الموفق . انتهى من الكتاب المذكور .

صور ما كتبه الخلفاء والسلاطين لمن يولونه القضاء

صورة ما كتبه عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من جورك والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله وفي سنة النبي ﷺ اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى، واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر.

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو قرابة فإن الله قد تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم الشبهات، ثم إياك والقلق والضجر والتأذي بالناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه، هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام عليك. انتهى من كتاب البيان والتبيين.

ما كان يكتبه ولاة الأمور عند تولية أحد القضاة

جاء في الجزء الرابع عشر من كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي الذي فرغ من تأليفه سنة (٨١٤) أربع عشرة وثمانمائة من الهجرة، ما يأتي:

«وهذه نسخة تقليد»

الحمد لله الولي الحميد الفعال لما يريد نحمده على ما أولانا من إحسانه فهو المولي ونحن العبيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة توصلنا إلى جنة نعيمها مقيم، وتقينا من نار عذابها شديد أليم وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي الكريم صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه المشتملين على الطاعة والقلب السليم، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد فإن مرتبة الحكم لا تعطى إلا لأهلها والأقضية لا ينتصب لها إلا من هو كفء لها، ومن هو متصف بصفات الأمانة والصيانة والعفة والديانة، فمن هذه صفته استحق أن يوجه ويستخدم، ويترقى ويتقدم.

ولما علمنا من حال فلان الفلاني الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة فإنه قد حوى المعرفة والعلوم والاصطلاح والرسوم وجمعت فيه خصال حملتنا على استنابه وقوتنا على نيابته استخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا.

فليباشر ذلك متمسكاً بحبل الله المتين ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ وليجتهد في إقامة الدين وفصل الخصومات، وفي النظر في ذوي العدالات والتلبس بالشهادات وإقامة البينات، فمن كان من أهل العدالة نَزِهاً وإلى الحق متوجهاً، فليراعه ويقدمه على أقرانه، ومن كان منهم خلاف ذلك فليقصه ويطالعنا بحاله ولينظر في أمر الجوامع والمساجد، ويفعل في ذلك الأفعال المرضية، ومن أموال الأيتام يصرف منها اللوازم الشرعية فمن بلغ منهم رشيداً أسلم إليه ما عساه يفضل له منها، ويقرر الفروض، ويزوّج الخاليات من الأزواج والعدد والأولياء من الأزواج الأكفاء ويندب لذلك من يعلم ديانته ويتحقق أمانته ويتخير لكتابة الصكوك من لا يرتاب بصحته ولا يشك في ديانته وخبرته، وينظر في أمر المتصرفين ومن عنده من المستخدمين، فمن كان منهم على الطريقة الحميدة فليجره على عادته وليبقه على خدمته ومن كان منهم بخلاف ذلك فليستبدل به وليقصه.

هذا عهدي إليك وحجتي غداً عند الله عليك فاعلم هذا واعمل به.

وكتب ذلك عن الإذن الكريم الفلاني وهو في محل ولايته وحكمه وقضائه، وهو نافذ القضاء والحكم مافيها في التاريخ الفلاني (ثم يكتب الحاكم علامته والتاريخ) وحسبنا الله ونعم الوكيل. انتهى من صبح الأعشى.

ثم ذكر صاحب الكتاب المذكور بضعة نسخ لتقاليد الولاة لم نذكرها اكتفاءً بما قدمناه .

صورة ما كتبه الملك الأفضل علي ابن السلطان صلاح الدين بن أيوب ملك مصر

للشيخ زين الدين بن بندار يوليه القضاء وذلك سنة خمس وتسعين وأربعمائة هجرية والكتابة من إنشاء الصاحب ابن الأثير الجزري

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ .

من السنة أن تفتتح صدور التقليدات بدعاء يعم بفضله ويكون وزاناً للنعمة الشاملة من قبله وخير الأدعية ما أجراه الله على لسان نبي من أنبيائه أو رسول من رسله ، وكذلك جعلنا من هذا التقليد الذي أمضى الله قلمنا في كتابه وصرف أمرنا في اختيار أربابه ، ثم صلينا على رسوله «محمد» الصادع بخطابه ، الساطع بشهابه الذي جعلت الملائكة من أحزابه وضرب له المثل بقاب قوسين في اقترابه وعلى آله وصحبه الذين منهم من خلفه في محرابه ، ومنهم من كملت به عدة الأربعين من أصحابه ، ومنهم من جعل أثواب الحياء من أثوابه ، ومنهم من بشّر أنه من أحباء الله وأحبابه .

(أما بعد) فإن منصب القضاء في المناصب بمنزلة المصباح الذي به يستضاء ، أو بمنزلة العين التي عليها تعتمد الأعضاء وهو خير ما رقمت به الدول مسطور كتابها وأجزلت به مذخور ثوابها وجعلته بعد الإعجاب كلمة باقية في أعقابها ، وقد جعله الله ثاني النبوة حكماً وأورثها علماً والقائم بتنفيذ شرعها ما دام الإسلام يسمى لا يستصلح له إلا الواحد الذي يعد محفلاً في محفله وإذا جاءت الدنيا بأسرها خفّت على أنملته .

وقد أجلنا النظر مجتهدين وعولنا على توفيق الله معتضدين وقدمنا قبل ذلك صلاة الاستخارة وهي سنّة متبوعة وبركة في الأعمال موضوعة لا جرم إن أرشدنا في أثرها إلى من صرح الرشد فيه بأثره وقال الناس : هذا هو الذي جاء على فترة

من وجود أنظاره وهو أنت أيها القاضي (فلان) مهد الله لجنبك وجعل التوفيق من صحبك وأنزل الحكمة على يدك ولسانك وقلبك، وقد قلدناك هذا المنصب بمدينة مصر وأعمالها وهي مصر من الأمصار تجمع وجوهاً وأعياناً، وقد رسم بأنه كرسي مملكته عزاً وتبياناً، وعظمت سلطاناً، ولما قلدناك هو علمنا أنه سيعود وهو بك غض طري، وأن ولايته نيطت منك بكفؤ فهي بك حرية وأتت بها حري، فمن طلبها من الناس فإنها لم تكن عندك مطلوبة، ومن انتسب في وجاهته إليها فليست وجاهتك إليها منسوبة وما أردت بها شيئاً سوى تحمل الأثقال وبيع الراحة بالتعب في الأشغال، وتعريض النفس لمضاضة الضيم والحيف، والوقوف على الصراط الذي هو أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف ولكنك في خلال ذلك تشتري الجنة بساعة من ساعاتك وإذا رعيت مقام ربك فقد أرصدته لمراعاتك وليس في الأعمال الصالحة أقوم من إحياء حق وضع في لحده أو رد حق مطلت الأيام برده فاستخر الله تعالى وتول ما وليناك بعزيمة لأنك بها شامة ولا تأخذها في الله ملامة وهذا زمان قد تلاشت فيه العلوم وعفت رسوم الشريعة حتى صارت كالرسوم ومشت الأمة المطيطا وخلفها أبناء فارس والروم، وإذا نظر إلى دين الله وجد وقد خلط أمره خلطاً وتخطى رقاب الناس من هو جدير بأن يخطا وآذنت الساعة بالاقتراب حتى كاد أن يستوي ما بين السبابة والوسطى والمتصدي لحفظه يعد نقله بنقلين، وفضله بفضلين ويؤتيه الله من رحمته كفلين وحق له أن يتقدم على السلف الصالح الذي كان كثيراً رشده، حسناً هديه وقصده وكان قريباً برسول الله ﷺ فإن أولئك لم يؤتوا من جهالة ولا حرموا من مقالة ولا حدث في زمانهم بدعة وكل بدعة ضلالة ونحن نرجو أن يكون ذلك الرجل الذي وزن بالناس فرجح وزنه وسبق القرون الأولى وإن تأخر قرنه ولقد ألبسنا الله بك لباساً يبقي جديداً ويسرنا للعمل الذي يكون محضراً لا للعمل الذي نود لو أن بيننا وبينه أمداً بعيداً وإياك ثم إياك أن تقف معنا موقف الاعتذار وما نخشى عليك إلا الشيطان الناقل للطباع في تقاليب الأطوار ولطالما أقام عابداً من مصلاه وغره بانتساك حيله ودلاه ولمكانتك عندنا أضربنا عن وصيتك صفحاً وتوسمنا أن صدرك قد شرحه الله فلم نزده شرحاً، والذي تضمنه تقليد غيرك من الوصايا لم يسفر إلا عن نقاب خطى الأقلام، وقصر أقوالها عن المماثلة من مراتب أولى التعليم وبين العلماء الأعلام ولا يفتقر إلى ذلك إلا من ثقل منصب القضاء على كاهله وقضى جهله بتحريمه عليه وفرق بين عالم أمر وجاهله، وأما أنت فإن علم القضاء

بعض مناقبك وهو من أوانسك لا من غرائبك لكن عندنا أربع من الوصايا لا بد من الوقوف فيها على سنن التوقيف وإبرازها إلى الأسماع في لباس التحذير والتخويف .

فالأولى منهن وهي المهم الذي زاغت عنه الأبصار وهلك من هلك فيه من الأبرار ولربما سمعت هذا القول فظننته مما تجوز في مثله القائلون وليس كذلك بل هو نبأ عظيم أنتم عنه غافلون ، وسنقصه عليك كما فوضناه إليك وذلك هو التسوية في الحكم بين أقوالك وأفعالك والأخذ من صديقك لعدوك ومن يمينك لشمالك وقد علمت أنه لم تخل دولة من الدول من قوم يعرفون بطيش الحلوم ، ويغترون بقرب السلطان وهو ظل عليهم لا يدوم وإذا دعوا لمجلس الحكم حملهم البطر والأشر على الإمتناع عن مساواة الخصوم ولا يفرق بين هؤلاء وبين ضعيف لا يرفع يداً ولا طرفاً ولا يملك عدلاً ولا صرفاً ونحن نبرأ من مخالفة الدرجات في حكم العزيز الحكيم ولعن الله الذين نسخوا آية الرجم بما أحدثوه من التجبية والتحميم ، وقد بسطنا يدك بسطاً ليس له انقباض ، ولا عليه اعتراض ، وأنت القاضي الذي لا يكون اسمك منقوصاً فيقال فيه أنك قاض .

وإذا استقللت بهذه الوصية فانظر فيما يليها من أمر الوكلاء القائمين بمجلس الحكم الذي لا ترد أحداً منهم إلا خلياً لوياً أو خادعاً خلوياً ، وإذا اعتبرت أحوالهم وجدو عذاباً على الناس مصبوباً ولا يتم لهم إلا في ستر القضايا ونعيمها ولا ينحون في شيء منها إلا نحو إمالتها وترخيمها فأرح الناس من هذه الطائفة المعروفة بنصب الحبالة ، التي تأكل الرشاء وتخرجها في مخرج الجعالة وطهّر منها مجلسك الذي ليس بمجلس ظلم وزور وإنما هو مجلس عدل وعدالة ، ومن العدل أن يخلى بين الخصوم حتى يكافح بعضهم بعضاً ، والمهل في مثل هذا المقام لرعي الرعاية لما يقضى ، وإن كان أحدهم ألحن بحجته فكله إلى عالم الأسرار وإذا حكمت له بشيء من حق أخيه فلا تبال أن يقطع له قطعة من النار .

وكذلك فانظر في الوصية المختصة بالشهداء فإنهم قد تكاثرت أعدادهم وأهمل انتقادهم ، وصار منصب الشهادة يسأله وسؤاله من الحرام لا من الحلال ، وأصبح وهو يورث عن الآباء والأولاد والوراثة تكون في الأموال . والشاهد دليل يمشي القضاء على منهاجه ، ويستقيم باستقامته ويعود باعوجاجه ، فانف كل من

شانتك منه شانية أو رابتك منه رايبة ، وعليك منهم بما تخلق بخلق الحياء والورع وأخذ بالقول الذي على مثلها فاشهد أو فدع .

وأما الوصية الرابعة فإنها مقصورة على كاتب الحكم الذي إليه الإيراد والإصدار وهو المهيمن على النقض والإمرار ، وينبغي أن يكون عارفاً بالحلي والوسوم والحدود والرسوم وأن يكون فقيهاً في البيوع والمعاملات والدعاوي والبينات ومن أدنى صفاته أن يكون قلمه سائحاً ، وخطه واضحاً وإذا استكمل ذلك فلا يستصلح حتى يكون العفاف شعاره والأمانة عياره والحفظ والعلم سوره وسواره وهذا الرجل إن خلوت به فامض يده فيما يقول ويفعل واستنم إليه استنامة الواثق الذي لا يخجل وا لله يختار لنا ذلك فيما بيناه من المراشد ن ويجعل أقوالنا ثماراً يانعة إذا كانت الأقوال من الحصائد .

وبعد أن بوأناك هذه المكانة وحمّلناك هذه الأمانة فقد رأينا أن نجمع لك من تنفيذ الأحكام وحفظ أصولها وأن لا نخليك من النظر في دليلها ومدلولها فإن الترك يوحش العلوم من معهود أماكنها ويذهب بها من تحت أقفال خزائنها ومنصب التدريس كمنصب القضاء أخ يشأ من عضده ويكثر من عدده فتولى المدرسة الفلانية عالماً إنك قد جمعت بين سبعين في قراب وسلكت ياسين إلى تحصيل الثواب وركبت أعز مكان وهو تنفيذ الحكم وجالست خير جليس وهو الكتاب .

ونحن نوصيك بطلبة العلم وصيتين ، إحداهما أعظم من الأخرى وكلتاهما ينبغي أن تصرف إليهما من اهتمامك شطراً ! فالأولى : أن تتخولهم في أوقات الاشتغال وتكون لهم كالرائض الذي لا يبسط لهم بساط الراحة ولا يكلفهم مشقة الكلال ، والثانية : أن تذر عليهم أرزاقهم ذرار المسامح وتنزلهم فيها على قدر الإفهام والقرايح وعند ذلك لا تعدم منهم منبع في كل حين ، ويسرك في حالتيه من دنيا ودين وا لله يتولاك فيما ينويه صالحة ويوفقك للعمل بها لا لأن يكون في قلبك سانحة .

وقد فرضنا لك في بيت المال قسماً طيباً مكسبه هنيئاً مأكله ومشربه لا تعاقب غداً على كثيره وإن حوسبت على فتيله ونقيره والمفروض في هذا المال ينبغي أن يكون على قدر الكفاف لا على نسبة الأقدار ورب متخوض فيما شاءت نفسه من مال ا لله ومال رسوله ليس له في الآخرة إلا النار والدنيا حلوة خضرة تلعب بذوي الألباب وعلاقاتها بتجدد الأيام فلا تنتهي الآراب منها إلا إلى آراب ومن

أراد الله به خيراً لم يسلك إليها وإن سلك كان كمن استظل بظل بشجرة ثم راح وتركها ونحن نخلص الضراعة والمسلمة في السلامة من تباعتها وأن نوفق لرعي ولاية العدل والإحسان إذ جعلنا من رعاتها وهذا التقليد ينبغي أن يقرأ في المسجد الجامع بعد أن يجمع له الناس على اختلاف المراتب ما بين الأباعد والأقارب والعراقيب والذوائب والأشائب وغير الأشائب وليكن قراءته بلسان الخطيب وعلى منبره وليقل هذا يوم رسم بجميل صيته واغتضاض محضره ثم بعد ذلك فأنت مأخوذ بتصفح مطلوبه على الأيام وإثباته في قلبك بالعلم الذي لا يمحى سطره إذا محيت سطور الأقلام .

واعلم أنا غداً وإياك بين يدي الحكم العدل الذي تكف لديه الألسنة عن خطابها ، وتستنطق الجوارح بالشهادة على أربابها ولا ينجو منه حينئذ إلا من أتى بقلب سليم ، وأشفق من قول نبيه : لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم ، والله يأخذ بناصية كل منا إليه ، ويخرجه من هذه الدنيا كفافاً لا له ولا عليه ، والسلام . انتهى من كتاب حسن المحاضرة للسيوطي .

فانظر رحمك الله تعالى إلى ما كان يكتبه ولاة الأمور للقضاة عند توليتهم فإذا تأملت هذا الكتاب الملكي للقاضي تجد أنه يحتوي على عدة مسائل وهي :

١) افتتاح المكاتبة بدعاء من القرآن الكريم شامل للحمد والشكر والثناء على الله تعالى .

٢) ثم الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه الطاهرين .

٣) ثم كيفية انتخاب القاضي بعد الاستخارة الشرعية كما هو السنة في كل الأمور.

٤) ثم نصيحة القاضي بمراعاة منصب القضاء وأداء الأمانة الملقاة على عنقه .

٥) ثم توصية القاضي بأربع وصايا كل منهم أهم من أختها:

فالأولى : مختصة بنفس القاضي في تسوية الحكم بين الناس .

والثانية : مختصة بتطهير الحواشي ممن يلازمون مجلس القضاء ، حتى لا يعاملون الناس بالخديعة والحيل وأخذ الرشوة .

والثالثة : مختصة بانتقاء واختيار الشهود الذين بهم يظهر الحق من الباطل فلا يقبل شهادة من يتوسم فيهم الشك والريبة .

والرابعة : مختصة بكاتب القاضي نفسه وهو ما نسميه اليوم بكاتب الضبط فيجب أن يكون من أهل العلم فقيهاً حسن الخط جيد الإنشاء أميناً عفيفاً .

٦) ثم يتضمن هذا الكتاب الملكي للقاضي توليته القضاء مع إسناد تدريس العلم إليه ، ليجتمع له تنفيذ الأحكام مع مذاكرة العلوم فإن آفة العلم ترك الاشتغال به فانظر رحمك الله إلى هذه الحكمة الدقيقة من ولاة الأمور مع قضاتهم .

٧) ثم توصيته بطلبة العلم بوصيتين :

الأولى : النظر في أمر تعليمهم بسهولة وراحة بحيث لا يتطرق إليهم السآمة والملل .

والثانية : إجراء الأرزاق عليهم ليرتاح بالهم عن الاشتغال بأمور المعيشة حتى يتفرغوا لطلب العلم .

٨) ثم تخصيص راتب طيب من الحلال للقاضي على حسب ما يكفيه بدون تقتير ولا تبذير حتى يتفرغ للقيام بأداء وظيفته فيرتاح قلبه من الانشغال بأمور المعيشة.

٩) ثم الأمر بقراءة الكتاب الملكي بهذا التقليد على الناس في المساجد والجوامع ليظهر علناً ما عهد به الملك للقاضي فيعرف الناس ما لهم وما عليهم .

١٠) ثم تحذير القاضي من مخالفة الشرع وتذكيره بأنه سيقف بين يدي أحكم الحاكمين يوم القيامة ويسأله عن الصغيرة والكبيرة ، ثم الختام بالدعاء والتوفيق والسداد ، وأن يأخذ الله بناصيتهم لطريق الخير والرشاد .

هذا هو ما يتضمن المرسوم الملكي لقضاة زمانهم في ذلك العصر الأنور في القرن الخامس الهجري .

فانظر الفرق العظيم في تقليد القضاء بين عصرهم وعصرنا وكتابتهم وكتابتنا وصيغة مرسومهم وصيغة مرسومنا ، والفرق بين أحوالهم وأحوالنا ومعاملاتهم ومعاملاتنا .

اللهم عفوك ومغفرتك وفضلك وإحسانك فلا قدرة لنا على اتباع صراطك المستقيم إلا بتوفيقك وإحسانك وفضلك فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

صورة ما كتبه ملك الأندلس للعلامة محمد بن سليم بولاية القضاء

جاء في كتاب «مُثل عليا من قضاء الإسلام» تأليف الأستاذ محمود الباجي، ما يأتي: في فجر اليوم الخامس عشر من شعبان عام ثلاثمائة وخمسين خرج أمير المؤمنين الحكم المنتصر بالله، ملك الأندلس إلى ديوانه لتصريف الشؤون اليومية، ودخل عليه والي قرطبة لتلاوة تقريره الليلي. وجاء في التقرير أن قاضي المملكة منذر بن سعيد في حالة احتضار. وارتبك الأمير واستوى واقفاً وجعل يضرع إلى الله أن يوفقه إلى اختيار خلف يطمئن إليه في إقرار الحق وإقامة العدل ثم أمر باستدعاء شيوخ الشريعة ورجال العلم. ولما اكتمل الجمع أعلمهم بأنه دعاهم ليأخذ رأيهم في اختيار من يخلف منذر بن سعيد. وفيما هم يعددون خصاله ويذكرون مجالسه وأخباره، إذ ورد الإعلام بموته فاتفق المجتمعون على انتخاب محمد بن السليم لما هو معروف به من الفضل والعلم والفهم، وحسن النظر في الأمور، وجميل الخلق.

أمر الأمير بتحرير عهد الولاية لمحمد بن إسحاق بن السليم ليتلى في جامع قرطبة وينهى للقاضي المنتخب فكتب العهد على الصورة الآتية:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب أمر به أمير المؤمنين الحكم المنتصر بالله لمحمد بن إسحاق بن السليم، ولاه خطة القضاة، واختاره للحكم بين جميع المسلمين، ورفعه إلى أعلى المراتب عنده في تنفيذ الأحكام غير ملطق يده إلا بالحق ولسانه إلا بالعدل».

ورسم له في كتابه رسوماً بدأ فيه بأمانة الله عز وجل إليه وجعل الله الشهيد بها عليه أمره بتقوى الله العظيم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وأن يجعل كتاب الله أمامه ينظر فيه نظر المتفكر المعتبر. فإنه عهد الله الذي بعث به نبيه ﷺ فأحل حلاله وحرم حرامه وأمضى أحكامه وفارق الأمة على أنهم لن يضلوا ما اتبعوه فهو العروة الوثقى والطريق المثلى، والنهج المنير، ودين الله القويم.

وأمره أمير المؤمنين أن يقتدي بسنة رسول الله ﷺ التي بها عملت الأئمة وعليها اتفقت الأمة. فالحق معروف والباطل مكشوف، وبينهما مشتبهات فيها يحمد التوقف، وعندها يشكر التثبيت ففي كتاب الله تعالى اسمه وسنة نبيه ﷺ

أصل الدين وفرعه ودليله وتأويله ومن يرد ا لله به خيراً يوفقه للافتاء بهما ، والاقتباس منهما .

وأمره أن يصلح سريرته فيها يصلح ا لله علانيته وأن يبرأ من الهوى فإنه مضلة عن طريق الحق ، وأن يجعل الناس في نفسه سواء إذا جلس للحكم بينهم ، حتى لا يطمع فيه الشريف ولا ييأس منه الضعيف وأمره أن يعتبر أمره وما قلده ، فيعلم أنه راكب طريقاً منتهاها إلى الجنة أو إلى النار ، ليس عن أحدهما مصرف ولا من بينها موقف . فحق لمن أراد النجاة أن يستكثر من الحسنات ، ويمنع دينه ممن أراد أن يؤنسه في الشبهات . ويعلم أنه حاكم في ظاهره محكوم عليه في باطنه تطوى كل يوم صحيفته على ما أودعها حتى ينظر فيها غداً بين يدي ا لله عز وجهه ﴿يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ فمن حاسب نفسه في الدنيا كان أيسر حساباً في الآخرة .

وأمره أن يتحفظ في حين وقوع الشهادات عنده ، فلا يقضي بين المسلمين منها إلا بما أقامه به التحقيق على ألسنة العدول ذوي القبول وإن استراب من شهادة أحدهم وقتاً ما أن يبحث عنها فإن ثبت أنه ارتشى ، أو شهد بالهوى فعليه أن يسقط شهادته ويخل عدالته تنكيلاً له ، وتشديداً لمن خلفه وأن يحمل على الناس معاريض الوكلاء على الخصومات ويطرح أهل اللدد الظاهر منهم ، ولا يحمل فضل حجاجهم عمن لا يقوم بهم .

وأمره أن يحترس بأموال اليتامى ولا يولي عليهم إلى أهل العفاف عنها ، وحسن النظر فيها وأن يجدد الكشف والامتحان عن أموال الناس والأحباس واليتامى ويمتنع من قبالتها إلا على وجوهها ، مما لا بد منه من التنفيذ فيها ، وطلب الزيادة عند ذوي الرغبة في قبالتها .

وأمره أن يختبر كاتبه وحاجبه وخدمته ويتفقد عليهم أحوالهم إذا غابوا عن بصره .

وأمره أن لا يعجل في أحكامه فمع العجل لا يؤمن الزلل وأن يرفع إلى أمير المؤمنين ما أشكل عليه الفصل فيه ليصدر من رأيه ما يعتمد عليه إن شاء ا لله وا لله يسأل أمير المؤمنين التوفيق بمنه وفضله .

وكتب يوم الاثنين النصف من شعبان سنة (٣٥٣) .

التوقيع

الحاكم المستنصر با لله

انتهى من الكتاب المذكور .

نبذة عن بعض قضاة المسلمين في العصور المتقدمة

لما كان أمر القضاء صعباً خطيراً فإن كبار العلماء في العصور المتقدمة كانوا ينفرون من تولي القضاء نفوراً تاماً وذلك خوفاً من عدم إقامة العدل بين الخصمين كما يرضى ا لله ورسوله فإنه لا بد أن يميل الإنسان على أحد الخصمين أو أن يميزه بشيء أو أن يقبل فيه توصية بعض الحكام والوزراء مثلاً ، أو أن يقبل رشوة أو هدية أو يساوم في نجاح القضية بنفسه أو بواسطة بعض الكتبة خصوصاً في آخر الزمان الذي يكون فيه من العجائب ما يكون إلا من عصمه ا لله تعالى عن الخطأ والزلل وقليل ما هم . ومن هنا قال رسول ا لله ﷺ : «قاضيان في النار وقاض في الجنة ، قاض عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ، وقاض عرف الحق فجار معتمراً أو قضى بغير علم فهما في النار» . رواه الحاكم .

وأيضاً لا بد للمحكوم عليه أن يكون خصماً للقاضي ، خصوصاً في هذه الأزمنة وذلك من الجهل بالأحكام وقلة الإذعان للحق وإلى هذا يشير الشاعر بقوله :

إن نصف الناس أعداء لمن   ولي الأحكام هذا إن عدل

ولكن هناك طائفة من فحول العلماء وكبار الزاهدين الأتقياء ممن ينطبق قول ا لله تعالى : ﴿إنما يخشى ا لله من عباده العلماء﴾ قد تولوا القضاء فقضوا بين الناس بما أنزل ا لله فلنتشرف بذكر نبذة يسيرة من سيرتهم الحميدة بين الناس للعظة والاعتبار ولننقل شيئاً من عدلهم ونصرتهم للحق وشدة ورعهم وزهدهم من كتاب «مُثل عليا من قضاء الإسلام» تأليف الأستاذ محمود الباجي والمطبوع سنة (١٣٧٦) من الهجرة فقد جاء فيه ما ملخصه :

سيرة القاضي حماس بن مروان رحمه الله تعالى

لم يترك الأمير زيادة الله وسيلة من وسائل الإذاعة إلا اتخذها لإشعار العموم بأنه اختار لقضاء الجماعة بالقيروان العالم الزاهد الورع أبا القاسم حماس بن مروان بن سماك الهمذاني خلفاً عن محمد بن أسود الصديني الظالم المستبد وأقيمت الأفراح في كل النواحي ابتهاجاً بزوال عهد بغيض واستهلال عهد عدل واستقرار، وبالغ بعض الكبراء في إظهار السرور فذبح الذبائح ومد الولائم وأطعم الفقراء.

بينما كان الشعب القيرواني في أعياده وولائمه كان القاضي حماس في بيته يتحدث إلى خادمته قائلاً: أي شيء يا أمة الله نأكله الليلة.. وترد عليه الخادمة بأن البيت لا يحتوي على أي شيء من الطعام بارداً أو طبيخاً، وأن دقيق الشعير نفد، ونفد كذلك التمر والرغيف. ويستدعي القاضي ابنه سالماً، ويأمره بأن يحمل الفأس ويسعى في بيعه ويشتري بثمنه خبزاً وزيتاً، ويذهب الابن ويبيع فأس المنزل ويشتري الخبز والزيت طعاماً لأهل البيت وتفرغ الأسرة من صلاة العشاء ويقبل كل فرد منها على نوافل الليل، فينهمك في العبادة والصلاة، وحتى جوهرة الخادمة الصالحة تأوي إلى ركنها تصلي وتبكي وتدعو إلى طلوع الفجر، وينتهي حماس من صلاته ويطوف على أهله فإذا ابنه سالم يتهجد في بيته، لنواحه دوي، وإذ ابنه محمد يتلو قرآن الفجر في صوت غالبه الخشوع والتأثر، والعجوز أمهما مستغرقة في تسبيح وتكبير، والخادمة جوهرة تبتهل وتدعو.

ويرفع حماس يديه إلى السماء يحمد الله ويصرخ قائلاً: «يا آل حماس ألا هكذا فكونوا».

لم تترك مشاكل القضاء لحماس الوقت الكافي ليدبر موارد عيشه، فكان يضطر لنسخ الكتب بالليل، ويبيعها للإنفاق من أثمانها، لأنه أصر على أن لا يأخذ من خزينة الملك ولا من بيت المال أي مبلغ أو عطاء في مقابلة قيامه بالقضاء. واضطرته قلة ذات اليد لفصل خادمته الفاضلة عن المنزل، خشية عليها من الجوع والاحتياج، وبكت جوهرة على فراق سيدها، وذهبت عند سيد آخر، وأقبل الليل فرأت أهله يسرعون إلى النوم دون أن يقوم بعضهم بصلاة الليل، وفرت تحت جنح الظلام عائدة إلى بيت سيدها حماس، ولما سألها عن سبب عودتها أجابته بأنه سلمها إلى قوم كفرة، فأنكر عليها هذا الادعاء لأنه إنما

أسلمها إلى قوم مسلمين وردت عليه بأنه لا يقومون الليل معتقدة أن من لا يقوم الليل كافر.

رغم أن حماساً رتب ديوانه على أحكم صورة، وعهد إلى موسى بن القطان بالقضاء المركزي يعضده أبو عبدالله الضراب، وعهد إلى العلامة عبدالرحمن الورقة بقضاء المظالم، وأبي العباس إسحاق بن إبراهيم الأزدي بقضاء التخوم، ورغم انتصابه لفصل القضايا كامل النهار فقد أعلن أنه يقبل التقاضي في أي مكان وعلى آية حالة، وفي بيته وفي المسجد الجامع لا يغلق بابه دون أي متظلم و لم يستطع الليل أن يقيم ستاراً بينه وبين المتقاصين لأن بيته يبيت في يقظة مستمرة، ولأن ابنه سالماً لا يغمض عينه، كامل الليل، ويجيب كل طارق أقبل على المنزل.

وعرض عليه ابن الصايغ أن يبعث له بنفقة ومركوبة وخادمة وحاجب، فأبى وهدد بالاستقالة وألح عليه بوصفه كبير وزراء المملكة أن يريح نفسه من نسخ الكتب ليلاً ويوفر ذلك الوقت للناس ويأخذ كفافه من المال، فأصر على الامتناع قائلاً: إني لا أرتفع عن أكون خديم المسلمين إلى درجة أن أكون مأجوراً على خدمتهم.

حاول رجل من أهل درب ابن الربيع أن يبني دكانه لصق باب داره ليجلس عليها في الأمسية منتظراً عودة مواشيه من المزرعة وبقراته من المرعى. ومنعه جاره بحجة أن الطريق لعموم الناس، وليس له أن يستأثر بمكان منه لخاصة نفسه.

واشتدت المناقشة بين الجارين، وقررا أن يحتكما للقاضي وكانا لا يعرفان حماساً و لم يجتمعا أو يتداعيا لديه وتحركا إلى مجلس القضاء، وفيما هما يسألان عنه، إذ لقيهما شيخ وقور يحمل قلة ماء فسألاه فقال: ما تريدان ؟ قالا: نتحاكم في مسألة. قال: تحاكما فثالثكما هو القاضي. قال له المدعي: ولم لم تضع قلتك على الأرضَ ؟ قال: لأن الأرض مملوكة للمارة، فلا أضيق عليهم. فقال له المدعي: قد قضيت في خلافنا، وقال في نفسه: إذا كان القاضي لم تسمح نفسه بوضع قلته بالطريق فكيف يحكم لي بأن أبني دكانة في الطريق ؟ وانصرف ورجع عن محاولة واعتذر لجاره.

هذا الحكم يرويه عن القاضي حماس أبو الفضل البرزلي وينقله عنه المؤرخون وننقله نحن عن هؤلاء، وفيه عبرة وموعظة، وفيه ورع وعدالة وهو لعمر الحق صورة حية لما كان عليه القاضي حماس من التربية الكاملة، ولما كان يعطيه من

المثل السامية على حسن السلوك وكمال الاستقامة راهب بالليل وقائم بالعدل في النهار ، وفيما بين ذلك ناسخ للكتب ينقلها ويبيعها للناس ، ليأكل من ثمنها ويتحرى حقوق المسلمين في البيت وفي الطريق وفي نفسه وأهل بيته ومع ذلك يطاوله الوزير ابن الصايغ لحمله على أن يقدمه على نفسه في الرسائل الرسمية فيأبى حماس ويرفض أن يتوج كتبه بذكر اسم الوزير ويصر على أن يقول : « من قاضي القضاة حماس بن مروان إلى الوزير ابن الصايغ سلام ا لله وبركاته ويليه الخ .. » .

وهنا ينقلب التواضع إلى ثورة وشمم وتحدي صوتاً لناموس القضاء وذوداً عن كرامته وحرماته .

هذا هو القاضي الإفريقي الأنزه حماس بن مروان الذي وجد أحد زائريه قطعة نقد فضية في سقيفته ، فسلمها إليه فأرجعها إليه حماس قائلاً : ما يملك حماس ولا آل حماس صفراً ولا بيضاً .

وهذا هو الذي ميز بعض كتبه ووضعها في مكان خاص وقال لابنيه سالم ومحمد : « إذا مت فبيعا هذه الكتب وجهزاني منها ، لأني نسختها بخطي ، وأبقيت عليها ليوم موتي » .

وهو تلميذ سحنون وعن مدرسته تخرج في العلم وأخذ الزهد والسلوك عن جبلة بن حمود ومدرسته .

وبصفة منشور الولاية الذي أصدره زيادة ا لله بن الأغلب ، بأنه « أولاه القضاء لرأفته ورحمته وعلمه بالكتاب والسنة » .

رحمه ا لله وأعظم أجره ورفعه إلى مقام الصديقين والشهداء والصالحين وألهمنا الاقتداء بصلابته وورعه .

وأن نتحمس لما كان عليه حماس من خلال وسجايا فنكون أهلاً لميراث أمجاده واستقبال إيحاءاته وإمداده . إنه سميع مجيب . انتهى من الكتاب المذكور.

سيرة القاضي سحنون رحمه الله تعالى

وجاء في الكتاب المذكور ما يأتي : قال القاضي عياض يروي هذا المجلس التاريخي : دخل على سحنون أحد رجاله وهو في مجلس قضائه وأعلمه بأن القائد ابن الربيع قائد جيوش الأقاليم الجنوبية ، جاء تعلو هامته أكاليل النصر ، وتدق من حوله الطبول والجيش يهتف باسمه هتافاً يصم الآذان ، والغنائم والتحف النادرة

تتقدم موكبه الحافل وقد أمر الخليفة محمد بن الأغلب أن تقام أقواس النصر للقائد المنتصر ، ويخرج الناس للقائه وإنه كان فيما جاء به حرائر من النساء قد أخذهن أسيرات .

واضطرب القاضي ، وقال : «أيعمد ابن الربيع إلى تأسير الحرائر من النساء ، إن ذلك لا يقع وأنا قاضي المسلمين وولي الضعفاء» .

ودخل ابنه محمد وأدرك ما عليه أبوه من الغضب والثورة ، فقال : ما عساك تصنع يا أبي والسلطة التنفيذية تحمي ظهر ابن الربيع والملك لا يجاهره بالمقاومة وقد عاد من ساحة القتال يجرّ ذيول الانتصار ؟

فكّر الإمام سحنون في الأمر ، ثم دعا أعوان ديوانه وأمرهم بأن يركبوا حالاً وينهبوا إلى أطراف البلاد وينفروا إليه وبأمره ألف شاب من الفتيان الأقوياء الأشداء، ويتجهز كل فتى بسلاحه وصدع الأعوان بالأمر وتوغلوا في دواخل البلاد ، لتجنيد كتائب العدل والسير بها إليه . واجتمع الرجال ووضعواأنفسهم أجسماً وأرواحاً تحت أمره ، على أن يموتوا إذا اقتضى الحال ، في سبيل الطاعة الواجبة للحاكم بأمر الله ، والحامي لحمى شريعته وبعد أن استعرضهم اختار منهم مائة رجل وأبقى الآخرين جنداً احتياطياً ثم أمر المائة المختارين أن يبقوا تحت طلبه إلى الليل وأقبل الليل وهم لا يعلمون شيئاً عن المأمورية التي ستناط بعهدتهم .

فرغ سحنون من صلاة المغرب بمسجد عقبة الجامع وأحاط به الرجال المنتخبون ، وأفضى إليهم بالأمر الآتي :

«إني قياماً بالواجب الشرعي آمركم بأن تمضوا حالاً إلى دار القائد ابن الربيع وتضربوها عليه فإذا فتح الأبواب أبلغوه سلامي وإني عزمت عليه أن يخرج الحرائر اللواتي سباهن ، وإياكم أن تمكنوه من غلق الأبواب في وجوههم فيجتمع هو وحراسه ومن معه من الرجال ، ويدافعوكم ويمضي الأمر إلى إراقة الدماء وإن هو لاطفكم ومانعكم وتمرد على إذني ، فاشتغلوه حتى يلج من شيوخكم ، فإذا انتهوا إلى الباب الأوسط نادوا : «أيها الحرائر المسبيات اللاتي أتي بهن إن القاضي يأمركن بالخروج إليه» فإذا خرج الحرائر عن آخرهن فإنكم تحضرونهن إلى مجلسي .

ذهبت كتيبة القاضي جماعات وأحاط رجالها بدار القائد وطرقوا الباب وأبلغوه أمر القاضي فتعاصى وحاول المقاومة فقبضوا عليه ودخل الرجال السبعة واستخرجوا السبايا وحملوهن إلى سحنون فأمر بإيداعهن بدار الحفظ .

ركب ابن الربيع لفوره وقصد قصر الأمير برقادة فوجد الأبواب مغلقة وقضى ليلة تحت جدران القصر حتى أصبح ودخل إلى محمد بن الأغلب وقد شق ثيابه واستسلم للبكاء وسأله الأمير خبره ، فأعلمه بما حدث وتوسل إليه أن يحميه من الإهانة التي لقيها من سحنون وأن يأمره برد سباياه وأجاره الأمير ، ووجه رسالة مستعجلة إلى سحنون يأمره فيها برد ما أخذ للقائد ابن الربيع وما إن تلى سحنون رسالة الأمير ، حتى ثار غضبه وقال : «والله لا إله إلا هو إن أخرجتهن من داري حتى أعزل عن القضاء ، ويعلم الله أن لا نظر لي على رجلين من المسلمين ، ثم دعا ولده محمداً وكتب له رسالة نصها : «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ۞ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ۞ لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار﴾ ثم سلم الرسالة وسجل ولايته إلى ابنه وأمره بأن يرفعهما إلى الأمير ويقول له : جعل الله ابن الربيع شفيعك يوم القيامة .

كان الأمير ينتظر عودة مبعوثه إلى القاضي ، على أحر من الجمر وكان رجال سحنون يتوقعون على إثر تحرير رسالة الرفض واتصال الأمير بها مع التصريح الشفوي الذي نقله إليه محمد بن سحنون وسجل الولاية المشعر بالاسقالة أن الأمير سيمضي في الانتصار لقائده إلى أبعد حد ، وأنه ربما يأمر بعزل سحنون وإلقاء القبض عليه ، وإيداعه السجن .

وكان سحنون يقوم بتصفية أوراقه وتحرير وصاياه وإعطاء التعليمات الأخيرة لابنته خديجة فيما يخص الأمور العائلية وكان النسوة المسبيات ينتظرن ساعة الخلاص والرجوع إلى أهلهن وبيوتهن وقد أصبحن تحت سلطة ممثل الشريعة ، وقاضي المسلمين ولا حول لأحد ولا طول عليهن واتجه الناس بأنظارهم إلى رقادة يترقبون ما تصدر به الأوامر في هذه المعركة الرهيبة التي يصطدم فيها العدل ورجله الفذ والقوة في شخص القائد المنتصر ، ويقع الأمير في مأزق غير نافذ فهو إذا

أغضب قائده فقد أغضب الجيش وعرّض عرشه لحركة تمرد وانتفاض ، وإذا أغضب قاضيه فقد أغضب الله وخشي سخط الشعب .

وصل وفد القاضي إلى الأمير وأبلغه محمد بن سحنون الرسالة وعزم الاستقالة وسجل الأحكام وأبلغه نطق والده فقرأ الرسالة ثم دخل إلى بيته وبعد ثلاثة أيام قضاها في مغالبة نفسه والتدبير في الموقف وبقي فيها محمد بن سحنون والقائد ابن الربيع في انتظار القرار الأخير وتطلع فيها شعب القيروان ومن ورائه قاضيه لما تسفر عنه الحالة من أحداث .

خرج أبو العباس بعد احتجابه واستدعى القائد ابن الربيع وعرض عليه أن يطلب منه ما شاء غير رد النسوة إليه ومطاولة سحنون ورضي القائد بذلك .

واستدعى بعد ذلك محمد بن سحنون ، وقال له :

« اقرأ على أبيك السلام وقل له جازاك الله عن نفسك وعن المسلمين خيراً

في عام ١٣٠٨ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ حسين رشدي .

في عام ١٣٠٩ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ محمد ضياء الدين .

في عام ١٣١٠ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ عبدالله صائب أفندي.

في عام ١٣١١ تولى رئاسة المحكمة فضيلة الشيخ أحمد عاصم أفندي .

انتهى من كتاب «مثل عليا من قضاء الإسلام» وقد تقدم في مبحث «القضاء في العهد العباسي» أن القاضي سحنون رحمه الله تعالى هو الذي نظم القضاء وقسمه إلى درجات ، فارجع إليه إن شئت .

سيرة القاضي عيسى بن مسكين رحمه الله تعالى

وجاء في الكتاب المذكور ما يأتي : اعتماداً على الصلاحيات الواسعة ، والنفوذ الخارق للعادة الي تمتع به القاضي عيسى بن مسكين ، واعتبرها شرطاً في قبوله خطة القضاء ، وأوجب إبراهيم بن الأغلب قبولها والتسليم بها ألّف القاضي ديوانه على الصورة الآتية :

القاضي المركزي ، عبدا لله بن محمد بن المفرج المعروف بابن البنا .

قضاء الحسبة ، أبو القاسم الطوزي .

القضاء المستعجل ، سليمان بن سالم وإبراهيم بن خشاب .

الأوقاف والتركات ، أبو بكر بن اللباد .

الوثائق والسجلات ، ابن زرياب .

وكان شديداً على أعضاده حريصاً على الإخلاص للعمل والموظبة وتأمين راحة المتقاضين و لم يكن ابن زرياب قد أدرك صلابة رئيسة في الحق ، وأنه يخفي وراء وداعته وبساطة حركاته ، وزهد نفسه وتواضعه العجيب شدة لا تعرف الهوادة في الواجب وقوة لا تلين أمام المقاومات .

انصرف الناس من صلاة الصبح وأقبل على بيت القضاء الشيخ عيسى بن مسكين قاضي القضاة ، والقاضي المركزي وقاضي الحسبة ، والقاضي الفوري والكتبة ، وتخلف كاتب السجلات ابن زرياب وحضر الخصوم وامتلأت الرحاب وارتفعت الشمس ، وتكرر سؤال عيسى مستعلماً عن حضور ابن زرياب وفتح السجلات وأمر بالنظر في القضايا وتصريف الشؤون الحكمية دون إطالة أو تثاقل ، ثم طلب من رجال الديوان أن يراجعوا سوابق قضية الشيخ أبي سعيد التميمي الذي حضر مبكراً رغم شيخوخته وأجابه الرجال بأنهم لا يعرفون نظام السجل ولا يقدرون في غير محضر ابن زرياب أن يهتدوا إلى مراجعته وأطرق القاضي وقد ظهر عليه الغضب وعبس وقطب وكثر تطلعه إلى باب المحكمة ، ثم استدعى

الشيخ أبا سعيد ، ليعتذر له عن تأخير البت في قضيته فوجده انصرف متبوعاً بأبنائه وشهوده كما انصرف خصومه .

بعد انتظار طويلٍ حضر ابن زرياب وكان مرتدياً أفخر ثيابه ويسبقه عبق ماء الورد والياسمين وحالاً دعاه القاضي واستجوبه عن سبب تأخيره إلى ذلك الحين فاعتذر بأنه ذهب ليشهد عقد نكاح عند أبي القاسم محمد بن عبدوس نظراً لما تربطه به من علائق متينة وصداقة متينة .

وأجاب ابن زرياب مؤكداً أن حضور عقد النكاح هو السبب الوحيد الذي قضى عليه بالتخلف .

وقف زملاء ابن زرياب القضاة يتابعون المناقشة الدائرة بينه وبين القاضي ابن مسكين وتم الإعذار للمتخلف فاقتصر على الاعتذار بحق ابن عبدوس عليه ، واضطراره إلى إجابة دعوته والحضور بمنزله .

وارتفع بعد ذلك صوت القاضي مقرراً أن ابن زرياب في إجارة المسلمين وأنه عطل ما استؤجر عليه ، واشتغل بحضور عقود الأنكحة ، وهو بذلك قد أخل بالأمانة التي في عنقه واستحق السجن التأديبي ، ثم أمر باقتياده إلى السجن ونفذ الأعوان أمر القاضي وأودعوا ابن زرياب السجن .

وبعد صلاة العصر حضر حارس السجن يحمل رسالة [illegible] الى القاضي استغفر فيها ابن زرياب من ذنبه وأعطى عهداً بأن لا يتخلف عن واجبه مهما كانت الدواعي وتقدم الشيخان ابن البنا وابن اللباد يطلبان الصفح عن زميلهما ، والاكتفاء بما ناله من تأديب وأمر القاضي بأن يفرج عنه بعد صلاة العشاء .

ومن ذلك اليوم إلى أن استعفى ابن مسكين من خطة القضاء لم يتخلف واحد من رجال الدواوين القضائية عن عمله إلا بعذر قاهر .

قال ابن اللباد لرئيسه عيسى بن مسكين : إنه كان يخشى أن يتداخل إبراهيم بن الأغلب في صالح بن زرياب نظراً لما لهذا الأخير من الحظوة في البلاط الأغلبي وضحك عيسى ورد عليه بأنه لم يقبل القضاء إلا بعد أن قدم للأمير شروطاً قبلها وحرر بشأنها عهد كتابي وهذه الشروط تتضمن أن للقاضي حق تقديم استقالته مرة في كل شهر ، وأنه يحمل الأمير وبني عمه وجنده وبطانته وفقراء المسلمين في الحق في درجة واحدة وأنه يكوم معفى من الدعوات الخاصة للحضور بمجلس

الأمير أو لتقديم التهاني والتعازي ، أو للتوديع والاقتبال ، وأن الأمير لو تداخل لفائدة محسوبة ابن زرياب لكان ذلك داعياً لمراجعة وثيقة العهد ، والوقوف عند منطوقها وإذا ما أصر رغم ذلك على التداخل فإن القاضي يضطر لتقديم استقالته مع الإصرار على عدم الرجوع في ذلك .

جلس ابن اللباد وابن البنا وابن زرياب بعد الفراغ من الصلاة بتحدثون عن رئيسهم عيسى بن مسكين بمناسبة عزمه على الاستعفاء من مهام القضاء فقال ابن البنا : إن أمر هذا الرجل غريب . فهو لم يأخذ درهماً من بيت المال ولا من خزينة الأمير ، منذ أن تقلد القضاء ، ولا يعيش إلا من دقيق الشعير الذي يأتيه من منزله بالساحل يخبزه بنفسه ، ومن بقل وخضر تأتيه من البادية وربما بقي اليومين والثلاث بلا طعام في انتظار دقيقه وبقوله . وإني أعرفه وقد أقام برقادة تسع سنين لم يأكل التين إلا مرة واحدة ، ولم يأكل البطيخ إلا مرة أخرى ، وإني ذهبت لمنزله فلم أجد فيه من المدخرات سوى آنية زيت وآنية خل . ورأيت في كوة البيت قارورة مختومة من نوع القوارير المستعملة في البلاط الأغلبي فسألته عنها وتجاهل السؤال ، ثم ألححت عليه فأجابني بأنه كان في مجلس الأمير إبراهيم وأصابته رياح في جوفه ، وأدرك الأمير ألمه فأعطاه تلك القارورة وفيها الدواء الشافي ، ولكنه فزع إلى الله أن يغنيه عن استعمالها فلم تعاوده الرياح ولا الألم . ومن هذا الزهد استمد ابن مسكين قوته واستحق احترام الأمير ورجال الدولة وقوادها .

وتساءل ابن زرياب عن سبب استعفائه ، وهو لا يخشى مضايقة ولا يشكو حرجاً ، فقال ابن اللباد : إن عيسى يريد أن يتفرغ للعبادة والعلم ، وقد كبر سنه وحن إلى مسقط رأسه ليستأنف حياته تحت زيتونته المباركة ، وفي ظلها الـوارف ، منصرفاً للصلاة وتلاوة القرآن وقراءة الحديث ، كما كان شأنه قبل أن يكرهه الأمير على قبول القضاء ويستقدمه إلى القيروان .

وقال ابن زرياب : كأني أنظر إليه يوم أن استقدمه الأمير إلى القيروان جلس بجانب حمديس الأشعري ، وسأله الأمير قائلاً :

ما رأي الشيخ في رجل جمع خلال الخير وأراد الأمير أن يوليه القضاء ويلم به شعث الأمة فامتنع من القبول ؟

وقال عيسى : يلزمه أن يلي .

وقال الأمير : فإن أصر على الامتناع ؟

وأجاب عيسى : يجبر على ذلك : وإذا اشتد في الامتناع يجلد حتى يقبل .

وقال الأمير ضاحكاً : قم يا عيسى فأنت هو .

وكأني أنظر إلى الأمير وقد قرب سيفه من نحر عيسى لحمله على القبول ، وابتعد حمديس الأشعري لكي لا يصيبه دم الشيخ .

ولعل من المناسب أن نعلق على محادثة أعضاد ابن مسكين ، بما رواه عونه ابن دبوس ، قال : جئته يوم جمعة لا يناسه حيث يتفرغ ذلك اليوم من مهام القضاء ، فقرعت عليه الباب ففتح منه مصراعاً ، ووقفت فإذا هو مؤتزر بكسائه يغسل جبته ، فقال لي : يا أخي ، ما جاء بك ؟ قلت : أردت إيناسك ، وأراك مشغولاً ، فاتركني أستقي لك الماء وتغسل أنت أو تستقي وأغسل أنا . فقال : يا أخي ، أقعدت بلا شغل . ورد الباب ، ورجع إلى عمله وانصرفت .

فهل أدركنا مصدر قوة مواطننا ابن مسكين ، وصلابته في الحق والواجب ...، ونحن القضاة المساكين ليت لنا الشيء القليل من نفسية وخلال ابن مسكين .

انتهى من الكتاب المذكور .

سيرة القاضي أحمد بن القاضي أبي محرز

وجاء في الكتاب المذكور ما يأتي : ولما توفي أبو محرز الكتاني الذي استقل بقضاء الجماعة، بعد وفاة زميله أسد بن الفرات ، كبر على الأمير زيادة الله بن الأغلب أن يختار خلفه وأن يجد الرجل الذي يسد فراغ القاضيين أبي محرز الكناني وأبي عبدالله أسد بن الفرات ، لذلك التجأ إلى استشارة شيوخ العلم وقادة الرأي ، وعقد لذلك مؤتمراً سامياً دعا إليه الكثير من هؤلاء وأولئك ، وعرض عليهم الأمر فوقعوا في الحيرة التي وقع فيها الأمير نفسه ، وأصروا على عدم تعيين من يتولى قضاء المملكة ، أو تقديم التوصيات التي تسمح بتعيينه ، وتحرج الأمير من موقف المؤتمرين ، وأمر بأنه لا يسمح لأحد منهم بالانصراف إلا إذا تم اختيار القاضي ، ورغم هذا الملكي الحازم فقد أصر المؤتمرون على مواقفهم .

وانسحب الأمير إلى مجلسه الخاص . وبقي المؤتمرون في أماكنهم ودخل وقت الصلاة وأجمع الحاضرون على تقديم العلامة أحمد بن القاضي أبي محرز للصلاة بهم وكان الأمير ينتظر ذلك وعندما علم من حراسه وحجابه بإمامة أحمد بن أبي محرز دخل على القوم وخطب فيهم قائلا :

« يا وجوه البلاد وأعيان المملكة : إني رضيت لديني من رضيتم أنتم لدينكم وإني أعلن انتخاب إمامكم أحمد بن أبي محرز لولاية القضاء الإفريقي » .

وقام الإمام أحمد واعترض اختياره للقضاء واعتذر عن ذلك بأنه لم تتوفر فيه الكفاءة المطلوبة . وتمسك الأمير برأيه فاشترط ابن أبي محرز على الأمير أن لا يقبل أي تدخل في شؤون القضاء من جانب رجال البلاط الأغلبي وأن لا يعتمد أي وكيل يستمد وكالته من سلطة الإمارة وصرح الأمير بأنه قبل شروط ابن محرز ، وسجل ذلك على نفسه أمام المؤتمرين علانية . وبعد حين أفضى الأمير لرجال الدولة بنيان خطير ، معلقاً به على ولاية ابن محرز قال فيه :

« لا أبالي ما أقدمت عليه يوم القيامة . وقد قدمت عليه بأربعة :

١) بنائي المسجد الجامع بالقيروان .

٢) وبنائي قنطرة باب أبي الربيع .

٣) وبنائي حصن سوسة .

٤) وتوليتي أحمد بن أبي محرز قضاء أفريقيا » .

تخاصم واحد من أهل القيروان مع رجل يهتم به كبير وزراء الدولة علي بن حميد في دار من دور مدينة القيروان بالسماط الأعظم ، فلما نشبت الخصومة رأى القاضي أحمد أن يعلقها حتى يتم القضاء في أصل النزاع فطبع على الرجل الذي يعنى به الوزير .

ومضى الرجل إلى الوزير مستنجداً به ، ليفك عنه العقل وفزع المطبوع له إلى القاضي ، وهو جالس في مجلس قضائه بجامع القيروان وأخبره بذلك وثار القاضي لهذا التحدي وضم ديوانه ، ومضى إلى داره وأحل سجل ولايته ، ومضى إلى القصر القديم الذي يسكنه الأمير زيادة الله بعد الزوال ، وكان الأمير نائماً وطلب القاضي من كبير الحجاب (مسرور) أن يستأذنه عليه ، واعتذر الحاجب بأن الوقت لا يسمح له بالاستئذان ورد عليه القاضي بأنه يعتبره قد منعه من باب الأمير . وأجابه الحاجب بأنه يرجوه أن لا يلجئه للمنع ولا للاستئذان ، واضطر القاضي لقرع باب القصر .

وخرجت والدة زيادة الله فازعة فقال لها : « القاضي أحمد يستأذن على الأمير لأمر دهمه .. » .

وذهبت الوالدة إلى مقصورة زيادة الله، وهو نائم على سريره فحركت حلقة الباب. فقال زيادة الله: من هذا؟

قالت: «الوالدة».

قال: «وما جاء بك؟».

قالت: «القاضي بالباب، ذكر أنه أتى في أمر دهمه».

فأذن له بالدخول عليه وسلم القاضي على الأمير وقص عليه القصة، ثم قال: «هذا سجلك فإن أردت أن تعافيني فإن الله تعالى يجزئ مثوبتك» وتلطف معه الأمير وأمره بالانتظار، ثم اغتسل ولبس ثيابه وركب وتبعه القاضي، فركب دابته وتسايرا حتى دخلا من باب أبي الربيع، ووقفا بالقرب من الجامع، وسأل الأمير عن دار النزاع التي طبعها القاضي، ولما أرشد إليها ختم على بابها بطابعه الملكي، ثم التفت للقاضي وقال: «هل أرضيناك أيها القاضي العادل؟ ...».

واستأذنه إثر ذلك في العودة. وعاد إلى قصره.

وسمع كبير وزراء ابن حميد بما فعل الأمير فخشي، وندم على ما صدر منه، وود أنه مات قبل أن يتحرج مركزه عند الأمير.

وشاع الأمر بين أهل القيروان فازداد احترامهم للقاضي وتعظيمهم له.

انتهى من الكتاب المذكور.

سيرة القاضي سليمان الغافقي رحمه الله تعالى

وجاء في الكتاب المذكور ما يأتي: عهد أمير المؤمنين عبدالرحمن ملك الأندلس إلى سليمان بن الأسود الغافقي بقضاء ماردة ومنحه من النفوذ ما شجعه على قبول القضاء. وذات يوم أقبل أحد التجار الإسرائيليين وادعى لدى سليمان أنه عرض الجارية للبيع، ورغبها الأمير محمد بن أمير المؤمنين، واشتط عليه في الثمن فلم يكن من الأمير إلا أن دس بعض غلمانه ففروا بالجارية، وأحضر القاضي بعض من عاين الحادثة من الجمهور وتلقى شهاداتهم ثم استقدم الأمير وسأله رد الجارية، فأنكر الأمير ولجّ القاضي في الأمر بالرد، ولج الأمير في الإنكار، وأقسم القاضي لئن لم يقع إحضار الجارية ليركبن إلى الخليفة ويستعفيه من قضائه. وفعلا ركب القاضي دابته متوجهاً إلى قرطبة، فخشي الأمير عاقبة الأمر ووجه يعلم

القاضي بوجود الجارية عند بعض فتيانه ، و لم يكن يعرف ذلك ، وحضرت الجارية وسلمها القاضي إلى صاحبها.

مات عبدالرحمن وولي الخلافة من بعده ابنه محمد ، وحضر قاضي ماردة يهنئه بالخلافة . وما إن سلم عليه ، حتى تذكر الخليفة موقف القاضي منه ، في قضية الجارية ، وما أظهره من الصلابة في الحق ، والإنصاف في الحكومة فاختاره لقضاء الجماعة بقرطبة ، وسماه قاضي القضاة ، وكان ولاية القصر قد أسندت إلى (بدرون الصقلبي) الأثير لدى الخليفة ، ومستودع سره ، وصاحب الرأي الأخير في استشاراته .

تقدمت امرأة عجوز ، بين يدي القاضي سليمان تطالب الوالي بدرون برفع يده عن دار تملكها فكتب لها أمراً بالحضور ، وختم عليه وأشار على المرأة بتسليمه إلى الوالي ، ففعل   لها بدرون بأنه في خدمة الخليفة ولا يستطيع مواجهتها يومئذ فأمر القاضي بالقبض عيه واقتياده إلى مجلس القضاء ، و لم يبرح المجلس إلا بعد إنصاف المرأة .

ها هو هاشم بن عبدالعزيز يصف لنا دخول الوالي على الخليفة بعد انصرافه من مجلس القاضي ، قال هاشم : «إني لقاعد يوماً بين يدي الأمير إذ دخل بدرون الصقلبي باكياً . فقال له : ما دهاك ؟ فقال له : يا مولاي عرض لي الساعة مع القاضي ما لم يعرض لي مثله قط ، ولوددت أن الأرض انضمت علي ، و لم أقف بين يديه . قال: وما ذاك ؟ قال : دسّت عليّ امرأة تطالبني في دار في يدي ، فأغفل ما كنت إذ جاءتني بطابع القاضي وكنت أنت أمرتني بما تعلمه فاعتذرت إليها ، وقلت : «أنا اليوم مشغول بشغل الأمير أعزه الله ، وسأكتب إلى القاضي ، وأستعلم ما يريد» ثم إني أقبلت إلى القصر ، وقد أتيت باب القنطرة ، فإذا برسول من أعوان القاضي بادر إلي فضرب على عاتقي ، وصرفني عن طريقي إليه ، فدخلت عليه في المسجد الجامع ، فوجدته غضبان فنهرني وقال : «عصيتني و لم تأخذ طابعي» . فقلت له : « لم أفعل، وقد عرفت المرأة بوجه تأخيري» ، فقال لي : «ورب هذا البيت لو صح عندي عصيانك لأدبتك» . ثم قال لي : «أنصف هذه المرأة» . فقلت : «أوكل من يخاصمها عني» فأبى علي إلا أن أتكلم ، فلما رأيت صعوبة مقامي ، أعطيتها بدعواها، ونجوت بنفسي ، أفيحسن عندك يا مولاي أن يركب مني قاضيك هذا المركب ، ومكاني من خدمتك مكاني ؟» .

ورد عليه الخليفة يقول: «اخفض عليك يا بدرون، فمحلك مني معلوم، وسل به حوائجك نجبك إليها، ما خلا معارضة القاضي في شيء من أحكامه. فإن هذا باب قد أغلقناه، فلا نجيب إليه أحداً من أبنائنا ولا من إخواننا ولا من أبناء عمنا فضلاً عن غيرهم. والقاضي أدرى بما فعل، ولست أحيد عن الشعار الذي اتخذه والدي، والمبدأ الذي قامت عليه دولته، واطمأن له الشعب، ومنح الاطمئنان والثقة إلى النفوس» ومسح بدرون عينيه وانصرف.

انتهى من الكتاب المذكور.

سيرة القاضي محمد بن السليم رحمه الله تعالى

في فجر اليوم الخامس عشر من شعبان عام ثلاثمائة وخمسة وخمسين خرج أمير المؤمنين، الحكم المنتصر با لله، ملك الأندلس إلى ديوانه لتصريف الشؤون اليومية، ودخل عليه والي قرطبة لتلاوة تقريره الليلي. وجاء في التقرير أن قاضي المملكة منذر بن سعيد في حالة احتضار. وارتبك الأمير، واستوى واقفاً، وجعل يضرع إلى ا لله أن يوفقه إلى اختيار خلف يطمئن إليه، في إقرار الحق، وإقامة العدل. ثم أمر باستدعاء شيوخ الشريعة ورجال العلم. ولما اكتمل الجمع أعلمهم بأنه دعاهم ليأخذ رأيهم في اختيار من يخلف منذر بن سعيد. وفيما هم يعددون خصاله، ويذكرون مجالسه وأخباره، إذ ورد الإعلام بموته فاتفق المجتمعون على انتخاب محمد بن السليم لما هو معروف به من الفضل والعلم والفهم، وحسن النظر في الأمور وجميل الخلق.

فأمر الأمير بتحرير عهد الولاية لمحمد بن إسحاق بن السليم، ليتلى في جامع قرطبة، وينهى للقاضي المنتخب فكتب العهد على الصورة الآتية: «بسم ا لله الرحمن الرحيم، هذا كتاب أمر به أمير المؤمنين، الحكم المنتصر با لله، محمد بن إسحاق بن السليم، ولاه خطة القضاء واختاره للحكم بين جميع المسلمين..» إلى آخره.

ولقد ذكر نص هذا الكتاب في أوائل المبحث فراجعه إن شئت.

ثم جاء في الكتاب المذكور بعد نص الكتاب بولاية القضاء، ما نصه: ليس من السهل أن يملأ القاضي الجديد الفراغ العظيم، الذي تركه سلفه المنذر بن سعيد، فالشعب القرطبي قد تعود مفاجآت عجيبة في المذاهب الحكمية وأسانيد

القضاء، ووسائل الإقناع، والصلابة في الحق والنفوذ الخارق للعادة. وتندر في مجالسه وأسماره وأسواقه بوقائع المنذر وخطبه وأجوبته، ودخل ذلك في نطاق الحياة العامة. وأصبح جزءاً منها، وكان المنذر حتى في صلاة الاستسقاء، ومواقف التذلل والخشوع والاستكانة، يأتي بالجديد المبتكر فيبكي الجماهير، ويحرك المشاعر، ويهيمن على القلوب ناهيك أنه وقف يوماً يخطب للاستسقاء فتوجه للجماهير وقال: سلام عليكم، ثم التفت إلى الناحية الأخرى من موقفه، وقال: سلام عليكم، ثم سكت كالذي أرتج عليه، ثم اندفع يقول: ﴿سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم﴾. وانهل يقرع الأسماع بزواجر وعظه إلى أن هاج الناس بالبكاء، وضجوا بالاستغفار، وقالت السماء كأفواه القرب.

إن هذا الفراغ الذي تركه المنذر ليس من اليسير أن يملأه ابن السليم في زمن قصير ومع ذلك فقد استطاع أن يحرز على ثقة الناس واحترامهم. وحدث أن حضر الأمير الحكم يوماً إلى مجلس القضاء متنكراً، فوجد رجلاً يرتعد ولا ينهض من كبوة إلا ليقع في أخرى فسأله عن شأنه فذكر له أنه جاء يستعدي على خصم له، واستهول الوقوف بين يدي القاضي، ولو كان مدعياً بحق. فقال له الأمير: أو يعزى ما تجده في نفسك من خوف لسوء أخلاق القاضي وفضاضته وغلظ قلبه؟ قال: لا، ولكن لمهابته وقوة فراسته، قال الأمير: وكيف ذلك؟ قال الرجل: إن الناس يتحدثون أنه يدرك المحق والمبطل، من مجرد عرض الدعوى والإدلاء بالجواب. فقال الأمير: وأنت ألك وثوق بحقك؟ قال الرجل: في بعض المدعى فيه، وشجعه الأمير على الإدعاء بكامل ما في نفسه، فتمثل بين يدي القاضي، وبسط دعواه، والأمير يستمع من قريب فأطرق القاضي ثم خاطب الشاكي، يضايقه يضايقه بالتحرير والأسئلة، حتى ألجأه إلى تعديل الدعوى، وصرفه ليمعن في تحرير دعواه، ثم يرجع إليه. وهكذا انصرف الأمير متعجباً من فراسة قاضية ابن السليم وكثيراً ما صرح الحكم المنتصر با لله بأن أكبر مصيبة تحدث في المملكة هي أقل خطراً من مصابها بموت قاضي القضاة. وإن وفاة القواد والوزراء لا تتأثر لها الحياة العمومية تأثرها بفقد القاضي العادل.

ويذكر المؤرخون أن عهدي المنذر بن سعيد ومحمد بن السليم سادهما شعور بالانتصاف، وتشجيع على المطالبة بالحق قبل أي كان تعلقه. وقد أمكن الفصل

في عدة قضايا ، كان الحكم نفسه طرفاً فيها أو أهله ، من عائلة الخلافة وبطانة الدولة أطرافاً فيها .

إنه لم يتفق فيما أعلم أن شهدت الدنيا عهداً ، كهذه العهود الإسلامية المباركة ، فخليفة المسلمين ينسل في الهزيع الأخير من الليل يضرع إلى الله ، ويفزع إليه ليوفقه في اختيار قاضي المسلمين ، ثم يجمع مجلس المشورة من غده ، ويستشيرهم في أمر ذلك الاختيار ولا يصدر إلا عن رأي أجمعوا عليه ، ثم يحرر عهد الولاية فإذا هو دستور قويم ، يضع أسمى المبادئ ويسن أجل المناهج ، ثم يقف متنكراً مع أفراد الرعية متطلعاً إلى ما يجري حول مجلس القاضي ، وما يقوله الخصماء عنه ، ثم يبكي بين يديه أقرب الناس منه وأشدهم سلطاناً عليه ، يشكو أمر القاضي فيسترضيه بكل شيء عدا مصادمة القاضي أو نقض ما أبرمه أو التداخل في أوامره وأحكامه . إنها عهود زاهرة فتحها الإسلام وارتفعت بها البشرية إلى أسمى المقامات وعرف بها الإنسان حقه في الحياة ، وواجبه فيها ، وتفيأ جميع الأحياء ظلال الأمن والطمأنينة وشعروا بالعزة من وراء الإنصاف والكرامة من وراء العدل والازدهار نتيجة النظام المطلق ، ورقابة الضمائر الطاهرة ، والقلوب النقية .

ثم وهل تعود تلك العهود الزاهرة ؟ وهل يرجع القضاء في كل أطراف الدنيا استقلاله ونفوذه وطهارته وجلاله ؟ وهل يتاح لخصماء اليوم أن يهيمن على نزاعاتهم قضاء قوي لا هوادة فيه ولا جور ، ولا تلكؤ ولا استعجال وقضاة مقسطون تحميهم ملائكة الحق ، ويخافون يوماً يرجعون فيه إلى الله ، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ؟ إن أمم العالم سائرها ترجو ذلك وتتمناه ، وإنه لا سبيل لإدراك تلك العهود ، إلا بالتضحية العامة ، تضحية أصحاب السلطة بنفوذهم لفائدة نفوذ القضاء ، وتضحية القاضي بشهواته وأعوانه وميوله ورفاهيته ، لفائدة الحق ، وتضحية الخصماء بكبريائهم وغرورهم وشرههم لفائدة الإنصاف . وتكون نتيجة هذه التضحيات حتماً الطمأنينة للجميع . والعمران والأمن للكافة .

انتهى كل ما تقدم من الكتاب المذكور .

وجاء في الجزء الثاني ، من كتاب « حسن المحاضرة » للإمام السيوطي ، رحمه الله تعالى، في ذكر قضاة مصر ، كثيراً من أسماء القضاة وأحوالهم ، ونحن نلخص شيئاً يسيراً حتى لا يطول بنا المقام ، وهو كما يلي :

لقد ولي القضاء في أيام معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه، سليم بن عنز التجيبي وجعل إليه القصص والقضاء جميعاً. وكان سليم بن عنز أحد العباد المجتهدين، وكان يقوم في ليلة فيبتدئ القرآن حتى يختمه، ثم يأتي أهله، ثم يقوم فيغتسل، ثم يقرأ فيختم، ثم يأتي أهله ثم يقوم فيغتسل، ثم يقرأ فيختم ثم يأتي أهله، وربما فعل ذلك في الليلة مرات، فلما مات قالت امرأته: رحمك الله، فو الله لقد كنت ترضي ربك وتسر أهلك.

جاء في كتاب «حسن المحاضرة» للسيوطي، ما يأتي:

لما تولى القضاء الشيخ عز الدين بن عبدالسلام في حدود سنة (٦٣٩) تسع وثلاثين وستمائة هجرية، تصدى لبيع أمراء الدولة من الأتراك، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار، وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فبلغهم ذلك، فعظم الخطب عندهم، واحتزم الأمر والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً، وتعطلت مصالحهم لذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستثار غضباً فاجتمعوا وأرسلوا إليه، فقال: يعقد لكم مجلساً، وننادي عليكم لبيت مال المسلمين فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يرجع، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه، فانزعج النائب، وقال: كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ونحن ملوك الأرض، والله لأضربنه بسيفي هذا. فركب بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول في يده، فطرق الباب فخرج ولد الشيخ فرأى من نائب السلطنة ما رأى، وشرح له الحال فما اكترث لذلك، وقال: يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، ثم خرج، فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له وقال: يا سيدي إيش تعمل؟ قال: أنادي عليكم وأبيعكم. قال: ففيم تصرف ثمننا؟ قال: في مصالح المسلمين قال: من يقبضه؟ قال: أنا فتم ما أراد ونادى على الأمراء واحداً واحداً، وغالى في ثمنهم، ولم يبعهم إلا بالثمن الوافي، وقبضه وصرفه في وجوه الخير. واتفق له في ولايته القضاء عجائب وغرائب.

انتهى من الكتاب المذكور.

فرحم الله القضاة السابقين، والعلماء العاملين وأئمة الدين، ولو أردنا أن نذكر أمثال من تقدمت سيرهم وأحوالهم لاحتجنا إلى مجلدات، لأن بطون الكتب مشحونة بتراجمهم، وفي القدر الذي ذكرنا كفاية للمتأمل اللبيب.

فالناظر إلى أحوالهم الحسنة وسيرهم العطرة، وإلى أحوالنا السيئة وسيرتنا المعوجة، لرأى فرقاً عظيماً، كالفرق بين السماء والأرض أو كالفرق بين الخل والعسل. ولقد كان بعض فضلاء القضاة يتمثل بهذين البيتين:

وليت القضاء وليت القضاء لم يك شيئا توليته

وقد ساقني للقضاء القضا وما كنت يوماً تمنيته

نسأل الله اللطيف الخبير والعفو الحليم أن يعاملنا بعفوه وحلمه وفضله، وأن يحول حالنا إلى أحسن الأحوال، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه آمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله «محمد» وعلى آله وصحبه أجمعين.

تاريخ الفرمانات السلطانية وصورها

وبمناسبة ذكر الفرمانات السلطانية نقول:

بدأت الفرمانات الشاهانية العثمانية من عام (١٠١٧) هجري الموافق لعام (١٥٩٧) ميلادي، واستمرت في الصدور لغاية عام (١٣٢٤) هجري الموافق لعام (١٩٠٤) ميلادي وربما بعد هذا التاريخ بنحو خمسة أعوام لزوال حكم الأتراك عن جميع البلدان العربية، وذلك بعد الحرب العظمى الأولى.

وهذه الفرمانات عبارة عن أوامر سلطانية، كانت تصدر من الدولة العلية العثمانية للممالك العربية، من تولية الولاة والأمراء والقضاة وتعيين الوزراء، وغير ذلك من مختلف الشؤون المهمة، وبعد زوال حكم الأتراك صارت ولاة مصر تصدر الأوامر تارة باسم خديوي مصر (فلان) أو باسم سلطان مصر (فلان) ثم باسم ملك مصر (فلان) بحسب ألقاب ولاتها في كل زمن.

وهذه الفرمانات هي التي تسمى في عرفنا «بالمراسيم الملكية» وهي تكتب بخطوط عربية ممتازة، وبإنشاء وعبارات خاصة، وفي قالب جميل جداً، وتكتب وتنقش بالذهب الخالص، على ورق ثمين ممتاز في قطع كبير، وتوضع في ظروف خاصة منهبة، ويقوم بكل ذلك أشهر الخطاطين ومهرة الرسامين والمساعدين

لهم . وهـذه الفرمانـات تكـون في الغـالـب مكتوبـة باللغـة التركيـة ، وربمـا وضعـوا بجوارها عن يمين الكتابة خطاً عمودياً مقسماً هندسياً بديعاً ، يبين مسـاحة الفرمـان بالسنتيمتر المربع ، لأن بعضها قـد يبلـغ أحيانـاً عـدة أمتـار في عـرض يتناسـب مـع طولها ، وللأتراك عناية خاصة وذوق ممتاز بالخطوط العربية ، وتقديـر كتابهـا حتـى تقدم عندهم الخط العربي بجميع أنواعه تقدماً مطرداً فبلـغ أقصـى درجـات الكـامل ومنتهـى البهـاء والجمـال ، وكذلـك في النقـش والرسـم والتذهيـب وكـل صناعـة دقيقة . ثم لما استقلت كل مملكة بذاتها وانتشرت الآلات الكاتبة صـارت المراسيم الملكية غالباً تكتب بها بالحروف العادية بدون الاستعانة بالخطاطين ، وبذلك قضي على الخط العربي الجميل في بعض البلدان ، حتـى كـاد أن ينقـرض فلـم يحتفـظ إلا بالاسم والهيكل المتداعي ، وهذا مما يؤسف له أشد الأسف .

وتحتفظ دار الكتب العربية بمصر على جملـة ألـواح بروازيـة مذهبـة للفرمانـات الثمينـة العثمانيـة ، كمـا تحتفـظ لديهـا بـآلاف الخطـوط العربيـة الجميلـة بمختلـف أنواعها ، وكذلك تحتفـظ «دار المحفوظـات» بمصر كثـيراً مـن مثـل ذلـك ، ومـن الوثائق السرية والمستندات التاريخية .

وإليك صورة بعض الفرمانات الشاهانية التركية :

صورة فرمان الإمارة من الدولة العثمانية للشريف حسين بن علي أمير مكة

نذكر هنا صـورة الفرمـان (أي المرسوم الملكـي) الـوارد مـن الدولـة العثمانيـة للشريف حسين بن علي ، لتوليته إمارة مكة المكرمة ، وكان ذلـك في شـوال سـنة (١٣٢٦) ست وعشرين وثلاثمائة وألـف هجريـة ، ثـم في سنة (١٣٣٤) حـارب الشريف حسين المذكور الدولة العثمانية ، واستقل بالحجاز ، ثـم صـار ملكـاً علـى البلاد . وبهذا انتهى حكم الأتراك على الحجاز والبلدان العربيـة ، وذهبـت الخلافـة منهم ، كما انتهى بالشريف الحسين المذكور ، آخـر أمـير لمكـة مـن طـرف الدولـة العثمانية ، وبه أيضاً انتهى حكم الأشراف عن الحجاز حيث أن الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود حـارب الشريف الحسين المذكـور ، وتم ضـم الحجـاز سـنة (١٣٤٣) هجرية فصار ملكاً على البلاد العربية السعودية رحمهما الله تعالى .

ونحن نذكر هنا صورة الفرمان لإمارة مكة للشريف الحسين بن علي المذكور، آخر أمراء مكة من الأشراف، وآخر فرمان من الأتراك للعظة والاعتبار، ولمعرفة كيفية عاداتهم في كتابة الفرمانات السلطانية وإليك صورة الفرمان:

فقد جاء في الجزء الثالث من تاريخ الغازي نص عن الفرمان المذكور ما يأتي:

إنه لما تجلى صاحب القدرة الأزلية، القائل سبحانه للشيء كن فكان، ناظم أمور الكون والمكان، تحيرت عن إدراك أسرار حكمته عقول الخلائق والأذهان، الذي جعل عتبة مرحمتنا مرجع المحتاجين، وباب خلافة سلطنتنا متكأ لأصحاب العز والشأن، وزين طغراء مناشير إجلالنا الهمايوني بوجوب الطاعة والانقياد لأجل أحكام الشرع المتين، ودوام معالم الدين المبين، ومكن الحق المعين أوامرنا العلية غاية التمكين، وجعل مناقب دولتنا العلية ومفاخر سلطنتنا السنية حماية للدين المبين، وإعلاء للواء شرع سيد المرسلين، ولا سيما بالخدمة الشريفة للبلدتين المنيفتين، منزل أنوار الوحي المبين، ومهبط جناب جبريل الأمين المتضمنة الآية الكريمة بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ و ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ فشكراً بهذه النعم، تحتم على إحسان مكرمتنا الشاهانية، إنالة أماني وآمال كافة رعية سلطنتنا الملوكانية، وخصوصاً تلطيف وتسرير الأشراف الكرام، والسادة ذوي الاحترام، المتصل نسبهم إلى العرق الأطهر، الحائزين أعلى المناقب والمفاخر، وبناء على ذلك، ولوقوع انفصال أمير مكة الشريف علي باشا اقتضى الحال إلى إحالة الإمارة الشريفة المذكورة لذات من الأشراف، ذوي الاحترام، ومن حيث أن وزيري سمير السيادة، الحائز النيشان العثماني والمجيدي المرصعين رافع توقيعي رفيع الشأن الملوكاني، وناقل أمري بليغ الآمال السلطاني، جناب إمارة مآب سعادة اكتساب، سيادة انتساب ذو النسب الطاهر، والحسب الظاهر، مستجمع جميع المعالي والمفاخر كابراً عن كابر، جمال السلالة الهاشمية، فرع الشجرة الزكية النبوية، طراز العصابة العلوية المصطفوية، عمدة آل الرسول، قرة عين الزهراء البتول، المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى، الشريف حسين باشا، أدام الله تعالى إجلاله، وأدام سعده وإقباله، علم لدينا أنه اتصف بالأوصاف الحسنة الممدوحة، وأبرز روابط خالص وجدانه لطرف أشرف خلافتنا، واستحق لياقة للإمارة الشريفة المذكورة، تلألأت أمواج بحر مكرمتنا الذي ليس له نهاية نحو ذاته

الهاشمية ، فأحلنا وفوضنا الإمارة الشريفة المذكورة إلى عهدة أهليته ، وأعطيناه منشورنا فائض السرور ، المشتمل على كمال البهجة والحبور ، وحسب شرائط الإمارة وبموجب رضائنا ونخبة أفكارنا الشاهانية أمرنا المشار إليه أن يستقبل الحجاج ذوي الابتهاج المتوجهين من سائر ممالكنا الشاهانية ، ويوصلهم إلى مكة المكرمة سالمين آمنين ، وبعد أدائهم مناسك الحج الشريف على الوجه اللائق أيضاً يشيعهم ويستكمل أسباب عزيمتهم بكل اعتناء ودقة إلى الشام ، وأن يكون الناظر على توزيع وتقسيم الصرة الهمايونية ، المرسلة من طرف سلطنتنا السنية إلى أربابها بواسطة المأمورين بموجب الدفاتر الموجودة ، وأن يستجلب من العموم الدعوات الخيرية لجانبنا الشاهاني ، وأن يهتم في توفيق الأمور والمصالح الواقعة والجارية بالعدل والحقانية ، متحداً مع وزيرنا سمير المعالي الحامل للنيشان المرصع العثماني والمرصع المجيدي ، أحد ياوراتنا الكرام الشاهانية ، والي ولاية الحجاز وقومندان فرقتنا الهمايونية ، كاظم باشا ، أدام الله تعالى إجلاله ، ويشمر عن ساعد الجد في حسن إيفائها وتسويتها ، وأن لا يمكن تعدي فرد من الأفراد على أحد ، بما يخالف الشرع الشريف ، وأن تكون حركته دائماً وفق الشرع القويم ، فيلزم على كل من الأشراف الكرام والسادات ذوي الاحترام والعلماء والصلحاء والأئمة والخطباء وسائر من يأتي من كل فج عميق لزيارة البيت العتيق ، والأهالي والصغير والكبير والوضيع والرفيع ، وأن يعرفوا أن سيادة الشريف المشار إليه ، هو أمير مكة المكرمة وأن يحترموه ويوقروه ، وأيضاً يلزم على سيادة المشار إليه أن يعتني مزيد الاعتناء لرعاية أصحاب السداد والصواب بحسب درجاتهم ، وأن يداوم في الغدو والآصال بالدعاء لدوام دولتنا العلية ، وارتقاء شوكتنا الملوكانية ، فاعلموا هذا واعتمدوا على علامتنا الشريفة . تحريراً في اليوم السادس من شهر شوال المكرم لسنة ست وعشرين وثلاثمائة وألف ، اهـ من جريدة الحجاز . انتهى من الغازي .

صورة الفرمان السلطاني للشريف عون

وهذه صورة أخرى من الإنشاء ننقلها من الجزء الثاني من تاريخ الغازي رحمه الله تعالى فقد قال فيه ما نصه : وفي ١١ ذي الحجة سنة ١٣٢٢ قرئ بمنى فرمان الإمارة المرسلة من قبل السلطنة العلية للشريف عون ، كما هي العادة كل سنة في التاريخ المذكور ، وهذا نص الفرمان السلطاني :

« بسم ا لله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي جعل سره البطحاء صدف درة البيضا ، وحلى بها أجياد عرائس المصنوعات من الثرى إلى سدرة المنتهى ، وصير أم القرى محتد نبيه المجتبى وصفيه المرتضى ، وأوحى إلى خليله إبراهيم أن يرفع القواعد من البيت ، وأمرنا أن نتخذ من مقامه مصلى ، وتوجهت الوفود المتوشحون وشاح الهدى ، ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتلبية وقصدوا نحو المنى ، فطوبى لمن سعى بين الصفا والمروة ، وصلى بمقام إبراهيم بخضوع القلب ، وانتهج نهج القربى والزلفى ، والصلاة والسلام على من بعث رحمة للورى ، وعلى آله وصحبه الطيبين الذين طهروا الكعبة العليا من أدناس الأوثان ، وأحكموا بنيان الشريعة المصطفوية بإقامة أحكام القرآن ، ما حنت الحمائم بتسبيح ا لله تعالى وتقديسه جل وعلا . أما بعد : فهذا خطابنا الخاقاني ، وكتابنا المنيف السلطاني ، النافذ حكمه بعناية ا لله المعين ، في أقطار الأرضين ، مطاعاً لأساطين الملوك والسلاطين ، لا زال ناشراً فوائح العدل والأمان ، وما برح زاهراً بين حدائق البر والإحسان ، ما سجعت الطيور ورتعت الغزلان ، أصدرناه منطوياً بفرائد التحيات الرائعة ، ومحتوياً على قلائد التسليمات الفائقة ، مظهراً عرف رياحين المحبة والاستئناس ، وممهداً لمباني المودة المحفوظة عن الاندراس على جناب الأمير الأمجد الأجل الأوحد المقتفي آثار أسلافه الأشراف من آبائه الغر ، صناديد آل عبد مناف وأجداده الحميدي السير، الجميلي الأوصاف ، فرع الشجرة الزكية النبوية ، طراز العصابة المصطفوية ، المنتمي إلى أشرف جرثومة على عنصرها ، والمنتسب إلى أنفس أرومة غلا جوهرها ، زبدة سلالة الزهراء البتول ، عمدة آل بيت بيت الرسول ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى ، من أعاظم وزراء سلطنتها السنية ، الحامل النيشان الامتياز والمرصع الافتخار والعثماني والمجيدي وزيري سمير الفطانة ، أمير مكة المكرمة الشريف عون الرفيق باشا ، لا زالت العناية الربانية له ملاحظة والكلاء الصمدانية عليه حافظة ، ننهي إلى نادي الشريف أن ا لله جل شأنه وعز برهانه اصطفانا من بين عباده خليفة الأنام ، وأعطانا سيف الجهاد ، وأمرنا بتأسيس ركن الاسلام ، وشرفنا على الملوك لسدانة بيت ا لله الحرام ، والركن والمقام ، وزين منشور سلطنتنا بخدمة روضة نبينا وشفيعنا ، عليه أسنى التحية وأزكى السلام ، فحمد ا لله على ذلك بأتم الشكر وأكمل المحامد ، وتحلى ترائب عرائس هذه النعم من جواهر الأثنية ، بأعلق القلائد وأنفس الفرائد ، فلا جرم إن وجهنا وجهة النهمة الواسعة ، ونخبة الهمة الشائعة ، لرفع رايات الشكر

فوق القمة الشاسعة ، وصرفنا أزمة صريمتنا الجليلة إلى طريق إبقاء ما وهبنا الله من المواهب الجزيلة ، وامتطينا صهوة مطايا الإقدام في تنفيذ مصالح الشريعة ، جاريا مجاري الجد والاهتمام لا سيما مهام الأوقاف المشروطة لفقراء الحرمين المحترمين ، والأرزاق المعينة المضبوطة للشرفاء ، شرفهم الله تعالى في الدارين ، وللعباد العاكفين في المقامين المكرمين ، وأرسلنا من شامل عناياتنا على الرسم القديم ، في العام السابق ، وهو عام إحدى وعشرين وثلثمائة وألف من الهجرة ، من أسس قواعد الإسلام ، صبّت على ضريحه سجال التحية والسلام ، كافة الأموال المحصلة من ريع الأوقاف الموقوفة المربوطة ، والنقود المعروفة والوظائف المضبوطة ، التي خصصت بلائذي الحرم ويثرب ممن سكن فيهما . واخترنا الجوار من حيث المشارق والمغارب وجملتها مثبتة وأعدادها مفصلة ومقررة ، كما هو المسطور والمرقوم في الدفتر المعلوم والمختوم ، جميعها الدنانير النضار الخالصة الصافية من النقود الرائجة في عامة البلاد الدانية والقاصية البلاد الدانية والقاصية ، وسلمنا تلك الصور إثر ما وضع في الأكياس الموسومة بختمنا الشريف ، وفق للالتباس إلى يد حامل ذلك المنشور السلطاني ، وناقل هذا المثال الخاقاني المنتسب لسدتنا السنية عن خدام عتبقنا العلية الخاقانية رئيس خدمة طيور السراي السلطانية ، الحامل النيشان العثماني من رتبة الرابعة والمجيدي من رتبة الخامسة افتخار الأكابر والأكارم عثمان أفندي زيد علوه وعمدة أصحاب التحرير والتقرير ، كاتب الدفتر زيد قدره بعدما قلدناهما تلك الخدمة الجليلة وأعطيناهما دفتراً مختوماً بختمنا المبارك السلطاني لا زال عنواناً على صحائف مناشير الأماني مخبراً عن المصاريف المعينة متضمناً بالمواهب المقننة فأمرناهما إيصال تلك الصرر إلى خزانة المديرية المأمورة بالسعي مع الاهتمام على جري الأصول المؤسسة في سوالف الأيام في صرف الصرر المقررة في مصارفها المحررة المقدرة على ما صرح ونص عليه في الجريدة التي هي في جيد الأمانة فريدة امتثالاً لعموم قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ واعترافاً من مشارب الأجور الجزيلة قراح عذبها ونهلها وتوزيعها إلى مستحقيها من السادات والعلماء والضعفاء ساكني مكة المكرمة وقاطني المدينة المعظمة المتمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام والمتشرفين بجوار نبينا شفيع الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام ورسمنا أن لا يفض ختام أكياس هذه المبرة ، ولا توزع على أصحابها إلا بمعرفة المأمورين الذين وجبت حضورهم ولا يستنسخ دفتر مستقل غير هذا الدفتر بل يعلم على اسم كل

من وصل إليه نصيبه بالمداد الأحمر فإن غاب واحد منهم أو قضى نحبه ، ولم يوجد مسميات بعض الأسماء يعلم على اسمه بالدفتر حسبما يظهر ويحفظ حصصهم ونصيبهم مفرزة محررة كي لا يحتال أحد لأخذ الصرة المقررة ، بأن يؤدي نصيب من توفي أو غاب للأشخاص توافق أسماؤهم وألقابهم ونسبهم ، وتشابهت الأسماء والألقاب والنسب والأنساب . هذا وقد أهدينا إلى جنابكم العالي ، مغرس شجرة المفاخر والمعالي ، صحبة حاملٍ كتابنا اللطيف وخطابنا المنيف ، خلعة تشريفاتنا البهية وإكساءاتنا السنية تجديداً لمراسم الموالاة وتأكيداً بمعاقد المصافاة فلا بد من استقبالها بتقديم مراسم الإكرام والتعظيم والتزيين والاكتساء بها عواتق الاحترام والتكريم ، وبذلك القدرة الكاملة والنهمة الشاملة ، في رعاية الرعية وصيانة الحجاج والمجاورين والمسافرين والمقيمين من العنت والشقاوة لإفاضة الأمن والراحة وحراسة تلك الطرق والمسالك على ما يجب لأمراء الأقطار والممالك ، وإصلاح الصحبة وحسن جريانها كما هو المطلوب بعناية الصمدانية لمحافظة الصحة العمومية واستجلاب الأدعية الصالحة من العلماء العاملين والسادات المهديين والفقراء الصالحين ، والمواظبة على الدعوات بمزيد التضرع والابتهام لإعلاء أعلام دولتنا العلية وثبات أركان سلطنتنا السنية ، إنه سبحانه لجدير بالسؤال وقدير على تبليغ الأعمال ، تعالت ذاته عن المضاهي ، وجل جوده عن التناهي وفضله حسب ما بجنابه لاذ ، وطوله كفاية من به استعاذ وصلى الله علي سيدنا محمد الذي تأسس قواعد شريعته البيضاء بأركان المواهب الربانية ، ناشراً ظلال شدتها فوق الثرى ، واستهل بأرجاز لغوته الملائكة المقربون على العرش سرباً فسرباً ، على آله وعترته الذين فتحوا بسيوفهم البلاد شرقاً وغرباً ، ولمن تبعهم من أمته إلى يوم الدين ، عجماً وعرباً رضوان الله تعالى عليهم أجمعين . تحريراً في ١٥ شعبان ١٣٢٢ هجري . انتهى من تاريخ الغازي .

بعض ما كان يكتبه السلاطين في تقليد إمارة مكة

يستحسن بنا أن نذكر شيئاً مما كان يكتبه الملوك والسلاطين في تقليد إمارة مكة المكرمة للأشراف ، وذلك للإحاطة به ولمعرفة نوع الإنشاء الذي يوضع في قالب خاص من الألفاظ المنمقة فإن لك عصر صيغته الخاصة من الأدب والإنشاء ، فنقول :

ذكر الشيخ عبدالله الغازي رحمه الله تعالى في الجزء الثاني من تاريخه ناقلاً عن «صبح الأعشى» للقلقشندي عند ذكر ما يكتب لأرباب الوظائف بالمملكة الحجازية صورة تقليد الإمارة التي كتبها الملك الناصر محمد بن قلاوون للشريف رميثة بن أبي نمي في سنة (٧٣١) إحدى وثلاثين وسبعمائة وهي :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الحكيم ، فالشريف من اتبع أوامره العظيم ، فالسعيد من اتقى غضبه بأعماله الزاكية ونياته الطاهرة الكريمة ، فالفائز من سلك مراضيه في الدنيا ليأمن في الآخرة ، ومن أخاف عاكف حرم الله وباديه فقد باء بالأفعال الخاسرة ، ومن عظم شعائر الله فقد رفل في حلل الإقبال الفاخرة ، نحمده على ألطافه الباطنة والظاهرة ، ونشكره ونرجوه وما زال ينجح راجيه ويزيد شاكره ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة من اتخذ الحق ناصره وأودع إخلاصها ضمائره ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله من الحرم فألف القلوب النافرة وفتح مكة فطهرها من الزمرة الكافرة ، وقال في ذلك اليوم : من أغلق عليه بابه فقد آمن ، فآسى أهلها ونفوسهم بالأمن ظافرة ، صلّى الله عليه وعلى آله نبي الزهراء العترة الزاهرة ، وعلى صحبه النجوم السافرة وسلم تسليماً كثيراً ، أما بعد، فإن الحكم بالعدل شعارنا ، وبالله اقتداؤنا واقتدارنا وفي الإحسان رغبتنا ، وفي كل عنق منتنا نصفح ونمنح ، ونرعى من أمسى قديم الهجرة في ولايتنا وأصبح ، ونقيم من أهل البيت لحفظ ذلك البيت الأصلح فالأصلح ونقدم من لم يزل مقدماً وإلى صواب الصواب يجنح فينجح ، وننجي من الهلكة من لاح له منهج الخير فسلكه فأفلح ، وكانت مكة المعظمة هي أم القرى والبلد الأمين المجزل فيه القرى ، نشأ الإسلام في بطحائها ، وحرمها الله فلا ينفر صيدها ولا يعضد شجرها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد ، تأكيداً لتشريفها وإعلائها ، وطلعت شمس النبوة من شعابها ، وغسلت الذنوب بوابل سحابها ، فيها زمزم وكزة جبريل ، وفيها بدا الوحي والتنزيل، وإليها أعنقت الركاب ، ففي كل أبطح للمطي مسير ومسيل ، فكم أتى إليها من سائر الناس سائر ، وكم أتى إليه الناس رجالاً وعلى كل ضامر ، فالرحمة مستقرة بين نواحيها ، والعيون تتملّى بأنوار تلك الأستار حتى تجتليها ، والشفاه تتشرف بتقبيل ذلك الحجر الذي يشهد لها في غد ويقيها ، فطوبى لمتقيها ، وسحقاً لمن أخاف وفد الله فيها ، ونحن قد بصرنا الله بخدمة بيتها المحرم ، وحرمها المعظم ، وكرر إليها حجنا وكرمه ، فلله الحمد أن كرر حجنا وكرم ، وما برحنا نقيم في إمارتها من العترة النبوية كل

شريف النسب، وكل من يكتسب فيها رضا الله تعالى، وكل امرئ وما اكتسب، فمن أصلح منهم أقمناه، ومن حاد عن الطاعة وجحد النعمة أزلناه، ومن أخاف فيه السبيل لم نجعل له إلى الخير سبيلاً، ومن استقام على الطريقة توكلنا على الله وولّيناه، وكفى بالله وكيلا، وكان فلاناً هو الذي ما زالت خواطرنا الشريفة تقدمه على بني أبيه، وتختاره أميراً وتجتبيه، وربما سلفت من بيته هنات صفحنا عنها الصفح الجميل، وما قابلناهم إلا بما يليق بمجدهم الحسنى الحسن الأصيل، والإمرة، وإن كانت بيد غيره هذه المدة، فما كان في الحقيقة أمير عندنا سواه لأنه كبير بيته المشكور من سائر الأفواه، والآن قد اقتضت آراؤنا الشريفة أن نقيمه في بلده، أميراً مفرداً إليه يشار، وأن نصطفيه وأنه عندنا لمن المصطفين الأخيار، وأن نجعل الكلمة واحدة، ليأمن النزيل والجار، ومتى تجاذب الأمر كلمتان فسد نظامه، ومتى أفرد الحكم حسنت أحكامه، ومتى توحد الأمر زال الاختلاف وزاد الائتلاف وأقبلت أيامه، فذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه إمرة مكة المشرفة، على عادة والده، فليتقلد ما فوضناه من الإمرة والنيابة بمكة المعظمة، شاكراً ما أنعم الله به عليه من مراضينا، التي هي نجاة لمن لم ينل منها نصيباً موفوراً، ولا فوز لمن لم يدرك منها حظاً كبيراً، وليشرع في تمهيد البلاد من إزالة المظلمة، وليطهرها من كل مجترئ على الله تعالى في البقعة المحرمة، ولا يقرب من في قلبه مرض فيعديه، ولا يرجع لمن فيه شقاق ظاهر في صفحات وجهة وفلتات فيه، وليعلم أن هذا بلد حرام، حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، وصير حج بيته على مستطيعه من الفرض، وجعله للناس معاداً ومعاذاً، وقال ﷺ يوم عرفة: إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، فليمنع الدماء من أن تراق، والأموال من أن تؤخذ بغير استحقاق، والظلم في البلد الحرام حرام، وبنو حسن أحق بالتباع سنة الإسلام، واتق الله لتلقاه بالوجه الأبيض والعمل الأغر، واتبع سنة جدك فعلى اتباعها حُثّ وأُمِرْ، والق وفد الله في البر والبحر بالحسنى فهم أضيافه، وأمن الحج ليتم نسكه وطوافه. هذا تقليدنا لك أيها الشريف فطب نفساً بمراضينا، وصفحنا عما مضى، ومنحنا الرضى حقاً يقيناً، لأنا نتحقق أن الإحسان يحرسنا ويقينا إن شاء الله تعالى. انتهى من تاريخ الغازي.

ونحن قد وقفنا على صورة هذا المرسوم الملكي المذكور، في نفس كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي، في الجزء الثاني عشر، بصحيفة ٢٣٣. وقد ذكر

أيضاً القلقشندي ، رحمه الله تعالى فيه صورة أخرى لتقليد إمرة مكة المكرمة لأحد الأشراف ، كما ذكر صورة وصية ملكية لأحد أمراء مكة ، وصورة لتقليد قضاء مكة المشرفة لأحد العلماء . وذكر أيضاً مثل ذلك لتقليد إمارة المدينة المنورة وقضائها، وأن الإنسان ليأخذ العجب من هذا الإنشاء اللطيف والكلام البليغ ، ولولا الخوف من إطالة البحث لنقلنا كل ذلك هنا . فسبحان مغير الأحوال ، ففرق كبير في المراسيم الملكية في الأزمان السابقة والمراسيم الملكية في زماننا هذا .

الاحتفال بتلاوة الأمر السلطاني بتقليد إمارة مكة

حيث ذكرنا ، فيما تقدم ، صورة الأمر السلطاني لإسناد إمارة مكة لأحد أشرافها ، نذكر الآن كيفية الاحتفال بتلاوة هذا الأمر الكريم ، الذي كانوا يسمونه « الفرمان » ، وهي كلمة تركية معناها « المرسوم الملكي » .

وقد ذكر كيفية الاحتفال به الأستاذ البتنوني في كتابة « الرحلة الحجازية » وهي كما يأتي :

ما بزعت شمس يوم الجمعة ١١ ذي الحجة سنة (١٣٢٧) سبع وعشرين وثلاثمائة وألف بمنى ، حتى التفت الجنود التركية والمصرية حول المصطبة الكبرى ، التي كانت عليها سرادقات سمو خديوينا المعظم (أي عباس باشا حلمي الثاني) خديوي مصر ، ودولة الشريف (أي الشريف حسين بن علي) وسعادة وكيل الولاية ، يتقدم كل فرقة موسيقية ، استعداداً للتشريفات بحفلة تلاومة فرمان دولة الشريف . وفي الساعة الثانية العربية نهاراً ، اصطفت رجال المعية السنية ، في الجهة اليمنى من الصيوان الكبير ، المعد للجناب العالي الخديوي ، وكان دولة الشريف أرسل بعض حاشيته ، لمقابلة الوفد الحامل للفرمان والخلعة السنية ، ثم سار إلى صيوان الجناب العالي ، وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث ، حتى إذا وصل الوفد إلى سلم المصطبة ، خفّ الجناب العالي ومعه مولانا الشريف نحو السلم ، واستقبلا الفرمان بتقبيله ، ثم قصد الكل الصيوان الخديوي وجنابه العالي في مقدمتهم . ولا يخفاك ما في هذا الترتيب من المعنى الدقيق اللطيف ، الذي يشير إلى علو مكانة جنابه الرفيع ، وأن مقامه هنا هو المقام الأول ، ومنزله هو المنزل فجلس ، حفظه الله ، في صدر المكان ، وعن يساره دولة الشريف ، ثم نائب الوالي ، ثم أنجال الشريف ، ثم علية الأشراف ، ومن خلفهم مشايخ القبائل العربية ، وصاحبا

الفضيلة مفتي وقاضي مكة ، وكثير من علمائها وأعيانها ، ثم رجال العسكرية العثمانية ، وفي مقدمتهم سعادة ناظم باشا قومندان قوة الحجاز ، وجلس على يمين الجناب العالي دولة البرنس كمال الدين باشا ، ثم أصحاب السعادة : شفيق باشا وعزت باشا وخيري باشا ، ثم موظفوا المعية السنية ، يليهم مستخدموا قوة المحمل الشريف المصري .

وهنالك توسط ساحة الصيوان عزتلو مكتوبجي الولاية ، وأخذ في تلاوة الفرمان ، الذي كان يمسك بطرفيه اثنان من التشريفاتية ، فتلاه بالتركية ، وعندما أتى على لفظة الخلعة السنية التي قدمها جلالة السلطان «محمد الخامس» إلى دولة الشريف فكها أحد المهمندارين في غلافها الأطلس ، وألبسه إياها . وبعد تولاة الفرمان قام كاتب الشريف وتلا ترجمته المرسلة معه بالعربية ، وفحواها : إن مولانا السلطان ، حفظه الله لما يعلمه في دولة الشريف من أصالة الرأي وعلو الكعب في حسن الإدارة وكمال الدراية ومحاسن الأخلاق ، واسع المعرفة وكريم السجايا ، ومحامد الخصال ، ومعالي الفضائل ، وجّه لدولته مركز الشرافة العظمى ، وهو يرجوه على الدوام مساعدة حجاج بيت الله الحرام ، والقيام بكل ما فيه راحتهم وصحتهم ، مع تأمين الطرق وتسهيل المواصلات والضرب على أيدي الخارجين من الأعراب عن الصراط السوي المستقيم . ولفت نظره إلى الدقة في صرف المرتبات ، وتوزيع الصدقات على أربابها بكل ضبط ، مع مساعدة لمأموري الدولة من عسكريين وملكيين على أداء وظائفهم . وكان كلما ذكر اسم واحد منهم ألبسوه كركاً ، حتى إذا أتمت الحفلة أمر الجناب العالي ، فأديرت أكواب الشربات على الجميع ، وبعد شرب القهوة انصرف الشريف مودعاً من الجناب السامي بكل تجلة واحترام .

ومما يجمل بنا ذكره تلك الألقاب التي وردت في هذا الفرمان ، موجهة من قبل صاحب الخلافة العظمى إلى دولة الشريف حتى تعرف مكانته السامية جناب الأمين الأمجد ، الأجل الأوحد المقتفي آثار أسلافه الأشراف من آبائه الغر صناديد آل عبد مناف ، وأجداده الحميدي السيَر الجميلي الأوصاف ، فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصبة العلوية المصطفوية المنتحي إلى أشرف جرثومة علا عنصرها ، والمنتسب إلى أنفس أرومة غلا جوهرها ، زبدة سلالة الزهراء البتول ، عمدة آل بيت الرسول ، المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى في أعاظم وزراء سلطنتنا

السنية الحامل لنيشاني الافتخار المرصّع العثماني والمجيدي، وزيري سمير الفطانة أمير مكة المكرمة الخ، وعلى هذا يجدر بنا أن نسوق إليك شيئاً من الألقاب التي كان يكتب بها إلى أمير مكة في عهد الدولة الجركسية، فقد ورد في «صبح الأعشى» في رسم المكاتبة إلى أميرها هذه العبارة: أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي، الأميري، الكبيري، العالي، العادلي، المؤيدي، العضدي، النصيري، الذخري، العوني، المقدمي، الأوحدي، الظهيري، الزعمي، الكافلي، الشريفي، الحسيبي، النسيبي، الأصيلي، الفلاني (الحَسَني مثلاً) عزّ الإسلام والمسلمين، سعد الأمراء في العالمين، جلال العترة الطاهرة كوكب الأسرة الزاهرة، فرع الشجرة الزكية، طراز العصابة العلوية، طهير الملوك والسلاطين، نسيب أمير المؤمنين، لا زال حرمه أميناً ومكانه مكيناً، وشرفه يبيض له بمجاورة الحجر الأسود عند الله وجهاً ويضيء جبيناً صدرت هذه المكاتبة من المجلس العالي تحمل إليه سلاماً تحيل إليه الركائب الخ» انتهى.

ذكرنا هذا ليحيط القارئ الكريم بعادات أهل العصور السابقة، فيقارن ما نحن عليه بما كانوا عليه، تذكرة لأولي الأبصار. قال الله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾.

ترجمة الفرمان السلطاني لتولية المشير كاظم باشا على الحجاز

لقد ذكرنا فيما تقدم ترجمة بعض الفرمانات السلطانية، لتولية الأشراف إمارة مكة المشرفة، ولنذكر هنا بعض الفرمانات عن تولية ولاة الأتراك في الحجاز، فإن الوالي التركي وشريف مكة يشتركان في الحكم وإدارة الأمور. وقد ذكر إبراهيم رفعت باشا، مؤلف كتاب «مرآة الحرمين» رحمه الله تعالى، ترجمة فرمان تولية كاظم باشا، الوالي التركي على الحجاز، الذي تمّ إنشاء السكة الحديدية بالمدينة المنورة على يديه، وجميع الفرمانات الصادرة بولاية الحجاز كانت على النمط الآتي، وإليك ترجمة فرمان المشير كاظم باشا:

الدستور المكرم والمشير المفخّم نظام العالم، مدير أمور الجمهور بالفكر الثاقب، متم مهام الأنام بالرأي الصائب، ممهّد بنيان الدولة والإقبال، مشيد أركان السعادة والإجلال، المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى «ياورنا» الأكرم أحد مشيري سلطنتنا السنية المعظم، سمير الدولة ناظر إنشاء السكة الحديدية

الحجازية ، الذي أسندت إليه ولاية الحجاز ورئاسة فرقتها ، الحائز لوسام الافتخار المرصع ، والوسامين العثماني والمجيدي المرصعين « كاظم باشا » أدام الله تعالى إجلاله .

عند وصول التوقيع الشاهاني الرفيع الشأن ، يكون معلوماً أن أخص آمالنا الملكية وأغراضنا الشاهانية ، حسن انضباط الولاية الحجازية ، والحذق في إدارتها والمحافظة على حقوق الأهالي والمساواة بينهم ، وإدامة الأمن والراحة لهم ، وبما أنك أيها المشير ذو دراية وخبرة ، وبصير بشؤون الحجاز ، وعرفنا صدقك في خدماتك السابقة ، وجّهت أحاسن توجهاتي وغاية مكارمي الملكية ، وفوّضت إلى عهد حصافتك ولاية الحجاز ورئاسة فرقته ، في اليوم الثاني من شهر شعبان المعظم لسنة ألف وثلاثمائة وستة وعشرين ، بموجب إرادتنا السنية الصادرة من ذاتنا الملكية ، وبمقتضى ذلك أصدرنا ومنحناك من ديواننا الهمايوني ، فرماننا هذا المتضمن لتلك المأمورية .

فيلزمك جلباً لرضانا وتحقيقاً لقصدنا الشاهاني ، أن تبذل مزيد العناية والإقدام باستكمال تأمين حقوق الأهالي ومجاوري الحرمين الشريفين ، خصوصاً كل ما تحصل به راحة الحجاج إلى بلد الله الحرام ، وزوّار مدينة نبيه عليه الصلاة والسلام، من التدابير الحسنة ، وتصرف في ذلك كل الجهد لاستجلاب الدعوات الخيرية لذاتنا الشاهانية من كافة الناس ، وذلك بالتمسك بالشريعة المحمدية الغراء ، وابذل وسعك في تحسين الأحوال المالية والخزينة النبوية ، وحافظ على جباية الأعشار و « الويركو » الذي كلفت به القبائل المختلفة ، وعونك في هذا مأموروهم الموظفون، وإن ذاتنا الشاهانية لتنتظر حميتك وجدّك في تسيير الأمور ، وتحقيق المصالح العامة ، وعرض الأشياء اللازمة على أستانتنا العلية ، تحريراً في رابع ذي القعدة الشريفة سنة ١٣٢٦هـ . انتهى من الكتاب المذكور.

أمراء مكة قبل الإسلام وبعده إلى اليوم

قال في كتاب تاريخ العرب وآدابهم ، تأليف إدورد فانديك وقسطنطين فيليبيلس ، المطبوع بالمطبعة الأميرية ببولاق بمصر سنة ١٣١٠ هجرية ، ما نصه:

أما أمراء الحجاز الذين تولوا أمر البلاد ، بعد ملوك قضاعة ، فهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم ، وأول أمير منهم هو عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل ، وهذه أسماؤهم مع تاريخ التملك :

العدد	الاسم	تاريخ التملك
١	عدنان	ولي الإمارة سنة ١٢٢ قبل الميلاد .
٢	معد	ولي الإمارة سنة ٨٩ قبل الميلاد .
٣	نزار	ولي الإمارة سنة ٥٦ قبل الميلاد .
٤	مضر	ولي الإمارة سنة ٢٣ قبل الميلاد .
٥	إلياس	ولي الإمارة سنة ١٠ بعد الميلاد .
٦	مدركة	ولي الإمارة سنة ٤٣ بعد الميلاد .
٧	خزيمة	ولي الإمارة سنة ٧٦ بعد الميلاد .
٨	كنانة	ولي الإمارة سنة ١٠٩ بعد الميلاد .
٩	النضر	ولي الإمارة سنة ١٤٢ بعد الميلاد .
١٠	مالك	ولي الإمارة سنة ١٧٥ بعد الميلاد .
١١	فهر وهو قريش	ولي الإمارة سنة ٢٠٨ بعد الميلاد .
١٢	غالب	ولي الإمارة سنة ٢٤١ بعد الميلاد .
١٣	لؤي	ولي الإمارة سنة ٢٧٤ بعد الميلاد .
١٤	كعب	ولي الإمارة سنة ٣٠٧ بعد الميلاد .
١٥	مرة	ولي الإمارة سنة ٣٤٠ بعد الميلاد .
١٦	كلاب	ولي الإمارة سنة ٣٧٣ بعد الميلاد .
١٧	قصي	ولي الإمارة سنة ٤٠٦ بعد الميلاد .
١٨	عبد مناف	ولي الإمارة سنة ٤٣٩ بعد الميلاد .
١٩	هاشم	ولي الإمارة سنة ٤٧٢ بعد الميلاد .
٢٠	عبد المطلب	ولي الإمارة سنة ٥٠٥ بعد الميلاد .
٢١	عبدا لله وهو والد النبي عليه السلام	ولي الإمارة سنة ٥٣٨ بعد الميلاد.

أمراء مكة قبل الإسلام وبعده إلى اليوم

ونذكر هنا نبذة عن أمراء مكة ، زادها الله شرفاً وأمناً ورخاء ، قبل الإسلام، من «صبح الأعشى» باختصار ، ونذكر بعد الإسلام الجدول المبين فيه أسماء أمرائها من «الرحلة الحجازية» للبتنوني .

قال القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» ما نصه : اعلم أن مكة بعد الطوفان كان ملكها في عاد ، وكان بها منهم معاوية بن بكر بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكان مع معاوية بن بكر (وهو عاد الآخرة فيما يقال) يعرب ثم غلبهم العمالقة عليها ، فلما غلب ابن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سلم بن نوح عاداً على اليمن وفرق ملك اليمن في إخوته ، استولى على الحجاز وأخرج العمالقة منه وولى أخاه جرهم بن قحطان على الحجاز ، فبقي به حتى مات . فملك بعده ابنه عبد ياليل ، ثم ملك من بعده ابنه جرهم، ثم ملك بعده ابنه عبد المَدَان ، ثم ملك بعده ابنه بُقَيْلَة ، ثم ملك بعده ابنه عبد المسيح ، ثم ملك بعده ابنه مُضاض ، ثم ملك بعده ابنه الحارث ، ثم ملك بعده ابنه عمرو ، ثم ملك بعده أخوه بشر بن الحارث ، ثم ملك بعده مضاض بن عمرو بن مضاض .

قال ابن سعيد: وجرهم هذه هم الذين بعث إليهم إسماعيل عليه السلام ، وتزوج فيهم وكانت قبلهم جرهم أخرى مع عاد . قال في «الروض المعطار» : وفي ذلك يقول عمرو بن الحارث بن مضاض ، وهو التاسع من ملوك جرهم المتقدم ذكرهم:

وصاهرنا من أكْرَمَ الناس والِداً فأبناؤه منّا ونحن الأصاهر

قال صاحب حماة في «تاريخه» : وقد اختلف المؤرخون في أمر الملك على الحجاز بين جرهم وبين إسماعيل ، فبعضهم يقول : كان الملك في جرهم ومفاتيح الكعبة وسدانتها في يد ولد إسماعيل ، وبعضهم يقول : أن قيدار بن إسماعيل توّجته أخواله من جرهم وعقدوا له الملك عليهم بالحجاز .

وأما سدانة البيت ومفاتيحه فكانت مع بني إسماعيل بلا خلاف ، حتى انتهى ذلك إلى نابتٍ من ولد إسماعيل ، فصارت السدانة بعده لجرهم ويدل على ذلك قول عمرو بن الحارث :

وكنا ولاة البيت من بعد نابت نطوف بذاك البيت والأمر ظاهر

وذكر في «الروض المعطار» أنه كان مع جرهم بمكة قطورا، وجرهم وقطورا أخوان، وكان منزل جرهم أعلى مكة بقعيقعان فما حاز، ومنزل قطورا أسفل مكة بأجياد فما حاز، وانتهت رئاسة قطورا في زمن مضاض بن عبد المسيح المتقدم ذكره إلى السميدع. وكان مضاض يُعشِّر من دخل مكة من أعلاها، والسميدع يُعشِّر من دخلها من أسفلها، ثم بغى بعضهم على بعض وتنافسوا الملك واقتتلوا فقتل السميدع، واستقلّ مضاض بالأمر، وبقيت جرهم ولاة البيت نحو ثلاثمائة سنة، فأكلوا مال الكعبة الذي يهدى إليها، واستحلوا حرمها، وبلغ من أمرهم أن الرجل إذا لم يجد مكاناً يزني فيه أتى الكعبة فزنى فيها، ولم يتناهوا حتى يقال أن إساف بن سهيل زنى بنائلة بنت عمرو بن ذؤيب في جوف الكعبة فمسخا حجرين، ونضب ماء زمزم لكثرة البغي، ودرست معالمها، ثم جاء عمرو بن لُحي فغيّر دين إبراهيم عليه السلام، وبدّله وبعث العرب على عبادة التماثيل، وعمّر ثلاثمائة سنة وخمساً وأربعين سنة وبلغ من الولد وولد الولد ألفين... إلخ كلامه. انتهى من صبح الأعشى.

أما أمراء مكة بعد الإسلام: فقد أورد ذكرهم بإسهاب الأستاذ البتنوني في كتابه «الرحلة الحجازية» نكتفي منه بذكر الجدول الذي وضع فيه أسماء من تولى مكة من بعد أن فتحها رسول الله ﷺ إلى اليوم، وهو قد نقلها من السالنامة الحجازية المطبوعة بمكة سنة (١٣٠٦) بتصرف قليل، كما صرح بذلك في كتابه المذكور بصحيفة (٨٢) وهذا هو نص الجدول:

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
٨	عتّاب بن أسيد
١٣	المحرز بن حارثة
	قنفذ بن عمير بن جدعان
	نافع بن الحارث الخزاعي
	خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة
	أحمد بن خالد
	طارق بن المرتفع
	الحارث بن نوفل القرشي
٢٤	علي بن عدي بن ربيعة
	الحارث بن نوفل القرشي

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
	عبدا لله بن خالد بن أسيد
	خالد بن العاص بن هشام
	عبدا لله بن عامر الحضرمي
	نافع بن الحارث الخزاعي
٣٦	أبو قتادة الأنصاري
	القثم بن العباس
٣٩	عتبة بن أبي سفيان
	مروان بن الحكم
	سعيد بن العاص
	عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق
٣٩	خالد بن العاص المخزومي
	عبدا لله بن خالد بن أسيد
٦١	عمر بن سعيد الأشدق
	الوليد بن عتبة بن أبي سفيان
	عثمان بن محمد بن أبي سفيان
	الحارث بن خالد المخزومي

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
	عبدالرحمن بن زيد بن الخطاب
٦٤	يحيى بن حكيم
٦٤	عبدا لله بن الزبير بن العوام (تولى الخلافة في مكة من سنة ٦٤ إلى سنة ٧٣)
٧٣	الحجاج بن يوسف الثقفي
٧٥	مسلمة بن عبدالملك بن مروان
	الحارث بن خالد المخزومي
٧٥	خالد بن عبدا لله القسري
	نافع بن علقمة الكناني
	يحيى بن الحكم بن أبي العاص
٨٧	عمر بن عبدالعزيز بن مروان
	خالد بن عبدا لله القسري
٩٧	طلحة بن داود
٩٧	عبدالعزيز بن عبدا لله بن خالد بن أسيد
	محمد بن طلحة بن

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
	عبدا لله بن عبدالرحمن
	عروة بن عياض
	عبدا لله بن قيس بن مخرمة
	عثمان بن عبيدا لله بن عبدا لله بن سراقة
١٠١	عبدالعزيز بن عبدا لله بن خالد
١٠١	عبدالرحمن بن الضحاك بن قيس
	عبد الواحد بن عبد ا لله
	إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي
	محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي
	نافع بن عبدا لله الكناني
١٢٥	يوسف بن محمد الثقفي
١٢٦	عبدالعزيز بن عمر بن عبدالعزيز
	عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك
	أبو حمزة الخارجي
	عبدالملك بن محمد بن عطية السعدي
	مروان بن محمد بن الوليد
	الوليد بن عروة السعدي
	محمد بن عبدالملك بن مروان
١٣٢	داود بن علي بن عبدا لله بن عباس
	عمر بن عبد الحميد بن عبدالرحمن
١٣٦	العباس بن عبدا لله بن معبد
	زياد بن عبدا لله الحارثي
	الهيثم بن معاوية العتكي الخراساني
١٤٣	السرى بن عبدا لله بن الحارث
١٤٥	محمد الحسن بن معاوية
	السرى بن عبدا لله
١٤٦	عبد الصمد بن علي بن عبدا لله
١٤٧	محمد بن إبراهيم الإمام
١٥٨	إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
	جعفر بن سليمان بن علي بن عبدا لله
١٦٦	عبيد ا لله بن القثم بن العباس
	الحسين بن علي
١٦٩	أحمد بن إسماعيل
	حماد البربري
	سليمان بن جعفر
١٨٧	الفضل بن العباس بن محمد بن علي
	محمد بن عبدا لله بن سعيد بن المغيرة
	عباس بن موسى
	عباس بن محمد الإمام
	عبدا لله بن القثم
	علي بن موسى
	موسى بن عيسى بن محمد بن علي
١٩١	داود بن عيسى بن موسى بن علي
	الحسين بن الحسن بن علي الأصغر
	علي بن محمد بن جعفر الصادق
	عيسى بن يزيد الجلودي
٢٠٢	هارون بن المسيب

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
	حمدون بن علي
	يزيد بن حنظلة
٢٠٣	إبراهيم بن موسى الكاظم
	عبيدا لله بن الحسن بن عبدا لله
	صالح بن العباس بن محمد
	سليمان بن عبدا لله بن سليمان بن علي
	محمد بن سليمان المذكور
	الحسن بن سهل
	عبيدا لله بن عبدا لله بن الحسن
٢١٨	صالح بن العباس بن محمد
	أشاس الجركسي
	محمد بن داود بن عيسى
٢٣٢	علي بن عيسى بن جعفر
٢٣٩	عبدا لله بن محمد بن داود
	محمد بن سليمان بن عبدا لله
	محمد بن المنتصر

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
	إيتاح التركي
٢٤٧	عبدالصمد بن موسى
	جعفر بن الفضل
	إسماعيل بن يوسف
٢٥٢	عباس بن المستعين
	محمد بن طاهر بن الحسين
٢٥٢	عيسى بن أحمد بن المنصور
	محمد بن أحمد بن عيسى
	علي بن الحسن الهاشمي
٢٥٦	الموفق طلحة بن المتوكل
	إبراهيم بن محمد بن إسماعيل العباس
	أبو المغيرة محمد بن أحمد بن عيسى
	أبو عيسى بن محمد
	الفضل بن العباس بن الحسين
	هارون بن محمد بن إسحاق
	أحمد بن طولون
	محمد بن أبي الساج
٢٧٩	عج بن محلب

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
	أبي المهلب
	مؤنس الخادم
٣٠١	ابن محارب
٣١٧	حافظ أبو الفضل
	أبو طاهر القرمطي
	القاضي الشريف أبو جعفر محمد
	عيسى بن أبي جعفر
	أبو الفتوح الحسين بن جعفر
٣٨٥	حسن بن جعفر
	أبو الطيب بن داود
٤٣٠	الشريف محمد بن حسن بن جعفر
٤٥٥	الشريف محمد بن جعفر بن محمد
٤٨٤	الشريف القاسم بن محمد
٥١٨	الشريف فليتة بن القاسم
٥٢٧	الشريف هاشم بن فليتة
٥٤٩	الشريف القاسم الملقب بعمدة الدين
٥٩٧	الشريف عيسى الملقب بقطب الدين
٥٧٠	الشريف مالك بن

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
	فليتة
	الشريف القاسم
	الشريف قطب الدين عيسى
٥٧٠	الشريف داود بن عيسى
٥٧١	الشريف مكثر بن عيسى
	الشريف القاسم بن مهنا
٥٨٧	الشريف مكثر بن عيسى
	الشريف القاسم بن مهنا
	الشريف بكر بن عيسى
	الشريف محمد بن مكثر
٥٩٧	الشريف قتادة بن إدريس
	عبدا لله بن محمد الثائر بن موسى
	المثنى بن الحسن
٦١٧	الشريف الحسن بن قتادة
٦١٩	نور الدين علي بن عمر بن رسول
٦٢٦	صارم الدين ياقوت بن مسعود
٦٣٠-٦٥٢	طغتكين التركي وراجح بن قتادة (تداولا الإمارة جملة مرات مكان بعضهما)
٦٥٢	الشريف الحسن بن علي بن قتادة
٦٥٢	الشريف جماز بن حسن بن قتادة
٦٥٢	الشريف راجح بن قتادة
٦٥٢	الشريف غانم بن راجح بن قتادة
	الشريف أبو نمى علي بن قتادة
٦٨٨	الشريف جماز بن شيخة الحسيني
	الشريف أبو نمى علي بن قتادة
٧٠١	حميضة ورميثة وعطيفة وأبو الغيث (تداولوا الولاية جملة مرات بالاتحاد والانفراد)
٧٤٠	ثقبة وعجلان ابنا رميثة (تداولا الإمارة

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
	جملة مرات)
٧٦٤	الشريف سند بن رميثة ومحمد بن عطيفة
٧٦٥	الشريف أحمد بن عجلان
	الشريف عنان بن مغامس
	الشريف عنان وأحمد وعقيل
٧٨٩	الشريف علي بن عجلان
٧٩٧	الشريف محمد بن عجلان
٨٠٩	الشريف الحسن بن عجلان
٨١٨	الشريف رميثة بن محمد بن عجلان
٨٢١	الشريف الحسن بن عجلان
٨٢١	الشريف بركات بن حسن
٨٢٧	الشريف علي بن عنان بن مغامس
٨٢٨	الشريف الحسن بن عجلان
٨٤٥	الشريف علي بن

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
	الحسن بن عجلان
٨٤٧	الشريف أبو القاسم بن الحسن
٨٥١	الشريف بركات بن الحسن بن عجلان
٨٥٩	الشريف محمد بن بركات
	الشريف بركات بن محمد وأخوه
	الشريف هزاع بن محمد بن بركات
	الشريف أحمد بن محمد بن بركات
	الشريف بركات بن محمد
	الشريف حميضة بن محمد
٩١٠	الشريف بركات بن محمد وأخوه
	الشريف بركات ومعه ابنه محمد
	الشريف بركات بن محمد وولداه
٩٣١	الشريف أبو نمى بن محمد بن بركات
١٠٠٣	الشريف حسن بن أبي نمي

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
١٠١٠	الشريف أبو طالب بن حسن
١٠١٢	الشريف إدريس بن حسن
١٠٣٤	الشريف محسن بن أخي إدريس
١٠٣٧	الشريف أحمد بن عبدالمطلب
١٠٣٩	الشريف مسعود بن إدريس
١٠٤٠	الشريف عبدا لله بن حسن
١٠٤١	الشريف محمد بن عبدا لله مع زيد
١٠٤١	الشريف نامي بن عبدالمطلب
١٠٤٢	الشريف زيد بن محسن
١٠٧٧	الشريف سعد بن زيد
١٠٨٣	الشريف بركات بن محمد
١٠٩٤	الشريف سعيد بن بركات
١٠٩٥	الشريف أحمد بن زيد
١٠٩٩	الشريف سعيد بن سعد بن زيد
١٠٩٩	الشريف أحمد بن

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
	غالب
١١٠١	الشريف محسن بن حسين
١١٠٣	الشريف سعيد بن سعد
١١١٣	الشريف عبد المحسن بن أحمد
١١١٣	الشريف عبدالكريم بن محمد
١١١٣	الشريف سعد بن زيد
١١١٣	الشريف عبد الكريم بن محمد
١١١٦	الشريف سعيد بن سعد
١١١٧	الشريف عبدالكريم بن محمد
١١٢٣	الشريف سعيد بن سعد
١١٢٩	الشريف عبدا لله بن سعيد
١١٣٠	الشريف يحيى بن بركات
١١٣٢	الشريف مبارك بن أحمد
١١٤١	الشريف عبدا لله بن سعيد
١١٤٣	الشريف محمد بن

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
	عبدا لله
١١٤٥	الشريف مسعود بن سعيد
١١٤٥	الشريف محمد بن عبدا لله
١١٤٦	الشريف مسعود بن سعيد
١١٦٥	الشريف مساعد بن سعيد
١١٧٢	الشريف جعفر بن سعيد
١١٧٣	الشريف مساعد بن سعيد
١١٨٤	الشريف عبدا لله بن سعيد
١١٨٤	الشريف أحمد بن سعيد
١١٨٤	الشريف عبدا لله بن حسن
١١٨٤	الشريف أحمد بن سعيد
١١٨٦	الشريف سرور بن مساعد
١٢٠٢	الشريف غالب بن مساعد[1]
١٢١٨- ١٢٢٩	الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد آل سعود
١٢٢٩	الشريف يحيى بن سرور
١٢٤٢	الشريف محمد بن عبدالمعين
١٢٦٧	الشريف عبدالمطلب بن غالب
١٢٧٢	الشريف محمد بن عبدالمعين

(١) استمرت فترة إمارة الشريف غالب بن مساعد على مكة باسم الدولة العثمانية من سنة ١٢٠٢هـ وحتى سنة ١٢١٨هـ حيث انتقل الحكم في مكة المكرمة في ذلك العام لآل سعود بعد دخول القوات السعودية للحجاز وضمه للدولة السعودية فأصبح الحجاز بكامله جزء من الدولة السعودية .
وقد استمر حكم آل سعود للحجاز منذ أواخر عهد الإمام الشهيد عبد العزيز بن محمد بن سعود وطول عهد ابنه الإمام سعود والذي دام حتى سنة ١٢٢٩هـ حيث هاجمت قوات محمد علي الوالي العثماني على مصر القوات السعودية في الحجاز وأخذت الحروب بين الطرفين تشتد عاماً بعد آخر حتى سقوط الدرعية في سنة ١٢٣٣هـ .

تاريخ التولية بالسنة الهجرية	أسماء أمراء مكة
١٢٧٤	الشريف عبدالله باشا بن محمد بن عون
١٢٩٤	الشريف حسين باشا
١٢٩٧	الشريف عبدالمطلب بن غالب
١٢٩٩	الشريف عون الرفيق بن محمد بن عون
١٣٢٣	الشريف علي باشا بن عبدالله
١٣٢٧	الشريف عبد الإله باشا بن محمد بن عون
١٣٢٧	الشريف حسين باشا بن علي بن محمد بن عون

انتهى الجدول وبعض ما فيه يخالف لما جاء بكتاب مرآة الحرمين وغيره من التواريخ .

هذا هو نص أسماء أمراء مكة الموجود في كتاب الرحلة الحجازية للبتنوني . وأسماء أمراء مكة مذكورة أيضاً في تاريخ الغازي وفي الجامع اللطيف لابن ظهيرة وفي غير ذلك من التواريخ .

ولقد كنا نحب أن نذكر لكل أمير من أمراء مكة المدة التي مكثها في الحكم ، ونكتب نبذة عن ترجمته ، لكن ذلك يحتاج منا إلى بحث كثير ووقت طويل ، وليس عندنا من الفراغ ما نشغله في هذه المسألة .

هذا وقد علمت في نهاية أسماء أمراء مكة ، التي نقلناها هنا من الرحلة الحجازية ، أن الشريف حسين باشا بن علي بن محمد بن عون ، هو آخر الأسماء في الكتاب المذكور، حيث أن مؤلفه قد حج في أيامه ، ثم توفي بعد ذلك و لم يعلم ما حدث فيما بعد ، ونحن تكملة للموضوع وبياناً للحقيقة التاريخية نذكر ما يأتي باختصار :

إن الشريف حسين بن علي باشا المذكور ، صار بعد أن أجلى الأتراك من البلاد الحجازية ، واستتبّ له الأمر ملكاً على الحجاز ، ثم تنازل عن الملك لابنه الشريف علي بن الحسين في أثناء محاربته مع جلالة الملك عبدالعزيز آل السعود ، فبويع لابنه الشريف علي ، وكان بجدة ملكاً على الحجاز ، في الخامس من ربيع الأول سنة (١٣٤٣) سنة ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية . فعاد الملك علي

بن الحسين، في اليوم التالي إلى مكـة وهـي عاصمـة ملكـه ومحـل إقامتـه وحكمـه . وبهذا يكون الشريف علي بن الحسين آخر حكام مكة وأمرائها من الأشراف .

ولم يلبث في الملك إلا قليلاً ، ثم حكم جلالة الملك عبدالعزيز آل السعود مكة وكان دخوله لها في ١٥ ربيـع الأول مـن السـنة المذكـورة ، وبذلـك يكـون الملـك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل السعود حاكم مكة المكرمة وأميرها ، رحم الله الجميع رحمة واسعة .

فلما استقرت الأمور للملك عبدالعزيز المذكور صار يتنقل ما بين مكـة ومحـل موطنه الرياض ، فأناب عنه في الحكـم علـى الحجـاز ابنـه صـاحب السـمو الملكـي «الأمير فيصل» ، وكان محل إقامته وحكمه مكة ، فبذلك صار أيضـاً مـن حكـام مكة وأمرائها .

ثم كثرت أشغال سمـو الأمـير فيصـل «ولي العهـد الآن» وأنيطـت إليـه مهـام الأعمال فكثرت أسفاره ، فأناب عنه في الحكم على الحجاز ابنـه صـاحب السـمو الملكي «الأمير عبد الله» وزير الداخلية سابقاً ، وكانت إقامته ومحل حكمه مكة ، فبذلك صار أيضاً من حكام مكة وأمرائها ومكث كذلك إلى سنة (١٣٧٧) .

ثم تولى بعده إمارة مكة سمو الأمير متعب بن عبدالعزيز آل سعود ، وذلـك في العاشر من ذي القعدة سنة (١٣٧٨) هجرية ، ثم تولى بعده إمارة مكة سمو الأمـير عبدالله بن سعود آل سعود وذلك في اليوم التاسع عشر من شعبان سـنة (١٣٨٠) هجرية . ثم تولى بعده إمارة مكة سمـو الأمـير مشـعل بـن عبدالعزيـز آل سـعود في الحادي عشر من شهر رمضان سنة (١٣٨٢) ، ثم تعين بعده سمو الأمـير فـواز بـن عبدالعزيـز أمـير منطقـة مكـة المكرمـة ، ووكيلـه أخـوه سمـو الأمـير أحمـد بـن عبدالعزيز[2] .

انظر: صورة رقم ٢٩٢ ، الملك عبدالعزيز رحمه الله يوم تسلمه مدينة جدة من الحاج عبد الله علي رضا

(٢) ثم عين الأمير ماجد بن عبد العزيز آل سعود أميراً لمنطقة مكة المكرمة ونائبه الأمير سعود بن عبد المحسن بـن عبد العزيز آل سعود ، وعين سمو الأمير أحمد بن عبد العزيز آل سعود نائباً لوزير الداخلية .

ولاة مكة من الأتراك

تقدم ذكر أمراء مكة من العرب والأشراف منذ عهد رسول الله ﷺ إلى الآن . وهنا نذكر ولاة مكة من الأتراك من قبل الدولة العلية العثمانية التي حكمت الحجاز والبلدان الإسلامية ثم زال حكمها عنها بعد الحرب العظمى التي انتهت في سنة (١٣٣٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة .

فأمير مكة من الأشراف وواليها التركي من قبل الدولة العثمانية كانا يحكمان مكة والحجاز ، كل منهما في ما يتعلق باختصاصه ، وذلك في العهد العثماني ، فلما استقل الحجاز أصبح لمكة حاكم واحد فقط ، يتصرف في جميع شؤونها وشؤون غيرها من البلدان الحجازية .

ولم نر أحداً من المؤرخين ذكر ولاة مكة من الأتراك سوى المؤرخ الشيخ عبدالله الغازي ، فإنه ذكر أسماءهم في آخر الجزء الثالث من تاريخه المسمى « إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام » وإليك نص كلامه :

قال الغازي رحمه الله تعالى : (الفصل الثاني في ذكر ولاة مكة المشرفة من طرف الدولة العثمانية) ...

إعلم أني تتبعت كثيراً ذكر ولاة مكة المشرفة من طرف الدولة العثمانية ، من بعد ما فتح السلطان سليم مصر ، فما وجدت أحداً ذكره مستوعباً غير ما ذكر صاحب « السالنامة الحجازية » أسماء الولاة فقط مع ذكر تاريخ ولايتهم إلى سنة (١٣٠٤) أربع وثلاثمائة وألف هجرية .

وذكر العلامة الحضراوي في تاريخه ، الولاة الذين تولوا ولاية مكة بعد خروج الدولة المصرية من الحجاز إلى سنة (١٣٠٠) ثلاثمائة وألف من الهجرة ، فذكر أولاً ما في (السالنامة) ثم ما ذكره الحضراوي ، ثم ما وجدناه من تحريرات بعض المعاصرين في ذكر الولاة إلى سنة (١٣٣٤) أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف ، وهذه السنة هي سنة انتهاء ولايتهم . وإليك جدولاً بأسماء ولاة مكة المشرفة :

عدد	اسم الوالي التركي	سنة الولاية الهجرية	ملحوظات
١	ترك حسين بك	٩٢٣	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٢	علي بك	٩٣٢	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٣	أوز دمّر باشا	٩٦٢	كان الحجاز ملحقاً بمصر

عدد	اسم الوالي التركي	سنة الولاية الهجرية	ملحوظات
٤	خوش كلدي بك	٩٦٧	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٥	عثمان باشا بن أوز دمر باشا	٩٧٣	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٦	قاسم بك	٩٩٦	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٧	محمود بك	١٠١٢	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٨	محمد بك	١٠٢٠	كان الحجاز ملحقاً بمصر
٩	حسين باشا	١٠٢٠	كان الحجاز ملحقاً بمصر
١٠	محمود باشا	١٠٣٣	كان الحجاز ملحقاً بمصر
١١	كورجي محمد باشا	١٠٣٥	كان الحجاز ملحقاً بمصر
١٢	آيدين باشا	١٠٣٨	كان الحجاز ملحقاً بمصر
١٣	مصطفى بك	١٠٤٠	كان الحجاز ملحقاً بمصر
١٤	دلاور بك	١٠٤٦	كان الحجاز ملحقاً بمصر
١٥	مصطفى بك	١٠٥٢	
١٦	قيطاس بك	١٠٦٠	
١٧	محمد بك	١٠٦٦	
١٨	مصطفى باشا	١٠٦٦	كان مقره سواكن
١٩	سليمان بك	١٠٦٧	
٢٠	عماد الدين أفندي	١٠٧٥	
٢١	يوسف بك	١٠٧٧	
٢٢	محمد بك	١٠٧٨	
٢٣	حسين باشا	١٠٧٩	
٢٤	محمد سعيد باشا	١٠٨٢	
٢٥	أحمد باشا	١٠٩٥	
٢٦	تبردار سليمان باشا	١٠٩٦	
٢٧	كتخدا إسماعيل باشا	١٠٩٦	لم يصل
٢٨	ايكنجي دفعة سليمان باشا	١٠٩٧	
٢٩	محمد بك	١٠٩٨	

عدد	اسم الوالي التركي	سنة الولاية الهجرية	ملحوظات
٣٠	أحمد بك	١١٠٣	
٣١	بيقلي باشا	١١٠٤	
٣٢	مصرلي أحمد بك	١١٠٧	
٣٣	سليمان باشا	١١١١	
٣٤	حسن باشا	١١١٩	
٣٥	محمد محسن باشا	١١٢٠	ملفون بجدة
٣٦	خزينة دار إسماعيل آغا	١١٢٢	
٣٧	إبراهيم باشا	١١٢٢	
٣٨	كتخدا خليل باشا	١١٢٦	
٣٩	حسن باشا	١١٢٦	
٤٠	وزير علي باشا	١١٣٤	ملفون بجدة
٤١	جاوش باشي بكر باشا	١١٣٤	
٤٢	إسماعيل باشا	١١٣٦	
٤٣	إيكنجي دفعة بكر باشا	١١٣٧	
٤٤	صدر أسبق محمد باشا	١١٤٠	
٤٥	وزير أبو بكر باشا	١١٥٨	
٤٦	يكن مصطفى باشا	١١٥٩	
٤٧	وزير عثمان باشا	١١٥٩	
٤٨	صدر أسبق محمد باشا	١١٦٣	لم يصل
٤٩	إيكنجي دفعة عثمان باشا	١١٦٣	ملفون بجدة
٥٠	كتخدا مصطفى آغا	١١٦٣	
٥١	أبو بكر باشا	١١٦٥	لم يصل

عدد	اسم الوالي التركي	سنة الولاية الهجرية	ملحوظات
٥٢	صدر أسبق سيد محمد باشا	١١٦٥	مدفون بجدة
٥٣	صدر أسبق عبدا لله نائلي	١١٧١	مدفون بالمعلاة
٥٤	وزير سعد الدين باشا	١١٧٢	
٥٥	مصطفى باشا	١١٧٣	
٥٦	صالح باشا	١١٧٥	
٥٧	سيد أحمد باشا	١١٧٩	
٥٨	وزير محمد راقم باشا	١١٨١	
٥٩	صدر أسبق حمزة باشا	١١٨٣	
٦٠	خليل باشا	١١٨٨	مدفون بجدة
٦١	دفتر دار عثمان باشا	١١٨٩	
٦٢	بابلسي أحمد باشا	١١٩١	
٦٣	مصطفى باشا	١١٩٩	
٦٤	أغريبوزي محمد باشا	١٢٠٠	مدفون بعرفات
٦٥	بو ليلى أحمد باشا	١٢٠٠	
٦٦	محمد عزت باشا	١٢٠٣	
٦٧	صدر أسبق قوجه يوسف	١٢٠٧	مدفون بالمدينة
٦٨	شيخ زاده إبراهيم باشا	١٢١٥	
٦٩	محمد طوسون باشا	١٢١٦	مدفون بجدة
٧٠	محمد شريف باشا	١٢١٧	مدفون بجدة
٧١	أبو مراق محمد باشا	١٢١٨	
٧٢	جلبي أحمد باشا عثمان	١٢٢١	

عدد	اسم الوالي التركي	سنة الولاية الهجرية	ملحوظات
٧٣	مصرلي طوسون باشا	١٢٢٧	
٧٤	مصرلي إبراهيم باشا	١٢٣٢	
٧٥	لاز علي باشا	١٢٥٦	لم يصل
٧٨	تاتار عثمان باشا	١٢٥٧	مدفون بجدة
٧٩	شريف باشا	١٢٦١	
٨٠	حسيب باشا	١٢٦٥	
٨١	أكاه باشا	١٢٦٧	
٨٢	دلتلو عزت باشا	١٢٦٩	
٨٣	كامل باشا	١٢٧٠	
٨٤	محمود باشا	١٢٧٣	
٨٥	دلتلو نامق باشا	١٢٧٤	
٨٦	كوتاهية لي علي باشا	١٢٧٥	
٨٧	حقي باشا زاده عزت باشا	١٢٧٨	
٨٨	وجيهي باشا	١٢٨١	مدفون بالطائف
٨٩	معمرّ باشا	١٢٨٤	
٩٠	خورشيد باشا	١٢٨٧	
٩١	فريق قاسم باشا	١٢٨٨	
٩٢	محمد رشيد باشا	١٢٨٩	
٩٣	شرواني رشدي باشا	١٢٩١	
٩٤	دولتلو تقي الدين باشا	١٢٩١	
٩٥	حالت باشا	١٢٩٤	
٩٦	ناشد باشا	١٢٩٦	
٩٧	صفوت باشا	١٢٩٧	
٩٨	عزت باشا	١٢٩٨	
٩٩	عثمان باشا	١٢٩٩	
١٠٠	جميل باشا	١٣٠٤	

عدد	اسم الوالي التركي	سنة الولاية الهجرية	ملحوظات
١٠١	دولتلو صوت باشا	١٣٠٤	

إلى هنا انتهى الجدول بأسماء ولاة الأتراك ، ثم قال الغازي ، رحمه الله تعالى ، بعد انتهاء هذا الجدول ما نصه :

وقال العلامة الحضراوي رحمه الله تعالى ، في تاج تواريخ البشر في ذكر ولاة مكة وجدة من الباشوات ، من طرف الدولة العثمانية بعد خروج الدولة المصرية وانقضاء مدتهم من الحجاز ، ما يأتي :

أول من سمي بوالي جدة هو «الحاج عثمان باشا» وكان أصله من أهل القرم ، فساس الناس وسكن جدة ، وسيّر أمره لتعمير المآثر ، وانتظام خدمة الحرم المكي حتى أنه أمر بعمارة مسجد الحبر عبدالله بن عباس بالطائف ، وجدد قبته بعد تخريبها سنة (١٢٦٠) هجرية ، وبنى قبة السيدة خديجة ، وأمر بترخيم المسجد الحرام ، وبنى قبة أمنا حواء وقبرها ، وعمّر قلعة الطائف وقلعة رابغ ، وبنى سور المعلاة المحيط بالمقبرة وعمّر سور جدة وجملة مآثر .

وكان ابتداء ولاية هذا الباشا سنة (١٢٥٧) فمكث يسوس الناس ، ويتألف أهل مكة ويكرمهم ، إلى أن توفي سنة (١٢٦٠) بجدة ودفن بها .

ثم تولى بعده «الحاج محمد شريف باشا» كان سابقاً شيخ الحرم النبوي بالمدينة المنورة ، فجاءته الأوامر السلطانية بالتوجه إلى مكة المشرفة ، وكان رجلاً جيداً صالحاً خيّراً يحب الفقراء والعلماء .

ثم ذكر الحضراوي في تاريخه المذكور ، نبذة عما فعله الوالي الحاج محمد شريف باشا ، وذكر أيضاً عما قام به من الأعمال كل والٍ تركي تولى مكة فرداً فرداً. ولقد أردنا أن ننقل هنا نص كلامه ، لكن رأينا أن نقتصر كلامه ونلخصه في جدول كالجدول السابق الذي في تاريخ الغازي ، فإن ذلك أجمل في المنظر وأكثر فائدة للقارئ الكريم ، فالتطويل مما يوجب السآمة والملل ، ومن أراد الوقوف على زيادة البيان فعليه بمطالعة التاريخ المذكور .

وإليك الجدول الذي رتبنا فيه خلاصة كلام الحضراوي رحمه الله تعالى .

جدول بأسماء ولاة مكة وجدة من الأتراك

ملخصاً كل ذلك من تاريخ العلامة الحضراوي المسمى «تاج تواريخ البشر» الذي هو مذكور في الجزء الثالث من تاريخ الغازي :

عدد	اسم الوالي التركي	نبذة صغيرة عما قام به من الأعمال
١	الحاج عثمان باشا	تولى سنة (١٢٥٧) وبقي والياً إلى أن توفي بجدة سنة (١٢٦٠) وهو أول من سُمي بوالي جدة ، وكان يسوس الناس سياسة حسنة .
٢	الحاج محمد شريف باشا	تولى سنة وفاة المذكور ، وبقي والياً حتى توفي بينبع سنة (١٢٦٤) عن ثمانين سنة ، وكان رجلاً فاضلاً صالحاً يحب الفقراء والعلماء .
٣	الحاج محمد حسيب باشا	تولى بعد وفاة المذكور ، ثم عزل سنة (١٢٦٦) فتوجه إلى الآستانة وقد قام بأعمال جليلة بمكة ، وكان أحياناً يدور بنفسه في شوارعها لتفقد الأحوال .
٤	أكاه محمد باشا	قدم مكة وتولاها بعد المذكور سنة (١٢٦٦) وقد بنى مع الشريف عبدالمطلب القلاع التي في طريق المدينة ، ثم عزلته الدولة العثمانية .
٥	أحمد عزت باشا	الأزرقنلي تولى آخر سنة (١٢٦٦) ومكث والياً إلى أوائل سنة (١٢٧١) ثم عزلته الدولة العثمانية لعدم اتفاقه مع أمير مكة الشريف عبدالمطلب .
٦	كامل باشا	تولى بعد المذكور ، كان من دهاة الرجال لكنه لم يكن متفقاً مع أمير مكة الشريف عبدالمطلب فعزلته الدولة في أواخر سنة (١٢٧٣) .
٧	المشير محمود باشا	تولى بعد المذكور ، وكان من قبل والياً للأقطار اليمنية فلما جاء مكة قضى حوائج أهلها وصرف لهم جراياتهم ، ثم عزل في سنة (١٢٧٤) .
٨	محمد نامق باشا	قدم مكة في السنة المذكورة ، وفي أيامه وضع دائراً لقناديل بأروقة المسجد الحرام ، وفي مدته حصلت

عدد	اسم الوالي التركي	نبذة صغيرة عما قام به من الأعمال
		الفتنة بين أهل جدة ومن فيها من النصارى .
٩	علي باشا الكتهيلي	قدم مكة سنة (١٢٧٦) وكان كثير الطواف ، وكان يحب توفير المال للخزينة ولذلك ثار عليه بعض الجند فهجموا على مدرسته ، عزل سنة (١٢٧٨) .
١٠	عزت باشا	تولى بعد المذكور ، وكان يلقب بالموسوس فإنه كان يتوضأ بخمسة أباريق ، وفي مدته غلت الأسعار وحصل الوباء ، عزل سنة (١٢٨١) .
١١	محمد وجيهي باشا	تولى بعد المذكور ، كان يحب تعمير القلاع فعمّر قلعة مكة وقلعة الطائف والأبراج ، توفي بالطائف سنة (١٢٨٣) عن ثمانين سنة .
١٢	محمد معمّر باشا	قدم مكة في السنة المذكورة ، كان كثير التواضع يطوف وحده كآحاد الناس ، وكان لا يعرف أن يسوس الأمور لذلك قدم استقالته للدولة فولته على أنقرة .
١٣	خورشيد باشا	قدم مكة في أوائل شهر شوال سنة (١٢٨٧) ، كان عالماً فاضلاً يحب أهل العلم ، عمّر قلعة الطائف وجعل فيها مسجداً عزل سنة (١٢٨٨).
١٤	قاسم باشا	دخل مكة في السنة المذكورة بموكب جميل وضربت له المدافع ، كان فاضلاً يعاقب أهل الرشوة والغش وانتبه للأسعار فرخصت في مدته الأسعار جداً عزل سنة (١٢٨٩).
١٥	محمد رشيد باشا	قدم مكة في شعبان من السنة المذكورة ، وفي أيامه غلت بعض أسعار الحاجيات ، وهو الذي جدد سور مقبرة المعلا عزل عن مكة سنة (١٢٩١) .
١٦	محمد رشدي باشا الشيرواني	قدم مكة في آخر جمادى الثانية من السنة المذكورة ، وهو داغستاني الأصل ، كان يحب العلماء وأهل الخير ، توجه إلى الطائف وتوفي هنالك في السنة المذكورة .

عدد	اسم الوالي التركي	نبذة صغيرة عما قام به من الأعمال
١٧	محمد تقي الدين باشا	قدم مكة في آواخر شوال سنة (١٢١٩) كان من أهل حلب وكان عالماً تولى هنالك الإفتاء، ثم حصل منه طمع في أهل مكة فعزل سنة (١٢٩٤).
١٨	محمد حالت باشا	قدم مكة في أواخر شهر القعدة من السنة المذكورة، كان فاضلاً ديناً يحب أهل العلم ويكرم أهل الفضل، توفي بجدة سنة (١٢٩٦).
١٩	محمد ناشد باشا	تولى بعد المذكور فأقام أكثر من سنة واحدة ثم طلب الإقالة حيث لم يتفق مع أمير مكة فأعفته الدولة سنة (١٢٩٧).
٢٠	محمد صفوت باشا	تولى بعد المذكور وحج سنة (١٢٩٨) وكان عاقلاً وحازماً، ولما لم يتفق مع شريف مكة عزلته الدولة العثمانية.
٢١	أحمد عزت باشا	وقد سبق ذكره حين تولى لأول مرة وهذه المرة الثانية لولايته مكة، قدم إليها في أواخر شهر ذي الحجة سنة (١٢٩٨) ثم طلب بنفسه الإقالة من الدولة.
٢٢	عثمان نوري باشا	كان أولاً بالطائف ثم ولّته الدولة على مكة فعرف كيف يدير الولاية بعزمه وحزمه، وقد سبق ترجمته في فصل مستقل، ثم عزلته الدولة سنة (١٣٠٤).
٢٣	حسين جميل باشا	وهو ابن نامق باشا، وصل مكة في أوائل سنة (١٣٠٥)، مكث بمكة نحو أربعة أشهر ثم عزلته الدولة.
٢٤	صفوت باشا	وقد تقدم ذكره عند توليته للمرة الأولى على الحجاز وهذه هي المرة الثانية، مكث قليلاً ثم عزلته الدولة.
٢٥	نافذ باشا	قدم مكة سنة (١٣٠٦) وكان فاضلاً محباً للخيرات وقد أزال كثيراً من المنكرات والمكوس وغير ذلك، ثم عزلته الدولة.
٢٦	إسماعيل حقي باشا	ويعرف بصاحب الذقن الطويلة، وفي مدته حصل بعض الفتن بسبب مسألة الرقيق، فعزلته الدولة

عدد	اسم الوالي التركي	نبذة صغيرة عما قام به من الأعمال
		العلية .
٢٧	عثمان نوري باشا	المتقدم ذكره ، كان بحلب فوصل مكة بعد تعيينه والياً عليها سنة (١٣٠٩) وقد كتبنا ترجمته في فصل خاص ، ثم عزلته الدولة أيضاً .
٢٨	أحمد راتب باشا	تولى ومكث بمكة سنة وشيئاً ثم عزل سنة (١٣١١).
٢٩	حسن حلمي باشا	وصل مكة سنة (١٣١٢) وبقي بها نحو سنة وشيئاً ثم عزلته الدولة .
٣٠	كاظم باشا	قدم مكة مستهل رمضان سنة (١٣٢٦) وكان المذكور قومندان فرقة الحجاز العثماني ، ثم إنه في سنة (١٣٢٧) عزلته الدولة .
٣١	فؤاد باشا	تولى بعد المذكور ثم عزلته الدولة .
٣٢	كامل باشا	وصل مكة من اليمن في جمادى الآخرة سنة (١٣٢٨) ثم إنه طلب الإقالة من وظيفته فأقالته الدولة سنة (١٣٢٩) .
٣٣	حازم بك	وصل مكة في النصف من ربيع الثاني سنة (١٣٢٩) وكان قد خرج لاستقباله أمير مكة وأعيانها ثم في سنة (١٣٣٠) عزلته الدولة .
٣٤	مصطفى ذهني باشا	تولى مكة بعد المذكور فوصلها وقد استقبلوه استقبالاً حافلاً ، ثم عزلته الدولة .
٣٥	رشيد باشا	كان والياً بالموصل ، ثم وصل إلى مكة في اليوم الثاني من ذي الحجة سنة (١٣٣٠) ثم عزلته الدولة .
٣٦	أحمد نديم باشا	قدم مكة في شعبان سنة (١٣٣١) ثم عزلته الدولة في عام (١٣٣٢) ، وقد كان قبل توليته مكة والياً بتليس .
٣٧	وهيب باشا	تولى في السنة المذكورة ، وكان مير ألاي أركان حرب ، وقد عمل بعض إصلاحات خفيفة بمكة وجدة والطائف والليث ثم في محرم سنة (١٣٣٣)

عدد	اسم الوالي التركي	نبذة صغيرة عما قام به من الأعمال
		صدرت إليه الأوامر السنية بالتوجه مع المجاهدين ، من أهل الحرمين ، الذين اجتمعوا لحرب الكفار ، إلى قناة السويس ، فتوجه مع من معه إلى هنالك (وهذا أيام الحرب العظمى) .
٣٨	غالب باشا	تعين والياً على الحجاز فوصل من الآستانة إلى المدينة المنورة بطريق السكة الحديدية الحجازية ، وكان معه نحوا خمسة آلاف من الجند التركي النظامي ، وذلك في إمارة الشريف حسين بن علي ، الذي قام على الأتراك فيما بعد واستقل بالحجاز ، فخشي الشريف الحسين نفوذ غالب باشا وسلطته بجيشه النظامي ، فحرض العربان على القيام بالفتنة وقطع الطريق ، فبقي غالب باشا بالمدينة المنورة نحو شهرين ، ثم جاء إلى مكة صحبة الشريف علي بن الحسين ، وكان غالب باشا يتوجس خيفة من الشريف الحسين ، وأنه سيقوم ضد الأتراك ، فما كان من الشريف الحسين إلا أن حلف له أنه من المخلصين في حب الدولة العثمانية ، فصدّق الوالي غالب باشا، ثم طلع إلى الطائف مع جند الحجاز ، وبقي هنالك إلى أن قام الشريف الحسين بالثورة ضد الأتراك في التاسع من شعبان سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وألف ، وقد حاصر الطائف الشريف الأمير عبدا لله بن الشريف الحسين أربعة أشهر حتى نفذت الأطعمة ، فسلم البلدة غالب باشا إلى الشريف عبدا لله ، فهذا أرسله مع الجنود الأتراك أسراء إلى والده الشريف الحسين بمكة ، فأرسلهم الشريف الحسين من مكة إلى جدة وسلمهم إلى الحكومة الإنكليزية ، وهي أرسلتهم إلى مصر . فيكون غالب باشا المذكور هو آخر ولاة الحجاز ، من طرف الدولة العثمانية .

انتهى كل ما ذكرناه من آخر الجزء الثالث من تاريخ الغازي.

نقول: إنه ينتهي بالوالي غالب باشا المذكور حكم الأتراك من الحجاز بل من كافة البلدان الإسلامية، كما ينتهي حكم الأشراف من الحجاز بالشريف الحسين بن علي، رحمه الله تعالى، ملك الحجاز الأسبق، حيث حكم الحجاز الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود، رحمه الله تعالى، سنة (١٣٤٣) ثلاث وأربعين وثلاثمائة وألف هجرية. فالأمر لله من قبل ومن بعد.

وتفسير كلمة «باشا» وكلمة «بك» مع الأسماء المذكورة، كالاسم «غالب باشا» والاسم «أحمد بك»، هما كلمتان من الألقاب الحكومية التركية، تعطيه لبعض الرجال الأكابر والوزراء، وكلمة باشا أكبر من كلمة بك، وهذه الكلمة بكسر الباء وسكون الكاف. وهاتان الكلمتان مشهورتان في زماننا ومن قبل زماننا لا تحتاجان إلى تفسير، وإنما نحن فسرنا معناهما ليعرفهما أهل الأجيال المقبلة.

التعليم في مكة المكرمة

نذكر هنا نبذة صغيرة عن أمور التعليم بمكة المكرمة، في الزمن الحاضر، أي منذ أوائل سنة (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة هجرية، أما ما قبل هذا التاريخ فنحن لم ندركه، ولم نر شيئاً من المؤلفات في ذلك، مع اعتقادنا أنه لا يخلو زمن من الأزمان عن التعليم في جميع البلدان، فنقول وبالله تعالى التوفيق: إن سكان مكة المكرمة لم يكن يتجاوز عددهم خمسين ألفاً، مع الأغراب المجاورين فيها، وربما كان أقل من العدد المذكور، وذلك من سنة (١٣٠٠) من الهجرة وما قبلها. وكان حدود السكن في مكة المشرفة وامتداد البيوت فيها كما يأتي: تمتد البيوت من المسجد الحرام إلى المعلا فقط أي إلى مقبرة المعلا، وقليل من العرب يسكنون فوق ذلك أي في محلة المعابدة. وتمتد البيوت من المسجد الحرام أيضاً إلى المسفلة، أي إلى بركة ماجن فقط، وتمتد البيوت أيضاً من المسجد الحرام، عن طريق الشبيكة، إلى حارة الباب وإلى ريع الرسام إلى (بستان) الشريف عون التي بعد هذا الريع بقليل، ويتفرع من ريع الرسام طريق إلى جرول، وهذا مسكن التكارنة يبنون العشاش ويسكنون فيها، وبعضهم يبنون عشاشهم بجهة المسفلة ويسكنون فيها مع بعض فقراء الهنود، وبعضهم يتخذ مسكنهم من الصندقة، وهي عبارة عن

اتخاذ أعواد الخشب ، ثم يسمرون فيها صفائح التنك بعد فتحها وإصلاحها ، فيجعلون من الصندقة جدران بيوتهم وسقوفها ، ويفتحون فيها الشبابيك ويجعلون فيها الأبواب ، كل ذلك من التنك وأعواد الخشب ، ثم يبطنونها من الداخل بالحصير المسمى عندنا (الخسف) .

وتمتد البيوت أيضاً من المسجد الحرام إلى أجياد . ومن هنا يعلم أن رقعة مكة ومساحة المسكون منها كانت قليلة صغيرة ، وما اتسعت إلا بعد سنة (١٣٦٠هـ) .

وكان التعليم في سنة ألف وثلاثمائة وما قبلها في الحرمين الشريفين وما جاورهما من المدن والقرى ضعيفاً جداً ، وذلك في عهد الأتراك العثمانيين ، فكان في مكة المكرمة ، التي هي أعظم مدن الحجاز ، المدرسة الرشدية وهي أحسن مدرسة في وقتها ، وكان التعليم فيها باللغة التركية وقليل باللغة العربية . ولقد دامت هذه المدرسة بمكة إلى سنة (١٣٣٤) هجرية ، وهي السنة التي انتهى فيها حكم الأتراك في الممالك العربية ، حيث في هذه السنة أخرج الشريف الحسين بن علي ، رحمه الله تعالى الأتراك من الحجاز ، وتولى هو حكم الحجاز ونودي به ملكاً عليها ، وكان مع المدرسة الرشدية التركية بعض المدارس الأخرى الابتدائية ، أنشئت بعد سنة (١٣٠٠) . كما كانت بمكة بعض الكتاتيب الصغيرة لتعليم القرآن الكريم وحفظه ولتعليم القراءة والكتابة ولتعليم مبادئ الإملاء والحساب.

ومن هنا يعلم أن الناس كانوا في جهالة إلا القليل ، وهم الذين يشغلون الوظائف الحكومية والأعمال التجارية . وكان جميع الأشراف بمكة والمتعلمون من أهل البلاد ، يعرفون اللغة التركية قراءة وكتابة ، وما زالت البقية الباقية منهم يعرفونها إلى يومنا هذا ، وكانوا في الوظائف الحكومية وأعمالهم التجارية ، يستعملون أقلام القصب أي البوص ، ويكتبون بالحبر الأسود فقط ، وكانت عندهم الدوايات المختلفة وأدوات الكتابة ، وكانوا ينشّفون الحبر ، من فوق الأوراق والدفاتر برمل ملون أحمر وأزرق وأصفر ، يأتي خاصاً لهذا الأمر من الخارج ، ثم لما اخترعوا الورق النشّاف ، كانو ينشّفون الأوراق بهذا الورق النشّاف ، فلما ظهرت في الأسواق أقلام الريش ، بفتح الياء التحتانية جمع ريشة ، وهي من بعض المعادن صاروا يستعملونها ، وتركوا استعمال أقلام القصب . وداموا على هذا الحال إلى سنة (١٣٤٢) هجرية ، فلما شاع استعمال أقلام الجيب

بعد هذه السنة المذكورة ، ترك الناس استعمال أقلام القصب وأقلام الريش واستعاضوا عنها بأقلام الجيب والحبر الأزرق ، وهذا من سنّة الكون في التطورات . وإليك المدارس التي كانت موجودة في ذلك الوقت :

(١) المدرسة الخيرية للشيخ محمد بن حسين الخياط ، وهو من علماء مكة المشرفة . وقد توفي ببلاد جاوه سنة (١٣٣٢) هجرية ، وكان رحمه الله تعالى ، عالماً فاضلاً يحب نشر العلم والمعارف ، ولم نقف متى أسس مدرسته المذكورة ، والذي يظهر لنا أنه أسسها حوالى سنة (١٣١٥) هجرية ، والله تعالى أعلم ، وهذه المدرسة هي التي حوّلها الشريف الحسين بن علي ، بعد أن استقل بالملك ، فسماها المدرسة الراقية.

(٢) والمدرسة الفجرية.

(٣) ومدرسة الزراعية ، وهي التي أنشأها الشريف الحسين وأحضر لها أساتذة من بيروت ، ولكنها لم تدم.

(٤) والمدرسة الصولتية .

(٥) ومدرسة الفلاح . ويأتي بعد هذه المدارس الكتاتيب التي كانت موجودة إلى آخر عهد الشريف الحسين بن علي رحمه الله تعالى.

(٦) أما المدرسة الأندونيسية الموجودة في وقتنا الحاضر والتي مقرها الآن بمحلة القرارة ، فهي مدرسة أهلية حديثة فقد تأسست في سنة (١٣٤٦) هجرية ونرجو لها دوام التوفيق . وها نحن نتكلم عن الكتاتيب أولاً ، ثم عن مدرستي الفلاح بمكة وجدة ، لعظيم نفعهما للبلاد ، إلى يومنا هذا ، فنقول وبالله تعالى التوفيق ومنه نستمد العون والسداد ، إنه هو الفتاح العليم والعزيز الحكيم .

أسباب انتشار الكتاتيب في الزمن السابق

والذي نراه في كثرة انتشار الكتاتيب ، لتعليم الصبيان مبادئ القراءة والكتابة ، في مكة وفي غيرها منذ قرن مضى ، سببها راجع لأربعة أمور :

الأول : قلة السكان وعدم انتشار التعليم العالي في البلاد .

والثاني : قلة مصاريف الكتاتيب ونفقاتها ، إذ يكفي للكتاب الواحد أستاذ أو أستاذين ، ولا يحتاج لخادم ، لأن التلامذة في الزمن السابق كانوا يقومون بالخدمة ،

كما كان أجودهم في القراءة والكتابة يساعد أستاذهم بتعليم إخوانه ، وكانوا يسمونه العريف أو ريّس الفرقة .

والثالث : وهذا أمر مهم جداً ، لم يكن في الزمن السابق تأخذ الحكومة من الغريب الذي يريد الإقامة في بلد رسماً سنوياً على إقامته ، بل كان الغريب إذا أراد الإقامة بأحد الحرمين الشريفين لا يمنع من ذلك ، ولا تطالبه الحكومة بدفع رسم على إقامته . ومن هنا كان بعض فضلاء الأعراب ، كالمصريين والسودانيين والمغاربة يقيمون في مكة أو في المدينة ويفتحون الكتاتيب لتعليم أبناء البلاد القراءة والكتابة ، وتحفيظ القرآن الكريم ، وبعض علمائهم يرغب في التدريس بالمسجدين الحرامين بمكة والمدينة ، فيحضر في دروسهم كثير من الناس حلقات حلقات فينتفعون بعلمهم .

والرابع : وهذا أمر مهم أيضاً ، إذا أراد فتح كتّاب أو فتح مدرسة لا يحتاج إلى استئذان من الحكومة ، بل إنه يجد من جميع أهل البلاد مساعدة وإقبالاً وتقديرا .

وكان منذ صدر الإسلام كتاتيب لتعليم الصبيان القراءة والكتابة والقرآن الكريم والخط والإملاء والحساب بمكة المكرمة . ونذكر بعض الكتاتيب وأسماء أصحابها ممن وقفنا عليهم أي من أول سنة (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة هجرية تقريباً ، وهي كما يأتي :

(١) كتّاب الشيخ سليمان النوري رحمه الله تعالى .

(٢) كتّاب الشيخ سليمان فرج الغزاوي الخطاط رحمه الله تعالى ، فلما فتحت مدرسة الفلاح بمكة ، توظف فيها خطاطاً ، وبقي فيها حتى مماته .

(٣) كتّاب الشيخ عبدالله حمدوه السناري ، رحمه الله تعالى ، فلما فتحت مدرسة الفلاح بمكة انتقل إليها فكان فيها مديراً حتى مات .

(٤) كتّاب الشيخ حسن السناري وهو ابن خالة الشيخ عبدالله حمدوه السناري المذكور ، فلما فتحت مدرسة الفلاح بمكة انتقل إليها ، فكان رئيس قسم تحفيظ القرآن الكريم ، ولم نر قط من هو أشد حزماً وصرامة وقسوة على تلامذته ، مع عظيم صلاحه وتقواه ، وحفظ القرآن العظيم لا يصلح إلا عند مثله ، فإنه لا يعرف المزاح ولا اللعب رحمه الله تعالى رحمة الأبرار .

(٥) كتّاب الشيخ فرج بن عبدالله السوداني رحمه الله تعالى .

(٦) كتّاب الشيخ إبراهيم خلوصي الحلواني ، كان محله في باب الزيادة ، وكان يعلّم الخط والإملاء والحساب ، وكانت له معرفة تامة بعلم الحساب ، حتى ألف فيه رسالتين فريدتين ، وفقه الله تعالى ، آمين .

هذا وكان بمكة كثير من الكتاتيب في محلة المسفلة وفي محلة جرول لبعض أهل السودان والتكارنة ، كما كان في المسجد الحرام بعض الكتاتيب أيضاً ، أما العلوم الأخرى فكان فيه كثير من كبار العلماء من أهل مكة وغيرها ، وحلقات دروسهم كانت عامرة مليئة ، نسأل الله تعالى أن يصلح أحوالنا بفضله ورحمته .

وجميع البلاد الإسلامية على اختلاف ألسنة أهلها وألوانهم كانت عامرة بالكتاتيب منذ صدر الإسلام إلى اليوم وبالأخص البلاد المصرية والبلاد المغربية .

وهنا نبدأ بذكر شيء عن وجود الكتاتيب منذ صدر الإسلام ، وذكر بعض المدارس الأهلية الشهيرة بمكة المكرمة في زماننا فنقول وبالله التوفيق :

التعليم في المسجد الحرام وعلماؤه

لما كان المسجد الحرام هو المنتدى العام بمكة المكرمة للعبادة والتعليم ، لا بد لنا أن نذكر ما كان له من الأثر العظيم في انتشار العلوم الشرعية والعلوم العربية في عصرنا الحاضر ، وما أدركناه وعرفناه فيه منذ طفولتنا ونشأتنا . أما ما كان له من الأثر في العبادة ، وما كان فيه من أهل الصلاح والتقوى والولاية بالمعنى الصحيح ، فهذا أمر لا يختلف فيه اثنان ولله الحمد ، ولا تزال العبادة فيه قائمة منذ بدء الإسلام إلى يوم القيامة .

أما من الناحية التعليمية فيه ، فنقول وبالله تعالى التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم :

المسجد الحرام أخرج من رجال الدين والعلم والصلاح ، منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا ، الشيء الكثير الوفير ، وكان لهم من الشأن والبروز ما لو أطلقنا القلم لطال بنا البحث ، ولكن لا بد من ذكر نبذة هنا ، إننا قدمنا أن الأطفال كانوا يتعلمون في المسجد الحرام القراءة والكتابة والخط والحساب ، ثم منعوا من ذلك صيانة للمسجد الحرام من لعبهم ، وهم أطفال صغار لا يعرفون حرمة

المساجد تمام المعرفة ، واعتماداً على ما ظهر في أطراف المسجد الحرام من الكتاتيب وبعض المدارس.

أما تعليم العلوم الدينية والعربية من التفسير والحديث والفقه ، على المذاهب الأربعة ، وعلوم البلاغة والنحو والصرف وغير ذلك ، فقد كان المسجد الحرام هو محط الآمال في ذلك ومنبع العلوم والعرفان ، إذ لم يكن بمكة المشرفة مدارس ومعاهد للعلم غيره إلى أن ظهرت مدرسة الصولتية بحارة الباب ومدرسة الفلاح بالقشاشية وغيرهما ، وذلك من بعد سنة (١٣١٥) ألف وثلاثمائة وخمس عشرة هجرية . ولقد كانت حلقات الدروس في المسجد الحرام كثيرة ، ويبدأ التدريس فيه من بعد صلاة الفجر وانفلاق نور الصباح إلى بعد صلاة العشاء ، ولا يقلّ طلاب كل حلقة من الدروس عن أربعين طالباً ، وبعض الحلقات يبلغ طلابها مائة نفس .

وكان فيه من دروس المشايخ ما يأتي ونذكرهم بدون ترتيب :

١) درس السيد زيني دحلان .
٢) درس السيد عبدالله زواوي .
٣) درس الشيخ عمر باجنيد .
٤) درس الشيخ سعيد يماني .
٥) درس الشيخ علي مالكي .
٦) درس السيد صالح شطا .
٧) درس شيخنا الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي .
٨) درس شيخنا الشيخ زيدان الشنقيطي .
٩) درس الشيخ عمر حمدان .
١٠) درس الشيخ محمد العربي الجزائري .
١١) درس الشيخ عباس مالكي .
١٢) درس الشيخ جمال مالكي .
١٣) درس شيخنا الشيخ عيسى رواس .
١٤) درس شيخنا الشيخ أحمد ناضرين .
١٥) درس السيد علوي مالكي .
١٦) درس السيد أمين كتبي .

١٧) درس الشيخ حسن مشّاط .
١٨) درس الشيخ عبدالله خياط .
١٩) درس الشيخ عبدالله بن عمر بن دهيش رئيس المحاكم الشرعية بمكة المكرمة .
٢٠) درس الشيخ يحيى أمان .
٢١) درس الشيخ سالم شفي (بفتح أوله وكسر ثانيه) .
٢٢) درس الشيخ محمد نور سيف .
٢٣) درس الشيخ أحمد قاري .
٢٤) درس الشيخ حسن يماني .
٢٥) درس الشيخ محمد أمين فودة .
٢٦) درس الشيخ محمد الطيب المراكشي .
٢٧) درس السيد بكر حبشي .
٢٨) درس السيد إبراهيم النوري .
٢٩) درس الشيخ عبد الحميد حديدي .
٣٠) درس الشيخ عبدالله حداوي (بكسر الحاء المهملة) .
٣١) درس السيد محمد المرزوقي أبو حسين .
٣٢) درس الشيخ بكر بابصيل .
٣٣) درس الشيخ محمد نور فطاني .
٣٤) درس الشيخ سراج ششّة ، بكسر الشين المعجمة الأولى وفتح الثانية وتشديدها .
٣٥) درس السيد محمد حامد المصري ، وكان هذا أول مدير لمدرسة الفلاح بمكة المكرمة عند بدء تأسيسها .

فبعض هؤلاء المشايخ أحياء ، وفقهم الله تعالى للخيرات ، وبعضهم قد ماتوا ، رحمهم الله تعالى رحمة الأبرار ، فقد أدركنا أكثرهم ، وهم من علماء مكة الفضلاء ، الذين قد نفع الله بعلمهم المسلمين ، ولا نريد ذكر من سبقونا بالإيمان ، منذ سنين طويلة ، من علماء مكة المكرمة من القرون السابقة ، فإن ذلك مما يطول شرحه ، وربما ننسى بعضهم ، فنكون بذلك نسيء إليهم من غير قصد . الحاصل جزى الله تعالى أمرتنا خير الجزاء ، وبارك في حياة من بقي وزادهم توفيقاً وإحساناً آمين .

ولكل من هؤلاء العلماء عدة مؤلفات من علوم شتى وإن منهم من تخصّص بالتدريس في المسجد الحرام ، ومنهم من كان يدرّس فيه وفي المدارس والمعاهد ، ومنهم من كان يشغل القضاء ، جزاهم الله تعالى خير الجزاء .

فالمسجد الحرام كان ولا يزال منبع الدين والعلم والتقوى والصلاح ، وكان عامراً حقاً بدروس العلماء الأعلام ليلاً ونهاراً منذ قديم الأزمان ، كانوا يفدون إلينا من جميع الأقطار الإسلامية ، كمصر والشام واليمن والعراق وحضرموت والمغرب وبلاد شنقيط ، حتى في عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود الذي حكم الحجاز في سنة (١٣٤٣) ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين هجرية . وقد خصصت الحكومة السعودية مرتبات للمدرسين في المسجد الحرام ، فهذا المسجد الشريف لا يخلو في كل وقت من نشر العلم فيه إلى اليوم وإلى قيام الساعة ، ولو أنه في وقتنا يعدّ التدريس فيه قليلاً بالنسبة للأزمان السابقة ، التي رأيناها . ويوجد لبعض علمائنا تآليف خاصة في ذكر علماء مكة المشرفة وتراجمهم .

هذا ما تذكرناه من علماء مكة المشرفة ، من أول قرننا هذا ، الرابع عشر الهجري إلى اليوم ، أما العلماء الذين تقدموا قبل هذا القرن فقد ذكرهم غيرنا في بعض المؤلفات رحمهم الله تعالى ، وهناك اليوم بعض العلماء ممن لا يحبون الظهور ولا التدريس كالشيخ عبدالله غازي صاحب تاريخ مكة المخطوط رحمه الله تعالى ، والسيد محمد أحمد شطا ، والسيد عبدالرحمن حمزة المرزوقي ، والشيخ عبدالملك بن عبدالله بن دهيش ، والشيخ صالح جمال الحريري ، والشيخ عبدالله دردوم ، والشيخ علي يماني وغيرهم ، وفق الله تعالى الجميع للخيرات والأعمال الصالحة آمين .

أول بعثة تعليمية حكومية بمكة

لم يكن إرسال البعوث من الطلبة إلى الخارج ، للتعليم في شتى أنواع العلوم والفنون والصناعات ، معروفاً عندنا قط ، بل كان بعضهم إذا سافر إلى مصر أو غيرها ، يأخذ معه ولده الناشئ الذي قد تعلم مبادئ العلوم ، وبعد أن يكون له من العمر فوق الخمس عشرة سنة ، وكان هذا يقع نادراً جداً ، فممن سافروا مصر للتعليم السيد طاهر الدباغ رحمه الله تعالى فقد تعلم في مدارس الاسكندرية ، ثم حضر إلى مكة المكرمة في سنة (١٣٢٨) ألف وثلاثمائة وثمان وعشرين هجرية .

والشيخ أحمد زهر الليالي ، فإنه كان في الأزهر الشريف بالقاهرة في سنة (١٣٤٠) ألف وثلاثمائة وأربعين هجرية ، وكذلك مؤلف هذا الكتاب محمد طاهر الكردي الخطاط فقد أخذه والده رحمه الله تعالى ، إلى مصر ، وذلك في سنة (١٣٤٠) ألف وثلاثمائة وأربعين هجرية بعد أن تخرج من مدرسة الفلاح بمكة المكرمة ، أخذه فجعله في الأزهر الشريف بالقاهرة . ولا نتذكر الآن غير هؤلاء الثلاثة ولا يبعد أن يكون هناك غيرهم . إن الناس عندنا ما كانوا قد اعتادوا مفارقة أبنائهم وإرسالهم إلى الخارج للتعليم ، ثم اعتادوا ذلك بالتدريج شيئاً فشيئاً بعد سنوات ، حتى إن بعضهم اليوم يرسل أطفالهم إلى الخارج للتعليم ، ولكن نحن لا نستحسن إرسال الأولاد إلى الخارج إلا بعد نشأتهم في أوطانهم ، وأخذ الشهادة الابتدائية على الأقل ، وذلك حتى لا ينسوا عاداتهم القومية .

فأول بعثة حكومية سافرت من مكة المكرمة إلى مصر للتعليم ، وكانت في سنة (١٣٤٦) ألف وثلاثمائة وست وأربعين هجرية ، وذلك في أوائل عهد الحكومة السعودية . ونحن كنا قبل هذه السنة بسنوات في مصر نتعلم في الأزهر الشريف ، وكانت هذه البعثة مؤلفة من أهل مكة ومن غيرهم ، وحيث أنها أول بعثة من عندنا ، فلا بد من ذكر أسمائهم ، وهم كما يأتي:

عدد	الأسماء	البلدة
١	السيد محمد شطا	مكة
٢	عبدالله باحنشل	مكة
٣	محمد باحنشل	مكة
٤	جميل داود	مكة
٥	فؤاد وفا	مكة
٦	عمر قاضي	مكة
٧	محمد رضا	مكة
٨	صادق دحلان	مكة
٩	عبدالله باخطمة	مكة
١٠	حسين الخطيب	مكة
١١	عبدالله الفضل	مكة
١٢	السيد أحمد العربي	المدينة
١٣	السيد ولي الدين أسعد	المدينة
١٤	حمزة نايل	المدينة
١٥	إبراهيم محي الدين برادة	المدينة
١٦	محمد سعيد الدفتردار	المدينة
١٧	عمر نصيف	جدة
١٨	جميل متولي	جدة
١٩	محمد عبد الرواف	جدة
٢٠	عبدالرحمن البسام	جدة
٢١	عبد القادر محتسب	جدة
٢٢	عبدالله ناظر	جدة

عدد	الأسماء	البلدة
٢٣	يوسف الهاجري	نجد
٢٤	مهنا المعيد	نجد
٢٥	إبراهيم الهاجري	نجد
٢٦	عبدالعزيز المعمر	نجد
٢٧	عبدالله المعمر	نجد
٢٨	حمد العبدلي	نجد
٢٩	عبد الملحوق	نجد
٣٠	عبدالله الطريقي	نجد

هذه الأسماء والشخصيات المحترمة، هي أول بعثة سعودية أرسلت من مكة المشرفة إلى مصر المحروسة ومعذرة إن نسينا بعضهم لمرور سنوات طويلة على ذلك، ثم تقاطرت البعثات من عندنا إلى بعض البلاد العربية والإفرنجية، وما زالت البعثات من مملكتنا ترسل إلى الخارج إلى يومنا هذا، ولولا خوفنا من تطويل الكلام لطلبنا من وزارة المعارف إعطاءنا أسماء أعضاء جميع البعوث مع صورهم وشيئاً من تراجمهم، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى بذل جهود وتخصيص وقت ونحن ولا نملك ذلك.

ولصديقنا العزيز الأستاذ صالح جمال الحريري رسالة خاصة في هذا الموضوع اسمها (من وحي البعثات السعودية) قد أتى على بعض البعثات وأسماء أعضائها إلى سنة (١٣٦٨) ألف وثلاثمائة وثمان وستين هجرية، مع تسجيل صور أعضائها، فعسى أن وزارة المعارف تقدره وتشجعه وتمدّه بأخبار البعثات فيما بعد، مع بيان أسمائهم وإعطاء صورهم الفوتوغرافية ليعمل الأستاذ جمال الحريري رسالة ثانية للبعثات تكون ملحقة بالرسالة الأولى. والله الموفق للصواب.

أول بعثة تعليمية أهلية بمكة

لقد ذكرنا فيما تقدم أن المحسن الكبير الحاج محمد علي زينل، هو مؤسس مدارس الفلاح أدام الله عليه النعم والصحة والعافية وأمده بالتوفيقات والأعمال الصالحات. هذا الرجل، رضي الله تعالى عنه وعنا لم يغفل يوماً واحداً عن مدارسه، التي أسسها منذ نشأتها إلى يومنا هذا، وإنه حفظه الله تعالى، وأمده بالخيرات، يحب مسايرة التطورات الحديثة، الملموحة في كل وقت وحين. إنه غفر الله لنا وله، وبارك لنا في حياته الغالية، لم يكتف بمسائل التعليم في مدارسه فقط، بل أراد أن يضرب للأمة بأسرها المثل الأعلى في التضحية والإنفاق على تعليم الدين والعلوم العربية والفنون النافعة، فأمر حفظه الله تعالى، القائمين بأمر

مدرسة الفلاح بمكة المكرمة في سنة (١٣٤٨) ألف وثلاثمائة وثمان وأربعين هجرية أن ينتخبوا بضعة أشخاص من طلبتها المتخرجين منها فيرسلوهم إليه، إلى مقر عمله التجاري في بومباي بالهند، كبعثة أولى على نفقته الخاصة، فأرسلوهم إلى الهند في السنة المذكورة، وكان ذلك في عهد الشيخ عبدالله حمدوه السناري، رحمه الله تعالى.

فكان من أعضاء هذه البعثة الأهلية: السيد إسحاق عزوز، السيد حسن كتبي، السيد سامي كتبي، الشيخ حمزة عجاج، الشيخ محمد عبدالماجد، وغيرهم ممن لا نتذكرهم الآن، ولا زالت هذه المدرسة ترسل إلى اليوم في كل عام، بعثة من متخرجيها إلى معاهد العلم في الخارج، فجزى الله تعالى الحاج محمد علي زينل مؤسس مدارس الفلاح عن نشر العلم خير الجزاء، وأسبغ نعمه ظاهرة وباطنة، وجعله في الدنيا والآخرة من أهل الفوز والسعادة والفلاح آمين.

ذكر الأطباء من أبناء مكة المكرمة

لم يتعلم أحد من أبناء مكة المكرمة ولا من أبناء الحجاز فن الطب، في الأزمان المتقدمة، فلم يكن أحد منهم طبيباً في البلاد الحجازية ولا في غيرها، وكان الأطباء في الحرمين الشريفين في العهود السابقة، إما من الأتراك أو من المصريين أو من السوريين فقط، فلما تولى الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود رحمه الله تعالى على الحجاز، وانتشر التعليم في جميع المملكة العربية السعودية، وأرسلت البعوث إلى خارج المملكة للتعليم تخصص بعض أبناء البلاد في فن الطب والجراحة في مختلف الأمراض، فتخرج كثير من أبناء البلاد في فن الطب ومارسوا أعمالهم في نفس مملكتنا.

لقد كنا طلبنا من سعادة وكيل وزارة الصحة أن يخبرنا بأسماء الأطباء السعوديين في عصرنا الحاضر، فأرسل لنا مشكوراً كشفاً بأسمائهم وهو كما يأتي:

الإسم	الجنسية	المؤهلات
صاحب المعالي الدكتور يوسف الهاجري	سعودي	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة القاهرة.
صاحب السعادة الدكتور يوسف الحميدان	سعودي	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة القاهرة.

الإسم	الجنسية	المؤهلات
الدكتور هاشم صالح الدباغ	سعودي	دبلوم أمراض المناطق الحارة من لندن.
الدكتور أحمد مدحت الجابي	سعودي بالتجنس	أخصائي أسنان من جامعة دمشق.
الدكتور سيف الدين الشيككلي	سعودي بالتجنس	دكتور في الطب كلية الطب سوريا (دمشق).
الدكتور محمد أمين مقيم	سعودي بالتجنس	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة فؤاد الأول.
الدكتور سميح الحق	سعودي بالتجنس (الهند)	بكالوريوس طب وجراحة من باكستان.
الدكتور سليمان عبدالقادر فقيه	سعودي (مكة)	دبلوم الأمراض الباطنية العامة من جامعة عين شمس .
الدكتور محمد فرج الله ونرنه	سعودي (مكة)	بكالوريوس في الطب والجراحة جامعة الإسكندرية .
الدكتور عبدالعزيز كامل كردي	سعودي	بكالوريوس في الطب والجراحة من جامعة القاهرة .
الدكتور عبد الستار العلمي	سعودي	دكتور في طب الأسنان .
الدكتور هشام سلمي	سعودي بالتجنس	دبلوم في الطب من الجامعة الأمريكية.
الدكتور أحمد شاهد الطباع	سعودي بالتجنس	دكتور في الطب من المعهد الطبي العربي السوري .
الدكتور واصل رسلان	سعودي بالتجنس	اختصاصي الطب من جامعة برلين بألمانيا.
الدكتور أحمد عارف الشلبي	سعودي بالتجنس	دكتوراة في الطب من الجامعة السورية بدمشق .
الدكتور بشير صقر	سعودي بالتجنس	دكتوراة في الطب من الجامعة السورية بدمشق .

الإسم	الجنسية	المؤهلات
الدكتور حيدر الحجار	سعودي بالتجنس	دبلوم طب وجراحة من جامعة فؤاد الأول .
الدكتور حسين محمد شوكل	سعودي	أخصائي أمراض النساء والولادة من جامعة عين شمس.
الدكتور محمد عبداللطيف ملك	سعودي بالتجنس	دبلوم جراحة وطب بكالوريوس معاينة بجامعة لاهور .
الدكتور سعيد عبدالله رباح	سعودي بالتجنس (دمشق)	دكتور في الطب الجامعة السورية .
الدكتور هاني الحمصي	سعودي بالتجنس	شهادة دكتور في طب الأسنان وجراحتها المعهد الطبي العربي السوري .
الدكتور محمد شريف كبد الدين الخيري	سعودي بالتجنس	أخصائي أنف وحنجرة من جامعة لندن.
الدكتور محمد عبدالعزيز نمير طاشكندي	سعودي	دبلوم مخصص في العيون من جامعة الإسكندرية .
الدكتور رمضان سعد البدري	سعودي بالتجنس	بكالوريوس طب وجراحة وبكالوريوس علوم .
الدكتور سعد الطوخي	سعودي بالتجنس	دبلوم تخصص في العيون من جامعة القاهرة .
الدكتور أحمد عبدالعزيز داغستاني	سعودي	بكالوريوس طب وجراحة من مصر .
الدكتور سعيد سبع مجاهد	سعودي بالتجنس	أخصائي الطب من جامعة تولوز ودبلوم الصحة من نفس الجامعة.
الدكتور عبد القادر حسان	سعودي	أخصائي طب وجراحة من جامعة القاهرة .
الدكتور محمد محسن خان	سعودي بالتجنس	أخصائي أمراض صدرية من لندن.
الدكتور محمد شفيق أبو	سعودي	بكالوريوس صيدلة من جامعة القاهرة.

الإسم	الجنسية	المؤهلات
لبن		
الدكتور أحمد إبراهيم زاهر	سعودي بالتجنس	أخصائي أمراض نساء وولادة من الإسكندرية .
الدكتور محمد مهدي الباجي	سعودي	أخصائي جراحة من جامعة عين شمس .
الدكتور توفيق التميمي	سعودي بالتجنس	خريج كلية علوم على درجة بكالوريوس في الطب والجراحة من جامعة عين شمس .
الدكتور محمد إبراهيم العمارة	سعودي	أخصائي أمراض باطنية من جامعة الإسكندرية .
الدكتور صالح زكي مصطفى	سعودي بالتجنس	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة فؤاد الأول بمصر .
الدكتور سراج صالح ملائكة	سعودي	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة القاهرة .
الدكتورة ملك رويحي	سعودية	شهادة في الطب ودبلوم في الصيدلة .
الدكتور هشام بشير الرومي	سعودي	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة القاهرة .
الدكتور محمد عطاء ا لله صديقي .	سعودي بالتجنس	M.B.B.S من جامعة الكهونر
الدكتور أحمد علي عبدالعزيز الباكستاني	سعودي	أخصائي جراحة من جامعة الإسكندرية.
الدكتور محمود عمر فطاني	سعودي	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة عين شمس .
الدكتور جلال محمد آشي	سعودي	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة عين شمس ودبلوم في المناطق الحارة .
الدكتور شيخ زين العابدين	سعودي	أخصائي جراحة .
الدكتور عبدا لله عبدالكريم أركوبه	سعودي	أخصائي أشعة .

الإسم	الجنسية	المؤهلات
الدكتور حسن بهاء الدين قرملة	سعودي	طب وجراحة من مصر .
الدكتورة لطيفة مسعود	سعودية بالتجنس	دبلوم أمراض النساء والولادة من دبلن بإنجلترة .
الدكتور أسامة محمد الراضي	سعودي	بكالوريوس الطب والجراحة من الجامعة المصرية.
الدكتور محمد سعيد الشورى	سعودي	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة القاهرة.
الدكتور عبدالله سلتي مناع	سعودي	أخصائي أسنان من جامعة الإسكندرية.
الدكتور عبد اللطيف كامل كردي	سعودي	بكالوريوس الطب والجراحة من جامعة القاهرة.
الدكتور محمود علي الرفاعي	سعودي	بكالوريوس طب وجراحة من جامعة عين شمس .
الدكتور عصام محمد علي خوقير	سعودي	أخصائي أسنان .
الدكتور أحمد هاشم الدين المدني	سعودي	خريج كلية طب أسنان من جامعة بغداد .
الدكتور محمد سعيد مصطفى بدر الدين	سعودي	خريج كلية الطب بالقصر العيني .
الدكتور أمين عبدالله سراج	سعودي	أخصائي أنف وأذن وحنجرة من جامعة عين شمس .
الدكتور محمد أحمد العيشي	سعودي	بكالوريوس طب وجراحة جامعة عين شمس .
الدكتور صديق محمد الخولاخ	سعودي	بكالوريوس الطب والجراحة من جامعة الإسكندرية .
الدكتور جميل محمود خطاب	سعودي	بكالوريوس في الطب والجراحة من جامعة القاهرة .
الدكتور محمد عبدالوهاب	سعودي	طب وجراحة اختصاص عيون من

الإسم	الجنسية	المؤهلات
بجراوي .		جامعة عين شمس .
الدكتور عباس أحمد قزاز	سعودي	متخصص طب وجراحة من جامعة الإسكندرية .
الدكتور عبدا لله إسحاق الهاجري .	سعودي	طب وجراحة من جامعة القاهرة .
الدكتور عبدالهادي قاري عبدا لله طاشكندي.	سعودي	بكالوريوس طب من جامعة استنبول تركيا.
الدكتور غلام قادر فريشي	سعودي بالتجنس	خريج كلية الطب الأميرية ببنجاب باكستان .
الدكتور سندي ياسين بخيت .	سعودي بالتجنس	دكتور طب وجراحة الأسنان من الجامعة السورية .
عمر أسعد	من المدينة المنورة	هذا الإسم لم يذكر في كشف أسماء الأطباء الذي ورد إلينا من وزارة الصحة لكن نحن ذكرناه .
الدكتور حسن نصيف	من مكة المكرمة	» » » » » » » »
الدكتور حامد هرساني	من مكة المكرمة	» » » » » » » »
الدكتور عبداللطيف صلاح جمجوم .	من جدة	» » » » » » » »
الدكتور عبدالرحمن كشميري.	من مكة	» » » » » » » »
الدكتور عبدالرحمن النحاوي.	من جدة	» » » » » » » »
الدكتور رشاد كلكتاوي	من مكة	» » » » » » » »
الدكتور سلطان زمزمي	من مكة	» » » » » » » »
الدكتور عبدالكريم بخشي	من مكة	» » » » » » » »

هذه الأسماء التسع الأخيرة سقطت سهواً من كشف وزارة الصحة، ونحن وضعناها فيه .

لقد ذكرنا أسماء أطبائنا الذين تخرجوا من كليات الطب ويزاولون هذه المهنة الشريفة النافعة، والآن أحببنا أن نذكر هنا أيضاً من يدرس الطب من أبناء بلدتنا الطاهرة المقدسة، ولم يكملوا إلى اليوم دراساتهم، فهم أطباء المستقبل، إن شاء الله تعالى، وإليك أسماءهم في هذا الجدول :

عدد	الأسماء	ملحوظات
١	علي محمد شطا	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في القاهرة
٢	رشاد حكيم	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في القاهرة
٣	صافي عقيل جفري	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في القاهرة
٤	يحيى عبدالله حجازي	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في القاهرة
٥	عصام قدسي	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في القاهرة
٦	عبدالعزيز مظهر	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في القاهرة
٧	مسعود سجيني	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في القاهرة
٨	خديجة الفردوس	من مكة المكرمة، تدرس الطب الآن في القاهرة
٩	ممدوح بديع	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في الباكستان
١٠	حسن حسين عبدالغني	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في الباكستان
١١	أحمد فهمي بكير	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في الباكستان
١٢	صديق محمد سندي	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في الباكستان
١٣	نوال محجوب شيخ	من مكة المكرمة، تدرس الطب الآن في الباكستان
١٤	صالح سبحي	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في ألمانيا
١٥	طلال بخش	من مكة المكرمة، يدرس الطب الآن في ألمانيا

هذا ما بلغنا عمن يدرسون الطب من أبنائنا الآن في الخارج، نرجو لهم حياة طيبة، ومستقبلاً زاهراً، وخدمة موفقة لبلادهم، وربما كان هناك غيرهم لكن لم يبلغنا عنهم شيء حتى نذكرهم هنا، فنرجو منهم المعذرة .

الدكتور عبد القادر عبد المجيد

الدكتور عبد القادر عبد المجيد، هو مصري فاضل، يشتغل عندنا بمكة المكرمة بمستشفى الزاهر، وهو وكيل لمدير المستشفى. إنه طبيب نطاسي ماهر، يحمل شهادة بكالوريوس الطب والجراحة، يقصده الكثير من المرضى لمهارته وإخلاصه ودماثة أخلاقه، ونحن نذكره هنا رغم أنه ليس من أطباء بلادنا، عرفاناً بجميله وتقديراً لخدماته لنا خاصة، وخدماته لمكة المكرمة عامة. لقد حدث علينا مرض قوي مفاجئ في منتصف سنة (١٣٨٣) هجرية بتصلب في شرايين المخ، مع مرض السكر، بصورة قوية، فأحضره إلينا بعض أصحابنا، فقام بمعالجتنا بإخلاص وأمانة مدة سنتين، وما زال يعالجنا إلى وقتنا الحاضر، أي إلى سنة (١٣٨٥) هـ من نفس المرضين المذكورين حتى منّ الله تعالى علينا بالشفاء، بفضله ورحمته مع تكرار سؤاله عنا بالتليفون إن لم يحضر بنفسه.

فنحن اعترافاً وتقديراً لخدماته واستقامته التامة، نسجل اسمه الكريم مع شكرنا له، سائلين الله عز وجل أن يديم عليه الصحة والعافية والنعم الوافية، وأن يوفقه لخدمة الناس عامة، وأهل الحرمين خاصة، وأن يسعده وذريته في الدارين، إنه سميع مجيب.

كما نشكر صديقنا الفاضل الدكتور عباس كرارة المصري طبيب الأسنان في عنايته التامة بمعالجة أسناننا، وخدمته لنا بإخلاص تام، أكثر الله تعالى من أمثالهما، وأدام عليهما نعمه ورضاه، آمين.

أسماء بعض مؤلفات علماء مكة المكرمة وأدبائها في وقتنا الحاضر

أحببنا أن نذكر هنا بعض المؤلفات المطبوعة وغير المطبوعة للعلماء والأدباء من أهل مكة المكرمة في وقتنا الحاضر فقط. وليس ذكر هذا المؤلفات من قبيل الحصر، لأن حصر المؤلفات لحضراتهم تحتاج إلى الإتصال بهم جميعاً، وليس في قدرتنا ذلك الآن لمرضنا، وإنما أحببنا ذكر هذه المؤلفات للعلم بها في الجملة، من باب ما لا يدرك كُنْهُه لا يترك جله، فعسى أن تلحقنا دعوة من أصحاب هذه المؤلفات القيمة، فنسعد بها في حياتنا وبعد مماتنا -فنقول وبالله التوفيق- إليك جدولاً فيه بعض أسماء المؤلفات الحجازية وأصحابها، من غير مراعاة في الترتيب:

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
١	فضيلة شيخنا العلامة المحدث الشهير الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي توفي بالقاهرة بمصر، رحمه الله تعالى، في سنة (١٣٦٣) هجرية. أما أخوه الشيخ محمد الخضر الشنقيطي، فقد توفي رحمه الله تعالى، بالمدينة المنورة في سنة (١٣٥٤) هجرية.	كان رحمه الله تعالى مدرساً بالمسجد الحرام ردحاً من الزمن، ثم انتقل من سنة (١٣٤٣) هجرية من مكة المكرمة إلى مصر القاهرة، فاختارته مشيخة الأزهر المعمور مدرساً في معاهدها، وفي مسجد سيدنا الحسين رضي الله تعالى عنه، فكانت حلقات دروسه عامرة بالطلبة والفضلاء، وله كثير من المؤلفات القيمة: منها: «زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم». ومنها: «إيقاظ الأعلام لوجوب اتباع رسم المصحف الإمام». ومنها: «شرحه لموطأ الإمام مالك». ومنها: «نظمه في أمراء المؤمنين في الحديث». ومنها: «نظمه في علم المعاني والبيان والبديع وكل ذلك مطبوع بمصر». ومنها: «هداية الرحمن لما ثبت في الدعاء المستعمل في ليلة النصف من شعبان» وهو مطبوع. ومنها: «منظومة دليل المسالك على موطأ مالك» وهو مطبوع. ومنها: «إبراز الدر المصون على جوهر المكنون، في علم البلاغة». ومنها: «أنوار النفحات شرح نظم الورقات، في الأصول». ومنها: «شرح نفيس على منظومةَ في علم السيرة».

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
		ومنها : « زبدة المسالك للإجازة في روايات موطأ مالك » .
		ومنها : « التحفة المحازة منظومة في أحكام الإجازة ، مع شرحه لها » .
		ومنها : « كنز المطالع في شرح ألفاظ الدرر اللوامع » .
		ومنها : « الجواب المحرّر في أخبار عيسى والمهدي المنتظر » .
		ومنها : « شرح على سلم الأخضري في المنطق » .
		ومنها : « إكمال السنة باتصال سند المصافحة المدخلة للجنة » وهو مطبوع .
		ومنها : « فتح القدير المالك في شرح ألفاظ موطأ مالك » غير تام .
		ومنها : « البهجة المرضية على شرح الألفية للسيوطي » غير تام .
		ومنها : « سواطع الجمان في علم التصريف » غير تام .
		ومنها : « مرتقى الوصول إلى علم الأصول » غير تام .
		ولشيخنا المذكور رحمه الله تعالى رحمة الأبرار ، مؤلفات عديدة ، غير ما ذكر ، وديوان قيم لم يشتهر ، فجزاه الله تعالى عن المسلمين خير جزاء . وله غير ذلك من المؤلفات التي لا أحفظ اسمها الآن .
		وكان له أخ أكبر منه وأخ أصغر منه: فأخوه الكبير اسمه الشيخ محمد الخضر ، وكان مفتي المدينة المنورة ردحاً من الزمن، رحل عن

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
		المدينة المنورة إلى الأردن، فمكث هناك بضع سنوات ، ثم رأى رؤيا يأمره رسول الله ﷺ في المنام بالرجوع إلى المدينة المنورة مرة ثانية ، وأنه يموت بها بعد وصوله إليها بقليل ، كما حكى لنا ذلك بنفسه ، وقد كان فإنه بعد وصوله إلى المدينة بعدة أشهر توفي ودفن هناك ، رحمه الله تعالى. وكان علاّمة زمانه ، له من المؤلفات القيمة : « استحالة المعيّة بالذات » وهو كتاب عظيم في التوحيد ، وله كتاب « لزوم الطلاق الثلاث دفعة » وهما مطبوعان بمصر . وله غير ذلك . لا نتذكر منها إلا ما يأتي : – شرح على متن البخاري ، توفي رحمه الله تعالى ولم يكمله . – شرح على متن خليل الفقهي على المذاهب الأربعة ، توفي رحمه الله تعالى ولم يكمله . – رسالة في الاجتهاد والتقليد المسماة : قمع أهل الزيغ والعناد . وهي مطبوعة . – رسالة في الطلاق البدعي. وهي مطبوعة. أما أخوه الثالث فاسمه الشيخ محمد العاقب له عدة مؤلفات ، منها منظومته القيمة المسماة « كشف العمى » . وكلهم كانوا يحفظون القرآن الكريم بالقراءات ، رحمهم الله تعالى جميعاً .
٢	فضيلة الشيخ علي مالكي	
٣	فضيلة السيد علوي مالكي	١) مجلد كبير في الفتاوى . ٢) ديوانه الشعري الكبير . ٣) الدروس المنطقية .

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
		٤) الدروس البلاغية . ٥) الإبانة عن أصول الكهانة . ٦) رسالة في العمل بالمذاهب الأربعة . ٧) رسالة في الشطحات الصوفية . ٨) ثبت الأسانيد والمسلسلات . ٩) اللواء المفقود في إثبات وحدة الوجود. ١٠) السفينة العلوية . ١١) مواعظ دينية وتوجيهات نبوية ودروس أخلاقية . ١٢) المنهل اللطيف في أقسام الحديث الضعيف . ١٣) نيل المرام شرح أحاديث عمدة الأحكام . ١٤) إبانة الأحكام شرح بلوغ المرام من أحاديث الأحكام . ١٥) تعليق على رياض الصالحين . ١٦) رسالة من نفحات رمضان . ١٧) العقد المنظم في أقسام الوحي المعظم. ١٨) فيض الخبير وخلاصة التقرير على شرح منظومة أصول التفسير . ١٩) فتح القريب المجيب على تهذيب الترغيب والترهيب . هذه المؤلفات أخبرنا بها ابن المؤلف ، حفظهما الله تعالى ، فبعضها مطبوع وبعضها غير مطبوع .
٤	فضيلة الشيخ عبدالله خياط إمام وخطيب المسجد الحرام .	١) التفسير الميسّر ، للثلاثة أجزاء الأخيرة من القرآن العظيم . ٢) مبادئ السيرة النبوية للمدارس الابتدائية .

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
		٣) اعتقاد السلف . ٤) مقرر التوحيد للمدارس الابتدائية . ٥) أركان الإسلام الخمسة مع قسم من العبادات . ٦) الخطب في المسجد الحرام . وهي ثلاث حلقات . ٧) دليل المسلم . كل هذه المؤلفات مطبوعة ، وما يأتي غير مطبوع هو: ٨) الوصايا العشر . ٩) مواقف حاسمة . ١٠) نحو مجتمع أفضل . ١١) الإصلاح الديني في القرن الثاني عشر للهجرة .
٥	فضيلة السيد محمد أمين كتبي	
٦	السيد عبدالحميد الخطيب	١) تفسير الخطيب المكي ، مطبوع . ٢) رسالة جوهر الدين . ٣) مناجاة الله ، مجلدان . ٤) محاضرات الخطيب . ٥) إلى عموم المسلمين . ٦) أسمى الرسالات . ٧) الإمام العادل ، مجلدان .
٧	فضيلة الشيخ حسن مشاط .	هو من مكة المكرمة ، وله من المؤلفات ما يأتي: ١) إسعاف أهل الإيمان بوظائف شهر رمضان . ط. ٢) إسعاف أهل الإسلام بوظائف الحج

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
		والإحرام . ط . ٣) رفع الأستار في مصطلح الحديث .ط. ٤) التقريرات السنيّة شرح البيقونية .ط. ٥) إنارة الدجى في مغازي أهل الورى . شرح منظومة الإمام البدوي الشنقيطي . وهي مطبوعة . ٦) الجواهر الثمينة في أدلة عالم المدينة في الأصول . وهذا الكتاب لم يطبع[٣] . ٧) بغية المسترشدين في حياة الأئمة الأربعة المجتهدين . وهذا الكتاب مصدر بمقدمة في الاجتهاد والتقليد وما يلزم الإنسان المكلف في هذا العصر أن يفعله . وهذا الكتاب لم يطبع . ٨) الفرائد البهية في الحدود المنطقية . وهذا الكتاب لم يطبع . ٩) رسالة في الفرائض تسمى (التحفة السنيّة في الأحوال الأربعينية) . وهي رسالة مطبوعة . ١٠) رسالة ثبتٌ صغير يسمى الإرشاد في علم الإسناد . وهي رسالة مطبوعة .
٨	فضيلة الشيخ حسين باسلامة	١) تاريخ الكعبة المعظمة ، مجلد واحد . ٢) تاريخ المسجد الحرام ، مجلد واحد . ٣) حياة سيد العرب ﷺ ، أربع مجلدات
٩	فضيلة السيد أحمد بن أبي بكر شطا توفي سنة (١٣٢٧) هـ رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة، وهو والد السيد محمد شطا والسيد عبدالله شطا . لا ندري هل له مؤلفات أم لا .
١٠	فضيلة السيد صالح بن	هو من مكة المكرمة -وكان يدرس في

(٣) طبع أخيراً بتحقيق تلميذه عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان .

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
	بكري شطا توفي عام (١٣٦٩) هـ رحمه الله تعالى .	المسجد الحرام جهة باب الزيادة- لا ندري هل له مؤلفات أم لا .
١١	فضيلة الشيخ أحمد القاري . توفي سنة (١٣٦٩) هـ رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة ، اشتغل بالقضاء بعد التدريس ، لا ندري هل له مؤلفات أم لا .
١٢	فضيلة الشيخ أسعد الدهان . توفي سنة (١٣٣٨هـ) رحمه الله تعالى.	هو من مكة المكرمة . لا نعلم هل له مؤلفات أم لا .
١٣	فضيلة الشيخ درويش العجيمي . توفي عام (١٣٤٦هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . لا ندري هل له مؤلفات أم لا .
١٤	فضيلة الشيخ سعيد اليماني . توفي عام (١٣٥٢هـ) رحمه الله تعالى.	هو من مكة المكرمة . لا ندري هل له مؤلفات أم لا ، وهو والد الشيخ حسن يماني ، والشيخ علي يماني .
١٥	فضيلة السيد عبدالله بن محمد صالح الزواوي . توفي سنة (١٣٤٣هـ) رحمه الله تعالى مفتي الشافعية .	هو من مكة المكرمة ، له رسالة لطيفة مطبوعة عن تاريخ عين زبيدة ، ولا ندري هل له غيرها من المؤلفات أم لا .
١٦	فضيلة الشيخ عبدالرحمن سراج رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . لم نطلع على مؤلفاته ولا على تاريخ وفاته .
١٧	فضيلة الشيخ يحيى أمان . زاده الله تعالى توفيقاً وعلماً .	هو من مكة ، وله من المؤلفات ما يأتي : ١) شرح متن الإسقاطي من الفقه الحنفي. ٢) نزهة المشتاق ، شرح لُمَعْ الشيخ أبي إسحاق الشيرازي في أصول الفقه .

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
		٣) التيسير شرح منظومة التفسير للشيخ عبدالعزيز الزمزمي المكي . ٤) تهذيب الترغيب .
١٨	فضيلة الشيخ عبدالرحمن الدهان توفي سنة (١٣٣٧هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة .تولى القضاء عليها في عهد الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز الأسبق رحمه الله تعالى ، لا ندري هل له مؤلفات أم لا .
١٩	فضيلة الشيخ محمد علي بن حسين المالكي المتوفى سنة (١٣٦٨هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . وله من المؤلفات ما يأتي : ١) تحفة الخلان في علم البيان ، وهي حاشية في جزء كبير . ٢) الحواشي النقية على كتاب البلاغة للشيخ محمد طموم وزملائه . ٣) فرائد النحو الوسيمة شرح الدرة اليتيمة . ٤) تدريب الطلاب في قواعد الإعراب على طريقة السؤال والجواب . ٥) حاشية على كتاب التلطّف شرح التعرّف في علم الأصول والتصوّف . ٦) تهذيب الفروق والقواعد السنيّة في الأسرار الفقهية . وهو اختصار كتاب الفروق للعلامة القرافي . ٧) شمس الإشراق في حكم التعامل بالأوراق . ٨) انتصار الإعتصام بمعتمد كل مذهب من مذاهب الأئمة الأعلام . ٩) ردع الجهلة وأهل الغرّة في اتباع قول من يرد المطلقة ثلاثاً في مرة . ١٠) توضيح أحسن ما يقتضي وبه تحليل

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
		المبتوتة يكتفي . ١١) أنوار الشروق في أحكام الصندوق. ١٢) تحذير المسلمين من لبس البرنيطة وزي الكافرين . ١٣) طوالع الهدي والفضل بتحذير المسلمين عن الإعلام وقت الصلاة بضرب الناقوس والطبل . ١٤) القواطع البرهانية في بيان إفك غلام أحمد وأتباعه القاديانية . ١٥) الحواشي السنية على قوانين ابن جزي . ١٦) حواشي على الأشباه والنظائر . ١٧) تقريرات على همع الهوامع شرح جمع الجوامع . ١٨) تقريرات على شرح المحلى لجمع الجوامع في الأصول . ١٩) تقريرات على شرح الخضري على الألفية . ٢٠) الجواهر السنية في تنميق حكمة الدين العلية . ٢١) الكياسة في علم الفراسة . ٢٢) التنقيح في حكم التلقيح . ٢٣) المقال في رد سنية الصلاة بالنعال . ٢٤) فتاوى النوازل العصرية .
٢٠	فضيلة السيد عباس بن عبدالعزيز المالكي . المتوفى سنة (١٣٥٣هـ) رحمه الله تعالى.	هو من مكة المكرمة ، وله من المؤلفات ما يأتي : ١) تحفة الإخوان في علم البيان . ٢) الدر النضيد في علم الوضع المفيد . ٣) منسك إرشاد أهل الخبرة في مناسك الحج

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
		والعمرة . ٤) شرح على متن العروسي . ٥) تقريرات على حاشية الجفري . ٦) ديوان خطب منبرية ألقاها أيام الجمعة في المسجد الحرام .
٢١	فضيلة الشيخ محمد العربي التباني الجزائري زاده الله توفيقاً وعلماً .	هو من مكة ، وله من المؤلفات ما يأتي: ١) تحذير العبقري من محاضرات الخضري وهو جزءان . ٢) إتحاف ذوي النجابة بما في القرآن والسنة من فضائل الصحابة . ٣) محادثة أهل الأدب ، بأخبار وأنساب جاهلية العرب . ٤) مجموع ثلاث رسائل في القراءة عن الأموات . ٥) نزهة الفتيان في تراجم الشجعان . ٦) تنبيه الباحث السري إلى ما في رسائل وتعاليق الكوثري . ٧) إسعاف المسلمين والمسلمات بجواز القراءة ووصول ثوابها إلى الأموات . ٨) اعتقاد أهل الإيمان بالقرآن بنزول المسيح ابن مريم آخر الزمان . ٩) خلاصة الكلام فيما هو المراد بالمسجد الحرام . ١٠) إفادة الأخبار ببراءة سيد الأبرار .
٢٢	فضيلة الشيخ عمر باجنيد . توفي عام (١٣٥٤هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . لا ندري هل له مؤلفات أم لا .
٢٣	فضيلة الشيخ عابد بن	هو من مكة المكرمة . لا ندري هل له

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
	حسين . مفتي المالكية ، توفي سنة (١٣٤١هـ) رحمه الله تعالى.	مؤلفات أم لا .
٢٤	فضيلة الشيخ عبدالحميد قدس . توفي عام (١٣٣٤هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة ، له بعض المؤلفات لم نطلع عليها .
٢٥	فضيلة الشيخ عمر بن حمدان المغربي .	لا ندري هل له مؤلفات أم لا .
٢٦	فضيلة الشيخ عيدروس البار . توفي عام (١٣٦٧هـ) رحمه الله تعالى .	لا ندري هل له مؤلفات أم لا .
٢٧	فضيلة الشيخ جعفر بن بكر لَبَني . توفي سنة (١٣٤٢هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . وله من المؤلفات ما يأتي : ١) تاريخ عوائل مكة . ٢) رسالة في جواز الإحرام من جدة . ٣) العقود المتلألئة ، شرح أرجوزة ابن شحنة في المعاني والبيان والبديع .
٢٨	فضيلة الشيخ جمال المالكي . توفي سنة (١٣٤٩هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . لا ندري هل له مؤلفات أم لا .
٢٩	فضيلة الشيخ بكر صباغ . توفي سنة (١٣٣٧هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . لا ندري هل له مؤلفات أم لا .
٣٠	السيد حسين الحبشي (بكسر الحاء وسكون الباء). توفي سنة	هو من مكة المكرمة . لا ندري هل له مؤلفات أم لا .

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
	(١٣٣٠هـ) رحمه الله تعالى .	
٣١	فضيلة الشيخ عبدالله حدّاوي . توفي عام (١٣٧٠هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . لا ندري هل له مؤلفات أم لا .
٣٢	فضيلة الشيخ محمد سعيد أبو الخير. توفي عام (١٣٥٣هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . لا ندري هل له مؤلفات أم لا .
٣٣	فضيلة الشيخ محمد المرزوقي أبو حسين . توفي عام (١٣٦٥هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة . وكان رئيساً للمحكمة الشرعية الكبرى .
٣٤	فضيلة الشيخ محمد نور فطاني. توفي سنة (١٣٦٣هـ) رحمه الله تعالى .	هو من مكة المكرمة ، وكان تولى القضاء فيها .
٣٥	فضيلة الشيخ عيسى روّاس . توفي رحمه الله تعالى في سنة (١٣٦٥) هجرية .	هو من مكة المكرمة ، وقد قرأنا عليه رحمه الله تعالى وكان من كبار الصالحين ، ولا ندري هل له مؤلفات أم لا .
٣٦	فضيلة الشيخ أحمد ناضرين . توفي رحمه الله تعالى في سنة (١٣٧٠) هجرية .	هو من مكة المكرمة . وقد قرأنا عليه ، رحمه الله تعالى ، وتولى القضاء ، ولا ندري هل له مؤلفات أم لا .

عدد	اسم المؤلف	اسم الكتاب الذي ألفه
٣٧	فضيلة السيد محمد أحمد شطا.	وهو من مكة المكرمة ، وله من المؤلفات ما يأتي : ١) كتاب الوقف الأهلي وشرعيته . ٢) كتاب أبو مسلم الخراساني وأثره في نشوء الدولة العباسية .

هذا ما تذكرناه من علماء المسجد الحرام في عصرنا الحاضر ، فنرجو المعذرة ممن نسينا اسمه و لم نذكره هنا ، فالنسيان من الأعذار الشرعية ، فرحم الله تعالى من مضوا إلى الدار الآخرة من العلماء الأمجاد ، وبارك في حياة من بقي منهم وزادهم توفيقاً وعلماً آمين .

ولنختم هذا المبحث بالقصيدة اللطيفة التي قالها فضيلة صديقنا العلامة السيد علوي مالكي ، المدرس بالمسجد الحرام اليوم ، أدام الله تعالى عليه توفيقاته ، وأدام عليه الصحة والعافية والنعم الوافية آمين ، وهي هذه :

فلله آباء مضوا نحو ربهم ... وقد خلفوا ذكراً جليلاً مؤبدا
تحلوا بأخلاق الكتاب وسارعوا ... إلى المجد يبنون الفخار مشيدا
لقد جاهدوا في الله حق جهاده ... وقد سلكوا سبل المكارم والهدى
دعاة إلى الدين الحنيفي قادة ... بهم يقتدي من رام مجداً وسؤددا
فسل مكة الغرّاء عنهم فإنها ... تسجّل في تاريخها الفضل مسندا
وسل عنهم البيت الحرام فكم إلى ... دروسهموهن حوله حن منشدا
وسل زمزماً والركن والحجر والصفا ... عن القوم كم باتوا يثنون سجدا
وكم طوّفوا بالبيت يبكون حوله ... وكم وقفوا بالبيت كم رفعوا يدا
وكم عبدوا خلف المقام وشاهدوا ... من السر نور الله يسطع مرشدا
لقد خصّهم مولاهمو بجواره ... ففازوا بتضعيف المثوبة سرمدا
جزى الله من أجيالنا ذكر مجدهم ... ولا زال موفور الكمال مؤيدا
وصلى على المختار والآل من سموا ... إلى الفخر ما طير الحدائق غردا

انتهى بعون الله تعالى الجزء الخامس

ويتلوه الجزء السادس ، وأوله :

بعض الأدباء والشعراء بمكة في عصرنا الحاضر



المحتويات